

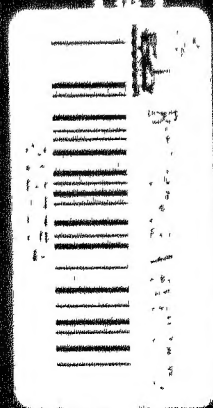
دولة لبنان الحديثة في الأندلس

تأليف
محمّد عبد الله قنّان

المعصرة الثالثة
عصر المظالم والمظالمين
في المغرب والأندلس

القسم الأول
عصر المظالمين
وبداية الدولة الموحدة

الناشر مكتبة النخاع بالناصرة



دَوْلَةُ الْأَنْدَلُسِ فِي الْعَصْرِ الْوَحِيدِ

تأليف
محمد عبد الله غنيان

العصر الثالث
عصر المرابطين والموحدين
في المغرب والأندلس

القسم الأول
عصر المرابطين
وبداية الدولة الموحدية

الناشر مكتبة النخاعي بالقاهرة

الطبعة الثانية

١٤١١ هـ = ١٩٩٠ م

مطبعة المكي
المؤسسة السعودية لمطبع
٦٨ شارع الناصية - القاهرة ١٠١ : ٨٩٧٨٥١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

حينما عولت على كتابة تلك السيرة المشجية ، الحافلة بالعبر — تاريخ الأندلس — لم يكن يجول بخاطري ، أن المهمة تقتضى حياة بأسرها ، وأن الأعوام سوف تمر تباعا ، دون أن تصل إلى غايتها . وقد مضى الآن مذ أصدرت القسم الأول من « دولة الإسلام فى الأندلس » فى سنة ١٩٤٢ ، عشرون عاما ، كرسيت خلالها ، معظم أوقاتي وجهودى ، لإتمام هذه المهمة . ومنذ اثنتى عشر عاما ، وأنا دائب التردد على اسبانيا والمغرب ، أنقب باستمرار فى مكتبتهما ، ودور محفوظاتهما ، عن كل ما يتعلق بهذه السيرة من مصادر ، ووثائق مخطوطة ، وغير مخطوطة . عربية أو قشتالية ، حتى أضحت هذه المهمة ، مهمة حياتى ، لا أدرى فى تحقيقها وسيلة ولا جهداً .

وقد استطعت خلال هذه الحقبة الطويلة ، أن أكتب تاريخ الأندلس منذ الفتح إلى نهاية دول الطوائف ، فى ثلاثة مجلدات ، وأن أكتب فى نفس الوقت تاريخ المرحلة الأخيرة من دولة الإسلام فى الأندلس ، أعنى تاريخ مملكة غرناطة حتى سقوطها ، ثم تاريخ الأمة الأندلسية المغلوبة واستشهادها المؤسى ، ومحنها الأخيرة ، بإخراج بقاياها المنتصرة من أوطانها القديمة ، وذلك فى مجلد كبير ، هو « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين » . .

وكانت الثغرة التى بقيت بين نهاية عهد الطوائف ، وقيام مملكة غرناطة ، وهى عصر المرابطين والموحدين ، وهى ثغرة تستغرق من الزمن نحو مائة وخمسين عاما — كانت تروغنى دائماً بطول مداها ، وتشعب آفاقها ، وخصوصاً بالمغرب . ولكن ، كان لابد لإتمام المهمة التى كرسيت لها بقية حياتى ، وهى تسطير تاريخ الأندلس منذ الفتح إلى النهاية ، أن أقتحم هذا الميدان الوعر ، وأن أعكف على كتابة تاريخ هذا العصر ، بالرغم من كل ما يكتنفه من صعاب ونغموض ، حتى تجبر

الثغرة ، وتتصل المراحل ، ويغدو تاريخ الأندلس ، والأمة الأندلسية ، كله ، وقد استكملت حلقاته ، منذ بدايته إلى نهايته .

وأنه ليملاً نفسى اليوم غبطة ، أننى قد استطعت بعون الله ، أن أتمم هذه المهمة ، وأن أكتب تاريخ عصر المرابطين والموحدين ، فى المغرب والأندلس ، بعد أعوام من العمل الشاق ، والجهد المتواصل ، والتنقيب المستمر ، فى مكاتب مدريد ، والإسكوريال ، والرباط ، وفاس ، والقاهرة ، ولندن ، وأكسفورد ، والفاتيكان . وقد حرصت فضلاً عن تقصى المصادر والوثائق ، على دراسة المواطن الجغرافية والإستراتيجية دراسة عملية ، فزرت بالمغرب سائر عواصمه التاريخية ، وزرت منطقة جبال الأطلس ومدينة تينملل ، مكة المهدي ابن تومرت ، ودرست طريق مسير الجيوش المرابطية والموحدية ، إلى شبه الجزيرة الإسبانية ، وزرت مواقع العبور إليها من جانبي المضيق . وأما بالأندلس فإنى لم أترك قاعدة أو مدينة أندلسية قديمة حتى زرتها ، ودرست معالمها القديمة ، وآثارها الأندلسية الباقية . وقد حرصت بنوع خاص على أن أدرس مواقع المعارك العظيمة ، التى نشبت بين الموحدين وبين اسبانيا النصرانية ، فى شنترين ، وفى شلب ، ثم الأرك ، وفى العقاب . وقد قضيت عدة أيام فى دراسة مواقع هاتين المعركتين العظيمتين الحاسمتين - الأرك والعقاب - وقمت لذلك برحلة خاصة ، طفت فيها بسهل الأرك ، ومواقع قلعة رباح القديمة . ثم قصدت إلى جبال سيرامورينا التى تفصل بين الأندلس وبين قشتالة ، وصعدت إلى آكامها ، وتجولت فى هضابها ، وطفت بسائر الأماكن التى وقعت فيها معركة العقاب ، من وعرو ومن سهل ، وهى المعركة التى سحقت فيها الجيوش الموحدية ، وانتهت بانحلال سلطان الموحدين ، وانحلال الأندلس ، ثم سقوط سائر قواعدها العظيمة ، فيما لايزيد عن ثلاثين عاماً . وكانت هذه الدراسات الجغرافية ، والطبوغرافية ، تمدنى بكثير من أسباب الإيضاح والإدراك لظروف هذه المواقع ، والنتائج التى انتهت إليها ، وتعاون على الدقة فى وصف مراحلها وتطوراتها .

وثمة مسألة أخرى جديرة بالتنويه ، وهى أن كتابة تاريخ عصر المرابطين والموحدين ، تعتبر قبل كل شئ تسطيراً لتاريخ المغرب ، ولا يشغل فيه تاريخ الإندلس سوى حيز يسير ، فقد كانت الأندلس أو شبه الجزيرة الأندلسية ، فى هذا العصر الذى استطال زهاء قرن ونصف ، ولاية مغربية ، داخل الإمبراطورية

المغربية الكبرى، المرابطية، ثم الموحدية. بيد أن حكم المرابطين، ثم الموحدين لولاية الأندلس، والظروف العسكرية، والإدارية، والاجتماعية، التي أحاطت بحكم كل من هاتين الدولتين العظمتين للأمة الأندلسية، لا يمكن أن تفهم إلا على ضوء التفاصيل الكاملة لحكم كل منهما للإمبراطورية المغربية الكبرى. ومن ثم فقد كان لازماً على أن أكتب تاريخ عصر المرابطين والموحدين بالمغرب كاملاً، بالرغم مما يحيق بهذه المهمة من صعاب لانهاية لها، سواء من الناحية الجغرافية أو القبلية، أو ناحية الاستيعاب التاريخي. وإنى لأرجو أن أكون قد وفقت إلى بعض ما طمحت إليه، من عرض تاريخ هذه الفترة الهامة من تاريخ الإمبراطورية المغربية الكبرى، في صورته الحقيقية الكاملة.

هذا مع العلم بأنى قد استعرضت في كتابي « دول الطوائف »، وهو الذي يتناول العصر الثاني من كتاب « دولة الإسلام في الأندلس »، نشأة المرابطين، وفتحهم في المغرب، وقيام الدولة المرابطية الكبرى، على يد عاهلها العظيم يوسف بن تاشفين، ثم عبور المرابطين إلى الأندلس، لإنجاد أمراء الطوائف في موقعة الزلاقة، وماتلاً ذلك من فتح المرابطين لدول الطوائف، واستيلائهم على شبه الجزيرة الأندلسية، ومن ثم فإنى لم أجد موضعاً لتكرار ما سبق أن كتبت في هذا الشأن. ولهذا فقد بدأت كتابي هذا، بالتحدث عن خاتمة عهد يوسف بن تاشفين.

وقد رأيت أن أستعرض في فصل خاص، أهم المصادر المخطوطة وغير المخطوطة، التي كانت قبل غيرها، عمادى في البحث والدرس. ومن المحقق أن هذه المصادر، بالرغم مما تقدمه إلينا أحياناً من مواد أصيلة ومعاصرة، لاشك في أهميتها ونفاستها، لا تقدم إلينا سوى القليل، ولاتعالج إلا بعض نواحي المسائل الكبرى، التي يعرضها لنا تاريخ الدولتين المرابطية والموحدية، بيد أنها من جهة أخرى تلتقي أضواء كثيرة على النواحي السياسية والإدارية لحكم المرابطين والموحدين، ولا سيما لشبه جزيرة الأندلس، فقد كانت لكل من الدولتين في حكم الأندلس، أوضاع ومبادئ خاصة.

وأود أن أشير هنا إلى أنى قد جريت في كتابة تاريخ عصر المرابطين، والموحدين، وهو العصر الثالث من كتاب « دولة الإسلام في الأندلس » - على نفس الأسلوب الذي جريت عليه في كتابة العصرين الأول والثاني، ثم الرابع

(نهاية الأندلس) ، وحرصت على أن أستعرض نظم الحكم والأوضاع السياسية والدينية ، لكل من الدولتين ، المرابطة والموحدية ، وسير الحركة الفكرية الأندلسية ، والأحوال الاجتماعية في ظل كل منهما ، وذلك بقدر ما تمدنا به المصادر والوثائق التي بين أيدينا . كما خصصت لتاريخ اسبانيا النصرانية مكانها المعتاد ، وفقاً لما جريت عليه في العصور الأخرى .

وكذلك عنت عناية خاصة بتزويد الكتاب بالخرائط التاريخية ، والرسوم الطبوغرافية ، التي تبين مواقع المعارك الكبرى ، وقد زرتها بنفسى كما تقدم ، وأرجو أن يكون في ذلك ما يسهل مهمة القارئ والباحث ، في فهم أوضاع هذه المعارك وظروفها وتطوراتها .

وقد ألحقت بنهاية الكتاب طائفة من الوثائق الهامة المرابطة والموحدية ، والوثائق الأخرى التي رجعت إليها ، ومنها ما لا يزال مخطوطاً لم ينشر بعد ، وذلك تسهيلاً لمهمة الباحثين في هذا الميدان ، في التزود بمعلومات أوفى عن الموضوعات التي تتناولها .

ولأنه لا يسعنى في الختام ، إلا أن أقدم جزيل الشكر والعرفان لسائر الهيئات العلمية والمكتبية ، التي ساهمت في تسهيل مهمتى ، في البحث والمراجعة ، والتصوير والنقل ، وفي مقدمتها معهد الدراسات الإسلامية بمدير ، ومكتبة الإسكوريال ، ومكتبة مدريد الوطنية ، وخزانة الرباط ، وخزانة جامع القرويين بفاس ، وقسم المخطوطات بالمتحف البريطاني ، والمكتبة البودلية بأكسفورد ، ودار الكتب المصرية ، فقد كان لى من ذخائر هذه الهيئات ، والمكتبات الجليلة ، خير منهل ، وخير معين لى ، في تأليف هذا الكتاب .

محمد عبد الله عياد

القاهرة في رجب سنة ١٣٨٣
الموافق نوفمبر سنة ١٩٦٣

بيان عن المصّادر

كان عصر المرابطين والموحدين ، من حيث المصادر والوثائق ، من أشقّ مراحل هذه السلسلة من تاريخ المغرب والأندلس ، التي نضطلع بكتابتها منذ أعوام طويلة ، وذلك نظراً لاستطالة مداه ، وتشعب نواحيه ، وكثرة ثغراته الغامضة . وقد بذلنا خلال الأعوام التي قضيناها في كتابة تاريخ هذا العصر ، جهوداً مضنية ، في استيعاب مصادره ، وتقصى الوثائق التي تكشف عن أحداثه وخواصه ، وقمنا في هذا السبيل بعدة رحلات إلى اسبانيا والمغرب وانجلترا . وقد رأينا أن نستعرض في هذا البيان الموجز ، أهم المصادر والوثائق المخطوطة والمنشورة ، التي كانت عمادنا في كتابة هذا التاريخ ، وسوف نعود في نهاية الكتاب ، فنخص المصادر بثبت عام شامل ، يضمها جميعاً من مخطوط ومنشور ، ومن عربية ، ولاتينية وقشتالية ، وغيرها .

كتاب « المن بالإمامة »

نستطيع أن نقول إن هذا الكتاب ، أو بالحرى القسم الذي وصلنا منه ، هو أهم مصادرها المخطوطة عن المرحلة الأولى من تاريخ الدولة الموحدية . واسمه الكامل هو حسبما جاء في الصفحة الأولى ، من المخطوط الوحيد الذي انتهى إلينا ، « كتاب تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين ، بأن جعلهم الله أئمة ، وجعلهم الوارثين ، وظهور الإمام أمير الموحدين على الملثمين ، وفي مساق ذلك خلافة الإمام الخليفة أمير المؤمنين [وأحد] الخلفاء الراشدين » . وأما مؤلفه ، فقد ورد اسمه في صفحة العنوان على النحو الآتي : « أنهى تأليفه ، وأبدع تحبيره وتصنيفه ، عبد الملك ابن محمد بن صاحب الصلاة الباجي رحمه الله » . ويحفظ هذا المخطوط بمكتبة جامعة أكسفورد المسماة « بالمكتبة البودلية » Bodleian Library ، وهو مسجل في فهرس المخطوطات الشرقية بها ، المنشور باللاتينية في سنة ١٧٨٧ في صفحة ١٦٧ ، برقم DCCLVIII (١٧٥٨) ، فهو بذلك من أقدم مخطوطاتها الشرقية . وهذا المخطوط عبارة عن مجلد ضخّم ، يقع في ١٩٤ لوحة مزدوجة ، أعنى

في ٣٨٨ صفحة كبيرة الحجم (نحو ٣٠ في ٢٠ سم) في كل منها ١٩ سطراً ، وفي كل سطر نحو تسع كلمات ، ومكتوب بخط أندلسي كبير واضح ، وهو سليم جيد الحفظ ، ما عدا ورقة الأولى فهي قديمة باهتة ، ومجلد بمجلد متين . وليس في بداية المخطوط أونهايته ما يدل على تاريخ كتابته ، ولكن يبدو من كتابته وحالته ، أنه ربما يرجع إلى القرن الثامن أو التاسع الهجري (الرابع عشر أو الخامس عشر) . ولا يضم هذا المخطوط من كتاب « المن بالإمامة » سوى « السفر الثاني » وذلك حسبما سجل في صفحة العنوان ، وحسبما ورد في ختام المخطوط على النحو الآتي : « كمل السفر الثاني من كتاب تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين وصلى الله على محمد وآله ، يتلوه الثالث بحول الله سنة تسع وستين وخمسمائة ، خبر وصول العليج الطاغية » .

ويبدو من عنوان الكتاب الذي تقدم ذكره ، أن السفر الأول منه ، يتضمن تاريخ قيام الموحدين ، وظفرهم بالتغلب على المرابطين ، وتاريخ أول خلفاء الموحدين عبد المؤمن بن علي ، وهذا السفر الأول من الكتاب لم يصل إلينا ، كما لم يصل إلينا سفره الثالث الذي أشير إليه في ختام المخطوط . وأما السفر الثاني وهو الوحيد الذي انتهى إلينا ، فيبدأ بحوادث سنة ٥٥٤ هـ ، وينتهي بحوادث سنة ٥٦٨ هـ ، وهي فترة قصيرة من الناحية الزمنية ، ولكنها حافلة بالحوادث الهامة ، التي يعرضها لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان شاهد عيان لكثير منها ، في تفصيل شاف ، على أن الأحداث التاريخية ليست أهم ما يتضمنه كتاب « المن بالإمامة » . ذلك أن أهم وأنفس ما يتضمنه الكتاب ، هو تلك المجموعة من الرسائل والوثائق الموحدية الصادرة عن الخلفاء والأمراء الموحدين ، التي ينقلها إلينا ابن صاحب الصلاة ، وتلك التفاصيل الدقيقة التي يقدمها إلينا عن نظم الحكم الموحدية ، وعن الشئون الإدارية والمالية ، وهذه الوثائق والتفاصيل تلقى أكبر ضوء على خواص الحكم الموحدي ، والدولة الموحدية .

وبالرغم من أن السفر الثاني الذي انتهى إلينا من كتاب « المن بالإمامة » ينتهي كما تقدم بحوادث سنة ٥٦٨ هـ ، وبالرغم من أن البحث لم يظفر حتى يومنا ، بالحصول على نص السفر الثالث من الكتاب ، فإننا نستطيع مع ذلك أن نعرّ بكثر من النبذ والشذور التي يتضمنها هذا السفر المفقود من الكتاب ، وقد نقلها إلينا مؤرخ متأخر هو ابن عذارى المراكشي في كتابه الجامع « البيان المغرب »

الذى سوف نتحدث عنه فيما بعد ، وهذه الشذور تمتد حتى معركة الأرك في سنة ٥٩١ هـ ، وحتى وفاة الخليفة يعقوب المنصور في سنة ٥٩٥ هـ .

ولابن صاحب الصلاة في عرض الحوادث والشئون أسلوب خاص ، جزل نوعاً ، وإن كان يلجأ أحياناً إلى السجع الركيك ، والتنميق المتكلف ، وهو يبدو سواء بأسلوبه ، أو طريقة عرضه للحوادث ، وتقديره للأشخاص ، مؤرخ بلاط أثير ، يحرص كل الحرص على الإشادة بصادته وبأعماله ، يغمرهم خلال حديثه بالألقاب الفخمة ، والدعوات الرنانة ، ولا يفوته كلما ذكر اسم الموحد أن يقرنه بقوله « أعزهم الله » ، ثم هو يلجأ أحياناً في وصف الخلفاء والأمراء إلى عبارات من المديح المسجع والملق المعرق . بيد أنه مع ذلك لا يحجم في بعض الأحيان ، عن النقد ، والتنديد بأعمال وتصرفات يراها جديرة بذلك^(١) .

وقد كان مؤلف كتاب « المن بالإمامة » من أدباء عصره وكتابه . وهو عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي ، ويكنى أبا مروان وأبا محمد ، ويعرف بابن صاحب الصلاة وبصاحب التاريخ^(٢) . وهو كما يبدو من اسمه أندلسي من أهل باجة . وفد على إشبيلية منذ نزل بها الموحدون ، واتخذوها عاصمة لولاية الأندلس ، واتصل بالبلاط الموحدى منذ البداية ، وخدم فيه كاتباً وشاعراً ، وكان ضمن الوفود التي لقيت الخليفة عبد المؤمن حين زيارته لحبل طارق في سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) . وقد عني ، وهو من أهل باجة ، وهي المنطقة التي قامت بها ثورة ابن قسى وأنصاره المريدين ، بأن يؤلف كتاباً عن « ثورة المريدين » ، وهو كتاب يشير إليه في غير موضع من « المن بالإمامة » ولكنه لم يصل إلينا . وقد وصفه ابن عبد الملك في « الذيل والتكملة » بقوله : « وكان أديباً محسناً ، عني بحفظ التواريخ وتقييدها ، وصنف « تاريخ ثورة المريدين بالأندلس » و« دولة بنى عبد المؤمن ، ومن أدرك بحياته من بني »^(٣) ، ومن الواضح أنه يعنى بذلك كتاب « المن بالإمامة » . ولم يقدم لنا أحد من تعرض

(١) مثال ذلك ما ورد في حديثه عن غزوة ونذة التي قام بها الخليفة أبو يعقوب يوسف ، ثم عن غزوة شنتين التي انتهت بمصرع الخليفة المذكور (ص ٩٧ و ١٣٤ و ١٣٥ من القسم الثالث من البيان المغرب) .

(٢) كتاب التكملة لابن الأبار (المكتبة الأندلسية) رقم ١٧٢٦ .

(٣) كتاب « الدليل والتكملة » لابن عبد الملك المراكشي ، الجزء الرابع من مخطوط المكتبة الوطنية بباريس .

لترجمة ابن صاحب الصلاة ، تاريخ مولده أو وفاته . وقد ذكر المستشرق الإسباني پونس بويجس في معجمه نقلا عن المستشرق أمارى أنه توفي سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢ م) ^(١) ، وتابعه في ذلك الأستاذ بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ^(٢) ، وهو تاريخ خاطيء ، لا يتفق مع سياق كتاب « المن بالإمامة . ذلك أن ابن صاحب الصلاة ، يذكر لنا في مؤلفه حوادث شهدا ترجع إلى سنة ٥٩٤ هـ ، مثل الاحتفال بإتمام بناء صومعة جامع إشبيلية الأعظم ، ورفع التفافيح الذهبية إلى قممها ، بحضرة الخليفة يعقوب المنصور ، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٥٩٤ هـ ، عقب عوده ظافرا من معركة الأرك الشهيرة (Fol. 171. v.) ، بل يبدو مما ينقله ابن عذارى في « البيان المغرب » من شذور عن وفاة المنصور في سنة ٥٩٥ هـ ، ثم عن حوادث الأعوام الأولى من خلافة ابنه الناصر ، وهي شذور يبدو فيها أسلوب ابن صاحب الصلاة واضحا ، أن مؤلف كتاب « المن بالإمامة » قد عاش حتى أواخر القرن السادس ، بل وإلى أوائل القرن السابع ، وأنه قد توفي على الأرجح حوالي سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م) ^(٣) . وأما مولده فيمكن أن نضعه بين سنتي ٥٢٠ و ٥٣٠ هـ (١١٢٦ - ١١٣٥ م) .

كتاب نظم الجمان

ومن أهم مصادرنا المخطوطة عن أواخر عهد المرابطين ، وأوائل عهد الموحدين قطعة كبيرة مخطوطة من كتاب نظم الجمان لابن القطان ، تتضمن السفر الثالث عشر من هذا الكتاب . وعنوانه على النحو الآتي : « السفر الثالث عشر من كتاب نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان » . وفي داخل المخطوط ، توصف القطعة بأنها « الجزء السادس ، من هذا الكتاب . في ذكر ما انتهى إلينا من أخبار القرن السادس ، وهو المائة السادسة من الهجرة الكريمة » . ويحتوي هذا المخطوط على ثمانية وستين لوحة مزدوجة كبيرة الحجم (١٣٦ صفحة) في كل صفحة منها

(١) Pons Boigues : Essai Bio - Bibliographique sobre los Historiadores y Geograficos Arabigo - Espanoles , p. 246.

(٢) C. Brockelmann : Geschichte der Arabischen Litteratur, Supp. 1. p 554.

(٣) راجع بعض هذه الشذور التي ينقلها ابن عذارى في البيان المغرب : القسم الثالث الذي يجرى نشره الآن بعناية الأستاذة : هويثى ميرافنده ومحمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتاني عن معهد مولاي الحسن بتطوان : ص ٢٠٧ - ٢١١ و ٢١٣ ، و ٢١٩ و ٢٢٠ و ٢٢٣ و ٢٢٥ .

تسعة عشر سطرًا بخط مغربي كبير ، والنص كله مشكول بالمداد الأحمر ، وأحياناً بخط مذهب ، والمخطوط قديم مبتور الآخر ، وليس هناك ما يدل على تاريخ كتابته . بيد أنه يمكن أن نرجعه إلى القرن الثامن الهجري . ويبدو من خطه المنمق وعناوينه المذهبة ، أنه ربما كتب برسم أحد الأمراء أو الكبراء .

وأما عن مؤلف الكتاب ، ابن القطان ، فليس لدينا عنه تفاصيل شافية ، وقد ذكر اسم المؤلف في صفحة العنوان بأنه « الإمام العالم أبو النجوم الباجي » وذكر في رأس الصفحة الأولى أنه « ابن القطان »^(١) . وقد ورد في لوحة ٦٧ ١ من المخطوط ما يدل على أن المؤلف كان حياً ، في عهد الخليفة الموحدى المرتضى (٦٤٦ - ٦٦٥ هـ) وهو الذى حكم قبل آخر الخلفاء الموحدين .

ويتناول المخطوط أخبار المرحلة الأخيرة من حكم المرابطين منذ سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) ، وأخبار بداية ظهور المهدي ابن تومرت ، وتقدم دعوته ، وتصنيف أصحابه ، ومرحلة الصراع الأولى بين الموحدين والمرابطين ، وأخبار الأندلس خلال هذه الفترة ، وذلك حتى أخبار سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) . وأهم ما يتميز به هذا القسم من مؤلف ابن القطان أنه ينفرد بإيراد رسالتين هامتين لم تذكرتا في غيره وهما ، رسالة « الكافية في براهين الإمام المهدي » ، وهى رسالة خاطب بها أبو عبد الرحمن بن طاهر عميد مرسية ، الخليفة عبد المؤمن بن على ، ورسالة وجهها عبد المؤمن إلى الطلبة والمشيخة والأعيان بالأندلس (سنة ٥٤٣ هـ) ، يشرح فيها

(١) وردت في التكملة لابن الأبار (المكتبة الأندلسية) رقم ١٩٢٠ ، ترجمة « لعل بن محمد ابن عبد الملك بن يحيى بن إبراهيم الكتانى الحميرى الفاسى ، أبى الحسن بن القطان » جاء فيها أنه « كان من أبصر الناس بصناعة الحديث ، وأحفظهم لأسماء رجاله ، وأشدهم عناية بالرواية ، ورأس طلبة العلم بمراكش . ونال بخدمة السلطان دنيا عريضة . وله تواليف ، ودرس وحدث . وتوفى على قضاء سجلامة في ربيع الأول سنة ثمان وعشرين (أى وستائة) » .

وعثرنا أيضاً في « الدليل والتكملة » لابن عبد الملك المراكشى على ترجمة طويلة للمذكور ، جاء فيها أنه « فاسى سكن مراكش ، وكان ذا كراً للحديث ، مبحراً في علومه ، وكان معظماً عند الخاصة والعامة من آل عبد المؤمن ، حظى كثيراً عند المنصور منهم ، فابنه الناصر ، فالمنصور بن الناصر ، فأبى محمد عبد الواحد أخى المنصور ، ثم أبى زكريا المعتصم بن الناصر ، وكان المنصور يؤثره على غيره من أهل طبقته . وكان مرجوعاً إليه في الفتاوى » (الجزء الخامس من مخطوط المتحف البريطاني لوحة ١٣) .

على أن ما ورد في المخطوط ، مما يدل على أن ابن القطان كان حياً في عهد الخليفة المرتضى ، يجعلنا نتردد في الاعتقاد بأنه هو صاحب الترجمة التى أوردها ابن الأبار ، ثم ابن عبد الملك ، لما هنالك من الفارق الزمنى الملحوظ . وربما كان المترجم هو أبو المؤرخ .

قواعد السياسة الشرعية الموحدية ، ولا سيما في مطاردة المنكر ، وفي شئون المكوس والمغارم .

ويبدى ابن القطان فيما يورده من أخبار الموحدين ، حماسة ظاهرة في تأييد المذهب الموحدى ، والدولة الموحدية ، ويذكر الإمام المهدي ، وخلفاءه الموحدين بمنتهى الخشوع والإجلال^(١) .

القسم الثالث

من كتاب البيان المغرب

كان كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى المراكشى ، منذ البداية من أهم مصادرنا في كتابة تاريخ الأندلس . ولقد انتفعنا خلال كتابة العصرين الأول والثاني من هذا التاريخ ، في كتابينا « دولة الإسلام في الأندلس » و « دول الطوائف » ، بجزئيه الأول والثاني ، اللذين نشرنا منذ أكثر من قرن بعناية العلامة دوزى ، ثم بجزئه الثالث الذى نشر بعناية الأستاذ ليثى بروقنسال . وقد كان من المفروض أن ننتفع بجزئه الرابع الذى صدر بعد ذلك بمدينة تطوان في سنة ١٩٥٦ . وهو الذى يتناول بقية عهد المرابطين ، وعهد الموحدين . ولكن اكتشافاً جديداً في منتهى الأهمية غير هذا الاتجاه ، وهو العثور في الخزانة الناصرية بثاجمروت على مقربة من زاكوره بالمغرب ، على مخطوط جديد موسوم « بالجزء الثالث » من « البيان المغرب » ، وهو عبارة عن مجلد كبير يحتوى على ٤٦٣ صفحة كبيرة . في كل منها واحد وعشرون سطراً . ويبدأ بحوادث سنة ٥٣٣ هـ في أواخر عهد الدولة المرابطية ، بحملة تاشفين بن على بن يوسف لمقاتلة الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن على . وينتهى بحوادث سنة ٦٦٥ هـ ، بخلافة لإدريس أبى دبوس الواثق بالله آخر الخلفاء الموحدين ، وحملته إلى السوس ، ويزيد في البداية ستين صفحة ، وفي النهاية ست وستين صفحة عن الجزء الرابع المطبوع ، هذا فضلاً عما يمتاز به في مواطن كثيرة ، من زيادات في النص ، وفي الشعر ، ومن تصحيحات كثيرة أخرى .

ولقد اغتبطنا أبما غبطة باكتشاف هذا المرجع النفيس من مراجع عصر الدولة

(١) ان هذا الجزء المخطوط من كتاب « نظم الحمان » يوحد اليوم في حوزة معهدنا المصرى للدراسات الإسلامية بمديره ، وهو الذى سهل لى مشكوراً سبيل مراجعته ودراسته . وقد علمت أن هذا المخطوط قد أعد للشر محققاً بعناية صديقى الدكتور محمود على مكى وكيل المعهد المذكور .

الموحدية . ويجرى فيه ابن عذارى على طريقته أحياناً من تصنيف روايته إلى فصول ، وأحياناً إلى حوليات سنوية . ثم هو يجرى أيضاً في أسلوبه على طريقته من الالتزام الحيدة في إيراد الحوادث وتقديم الأشخاص ، وعدم التورط في المديح أو الذم ، ويترك هذه المهمة في الإشادة أو الانتقاص ، لمن ينقل عنهم من مؤرخى الدولة الموحدية . ومن أهم مميزات هذا القسم من « البيان المغرب » ما ينقله إلينا ابن عذارى خلال روايته ، من شذور عديدة من المعاصرين من مؤرخى الدولة الموحدية ، ولاسيما ابن صاحب الصلاة ، حيث ينقل إلينا الكثير من « السفر الثالث » من كتاب « المن بالإمامة » . وهو الجزء المعقود من هذا المؤلف حسبنا أشرنا إلى ذلك من قبل (١) .

هذا ، وفضلا عن ذلك ، فقد انتفعنا من تراث ابن عذارى بقطعة مخطوطة من أربع وخمسين لوحة ، عن أصل دولة المرابطين ، وولاية يوسف بن تاشفين وفتوحه في المغرب . ودخول المرابطين بلنسية ، وأخبار على بن يوسف ، وقصة إحراق كتاب الإحياء ، وولاية تاشفين بن علي ، وغزوة ألفونسو المحارب ، وغير ذلك . وكان المرحوم الأستاذ ليثى بروقنسال قد عثر بهذه القطعة بين أضاير مكتبة جامعة القرويين بفاس ، ونشر منها بعض شذور ، عن بعض الوقائع الهامة التي وردت فيها ، ثم نشرها أخيراً بنصها الكامل الأستاذ هويثى ميرانده في مجلة هسپيرس نمودا في عدد سنة ١٩٦١ .

وكان من حسن الحظ أننا عثرنا خلال بحثنا في « خروم » (دشت) مكتبة جامع القرويين بفاس ، بأربع صفحات كبيرة من كتاب « البيان المغرب » تتناول حوادث سنى ٥١١ هـ إلى ٥١٤ هـ ، وفيها تفاصيل هامة عن سقوط سرقسطة في يد ألفونسو الأرجونى (٥١٢ هـ) ، وعن موقعة كتندة ، وعن ثورة قرطبة ضد المرابطين (٥١٤ هـ) ، وتفاصيل أخرى . وكان اختفاء هذه الصفحات يكون ثغرة في مجموعة الأوراق المخطوطة المتقدمة ، التي عثر بها الأستاذ بروقنسال ، فجاء عثورنا عليها متمم لهذه المجموعة المتناثرة من كتاب البيان المغرب .

(١) سبق أن أشرنا إلى أنه يجرى الآن نشر هذا القسم الثالث من البيان المغرب برعاية معهد مولاي الحسن بتطوان ، وتحقيق الأساتذة أمبروسيو هويثى ميرانده ، ومحمد بن تاريت ، ومحمد ابراهيم الكتانى ، وقد أنجز منه حتى اليوم معظمه .

وانتفعنا كذلك ببضعة أوراق مخطوطة من كتاب « صلة الصلة » لابن الزبير ،
وهي أيضاً من محتويات « خروم » مكتبة القرويين .

أما عن حياة ابن عذارى ، وأصله ونشأته ، فلسنا نعرف الكثير ، وكل
ما نعرفه أنه يسمى أبو عبد الله محمد المراكشي ، وأنه قد عاش في أواخر القرن
السابع الهجري ، في بداية دولة بني مرين ، وفي بداية القرن الثامن ، وقد كان لهذا
الظرف الزمني بلا ريب تأثير كبير ، فيما يلتزمه في روايته عن تاريخ الموحدين ،
من الحيدة ، وضبط النفس ، وعدم التورط في عبارات الملتق ، التي يكثر منها
مؤرخون مثل ابن صاحب الصلاة ، وابن القطان .

الرسائل المرابطية

إن مصادر العصر المرابطي التي بين أيدينا ، وفي مقدمتها البيان المغرب ،
وروض القرطاس ، والحلل الموشية ، ينقصها الكثير مما يلقي ضياء حقيقياً على
أحوال الدولة المرابطية ونظمها وخواصها ، وعلى اتجاهات السياسة المرابطية
الدينية والسياسية ، سواء بالمغرب ، أو الأندلس . بيد أنه كان من حسن الطالع ،
أننا وقفنا خلال بحوثنا بمكتبة الإسكوريال على طائفة عديدة من الرسائل والوثائق
المرابطية ، التي تسد فراغاً كبيراً في هذا الميدان ، وتلقى أضواء كثيرة على خواص
الدولة المرابطية ونظمها وسياستها ، هذا فضلاً عما تلقى من أضواء على طائفة
كبيرة من الأحداث العسكرية الأندلسية الهامة التي وقعت خلال العصر المرابطي .

وتجتمع هذه الرسائل أولاً في المخطوطين رقم ٤٨٨ ورقم ٥٣٨ ، من فهرس
الغزيري ، وثانياً في المخطوط رقم ٥١٩ الغزيري ، وثالثاً في مجموعة أخرى يضمها
مخطوط معهد الدراسات الإسلامية بمدريد .

وأهم هذه الرسائل فيما يختص بالعصر المرابطي ، هو المجموعة التي يضمها
المخطوط الأول ، وهو رقم ٤٨٨ ، وهو مخطوط قديم مبتور الآخر وليس له
عنوان معين ، ولكن جاء في الورقة الأولى منه ما يأتي : « جمع هذا الكتاب قصائد
كثيرة لعلماء يطول تفسير أسماهم ، للفتح بن خاقان ، ولابن عبد الصمد ،
وللبستي ، ولابن عمار ، وابن اللبانة ، وابن زيدون ، وابن حبيب .. ورسائل شتى
ورحلة ابن جبير ، ونسخة بيعة والسلام » . على أن أهم ما يحتويه المخطوط هو
خمس رسائل ، كتبت عن أهم الأحداث العسكرية التي وقعت بالأندلس أيام

المرابطين ، الأولى رسالة يوسف بن تاشفين عن موقعة الزلاقة ، والثانية رسالة ابن شرف عن فتح أقليمش . والثالثة رسالة أهل سرقسطة حينما حاصرها النصارى إلى الأمير أبى الطاهر تميم بن يوسف ، والرابعة رسالة لعلى بن يوسف عن هزيمة القلعة . والخامسة رسالة أهل بلنسية إلى على بن يوسف عند نزول ألفونسو المحارب عليها ، وهذا عدا وثيقة موحدية هامة هى بيعة أهل قرطبة بولاية العهد ، لمحمد الناصر ولد الخليفة الموحدى يعقوب المنصور .

ويضم المخطوط الثانى ، وهو رقم ٥٣٨ ، عدة رسائل مرابطية ، أخرى ، عن أواخر العهد المرابطى بالأندلس ، أهمها رسالة وجهها تاشفين بن على بن يوسف إلى الفقهاء والوزراء والكافة ببلنسية يحثهم على التزام الجهاد والسنن الرفيعة ، وأداء الصلاة ، ومجانبة الخمر ، والرفق بالرعية ، والتزام مذهب مالك فى الأحكام ، ومطاردة كتب الغزالى . وتعتبر هذه الرسالة من أهم الوثائق المرابطية الدستورية ، هذا إلى عدة رسائل ثانوية أخرى تلقى أضواء مختلفة على جوانب من أواخر العصر المرابطى بالأندلس^(١) .

ويضم المخطوط الثالث . وهو رقم ٥١٩ . وهو خاص « بترسيل الفقيه الكاتب أبى عبد الله بن أبى الخصال ومقاماته ومعارضته » ، عدة رسائل مرابطية وجهت إلى على ابن يوسف ، ورسائل أخرى أدبية ، متبادلة بين أكابر كتاب ذلك العصر ، وبين ابن أبى الخصال . تلقى ضوءاً على بعض جوانب أدبية واجتماعية من ذلك العصر .

أما المجموعة الثالثة ، فيصممها مخطوط حصل عليه معهد الدراسات الإسلامية من تركة المرحوم الأسناذلى بروفنسال ، وهو نفس المخطوط الذى يضم مجموعة الرسائل الموحدية التى نشرها (سنة ١٩٤١) تحت عنوان «مجموع رسائل موحدية من إرشاء كتاب الدولة المؤمنية» . وقد نشرت هذه الرسائل أخيراً ، وعددها إحدى وعشرون رسالة بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد^(٢) ، وهى تلقى أضواء كثيرة على نواح مختلفة من العصر المرابطى ، سياسية وعسكرية وإدارية .

(١) نشرت معظم الرسائل المشار إليها فى المخطوطين السابقين بعنانه صديق الدكتور حسين مؤنس مدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد خلال الأعوام الأخيرة فى فترات مختلفة ، وذلك بمجلة معهد الدراسات الإسلامية (سنة ١٩٥٤ و ١٩٥٥) .

(٢) قام على نشر هذه الرسائل وتحقيقها والتمهيد لها صديق الدكتور محمود على مكى وكيل معهد الدراسات الإسلامية ، ونشرت بالمجلدين السابع والثامن من مجلة المعهد (سنة ١٩٥٩ - ١٩٦١) .

ويمكننا أن نشير في هذا الوطن أيضاً . إلى وثيقة مرابطة هامة . أوردها لنا ابن الخطيب في الإحاطة . وهي كتاب تولبة العهد الصادر من يوسف بن تاشفين لولده علي .

الرسائل الموحدية

حسبنا أن نشير في هذا الوطن . أولاً إلى مجموعة الرسائل الموحدية التي نشرت بعناية الأستاذ بروفنسال والتي سبقت الإشارة إليها ، وهي من أهم الوثائق التي تلقى كثيراً من الضوء ، على معظم الأحداث الهامة ، التي وقعت في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي ، وولده الخليفة أبي يعقوب يوسف . فولده الخليفة يعقوب المنصور ، فولده الخليفة محمد الناصر .

وقد وقفنا إلى جانب ذلك على مجموعة من الرسائل المخطوطة . وردت في مخطوط الإسكوريال رقم ٥١٨ الغزيري (ديرنبور ٥٢٠) وهو كتاب « زواهر الفكر وجواهر الفكر » لمحمد بن علي بن عبد الرحمن المرادي المكنى بابن المرباط ، وهو حسبما ورد في آخره مكتوب في سنة ٧٢١ هـ . وهو عبارة عن مجموعة كبيرة من الرسائل الأندلسية ، ومنها عدة رسائل بقلم القاضي الكاتب أبي المطرف بن عميرة عن حوادث بلنسية أيام الفتنة الأخيرة . التي انتهت بسقوطها في أيدي النصاري . ورسالة كتب بها عن أهل شاطبة إلى ابن هود . وظهير موحدي صادر عن الخليفة الرشيد إلى المتوطنين من أهل شرقي الأندلس برباط الفتح ، ورسائل وقصائد لابن الأبار ، وغيرها . وهذه الرسائل تكشف عن كثير من الظروف والأحداث التي وقعت في شرقي الأندلس ، في أواخر عهد الموحدين . وأواخر عهد الإسلام به .

التراجم المخطوطة

كان من أهم مصادرنا المخطوطة طائفة كبيرة من التراجم وردت في موسوعتين هامتين ، الأولى ، « كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة » لقاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن عبد الملك بن محمد بن سعيد الأنصاري الأوسى المراكشي المتوفى فيما يرجح في أواخر القرن السابع الهجري ، والثانية كتاب « الإحاطة في أخبار غرناطة » للوزير لسان الدين ابن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٥ م) . وكتاب التكملة موسوعة جلية من التراجم ، وبها عدد كبير من تراجم أعلام العصرين المرابطي والموحدي ، من فقهاء وكتاب وأدباء وشعراء . وقد رجعنا

إلى أجزائها المخطوطة الموجودة في دار الكتب المصرية (الجزء المخطوط الموسوم بالسفر الخامس ، والأجزاء المصورة ، وبها تراجم حرف الميم حتى الياء) ، وفي المتحف البريطاني (الرابع والخامس رقم ٧٩٤٠) وخزانة الرباط (الأول مصور مخطوط باريس) ، والإسكوريال (قطعة فقط رقم ١٦٨٢ الغزيرى وبها تراجم حرف السين حتى أوائل حرف ع) ، ونقلنا منها عدداً كبيراً من التراجم . وقد كان من أهم ما انتفعنا به من هذه التراجم ، هو الشذور والنبد التاريخية العديدة ، التي وردت خلالها عن أحداث العصرين المراتبي والموحدي ، ومنها أحياناً روايات هامة وحيدة لم ترد في أية مصادر أخرى ، هذا فضلاً عن التعريف بكثير من الأعلام الذين تنفرد هذه الموسوعة النفيسة بإيراد تراجمهم .

وكذلك الشأن في كتاب الإحاطة لابن الخطيب ، فقد وردت به تراجم عديدة لأمرء وزعماء من المراتبين والموحدين ، وكذلك لكثير من أعلام هذا العصر من فقهاء وكتاب وشعراء ، وكان انتفاعنا عظيماً بهذه التراجم ، ولا سيما التي وردت منها بالقسم المخطوط من الإحاطة (الإسكوريال رقم ١٦٧٣ و ١٦٧٤ الغزيرى) ، وقد ورد خلالها كثير من الشذور التاريخية الهامة ، منقولة عن مصادر ضاعت مثل كتاب « الأنوار الجلية في أخبار الدولة المراتبية » وغيره .

أما عن كتب التراجم المطبوعة ، فحسبنا أن نشير هنا إلى وفيات الأعيان لابن خلكان ، والصلة لابن بشكوال ، وصلة الصلة لابن الزبير ، وبغية الملتبس للضبي ، والتكملة والحلة السيرة لابن الأبار ، والأخيران يضمنان كثيراً من التراجم والنبد التاريخية الهامة المتعلقة بعصرى المراتبين والموحدين .

وثائق ومصادر أخرى

وليس في نيتنا أن نتحدث في هذا البيان الموجز عن المصادر المخطوطة ، عن المصادر المطبوعة ، وهي كثيرة يتعذر حصرها . بيد أنه يجدر بنا أن نشير فقط إلى طائفة من هذه المصادر التي تعتبر إلى جانب المصادر المخطوطة ، من أهم المراجع الرئيسية عن عصر المراتبين والموحدين .

فمنها كتاب « المعجب » لعبد الواحد المراكشي ، و « الخلل الموشية » ، لمؤلف مجهول ، و « روض القرطاس » لابن أبي زرع الفاسي ، وهذه المراجع الثلاثة تتناول عصر المراتبين والموحدين معاً ، وهي لمؤلفين عاشوا في عصر الموحدين أو قريباً منه .

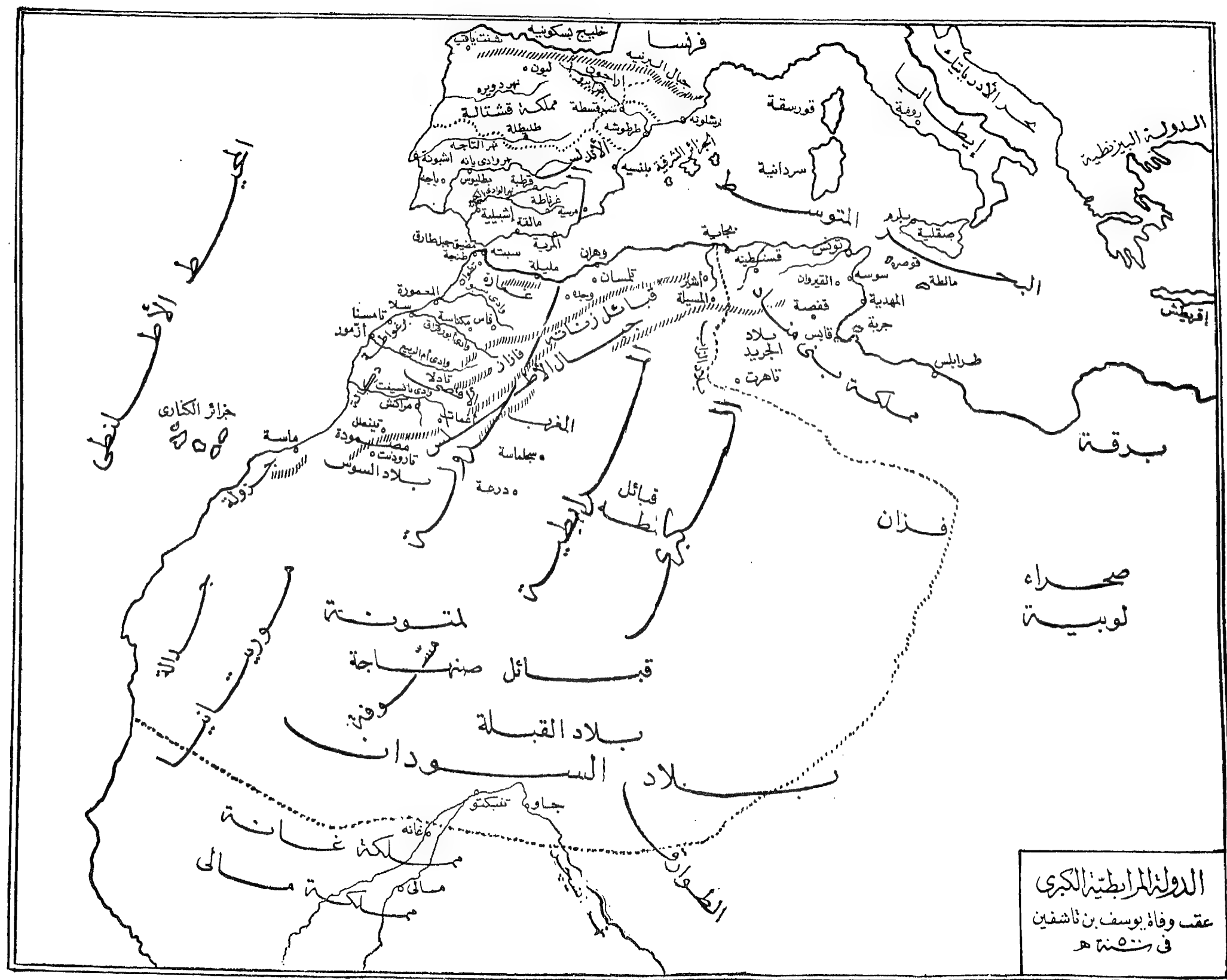
ومنها ما يختص بالموحدين وعصرهم ، وفي مقدمتها مؤلفا المهدي محمد بن تومرت ، وهما « أعز ما يطلب » و« الموطأ » ، وأولهما يضم خلاصة مذهبه وتعاليمه ، والثاني يضم شروحه لأحكام مذهب مالك . ويليهما كتاب « أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين » وهو من تصنيف أبي بكر الصنهاجي المكنى بالبيذق أحد أصحاب المهدي ، وهو أهم وأقيم مصادرنا عن نشأة المهدي ونسبه وأصحابه ، وحركاته الأولى ، ثم غزوات خليفته عبد المؤمن .

وهناك مصدر هام آخر جدير بالذكر ، وهو « رحلة التجاني » وهي رحلة قصيرة قام بها أبو محمد عبد الله بن محمد التجاني بين سنتي ٧٠٦ و ٧٠٨ هـ ، في أنحاء تونس وطرابلس ، وهي تتضمن طائفة كبيرة من البذ والشذور التاريخية القيمة عن الأحداث والمعارك التي وقعت في أنحاء إفريقية وبلاد الجريد ، بين بني غانية والموحدين ، وهي من أدق وأوفى الروايات التي انتهت إلينا عن هذه الفترة .

وكذلك رحلة ابن جبير الأندلسي ، ففيها إشارات وبذ هامة ، تتعلق بالموحدين ؛ أما عن المصادر الجغرافية المتعلقة بالمغرب والأندلس ، فلدينا ثلاثة من أهمها وأقيمها . هي كتاب « المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب » ، المستخرج من كتاب « المسالك والممالك » (لأبي عبيد البكري) ، و« وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » المستخرج من كتاب « نزهة المشتاق » للإدريسي ، وكتاب « الإستبصار » (لمؤلف مجهول) وهو أحدثها من الناحية التاريخية ؛ وهذا كله إلى المصادر النصرانية من لاتينية وقشتالية وغيرها ، معاصرة أو محدثة ، وقد ذكرت تباعاً في مواطنها ، ولا داعي للتحدث عنها هنا .

بقى من نصف شهر بقا من المدة من اوله كليه واشتروا لؤلؤا والشرى فبيعوا
 به ما يحتاجون به من ثياب وقسطه وكان عبد الله من دلي اوان اول الوم من
 بالاسكر على حاله في ذلك الشهر من عروق حطامه
فكاة عبد الله من دلي وقطية العرو على اسر فقسقا
 به ما يحتاجون به من ثياب وقسطه وكان عبد الله من دلي اوان اول الوم من
 بالاسكر على حاله في ذلك الشهر من عروق حطامه
 الباقى من نصف شهر بقا من المدة من اوله كليه واشتروا لؤلؤا والشرى فبيعوا
 به ما يحتاجون به من ثياب وقسطه وكان عبد الله من دلي اوان اول الوم من
 بالاسكر على حاله في ذلك الشهر من عروق حطامه

صفحة من الأوراق المخطوطة التي عثرنا عليها من كتاب « البيان المغرب » لابن عذري بخزاعة
جامع الفرويين بفاس ، وهي من أوراق الجزء الخاص بعصر المرابطين



تمهيد

الأوضاع العامة لشبه الجزيرة الأندلسية

في عصر المرابطين والموحدين

كانت موقعة الزلاقة (٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م) ، موقعة الحسم ، في مصابر اسبانيا المسلمة ، سواء إزاء اسبانيا النصرانية ، أو إزاء المرابطين . فقد انقشع الخطر الداهم الذي كان يهددها بالفناء العاجل ، مذ سقطت طليطلة حصن الأندلس من الشمال في أيدي النصاري ، وقد كتبت لها حياة جديدة . ولكن الزلاقة ، كانت من جهة أخرى نذيراً بأعظم تحول وقع في مصايرها منذ الفتح ، ذلك أن المرابطين الذين قدموا إليها إخواناً في الدين ، وأصدقاء مجاهدين منجدين ، انقلبوا عقب الزلاقة إلى أعداء فاتحين . وما كاد الموقف يتضح لعاهل المرابطين يوسف ابن تاشفين عقب النصر ، وتبدو له دول الطوائف الأندلسية على حقيقتها ، دويلات متخاذلة متنازعة ، يسودها الإنحلال ، ويقضم أسسها الترف والخور ، حتى قرر أمره تجاه أمراء الطوائف . وسواء أكان هذا القرار قد أملتته شهوة الفتح ، ورغبة الاستيلاء على هذه البلاد الخضراء الغنية الساحرة ، أم كان بقصد حمايتها من النصاري ، والتحوط بذلك لسلامة المغرب ، بصون جناحه الدفاعي من الشمال - الأندلس - فقد نفذ عاهل المرابطين قراره ، واستولت جيوشه تباعاً على دول الطوائف ، في فترة لا تتجاوز عشرين عاماً ، فيما بين سنتي ٤٨٣ و ٥٠٢ هـ (١٠٩٠ - ١١٠٩ م) ، وذلك حسبما فصلناه من قبل في كتابنا « دول الطوائف » .

وأضحت الأندلس من ذلك الحين ولاية مغربية ، تخضع لحكومة مراكش ، وتحكمها القبائل البربرية المغربية ، بعد أن كان المغرب قبل ذلك بنحو قرن فقط ، ولاية أندلسية تخضع لخلافة قرطبة الأموية . ونحن نعرف أن البربر قد اضطلعوا في فتح الأندلس بأعظم قسط ، ولكنهم لم ينالوا نصيبهم الحق ، في حكم هذه البلاد الجديدة ، وغلب سلطان العرب سادة البربر عند الفتح . وعلى الرغم من أن البربر كانت لهم ما بين آونة وأخرى ، في ظل الدولة الأموية ، بعض

الخطوة ، وكان لهم في ظل الدولة العامرية قسط بارز من النفوذ والسلطان ، وعلى الرغم من أنهم نالوا قسطهم من أسلاب الخلافة ، وقامت لهم في عهد الطوائف عدة من الدول القوية ، بلغت في ظل بني حمّود مرتبة الخلافة ، فإنهم في ظل المرابطين ، يبسطون لأول مرة سلطانهم كاملاً على الأندلس ، ويستأثرون فيها بالحكم والسيادة ، وتخضع خلال ذلك رئاسة الأسر والزعامات الأندلسية . أجل إن عهد المرابطين بالأندلس لم يكن طويل الأمد . ذلك أنه لم يدم أكثر من زهاء نصف قرن . ولكن سلطان البربر على الأندلس يمتد بعد انتهاء الدولة المرابطية ، على يد ورثتها الدولة الموحدية ، أكثر من قرن آخر . وفي وسع المؤرخ أن يلاحظ ما بين هذين العهدين ، من أوجه التماثل التي تجمع بينهما ، وأن يلاحظ في نفس الوقت أوجه الخلاف والتناقض التي تباعد بينهما ، وتسبغ على كل منهما خواصه ومميزاته .

إن المرابطين والموحدين ، ينتمى كلاهما إلى طائفة من تلك القبائل البربرية ، التي أخذت على كرك العصور في حكم المغرب وسيادته بأوفر نصيب ، فالمرابطون ينتمون بالأخص إلى لمتونة وكدالة ومسوفة ، وينتمى الموحدون بالأخص إلى هرغة ومصمودة وهنتاة وكومية . وقد نشأت كلتا الدولتين ، المرابطية والموحدية ، في ظروف متشابهة ، كأنما رسمت لكل منهما على نسق واحد ، فكلتاها قامت على أسس دينية ، وعلى يد فقيه وداعية متعصب ؛ فكان داعية الدولة المرابطية ، الفقيه عبدالله بن ياسين ، وكان داعية الدولة الموحدية ، المهدي محمد بن تومرت ، وتحولت كلتاها إلى ملك سياسي على يد زعيم موهوب وقائد بارع ، فكان زعيم الدولة المرابطية الذي وطد دعائمها ، وشاد ملكها السياسي ، يوسف بن تاشفين ، وكان قرينه عبد المؤمن بن علي ، هو الذي وضع أسس الدولة الموحدية ، ووطد دعائمها . واستطاعت الدولة الموحدية ، بعد أن قضت على الدولة المرابطية ، أن تسيطر على نفس الرقعة الإقليمية الشاسعة ، التي كانت تحتلها ، سواء في المغرب أو الأندلس ، وإن كانت الأندلس لم تخلص للموحدين إلا بعد فترة من الصراع المحلي ، ولاسيما ضد الثورة في شرق الأندلس .

وفضلاً عن ذلك ، فقد كانت تجمع بين الدولتين ، بالنسبة للأندلس ، إذا أغضينا عن العوامل الإقليمية والسياسية ، التي كانت تحرك هاتين الدولتين ، إلى بسط سيادتهما على هذا الإقليم الغني الساحر — كانت تجمع بينهما فكرة الجهاد ،

وحماية الأندلس ، من عدوان الممالك الإسبانية النصرانية . وهنا تبدو وجوه الخلاف بين الدولتين . ذلك أنه بالرغم من وحدة الغاية ، فقد كان المرابطون يضطرمون بروح جهاد قوية خالصة ، وقد استطاعوا في ظل هذا الروح الدافع أن يصدوا عن الأندلس عدوان اسبانيا النصرانية ، وأن يحرزوا بعد الزلافة ، النصر في عدة مواقع مماثلة ، حاسمة في صدع قوى اسبانيا النصرانية . وإذا استثنينا موقف المرابطين من سقوط سرقسطة ، وهو السقطة العسكرية المرابطية البارزة خلال هذا الكفاح ، فإن الصراع الذى اضطلع به المرابطون ضد الممالك الإسبانية النصرانية ، كان صراعاً قوياً وناجحاً ، وقد أحرز المرابطون خلاله ضد النصارى عدة من الانتصارات الباهرة ، ولاسيما في أقلش (سنة ٥٠١ هـ - ١١٠٨ م) ، وفي إفراغة (٥٢٨ هـ - ١١٣٤ م) . وقد استطاع المرابطون على وجه العموم حتى أواخر عهدهم ، الذى استطال بالأندلس زهاء خمسين عاما ، أن يحافظوا على رقعة الوطن الأندلسى ، ولم يصدع من كفاحهم ضد النصارى ، سوى قيام الثورة عليهم في مختلف القواعد ، عند ظهور الموحدين وعبورهم إلى الأندلس .

أما الموحدون فبالرغم من أنه كانت تحذوهم مثل الروح ، التى كانت تحذو المرابطين ، في محاربة اسبانيا النصرانية ، والدود عن الأندلس ، فإنهم لم يحرزوا مثلاً أحرز المرابطون من التوفيق في هذا الكفاح . وقد بذل الموحدون بالفعل جهوداً فادحة في سبيل الاضطلاع بحركة الجهاد بالأندلس ، وصدد عدوان اسبانيا النصرانية عنها ، وقد عبرت جيوشهم الحرارة مراراً إلى شبه الجزيرة ، مزودة بكميات هائلة من العتاد والسلاح ، ولكنهم وهم في إبان قوتهم ، لم يحرزوا توفيقاً في حملاتهم الغازية ضد النصارى ، فتحطمت حملة الخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ضد القشتاليين ، تحت أسوار وبدة (٥٦٧ هـ - ١١٧٢ م) ، وتحطمت حملته الثانية ضد البرتغاليين تحت أسوار شنترين (٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م) ، ومنيت الجيوش الموحدية بهزيمة فادحة ، وهلك الخليفة نفسه في الموقعة . ويرجع هذا الفشل إلى عدة أسباب ، منها اختلال نظام الجيوش الموحدية ، وضعف قيادتها ، واختلال وسائل تموينها ، كما يرجع إلى اشتداد ساعد مملكة البرتغال ، واستغراقها معظم جهود الموحدين ، في ولاية الغرب الأندلسية ، ولم تبرز الجيوش الموحدية في جهادها ضد النصارى إلا في معركة الأرك العظيمة ، التى أحرز فيها الخليفة يعقوب المنصور ، انتصاره الباهر على القشتاليين ، في شهر رجب سنة ٥٩١ هـ

(يوليه سنة ١١٩٥ م) . على أن هذا النصر العظيم ، لم يلبث أن محت آثاره موقعة العقاب المشؤمة ، التي أحرز فيها القشتاليون نصرهم الساحق على الجيوش الموحدية بقيادة الخليفة محمد الناصر ولد المنصور ، وذلك في صفر سنة ٦٠٩ هـ (يوليه سنة ١٢١٢ م) ، والتي كانت ضربة قاضية ، لقوى الموحدين بالأندلس والمغرب ، ولم يمض على وقوعها سوى أعوام قلائل حتى انهار سلطان الموحدين بالأندلس ، وأخذت قواعد الأندلس الكبرى تسقط تباعاً في أيدي النصارى في وابل من المحن المؤلمة .

كانت قصة الجهاد في سبيل الله ، وقصة حماية الأندلس من عدوان النصارى ، تجثم وراء هذه المعركة الطويلة المستمرة بين المرابطين والموحدين من ناحية ، وبين اسبانيا النصرانية من ناحية أخرى ، وكان المرابطون والموحدون ، تحملهم في هذا الصراع المستمر ضد اسبانيا النصرانية ، فضلاً عن غريزة الاحتفاظ بالنفس ، نزعة لا شك فيها من الجهاد الإسلامى ، والذود عن معاقل الإسلام وتراثه في « جزيرة الأندلس » . وهم قد عبروا البحر أول ما عبروا إلى الأندلس ، تدفعهم تلك النزعة النبيلة ، ولم تحمد نزعة الجهاد في صدورهم طوال الوقت الذى كانت تضطرم فيه المعارك باستمرار ، بينهم وبين اسبانيا النصرانية ، وكثيراً ما غزت الجيوش المرابطية والموحدية ، أراضى اسبانيا النصرانية من تلقاء نفسها ، طلباً للجهاد ليس غير ، وقد عبر الخلفاء الموحدون إلى الأندلس في جيوشهم الحرارة مراراً ، لمتابعة هذا الجهاد ، الذى كان شعارهم دائماً في محاربة النصارى في شبه الجزيرة الإسبانية .

* * *

ولقد كان من الطبيعى أن تنشب بين المرابطين والموحدين ، وهم سادة الأندلس الحدد ، وبين زعماء الأندلس المحليين معركة السلطان والملك . ولقد كانت هذه المعركة التي تغذيها عوامل مختلفة ، هي محنة الأندلس الحقيقية ، وكانت تتجدد من خلالها صور المعارك الانتحارية ، التي أثنت الأندلس أيام الطوائف بجراحها الدامية . على أنه مهما كانت بواعث الأسف والأسى ، التي تقترن بمثل هذه المعارك ، ومهما كان لنا أن نستنكرها وأن نحكم عليها ، فإنه يصعب على المؤرخ ، أولاً أن يحدد المسؤولية في شأنها أو أن يلقى تبعاتها على فريق بعينه ، وثانياً أن يتجاهل العوامل القومية والوطنية ، التي كانت من ورائها . وهى في ذلك تفرق عن معارك

الطوائف ، التي لم تكن تحدها سوى الأطماع والأهواء الشخصية الوضيعة .
وما يلاحظ أن الثورة على سلطان المرابطين في الأندلس ، لم تضطرم إلا في
أواخر عهدهم في شبه الجزيرة ، في نفس الوقت الذي اضطرم فيه المغرب بثورة
الموحدين الجارفة ، وتضعض سلطان المرابطين في عقر دولتهم ، وتعذر عليهم
إرسال الإمداد إلى ما وراء البحر . على أن هذه الثورة كانت في الواقع أقدم عهداً
وأعمق جذوراً ، إذ هي ترجع إلى عهد الفتح المرابطي ذاته . وكانت الأندلس ،
حينما اشتدت عليها وطأة اسبانيا النصرانية ، وعجزت دول الطوائف الضعيفة
المتنازعة ، عن رد عدوانها ، وجاء سقوط طليطلة نذيراً بالخطر الداهم ، قد
استقبلت المرابطين لإخوانا في الدين منجدين منقذين ، وأكد نصر الزلافة الباهر
ومن بعده جواز يوسف بن تاسفين الثاني لنصرة الطوائف في حصار حصن لبيط
(أليدو) (٤٨١ هـ - ١٠٨٨ م) هذا الاعتبار وهذا المعنى . على أن فكرة
الاستنصار بالمرابطين لم تكن دون توجس ، ودون تخوف من العواقب . وقد
ذكرنا فيما تقدم من كتابنا « دول الطوائف » كيف عارض المعتمد بن عباد ولده
الرشيد ، في فكرة الاستنصار بالمرابطين ، وحذره من مقدمهم بقوله : « ياأبت
أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا ، ويبدد شملنا » وكيف أنه كان ثمة بين
أمراء الطوائف ، ورجالات الأندلس ، من لم ترقه هذه الفكرة ، توجساً
من عواقبها^(١) .

وقد تحققت هذه المخاوف ، وانهار ذلك المعنى النبيل الذي بثه نصر الزلافة
لأمد قصير ، وانقلب المنتقدون إلى فاتحين ، واستولى المرابطون على دول الطوائف
واحدة بعد أخرى ، واقرن هذا الفتح في بعض الأحيان بكثير من العنف ،
والقسوة ، وسقط عدد من أمراء الطوائف مدافعين عن أنفسهم وملكهم . وكان
لهذا التحول بلاريب أعظم صدى في جنبات الأندلس ، وأعمق أثر في نفوس
الامة الأندلسية . ومن جهة أخرى فإن أساليب الحكام والقادة المرابطين ، في
حكم هذا القطر الجديد ، لم تكن لينة ولارقيقة ، وذلك بالرغم مما كان يحدها
ويوجهها في معظم الأحيان من جانب أمير المسلمين ، من النيات الطيبة والنصائح
المثالية لعماله وقادته ، باتباع العدل ، والرفق بالرعية ، وكانت أساليب هؤلاء

(١) راجع كتاب دول الطوائف ، ص ٧٨ ، والحلل الموشة ص ٢٧ و ٢٨ ، وأعمال الأعلام
لابن الخطيب (طبع بيروت) ص ٢٤٥ ، وكتاب التبيان للأمير عبد الله بن بلقين ص ١٠٣ و ١٠٤ .

الحكام والقادة ، ومعظمهم من أقارب أمير المسلمين وأصحابه ، تجافى بعنفها وخشونتها ما جلبت عليه الأمة الأندلسية المتحضرة المترفة ، من الأساليب المهذبة الرقيقة . ومن ثم فإنه لا يدهشنا أنه لم يمض سوى خمسة عشر عاما فقط ، على وفاة عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين ، حتى اضطربت الثورة في قرطبة حاضرة الأندلس يومئذ ، ضد المرابطين في سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) ، في أوائل عهد علي بن يوسف ، وذلك وفقاً لقول الثوار « ذبا عن الحرم والدماء والأموال »^(١) . ولم تكن هذه الفورات وأمثالها ، في البداية سوى محاولات للتنفس من حكم المرابطين المتزمت المرهق . ولم تقو الفكرة الوطنية الأندلسية وتبلور إلا فيما بعد ، في أواخر عهد المرابطين ، حينما اضطربت الأندلس كلها ، من شرقها إلى غربها ، بالثورة ضدهم ، وقام أحمد بن قسى في غرب الأندلس ، في ميرتلة وشلب وباجة سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ، وقام في نفس العام أبو جعفر ابن حدين في قرطبة ، وأبو الحسن علي ابن أضحى في غرناطة . وفي نفس الوقت انهار سلطان المرابطين تباعا في شرقي الأندلس ، وقام القاضي ابن عبد العزيز أولا في بلنسية ، ومرسية . ثم نهض ابن عياض فغلب عليهما بعد طائفة من الأحداث والانقلابات المتوالية ، ودعا بالرياسة لسيف الدولة ابن هود . وتقلد ابن هود الرياسة الإسمية ، وهو في تقلده إياها ، يمثل الفكرة القومية الأندلسية ، ولما قتل ابن هود في موقعة البسيط ، التي نشبت بين قوات بلنسية وابن هود ، وبين القشتاليين وذلك في سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٦ م) دعا ابن عياض لنفسه ، وغلب على شرقي الأندلس كله ، إلى أن لقي مصرعه في معركة نشبت بينه وبين القشتاليين في سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) . وعندئذ خلفه في الرياسة نائبه وصهره محمد بن سعد بن مردنيش ، وسرعان ما اشتد ساعده ، وبسط سلطانه القوى على سائر القواعد الشرقية من بلنسية حتى قرطاجنة . وكان ابن مردنيش يمثل الفكرة القومية الأندلسية في أعمق صورها ، وقد شهر علم النضال ضد الموحدين أعواما طويلة ، حتى تبددت قواه ، ثم خبت فورته بوفاته ، وذلك كله حسبا لفصل بعد في مواضعه . وكان سلطان المرابطين قد انهار نهائياً في شرقي الأندلس ، قبل ثورة ابن مردنيش بعدة أعوام ، وإن كان بفضل الجهود العنيفة التي بذلها قائد المرابطين القوي ابن غانية ، قد لبث في بعض القواعد الوسطى والغربية لفترة قصيرة أخرى .

(١) الحلل الموشية ص ٦٣ .

كانت هذه الفورات المتعاقبة التي اضطرت ضد المرابطين في مختلف القواعد الأندلسية ، في تلك الفترة العصيبة من أيامهم ، تنسم بالرغم من اتخاذها في بعض نواحيها صورة الحرب الأهلية ، بالطابع الوطني ، وتمثل بوضوح فكرة تحرير الأندلس من النير المرابطي . ولم يكن أولئك الزعماء الخوارج ، يحجمون في سبيل تحقيق غايتهم ، أو في سبيل التطاحن فيما بينهم ، عن الإستعانة بالنصارى ، وهي وسيلة سائئة ، خطيرة في نفس الوقت ، تتحطم لديها سائر الاعتبارات الوطنية والدينية . بيد أنه يجب أن نذكر أنها نفس الوسيلة اليائسة التي لجأ إليها أمراء الطوائف ، حينما استشفوا نية عاهل المرابطين في القضاء عليهم ، فلم يحجموا عن الالتجاء إلى ملك قشتالة ، ألفونسو السادس ، أخطر أعدائهم ، والمنزع لقواعدهم وأراضيهم ، والتحالف معه على رد الجيوش المرابطية . وكان الملوك النصارى يسارعون بتلبية أمثال هذه الدعوات ، ليس فقط انتهازاً لما تقدمه إليهم من فرص الضرب والتفريق بين الأمراء المسلمين ، واستنزاف قواهم ، وانتزاع ما يمكن انتزاعه منهم من الأموال والأراضي ، ولكن كذلك شعوراً منهم بالخطر المشترك ، الذي يهدد الوطن المشترك - شبه الجزيرة الإسبانية - من جراء تغلب القبائل البربرية المرابطية عليه ، واستقرارها فيه ، وقد تمثلت هذه الظاهرة فيما بعد أيام الموحدين ، أصدق تمثيل ، في ثورة محمد بن سعد بن مردنيش ، وفي تحالفه المستمر الوثيق مع الملوك النصارى ، ضد الموحدين .

* * *

ونستطيع أن نقول إنه منذ انهارت ثورة ابن مردنيش في شرق الأندلس بوفاته في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) ، واستولى الموحدون على مملكة مرسية ، خلصت الأندلس كلها لطاعة الموحدين ، وغاضت النزعة القومية الأندلسية ، واستسلمت الأندلس لحكم سادتها من وراء البحر ، واستطاع الموحدون أن يوطدوا سلطانهم في الجزيرة مدى نصف قرن آخر ، وسطع البلاط الموحدى في إشبيلية ، التي جعل الموحدون منها حاضرة الأندلس ، وخصوها بمتنبي الرعاية ، وعملوا على تحصينها ، وتجميلها بطائفة من الصروح الفخمة ، وقامت مشائهم العمرانية العظيمة بإشبيلية ، وغيرها من قواعد الأندلس ، من قصور ومساجد وحصون وقناطر وأسوار ، تشيد بهمتهم وقوة سلطانهم ، وفخامة دولتهم . والتفت حول البلاط الموحدى سواء بإشبيلية أو المغرب ، أعلام الأندلس من كل

ضرب ، من فقهاء وعلماء وكتاب وشعراء ، وحشد الخلفاء الموحدون إلى جانبهم أقطاب البيان والتفكير الأندلسيين ، واتخذوا منهم وزراء وكتاباً وأطباء ، وخدم علماء وفلاسفة عظام ، مثل ابن طفيل ، وابن زهر ، وابن رشد ، في بلاط الخليفة الموحدى .

وهكذا استقام الأمر بالأندلس في ظل الحكم الموحدى مدى نصف قرن آخر ، وشغل الموحدون داخل إمبراطوريتهم العظمى بالمغرب ، بتوطيد سلطانتهم ، وقمع نزعات العصيان المحلية ، وشغلوا بالأخص بمكافحة بنى غانية ، والقضاء على ثورتهم وحركاتهم المخربة بإفريقية ، وهى ثورة اقتضت منهم أفدح الجهود ، وكادت في بعض الأحيان أن تقضى على سلطانتهم في إفريقية . ثم كان عهد الخليفة الناصر ابن المنصور ، وكانت حملته المشتومة إلى الأندلس ، وكانت نكبة العقاب الساحقة (١٠٩٠هـ) ، وماترتب عليها من انهيار سلطان الموحدين في شبه الجزيرة ؛ عندئذ تغيرت الأمور ، وتجهت الحوادث ، ولم يقتصر الأمر عندئذ على استتالة الممالك النصرانية ، وضغطها على مختلف نواحي الأندلس ، وتحفزها لافتتاح قواعدها الكبرى ، ولكن حدث في نفس الوقت أن أخذت بوادر الثورة تتحرك داخل الأندلس ، تغذيها العوامل القومية القديمة ، ضد حكم وهنت دعائمه . وكان موطن هذه الثورة الجديدة ، شرقي الأندلس ، وكان على رأسها زعيمان ينتمى كلاهما إلى بيت من البيوت الثائرة القديمة ، أولهما زيان بن مردنيش ، والثاني أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود ؛ وبينما انحصرت حركة زيان ببلنسية ، إذا بدعوة ابن هود تحتاج مرسية وألمرية وغرناطة ومالقة ، وكانت حركة ابن هود تمثل فكرة الأندلس القومية أصدق تمثيل ، وترمى إلى تحرير الأندلس من نير الموحدين ، والنصارى معا ، ولكن موارده وقواته ، لم تكن تسمح له بأن يضطلع بمثل تلك المهمة الفادحة . ومن جهة أخرى ، فقد نهض النصارى لانتهاز الفرصة السانحة ، وانتزاع قواعد الأندلس الكبرى ، خلال تلك الغمار المضطربة ، فقام ألفونسو التاسع ملك ليون بانتزاع قواعدها الغربية ، ماردة وبطليوس وغيرها (١٢٢٧هـ) ثم قام فرناندو الثالث بانتزاع قرطبة عاصمة الخلافة القديمة (شوال سنة ١٢٣٣هـ — يونيه ١٢٣٦ م) — وذلك في الوقت الذى تخلى فيه ابن هود عن إنجاده ، وشغل بالعمل لتوطيد سلطانه في جنوبي الأندلس . وكان لسقوط قرطبة أعظم وقع في تلك الأندلس المفككة المهوكة القوى ، ولكنه كان أمراً محتوماً لاسيلاً إلى اتقائه .

ولم يمحض قليل على ذلك ، حتى توفي ابن هود في أوائل سنة ٦٣٥ هـ ، وهو في إبان قوته وطموحه ، وانهارت بوفاته أمانى ومشاريع كثيرة ؛ وفي العام التالى استطاع خايمي الأول أو الفاتح ملك أراجون ، أن يستولى على بلنسية عاصمة الشرق (صفر سنة ٦٣٦ هـ - سبتمبر ١٢٣٨ م) وكان قد استولى قبل ذلك في سنة ٦٢٨ هـ على الجزائر الشرقية . وفي الوقت الذى أخذ يتوالى فيه سقوط القواعد الشرقية والوسطى ، فى أيدي النصارى ، كان محمد بن الأحمر من جانبه ، يعمل بكل ما وسع لبسط سلطانه على القواعد الحنوبية . وهكذا أضحت الأندلس مرة أخرى مسرحاً لغمار متوالية من الحوادث والفتن التى تمزق أوصالها ، وتجعلها فريسة هينة لعدوها الخالد - إسبانيا النصرانية - ينتزع قواعدها وأراضيها تباعاً ، ولا تجد وسيلة ناجعة لدفع هذا العدوان الحارف ، بعد أن انهار سلطان الموحدين وقواهم بالأندلس ، وبعد أن فقدت الأندلس منعها ومواردها العسكرية القديمة ، فى ظل حكم الدولة الغالبة .

ولم تفق الأندلس من تلك الحنة الطاحنة ، إلا وقد فقدت قواعدها الكبرى شرقاً وغرباً - قرطبة ، وبلنسية ، ومرسية ، وشاطبة ، ودانية ، وجيان ، وإشبيلية وبطليوس ، وماردة ، وشلب ، وغيرها وغيرها - وأضحت أنقاضاً متناثرة ، تجتمع أشلاؤها الدامية فى الجنوب ، فيما وراء نهر الوادى الكبير ، ولاح من خلال ذلك كله ، أن ساعة الأندلس الأخيرة قد دنت ، وأنه لم يبق على إسبانيا النصرانية إلا أن تحتفى ببقية تراثها الممزق ، وأن تختتم هذه السلسلة من معارك « الإسترداد » "La Reconquista" العظيمة بضربة أخيرة ، تكون هى القاضية على حياة إسبانيا المسلمة ، لولا أن شاء القدر أن تلتئم هذه الأنقاض المتناثرة من تراث الأندلس الكبرى ، وأن تبعث من بينها قوة فنية جديدة ، تتمثل فى قيام مملكة غرناطة ، آخر دول الإسلام فى الأندلس .

تلك هى الخطوط العريضة لصورة العصر ، الذى نحاول أن نضطلع باستعراض أحداثه ، وشرح ظروفه وخواصه ، - عصر المرابطين والموحدين .

الكتاب الأول
الدولة المُرابطية
في أوج سُلطانها

الفصل الأول

يوسف بن تاشفين

خواص إمارته ولامع خلاله

يوسف بن تاشفين وبداية زعامته . أبو بكر بن عمر اللمتوني . المرابطون ينشرون الإسلام في غانة ومالي . يوسف يتسمى بأمر المسلمين . ظروف تسميته بهذا اللقب . اعترافه بطاعة الخليفة العباسي . رواية ابن خلدون . ما يؤيد هذه الرواية . رواية ابن العربي عن رحلته . فتوى الإمام الغزالي عن موقف أمراء الطوائف وعن حق يوسف في استصدار المرسوم الخلافي . كتاب الإمام العزالي يوسف . كتاب أبي بكر الطرطوشي . اختيار يوسف لولده علي لولاية العهد . المرسوم الصادر بذلك . كتاب البيعة والتولية . خلال يوسف وسابقه . بساطته المؤثرة . براعته العسكرية . عدله وإيثاره للفقهاء . موثقه من الضرائب والمكوس . سيادة الأمن والرخاء في عهده . وزيره عبد الرحمن بن أسباط . كتابه ابن القصيرة . مرض يوسف ووفاته . تحقيقه لوحدة المغرب والأندلس . الدولة المرابطية الكبرى .

— ١ —

كان مما اقتضاه سياق الكلام عن تاريخ دول الطوائف ، أن نتحدث عن نشأة الدولة المرابطية وقيامها في المغرب ، والتجاء أمراء الطوائف ، حينما لاح خطر اسبانيا النصرانية قوياً على الأراضي والقواعد الإسلامية في شبه الجزيرة ، وحينما جاء سقوط طليطلة في شهر صفر سنة ٤٧٨ هـ (مايو سنة ١٠٨٥ م) نذيراً بتفاقم هذا الخطر ، — التجأهم إلى إخوانهم فيما وراء البحر ، إلى المرابطين ، يطلبون منهم الإنجاد والغوث ، ثم عن عبور بطل المرابطين يوسف بن تاشفين في جيوشه الحرارة المتوثبة إلى الأندلس ، وخوض الجيوش الإسلامية المتحدة — المرابطية والأندلسية — معركة الزلاقة ضد الجيوش النصرانية المتحدة ، في رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر سنة ١٠٨٦ م) ، وإحرازها لانتصارها الباهر الذي قمع عدوان اسبانيا النصرانية إلى حين ، وأخيراً عن انقلاب المرابطين من منقذين إلى فاتحين ، واستيلائهم على إمارات الطوائف تباعاً ، وضم الأندلس إلى الدولة المرابطية الكبرى .

وقد تبعنا خلال ذلك كله حياة زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين ، منذ

نشأته ، حتى فوزه بإنشاء الدولة المرابطية في المغرب ، وماتلا ذلك من عبوره إلى شبه الجزيرة غير مرة . وفوزه بملك الأندلس ، ثم وفاته في مستهل شهر المحرم سنة ٥٠٠ هـ (٢ سبتمبر سنة ١١٠٦ م) بعد حياة حافلة بعظائم الحوادث ، وجلال الأعمال .

ولسنا نجد بعد أن استعرضنا ذلك كله . بتفاصيله الشاملة في كتابنا « دول الطوائف » ، مجالاً لتكرار الكلام في هذه الموضوعات . بيد أنه لا يسعنا ، ونحن نزمع الكلام هنا عن عصر المرابطين في المغرب والأندلس ، إلا أن نرتد بأبصارنا إلى بعض إلى ما تقدم من المواطن ، وأن نستزيدها فيما أوجزنا فيه منها ، حتى ينتظم السياق ، وتكمل وحدة الموضوع .

وأول ما يعرض لنا في ذلك ، هو العود إلى بعض مواطن ، في حياة البطل المغربي العظيم ، يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين ، ونبدأ في ذلك بصفته وألقابه الملوكية ، وهو ما تناولناه فيما تقدم بطريقة عابرة .

كانت رئاسة المرابطين الزمنية ، حينما أنشأ الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي ، طائفة المرابطين في أول أمرها ، لزيميله وصديقه يحيى بن إبراهيم الكدالي ، ولما توفي هذا الرئيس ندب عبد الله بن ياسين مكانه للرئاسة الأمير يحيى بن عمر بن تلاكاكين اللمتوني ليتولى شئون الحرب والجهاد . وكانت هذه أول مرحلة في رئاسة لمتونة الزمنية لطائفة المرابطين . ولما توفي الأمير يحيى في سنة ٤٤٧ هـ ، عين مكانه للقيادة أخوه أبو بكر بن عمر . ولما وضع المرابطون خططهم لافتتاح بلاد السوس في سنة ٤٤٨ هـ ، ندب الأمير أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين ليكون قائداً لمقدمة الجيش المرابطي . وهذه هي أول مناسبة تاريخية ، يذكر فيها اسم البطل المرابطي ، ولم يكن له يومئذ من الرئاسة ، سوى صفة القيادة لجنات من أجنحة الجيش المرابطي . وهنا ظهرت براعته العسكرية ، فيما اضطلع به المرابطون يومئذ من الفتوحات المتوالية في أنحاء المغرب ، وهي التي فصلنا أطوارها فيما تقدم . ولما توفي عبد الله بن ياسين قتيلاً في بعض المعارك التي نشبت في أراضي برغواطة في سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) ، استأثر الأمير أبو بكر اللمتوني بزعامة المرابطين الروحية والزمنية معاً ، وتحققت بذلك رئاسة لمتونة ، وبدأت الدولة المرابطية اللمتونية ، وقوام سلطانها ، ما تم يومئذ من فتوح المغرب .

ولما وقع الخلاف بين لتونة ومسوفة وغيرها من القبائل المرابطية ، في بلاد القبلة قاعدتهم بالصحراء ، واعتزم أبو بكر أن يسير بنفسه لتلافي الأمر ، عهد بشئون المغرب إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين (٤٥٣ هـ) ، وقسمت الجيوش المرابطية عندئذ إلى قسمين ، تولى يوسف إمرة أحدهما ليتم به إخضاع المغرب . وسار أبو بكر إلى الصحراء في القسم الآخر . وقد أشرنا من قبل إلى خاتمة أبي بكر ، وكيف أنه حينما عاد بعد إتمام مهمته في الصحراء إلى المغرب ولقي يوسف (سنة ٤٦٥ هـ) ، ورأى من عظمة سلطانه وقوته ، ما أدرك معه أن كل أمل قد غاض في استرداد إمارته على المغرب ، قد ارتد ثانية إلى الصحراء ، وهنالك اخترق مشارف الصحراء الكبرى ، ودخل منطقة النيجر الوسطى ، ولبت حيناً يقوم بغزوات متوالية في قلب مملكة السودان ، وعاصمتها يومئذ مدينة غانة ، وفي مملكة مالي ، وهو يعمل على نشر الإسلام بين تلك القبائل السود ، التي كانت يومئذ تدين بالنصرانية ، والتي تضع الرواية تاريخ إسلامها في سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م)^(١) . واستمر يتابع الجهاد والغزو حتى توفي قتيلاً في بعض المعارك في سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) . أما يوسف فقد عني من جانبه بإتمام فتوح المغرب واستطاع أن يخضع معظم نواحيه ، وأنشأ مدينة مراكش (٤٦٢ هـ - ١٠٦٩ م) لتكون قاعدة للملكه ، وعاصمة للأقطار المغربية المترامية التي تم له افتتاحها^(٢) .

وهنا يتشع يوسف بن تاشفين بثوب الملك السياسي والإمارة الفعلية . وقد كان مذندب لقيادة الجيش المرابطي ، وتوالت على يديه فتوح المغرب ، يتشع بثوب الرياسة والإمارة القسبي . وهنا تختلف الرواية في أصل ألقابه الملوكية ، وأوضاعها . والتاريخ يعرف يوسف بن تاشفين «بأمر المسلمين ، وناصر الدين» . فتى كان اتخاذ هذا اللقب ؟ وفي أي ظروف وقع ذلك ؟

(١) الحلل الموشية (طبع تونس) ص ٧

(٢) هذا هو التاريخ الذي يصعه ابن عذارى لإنشاء مراكش في البيان المغرب (من أوراق مخطوطة وحدت بمكتبة جامع القرويين بفاس ، ونشرت أخيراً بعناية الأستاذ هويثي ميرانده في مجلة *Hespéria* عدد سنة ١٩٦١ ص ٥٥) . ويتابعه صاحب الحلل الموشية فيضع تأسيسها في نفس التاريخ (الحلل الموشية ص ٦) . ويضع الشريف الإدريسي تاريخ إنشاء مراكش في سنة ٤٧٠ هـ (راجع المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس المنشور بعناية دوزي ص ٦٧) . ويضع صاحب كتاب «الاستبصار» تاريخ إنشائها في سنة ٤٥٩ هـ (ص ٢٠٨) . ويضع صاحب روض القرطاس تاريخ إنشائها في سنة ٤٥٤ هـ ، (طبعة تورنبرج ص ٨٩) ، ويتابعه في ذلك ابن خلدون (كتاب العبر ج ٦ ص ١٨٤) .

هنالك روايتان في ذلك . الأولى خلاصتها أن يوسف بن تاشفين لما كثرت فتوحه ، وترامت أطراف مملكته ، وكان يقتصر عندئذ على التسمى « بالأمير » اجتمعت إليه أشياخ لتونة ، وأعيان دولته ، وقالوا له أنت خليفة الله في أرضه ، وأن حقه يسمو على لقب الإمارة ، واقترحوا عليه أن يتسمى « بأمير المؤمنين » فأنى واعتذر بأن هذا اللقب إنما يتسمى به خلفاء بنى العباس ، سلالة النبي ، وأصحاب الحرمين ، وأنه يعتبر في المغرب رجلهم والقائم بدعوتهم ، ولكنه استجاب إليهم في التسمى « بأمير المسلمين » و« ناصر الدين » وكان ذلك في سنة ٤٦٦ هـ ، وخطب له بذلك في المنابر ، وخطب في العُدوتين ، وخرج بذلك كتابه إلى النواحي ، وهذا نصه بعد الديباجة :

« أما بعد حمد الله ، أهل الحمد والشكر ، ميسر اليسر ، وواهب النصر ، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر ، ولنا كتبنا إليكم من حضرتنا بمراكش حرسها الله في نصف محرم سنة ستة وستين وأربعمائة ، وأنه لما من الله علينا بالفتح الحسيم ، وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة ، وهدانا وهداكم إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم ، صلى الله عليه أفضل السلام ، وأتم التسليم ، رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم ، نمتاز به على سائر أمراء القبائل ، وهو أمير المسلمين وناصر الدين ، فن خطب الخطبة العلية السامية ، فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى ، والله ولي العدل ، بمنه وكرمه ، والسلام » (١)

ولكن هذه الرواية تعارضها رواية أخرى ربما كانت أكثر قبولا . ذلك أنه يوجد لدينا أكثر من نص يؤيد القول ، بأن تلقب يوسف بن تاشفين بهذا اللقب ، وقع عقب انتصاره في موقعة الزلاقة ، وهذا ما يوضحه لنا صاحب « روض القرطاس » إذ يقول ، إن يوسف كان يُدعى أولا بالأمير ، فلما فتح الأندلس وصنع غزاة الزلاقة ، وأذل الله تعالى بها ملك الروم ، بايعه في ذلك اليوم أى عقب النصر ، ملوك الأندلس وأمراؤها الذين شهدوا معه تلك الغزاة ، وكانوا ثلاثة عشر ملكا ، وسلموا عليه « بأمير المسلمين » . وخرجت كتبه مصدرة عنه بذلك إلى

(١) هذه هي رواية صاحب الخلل الموشية ص ١٦ و ١٧ ، وكذلك ابن عذارى في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها - هيسيرس ص ٦٠) . وفي بعض الروايات المأخوذة أن يوسف بن تاشفين تسمى بالفعل بأمير المؤمنين وخطب له بهذا الاسم ولبنيه من بعده (المؤنس في أخبار إفريقية وتونس) لابن دينار ص ٩٩ ، وهي رواية ضعيفة .

العُدوة وبلاد الأندلس ، فقرئت على المنابر ، وفيها يخبرهم بما فتح الله عليه من النصر والظفر والفتح العظيم . ثم يزيد على ذلك بأن يوسف هو أول من تسمى بأمر المسلمين من ملوك المغرب^(١) . وهذه الرواية يؤيدها ابن الخطيب في الإحاطة إذ يقول لنا بإيجاز في ترجمة يوسف : « تسمى بأمر المسلمين لما احتل الأندلس ، وأوقع بالروم وكان قبل يدعى الأمير يوسف »^(٢) . ونحن نرجح هذه الرواية الأخيرة لأنها أكثر اتفاقاً مع منطق الحوادث ودلالاتها .

أما اعتراف يوسف بن تاشفين بطاعة الخليفة العباسي ، فسألة تتفق عليها معظم الروايات . ويقول ابن الأثير ، وهو من أقدم مصادرنا في ذلك ، إن يوسف بعد أن تم له افتتاح ممالك الطوائف ، والاستيلاء على الأندلس ، وعاد إلى حضرة ملكه مراکش ، جمع الفقهاء وأحسن إليهم ، فذكروا له أنه ينبغي أن تكون ولايته صادرة من الخليفة لتجب طاعته على الكافة ، وأنه يجب أن يأتيه منه تقليد بحكمه للبلاد ، ويرجع ابن الأثير هذا النصح إلى علماء الأندلس خاصة ، ويقول لنا إن يوسف أرسل على أثر ذلك إلى الخليفة المقتدى بأمر الله ، فوافقه الخلع والأعلام والتقليد ، ولُقب بأمر المسلمين وناصر الدين . ومعنى ذلك أن يوسف تسمى بهذه الألقاب الملوكية ، أو أنها خلعت عليه فقط حينما أتاه المرسوم أو التقليد العباسي بذلك . وفي ذلك تختلف رواية ابن الأثير عن باقي الروايات^(٣) . ومن جهة أخرى فإن ذلك لابد أن يكون قد وقع قبل سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) وهي السنة التي توفي فيها الخليفة المقتدى بأمر الله . ويبدو من كلام صاحب « روض القرطاس » وابن الخطيب ما يؤيد ذلك ، وأن صدور هذا التقليد العباسي ليوسف قد وقع عقب انتصار الزلاّقة (٤٧٩ هـ) ، وأن يوسف قد ضرب السكة عقب ذلك ، وأصدر الدينار المرابطي الحديد وفي أحد وجهيه « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » وتحت ذلك « أمير المسلمين يوسف بن تاشفين » ، ونقش في مداره : « ومن يتبع غير الإسلام ديناً ، فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » وكتب في الوجه الآخر « الإمام عبد الله أمير المؤمنين العباسي »^(٤) .

(١) روض القرطاس ص ٨٨ ، وراجع وفيات الأعيان لابن خلكان (بولاق) ج ٢ ص ٤٨٨ .

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة ، مخطوط الإسكوريال (رقم ١٦٧٣ الغزيري) لوحة ٣٩٣

(٣) تاريخ ابن الأثير ج ١٠ ص ٥٢ و ١٤٥ .

(٤) روض القرطاس ص ٨٨ ، وابن الخطيب في مخطوط الإحاطة السالف الذكر لوحة ٣٩٣

على أن ابن خلدون يقول لنا بالعكس إن يوسف قد كتب في شأن تقليده إلى الخليفة المستظهر بالله ، ولد المقتدى بالله وخلفه ، وأنه بعث إليه في ذلك الغرض سفارة على رأسها عبد الله بن محمد بن العربي المعافى الإشبيلي وولده القاضي أبو بكر وهو الحافظ الشهير فيما بعد « فتلفظا في القول ، وأحسننا في الإبلاغ ، وطلبنا إلى الخليفة أن يعقد ليوسف على المغرب والأندلس » فصدر له عهده بذلك ، وعاد السفيران يحملان التقليد بولاية يوسف على ما تحت نظره من الأقطار والأقاليم ، وأذيعت محتويات هذا التقليد بين الناس . وكذلك كتب الإمام الغزالي ، والقاضي الطرطوشي إلى يوسف يحضانه على العدل والتسك بالخير ، ويفتيانه في شأن ملوك الطوائف^(١).

ولقد وقفنا نحن على ما يؤيد هذه الرواية الأخيرة - رواية ابن خلدون - تأييداً قاطعاً ، وحصلنا على نص الرواية التي سجلها ابن العربي عن مهمته ، وعن لقائه بالإمام الغزالي في بغداد ، وما استصدره من الفتوى الخاصة بموقف يوسف من أمراء الطوائف ، ومن الخلافة ، كما حصلنا على النص الكامل للخطاب الذي كتبه الإمام الغزالي عن هذا الموضوع ، إلى يوسف بن تاشفين ، وحمله الفقيه ابن العربي معه عند عوده إلى الأندلس .

ونحن نعرف أولاً أن الفقيه ابن العربي وولده أبا بكر ، قد رحلا إلى المشرق في مهمتهما المذكورة في مستهل ربيع الأول سنة ٤٨٥ هـ ، وإن كانت رحلتها قد اتخذت يومئذ طابع السفر لطلب العلم^(٢). وكان يوسف قد اشترك بعد الزلافة ، مع أمراء الطوائف في حصار حصن لبيط Alédo في سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) وشهد عندئذ من تمردهم ، ونفاقهم ، وجنوحهم إلى مملأة النصارى ، ما أحفظه عليهم . ثم جاز جوازه الثالث إلى الأندلس في سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ، وكان عندئذ قد اعتزم أمره في افتتاح ممالك الطوائف ، وأخذ يستولى عليها تناعاً ، وكان يهيم إلى جانب الحصول على المرسوم الخلفي ، أن يحصل على سند شرعي يبرر تصرفه نحو أولئك الأمراء . فلما وصل الفقيه أبو محمد العربي وولده أبو بكر إلى بغداد ، لقي الإمام أبا حامد الغزالي ، قطب فقهاء المشرق يومئذ ، وشرح له

(١) ابن خلدون - كتاب العبر - ح ٦ ص ١٨٨ . وقد ورد في هذا النص أن يوسف مخاطب « المستنصر العباسي » . ونحن نعتقد أن ذلك تحريف من الناسخ ، وأن المقصود هو الخليفة المستظهر .

(٢) ابن بشكوال في « الصلة » في ترجمة ابن العربي رقم ١٢٩٧ .

أحوال الأندلس ، وخلال أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وما اضطلع به من أعمال الجهاد وإعزاز الدين ، وما كان عليه ملوك الطوائف من تفرق وتخاذل ، واستعداد للنصارى ، وكيف تخلف بعضهم عن مشاركته في الجهاد مجاملة للمشركين . فلما قام بحصار النصارى . عقب جوازه الثاني ، في حصن لبيط ، تخلف بعض رؤساء الشرق عن معاونته . وقالوا إن طاعته ليست بواجبة لأنه ليس إماماً شرعياً من قریش . ووقف يوسف على رسالة وجهت من بعضهم إلى العدو ، يشجعه على المقاومة والصمود . وكان جواب يوسف لأولئك الزعماء المتمردين ، أنه خادم أمير المؤمنين المستظهر ، وأن الخطبة تجرى باسمه على أكثر من ألى منبر ، وتضرب السكة باسمه . وطلب الفقيه ابن العربي إلى الإمام الغزالي أن يزوده فيما تقدم بفتوى تبين حكم الشرع فيه ، وأن يزوده بكتاب إلى أمير المسلمين . فأما الفتوى فقد جاء فيها « أن يوسف كان على حق في إظهار شعار الإمامة للخليفة المستظهر^(١) ، وإن هذا هو الواجب على كل ملك ، استولى على قطر من أقطار المسلمين ، وإذا نادى الملك المشمول بشعار الخلافة العباسية . وجبت طاعته على كل الرعايا والرؤساء . ومخالفته مخالفة للإمام ، وكل من تمرّد واستعصى ، فحكمه حكم الباغي ، ومن حق الأمير أن يردّه بالسيف ، وأن يقاتل الفئة المتمردة على طاعته ، لاسيما وقد استنجدوا بالنصارى ، وهم أعداء الله ، في مقاتلة المسلمين ، وهم أولياء الله ، وأن يستمر في قتالهم حتى يعودوا إلى طاعة الأمير العادل . المتمسك بطاعة الخلافة العباسية ، ومتى تركوا المخالفة ، وجب الكف عنهم ، وذلك عن المسلمين منهم دون النصارى . وأما ما يظفر به من أموالهم فردود عليهم وعلى ورثتهم . وما يؤخذ من نساءهم وذرائعهم في القتال مهدورة لاضمان فيها ، وحكمهم بالجملة في البغي على الأمير المتمسك بطاعة الخلافة ، المستولى على المناير والبلاد بقوة الشوكة ، وحكم الباغي على نايب الإمام ، فإنه وإن تأخر عنه صريح التقليد لاعتراض العوايق المانعة ، من وصول المنشور بالتقليد . فهو نايب بحكم قرينة الحال ، إذ يجب على إمام المصر أن يأذن لكل مسلم عادل . استولى

(١) عننا على نص رواية ابن العربي ، وعن نص فتوى الإمام الغزالي في المخطوط رقم ١٢٧٥ لك (المكتبة الكائناتية) المخطوط بخرافة الرباط وعنوانه «مجموع أوله كتاب الأنساب» (لوحه ١٢٨ و ١٢٩) ، كما عثرنا فيه على نص كتاب الإمام الغزالي إلى يوسف بن تاشفين . ويبدو من ذكر الخليفة المستظهر في رواية ابن العربي وفي فتوى الغزالي أنهما يرجحان إلى سنة ٤٨٧ هـ ، وقد تولى المستظهر الخلافة بعد وفاة أبيه المقتدى في ١٦ المحرم سنة ٤٨٧ هـ .

على قطر من أقطار الأرض ، أن يخطب له ، وينادى بشعاره ، ويحمل الخلق على العدل والصفة ، ولا ينبغي أن يظن بالإمام توقف في الرضا بذلك والإذن فيه ، وأن توقف في كتبه المنشور ، فالكتب قد يعوق عن انشائها ، وإبصارها المعاذير . وأما الإذن والرضى بعد ما ظهر حال الأمير في العدل والسياسة ، وابتغاء المصلحة للتفويض والتعيين ، فلارخصة في تركه ، وقد ظهر حال هذا الأمير بالاستفاضة ظهوراً لا يشك فيه . وإن لم يكن عن إيصال الكتب وانشائه عائق ، وكانت هذه الفتنة لا تنطفيئ ، إلا بأن يصل إليهم صريح الإذن والتقليد بمنشور ، مقرون بما جرت العادة بمثله في تقليد الأمراء ، فيجب على حضرة الخلافة بذل ذلك ، فإن الإمام الحق عاقلة الإسلام ، ولا يحل له أن يترك في أقطار الأرض فتنة ثائرة ، إلا ويسعى في إطفائها بكل ممكن . »

هذا هو نص فتوى الإمام الغزالي لابن العربي عن حكم الشرع في موقف ملوك الطوائف ، حسبما شرحه ابن العربي للإمام ، وعن حق يوسف في الحصول على المرسوم الخلافي بولايته على ما فتحه من الأقطار بسيفه . وقد عاد الإمام الغزالي بعد ذلك ، فكتب إلى يوسف كتاباً يعرض فيه بالتفصيل إلى قصة ملوك الطوائف ، حسبما رواها له ابن العربي ، وإلى ما كانت عليه الأندلس في ظل حكمهم من التخاذل والذل ، والصغار والهوان ، وإلى استئالة النصارى عليها ، لما كان يسودها من تفرق الكلمة واختلاف الرأي ، حتى انتهى النصارى بأن رتبوا الجزية على المسلمين . ثم يشير إلى صريح الطوائف إلى يوسف ، وإلى جوازه البحر للجهاد ، وإلى ماوقفه الله من دحض شوكة النصارى ، وأنه حينما طلب يوسف إلى ملوك الطوائف أن يرفعوا المظالم عن المسلمين ، عادوا فجئحوا إلى ممالة النصارى ، فسأله المسلمون عندئذ إنزالهم عن البلاد ، فاستجاب لرغبتهم ، ورفع المظالم وقطع الفساد ، وينوه بما أبداه يوسف من العمل بأحكام الله ، ومن إثارة العلماء والاستماع لرأيهم فيما يفتون إليه من الأحكام ، ثم يشير بعد ذلك إلى ما أصدره من فتوى في شأن ملوك الطوائف ، وإلى ما كان ابن العربي بصده من السعي إلى استصدار المرسوم الخلافي بولاية يوسف على جميع بلاد المغرب ، وتمكين طاعته ، وإلى ما كان يبثه ابن العربي من دعاية واسعة للإشادة بحكم يوسف وخلاله ، سواء في العراق أو في المشاهد الكريمة بأرض الحجاز . ولم يثبت الغزالي بخطابه تاريخاً معيناً ، ولكن يبدو من نصه أنه كتبه قبل « مسيره إلى سفر

الحجاز». ونحن نعرف من حياة الغزالي أن ذلك كان في سنة ٤٨٨ هـ^(١). وكذلك حصل ابن العربي من العلامة أبي بكر الطرطوشي ، حين مروره على ثغر الإسكندرية ، وهو في طريق العودة ، على خطاب آخر يرسم أمير المسلمين يوسف . ويسدى الطرطوشي في كتابه النصح إلى يوسف بأن يحكم بالحق وفقاً لكتاب الله ، وأن يكون شقيقاً على رعيته شفقة الرجل على أهله ، وأن يعمل لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ويجري الطرطوشي في إسداء نصحه على طريقته في إيراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وأقاصيص الخلفاء والصحابة^(٢).

وتوفي الفقيه ابن العربي بثغر الإسكندرية في فاتحة سنة ٤٩٣ هـ^(٣) ، وعاد ابنه أبو بكر دونه إلى الأندلس في نفس العام ، وهو يحمل الرسالتين — رسالة الغزالي ورسالة الطرطوشي — وكذلك مرسوم الخليفة المستظهر إلى عاهل المرابطين .

وهكذا يبدو أنه مما لا مرأى فيه ، أن مؤسس الدولة المرابطية الكبرى . كان ينضوى من الناحية السياسية تحت لواء الخلافة العباسية وأنه كان يُدعى حتى قبل صدور هذا التقليد في الخطبة ليوسف بعد الدعاء للخليفة العباسي ، في سائر نواحي المغرب والأندلس . وسنرى فيما بعد كيف أن هذه الرعاية الأدبية العباسية للدولة المرابطية ، تمتد إلى ما بعد عهد يوسف ، وأن الخليفة العباسي يسبغ في مراسلاته على عاهل المرابطين بعض الألقاب الخاصة .

عرفنا فيما سبق كيف آلت إمارة المغرب إلى يوسف بن تاشفين ، مذ عهد إليه بشتونه ابن عمه الأمير أبو بكر اللمتوني في سنة ٤٥٣ هـ (١٠٦١ م) ، وكيف ارتد هذا الأمير إلى الصحراء وهناك توفي ، وخلصت إمارة المغرب نهائياً ليوسف ، وقامت الدولة المرابطية الكبرى ، بالمغرب والأندلس ، في ظل عاهلها الكبير .

(١) ورد نص خطاب الغزالي في مخطوط المكتبة الكتانية المشار إليه (لوحات ١٣٠-١٣٣) وقد نشرناه كاملاً في باب الوثائق .

(٢) ورد نص خطاب الطرطوشي في المخطوط المشار إليه (لوحة ١٣٣ و ١٣٤)

(٣) فنج الطيب ج ١ ص ٣٣٧ .

وأراد يوسف في أواخر حياته ، وبعد أن تم له افتتاح الأندلس ، أن يؤثّل ملكه ، وأن يطمئن لمصابير دولته العظيمة ، وذلك باختيار ولي عهده . وكان ليوسف من البنين خمسة هم ، أبو بكر سير . وعلى . وتميم . والمغز . وإبراهيم ، ومن البنات ثلاث هن كوتة ورقية وتميمة^(١) . وكان أبو بكر أكبر بنيه وولى عهده فيما يظهر ، وقد استخلفه أبوه على المغرب حينما عبر البحر لأول مرة إلى الأندلس ، في شهر ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ ، اسجاعة لصريخ الطوائف . ولما انتهت معركة الزلاقة بطغور المسلمين الباهر ، وارتدت الحيوش المرابطة إلى إشبيلية في طريقها إلى العودة ، تلى يوسف نبأ وفاة ولده أبي بكر . وكان قد تركه مريضاً في سبتة ، ويقول لنا صاحب القرطاس ، إن هذا النبأ الحزن . وصل إلى يوسف في يوم النصر ذاته^(٢) . وكان هذا الحادث سبباً في تعجيل يوسف بالعودة ، بل يقال لنا أيضاً إنه كان سبباً في إحباط خطط يوسف ، وتركه كل فكرة في مطاردة الحيوش النصرانية المنهزمة^(٣) .

وفي سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) ، قرر يوسف أمره في ولاية عهده ، ووقع اختياره في ذلك على ولده أبي الحسن على . ولم يكن على أكبر أولاده ، إذ كان أكبرهم عندئذ ، أبو الطاهر تميم ، ولكنه أثر عليا لما آتسه فيه من الورع والنباهة والحزم ، وأصدر مرسومه بولايته لعهد في نفس العام ، وإليك نص هذا المرسوم بعد الديباجة ، وهو من إنشاء الوزير الفقيه أبي محمد بن عبد الغفور ، وقد كان من أعلام البلاغة في هذا العصر :

« أما بعد فإن أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، لما استرعاه الله على كثير من عبادته المؤمنين ، خاف أن يسأله الله غدا عما استرعاه ، كيف تركه هملاً لم يستنب فيه سواه . وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة ، وجعلها من أوكد الأشياء الكريمة ، كيف في هذه الأمور العائدة بمصلحة الخاصة والجمهور . وأن أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة ، وخصه الله بها من

(١) كانت الأميرة تيممة بنت يوسف بن تاشفين تشتهر بجهاها ، ورعاية عقلها ، وأدبها ، وكانت تنظم الشعر الجيد . سكنت فاس مدة (ابن الأبار في التكلة ، وحذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس ، ص ١٠٥ و ١٠٦) .

(٢) روض القرطاس ص ٩٨ .

(٣) F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almoravides en Espana (٣)

(Zaragoza 1899) p. 2

النظر في هذه الأمور الدينية الشريفة ، قد أعز الله رماحه وأحدّ سلاحه ، فوجد ابنه الأمير الأجل ، أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالي واهتزازاً ، وأكرمها بحجة وأنفسها اعتزازاً ، فاستنابه فيما استرعى ، ودعاه لما كان إليه دعى ، بعد استشارة أهل الرأي على القرب والنأى ، فرضوه لما رضى ، واصطفوه لما اصطفاه ، ورأوه أهلاً أن يسترعى فيما استرعه ، فأحضره مشروطاً عليه الشروط الجامعة بينها وبين المشروط ، فقبل ورضى ، وأجاب حين دعى ، بعد استشارة الله الذى بيده الخيرة ، والاستعانة بحول الله الذى من آمن به شكره . وبعد ذلك مواعظ ووصية ، بلغت من النصيحة مراعى قصية ، يقول فى خاتمة شروطها ، وتوثيق ربوطها ، كتب شهادته على النائب والمستنيب ، من رضى إمامتهما على البعيد والقريب ، وعلم علماً يقيناً بما وصاه فى هذا الترتيب ، وذلك فى عام خمسة وتسعين وأربعمائة^(١) .

وكان من الشروط التى اشترطها يوسف على ولده وولى عهده على ، فيما يختص بالدفاع عن الأندلس ، هو ألاّ يعين فى مناصب الحكام والقضاة فى الولايات والحصون والمدن إلا المرابطين من قبيلة لمتونة ، وأن ينشئ بها جيشاً مرابطياً ثابتاً ، قوامه سبعة عشر ألف فارس ، توزع على مختلف القواعد ، فرباط منها بإشبيلية سبعة آلاف ، وبقرطبة ألف ، وبغرناطة ألف ، وفى شرق الأندلس أربعة آلاف ، وتوزع الأربعة آلاف الباقية على الثغور والحصون المتاخمة لأراضى العدو . هذا ويحسن أن يعهد إلى الأندلسيين بحراسة الحدود النصرانية ، فهم أكثر خبرة بأحوال النصارى ، وأكثر دربة على قتالهم من المرابطين . وفى سنة ٤٩٦ هـ ، (١١٠٢ م)^(٢) جاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس جوازه الرابع والأخير ، ومعه ولده أبو الحسن على وأبو الطاهر تميم^(٣) . وكان يوسف يقصد بهذا الجواز النظر فى شئون الأندلس ومصالحها ، وكان يقصد بالأخص أن ينظم البيعة لولده على الذى اختاره لولاية عهده . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن علياً لم يكن مع والده فى هذا الجواز ، وإنه بالعكس كان يقيم عندئذ فى سبتة التى ولد بها

(١) أورد نص هذا المرسوم صاحب الحلل الموشية (ص ٥٦ و ٥٧) .

(٢) وفى رواية أخرى أن هذا الجواز قد وقع فى سنة ٤٩٧ هـ (ابن خلدون - كتاب العبر

ج ٦ ص ١٨٨) . ولكن التاريخ الذى يحمله كتاب التولية وهو ذو الحجة سنة ٤٩٦ هـ ، يؤكد صحة الرواية الأولى .

(٣) الحلل الموشية ص ٥٥ .

ونشأ^(١) . ونحن نرجع الرواية الأولى بحضور على مع والده إذ كان هو المقصود بتنظيم البيعة ، ومن المعقول أن يكون حاضراً في حفل تنظيمها . وفي أواخر سنة ٤٩٦ هـ ، كان يوسف بقرطبة ، عاصمة الخلافة ، وكانت يومئذ قاعدة للحكم المرابطي في الأندلس ، وجمع يوسف أعيان قبيلة لمتونة ، وأشياخ المرابطين والفقهاء ، وأخذ البيعة عليهم جميعاً لولده على ، وصدر كتاب التولية والبيعة عن يوسف لولده ، مديباً بقلم وزيره وكاتبه أبي بكر بن القصيرة علم البلاغة ، وإمام النثر والترسل يومئذ ، وإليك نص الكتاب المذكور :

« هذا كتاب تولية عظيم جسيم ، وتوصية حميم كريم ، صدرت على الرضا قواعده ، وأكدت بيد التقوى معاقده ، وسددت إلى الحسن مقاصده ، وأبعدت عن الهوادة والهوى مصادره وموارده ، أنفذه أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبو يعقوب يوسف بن تاشفين أدام الله أمره ، وأعز نصره ، وأطال فيما يرضيه منه ، ويرضى به عنه عمره ، غير محاب ولا تارك في النصيحة لله ولرسوله والمسلمين ، موضع ارتياب لمرتاب ، للأمير الأجل أبي الحسن عليّ ابنه ، المتقبل هممه وشيمه ، المتأمل حلمه وتحلمه ، الناشئ في حجر تقويمه وتأديبه ، المتصرف بين يدي تخرجه وتدريبه ، أدام الله عزه وتوفيقه ، ونهج إلى كل صالح من الأعمال طريقه ، وقد تهتم ، بمن تحت عصاه من المسلمين ، وهدى في انتقاء من يخلفه هدى المتقين ، ولم ير أن يتركهم بعد سدى غير مدينين ، واعتام في النصاب الرفيع ، واختار واستنصح أولى الرأي والدين ، واستشار فلم يوقع بعد طول تأمل وتراخي مدة ، وتمثل اختياره في اختيار من فاوضه في ذلك من أولى التقوى والحكمة ، واستشارة [الأعلى] ولا صار بدونهم الارتياح والاجتهاد إلا إليه ، ولا التي رواد الرأي والتشاور إلا لديه ، فولاه عن استحكام بصيرة ، وبعد طول مشورة ، عهده ، وأفضى إليه الأمر والنهي والقبض والبسط بعده ، وجعله خليفته الساد في رعاية مسده ، وأوطأ عقبه جماهير الرجال ، وناط به مهمات الأمور والأعمال ، وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع ، ولا يعدل عن سمت العدل وحكم الكتاب والسنة ، في أحد عصا أو أطاع ، ولا ينأ عن حماة الحذب والخوف بالإضطرّاج ، ولا يتلين دون معلن بشكوى ، ولا يتصام عن مستصرخ لدى بلوى ، وأن ينتظم أقصى البلاد وأدناها في سلك تدبيره ، ولا يكون بين

القريب والبعيد في إحصائه وتقديره . ثم دعا أدام الله تأييده لمبايعته . أدام الله عزه ، من خضر و . . من المسلمين ، فلبوا مسرعين وأتوا مهطعين ، وأعطوا صفقة إيمانهم متبرعين متطوعين ، وبابعوه على السمع والطاعة ، والتزام سنن الجماعة . وبذل النصيحة جهد الاستطاعة ، ومناصفة من ناصفه ، ومحاربة من حاربه . ومكايده من كايده . ومعاندة من عانده . لا يدخرون في ذلك على حال المنشط مقدره ، ولا يحجون في حالي الرضا والسخط إلى معذرة ، ثم أمر بمخاطبة ساير أهل البلاد لتبايعه ، كل طائفة منهم في بلدها ، وتعطيه كما أعطاه من حضر ، صفقة يدها . حتى ينتظم في التزام طاعته القريب والبعيد ، ويجتمع على الاعتصام بحبل دعوته الغائب والشديد ، وتطمئن من أعلام الناس وخيارهم نفوس قلقة . وتنام عيون لم تنزل مخافة أقدائها مورقة ، ويشمل الناس كافة السرور والاستبشار . وتمكن لديهم الدعة ، ويمهد القرار . وتنشأ لهم في الصلاح آمال . ويستقبلهم جد صالح وإقبال ، والله يبارك بيعة رضوان ، وصفقة رجحان ، ودعوة يمين وإيمان ، إنه على ما يشاء قدير ، لا إله إلا هو نعم المولى ونعم النصير . شهد على إشهاد أمير المسلمين بكل ما ذكر عنهم فوق هذا من بيعته . . حملة عنه ممن التزم البيعة المنصوصة قبل ، وأعطى صفقته طائفاً متبرعا ، وبالله التوفيق ، وكتب بحضرة قرطبة في ذى الحجة سنة ست وتسعين وأربعمائة ^(١) .

وقد سبق أن عرضنا من قبل في كتاب « دول الطوائف » إلى لمحة من خلال يوسف وصفاته ^(٢) ، ونود هنا أن نبسط القول في ذلك .

إن شخصية البطل المرابطي العظيم تنطوى على كثير من الصفات اللامعة ، التي جعلت من حياته المديدة الحافلة ، نموذجاً مثالياً لهذا النوع من البطولة الساذجة الرائعة معاً . والواقع أن أروع ما في صفاته ، تلك الهالة الوضاعة من البساطة المؤثرة ، التي لبثت شعار حياته كلها ، والتي لم تتأثر بتطورات الأحداث السياسية التي

(١) أورد لنا ابن الخطيب نص هذه الوثيقة في « الإحاطة » في ترجمته لأبي بكر بن القصيرة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحه ٧١ و ٧٢) . وفي بعض الروايات أن البيعة عقدت لملى في غرناطة (كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، لابن الكردبوس ، مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد لوحه ١١٦٤) وهذا ما ينتقضه ختام الوثيقة .

(٢) كتاب دول الطوائف ص ٣٠٢ و ٣٠٣ .

خاضها ، والفتوح العظيمة التي حققها ، والتي جعلت من الدولة المرابطية الكبرى ، في ظله ، أعظم دولة قامت في الغرب الإسلامي ، من حيث المدى الإقليمي ، ومن حيث القوى والموارد الزاخرة ، إذ كانت تمتد من تونس شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غرباً ، ومن ضفاف نهرى الإيبرو والتاجه في شبه الجزيرة الإسبانية شمالاً ، إلى قلب الصحراء الإفريقية الكبرى جنوباً . فقد لبث البطل المرابطي ، عاهل هذه الدولة الشاحنة ، على حالته الأولى ، مذ كان زعيماً محلياً من زعماء الصحراء ، بدوياً متقشفاً يرتدى الصوف الخشن ، ولا يلبس غيره قط ، ويقتصر في طعامه على الشعير ولحوم الإبل وألبانها ، لا يأكل سواها قط (١) ، ولم يتأثر طول حياته ، بأية نزعة من ترف القصور ، ولا عيشها الناعم ولا مغرياتها المفسدة ، بالرغم من هذا الملك الباذخ ، وهذه الدنيا العريضة التي كانت تحت أقدامه . ويكفي أن نتأمل مدى لحظة عابرة ، ما كانت عليه قصور الطوائف الأندلسية من الفخامة والبذخ الطائل ، وما كان يغرق فيه أمراؤها الأصاغر من العيش الرخو الوثير المترف ، تتألق ثيابهم الفخمة بالذهب والجوهر ، وتحيط بهم أكواب الشراب وأسراب الغلمان والحواري والفتيات — يكفي أن نتأمل ذلك ، لترتفع بحياة البطل المرابطي ، إلى ذرى الإكبار والإجلال والإعجاب .

وقد كانت هذه البساطة المؤثرة التي طبعت حياة يوسف بن تاشفين ، تقترن في نفس الوقت بطائفة من الصفات المعنوية النبيلة ، التي تجعل من صاحبها عماداً حقيقياً للملك ، وتتوطد بها أسس الدولة العظيمة . فقد كان يوسف يتمتع بكثير من الذكاء والفطنة ، والعزم والشجاعة والحزم ، والكرم والجود ، وكان فضلاً عن ذلك كثير التقى والورع . وإلى ذلك يشير ابن الصير في مؤرخ الدولة المرابطية بقوله : « كان رحمه الله خائفاً لربه ، كئوماً لسره ، كثير الدعاء والاستخارة ، مقبلاً على الصلاة ، مدمماً للاستغفار » (٢) . ويلحق بذلك شغف يوسف بالجهاد ، فقد كان بطلاً مجاهداً حقاً ، وقد أنفق من عمره أعواماً طويلة في الجهاد في سبيل الله ، مذ نذبه ابن عمه الأمير أبو بكر اللمتوني لقيادة المرابطين . وقد تجلت هذه النزعة للجهاد فيما بعد بصورة رائعة ، في استجابته لصريخ الطوائف ، وفي موقعة الزلاقة العظيمة ، وفيما خاضته الجيوش المرابطية ، في مختلف

(١) روض القرطاس ص ٨٧ .

(٢) ابن الخطيب عن ابن الصير في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٩٣) .

أنحاء الأندلس ، ولاسيا في الولايات الشرقية في بلنسية وسرقسطة من معارك عديدة ، ضد الجيوش النصرانية ، ولم يكن غريباً في مثل الظروف التي كانت تجوزها اسبانيا المسلمة يومئذ ، من تحاذل أمراء الطوائف وتنازلهم ، وتراميمهم على أعتاب الملوك النصارى ، وإشفاق البطل المرابطى ، أن ينتهى الأمر باستيلاء النصارى على الأندلس ، أن ينفذ يوسف مشروعه في القضاء على ممالك الطوائف ، ووضع الأندلس تحت حماية جيوشه القوية المظفرة ، ولم يكن في ذلك ما يصدع من نزعة الجهاد ، التي كانت من أبرز صفات يوسف ، والتي لبثت الجيوش المرابطية تضطرم بها من بعده عصراً .

وكان يوسف بن تاشفين جندياً عظيماً ، وقائداً من أعظم قواد العصور الوسطى ، وقد أبدى في سائر فتوحه المتوالية لأقطار المغرب ، كفاية عسكرية واضحة ، ولم يكن ظفـره المستمر راجعاً إلى كثرة جيوشه ومقدرتها ، بقدر رجوعه إلى براعته في تنسيق الخطط ، وتنظيم القيادة ، وانتهاز الفرص السانحة . وأشد ما تبدو هذه البراعة في حوادث موقعة الزلاقة وتطوراتها ، فإن النصر الباهر الذي أحرزته الجيوش المرابطية والأندلسية ، في هذه الموقعة ، يرجع بالأخص إلى شجاعة يوسف وثباته ، وبراعة خططه ، وقد كان من حسن طالع يوسف ، أنه استطاع أن يعتمد في حروبه ومشاريعه العسكرية ، على معاونة طائفة من أقدر القواد وأشجعهم ، — مثل سير بن أبي بكر ، وداود بن عائشة ، والأمير مزدلى ، ومحمد بن الحاج ، وغيرهم ممن سبق ذكرهم في مختلف المواطن والحوادث . وإلى جانب براعته العسكرية ، كان يوسف يمتاز بمقدرة إدارية فائقة ، وكان هذا الزعيم الصحراوي الموهوب . يحكم الإمبراطورية المرابطية الضخمة ، بحزم وكفاية تدعو إلى الإعجاب . وكان إلى جانب ورعه وتقواه . صارماً شديداً الوطأة ، حريصاً على استتباب النظام والأمن ، دائماً على تفقد بلاده وشئون رعيته . ويدلخص لنا ابن الصير في طريقة يوسف وصرامته في قمع المعارضين والحوارج على القانون في قوله : « أكثر عقابه لمن تجرأ أو تعرض لانتقامه الاعتقال الطويل ، والقيد الثقيل ، والضرب المبرح ، إلا من انتزى أو شق العصا . فالسيف أحسم لانتشار الداء »^(١) . ويبدو من ذلك أن يوسف لم يكن يلجأ إلى تطبيق عقوبة

(١) ابن الخطيب بغلا عن ابن الصير في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوجه ٣٩٣) . وكذلك الحلل الموسية ص ٥٩ . وابن عذاري في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر ، هيسيرس ص ٦٥) .

الإعدام إلا في حالة العصيان أو الثورة ، وأنه فيما عدا ذلك فإن أقصى عقوبة تطبق في الجرائم العادية ، هي « الاعتقال الطويل ، والقيد الثقيل » ، وهو ما تعتبر عنه القوانين الجنائية الحديثة ، بعقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة .

وقد نوهت معظم الروايات بحب يوسف للعدل وإيثاره ، والعمل على توطيده ، كما نوهت باحترامه لأحكام الشرع ، والحرص على تطبيقها ، وتعظيمه للعلماء والفقهاء ، والرجوع إليهم والأخذ بآرائهم وفتاويهم . وهو ما يجعله ابن الصيرفي في قوله : « يواصل الفقهاء ، ويعظم العلماء ، ويصرف الأمور إليهم ، ويأخذ فيها بآرائهم ، ويقضى على نفسه ، وغيره بفتياهم ، ويحض على العدل ، ويصدع بالحق ، ويعضد الشرع »^(١) . وقد رأينا فيما تقدم في غير موطن ، كيف كان يوسف يلجأ إلى رأى الفقهاء في أخطر الأمور ، ومن ذلك استشارته إياهم ، أولا في مسألة العبور إلى الأندلس ، واستجابة صريخ الطوائف ، وثانيا في خلع ملوك الطوائف ، وانزعاع ممالكهم ، ولم يكتف يوسف في ذلك بفتاوى فقهاء المغرب والأندلس ، بل لجأ في نفس الوقت إلى فقهاء المشرق ، وحصل على آراء أعلام مثل أبي حامد الغزالي ، وأبي بكر الطرطوشي^(٢) . وما يروى في ذلك أن الإمام الغزالي كان يعجب بورع يوسف وجميل صفاته ، وميله إلى أهل العلم ، حتى أنه اعتزم الرحلة إلى المغرب وزيارة هذا الأمير الأمثل . ولكنه لما وصل إلى الإسكندرية وأخذ في التأهب للسفر إلى المغرب ، ورد إليه الخبر بوفاة أمير المسلمين ، فارتد عن عزمه وعاد من حيث أتى^(٣) . وكان من أبرز مظاهر تمسك يوسف بأحكام الشرع ، وآراء الفقهاء ، موقفه من الضرائب والمغارم التي يسوغ للأمير فرضها على رعيته ، فهو قد ألغى الضرائب والمكوس ، التي لم يجز الدين فرضها ، واكتفى بفرض ما يجيزه الشرع من ذلك ، مثل الزكاة والأعشار وأخماس الغنائم ، وجزية أهل الذمة . وقد كان لهذه السياسة الضريبية الرفيعة ، بالأخص في الأندلس ، أطيّب الأثر ، إذ كان ملوك الطوائف يرهقون رعيّتهم بالفروض ،

(١) ابن الخطيب نقلا عن ابن الصيرفي في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) . وراجع الحال الموشية ص ٥٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ و ١٨٨ . ويلاحظ أن الطرطوشي كان في الأصل من فقهاء الأندلس ولكنه نزح إل المشرق (راجع كتاب دول الطوائف ص ٢٨٤) .

(٣) ابن خلكان في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨٨ ، وكتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن دينار ص ١٠٦ .

والمغارم الفادحة ، تغذية لقصورهم الفخمة ، وبذخهم الطائل ، وقد كان تلاميذهم في ذلك ، من الأسباب التي التمسست لخلعهم والقضاء على سلطانهم . بيد أن يوسف كان يلجأ في بعض الأحيان إلى فرض الإتاوات على رعاياه ، مساهمة منهم في نفقات الجهاد المستمر ، الذي كان يضطلع به ، وقد كان يلجأ في جواز ذلك أيضاً إلى فتاوى الفقهاء . ومن ذلك ما وقع له مع قاضي ألمرية ، أبي عبد الله محمد بن يحيى المعروف بابن الفراء ، فإنه قرر بعد موافقة الفقهاء ، أن يطالب أهل المغرب والأندلس بمعونة مالية للمساهمة في أعمال الجهاد . وكتب إلى قاضي ألمرية المذكور يأمره بتحصيل هذه الإتاوة وإرسالها ، فأبى القاضي ، وكتب إلى يوسف يطعن في شرعية هذه الإتاوة ، وفي رأى الفقهاء الذين أجازوها ، ويطالب يوسف ، إن كانت خزانته ناضبة حقاً ، بأن يمثل في المسجد الجامع بحضرة أهل العلم ، وأن يحلف علناً بأنه ليس لديه في بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم ، أسوة بما فعل عمر بن الخطاب ، حين أراد فرض مثل هذه الإتاوة ، وعندئذ يجوز له تحصيلها^(١) . ومن جهة أخرى فإن يوسف لم يكن يحجم في بعض الأحيان ، عن تحصيل الأموال بطرق استثنائية كفرض المغارم على اليهود والنصارى من آن لآخر ، لظروف وأسباب خاصة . وقد ذكر لنا صاحب الحلل الموشية طرفاً من ذلك^(٢) .

وكان المغرب يتمتع في ظل يوسف بكثير من الاستقرار والأمن والرخاء ، بعد الفتن والحروب المضطربة ، التي لبثت قبل الفتح المرابطي . زهاء نصف قرن ، تمزق أوصاله ، وتودى بأمنه وسلامه . ولما تم استيلاء المرابطين على الأندلس ، وشعرت الأمة الأندلسية أنها أصبحت في مأمن من عدوان اسبانيا النصرانية ، أتيح لها أيضاً أن تتمتع بشيء من الاستقرار والسكينة ، وذلك بالرغم مما كانت تشعر به من شدة وطأة الحكم المرابطي ، وجفاء أساليبه ، وخشونة حكمها الجدد من زعماء البربر ، ويعدهم عن تلك الكياسة التي كان يمتاز بها الأمراء والحكام من مواطنيهم . وعلى أي حال فقد عرفت الأندلس في الأعوام الأخيرة من حياة يوسف ، وقبل أن يشتد عليها ضغط النير المرابطي ، وتستيقظ مشاعرها الوطنية الدفينة ، فترة طيبة من الهدوء والاستقرار ، يصفها لنا المؤرخ فيما يلي :

« أقامت بلاد الأندلس في مدته (أي مدة يوسف) سعادة حميدة في رفاهة عيش ،

(١) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٤٨٥ ، والإستقصاء للسلاوي (طبعة القاهرة) ج ١ ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢) الحلل الموشية ص ١٣ و ٥٩ .

وعلى أحسن حال . لم تزل موفورة محفوظة ، إلى حين وفاته ^(١) .

وكان يوسف فضلاً عن حسن اختياره لقادته . يحسن اختيار معاونيه من الكتاب والوزراء . وكان كاتبه قبل أن يجوز جوازه الأول إلى الأندلس . أديباً أندلسياً من أهل ألمرية هو عبد الرحمن بن أسباط ، أو أسبط . وكان قد نشأ أديباً مغموراً يشتغل في باب الديوان بالمرية أيام بنى صمادح . وفي سنة ٤٧٢ هـ عبر البحر إلى العدو ، ولحق بمراكش يبحث وراء طالع ، واتصل بحاشية الأميرة الحرة زينب زوجة يوسف ، فأسند إليه منصب الكتابة . ولما توفيت الأميرة أقره يوسف لكتابتها ، فظهر في هذا المنصب . ونال حظوة وجاها عريضاً . « وكان رجلاً حصيفاً سكوناً عاقلاً » وكان يوسف يثق في مقدرته وحصافته . وحسن معرفته بشئون الأندلس . وقد لعب عبد الرحمن بن أسباط دوراً هاماً في تدخل يوسف في أحوال الأندلس . واستجابته لصريح الطوائف ، وهو الذي أشار عليه ، حينما قرر الجواز إلى شبه الجزيرة . بأن يطالب ابن عباد بثغر الجزيرة ليكون مركزاً أميناً لجواز جيوشه وعودتها إلى العدو ^(٢) . ومما هو جدير بالذكر أن يوسف بن تاشفين كان لا يعرف العربية . وكان ابن أسباط يجيد اللغة البربرية التي يتحدث بها يوسف ^(٣) وكان هذا من أسباب حظوته . ولما توفي ابن أسباط في سنة ٤٨٧ هـ ، تولى الكتابة ليوسف من بعده . كاتب من أعظم كتاب الأندلس يومئذ ، هو محمد بن سليمان بن القصيرة المعروف بأبي بكر بن القصيرة ، وهو الذي يصفه ابن الصيرفي بقوله : « الوزير الكاتب الناظم النائم بعمود الكتابة ، والحامل للواء البلاغة ، الذي لا يشق غباره ، ولا تخمد أنواره ، اجتمع له براعة النثر . وجزالة النظم » ^(٤) ، وهو الذي كتب عن يوسف حين مثوله بقرطبة في سنة ٤٩٦ هـ ، كتابه بتولية ولده على ولاية عهده حسبما تقدم . ولما توفي يوسف استمر أبو بكر في الكتابة لولده على حتى وفاته في سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) ، وفي استخدام يوسف لهذين الكاتبين الأندلسيين البليغين ، بالرغم من عدم معرفته بالعربية ، ما يدل على حصافته ، وبعد نظره ، وإدراكه لأهمية الأساليب العالية في الترسل ، وقلة

(١) الحلل الموشية ص ٥٩

(٢) الحلل الموشية ص ٣٢ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٢ .

(٤) ابن الخطيب عن ابن الصيرفي في الإحاطة (مخطوطة الإسكوريال السالفه الذكر) .

كان ثمة بين يوسف وبين الخلافة العباسية ، وبينه وبين أكابر فقهاء المشرق مراسلات كثيرة . ومن جهة أخرى فقد كانت المراسيم المرابطية . تصدر في أحيان كثيرة باللغتين البربرية والعربية . لتقف عليها الكثرة الغالبة من الرعايا . وهى المتكلمة بالعربية ، ومما زاد فى أهمية منصب الكتابة فى الدولة المرابطية ، وشغله بأعلام الكتاب البلاء ، فتح الأندلس . وخضوعها للحكم المرابطى ، ووجوب مخاطبتها بنفس الأساليب العربية العالية التى كانت سائدة فيها .

وأما عن شخص يوسف ، فإن الرواية تصفه بأن كان معتدل القامة ، أسمر اللون ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، رقيق الصوت (١) .

فى سنة ٤٩٨ هـ ، مرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، واستمر يعانى من مرضه حتى اشتدت به العلة فى العام التالى . ومازالت حالته تسوء شيئاً فشيئاً ، حتى حم القضاء ، وتوفى فى يوم الإثنين مستهل شهر المحرم سنة ٥٠٠ هـ (٢ سبتمبر سنة ١١٠٦ م) ، بقصره بمراكش ، عن مائة عام كاملة ، وبعد أن وصلت الدولة المرابطية الكبرى على يديه إلى ذروة عظمتها وقوتها .

فكان لوفاة وقع عظيم فى المغرب والأندلس ، ورثاه جماعة من شعراء العصر ، منهم أبو بكر بن سوار . وقد أنشد على قبره مرثية مؤثرة جاء فيها :

ملك الملوك وما تركت لعامل	عملا من التقوى يشارك فيه
يا يوسف ما أنت إلا يوسف	والكل يعقوب بما تطويه
اسمع أمير المؤمنين وناصر الـ	دين الذى بنفوسنا نفديه
جوزيت خيراً عن رعيتك التى	لم ترض فيها غير ما يرضيه
وصل الجهاد إلى الجهاد موقفاً	حتم القضاء بكل ما تقضيه
ويحيى ما دبرته كمجيئه	فكأن كل مغيب تدريسه
متواضعاً لله مظهر دينه	فى كل ما يديه ويخفيه (٢)

وقد ترك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عند وفاته إمبراطورية من أعظم الإمبراطوريات التى حكمها الإسلام ، تشتمل على قطرين من أعظم وأهم الأقطار

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨٨ .

(٢) ابن عذارى فى البان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها ، هسبرس ص ٦٤ و ٦٥ و ٦٦ .

الإسلامية في العصور الوسطى ، هما المغرب والأندلس : وتمتد فيما بين تونس شرقاً ، والمحيط الأطلنطي غرباً . وفيما بين نهر التاجه في قلب اسبانيا شمالاً ، وبلاد السودان ونهر النيجر جنوباً . ويكفي لكى نقدر روعة المعجزة العسكرية والسياسية ، التى حققها عبقرية يوسف . أن نرتد نصف قرن فقط إلى ما قبل وفاته ، وأن نلقى نظرة عابرة على ما كان عليه المغرب والأندلس يومئذ . فقد كان المغرب عندئذ فريسة لأشنع ضروب التفريق والفوضى ، تتقاسم أقطاره وقواعده الثالثة ، عدة كبيرة من الزعامات القبليّة ، وتقوم فيه إمارات عديدة ، متخاصمة متنازعة ، وتجتاح الحروب الأهلية الصغيرة مروجها وبواديها ، ويسود الفقر والاختلال والفوضى سائر نواحيه . وقد كان قيام المرابطين في جنوبي المغرب ، وانتظامهم إلى قوة مصلحة غازية ، في هذه الآونة ، وسيرهم لافتتاح أقطار المغرب وقواعده . وظفرهم بالتغلب على إماراته وقواعده المتفرقة . وضمها تحت لوأهم في وحدة متماسكة ودولة موحدة ، كان ذلك في الواقع عمل إنقاذ قومى من أعظم ما وقع في تاريخ المغرب . وقد اضطلع يوسف بن تاشفين في ذلك كله حسبما رأينا بأوفر نصيب . وكان له في تحقيقه أعظم الفضل . ولما قامت الدولة المرابطية الكبرى ، تتوسطها عاصمتها العظيمة مراکش ، وتوطدت دعائم الحكم المرابطى ، ساد في المغرب نوع من النظام والأمن ، لم يكن له به عهد منذ بعيد ، وعم الرخاء ، واستطاع الناس أن ينعموا بكثير من الاستقرار والهدوء . ووقعت نفس المعجزة في الأندلس ، فبعد أن لبثت زهاء نصف قرن ، تعانى في ظل أمراء الطوائف . وفي ظل دولهم الضعيفة المتنازعة ، مصائب التفريق ، والحروب الأهلية المتوالية ، وبعد أن استطال عليها النصرارى ومالوا على دول الطوائف ، فأذلوها واستباحوا حماها ، واستصفوا أموالها ، وبدأوا بانزاع قواعدها ، وبعد أن لاح لأهل الأندلس أن الآخرة قد دنت ، وأنه لن يمضى سوى القليل ، حتى تقضى اسبانيا النصرانية على دول الطوائف كلها ، وتنتزع سائر قواعدها وأراضيها ، وتسقط الأندلس كلها في يد العدو الخالد ، وينطق نور الإسلام من تلك الديار العزيزة ، بعد ذلك كله جاء جواز يوسف بن تاشفين وجيوشه المرابطية إلى الأندلس ، نذير الإنقاذ ، وانقشاع الخطر الداهم ، وكُتبت لإسبانيا المسلمة حياة جديدة . ثم كان افتتاح المرابطين لدول الطوائف ، وبسط سيادتهم على الأندلس ، فردت إليها وحدتها الإقليمية القديمة ، وبالرغم مما اقترن

بهذا الفتح المرابطى من مظاهر العنف والقسوة ، وبالرغم مما كان ينطوى عليه بالنسبة للأمة الأندلسية من معانى الافتئات والاغتصاب ، وسيطرة القبائل البربرية على حريات الأندلس ومصايرها ، فإنه كان أيضاً عمل إنقاذ لاشك فيه . وكانت سيطرة المرابطين على اسبانيا المسلمة فى تلك الفترة العصبية من حياتها ، هى أوكد ضمان بصونها ، والذود عنها ، وحمايتها من عدوان اسبانيا النصرانية .

وهكذا استطاع يوسف فى مدى نصف قرن أن يحقق وحدة المغرب ، وأن يحقق وحدة الأندلس معاً . وأخيراً أن يحقق الوحدة بين الدولتين الإسلاميتين العظيمتين فى ظل الدولة المرابطية الكبرى .

ولما توفى يوسف كانت هذه الدولة المرابطية الكبرى تمثل بشطريها - المغرب والأندلس - وفقاً لقول المؤرخ « ملوكاً مؤسساً . وجنداً مجنداً ، وسلطاناً قاهراً ومالاً وافرآ » (١) .

بيد أن هذه الدولة العظيمة بالرغم مما كان يبدو من توطدها وقوتها ورخائها ، كانت تحمل فى ثنائيتها بعض عوامل الوهن الخفية ، التى تسترّها المظاهر الخادعة ، وهى كانت تدين بوحدتها وقوتها قبل كل شئ إلى عبقرية مؤسسها العظيم . فلما اختفى يوسف من الميدان ، فقدت الدولة المرابطية أعظم قادتها وحمايتها : فقدت تلك اليد الموجهة المرشدة ، التى كانت تقودها دائماً نحو التوطد والظفر ، وتلك العقلية الراجحة ، التى كانت تستشرف الحوادث البعيدة من خلال الحجب ، وتعمل على تداركها ، وتوجيهها إلى الغاية المرغوبة .

(١) ابن الخطيب عن ابن عذارى فى الإحاطة فى ترجمة على بن يوسف (مخطوط الإسكوريال السالت الذكر لوحة ٢٩٢) .

الفصل الثاني

أمير المسلمين علي بن يوسف وأحداث عصره

علي بن يوسف يخلف أباه . الثورة في فاس وإخفاقتها . علي يعبر إلى الأندلس . أعماله وعوده . أمره إلى أخيه تميم باستئناف الغزو . خروج تميم في قواته إلى قشتالة . مسيره إلى حصن أقليمش واقتحامه إياه . أهبة ألفونسو السادس لرد الغزاة . مسير القشتاليين إلى أقليمش . موقف الجيش المرابطي . عدد الجيشين المتحاربين . التحامهما في معركة عنيفة . مصرع الإنفانت سانشو وهزيمة القشتاليين . خسائر النصراري والمسلمين . إنجام الاستيلاء على أقليمش . الروايات النصرانية عن الموقعة . عبور علي إلى الأندلس . غزوه لأراضي قشتالة ، استيلاؤه على طلبيرة . محاصرته لطليلة . رفع الحصار وعوده إلى قرطبة ثم إلى مراكش . غزو الأمير سير اللهنوني لأراضي البرتغال . استيلاؤه على يابرة وأشبونة وشترين . غزو مزدلى وإلى قرطبة لأراضي قشتالة . استيلاؤه على حصن أرحنه ومحاصرته لطليلة . القتال بين القشتاليين والمرابطين . رفع الحصار وعود المرابطين . وفاة مزدلى وولاية ولده محمد لقرطبة . غزو القشتاليين لولاية قرطبة . خروج المرابطين لردهم . هزيمة المرابطين ومصرع محمد بن مزدلى وأكابر لمتونة . هزيمة مرابطية أخرى . وفاة الأمير سير وإلى إشبيلية . التعريف بسير ومزدلى . من أسباب نشاط الغزو المرابطي . أحوال سرقسطة . استيلاء المرابطين عليها . إثناء ملك بني هود . ابن الحاج وإلى سرقسطة . الحرب بين المرابطين وبين عماد الدولة بن هود . غزو ابن الحاج وابن عائشة لإبارة برشلونة . هزيمة المرابطين ومصرع ابن الحاج . أحوال الجزائر الشرقية . افتتاح النصراري لها . أهبة علي لإيقادها . مسير الأسطول المرابطي إلى الجزائر . استيلاء المرابطين عليها . إحراق كتاب الإحياء في قرطبة . نفوذ الفقهاء وأثرهم في هذا الحادث . عبور علي إلى الأندلس للمرة الثالثة . غزوه لأراضي البرتغال واقتحامه لمدينة قلورية . عوده إلى المغرب . عبوره إلى الأندلس للمرة الرابعة . الثورة في قرطبة . مخلف الروايات في شأنها . مغزى هذه الثورة وأسبابها . موقف علي منها . النقاش بينه وبين ابن رشد . تسوية الحادث وعودة علي .

لما توفي أمير المسلمين ، يوسف بن تاشفين ، في يوم الاثنين مستهل شهر المحرم سنة خمسائة (٢ سبتمبر سنة ١١٠٦ م) ، بقصره بمراكش ، خلفه في نفس يوم وفاته ولده أبو الحسن علي ، وكان قد اختاره كما تقدم لولاية عهده ، منذ سنة ٥٩٥ هـ ، وأصدر له عهد التولية بقرطبة في شهر ذى الحجة سنة ٥٩٦ هـ ، مؤثراً إياه بذلك على ولده الأكبر أبي الطاهر تميم . وعقدت البيعة لعل في نفس اليوم ، قبل أن يُؤارى جثمان العاهل الراحل ، وكان أول من بايعه بمحضر من أشياخ لمتونة وباقي قبائل صنهاجة ، والأكابر والقادة . أخوه تميم معلناً بذلك طاعته

لأخيه ، واحترامه لإرادة أبيه ، ثم بايعه من بعده سائر من حضر من الأشياخ والأكابر ، وكتب على في نفس الوقت إلى سائر قواعد المغرب والأندلس وبلاد القبلة بالصحراء ، يعلمهم بموت أبيه ، واستخلافه إياه من بعده ، ويأمرهم بأخذ البيعة له^(١) . وكان على وقت تبوئه الملك ، فتى في نحو الثالثة والعشرين من عمره ، وكان مولده بثغر سبتة سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٤ م) ، عقب سقوطه في أيدي المرابطين بأشهر قلائل ، وأمه أم ولد رومية اسمها قمر ، وتسمى أيضاً « فاض الحسن » . وقد أنفق على فيما يبدو أحداثه في سبتة^(٢) . ولما توفي الأمير أبو بكر أكبر أولاد يوسف وولى عهده بسبتة في سنة ٤٧٩ هـ عقب نصر الزلاّقة ، وأخذ يوسف يبحث عن خلفه بين أولاده ، اتجهت نيته لاختيار ولده على ، لما آنسه فيه منذ صغره من ذكاء ونجابة ، وكان يصطحبه في كثير من المهام ، ولا سيما عند جرازه الأخير إلى الأندلس ، حينما عبر إليها ليتفقد أحوالها ، وليعقد بها بيعة العهد لعلي .

وكان يوسف قبيل وفاته بقليل ، قد أوصى ولده عليا بثلاثة أمور ، أولها ألاّ يفعل شيئاً لإثارة أهل جبل درّن ، ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة ، والثاني أن يهادن بني هود أمراء سرقسطة ، وأن يتركهم حائلاً بينه وبين النصارى ، والثالث أن يعطف على من أحسن من أهل قرطبة ، وأن يتجاوز عن أساء منهم^(٣) ، هذا فضلاً عما اشترطه عليه حين خصه بولاية عهده ، من الأمور المتعلقة بشئون الأندلس الدفاعية ، وهو ما سبق أن أشرنا إليه فيما تقدم .

وكان على بن يوسف أميراً وافر الهمة والذكاء والعزم ، وكانت تحذوه رغبة صادقة ، في أن يسير على نهج أبيه في الحكم ، وفي متابعة الجهاد ، وهو قد سار بالفعل وفق هذا المنهج ، وحقق في ظله طائفة من جلائل الأعمال ، وهو ما يحمله المؤرخ في قوله : « فاقتنى أثر أبيه ، وسلك سبيله في عضد الحق ، وإنصاف المظلوم ، وأمن الخائف ، وقمع المظالم ، وسد الثغور ، ونكاية العدو . فلم يعدم التوفيق في أعماله ، والتسديد في حسن أفعاله »^(٤) .

(١) روض الفرجات ص ١٠٢ .

(٢) روض الفرجات ص ١٠١ .

(٣) الحلل الموشية ص ٦٠ .

(٤) ابن عذاري البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبرس ص ٦٧) ، ونقله ابن الخطيب في الإحاطة في ترجمه على بن يوسف (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر اوحة ٢٩٢) .

ولأول ولايته وقعت ثورة محلية لم تكن على شيء من الخطورة، ولكنها كانت أول بادرة في الانتفاض والخروج. وذلك أنه حينما كتب إلى القواعد والثغور بأخذ البيعة له، أته البيعة من سائر البلاد إلا من مدينة فاس، عاصمة المغرب القديمة، وقد كان واليها عند وفاة يوسف، حفيده يحيى بن الأمير أبي بكر أخى على المتوفى، فرفض أداء البيعة لعلمه على، وأعلن الخلاف، ووافق على ذلك جماعة من قواد المتونة. فبادر على بالسير في بعض قواته إلى فاس، فخشى يحيى البادرة على نفسه، خصوصاً بعد أن تخلى عنه أنصاره، وفر من المدينة، ودخلها على بن يوسف. وذلك في الثاني من ربيع الآخر سنة ٥٠١ هـ. وأخذت هذه الثورة الصغيرة في مهدها. وسار يحيى صوب تلمسان ملتجئاً إلى واليها الأمير مزدلى، فلقبه بالطريق، وكان قادماً ليقدم بيعته إلى على، فاستجار به ووعد مزدلى، بأن يسعى لدى على في العفو عنه. واختفى يحيى في أحواز فاس حتى لقي مزدلى الأمير. وقدم إليه بيعته، وشفع لديه في ابن أخيه، فعفى عنه على، وخيره بين الإقامة في ميورقة أو في الصحراء، فاختار يحيى الصحراء، ثم سار منها إلى الحجاز ففضى فريضة الحج، وعاد إلى المغرب، واستأذن عمه علياً في سكى مراكش، فإذن له. ولكن بدت منه عندئذ بعض بوادر مريبة، فخشى على من نياته، وأمر بالقبض عليه ونفيه إلى الجزيرة الخضراء، فاعتقل بها حتى توفي^(١).

ولم يكده على يفرغ من قمع الثورة في فاس، حتى أزمع الجواز إلى الأندلس لتفقد أحوالها، وتنظيم شئونها، فخرج من مراكش في جيش من المرابطين ومصمودة. وعبر البحر من سبتة إلى الجزيرة الخضراء في منتصف سنة ٥٠٠ هـ (أوائل سنة ١١٠٧ م)، وهناك بادر إليه زعماء الأندلس ورؤساؤها، وقضاتها، وفقهاؤها وأدباؤها وشعراؤها، فقدموا إليه بيعتهم وطاعتهم، وأنشده الشعراء قصائدهم، فعفى بالنظر في مطالبهم، وغمر الجميع بعطفه وصلاته^(٢).

وعمد على في الوقت نفسه إلى إجراء طائفة من التغييرات الإدارية الهامة، فعزل أخاه أبا الطاهر تيمناً عن ولاية المغرب، وعينه لولاية غرناطة بالأندلس، وجعله قائداً أعلى للجيش المرابطية فيما وراء البحر. وعين لولاية قرطبة أبا عبد الله

(١) روض القرطاس ص ١٠٣.

(٢) الخلل الموشية ص ٦٢، وابن عذاري في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبيرس

ص ٦٧).

محمدًا بن أبي بكر اللمتوني ، وعين لولاية المغرب أبا عبد الله محمدًا بن الحاج ، فلبث واليًا على فاس وسائر أنحاء المغرب زهاء ستة أشهر . ثم عينه على لولاية بلنسية وشرقي الأندلس ، ومن بلنسية ، سار ابن الحاج في القوات المرابطية إلى سرقسطة ودخلها في سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٩ م) حسبما تفصل بعد (١) .

ولما عاد على إلى المغرب ، كتب في أوائل سنة ٥٠١ هـ إلى أخيه تميم وإلى غرناطة ، وقائد الحيوش المرابطية بالأندلس ، أن يستأنف الجهاد ، وأن يغزو أرض النصارى . وقد كانت غرناطة يومئذ قاعدة الحكم المرابطي في الأندلس بعد قرطبة . والظاهر أن هذا الاختيار كان يرجع لأسباب استراتيجية تتعلق بموقع غرناطة ، وإنما كتب على لأخيه ولم يعبر إلى الأندلس ، حسبما يبدو من أقوال صاحبي الحلل الموشية وروض القرطاس . فإنه يبدو من الرواية الأولى (٢) ، أن عليًا لم يعبر عبوره الثاني إلى الأندلس إلا في سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) . وتكرر الرواية الثانية على مسألة جواز على بالصمت . ويؤيد ذلك بنوع خاص رسالة كتب بها الأمير تميم إلى أخيه على عقب الموقعة التي نشبت بينه وبين النصارى ، وهي رسالة سوف نتحدث عنها فيما بعد .

ولم يصدر على أمره باستئناف الغزو والجهاد عفواً . فقد كان ثمة ما يبرره ويستدعيه . ذلك أنه لما مرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في سنة ٤٩٨ هـ . وذاع أمر مرضه في الأندلس ، ونقلت عن الأحوال في المغرب والأندلس إلى قشتالة أقوال وصور زائفة ، اعتقد ألفونسو السادس ملك قشتالة الشبغ . أن الفرصة قد سنحت ليستأنف غزواته في أراضي المسلمين ، فبعث حملة من نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل ، سارت نحو أحواز إشبيلية ، وعاشت فيها ، واستولت على كثير من الغنائم والسبي ، فخرج الأمير سسر بن أبي بكر وإلى إشبيلية في قواته لرد الغزاة ، ولحقته به عساكر غرناطة بقيادة أبي عبد الله بن الحاج واليه يومئذ . وطارد المسلمون القشتاليين ، وردوهم على أعقابهم ، وقتلوا منهم نحو ألف وخمسمائة (٣) ، ولما تولى على بن يوسف الملك بعد ذلك بقليل ، لم ينس أمر هذا

(١) روض القرطاس ص ١٠٣ ، والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة هسبريس ص ٦٧ ،

و ٦٨) .

(٢) الحلل الموشية ص ٦٣ .

(٣) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها - هسبريس ص ٦٤ و ٦٥) .

العدوان وما يدل عليه من تحفز النصارى ، فرأى أن يبادرهم بالغزو ، وأن يهاجمهم في قلب أراضيهم .

وصدع تميم بأمر أخيه ، وجهاز جيشاً حسن الأهبة ، وخرج من غرناطة في العشر الأخيرة من شهر رمضان سنة ٥٠١ هـ (أوائل مايو سنة ١١٠٨ م) وسار في قواته شمالاً صوب جيان ، وكانت الجنود والإمداد تهرع إليه في طريقه . ولبت في جيان أياماً قلائل ، حتى وافته حشود قرطبة بقيادة واليها أبي عبد الله محمد بن أبي رنق ، ثم سار إلى بياسة شمال شرق جيان . واتجه منها شمالاً صوب أراضي قشتالة ، وانضمت إليه في الطريق حشود مرسية بقيادة واليها أبي عبد الله محمد بن عائشة ، وحشود بلنسية بقيادة واليها محمد بن فاطمة . واختارت القوات المرابطية أراضي قشتالة وعاثت فيها . ثم اتجهت صوب بلدة أقليمش الحصينة ، وهي التي وقع الاختيار على مهاجمتها ، فوصلت إلى ظاهرها في يوم الأربعاء الرابع عشر من شوال (٢٧ مايو) .

وقد كانت أقليمش في ذلك العصر من أمنع معاقل كورة شنترية . وهي محلة حصينة ، تقع في شمالي جبال طليطلة ، وجنوب غربي وبذة ، أنشأها الفتح بن موسى بن ذى النون في أواخر القرن الثالث الهجري أيام الأمير عبد الله (١) واتخذها مستقراً ومعقلاً ، وغدت دار بني ذى النون . حتى ظهرُوا أيام المنصور ابن أبي عامر ، وحكموها أيام اضطراب الخلافة ، ثم انتقلوا منها إلى حكم طليطلة على يد إسماعيل بن ذى النون في أوائل المائة الخامسة . ولما سقطت طليطلة في أيدي القشتاليين في صفر سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) وانتهى سلطان بني ذى النون في تلك المنطقة ، كانت أقليمش ضمن القواعد والحصون العديدة . التي استولى عليها القشتاليون نتيجة لافتتاح مملكة طليطلة .

وما كادت القوات المرابطية تصل إلى أقليمش حتى طوقها . وهاجمتها بعنف . ولم يستطع النصارى المدافعون عنها ، أن يثبتوا طويلاً أمام شدة المهاجمين ، فسقطت في أيديهم في اليوم التالي وهو يوم الخميس ١٥ شوال (٢٨ مايو) ، وفي الحال

(١) جاء في الروص المعطار (صفحة جزيرة الأندلس) ص ٢٨ ، أن أقليمش بناها الفتح بن موسى ذى النون وفيها كانت ثورته وظهوره في سنة ١٦٠ هـ ، وفي ذلك تحريف واضح ، لأن ثورة الفتح ابن موسى ذى النون كانت في مستهل عهد الناصر بعد سنة ٣٠٠ هـ ، وإدراكاً فإن الصحيح والمعول عليه هو أن إنشاء أقليمش قد وقع في أواخر القرن الثالث .

دخلتها القوات المرابطة ، وقوضت صروحها ، وهدمت كنائسها ، ودكت هياكلها ، وهرع المسلمون الذين كانوا بها - وكان ما يزال منهم بقية كبيرة فضلت التدجّن والبقاء تحت حكم النصارى - والتجّأوا إلى معسكر الجيش المرابطى ، لائذين بحمايته ، وشرحوا لإخوانهم فى الدين أحوال المدينة ، وظروف المدافعين عنها^(١) :

والتجّأ المدافعون من النصارى إلى قصبة أقلش الحصينة ، وامتنعوا بها فى انتظار الغوث والإنجاد من مواطنهم . والواقع أنه مذ تحركت الجيوش المرابطة ، ونفذت إلى أراضى قشتالة ، كان الملك الشيخ ألفونسو السادس ملك قشتالة وقادته ، يبذلون أقصى جهودهم فى إعداد العدة لرد الغزاة . وكان ألفونسو السادس قد هدمه الإعياء والمرض ، ولم يستطع لضعفه أن يسير بنفسه لملاقاة الغزاة وإنقاذ القلعة ، فجهز حملة قوية بقيادة كبير قواده ألبرهانس - وهو أشهر قواد قشتالة فى ذلك العصر ، وقد خاض من قبل وقائع كثيرة ضد المسلمين ، ولاسيما فى منطقة بلنسية - وزميله غرسيه أردونيث مؤدب ولى العهد سانشو ، وهو أيضاً من أكابر القادة ، ومعهما عدة أخرى من قادة منطقة طليطلة من قلعة النور . وقلعة النهر أو قلعة عبد السلام (Alcala de Henares) وغيرهما . بيد أن أهم شخصية مثلت فى تلك الحملة كانت شخصية الأمير الصبى (الإنفانت) سانشو ولد ألفونسو السادس وولى عهده ، وهو الذى رزق به من « زائدة » حظيته أوزوجته المسلمة المنتصرة ، التى كانت زوجة للفتح بن المعتمد بن عباد ، التى فصلنا قصتها فى موضعها من كتاب « دول الطوائف »^(٢) ، وكان يومئذ صبياً فى الحادية عشرة من عمره . وكان مستشارو الملك - أو زوجته زائدة - قد نصحوا بإرساله على رأس الجيش الكى يثير منظره الفتى حماسة الجند ، فنزل عند رأيهم ، وبعثه مع مؤدبه غرسيه أردونيث كونت دى قبره . ويشير صاحب روض القرطاس إلى تلك الواقعة ، ويفسرها بتفسير طريف يقول فيه « فأشارت عليه زوجته (أى ألفونسو) أن يوجه ولده عوضاً عنه فيكون مقابلاً لتييم ، لأن تيم ابن ملك المسلمين ، وشأنجبه

(١) استقينا هذه المعلومات من رسالة الأمير تيمم التى سبقت الإشارة إليها وإلى سوب ننشر نصها فى باب الوثائق .

(٢) كتاب دول الطوائف ص ٣٣٣ - ٣٣٧ .

(سانشو) ابن ملك الروم ، فسمع منها ، فبعث ولده شانجه في جيوش كثيرة من زعماء الروم وأنجاهم^(١) .

وزحف الجيش القشتالي بسرعة لإنجاد قلعة أفليش . وفي تلك الأثناء ، في عصر يوم الخميس ١٥ شوال (٢٨ مايو) كانت الأنباء قد ترامت عن قرب مقدمه إلى العسكر المراتبي . وهنا تختلف الرواية في تصوير موقف الجيش المراتبي ، وموقف قائده الأعلى الأمير أبي الطاهر تميم . ذلك أن صاحب روض القرطاس يقول لنا إن تيميا حين علم باقتراب القشتاليين ، أراد الارتداد والإحجام عن لقاءهم ، فصحه محمد بن عائشة ومحمد بن فاطمة وغيرهما من قواد لمتونة بالبقاء وملاقات العدو . وهونوا عليه الأمر ، خصوصاً وأن القادمين لا يزيد عددهم عن ثلاثة آلاف فارس . فنزل تميم عند هذا النصح ، فلما وافى القشتاليون عند مغيب الشمس ، ورأى تميم وفرة حشودهم ، أراد الفرار والإحجام عن لقاءهم ، ولكنه لم يجد سبيلاً إلى ذلك ، وصمم قواد لمتونة على لقاء العدو ومناجزته^(٢) . بيد أن تيميا يصور لنا الموقف في رسالته التي يصف فيها الموقعة والتي سبقت الإشارة إليها تصويراً آخر . فيقول لنا إنه حين مقدم القشتاليين ، استدنى إليه « القائدين المحربين ، ذوى النصيحة والآراء الصحيحة ، أبا عبد الله محمد بن عائشة ، وأبا عبد الله محمد بن فاطمة وأنهم بعد المشاورة ، اجتمعوا على كامة الله متعاقدين ، وخضعوا إلى حكمه مستسلمين » ثم يقول : « ونهضنا بجملتنا ، من محلتنا والصبر يفرغ علينا لامة ، والنصر يبلغ إلينا سلامه ، وتوجهنا إلى الله نقتني سبيله ، ونبتغي دليله » فكان اللقاء ، وكانت الموقعة .

ولم تقدم إلينا الرواية بيانات كافية عن عدد الجيشين المتحاربين . بيد أنه يستفاد من أقوالها عن الجيش المراتبي ، الذي كان يتكون من حشود غرناطة وقرطبة وشرقي الأندلس ومن انضم إليه من المتطوعة المجاهدين خلال مسيره ، أنه كان يضم عدة آلاف من الفرسان ، إذ كانت حامية غرناطة تتكون من ألف فارس ، ومثلها حامية قرطبة ، وكانت الحامية المراتبية بشرقي الأندلس تتكون من أربعة آلاف فارس . أما الجيش القشتالي القادم لالجزدة ، فن المرجح أنه كان متفوقاً على المراتبيين في الكثرة ، يدل على ذلك إحجام تميم في البداية عن لقائه ، وتوجسه .

(١) روض القرطاس ص ١٠٤ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٤ .

من تفوقه العددي . هذا عدا من كان من القشتاليين بالقصبة وهم حسبما تصفهم الرواية « جمع عظيم من الروم »^(١). ومن جهة أخرى ، فإنه لدينا عن عدد الجيش القشتالي روايتان إسلاميتان ، الأولى تقدره بعشرة آلاف فارس ، وهذه هي رواية ابن القطان وقد كتب بعد الموقعة بقرن ونصف ، في أواخر عهد الموحدين^(٢) ، والثانية تقدر بسبعة آلاف فارس ، وهي رواية ابن عذارى ، وهو يقول لنا مشيراً إلى مقدم القشتاليين لإنجاد قلعة أقليمش ، « وفي خلال ذلك وصل إليه (حصن إقليمش) ، ولد ألفونسو شانجته من زوج المأمون بن (عباد) التي كانت تنصرت بنحو سبعة آلاف فارس »^(٣) .

وفي فجر يوم الجمعة ١٦ شوال سنة ٥٠١ هـ ، الموافق ٢٩ مايوسنة ١١٠٨ م . بدت طلائع المعركة ، وتقدم المرابطون قليلا في اتجاه أقليمش للقاء القشتاليين . وأقبل القشتاليون يقودهم ألبرهانس وغرسيه أردوينت كونت دى قبره وكونتات طليطلة ، وبينهم الأمير الفتى الإنفانت سانشو فوق فرسه ، وقد ارتدى حلة الفرسان . وبدأ الهجوم ووقعت الصدمة الأولى حسبما نبئنا تميم في رسالته ضد قوات قرطبة ، وقائدها ابن أنى رنق ، فارتد إلى الوراء . وعندئذ تقدمت قوات مرسية وبلنسية ، وتقدم تميم في قواته إلى قلب المعركة ، ونشب بين الفريقين قتال بالغ العنف ، يصفه لنا تميم في رسالته عن الموقعة في عبارات حماسية مضطربة . ومما جاء فيها : « فعند ذلك اختلطت الخيل . بل سال السيل . وأظلم الليل ، وأعتقت الفرسان ، واندقت الخرصان ، ودحا ليل القتام . وضاق مجال الجيش اللهام ، واختلط الحسام بالأجسام ، والأرماح بالأشباح ، ودارت رحى الحرب تغربنكالها . وثارت نائرة الطعن والضرب تفتك بأبطالها » . وتجمع الروايات الإسلامية والنصرانية معاً ، على أن الموقعة كانت مضطربة رائعة ، وأن الفريقين المتحاربين ، قاتل كلاهما بمنتهى العنف والشدة . وبينما القتال على أشده إذ وقع

(١) روض القرطاس ص ١٠٣ .

(٢) أوردها في كتابه « نظم الجمان لترتيب ماسلف من أخبار الرمان » . وتوحد منه قطعة مخطوطة هي « السمر الثالث عشر » ضمن نسخة محفوظة بالمعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديرد (وقد وصفها في بيان المصادر) لوحة ١٧ . وقد نقل إلينا رواية ابن القطان هذه عن الموقعة الأسناد هويثي في كتابه . Las Grandes Batallas de la Reconquista, p. 118 & 119 .

(٣) البان العرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هيسيرس ص ٦٨) . وراجع كتاب « دول الطوائف » ص ٣٣٦ .

حدث كان حاسماً في مصير المعركة . ذلك أن الأمير الصبي سانشو ابن ملك قشتالة ، ازدلف إلى قلب المعركة إلى جانب مؤدبه غرسية أردونيث أو الكونت دى قبره ، فلم يلبث أن أحاطت بهما ثلة من الفرسان المسلمين ، وتوالت عليهما الطعان ، فسقط الفتى من فوق جواده ، وقد أصابته طعنة قاتلة ، وسقط فوقه الكونت دى قبره مدافعاً عنه^(١) ، فدب المهرج إلى صفوف القشتاليين وكثر القتل بينهم ، ولجأ الكثيرون منهم إلى الفرار ، وسقط معظم القادة والكونتات قتلى ، وارتد ألبار هانيس في فلول القشتاليين صوب طليطلة ، وحاول الكونتات السبعة الذين كانوا يؤلفون حاشية الأمير القتل ، الفرار إلى حصن بلنشون القريب ، فلحق بهم جماعة من المسلمين المدجنين وقتلهم عن آخرهم ، وعرف مكان مصرعهم فيما بعد « بالكونتات السبعة » . وهكذا تمت الهزيمة الساحقة على الجيش القشتالي ، وأحرز المسلمون نصرهم الباهر ، في ذلك اليوم المشهود .

هكذا كانت أدوار موقعة أقليمش الشهيرة ، التي أعادت بروعتها ، وانتصار المرابطين الساحق فيها ، ذكريات موقعة الزلاقة . وتعرف الموقعة في الرواية النصرانية « بموقعة الكونتات السبعة » نسبة إلى الكونتات السبعة الذين كانوا حاشية لولى عهد قشتالة . وتقدر بعض الروايات الإسلامية خسائر القشتاليين فيها بنيف وثلاثة وعشرين ألفاً^(٢) . وتجاريها في ذلك بعض الروايات النصرانية ، فتقدر خسائر القشتاليين بعشرين ألفاً^(٣) . بيد أنه يبدو مما سبق أن ذكرناه عن عدد الجيشين المتحاربين ، ومما ذكره الأمير تميم في رسالته عن الموقعة ، أن خسائر النصارى لم تكن بهذه النسبة المفرقة ، وإن كان مما لا ريب فيه أنها كانت فادحة . ويقول لنا الأمير تميم في رسالته إنه أمر عقب الموقعة بجمع رؤوس القتلى من النصارى ، فجمعت الدانية منها ، وتركت النائية ، فبلغ ما جمع منها أكثر من ثلاثة آلاف رأس ، ميزت منها رؤوس غرسية أردونيث (أردونش) أو الكونت دى قبره ، وقواد طليطلة ، وكدست ، وأذن من فوقها المؤذنون وفقاً للتقليد المأثور . واستولى

(١) ويفدم إلينا ابن القطان رواية أخرى عن مصرع « الإنفانت » سانشو ، فيقول إنه أفلت من قلب المعركة في ثمانه من النصارى ولجأ معهم إلى حصن نلتون (بلنشون) ، وكان فيه رعية لهم من المسلمين ، فاختبأ عندهم رجاء أن يسلموا من القتل ، فلحق بهم المسلمون وقتلهم وقتل معهم ولد أذفونش (المخطوط السالف الذكر لوحة ٧ ب) .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٤ .

M. Lafuente : Historia General de España (Barcelona 1899) V. III. p. 202 (٣)

المرابطون في نفس الوقت على مقادير هائلة من الأسلاب والغنائم ، من المال والخيول والبغال والسلاح والدروع وغيرها .

وأما عن خسائر المسلمين في الموقعة ، فإنه يبدو أنها كانت أيضاً ذات شأن ، وإن لم يكن لدينا من أقوال الرواية الإسلامية أرقام معينة . وكل ما ذكر عن ذلك عبارة أوردها صاحب روض القرطاس في ختام كلامه عن المعركة يقول فيها : « واستشهد جماعة من المسلمين رحمهم الله » وقول ابن القطان : « واستشهد في هذه الوقعة الإمام الجزولي وكان رجل صدق ، وجماعة من الأعيان والعربان »^(١) . على أننا نستنتج ذلك من إحجام المرابطين ، عن مطاردة فلول الجيش القشتالي مطاردة شاملة والتوغل في أرض النصارى .

وغادر الأمير تميم في قواته ميدان المعركة عائداً إلى غرناطة ، مكلاً بغار الظفر . وكتب إلى أخيه أمير المسلمين على بالفتح ، رسالته التي سبق ذكرها . وترك قوات مرسية وبلنسية تحت إمرة قائديها لحصار قلعة أقليمش ، فلبثا على حصارها فترة ، ولما رأيا مناعتها تظاهرا بالانسحاب ، وارتدا في قواتهما قليلا ورتبا الكمان ، فخرج النصارى من القلعة ، فانقض عليهم المسلمون ، وأمعنوا فيهم قتلاً وأسراً ، واحتلوا القصبه ، وبذلك تم استيلاؤهم على أقليمش ، وترتب على ظفر المسلمين باحتلال هذه القلعة المنيعه ، أن سقطت في أيديهم عدة من البلاد والحصون المجاورة ، مثل وبذة وقونقة وأقونية وكونسويجرا ، وغيرها^(٢) .

وتعني الروايات النصرانية بذكر معركة أقليمش عناية خاصة ، وهي لا تخرج في مجملها عما تقدمه إلينا الروايات الإسلامية من التفاصيل ، ولا سيما ما أورده الأمير تميم في خطابه الرسمي عن الموقعة . بيد أن الروايات النصرانية تفيض بنوع

(١) روض القرطاس ص ١٠٤ . وابن القطان في المخطوط السالف الذكر (لوحة ٧ ب) .

(٢) راجع في حوادث موقعة أقليمش، روض القرطاس ص ١٠٣ و ١٠٤ ، وابن عذاري في البيان المغرب (الأوراء المخطوطة - هسبرس ص ٦٨) . وابن القطان في نظم الجمان (المخطوط المشار إليه ، لوحة ٦ و ٧) ، ورسالة الأمير تميم الرسمية عن المعركة وهي التي أنشأها الكاتب ابن شرف ، وقد نشرناها في باب الوثائق منقولة عن مخطوط الإسكوريال رقم ٤٨٨ الفزيرى لوحات ٥٤ - ٥٨ ، ونشرها الأساذ هويثي في كتابه Las grandes Batallas de la Reconquista ص ١٢٠ - ١٢٦ . وبشير ابن خلدون إلى المعركة إشارة عابرة (ج ٦ ص ١٨٨) . وأورد عنها ابن الكردبوس خلاصة موحدة (كتاب الإكتفا - مخطوط أكاديمية التاريخ السالف الذكر) ، ولم يذكرها صاحب الحلال الموسية . ومن المراجع الفنثالية F. Codera : Decadencia y D.sparición de los

خاص في تفاصيل مصرع الإنفانت سانشو ، ومصرع مؤدبه غرسية أردونيث ، فتذكر لنا كيف سقط الأمير عن جواده الجريح ، وكيف حجبته الكونت غرسية بدرعه وجسمه ، وأخذ يدافع عنه وهو مسجى ، حتى قتل بدوره ، وتشيد بفروسية الكونت ، ورائع صفاته . ثم تصف لنا كيف وقع النبأ الحزن على الملك الشيخ ألفونسو السادس وقع الصاعقة ، وكيف استسلم إلى التأوه والنواح بمحض من سادته . والواقع أن الملك الشيخ لم يستطع احتمال تلك الصدمة الأليمة طويلا ، إذ توفي بعد ذلك بنحو عام في ٣٠ يونه سنة ١١٠٩ م .

ثم تنحرف الرواية النصرانية بعد ذلك إلى منحدر الأسطورة ، فتزعم أن الملك ألفونسو أراد أن ينتقم لمصرع ولده ، فسار إلى قرطبة وحاصرها ، وفيها علي بن يوسف « أمير المؤمنين » ، وأن النصاري أسروا ذات ليلة جماعة من المسلمين حاولوا مهاجمتهم ، وتبين أن رئيسهم عبد الله ، وهو من أشرف قرطبة ، هو الذي قتل ابن عباد حو الملك ألفونسو . ووالد زوجته ماريا ، التي كانت تسمى زائدة ، وأنه أمر بتقطيع أشلاء عبد الله هذا وحرقها ، وأحرق معه عدداً من الأشراف المسلمين . وأنه أخيراً استطاع أن يرغم علياً أمير المؤمنين على طلب الصلح ، وأداء ضريبة فادحة لقشتالة^(١) .

وكانت موقعة أقليمش ، بعد الزلافة (٤٧٩ هـ) ، واستيلاء المرابطين على بلنسية ، (٤٩٥ هـ) ، أعظم نصر أحرزه المرابطون على قوات قشتالة ، وهو نصر كان من أثره توطيد سلطان المرابطين في المناطق الوسطى والشرقية في شبه الجزيرة ، وفي إعلاء سمعتهم العسكرية والدفاعية .

ونستطيع أن نقول أيضاً إن حملة أقليمش كانت فاتحة لبرنامج منظم من الغزوات المرابطية لأراضي النصاري . ذلك أنه لم يمض سوى عام وشهرين على موقعة أقليمش ، حتى عبر أمير المسلمين علي بن يوسف البحر إلى الأندلس للمرة الثانية في جيوشه الحرارة . وكان عبوره من سبتة ، في الخامس عشر من محرم سنة ٥٠٣ هـ (أغسطس ١١٠٩ م) . وكان عبوره في تلك المرة بقصد الجهاد خاصة ، وأوحياساً يقول لنا صاحب الحلل الموسوية « برسم الجهاد ، ونصر الملة ، وإعزاز الكلمة » .

(١) يراجع في ذلك بالأخص : Primera Crónica General de Espana (Ed. :

M. Pidal), Parte II. p. 554-556

وسار إلى غرناطة : وأقام بها مدى حين « ريثما تلاحقت حشوده وتأهبت متطوعته وجنوده » . وتقدر الرواية الحيوش المرابطية الغازية هذه المرة ، بنيف ومائة ألف فارس وثلاثمائة ألف راجل . وهو تقدير يحمل طابع المبالغة . ولما تكاملت الحشود ، سار على في قوات ضخمة ، صوب قرطبة ، فأقام بها شهراً يضع خططه ، ويستكمل أهباته . ثم غادر قرطبة على رأس قواته ، وعبر جبال الشارات (سيرا مورينا) ثم جبل طليطلة ، وانقض المرابطون كالسيل على أراضي ولاية طليطلة ، فعاثوا فيها وانتسفوا زروعها ، وخربوا ديارها . وسبوا كثيراً من السكان ، واستولوا على كثير من القلاع والحصون ، وهبت ريح من الرعب والروع على النصارى في تلك الأنحاء . وتقول لنا الرواية الإسلامية إن المرابطين ساروا أولاً إلى مدينة طليطلة الواقعة على نهر التاجه غربي طليطلة ، واقتحموها عنوة ، وقتلوا معظم سكانها النصارى ، واستنفذوا من كان بها من أسرى المسلمين . ولجأت جماعة من النصارى الذين بها إلى القصبه ، ثم تسربوا منها ليلاً إلى النهر ناجين بأنفسهم ، فاستولى المرابطون على القصبه ، وانهبوا سائر ما في المدينة من السلاح والمتاع ، وردوا كنيسها كما كانت جامعاً ، وندب لها أمير المسلمين والياً من قبله ، ورتب بها حامية قوية . ويضع ابن القطان تاريخ اقتحام المرابطين لطليطلة في منتصف شهر المحرم سنة ٥٠٣ هـ ، ولكن المرجح أنه وقع بعد ذلك بنحو شهر أو شهرين ، إذ كان عبور أمير المسلمين إلى شبه الجزيرة حسياً تقدم في منتصف المحرم^(١) . وافتتح المرابطون من حصون أحواز طليطلة سبعة وعشرين ، ثم استولوا على مجريط ووادي الحجارة ، وقصدوا بعد ذلك إلى طليطلة فضربوا حولها الحصار . ولكن الرواية النصرانية تقدم إلينا تفصيلاً آخر للغزوة المرابطية ، فتقول لنا إن المرابطين بعد أن عاثوا في أراضي قشتالة الجنوبية ، ساروا أولاً إلى طليطلة ، واقتحموا منبتها (ضاحيتها) الخضراء الواقعة على نهر التاجه ، وهي التي كانت من قبل جنة لبني ذى النون ، ثم ضربوا الحصار حول عاصمة قشتالة ، وكان يدافع عنها قائد قشتالة الأول ألبار هانيس في حامية قوية ، ولم يلبث المرابطون على حصار طليطلة وفقاً للرواية الإسلامية سوى ثلاثة أيام . ثم غادروها بعد أن

(١) ابن عذارى في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة المنسار إليها - هيسيرس ص ٧٠) .

وابن القطان في « نظم الجمان » (المخطوط السالف الذكر لوحة ١٣ و ١٥) .

قطعوا ثمارها ، وانتسفوا زروعها^(١) . ولكن الرواية القشتالية تقول لنا بالعكس إن الحصار قد دام سبعة أيام . بذل المرابطون فيها جهوداً فادحة . وضربوا أسوارها بالحنائى ضرباً شديداً . وحاولوا حرق بعض أبراجها ، ولكن جهودهم ذهبت كلها سدى ، واستطاع القشتاليون . اعتماداً على حصانة مدينتهم . وأسوارها المنيعة العالية . أن يردوا كل محاولات المرابطين . وفي اليوم السابع ، خرج ألبارهانيس في قواته . واشتبك مع المرابطين في معركة شديدة . واضطر المرابطون على أثرها إلى رفع الحصار . ومغادرة المدينة بعد أن أحرقوا آلات الحصار (سنة ١١١٠م) . ثم تقول الرواية القشتالية إن المرابطين ساروا بعد ذلك إلى طليطلة . فاقتحموها وقتلوا حاميتها . ثم ساروا من بعدها شمالاً ، واستولوا على مجريط ووادي الحجارة وقناليش وغيرها من قواعد هذه المنطقة . وهنا دب الوباء في الجيش المرابطي ، فاضطر على بن يوسف أن يغادر أراضي العدو ، وأن يعود أدراجه إلى قرطبة . وعلى أي حال فإن الروايات المختلفة العربية والقشتالية تتفق على أن هذه الغزوة المرابطية لأراضي قشتالة . كانت من حيث ضخامة حشودها وأهبتها . واتساع نطاقها ، بالغة الأثر في ردع القشتاليين ونذيرهم^(٢) .

وعاد على بن يوسف على أثر ذلك إلى مراکش ، ولكن الغزوات المرابطية استمرت على نشاطها وشدها ، في أنحاء شبه الجزيرة . ففي نفس الوقت الذي كانت فيه الجيوش المرابطية تحت أسوار طليطلة . سار جيش مرابطي زاهر بقيادة الأمير سير بن أبي بكر والى إشبيلية صوب الغرب إلى أراضي البرتغال . وكانت هذه المملكة النصرانية الجديدة الناشئة في كنف قشتالة ، قد بدأت في ظل أميرها هنري البرجوني . صهر ملك قشتالة ألفونسو السادس وزوج ابنته غير الشرعية ، تريسا ، تنمو ويشند ساعدها بسرعة ، وكانت قاعدتها يومئذ

(١) هذه رواية ابن عذاري في البيان المغرب ، في الأوراق المخطوطة السالفة الذكر . ولكن صاحب روض القرطاس يقول لنا إن المرابطين لبثوا على حصار طليطلة مدى شهر (روض القرطاس ص ١٠٥) .

(٢) تراجع تفاصيل هذه الغزوة في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها - هسبيرس ص ٧٠) و روض القرطاس ص ١٠٥ ، والخلل الموشية ص ٦٢ . وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨ . وكتاب الاكتفاء لابن الكردبوس (مخطوط أكاديميه التاريخ السالف الذكر لوصحة ١٦٤) . وراجع أيضاً :

F. Codera : Dec. y Dis. de los Almoravides p 232 & 234 وكذلك M. Lafuente, Hist. General de Espana Vol. III. p. 229

قُلُومرية ، ومن ثم فإن الرواية الإسلامية تعرف أميرها « بصاحب قُلُومرية » . وكانت يومئذ تضم عدة من القواعد الإسلامية القديمة من قواعد ولاية الغرب . فسار الأمير سير في قواته صوب بطليوس ، ثم زحف على يابرة وافتتحها على الفور ، ثم قصد إلى أشبونة فاستولى عليها هي وضاحيتها شنترة ، وسار بعد ذلك شمالاً ، واستولى على مدينة شنترين ، الواقعة على نهر التاجه ، ويستفاد من الرسالة التي وجهها سير بفتح هذه المدينة إلى أمير المسلمين ، وهو من إنشاء كاتبه الوزير أبي محمد عبد الحيد بن عبدون ، أن المرابطين هاجموا أولاً فاستعصت عليهم . فضربوا حولها الحصار حتى سلمت ، وكان قد قتل من حاميتها عدد كبير ، فسلم الباقون ، وأسرُوا سائر من بها . وقد كانت شنترين ، حسبما ورد في هذه الرسالة من أعظم قلاع الغرب وأكثرها موارد لوقوعها في بسيط وافر الخصب^(١) ، ووصل سير في زحفه نحو الشمال إلى مقربة من مدينة قللمرية عاصمة الإمارة . ولم تستطع القوات البرتغالية بقيادة الكونت هنري ، دفعاً للقوات المرابطية الغازية . وكان افتتاح المرابطين لهذه القواعد الغربية في سنة ٥٠٤ هـ (١١١١ م) وتقول الرواية الإسلامية إن الأمير سير ، افتتح في هذه الغزوة أيضاً مدينة بطليوس وبرتقال^(٢) . ولكن بطليوس كانت في أيدي المرابطين منذ انتزعوها من بني الأفطس في سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٤ م) . وأما برتقال ، وهي تعني في الجغرافية الأندلسية ثغر بورتو ، فهي تقع في أقصى شمالي البرتغال ، وفي شمال قُلُومرية . ومن ثم فإن المرابطين لم يصلوا في زحفهم إليها ولم يفتحوها .

ومما هو جدير بالذكر أنه على أثر هذه الغزوة ، وفد على مدينة إشبيلية المنصور بن عمر المتوكل بن الأفطس قادماً من أراضي قشتالة ، وكان قد سار إليها في أمواله وذخائره ، والتجأ إلى ملك قشتالة ألفونسو السادس ، حينما غزا المرابطون مملكة بطليوس سنة ٤٨٨ هـ ، وقتلوا أباه عمر المتوكل وأخويه . وقيل إنه اعتنق النصرانية يومئذ . ولما وصل إلى إشبيلية ، أخذ إلى حضرة أمير المسلمين بمراكش فكانت له لديه منزلة ملحوظة .

ولم يمض قليل على ذلك حتى سارت حملة مرابطية جديدة صوب قشتالة ،

(١) راجع الرسالة المذكورة في المعجب للمراكشي ص ٩٠ - ٩٣ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٥ .

بقيادة الأمير أبي محمد مزدلي والى قرطبة^(١)، وكان أمير المسلمين على بن يوسف قد أسند إليه ولاية قرطبة وغرناطة منذ سنة ٥٠٥ هـ . وولى أخاه أبا الطاهر تيميا والى غرناطة ولاية تلمسان بالمغرب . وعاث المرابطون في أراضي قشتالة . وخربوا ربوعها بالنار والسيوف . واستولوا على حصن أرجنة وأرلبة : Oreje . وقتلوا حاميتها ، وسبوا كثيرًا من النساء والأطفال . ثم قصدوا إلى مدينة طليطلة عاصمة قشتالة . وضربوا حولها الحصار مرة أخرى (٥٠٧ هـ - ١١١٤ م) . وكان ألبار هانيس قائد قشتالة الأكبر ، عندئذ في منطقة قونقة . وكان قد استطاع انتزاع قونقة ، من المرابطين (١١١١ م) ، ولكنها لم تلبث في يد القشتاليين سوى فترة يسيرة . فلما ترامت إليه أنباء الغزوة المرابطية ، وحصار المرابطين لطليطلة ، هرع لمدايعتهم في جيش قوامه عشرة آلاف فارس . ونشبت بين القشتاليين والمرابطين تحت أسوار المدينة المحصورة ، معارك عديدة ، منى فيها كل من الفريقين بخسائر ، وفقد القشتاليون وفقاً لأقوال الروايين العربية والنصرانية سبعائة قتيل ، ولكنهم استطاعوا أن يحملوا المرابطين على رفع الحصار ، بعد أن نجحوا في إحراق آلاتهم الثقيلة^(٢) . وتقول الرواية العربية إن ألبار هانيس حينما أقبل لنصرة مواطنيه ، وسار مزدلي للقائه ، فرأى أمامه ليلاً ولم يجزأ على مقاتلته ، وعاد مزدلي على أثر ذلك إلى قرطبة ظافراً ، ثم نقص علينا خبر غزوة أخرى قام بها مزدلي في منطقة وادي الحجارة ، وأن صاحبها « الزند غرسييس » حينما سار مزدلي لقتاله ، لجأ إلى الفرار واحتوى مزدلي على محلته وسائر أثقاله وأمتعته^(٣) . وهي غزوة لم تشر إليها الرواية النصرانية . وتزيد الرواية العربية على ذلك أن الأمير مزدلي توفي في شوال سنة ٥٠٨ هـ (١١١٥ م) أعنى في العام التالي لحصار طليطلة ، وذلك أثناء غزوة قام ضد القشتاليين على مقربة من حصن مسطانية^(٤) الواقع في طريق قرطبة . وكتب نبأ وفاته إلى أمير المسلمين على بن تاشفين ، فأمر بتولية ولده محمد بن مزدلي مكانه على قرطبة ، وبتولية ولده عبد الله على غرناطة . ولم يمكث محمد في ولاية

(١) ويقول ابن الكردبوس في كتاب « الاكتفاء » إن الحملة كانت بقيادة الأميرين مزدلي ، وسير ابن أبي بكر (مخطوط أكاديمية التاريخ السالف الذكر لوحة ١٦٥) .

(٢) M. Lafuente: ibid; Vol. III. p. 230. (٢)

(٣) روض القرطاس ص ١٠٥ .

(٤) ابن الخطيب عن ابن الصيرفي في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة

١٨٠) ؛ والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة هسبريس ص ٧٧) .

قرطبة سوى أشهر قلائل ، ثم خرج في عسكره ليرد القوات القشتالية التي اقتربت من أراضي ولاية قرطبة ، ونشب بين الفريقين قتال عنيف سقط فيه محمد بن مزدلى وعدد كبير من زعماء لمتونة منهم الأمير محمد بن الحاج ، والأمير أبو إسحق ابن دانية ، والأمير أبو بكر بن واسينو ، وجملة وافرة من الحشم وأهل الأندلس ، وذلك في مستهل صفر سنة ٥٠٩ هـ (٢٧ يونيو ١١١٥ م) . ولما وصل خبر هذه النكبة إلى أمير المسلمين علي بن يوسف ، بادر فندب لولاية قرطبة ابن عمه الأمير أبا بكر يحيى بن تاشفين ، فقدم إليها على عجل ، وما كاد يستقر بها حتى حشد قواته ، وسار في أثر القشتاليين صوب بياسة ، ولحق به عبد الله بن مزدلى صاحب غرناطة في قواته ونشبت بين المرابطين والنصارى معركة جديدة ، هزم فيها المرابطون مرة أخرى ، وقتل منهم عدد جم ، وذلك في اليوم الثامن والعشرين من جمادى الثانية سنة ٥٠٩ هـ (أواخر أكتوبر ١١١٥ م) (١) .

وكان الأمير سير بن أبي بكر اللمتوني والى إشبيلية ، والقائد العام للجيش المرابطية في إسبانيا قد توفى قبيل وفاة الأمير مزدلى بقليل في جمادى الأول في سنة ٥٠٧ هـ (١١١٤ م) ، فعين مكانه لولاية إشبيلية محمد بن فاطمة فلبث على ولايتها حتى توفى سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) . وهكذا فقد المرابطون في شبه الجزيرة بوفاة مزدلى ، وسير بن أبي بكر ، قائدين من أعظم قواد لمتونة وألمهم . وقد كان مزدلى ، وهو مزدلى بن تيولتكان بن الحسن بن محمد بن ترقوت (تُرجوت) ، من أركان الدولة اللمتونية والعصبة الصنهاجية ، وكان من أقارب يوسف بن تاشفين لالتقاءهما في ترقوت . ويصفه ابن الخطيب بأنه كان «بطلا ثبتا ، بهمة من البهم ، بعيد الصيت ، عظيم الجلد ، أصيل الرأي ، مستحكم الحنكة ، طال عمره ، وحمدت مواقفه ، وبعدت غاراته ، وعظمت في العدو وقائعه» (٢) وقد كان من أعظم أعمال مزدلى استرجاعه لمدينة بلنسية من أيدي جنود السيد الكمبيادور بعد وفاته وجنود قشتالة ، وذلك في سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) . وكان

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسپرس ص ٧٧) . وروص سقرطاس ص ١٠٥ . وما يلفت النظر أن صاحب البيان يذكر هنا الأمير محمد بن الحاج ، وهو والى سرقسطة بين قتلى موقعة قرطبة . بيد أننا سنرى ، فيما بعد أن هناك رواية أخرى تضع مقتله في العام السابق وفي غزوة أخرى بالثغر الأعلى .

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ١٨٠) .

— ٧٣ —

قد وُلّيت بلنسية ثم قرطبة ، وغرناطة أيام يوسف ، ثم وُلّيت قرطبة قبيل وفاته ببضعة أعوام من قبل علي بن يوسف .

وأما سير بن أبي بكر ، فقد كان أيضاً من أعظم زعماء لمتونة وقادتها ، وقد ظهر بنوع خاص بشجاعته وبراعته العسكرية الفارقة في موقعة الزلاقة (٤٧٩ هـ) . ولما جاز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين جوازه الثالث إلى شبه الجزيرة في سنة ٤٨٣ هـ ، وبدأ افتتاح دول الطوائف بالاستيلاء على غرناطة ، فوض عند عودته إلى المغرب شئون الأندلس إلى الأمير سير ، وعهد إليه بافتتاح ممالك الغرب الأندلسية ، فافتتح سير مملكة إشبيلية من أيدي بني عباد (٤٨٤ هـ) ، ثم افتتح مملكة بطليوس من أيدي بني الأفطس (٤٨٨ هـ) ، في الظروف والمناظر العنيفة المروعة ، التي فصلناها في كتابنا « دول الطوائف » . وكانت آخر الغزوات العظيمة التي قام بها سير ، هي افتتاحه لقواعد الغرب من يابرة حتى أشبونة سنة ٥٠٤ هـ (١١١١ م) حسبما تقدم من قبل .

وينبغي أن نلاحظ أنه كان من أسباب نشاط الغزوات المرابطية في تلك الفترة ، وإقدامها على مهاجمة طليطلة عاصمة قشتالة ومحاصرتها غير مرة ، ما وقع في اسبانيا النصرانية عقب وفاة ألفونسو السادس دون وارث (١١٠٩ م) ، وقيام ابنه أورাকা في العرش ، من حروب أهلية حول السلطان بن أورাকা وزوجها ألفونسو الأول ملك أراجون من جهة ، وبينها وبين أشراف جليقية أنصار ولدها ألفونسو ريمونديس من جهة أخرى ، وضعف الجبهة الدفاعية النصرانية بذلك ، وعجزها عن القيام بغزوات كبيرة في أراضي المسلمين ، وخصوصاً بعد مصرع ألبار هانيس قائد قشتالة الكبير في إحدى هذه المعارك الأهلية ، وقد كان هذا القائد الشهير زميل السيد الكمبيادور ومعاونه ، من أعظم قادة اسبانيا النصرانية في هذا العصر .

— ٣ —

وشملت موجة الغزو المرابطي شرقي الأندلس كذلك . ونحن نعرف أن المرابطين بقيادة أبي عبد الله محمد بن الحاج والي بلنسية ، قد استولوا على سرقسطة من أيدي بني هود في أواخر سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) حسبما سبق أن فصلناه من قبل في تاريخ مملكة سرقسطة . وكان يوسف بن تاشفين قد أوصى ولده علياً

فما أوصاه ، بأن يهادن بني هود ملوك سرقسطة ، وأن يتركهم في ملكهم حائلاً بينه وبين النصارى . وكانت هذه سياسة فطنة ، تتفق مع ظروف سرقسطة وموقعها في الثغر الأعلى بين الممالك النصرانية . ولكن الحوادث سارت في طريق آخر ، واختلف أهل سرقسطة مع ملكهم عبد الملك بن المستعين بن هود الملقب بعماد الدولة ، لارتماؤه في أحضان النصارى ، وتغليبهم في مصالح الدواة . وكتبوا إلى أمير المسلمين على بن يوسف يدعونه لامتلاك بلادهم . وكان على بعد أن تلقى فتوى الفقهاء بوجوب خلع عماد الدولة ، وفقاً لرغبات أهل سرقسطة ، وبعد أن زحفت الجنود المرابطية بالفعل من بالنسية نحو الشمال — قد أراد أن يبقى على رئاسة بني هود استجابة لضراعة عماد الدولة ، ولكن الحوادث سبقته ، وانتهى المرابطون بالاستيلاء على سرقسطة ، وذلك في اليوم العاشر من ذي القعدة سنة ٥٠٣ هـ (يونيه ١١١٠ م) ودخل ابن الحاج قصر « الجعفرية » الشهير واستقر فيه . وكان عماد الدولة حينما شعر بمقدم المرابطين ، قد غادر سرقسطة في أهله وأمواله إلى حصن روضة المنيع ، الواقع على نهر خالون (شلون) . وهكذا انتهت مملكة سرقسطة ، وانتهى ملك بني هود ، وامتد سلطان المرابطين بذلك ، إلى قلب الثغر الأعلى .

ولبت ابن الحاج واليا على سرقسطة بضعة أعوام ، وهو يحوطها بحمايته ويرد عنها أطباع النصارى ، المحيطين بها من الشرق والغرب والشمال ، ويقوم بغزو أراضيهم والعبث فيها من آن لآخر . وفي سنة ٥٠٤ هـ (١١١١ م) زحف ألفونسو الأول ملك أراجون (المحارب)^(١) ، نحو سرقسطة ومعه عماد الدولة عبد الملك ابن المستعين حتى أصبح قريباً منها ، وخرج محمد بن الحاج في قواته لمداфعته ، وقدمت الحند المرابطية من مرسية على عجل يقودها واليها محمد بن عائشة ، فلما رأى ألفونسو تفوق المرابطين ، ارتد أدراجه ، وطاردته العساكر المرابطية حيناً ، واستمر المرابطون على غزواتهم المخربة في أراضيهم . وسارت قوة منهم بقيادة على ابن كنفاط اللمتوني صوب قلعة أيوب ، وحاصرت بعض حصون عبد الملك بن هود ، فاستغاث عبد الملك بحليفه وحاميه ألفونسو ، وقدمت لمعاونته نجدة من النصارى ، فانهمز المرابطون وأسر قائدهم ابن كنفاط ، وبقي في أسر عبد الملك مدة ثم أخلى سبيله^(٢).

(١) نسمى الرواية الإسلامية ألفونسو المحارب « ابن رذمير » نسبة إلى اسم امه « سانشو راميرز »

(٢) البيان المنرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هيسيرس ص ٧٣) .

ولما اشتدت موجة الغزو المرابطى لأراضى قشتالة ، خرج ابن الحاج فى قواته من مرسطة فى شهر صفر سنة ٥٠٨ هـ (يولية ١١١٤ م) . وانضم إليه فى لاردة محمد بن عائشة فى قواته . وسارت القوات المرابطية المتحدة شرقا ، واختارت أراضى إمارة برشلونة ، وهى تثخن فيها ، وتستولى على مقادير عظيمة من السبى والغنائم ، واستمرت كذلك حتى وصلت إلى ظاهر مدينة برشلونة العظيمة . وعندئذ بعث ابن الحاج الغنائم والسبى مع بعض قواته لتعود من الطريق الكبير . واتجه هو ببائى قواته غرباً ليسير من طريق البرية . وهو أقصر وأقرب إلى مرسطة . ولكنه فوجئ خلال الطريق بقوات كثيفة من النصارى متأهبه فى كدائها . فنشب القتال بين الفريقين ، وقاتل ابن الحاج وقواته قتالا عنيفاً ، حتى سقط معظمهم ، وفى مقدمتهم - وفقاً لهذه الرواية - قائدهم الباسل ، ونجا ابن عائشة وقليل من صحبه . بيد أن ابن الحاج ، وفقاً لرواية ابن عذارى المتقدمة لم يقتل فى هذه الموقعة ، وإنما قتل فى العام التالى فى موقعة قرطبة التى سبق ذكرها . ولما علم أمير المسلمين على هذه النكبة ، وما أصاب محمداً بن عائشة على أثرها من الدهول ، عين صهره زوج أخته الأمير أبا بكر بن ابراهيم بن تافلوت والى مرسية ، أيضاً والياً على بلنسية وطرطوشة ومرسطة ، وأمره بالسير لغزو النصارى . فجمع ابن تافلوت سائر قواته ، وسار شمالاً إلى برشاونة ، وهو يشحن فى أراضيه بالنار والسيوف ثم حاصرها . وأقام على حصارها عشرين يوماً ، حتى خرج إلى لقائه أميرها رامون برنجير فى قوات برشلونة وأربونة ، ونشب بين الفريقين معارك عنيفة قتل فيها كثير من النصارى ، وخسر المسلمون نحو سبعمائة قتيل ، وارتد المرابطون بعد ذلك صوب أراضيه^(١) .

وكان أبو عبد الله محمد بن الحاج من أكابر زعماء لتونة وقوادها ، وكان يتصل بصلة القرابة المتينة ليوسف بن تاشفين ، إذ يرجع نسبه إلى ترقوت أو ترجوت جد العاهل المرابطى ، وعرف بابن الحاج ، إذ قام أبوه بأداء الفريضة وقد ظهر منذ البداية ، مذ عبّر إلى شبه الجزيرة مع يوسف بن تاشفين فى سنة ٤٨٤ هـ ، بمقدرته وأعماله العسكرية البارزة ، أوالحين افتتحه لقرطبة من يد

(١) روض القرطاس ص ١٠٤ و ١٠٥ ، وراجع أيضاً : F. Codera: ibid; p. 20-22. هذا وقد سبق أن أثبتنا على رواية ابن عذارى التى تقول بمقتل ابن الحاج ضمن من قتلوا من أمراء لتونة فى موقعة قرطبة فى سنة ٥٠٩ هـ .

ابن عباد، ثم في محاربتة للقشتاليين ، في غير موقعة . ولما تولى على بن يوسف ، عينه أولا والياً للمغرب ، ولكنه لم يمكث في هذا المنصب سوى أشهر قلائل ، ثم ندبه لولاية بلنسية وشرق الأندلس ، في سنة ٥٠١ هـ . ومن بلنسية سار ابن الحاج الى سرقسطة ، استجابة لدعوة أهلها ، وانتزعها من يد بني هود ، واستقر والياً لها حسبما تقدم ..

وكان من أعظم الأعمال التي حققها أمير المسلمين على بن يوسف يومئذ ، استرداده للجزائر الشرقية واستنقاذها من أيدي الغزاة النصارى . وقد سبق أن تحدثنا ، عند كلامنا عن مملكة دانية ، عن أخبار الجزائر الشرقية وأحوالها ، وكيف أنه حينما سقطت مملكة دانية في يد المقتدر بن هود في سنة ٤٦٨ هـ ، (١٠٧٦ م) ، وانتهت بذلك رئاسة على بن مجاهد موفق الدولة ، كان على حكمها ، (أى الجزائر) ، عبد الله المرتضى ، وكيف أن المرتضى أعلن استقلاله عندئذ ، واستبد بحكمها . ولما توفي المرتضى في سنة ٤٨٦ هـ ، خلفه في حكم الجزائر فتي من أخص فتيانه هو مبشر بن سليمان ، فضبط شئونها بحزم وكفاية ، وتلقب بناصر الدولة ، واستمر على حكمها فترة طويلة ، وهو بمعزل عن حوادث شبه الجزيرة . وكانت الحيوش المرابطية خلال ذلك ، تستولى تباعا على قواعد الأندلس الشرقية ، فاستولت على بلنسية في سنة ٤٩٥ هـ ، ثم استولت بعد ذلك على سرقسطة وقواعد الثغر الأعلى (٥٠٢ هـ) . بيد أن مبشراً لم يفكر بالرغم من وجود الحيوش المرابطية على مقربة منه في ثغور اسبانيا الشرقية ، أن ينضوى تحت لواء المرابطين ، أو يعقد الحلف معهم ، واستمر على استقلاله بحكم الجزائر ، حتى دهمتها الغزوة النصرانية الكبرى .

وقد سبق أن فصلنا في أخبار مملكة دانية ، من كتابنا « دول الطوائف » قصة الغزو النصراني للجزائر الشرقية ، وكيف أنه لما كثرت غارات البحارة المسلمين على الشواطئ الإيطالية الشمالية والشرقية ، وشواطئ قطلونية الإسبانية ، عقدت جمهوريتا بيزة (بيشه) وچنوة ، وإمارة برشلونة حلفاً لافتتاح الجزائر ، وفي أوائل سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) خرج من مياه چنوة أسطول الغزو ، وقوامه نحو ثلاثمائة سفينة ، ومعه وحدات بحرية أخرى من برشلونة وفرنسا ، وفرض الغزاة على مدينة ميورقة عاصمة الجزائر حصاراً محكماً صارماً ، وقامى المسلمون أهوالاً من الحصار الذي استمر زهاء عام ، وفي أواخر سنة ٥٠٨ هـ (أوائل

سنة ١١١٥م) اقتحم الغزاة أسوار ميورقة ودخلوها ، واحتلوا قصر المدينة : وعاثوا في أنحائها ، قتلوا ونهبوا وسيبوا . وقتلوا من سكانها حملة عظيمة ، وكانت محنة مروعة .

وفي خلال ذلك ، كان المرابطون يرقبون تطور الحوادث في الجزائر . ولم يكن أمير المسلمين بغافل عن أهمية الجزائر ، وأهمية موقعها بالنسبة لحماية شواطئ الأندلس الشرقية . ولما حاصر النصارى ميورقة ، بعث مبشراً بصريحه إلى أمير المسلمين ، ولكنه توفي خلال الحصار ، وحاول خلفه القائد أبو الربيع سليمان ، أن يغادر الجزيرة ليسعى في طلب النجدة ، فأُسره النصارى . ولكن صريح مبشر وصل إلى أمير المسلمين على يد بحار جرىء هو القائد أبو عبد الله بن ميمون ، استطاع أن يخترق الحصار بسفينته تحت جنح الظلام ، ولم يستطع النصارى لحاقاً به .

وكان أمير المسلمين ، قد أتم عندئذ أهباته البحرية الضخمة . فبعث لإنقاذ الجزائر واستنقاذها أسطولاً ضخماً قوامه نحو ثلاثمائة سفينة . وأقفلت السفن المرابطية بسرعة صوب الجزائر ، بقيادة أمير البحر المرابطي ابن تفراتش أو (تافرطاش) . ولما علم البيزيون وحلفاؤهم بمقدم هذا الأسطول الإسلامي الضخم ، وأدركوا أن لا أمل لهم في مدافعتهم ، غادروا ميورقة مثقلين بالغنائم والسبي : بعد أن استصنفوا ثرواتها وخربوا ربوعها ، وأحرقوها وقتلوا معظم أهلها . ووصلت السفن المرابطية في أثرهم إلى الجزيرة في أواخر سنة ٥٠٩ هـ (١١١٦م) واحتلها المرابطون وشرعوا في تعمیرها ، وعاد إليها الفاورن من سكانها . وتزايدت الرواية الإسلامية على ذلك أنه لما انصرفت السفن النصرانية ناجية إلى أوطانها ، دهمتها العواصف والأمواج العالية ، فحملت منها أربع سفن صوب ثغر دانية ، فطاردها القائد أبو السداد ، حتى غرقت منها واحدة ، وتمكن من أسر الثلاث الأخرى (١) .

وعين أمير المسلمين والياً للجزائر هو وانور بن أبي بكر اللمتوني ، وبذلك أضحت الجزائر الشرقية جزءاً من الإمبراطورية المرابطية الكبرى . ودخلت في عهد جديد من تاريخها . وسنرى فيما بعد ، أي دور خطير تلعبه الجزائر الشرقية ، كمركز للثورة « المرابطية » المريعة ، التي حمل لواءها بنو غانية حكام

(١) ابن الكرد دبرس في كتاب الاكتفاء (بخطوط أكاديمية التاريخ السالف الذكر لروحة ١٦٥ ب) .

الجزائر ، ضد الدولة الموحدية قاهرة الدولة المرابطية ، ووريثة ملكها في المغرب والأندلس^(١) .

— ٤ —

في بداية سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) وقع في قرطبة حادث كبير الدلالة ، عميق الأثر ، بالرغم من عدم أهميته الظاهرة ، هو إحراق كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام أبي حامد الغزالي ، ويقول ابن القطان إن هذا الحادث وقع « في أول عام ثلاثة وخمسمائة » ، ومعنى ذلك أنه وقع قبيل عبور علي بن يوسف إلى شبه الجزيرة بأسابيع قلائل . وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، في أواخر عهده على صلة طيبة بالإمام الغزالي ، وكان يستفتيه باعتباره عميد فقهاء المشرق ، في عظام الأمور ، ومن ذلك أنه استفتاه في مسألة خلع ملوك الطوائف^(٢) ، وكان الغزالي من جانبه يقدر يوسف ونصرته للإسلام ، حتى قبل إنه اعتزم أن يسير إلى المغرب لروياه ، ولكنه حينما وصل إلى الإسكندرية ، علم بوفاة يوسف (سنة ٥٠٠ هـ) ، فعدل عن رحلته^(٣) . ولكن الأمور تغيرت في عهد ولده علي . وكان علي يتسم بنوع من الورع والزهد ، ويميل إلى إثارة الفقهاء ومشاورتهم ، فاشتد نفوذ الفقهاء بالمغرب والأندلس في عهده ، حتى أصبح لا يقطع في أمر من الأمور ، صغيراً كان أو كبيراً إلا برأيهم ، وهكذا علت مكانتهم ، واشتد نفوذهم ، حتى سيطروا فيما بعد على الدولة . وكان من أشدهم نفوذاً لدى أمير المسلمين ، قاضي قرطبة أبو عبد الله محمد بن حمدان . وكان الفقهاء عندئذ يؤثرون علم الفروع بعنايتهم ، وهو علم العبادات ، والمعاملات ، ويهملون علم الأصول ، أو أصول الدين . وكان لا يحظى لدى أمير المسلمين إلا من برع في علم الفروع^(٤) . فلما وصلت كتب

(١) برافع في أخبار غزو النصارى للجزائر الشرقية واستنقاذها على يد المرابطين ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ ، وروص الفرطاس ص ١٠٥ ، والروص المعطار (صفحة جزيرة لأندلس) ص ١٨٨ ، وراجع كتاب « دول الطوائف » ص ٢٠١ - ٢٠٤ ومن المراجع المنشائية :

A. Campaner y Fuertes : Bosquejo Historico de la Dominación Islámica en las Islas Baleares (Palma 1888) p 105 - 185

وكذلك P. y Vives : Los Reyes Taifas, p. 41

(٢) ابن خلدون في العبر ج ٦ ص ١٨٧ و ١٨٨ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٤٧ . وراجع كتاب دول الطوائف ص ٣٢٧ .

(٣) ابن خلدون ج ٢ ص ٤٨٨ ، والمؤنس في أخبار إفريقية ومؤنس لابن دينار ص ١٠٦ .

(٤) المراكشي في المعجب ص ٩٥ و ٩٦ .

الإمام الغزالي إلى المغرب والأندلس ، وفي مقدمتها كتاب « الإحياء » ، وقرئت وذاع ما فيها ، سخط الفقهاء المرابطون ، وأنكروا كثيراً من المسائل التي وردت في كتاب « الإحياء » ، وزعموا أنها مخالفة للدين ؛ وكان أبو القاسم ابن حَمْدِين^(١) من أشد الفقهاء مبالغة في ذلك حتى أنه قال « بتكمير » من قرأ كتاب « الإحياء » . ورفع ابن حمدين ومعه فقهاء قرطبة ، الأمر إلى علي بن يوسف ، وأجمعوا على وجوب مطاردة كتاب « الإحياء » وإحراقه ؛ فأخذ علي برأيهم ، وجمعت نسخ الكتاب واحتفل بإحراقها في رحبة المسجد الجامع بقرطبة أمام الباب الغربي بعد أن أشبعت جلودها بالزيت ، ونفذت كتب أمير المسلمين ، إلى سائر أنحاء الأندلس والمغرب بإحراقه حيثما وجد . وانتزعت نسخه من أصحابها . وتوالى إحراق الكتاب في سائر أنحاء المغرب . وشدد أمير المسلمين في ذلك حتى إنه أنذر بعقوبة الإعدام ومصادرة المال لكل من وجد عتده^(٢) ، واستمرت هذه المطاردة لكتاب الإحياء وباقي كتب الغزالي طوال أيام المرابطين . وجدد المرسوم بذلك في أواخر عهد تاشفين بن علي بن يوسف (سنة ٥٣٨ هـ) حسبما نذكر بعد .

والحقيقة أن حملة الفقهاء المرابطين على كتاب الإحياء ، لم تكن راجعة لأموار تتعلق بالعقيدة أولاً لأنه يخالف الدين في شيء ، بل كانت ترجع قبل كل شيء إلى ما ورد فيه من حملة لاذعة على علماء الفروع ، والتنويه بجهلهم . وسنف مجادلاتهم السطحية . ووصف الغزالي لهم بأنهم « مجانين » ، وكونهم يجهلون علم الأصول ، الذي ينزه الغزالي بأهميته وعظيم قدره^(٣) .

ويحمل ابن التتطان على هؤلاء الجهلة الذين قاموا بإحراق هذا « الكتاب العظيم » ، ويقول لنا إن إحراقه كان سبباً لزوال ملكهم ، واستئصال شأفتهم ، ثم ينقل إلينا قصة وجود المهدي ابن تومرت في حلقة الإمام الغزالي بالمشرق ، ووقوف الغزالي

(١) هو أخو القاضي أبو جعفر أحمد بن حمدين التائر فيما بعد بمدينة قرطبة .

(٢) ابن المطان في « نظم الحيات » (المخطوط السالف الذكر لوجه ١٦) : « وفلده ابن عذاري في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبرس ص ٧٦) ، والخلل المونسيه ص ٧٦ . والمعجب ص ٩٦ .

(٣) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص ١٠٦ و ١٠٧ ، وراجع مقدمة العلامة حولدسيهر الفرنسي لكتاب « محمد بن تومرت » : Mohamed ibn Toumert et la Théologie

منه على ما تم من إحراق كتابه بقرطبة ، ودعائه « أن يمزق الله ملكهم كما مزقوه ، وأن يذهب دعوتهم كما أحرقوه » . بيد أننا سوف نرى فيما بعد ، عند الكلام على نشأة ابن تومرت وظهوره ، بطلان هذه القصة ، وما يحيط بها من المتناقضات المنطقية والزمنية .

ولم يمض قليل على استرداد المرابطين للجزائر الشرقية حتى عبر أمير المسلمين على بن يوسف البحر إلى الأندلس للمرة الثالثة منذ جلوسه ، وذلك في أواخر المحرم سنة ٥١١ هـ الموافق لشهر مايو سنة ١١١٧ م^(١) ، أعني في بداية الصيف ، وهو الفصل المفضل للعبور والجهاد ، على نحو ما وقع في الجواز الثاني . وفي روض القرطاس أن هذا العبور قد وقع سنة ٥١٣ هـ ، بعد سقوط سرقسطة وقواعد الثغر الأعلى ، وأنه هو الجواز الثاني لأمر المسلمين ، وهو تحريف واضح في التاريخ والوصف . ولاتقدم إلينا الرواية الإسلامية عن هذا الجواز ، وما اقترن به من الحوادث تفاصيل شافية ، ويكتفى صاحب الحلل الموشية وابن الخطيب كلاهما ، بالإشارة إليه في كلمات عابرة . ولكن صاحب روض القرطاس وابن عذارى يقدمان لنا عنه بعض التفاصيل . وفي الرواية الأولى ، أن عليا جاز إلى الأندلس برسم الجهاد وإصلاح شئونها ، وجازت معه جموع غفيرة من المرابطين والمتطوعة من العرب وزناتة والمصامدة وسائر قبائل البربر ، وأنه سار في قواته صوب قرطبة وعسكر في خارجها ، فأتته الوفود للسلام عليه ، ووقف منها على أحوال البلاد ، وكان من تصرفاته عندئذ ، أن عزل القاضي أبا الوليد بن رشد (الحد) عن قضاء قرطبة ، وولى مكانه أبا القاسم ابن حدين^(٢) . ولكن سوف نرى أن هذا التصرف قد وقع في مناسبة لاحقة . أما ابن عذارى فإنه يقول لنا ، إن علياً قصد عند عبوره إلى مدينة إشبيلية ، وهناك لحقت به العساكر العدوية والأندلسية ، وقصدت إليه وفود العلناء والفقهاء والمجاهدين من قرطبة ، وكذلك جموع المتطوعة من غرناطة . وأما ما يتعلق بغزوات على في هذا الجواز فيتخلص في أنه سار في قواته نحو أراضي البرتغال ، وغزا قلُـمرية (ويسمهما روض القرطاس سنبرية ،

(١) الحلل الموشية ص ٦٢ ، وابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ١٤٧ ، والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسبيرس ص ٧٩) .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٦ .

وابن عذارى قلمورية) ، وأنخن في تلك الأنحاء تخريباً وقتلاوسياً ، ولم تستطع قوات الملكة تريسا ملكة البرتغال يومئذ ، أن تقوم بأية أعمال دفاعية ذات شأن ، وفر أمامه النصرارى في كل مكان ، واعتصموا بالمعاقل المنيعه ، وأنه على العموم « دوح بلاد الشرك بجيوش لا تحصى »^(١) . ويستفاد من أقوال الرواية النصرانية أن علياً وصل بقواته إلى أحواز قلمرية . وبعد أن حاصرها . دخلها عنوة ، وذلك في يوم ٢٢ يونيه سنة ١١١٧ م ، وهو يوافق يوم ١٨ صفر سنة ٥١١ هـ^(٢) . ويقول لنا ابن عذارى إن حصار قلمرية استمر عشرين يوما ، ومعنى ذلك أنه بدأ في ٢ يونيه الموافق ٢٨ من المحرم ، فإذا ذكرنا أن علياً قد عبر إلى الأندلس في أواخر المحرم ، وفقاً لرواية ابن عذارى ، فإنه تبدو ثمة في التواريخ ثغرة واضحة . وإذن فلا بد أن يكون عبور على قد وقع في أوائل المحرم ، أو أن تكون قلمرية قد سقطت في أيدي المرابطين ، بعد التاريخ الذى تحدده الرواية النصرانية ، بشهر أونحوه ، وهو ما يفسح لمسير على وغزوته بضعة أسابيع . وهى أقل ما يمكن أن تستغرقه مثل هذه الغزوة .

والظاهر أن علياً لم يحتفظ بقلمرية لأية مدة ، فقد انصرف عنها عقب افتتاحها إلى إشبيلية حسبما يقول ابن عذارى . ويفسر ذلك موقع قلمرية التانى ، وصعوبة الاحتفاظ بها في منطقة يحيط بها النصرارى من كل صوب .

وتذكر لنا الرواية الإسلامية نبأ غزوة قام بها في نفس الوقت القائد عبد الله ابن فاطمة ، ومنصور بن الأفطس — وهو الذى سبق أن ذكرنا خبر عوده من أراضى النصرارى إلى إشبيلية والتجائه إلى حماية أمير المسلمين — في أرض النصرارى ، وهى غزوة عادا منها إلى إشبيلية مثقلين بالسبي والغنائم الكثيرة^(٣) .

وقضى أمر المسلمين على بن يوسف ، عقب عوده من الأندلس ، بحاضرتة مراکش ، زهاء أربعة أعوام ، وفي أوائل سنة ٥١٥ هـ (ربيع سنة ١١٢١ م) ، عبر إلى شبه الجزيرة مرة أخرى في جيش عظيم من صنهاجة وزناتة ومصمودة وغيرها من قبائل البربر ، وقيل أن حشوده لم تبلغ في أية عبور سابق ما بلغته هذه

(١) الخلل الموشة ص ٦٣ .

(٢) F. Codera : Dec. y Dis. de los Almoravides, p. 286

(٣) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة هسبيرس ص ٧٩) .

المرّة من الضخامة والأهبة . وكان هذا هو الجواز الرابع للأمير المسلمين . وقد اختلفت الرواية في بواعثه ، فقليل إن علياً اهتز لما بلغه من توالى الحن على جيوشه في شبه الجزيرة ، وبخاصة لما أصابها في كتندة من هزيمة ساحقة ، فعبر إلى الأندلس ، لتدارك الموقف ، وإصلاح الأمور . والعمل على توطيد سمعة الجيوش المرابطية^(١) ، بيد أنه كان ثمة باعث أهم وأخطر . وهو الذي تردده أكثر من رواية ، وهو قيام الثورة ضد المرابطين في قرطبة . ويلخص لنا صاحب الحلل الموشية الحادث في أن أمير المسلمين كان قد ولّى على قرطبة الأمير أبا يحيى بن رودة . فحدث بينه وبين أهلها نفور وسوء تفاهم فثاروا عليه . وحدثت بينهم وبين من كان بها من المرابطين فتنة كبيرة . ونهب العامة قصر الوالي . ودور المرابطين ، واشتدت الحال^(٢) . ولكن ابن عذارى يقدم إلينا رواية أخرى يقول فيها : إنه في سنة ٥١٤ هـ ، « نفذ أمر أمير المسلمين إلى البلاد الأندلسية ، بإحياء الخانيق والآلات الحربية ، فلما كمل منه المختص بأغرناطة . خرج لمشاهدة التجربة لها والرمي بها أجدادى بن سير اللمتوني صاحب الأعنة . فزاحم هناك الجمل الغفير ، فرام الفسحة ، وأشار برسوخ كان في يده فأصاب صبيّاً في مقتلته فقضى لوقته ، وانفض الليف ، وتهرجت البلدة . فاسترضى ولى الدم بدفع الدية ، فسكنت الثورة ، وأمهل الله القاتل ثم أخذه . ولما كمل ما أنشئ منها بقرطبة ، وقد جاء عيد النحر ، فخرج ثانية عامل البلدة لمشاهدة التجربة . وقد أقبل السواد الأعظم الذى لا يطاق ، بمجمع حضور العيد ، وحضور كل ذاعر وناقص ، من كل حذب وشاهق . فكثرت التدافع والتزاحم ، ودهم الحشم . فكثرت بينهم التزاحم . وأقبل لفيف الربض الغربى ، فالتقى بأسهم على القصر . ورام صاحبه المدافعة بحشمه وخدمه فغلبوا ، واقتحم القصر عليه [انتهب] جميع ما فيه . وخرج هو فارّاً بنفسه . وركب القاضي أبو الوليد بن رشد في أعلام الفقهاء . فردع العامة . وقمع السفلة »^(٣) .

وأخيراً يقدم إلينا ابن الأثير عن هذه الثورة تفاصيل أوفى . ومن نوع خاص ، فيقول إنه لما كان يوم الأضحى (من سنة ٥١٤ هـ) ، خرج الناس متفرجين ، فد عبد من عبيد أبى بكر يده إلى امرأة وأمسكها . فاستغاثت فأغاثها الناس ،

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ .

(٢) الحلل الموشية ص ٦٣ .

(٣) ابن عذارى في البهائم المغرب (الأوراق المخطوطة التى عبر بها المؤلف في مكتبة القرويين) .

فوقع بين العبيد وأهل قرطبة فتنة عظيمة ، ونشب القتال بينهم حتى دخل الليل ، ووصل الخبر إلى الوالي الأمير أبي بكر ، واجتمع إليه الفقهاء والأعيان ، واقترحوا عليه تهديئة للحال أن يقتل واحداً من العبيد الذين أثاروا الفتنة ، فأنكر ذلك وغضب ، وفي اليوم التالي استعد للقتال وأظهر السلاح ، والعدد ، فاجتمع لقتاله أهل قرطبة بزعماء الأعيان والفقهاء ، وهزموه ، فتحصن بالقصر فحاصروه ، وفر منهم بعد مشقة ، فنهبوا القصر وأحرقوا دور المرابطين ، ونهبوا أموالهم ، وأخرجوهم من قرطبة على أقبح صورة^(١) .

تلك هي تفاصيل الفتنة القرطبية التي أهدت أمير المسلمين ، وحملته على المبادرة إلى العبور إلى الأندلس . بيد أن هذه الحوادث انطاهرة ، كانت تحمل في ثنيتها عوامل أخطر وأبعد مدى . فلم يكن الأمر في الواقع متعلقاً بحادث شغب عابر ، ولكنه كان أعظم جذوراً ، وكان أول فورة علنية ضد الحكم المرابطي . وقد سبق أن أشرنا إلى أن أساليب المرابطين في الحكم لم تكن تنسم بكثير من الرفق والكياسة ، وأنها كانت بالعكس تنسم بالضغط والحشونة . ولم ينجح المرابطون منذ غلبوا على الأندلس : منذ نحو ربع قرن ، أن ينشئوا في البلاد المفتوحة نظاماً مدنياً للحكم ، فبقيت الأندلس في أيامهم ، تعاني ضغط الحكم العسكري المرهق ، وكانت تزمت المرابطين الديني ، وحجروهم على الأفكار والعقائد ، سبباً آخر من أسباب التدمير لدى العقلاء والمفكرين . وكانت الحاميات المرابطية المكونة من أحلاط البربر ، تعامل جموع الشعب بصلف وتعال وجفاء ، وكانت جموع الشعب من جانبها تحقد عليها ، وتنظر إليها بعين المقت والحفيظة . وهذا إلى ما كان يشعر به الشعب الأندلسي بصفة عامة من ألم نفسي عميق لفقد استقلاله وحرياته ، في ظل أولئك السادة الحدد ، الذين عبروا إلى الأندلس باسم إنقاذها ، ثم انتهوا بأن فرضوا عليها نيرهم الحديدي .

ولم تلك ثورة قرطبة سوى أولى البوادر المادية لهذه الثورة النفسية . ومن ثم فقد قدر أمير المسلمين خطورتها ، وبادر بالتقدم إلى الأندلس لمعالجة الموقف ، وكان في استعداداته العسكرية الضخمة ما ينم عن توجسه من عواقب هذه الفورة التي ربما وجدت صداها في بعض القواعد الأخرى .

(١) ابن الأثير ح ١٠ ص ١٩٧ .

ووصل على بن يوسف بحشوده إلى ظاهر قرطبة في شهر ربيع الآخر سنة ٥١٥ هـ (يولييه سنة ١١٢١ م) ، وهو ينوي أن يخذل الهياج بشدة ، فأغلقت قرطبة دونه أبوابها ، واستعد أهلها للدفاع عن أنفسهم ، واستفتوا فقهاءهم ، فأفتوا بأنه متى عرضت الحقائق فيما حدث على أمير المسلمين ، وتبين منها أن الأمر لم يكن عدواناً من أهل قرطبة ، وإنما كان بالعكس دفاعاً عن الحرم والدماء والأموال . فلأن أصر أمير المسلمين على موقفه . واستمع لنصح المفسدين . وجب القتال دفاعاً عن النفس والحرم^(١) . ويقول لنا ابن الأثير من جهة أخرى . إن أمير المسلمين ، بادر عند مقدمه محصار قرطبة . فقاتله أهلها قتال من يريد أن يحمي دمه وحرمه وماله . وأنه لما رأى شدة قتالهم . دخل السفراء بينه وبينهم ، وسعوا في الصلح^(٢) . على أنه يبدو أنه لم يكن ثمة قتال . وإنما تذرع أمير المسلمين بالهدوء والصبر . وأقام أمام المدينة فترة . حتى تردد إليه وجوه قرطبة وأعيانها . ويقول لنا ابن عذارى إن أمير المسلمين استدعى القاضي أبا الوليد بن رشد (الحد) قاضي قرطبة وفقهاء المدينة . وجرت بينهم أحاديث طويلة في أمر الثورة والانتزاع على الرياسة ، واقتحام قصر الوالي وانتهابه . وذكر أعيان قرطبة أمير المسلمين بوصية أبيه . في أن يقبل من أحسن من أهل قرطبة . وأن يتجاوز عن أساءتهم . وكان محمد بن داود قاضي إشبيلية في ركاب أمير المسلمين . فجعل يعظم الأمر . ويبالغ في تصوير شناعته . ويقول إنه اجترأ وعصيان وضلال . ودافع القاضي ابن رشد من جهة أخرى عن موقف أهل المدينة . وبين أنهم لم يشقوا عصا ولا نبذوا طاعة ، وأنه كان من واجب الوالي أن يعاقب المذنب من عيده . فقال أمير المسلمين فتمكنوا منهم . فقال ابن رشد ليس لنا قدرة على حصرهم . وإنما يحصرهم صاحب الأمر ، ثم بعد ذلك يأمر الصفح عنهم . وانتهت المفاوضات بالاتفاق على أن يقوم أهل قرطبة بالتعويض عما نهب من المرابطين . وارتضى أمير المسلمين هذا الاتفاق . ولكنه غضب لموقف ابن رشد وإيضاحاته . فصرفه عن القضاء . وولى مكانه أبا القاسم بن حمّدين ، وأمر كذلك بصرف الأمير عبد الله ابن تينغمر عن غرناطة . وأسند نظر غرناطة إلى أخيه الأمير أبي الطاهر تميم ، وكان يومئذ بفاس ، فاستحثه إلى الحضور . ولبت تميم والياً على غرناطة مدي

(١) الحلل المؤنية ص ٦٣ .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٩٧ .

— ٨٥ —

عامين ، ثم عين بعد ذلك والياً لإشبيلية مكان الأمير أبي بكر بن علي بن يوسف ،
فلبث والياً حتى وفاته في سنة ٥٢٠ هـ (١) .

ولم يمكث على بن يوسف هذه المرة طويلاً بالأندلس . إذ وافته أنباء مزعجة
من مراکش ، عن قيام محمد بن تومرت المهدي ببلاد السوس الأقصى ،
واستفحال أمره (٢) .

(١) ابن عذارى في البيان المغرب (من الأوراق المخطوطة . التي نشر بها المؤلف والتي سبقت
الإشارة إليها) ، وروض القرطاس ص ١٠٦ وكذلك : F. Cudera: ibid; p. 237 & 238
(٢) الحلل الموشية ص ٦٤ ، ٧٤ .

الفصل الثالث

سقوط سرقسطة

سرقسطة وخواص موقعها . موقف أمراءها من الملوك النصارى . إستيلاء المرابطين عليها . أطماع قشتالة وأراجون نحوها . تربص ألفونسو ملك أراجون بها . ولاية الأمير أبي بكر بن ابراهيم لسرقسطة . حكمه اللامع ووفاته . نذب عبدالله بن مزدلى لولايه سرقسطة . أخيه أراجون وحلفاؤها من النصارى الصليبيين لافتتاحها . محاصرة النصارى لسرقسطة . اختلاف الروايات الإسلامية حول حوادث الحصار . رواية ابن عذارى عن القتال بين أهل سرقسطة والصارى . عبدالله بن مزدلى ومدافعه للنصارى . صمود المدينة واستمرار الحصار . نضوب الموارد ووفاته ابن مزدلى . مقدم المرابطين بقيادة الأمير تميم . استعاثه أهل سرقسطة بالأمير وإحجامه . الرسالة التى وجهها قاضى سرقسطة إلى الأمير بالاستغاثة والورم . ما تدلى به هذه الرسالة . بواعث إحجام المرابطين وعدم الاعتداد بها . اضطراب أهل سرقسطة إلى طلب الهدنة . الإنفاق على تسليم المدينة ، وشروط هذا التسليم . تسليم سرقسطة ، وتحويلها إلى مدينه نصرانية . هجرة أهلها المسلمين . الآثار المترتبة على سقوط سرقسطة . استيلاء ألفونسو المحارب على طرسونة وقلعة أيوب . اهتمام على بن يوسف بهذه الحوادث . سير الحيوث المرابطية لمقاتلة الأرجونيين . موقعه كشدة وهزيمة المسلمين . سقوط قلعة دروكة .

— ١ —

مضت ثلاثة وثلاثون عاما ، مذ سقطت طليطلة فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وجاشت الأندلس بهزتها العنيفة ، التى تمخضت عن مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة نصررة لإخوانهم فى الدين . وإحرازهم لنصرهم الباهر فى الزلاقة (٤٧٩ هـ) . ثم استقرارهم بعد ذلك سادة فى الأندلس . ثم شاء القدر ، بعد أن لمعت الحيوث المرابطية فى غير موقعة وغزوة فى أراضى اسبانيا النصرانية ، أن تفجع الأمة الأندلسية مرة أخرى . بفقد قاعدة جديدة من قواعد العظيمة ، هى سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى .

كانت سرقسطة — وقد اشتق اسمها العربى من اسمها الرومانى Caesar Augusta — تمثل منذ عهد الإمارة ، زعامة الأسر العربية ، والرياسة المحلية ، فى الثغر الأعلى . واستمرت هذه الزعامة قائمة خلال القرن الخامس الهجرى ، أولا فى بنى هاشم التجيبين ، ثم فى خلفائهم بنى هود ، حتى وضع مقدم المرابطين حداً

لحياة دول الطوائف ، وكانت سرقسطة حسبها تقدم من قبل ، آخر القواعد التي سقطت في أيديهم . وذلك في أواخر سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) .

وقد أشرنا من قبل إلى ما يمتاز به موقع سرقسطة الخاص من الناحيتين الإستراتيجية والقومية . فأما من الناحية الإستراتيجية . فقد كان بُعد سرقسطة عن مؤسسة الأندلس . ومركز الحكومة الرئيسي . وموقعها الحصين على الضفة اليسرى لنهر إيبرو (إبرة) . ومناعة أسوارها العالية . تعاون المنزّين بها على تحدى الحكومة المركزية . وتوطيد استقلالهم المحلي . وكانت من جهة أخرى تجعلها حاجزاً طبيعياً بين أراضي المسلمين ، وأراضي النصارى . وأما من الناحية القومية ، فإن وقوع مملكة سرقسطة المسلمة بين الممالك النصرانية - بين إمارة برشلونة من الشرق ومملكتي أراجون ونافار (نبرة) من الشمال ، ومملكة قشتالة من الغرب - كان يحتم عليها أن تتبع نحو جيرانها النصارى ، سياسة خاصة ، يغلب عليها طابع السلم والتهادن ، والملق والخضوع أحياناً في صورة أداء للجزية ، وذلك حتى تأمن شر أولئك الجيران الطامعين الأقوياء ، وكان ملوك سرقسطة فوق ذلك يستخدمون في جيوشهم كثيراً من النصارى المرتزقة ، ومن هؤلاء أحياناً قادة مبرزون مثل السيد الكمبيادور ، وأحياناً كانوا يعتمدون على التحالف مع الملوك النصارى . وهكذا كانت مملكة سرقسطة تحمّل بموقعها وظروفها الخاصة ، على اتباع سياسة ، تجعلها في شبه عزلة عن باقي الإمارات المسلمة . وقد كان هذا شأنها ، حينما قدم المرابطون إلى شبه الجزيرة الإسبانية ، وحينما بدأت جيوشهم تستولى تباعاً على قواعد الأندلس الوسطى ، ثم الشرقية . ودخل المرابطون مدينة سرقسطة حسبها قدماً ، في أواخر سنة ٥٠٣ هـ ، (١١١٠ م) ، استجابة لصريخ أهلها ، وكانت آخر القواعد الأندلسية التي استولوا عليها .

وشعر المرابطون منذ الساعة الأولى بهذا المركز الدقيق ، الذي تحتله سرقسطة في قلب هذا المعترك من الإمارات النصرانية المتوثبة ، وشعروا بفداحة مهمتهم في حمايتها والاحتفاظ بها . وكانت مملكة أراجون القوية جارة مملكة سرقسطة من الشمال قد استطاعت أن تنتزع منها بعض قواعد الشمال الهامة مثل مونتشون ، والمنارة ، ووشقة ، وبربشتر ، ولم يبق لسرقسطة من قواعدها ، سوى تطيلة ولاردة وإفراغة ، وثغرها على البحر المتوسط طرطوشة .

وكانت مدينة سرقسطة هدفاً لأطباع قشتالة وأراجون معاً . ففي صيف سنة ١٠٨٥ م (٤٧٨ هـ) حاصرها ألفونسو السادس ملك قشتالة على أثر استيلائه على طليطلة . محاولاً الاستيلاء عليها . ولم يرفع الحصار عنها إلا حينما وافته الأنباء بمقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة . فغادرها على عجل ليجمع سائر قواته . ولبق هزيمته في الزلاقة في شهر رجب ٤٧٩ (أكتوبر ١٠٨٦ م) . ولما رأى المستعين ابن هود ملك سرقسطة يومئذ ، اشتداد ضغط النصاري على مملكته . ورأى من جهة أخرى انسياب الجيوش المرابطية إلى شرق الأندلس . واقترابها من الثغر الأعلى ، اعزم أن يتقرب من المرابطين ، وأن ينضوي تحت لوأهم ، فبعث إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سفارتين متواليتين ، وكان يوسف يرى أن تترك سرقسطة ، حاجزاً بين المرابطين والنصارى ، وبهذا أوصى ولده علياً قبيل وفاته ، وأمكن الحوادث تطورت فيما بعد ، وانتهت باستيلاء المرابطين على سرقسطة وباقي قواعد الثغر الأعلى .

لما استقر المرابطون في سرقسطة تحت إمرة قائدهم محمد بن الحاج أول ولايتها من اللمتونيين ، كانت حوادث الثغر الأعلى ، تنذر باقتراب الخطر الداهم . وكان النصاري قد أنشأوا منذ سنة ١٠٩١ م (٤٨٤ هـ) على ضفة نهر إيبرو اليسرى شمال سرقسطة حصناً قوياً ، يقع على قيد أربعة فراسخ فقط منها ، واتخذوه قاعدة للضغط عليها ، وإرهاقها من آن لآخر ، وكان ألفونسو الأول ملك أراجون الملقب بالبحارب El Batallador ، والمسمى « ابن رذمير » في الرواية العربية ، يترقب الفرص لمهاجمة سرقسطة ، وسبر غور المدافعين عنها ، وكانت قواته قد وصلت شرقاً حتى ظاهر لاردة ، واحتلت قلعة تاماريت القريبة منها وذلك في سنة ١١٠٧ م .

ولما احتل المرابطون سرقسطة ، سار إليها ألفونسو في العام التالي (٥٠٤ هـ — ١١١١ م) وحاول مهاجمتها ، فردته عنها القوات المرابطية بقيادة ابن الحاج ومحمد ابن عائشة والى مرسية . ثم شغل ألفونسو بعد ذلك حيناً بالحرب التي نشبت بينه وبين زوجته أوراكا ملكة قشتالة ، وانتهز المرابطون ، من جهة أخرى ، تلك الفرصة ، فقاموا ببعض الغزوات الخريبة في أراضي إمارة برشلونة ، وحاصروا الثغر العظيم ذاته حسبما فصلنا ذلك من قبل . ولما قتل ابن الحاج حين عودته من

تلك الغزوة (٥٠٨ - ١١١٤ م) ، خلفه في ولاية سرقسطة الأمير أبو بكر بن ابراهيم بن تافلوت المستوفى والى مرسية ، وهو ابن عم أمير المسلمين على بن يوسف وصهره - زوج أخته - فلبث في ولايتها زهاء عامين . وقد كان هذا الأمير من خيرة أمراء الدولة المرابطية ، كرمًا وجوداً وشجاعة ، وظهوراً في ميدان الفضائل ، وقد أقام خلال عهده القصير بسرقسطة بلاطاً فخماً كبلات الملوك . واستوزر الفيلسوف الشهير أبا بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة ، وخاض حياة باذخة فخمة ، ومن حوله الأدباء والندماء : وانهمك في اللذات والشراب ، وذلك كله بالرغم مما كانت تجوزه سرقسطة يومئذ من ظروف حرجة واحتمالات خطيرة . بيد أنه يبدو من إشارة لابن عذارى ، أنه سار في سنة ٥١٠ هـ ، إلى حصن روطه وغزاه ، وأنه غزا كذلك برجة وبها عماد الدولة بن هود ، ويبدو من إشارة أخرى لابن الخطيب . أنه قد خاض خلال تلك الفترة مع النصارى . بعض معارك دفاعية . كان لهم فيها التفوق على القوات المرابطية . ويبدو من جهة أخرى أن ألفونسو ملك أراجون ، هو الذى كان يضطلع بهذه الغزوات المرهقة^(١) . ثم توفى الأمير أبو بكر سنة ٥١٠ هـ أو في سنة ٥١١ هـ ، على قول آخر^(٢) . ولما اتصل نبأ وفاته بالأمير أبى إسحاق إبراهيم بن يوسف ، أخى أمير المسلمين على بن يوسف ، وهو يومئذ والى مرسية ، بادر بالسير إلى سرقسطة فنظر في شئونها . وضبط أحوالها . ولما اطمأن إلى توطيد أمورها عاد إلى مرسية مقر ولايته^(٣) .

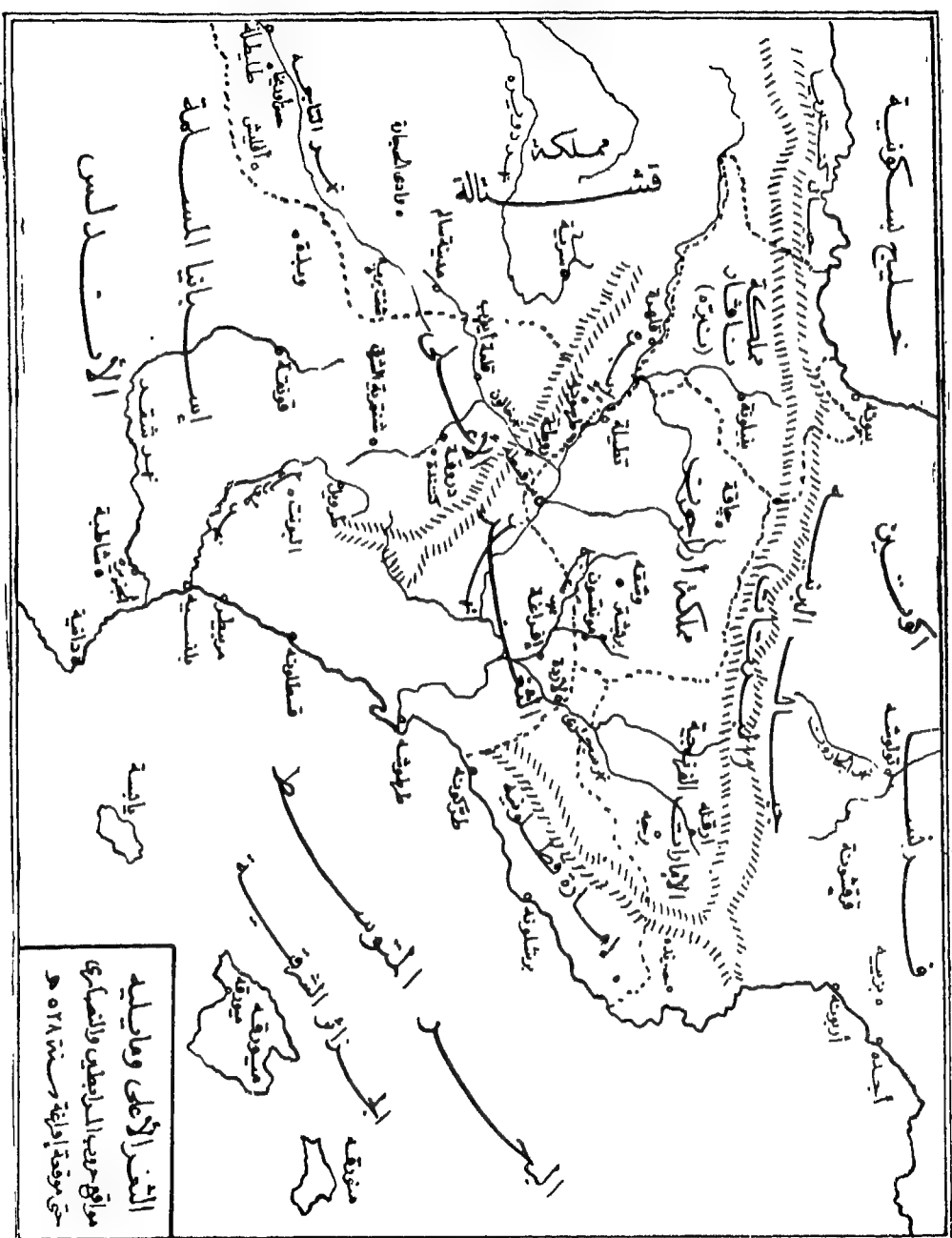
ولأنه لما يلفت النظر أنه لم يعين في تلك الآونة العصيبة ، التى لاح فيها الخطر داهماً على سرقسطة ، وال جديد يخلف على الفور والىها المتوفى ، خصوصاً وقد كان أمير المسلمين على بن يوسف موجوداً في تلك الفترة بالذات (٥١١ - ١١١٧ م) في شبه الجزيرة ، عقب جوازه الثالث إليها . وأعجب من ذلك هو أن على بن يوسف ، بدلاً من أن يتجه بجيوشه الحرارة العابرة معه ، إلى مواطن الخطر في الثغر الأعلى ، يؤثر أن يضطلع بغزوات عقيمة في أراضي البرتغال . يستولى

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة ، هسبرس ص ٧٨) ، والإحاطة لابن الخطيب (العاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤١٦ ، حيث يقول في ترجمة الأمير أبى بكر «توفى بسرقسطة في سنة عشر وخمسمائة ، بعد أن ضاق ذرعاً بطاغية الروم ، الذى أناخ عليه بكل كفه » .
(٢) يقول بالرواية الأولى ابن الخطيب (الهامش السابق) . ويفول بالثانية ابن عذارى في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة التى عثر بها المؤلف في مكتبة جامع القرويين بفاس) .
(٣) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر) .

خلالها على مدينة قُلْمُرية ، ثم يتركها عقب افتتاحها . وعلى أى حال ، فإنه بعد أن لبثت سرقسطة حيناً دون وال ، نُدب عبد الله بن مزدل والى غرناطة ليكون والياً لبلنسية وسرقسطة . وذلك فيما يبدو في أواخر سنة ٥١١ هـ (أو أواخر ١١١٧ م)^(١) . وهنا يحيق الغموض بحركات النصارى وحركات والى سرقسطة الجديد . ذلك أنه من المسلم به ، ومن المتفق عليه في الروايتين العربية والإفرنجية ، أن حصار النصارى لسرقسطة بدأ في شهر صفر سنة ٥١٢ هـ ، الموافق لشهر مايو سنة ١١١٨ م . ونقول هنا حصار النصارى بصفة عامة . لأن الجيش المحاصر لم يكن مكوناً فقط من الأراجونيين . أعداء سرقسطة الأصليين ، بل كان يضم طوائف عديدة أخرى من الفرنج . والواقع أننا نجد أنفسنا في هذا الموطن أمام حملة صليبية حقيقية . ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه ملك أراجون ألفونسو المحارب . يوالى الضغط على سرقسطة ، ويُجدد في انتزاع حصونها الأمامية حتى أنه استولى على تطيلة في سنة ١١١٧ م ، ووصل في أوائل سنة ١١١٨ إلى موريللا القريبة منها ، كان صدى دعوته وحركاته ضد المسلمين يعمل عمله في الناحية الأخرى من جبال البرنيه . وكانت الحرب الصليبية الأولى ، قد انتهت قبل ذلك بعشرين عاماً في الشرق باستيلاء الصليبيين على بيت المقدس (١٠٩٩ م) وازدادت الروح الصليبية اضطراباً ، في فرنسا وفي اسبانيا . ففي سنة ١١١٧ م . عبرت حملة قوية من الفرنج أهل بيارن بقيادة جاستون دى بيارن وأخيه سانتولو — وكانا قد اشتركا بالمشرك في الحرب الصليبية الأولى — ، إلى اسبانيا . لتشارك مع الأراجونيين في افتتاح سرقسطة . وفي العام التالي (١١١٨ م) عقد بمدينة تولوز (تولوشة) مؤتمر من أساقفة آرل ، وأوش ، ولاسكار ، وبنبلونة ، وببشتر ، وتقرر فيه أن ترسل حملة صليبية أخرى إلى اسبانيا يقودها الكونت دى تولوز ، وحشدت فوق ذلك قوات كبيرة من البشكنس ، ومن قطلونية ، ومن أورقلة تحت إمرة سادة هذه المناطق . وكان بين المقاتلين كثير من الأساقفة ورجال الدين^(٢) . وتنوه الرواية الإسلامية بضخامة هذه الحملات الفرنجية التي اشتركت في حصار سرقسطة وافتتاحها ، وتصفها إحدى الروايات بأنها كانت أمماً كالممل والجراد ، أو أنها أقبلت في عدد لا يحصى أكثره من

(١) روض القرطاس ص ١٠٥ .

(٢) يراجع في ذلك مقال عن افتتاح سرقسطة بعلم الأستاذ J. María Lacarra نشر بمجلة



من الحند والرماة^(١) ، . وفي رواية أخرى أن الفرنج بلغوا خمسين ألف فارس^(٢) .

وهكذا اجتمعت الحيوش النصرانية المتحدة من الأرجونيين والفرنج ، وسارت لافتتاح سرقسطة ، وفي بعض الروايات أن الذي بدأ بالحصار هو الجيش الفرنجي الذي يقوده جاستون دي بيارن . وأن ألفونسو المحارب قدم بعد ذلك في قواته من قشتالة^(٣) . وبدأ حصار سرقسطة وفقاً للرواية الإسلامية : في مستهل شهر صفر سنة ٥١٢ هـ^(٤) ، ويوافق ذلك يوم ٢٢ مايو سنة ١١١٨ ، وهو التاريخ الذي تضعه الرواية الفرنجية . وهنا يبدأ الغموض في تعقب حوادث الحصار ، ونجد أنفسنا أمام طائفة من الروايات المتناقضة ، فهناك أولاً القول بأن سرقسطة انتهت بعد حصار دام أشهراً ، أودام بالتحديد تسعة أشهر . بالتسليم صلحاً . وهذه رواية ابن الكردبوس في « الإكتفا » وابن عبد المنعم الحميري في الروض المعطار^(٥) . بيد أن هذه رواية ضعيفة أو بعبارة أخرى رواية ناقصة . وأما الروايات الأخرى وهي عديدة ، عربية وإفريقية ، فإنها تتفق في أنه وقعت خلال الحصار معارك عديدة بين المسلمين والنصارى ، وأن سرقسطة لم تسلم صلحاً ، وإنما أرغمت على التسليم إرغاماً ، بعد أن برّحت بأهلها أهوال الحصار . وبعد أن هزم أهلها في غير معركة . وهزم المرابطون الذين تصدوا للدفاع عنها .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية تفاصيل مختلفة عن حوادث الحصار . والمعارك التي سبقته أو اقترنت به . فيقول لنا صاحب روض القرطاس . إن عبد الله بن مزدلي لما ولي سرقسطة في سنة ٥١١ هـ ، سار إليها من غرناطة ، فوجد ابن رذمير قد أذاق أهلها شراً ، فاشتبك معه عبد الله في عدة معارك شديدة حتى هزمه ، وأخرجته عن البلدة ، ولبث عبد الله بعد ذلك عاماً آخر في سرقسطة ثم توفي . فبقيت دون أمير « فأتاها ابن رذمير فنزلها ، وأنى ألفنش أيضاً في أمم لا تحصى من قبائل الروم ، فنزل لاردة من بلاد الجوف ، فاتصل الخبر بأمر المسلمين على

(١) روض القرطاس ١٠٦ ، والبيان المغرب (من الأوراق المخطوطة السالفة الذكر) .

(٢) الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ٩٨ .

(٣) مقال الأساد لاكارا السالف الذكر ص ٨٠ .

(٤) ابن عذاري في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر) .

(٥) ابن الكردبوس (مخطوط أكاديمية التاريخ السالف الذكر لوحة ١٦٤ ب) والروض

المعطار ص ٩٧ و ٩٨ .

ابن يوسف ، . فكتب إلى أمراء الأندلس بالمسير إلى أخيه تميم ، وكان والياً على شرق الأندلس ، ليسيروا معه لاستنقاذ سرقسطة ولاردة ، فقدم على تميم . عبد الله بن مزدلي . وأبو يحيى بن تاشفين صاحب قرطبة ، بعساكرهما : فخرج تميم بن يوسف من بلنسية مع أمراء لمتونة ، فقصده نحو لاردة ، وكان بينه وبين ألفنش قتال عظيم . أقلعه عن لاردة خاسراً بعد أن بذل جهده في قتالها ، وفقد عليها من جيوشه ما يزيد على العشرة آلاف رجل ، ورجع تميم إلى بلنسية ^(١) .

وربما كانت رواية ابن عذارى أكثر وضوحاً واتساقاً . فهو يقول لنا إنه في سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ولتى أمير المسلمين على بن يوسف أخاه الأمير أبا الطاهر تميمًا لمرّة بلاد شرق الأندلس لما ضيق العدو عليها ، وأعمل عزمه وحزمه إليها ، وذلك أنه لما رأى « أذفونش » صعب سرقسطة ، وتفرق الجيش عنها . بعد موت الأمير أبي بكر بن إبراهيم ، جد في الحشد إليها واستجاش الإفرنجية : فأقبلت في عدد لا تحصى ، أكثرهم جند ورماة ، فاحتل سرقسطة مستهل صفر من هذه السنة (٥١٢ هـ) فخرج المسلمون إليهم ، وشبّ الحرب بينهم ، فحمل الروم عليهم ، فانهزم الناس ، وهم في أثرهم إلى ربض الدباغين : إلى القنطرة ، فازدحموا بها ، وقد حصل الروم معهم فيها . فبادر المسلمون بإلقاء النار عليها ، فاحتترق القنطرة إلى أقصاها ، ولولا المناجزة بين الربض والمدينة لكانت الخالقة . وبات الناس على الأسلحة ، وخمسوا أبواب المدينة ، واتصل الحصار وتواترت الحرب . وكان أذفونش قد تخلف عن .. فلحق بعد نصف شهر ، فتعاصد العدو ، وقد أمد ، وزاد كلبه واشتد ، ولنحو الشهر تغلبوا على قصر . . . بالجعفرية . وهو قبيل ميل من سرقسطة ، وكان عبد الله بن مزدلي أوان نزول الروم على سرقسطة بالعسكر ، على جبان لحماية ذلك الثغر عن عدو طليطلة .

وزيد ابن عذارى على ذلك ، أنه لما توالى تضيق العدو على سرقسطة وحصارها وهزيمة أهلها ، وتحريق قنطريتها ، ونزول العدو على قصرها المعروف بالجعفرية ، اتصل الخبر بعبد الله بن مزدلي ، فسار الجيش إليها ولحق به مدد من جيش قرطبة ، فتمويت نفوس أهل سرقسطة ، ولحق الجيش بطرسونة ،

(١) روض القرطاس ص ١٠٥ و ١٠٦ ، وينلاحظ ما في هذه الرواية من تناقص أولافى القول بموت عبد الله بن مزدلي ثم متولاه ثانيه للفنال مع الأمير تميم ، وثانيًا في التفريق بين ابن رذسر وألفنش وابن رذسر هو ألفونسو اخبار ، وهما شخص واحد .

وقد شد العدو غارته عليها . فجد في اتباعه وأدركه غير بعيد . فهزم الله العدو ، وأظهر على يد عبد الله بن مزدلي عجائب في هذه الغزوة لم يعهد مثلها ، منذ مدة بعيدة قبلها . ثم احتل بتطيلة ، وتلوم بها ، وأقلع الفرنج عن سرقسطة ، فرأى الأمير عبد الله بعد تلومه أن ينهض إليها ، فترك الحملة ومدد قرطبة ، وانتخب أنجاد العسكر ، وصمم إلى سرقسطة ، فدخلها في أوائل جمادى الآخرة ، وقد استنشق أهلها ريح الحرب . وفي خلال ذلك اعتل الأمير عبد الله المذكور ، فتوفي في رجب . فكتم وفاته أياما ، ثم انبث الخبر وعلم به رذير . ففغر على البلد فيه ، وألتي عليه زوره . وقد نفذت الأقوات ، وبلغ الميقات ، فدخله بالمعاهدة والأمنة في يوم الأربعاء الثالث من شهر رمضان المعظم من السنة المؤرخة (أغنى ٥١٢ هـ) « (١) .

وعلى أى حال ، فإنه بالرغم مما يوجد بين الروايتين من اختلاف في الوقائع والتفاصيل ، يمكننا أن نستخلص منهما حقيقتين هامتين : الأولى أنه وقعت قبل حصار سرقسطة . أو خلال الحصار ، معارك شديدة بين المسلمين والنصارى ، والثانية هو أن عبد الله بن مزدلي ، آخر ولاية سرقسطة المسلمين ، قد اشترك بقواته في هذه المعارك وأبلى فيها . وثمة مسألة أخرى . ينفرد بها صاحب روض القرطاس ، وهي أن القوات المرابطية المشتركة . سارت لاستنقاد سرقسطة بقيادة الأمير أبى الطاهر تميم ، واشتبكت عند لاردة في موقعة شديدة مع ألفونسو المحارب ، وأنزلت به هزيمة ساحقة ، وأن تيمما عاد على أثر ذلك إلى مقر ولايته في بلنسية ، وهذه مسألة سوف نعود إلى مناقشتها .

بدأ حصار سرقسطة حسبما قدمنا ، في مستهل شهر صفر سنة ٥١٢ هـ (٢٢ مايو سنة ١١١٨ م) . وطوقها قوات كثيفة من الفرنج والأرجونيين . والبشكنس والقطلان وغيرهم . وكانت سرقسطة ، فضلا عن حصانتها الطبيعية بموقعها جنوبي نهر إمبرو على ضفته اليسرى ، تعتمد في الدفاع على أسوارها العالية القوية . وهي ترجع إلى أصل روماني . وعلى قلعتها المنيعة ، وكان قصرها الشهير المسمى بالجعفرية ، نسبة إلى مؤسسة أبى جعفر المقتدر بن هود ، يقع خارج الأسوار ، غربي سرقسطة على قيد نحو ميل منها ، وعلى مقربة من النهر ، ومن ثم فقد احتله

(١) البياض المغرب من الأوراق المخطوطة التي عثر بها المؤلف في مكتبة جامع الصرويين بفاس .

النصارى لأول مقدمهم . وجاء المخاضرون معهم بأبراج خشبية عالية تجرى على بكرات لكي يستطيع المهاجمون بها محاذاة الأسوار العالية ، لينصبوا فوقها الرعدات ، وجاءوا كذلك بعشرين منجنيقاً ضخمةً لذلك الأسوار^(١) ، وكان الذي يشرف على آلات الحصار واستعمالها . طائفة من أهل بيارن ممن اشتركوا في حصار بيت المقدس . وتمرسوا في استعمال هذه الآلات .

واستمر حصار سرقسطة سبعة أشهر . والظاهر أنه استطال أكثر مما قدر ألفونسو المحارب وحلفاؤه . ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه أهل سرقسطة ، يعانون وبيلات الحصار داخل الأسوار . كان المعسكر النصراني منذ مقدم الخريف ، يعاني من نقص المؤن . ويهدده الجوع بشبهه المروع ، حتى لقد فكر قادة الجيش النصراني في رفع الحصار . لولا أن شجعهم أسقف وشقة وزملاؤه ، ووضعوا تحت تصرفهم ذخائر عدة من الكنائس يجلبون بثمنها الأقوات^(٢) . أما في داخل سرقسطة . فقد كانت الأقوات تنضب يوماً بعد يوم . خصوصاً وأن أهل المدينة المحصورة لم يتمكنوا من جني محاصيلهم لتبكير النصارى في فرض الحصار . وكان من العسير عليهم أن يتلقوا أية مؤن من الخارج . لإحكام الحصار حول المدينة ، من ناحية النهر وناحية البر . ومضت الأشهر تباعاً والحال تشتد شيئاً فشيئاً ، حتى « فنيت الأقوات . وفي أكثر الناس جوعاً »^(٣) . ووقع خلال ذلك حادث زائد في وجرم أهل المدينة ، وارتباك تدابير الدفاع . هو وفاة واليها عبد الله بن مزدلي ، في أوائل جمادى الآخرة (سبتمبر ١١١٨ م) . والظاهر أنه لم يخلفه في الرئاسة أحد من أهل المدينة . فترك الأمر فوضي وأخذت الخاتمة المروعة تدنو شيئاً فشيئاً .

وهنا وقبل أن نتحدث عن خاتمة سرقسطة الإسلامية ، يحق لنا أن نتساءل أولاً . ما الذي حدث خلال الحصار من الحوادث والوقائع ؟ وهل نشبت بين المسلمين والنصارى عندئذ بعض المعارك ؟ ثم ماذا كان موقف المرابطين . وهل حاولوا إنتاذ المدينة المحصورة ؟ وفي أي الظروف ؟

فأما ما وقع خلال هذه المرحلة الأخيرة من الحصار من الحوادث والوقائع ، فإن معظم الروايات الإسلامية تأنزِم الصمت إزاء ذلك . بيد أنها في موطن واحد

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ .

(٢) الأستاذ Iacaria في مقاله السالف الذكر بمجلة الأندلس والمراجع .

(٣) روض القرطاس ص ١٠٦ .

تذكر لنا ما يؤيد هذه الحقيقة الهامة . وهى أن جيشاً مرابطياً بقيادة الأمير أبى الطاهر تميم — وقد كان عندئذ حسباً تقدم والياً لشرق الأندلس — وصل فى أواخر أيام الحصار (نحو منتصف شهر شعبان الموافق شهر ديسمبر) إلى مقربة من سرقسطة ، وذلك فيما يرجح يقصد محاولة إنقاذها . فخرج إلى الأمير تميم زعيان من زعماء المدينة . هما الفقيه على بن مسعود بن إسحق بن إبراهيم بن عصام الخولانى وهو من أكابر علماء سرقسطة وحفاظها وأدبائها . وكان متولياً قضاء ميورقة ، والخطيب أبو زيد بن منبىال . وحدثاه باسم أهلها بمحضر أبى الغمر الشايب بن غرون . عن أهبات النصارى . ووجوب مناجزة العدو . ولكن الأمير تميم « جبن عن ذلك » وكان انتقاله بالحيوش عن سرقسطة . حسباً يقول ابن الأبار صاحب هذه الرواية . سبباً فى نجاح النصارى فى الاستيلاء على المدينة^(١).

بيد أن إحدى الروايات النصرانية . تقول لنا بالعكس إنه قد وقعت فى يوم ٦ ديسمبر سنة ١١١٨ معركة عنيفة بين قوات ألفونسو الحارب . وجيش قوى من المرابطين انتهت بظفر النصارى ، ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى سلمت المدينة . وذلك بعد أن انتهت المهلة الممنوحة للمحصورين^(٢).

على أنه توجد وثيقة مخطوطة هامة تؤيد ما جاء فى الرواية الأولى وتؤكد ، وهذه الوثيقة هى عبارة عن رسالة مؤثرة . بل مبكية . كتبها قاضى سرقسطة ثابت ابن عبد الله ، وجماعة من أهلها إلى الأمير تميم يتضرعون إليه ، فى عبارات مؤثرة ، ولكن أبية حازمة باسم الدين والوطن ، أن يتقدم لإنقاذ سرقسطة وإنقاذ أهلها . وألا ينكص على عقبه أمام النصارى ، وقد استهلّت هذه الرسالة بالتاريخ الذى كتبت فيه . وهو يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان (٥١٢ هـ) . أعنى لستة أشهر ونصف من بدء الحصار ، وقبل تسليم المدينة بثمانية عشر يوماً فقط . وفيها يصف الكاتب ما عاناه أهل سرقسطة من أهوال الحصار والجوع . ثم يشير إلى مقدم الأمير تميم بعساكره ، ويلومه على إحجامه عن لقاء النصارى فى قوله :

(١) وردت هذه الرواية خلال ترجمة ابن الأبار للفقيه على بن مسعود الخولانى . وقد نسرت

مع مراجع أخرى ملحقاً لراجع « النكلة » وذلك فى كتاب المشتشرين الإنسانين O. Palencia. M. Alarcón تحت عنوان (Miscalanea de Estudios y Textos Arabes (Madrid 1916) p.205) وعرفنا على نفس هذه الترجمة أبصاً فى كتاب الديلى والنكلة لابن عبد الملك المراكشى (المخطوط المصور المحفوظ بالخرانة العامد بالرباط) الجزء الأول .
(٢) أوردها الأساذ Lacarra فى مقالته السالف الذكر .

« وما كان إلا أن وصلت ، وصل الله برك بتقواه ، على مقربة من هذه الحضرة ، ونحن نأمل منك بحول الله أسباب النصر ، بتلك العساكر التي أقر العيون بهاؤها ، وسر النفوس زهاؤها ، فسرعان ما انثنت وما انتهت ، وارعويت وما أدنيت ، خائباً عن اللقاء ، ناكصاً على عقبيك عن الأعداء ، فما أوليتنا غنَاء ، بل زدتنا بلاء ، وعلى الداء داء ، بل أدواء ، وتناهت بنا الحال جهداً والتواء ، بل أذلت الإسلام والمسلمين ، واجترأت فضيحة الدنيا والدين . فيالله وبالإسلام ، لقد اهتضم حومه وحماه أشد الاهتضام ، إذ أحجمت أنصاره عن إعزازه أقبح الإحجام ، ونكصت عن لقاء عدوه ، وهو في فئة قليلة ، ولمة رذيلة ، وطائفة قليلة . »

ثم يشير الكاتب بعد ذلك إلى أهمية سرقسطة الدفاعية وعواقب سقوطها الوخيمة على مركز المرابطين في شبه الجزيرة في قوله :

« فما هذا الجبن والفرع ، وما هذا الهلع والخزع ، بل ما هذا العار والضيع ، أتحسبون يا معشر المرابطين وإخواننا في ذات الله المؤمنين ، إن سبق على سرقسطة القدر ، بما يتوقع من المكروه والحذر ، أنكم تبلغون بعدها ريقاً ، وتجدون في سائر بلاد الأندلس عصمها الله مسلماً من النجاة أو طريقاً — كلا والله ليسومنكم الكفار عنها جلاء وفراراً ، وليخرجنكم منها داراً فداراً ، فسرقسطة حرسها الله هي السد الذي إن فتق ، فتقت بعده أسداد ، والبلد الذي إن استبيح لأعداء الله ، استبيحت له أقطار وبلاد ، فالآن أيها الأمير الأجل ، هذه أبواب الجنة قد فتحت ، وأعلام الفتح قد طلعت ، فالمنية ولا الدنية ، والنار ولا العار ، فأين النفوس الأبية ، وأين الأنفة والحمية ، وأين الهمم المرابطية ، فلتقدح عن زنادها ، بانتضاء حدها ، وامتضاء جدها ، واجتهادها ، وملاقاة أعداء الله وجهادها ، فإن حزب الله هم الغالبون . »

ويتوجه الكاتب في ختام رسالته ، بالضرعة إلى الأمير أن يقبل على سرقسطة ، وألا يتأخر قبل وقوع الكارثة فيقول :

« ولن يسلك عند الله ، ولا عند مؤمن ، عذر في التأخر والارعواء من مناجزة الكفار والأعداء . وكتابتنا هذا أيها الأمير الأجل ، اعتذار تقوم لنا به الحجة في جميع البلاد ، وعند سائر العباد ، في إسلامكم إيانا إلى أهل الكفر والإلحاد ، ونحن مؤمنون ، بل موقنون أجابتك إلى نصرتنا ، وإعدادك إلى الدفاع عن

حضرتنا ، وأنتك لا تتأخر عن تلبية نداينا ، ودعائنا إلى استنقاذنا من أيدي أعدائنا . فأقبل بعسكرك على مقربة من سرقسطة ، عصمها الله ، ليخرج الجميع عنها ، ويرأ إلى العدو وقمه الله منها ، ولا تتأخر كيفما كان طرفه عين ، فالأمر أضيق ، والحال أزهرق ، فعدبنا عن المثل والتسويق قبل وقوع المكروه والخوف ، وإلا فأنتم المطالبون عند الله بدمائنا وأموالنا ، والمستولون عن صبيتنا وأطفالنا ، لإحجامكم عن أعدائنا وتثبطكم عن إجابة نداينا ، وهذه حال نعيذك أيها الأمير الأجل عنها ، فإنها تملكك من العار ما لم تحمله أحداً ، وتورثك وجميع المرابطين الحزى أبداً . ومهمى تأخرتم عن نصرتنا ، فالله ولى الثأر لنا منكم ، ورب الانتقام ، وقد برئتم بإسلامنا للأعداء من نصر الإسلام ، وعند الله لنا لطف خفي ، ومن رحمته ينزل الصنع الخفي ، ويغنينا الله عنكم وهو الحميد المغني^(١)

كتبت هذه الرسالة المؤثرة قبيل سقوط سرقسطة بفترة يسيرة ، وإنه لتبدو من تلك الفقرات التي نقلناها منها ، حقيقة لاشك فيها ، وهي أن جيشاً مرابطاً بقياد الأمير أبي الطاهو تميم ، قدم إلى سرقسطة قبيل سقوطها لاستنقاذها من أيدي النصارى ، وعسكر على مقربة منها ، وتقول لإحدى الروايات النصرانية ، إن هذا الجيش قد وصل إلى حصن سانتا ماريا الواقع على بعد ثمانية عشر كيلومتراً من سرقسطة^(٢) ولكن ما الذى فعل هذا الجيش بالضبط ؟ وهل بذل أية محاولة جديدة لاستنقاذ سرقسطة والدخول مع النصارى في معركة حاسمة ؟ إنه مع استثناء الرواية النصرانية التي أشرنا إليها من قبل ، والتي تقول بأن معركة عفيفة وقعت بين

(١) نشرنا هذه الرسالة بأكملها في باب الوثائق . وقد نقلناها عن مخطوط الإسكوريال رقم ٤٨٨ الغزيرى ، لوحة ١٥٩ إلى ٦١ ب . هذا وقد نشر هذه الرسالة وانتمتع بها من قبل صديق الدكتور حسين مؤنس في بحث عنوانه « الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين » (مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة - المجلد الحادى عشر الجزء الثانى ديسمبر سنة ١٩٤٩) . بيد أنه ذهب في التمهيد إليها (ص ١٣٣) إلى نتيجة نحسب أنها لا يمكن أن تدل بها ، فذكر أنها بالمقارنة بالوثيقتين الأخرتين المنشورتين بعدها ، قد كتبت في سنة ٥٢٣ هـ أعني بعد سقوط سرقسطة بإحدى عشر عاماً . هذا في حين أن نص الرسالة وفقراتها المتوالية تدل قطعاً بأنها كتبت وقت حصار سرقسطة وقبيل سقوطها بقليل ، في شهر شعبان سنة ٥١٢ هـ ، ومن الواضح أنها دعوة يائسة موجهة إلى قائد المرابطين يومئذ الأمير أبي الطاهر تميم ، بأن يتقدم بمجده ، وقد كان على مقربة من سرقسطة ، لإنقاذ المدينة المحصورة وإنقاذها قبل فوات الوقت . وأقطع دليل على صحة هذا الرأى فضلاً عن نص الرسالة ذاته ، هو أن الأمير أبا الطاهر تميم قد توفى بقرطبة في سنة ٥٢٠ هـ (روض القرطاس ص ١٠٦) .

(٢) مقال الأستاذ Lacarra السالف الذكر ، نقلنا عن المؤرخ Zurita

— ٩٩ —

المرابطين والنصارى ، هزم فيها المرباطون ، ثم سلمت المدينة على أثر ذلك ، يبدو مما جاء في هذه الرسالة ، أن الجيش المرباطى التزم الجمود والإحجام ، ولم يبذل أية محاولة لإنقاذ المدينة ، ثم ارتد بعد ذلك على أعقابها ، وهذا ما يؤيده رواية ابن الأبار التى سبقت الإشارة إليها . ثم يؤيده أيضاً مع اختلاف فى تصوير الوقائع ، ما ورد فى روض القرطاس ، من أنه بعد سقوط سرقسطة ، وصل من العدو جيش من عشرة آلاف فارس ، بعثة أمير المسلمين على لاستنقاذها ، فوجدها قد فرغ منها وملكها العدو ، ونفذ حكم الله فيها^(١) .

— ٤ —

وإنه ليحق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن البواعث التى حملت قائد الجيش المرباطى الأمير أبا الطاهر تيمما ، على اتخاذ هذا الموقف السلبي ، فى مثل هذه الآونة العصيبة من حياة المدينة المسلمة العظيمة ، وحملت الجيش المرباطى على الإحجام عن لقاء العدو فى محاولة يائسة لإنقاذها . فأما من الناحية العسكرية ، فإنه يمكن أن يقال إن ذلك قد يرجع إلى تفوق النصارى فى الكثرة على الجيش المرباطى ، تفوقاً خشى معه الأمير تيمم أن يدخل فى معركة غير مأمونة العواقب . وتيمم لم يكن من أكابر القادة المرباطين ، وإنما كان يقود الجيش بصفته الأميرية ، ولم يكن انتصاره ، فى موقعة أفلش راجعاً إلى مقدرته وصفاته الخاصة ، وإنما كان راجعاً بالأخص إلى شجاعة قائديه المحربين محمد بن عائشة ، ومحمد بن فاطمة ، ولولاهما لما اشتبك فى المعركة ولأثر الارتداد . وكان الجيش المرباطى قد فقد إلى ذلك الحين معظم قاداته العظام ، أمثال سير بن أبى بكر ، ومزدلى ، وعبد الله بن فاطمة ، ومحمد بن الحاج ، ويمكن أن يقال أيضاً إن موقع سرقسطة بعيداً عن مراكز تموين الجيش المرباطى وإمداده فى بلنسية ومرسية وقرطبة ، لم يكن مما يشجع على القيام بأية محاولة عسكرية خطيرة .

على أن هذه الأعذار العسكرية وأمثالها ، لم تكن تكفى لتبرير موقف الجيش المرباطى ، وإحجامه عن القيام بعمل إنقاذ مشرف ، واثقائه بذلك صدع هيبته فى أنحاء شبه الجزيرة ، ولوم التاريخ والأجيال . وإنما قد ترجع البواعث الحقيقية لتعاقس المرباطين عن المغامرة بإنقاذ سرقسطة ، إلى أنهم كانوا يشعرون بأن الاحتفاظ بهذه المنطقة النائية من شبه الجزيرة — منطقة الثغر الأعلى — كان يلقي

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ .

عليهم مسئوليات عظيمة ، لوقوعها بين أعداء أقوياء يتربصون بها باستمرار ، وأن سرقسطة لم تكن بظروفها وروح شعبها كثيرة الولاء لحكمهم ، ومن ثم فإن المرابطين لم يعنوا فيما يبدو ، بأن يتجشموا في سبيل إنقاذها تضحيات عسكرية عظيمة .

وهكذا تركت سرقسطة لمصيرها ، واضطرت بعد أن عانت من أهوال الحصار ، وعصف الجوع والحرمان والمرص ، أشنع الخطوب والحن ، وبعد أن يئس أهلها من إجابة صريحهم ، وتلقى الإنجاد من أى مكان ، أن تخاطب ألفونسو (ابن رذمير) أن يمنح أهلها هدنة مؤقتة (لم تعين لنا الرواية مدتها) ، فإذا لم يأتهم الإنجاد المنشود ، سلمت إليه المدينة ، وتعاهد الفريقان على ذلك ، ثم مضى هذا الأجل دون أن يتلقى المحصورون أية معونة ، فاضطرت المدينة إلى التسليم^(١) .

وتلخص الرواية العربية الوحيدة - وهى رواية ابن الكردبوس - شروط هذا التسليم فيما يلي :

أن تسلم سرقسطة إلى ملك أراجون (ابن رذمير) ، ومن أحب المقام بها من أهلها فاه ذلك ، على أن يؤدى جزية خاصة ، ومن أحب أن يرحل إلى حيث شاء من بلاد المسلمين ، رحل وله الأمان التام ، وعلى أن يسكن الروم (الأراجونيون والفرنجة) المدينة ، والمسلمون ربض الدباغين ، وعلى أن كل أسير يفلت للروم من المدينة ويحصل عند الإسلام ، فلا سبيل لمساكته إليه ولا اعتراض له عليه .

وقد كان ربض الدباغين من أحياء سرقسطة المتطرفة ، ويقع على ضفة النهر النجفى ، حسبما يبدو ذلك من أقوال ابن عذارى التى تقدم ذكرهما . وكانت سياسة الملوك النصارى ، فيما يتعلق بمن يبقون السكان المسلمين في المدن المفتوحة ، هو أن يسمح لهم بالبقاء في منازلهم داخل المدينة لمدة سنة أو نحوها ، ثم يلازمون بعد ذلك بالانتقال إلى الأرباض ، وهى الأحياء المتطرفة أو الضواحي ، وقد منح سكان سرقسطة وفقاً للرواية النصرانية هذا الامتياز بالبقاء في أحيائهم داخل المدينة مدى عام ، ينتقلون بعده إلى ربض الدباغين . وغيره من الأرباض الخارجية ، وهذا هو ما اتبع فيما بعد في عهود تطيلة وطرطوشة وغيرهما من قواعد الشجر المفتوحة . ويضيف ابن الكردبوس إلى ما تقدم ، أنه ما كاد ملك النصارى يستقر بالمدينة ، حتى غادرتها كثرة أهلها المسلمين ، وأنه لما شهد جموعهم الزاخرة ركب بنفسه إليهم ، وأمرهم أن يبرزوا جميع ما لديهم ، فأبرز الفارون أموالا لا تحصى . ولكنه

بعد أن رآها سمح لهم بالاحتفاظ بها ، وتركهم يسرون إلى حيث شاءوا في أمان ، ووجه معهم من رجاله من يشيعهم إلى داخل أعماله ، ولم يأخذ منهم سوى مثقال واحد عن كل أحد من الرجال والنساء والأطفال^(١) .

وتضع الرواية الإسلامية تاريخ تسليم سرقسطة في يوم الأربعاء الثالث من شهر رمضان سنة ٥١٢ هـ . وهو يوافق ١٨ ديسمبر سنة ١١١٨ م^(٢) ، وتضع الرواية النصرانية هذا التاريخ في يوم ١١ ديسمبر . أوفى ١٨ ديسمبر^(٣) . ودخل ألفونسو الأرجوني وحلفاؤه المدينة ، بعد أن قطع لأهلها المسلمين العهود المذكورة ، وسمح لهم مدى فترة قصيرة باستبقاء قاضيه ابن حفصيل ، وبالإحتكام إلى شريعتهم . ولكن مسجد سرقسطة الجامع ، حول منذ السادس من يناير سنة ١١١٩ م إلى كنيسة سلمها ألفونسو لمحارب إلى الرهبان البرناردين ، وسميت كنيسة لاسيو La Seo أى الكنيسة العظمى . وفي رواية أخرى أن مسجد سرقسطة الجامع لم يحول إلى كنيسة إلا بعد ذلك بثلاثة أعوام في أكتوبر سنة ١١٢١ م ، وأنه حول عندئذ إلى كنيسة سميت باسم « سان سالبادور » San Salvador^(٤) ، وجعلت سرقسطة عاصمة مملكة أراجون ، وجعل منها مركز لأسقفية ، ومنح سكانها النصراني امتيازات الأشراف ، وعين الكونت جاستون دي بيارن « سيدا » للمدينة المفتوحة في ظل ألفونسو ، وأقطع الحى الذى كان يقطنه النصراني المعاهدون ، وعهد إليه بالإشراف على توزيع الغنائم على الجند الفاتحين ، وكوفئ سائر الفرسان الذين عاونوا في الفتح^(٥) .

وهكذا سقطت سرقسطة ، بعد أن حكمها المسلمون منذ الفتح أكثر من أربعة قرون ، وبعد أن لعبت في تاريخ الثغر الأعلى الأندلسي ، أعظم دور ، سواء من الناحية العسكرية أو السياسية أو الحضارية . ولما سقطت الحاضرة الإسلامية ، ودخلها النصراني ، غادرها معظم أعيانها

(١) ابن الكردبوس في كتاب « الاكتفاء » (مخطوط أكاديمي التاريخ لوحة ١٦٤) .
(٢) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٢٥ ، والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة السابقة الذكر) . وذكر المقرئ أنه كان في يوم الأربعاء الرابع من رمضان (نفع الطيب ج ٢ ص ٥٨٥) .
(٣) راجع مقال الأستاذ Lacarra السالف الذكر حيث يشير إلى الروايات النصرانية .
(٤) مقال الأستاذ Lacarra السالف الذكر .
(٥) M. Lafuente: ibid; V. III. p. 238 . وكذلك « تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين » ترجمه محمد عبد الله عنان ، الطبعة الثانية ، ص ١٤٥ .

وأكابرها المسلمين ، من الحكام والعلماء والقضاة وغيرهم ، على نحو ما وقع عند سقوط طليطلة . ويقول لنا ابن الكردبوس ، إن من غادرها من أهلها عند دخول النصارى بلغ خمسين ألفاً ، بيد أنه يبدو هذا العدد مبالغ فيه . ولما رأى ملك أراجون كثرة المهاجرين من المسلمين فيما بعد ، وخشى أن ينهار عمران المدينة ، أصدر أمره بمنع هجرة المسلمين إلا بإذن خاص ، وكان المهاجرون يقصدون بالأخص بلنسية ، وقواعد شرقي الأندلس .

وكان سقوط سرقسطة ، بعد سقوط طليطلة ، ضربة جديدة قاصمة للأندلس ، وكان نذيراً بسقوط باقى قواعد الثغر الأعلى فى يد مملكة أراجوان ، التى لم تكن منذ ربع قرن تشغل سوى رقعة صغيرة فى شمالى مملكة سرقسطة ، ثم أخذت تنمو بسرعة على حساب المملكة الإسلامية ، ثم كان نذيراً فى نفس الوقت بتصدع الجبهة الدفاعية فى شمالى شرقى الأندلس ، وهى التى كانت سرقسطة معقدها المنيع ، ومن ذلك الحين تواجه منطقة بلنسية ، خطر العدوان النصرانى المباشر من الشمال ، كما كانت تواجهه من الغرب . وأخطر من ذلك كله ما أصاب هيئة المرابطين العسكرية بسبب هذه الضربة من تصدع وانهار ، وقد كانت هذه الهيئة ، منذ الزلافة ثم أقليش فى أوج قوتها ، ثم أخذت منذ أقايش تخبو شيئاً فشيئاً ، حتى جاء سقوط سرقسطة فأصابها بأول ضربة حقيقية ، هزت من أركانها فى أنحاء شبه الجزيرة . ومن ذلك الحين تضطرم اسبانيا النصرانية ضد المرابطين بروح مضاعف من التحدى، والعدوان والثقة بالنفس .

وما كاد ألفونسو المحارب يستقر فى سرقسطة وينظم شئونها ، حتى اعتزم أن يتابع ظفره بافتتاح ما بقى من قواعد الثغر الأعلى ومعاقله ، وكانت تطاية قد سقطت فى يده قبيل سقوط سرقسطة بنحو عامين فى سنة ١١١٧م (٥١١ هـ) ، فسار فى قواته نحو طرسونة الواقعة جنوب غربى تطيلة واستولى عليها ، وأعاد بها مركز الأسقفية القديمة ، ثم سار منها إلى برج^(١) الواقعة فى جنوب تطيلة ، واستولى عليها ، وافتتح عدة أخرى منه الحصون والبلاد الواقعة فى تلك المنطقة ، ومنها الأجون ، ومالن ، ومجايون وأبيلا وغيرها ، وتمت هذه الفتوح كلها فى سنة ١١٢٠م

(١) طرسونة من بالاسبانية Tarazona وبرجه هى Borja

(٥١٣هـ)^(١). ثم عبر ألفونسو جبال سيرا مولينا التي تفصل بين أراجون وقشتالة ، وزحف على قلعة أيوب وكانت من أمنع ما بقي من معقل الثغر الأعلى ، فاستولى عليها كذلك . وكانت أنباء هذه الحن المتوالية ، التي نزلت بمسلمي الثغر الأعلى ، ونوالى سقوط قواعده في أيدي النصاري ، قد وصلت إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، فاهتم لها ، وكتب إلى أخيه الأمير أبي إسحق إبراهيم بن يوسف ، وإلى إشبيلية منذ وفاة واليها السابق القائد محمد بن فاطمة في سنة ٥١١ هـ ، بتجهيز الجيوش ، والمبادرة إلى السير لقتال ملك أراجون (ابن رذمبر) ، ووضع حد لعدوانه ، وكتب في نفس الوقت إلى القادة والرؤساء بالأندلس أن ينهضوا بقواتهم مع أخيه ، وأن يكونوا تحت إمرته . فحشد إبراهيم قواته ، ووافته قوات قرطبة بقيادة واليها ابن زيادة ، وقوات غرناطة بقيادة واليها الأمير محمد بن تينغمر اللمتوني ، وقوات مرسية بقيادة أبي يعقوب ينتان بن علي ، وجماعة أخرى من الرؤساء والقادة ، وعدد كبير من المتطوعة . وسار الأمير إبراهيم في هذه القوات الحرارة صوب الشمال . وكان ألفونسو قد انتهى وفقاً لبعض الروايات من افتتاح قلعة أيوب ، وصار منها لافتتاح دروكة قرينها في المنعة والأهمية ، والواقعة في جنوبها . وفي رواية أخرى أنه لم يكن قد انتهى بعد من افتتاح قلعة أيوب ، حينما اقتربت منه الجيوش المرابطية . وكان ألفونسو حينما علم بتحريك المرابطين وسيرهم إلى قشتالة قد استقدم سائر قواته ، واجتمع له وفقاً لأقوال الرواية الإسلامية زهاء اثني عشر ألف فارس ، غير المشاه والرماة وهم جموع غفيرة لا تحصى . ووقع اللقاء بين المسلمين والنصارى في ظاهر بلدة صغيرة تسمى كستندة أو قستندة على مقربة من دورقة ، وذلك في الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول — وعلى قول آخر ربيع الثاني — سنة ٥١٤ هـ (يونه أو يوليه سنة ١١٢٠ م) . ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، كانت الدائرة فيها على المسلمين ، فهزموا هزيمة شديدة ، أو « هزيمة منكورة » على قول ابن الأثير وكثر القتل فيهم ، وسقط منهم في ميدان القتال ، وفقاً لأقوال الرواية الإسلامية نحو عشرين ألفاً من المتطوعة ، وتنوّه الرواية الإسلامية بنوع خاص بمن استشهد في الموقعة من العلماء والفقهاء ، وفي

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ ، وكذلك M. Lafuente : ibid; V. III. p. 238 . ونقل المفري عن ابن اليسع أن تطيله وطرسونة قد سقطتا في أيدي النصاري في سنة ٥٢٤ (١١٣٠ م) وهذا منافض لما يذكره روض القرطاس وتأييده الرواية النصرانية من أن سقوط طرسونة وغيرها من معقل الثغر الأعلى كان في سنة ٥١٣ هـ (١١٢٠ م) .

مقدمتهم العلامة أبو علي الصدقي ، وأبو عبد الله بن الفراء قاضي ألمرية ، وارتد الأمير إبراهيم بن يوسف في فلول الجيش المرابطي إلى بلنسية^(١) . وكانت نكبة جديدة ساحقة لاسبانيا المسلمة ، ولهية المرابطين العسكرية . ومما هو جدير بالذكر أن الأمير إبراهيم هذا الذي قاد المرابطين في تلك الموقعة ، هو الذي أَلَفَ الفتح بن خاقان باسمه كتابه « قلائد العقيان » وأهداه إليه في مقدمته ، في عبارات فخمة رنانة^(٢) .

وعلى أثر الموقعة استولى ألفونسو على قلعة دروكة ، وأنشأ على مقربة منها ، عند منابع نهر « خلوكا » محلة جديدة محصنة ، سميت قلعة « مونريال » ، لتكون حاجزاً لصد الجيوش الإسلامية ، التي تنساب من طرق مرسية وبلنسية ، ولتكون في نفس الوقت منزلاً لجمعية دينية جديدة من الفرسان ، أسست لحماية الدين .

(١) تراجع في حوادث موقعة كتنده ، ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٨ ، وابن عذاري في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر) والمقرئ في نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٠ . وكذلك ابن الأبار في كتابه « المعجم في أصحاب الإمام القاضي أبي علي الصدقي » (المكتبة الأندلسية - المجلد الرابع ص ٧) . ومن المراجع القشتالية : F. Codera ; ibid ; p. 262-267 , M.Lafuente: ibid ; Vol. III. p. 239 .

(٢) كتاب قلائد العقيان - المقدمة - ص ٣ و ٤ .

الفصل الرابع

الصراع بين ألفونسو المحارب وبين المرابطين

النصارى المعاهدون. موقفهم من الحكومة الإسلامية . تحفزهم للإيقاع بالمسلمين. نصارى غرناطة . هدم كنيسهم في قو لجر . اتصالحم بألفونسو المحارب وتحريضه على غزو الأندلس . خروج ألفونسو إلى الغزو . اختراقه أراضي الثغر إلى بلنسية . مسيره إلى جزيرة شقر فدائية فشاطبة . اختراقه لأراضي مرسية حتى بسطة ثم وادي آش . تأهب المرابطين لرد النصارى وإحاطتهم بغرناطة . وصف ابن الصير في لأحوال المدينة . انضمام المعاهدين للجيش الأرجوني . سير ألفونسو نحو الشال . ملاحقة الجيوش المرابطية له . ذُشوب المعركة في فحص الرنيسول بين المسلمين والنصارى . سير ألفونسو إلى الجنوب حتى شلوبانية . عوده صوب غرناطة فوادي آش . المناوشات المستمرة بينه وبين المسلمين . اتجاهه نحو مرسية فيلنسية . انحلال قوائمه وعوده إلى بلاده . ما تدل عليه غزوة ألفونسو المحارب . ضعف الدفاع عن الأندلس . خطر النصارى المعاهدين . معاقبتهم بالتغريب وفقاً لفتوى ابن رشد . التعقيب والأسوار بالأندلس . نشاط الغزو النصراني بالثغر الأعلى . عودة ألفونسو المحارب إلى غزو أراضي بلنسية . موقعة القلعة . رواية ابن القطان . الوثائق الرسمية المرابطية عن الموقعة . كتاب أمير المسلمين لأهل بلنسية . ألفونسو يشغل بالحرب في قشتالة وفرنسا . نشاط المرابطين في غزو أراضي الثغر . تحفز ألفونسو لافتتاح قواعد الثغر الباقية . زحفه على مكناسة واستيلائه عليها . زحفه على مدينة إفراغة . مبادرة المرابطين إلى مدانعة . محاصرته لإفراغه وتصميمه على أخذها . وصول الجيوش المرابطية بقيادة ابن غانية . ذُشوب المعركة الحاسمة بين الفريقين تحت أسوار إفراغة . الهزيمة الساحقة على النصارى . موت ألفونسو المحارب وما يقال حوله . أهمية النصر المرابطي وآثاره . ألفونسو المحارب وخلاله . تأملات حول موقف المرابطين بعد نصر إفراغة . بنو هود يستقرون في روطه . عماد الدولة بن هود . ولده سيف الدولة . انضواؤه تحت حماية ملك قشتالة . نزوله له عن قاعدة روطه . بعض الروايات الخاصة بذلك . نهاية رياسته بنى هود .

١ — غزوة ألفونسو الكبرى للأندلس

لم تمض بضعة أعوام على سقوط سرقسطة ، حتى وقعت بالأندلس حادثة عدوان لم يسبق لها مثيل في تاريخ الغزوات النصرانية ، من حيث اتساع نطاقها ، وخطورة العوامل الموجهة لها ، ونعني بذلك الغزوة الكبرى التي قام بها ألفونسو المحارب ملك أراجون في قلب الأندلس ، بناء على تحريض النصارى المعاهدين . ولقد تحدثنا من قبل ، في كتابنا « دول الطوائف » عن أحوال النصارى المعاهدين ، وظروف حياتهم في ظل الحكومات الإسلامية المتعاقبة ، منذ عصر الإمارة والخلافة ، ثم في ظل دول الطوائف ، وأشرنا إلى ما كانت تتمتع به

طوائف المعاهدين ، في ظل هذه الحكومات الإسلامية ، من ضروب الرعاية والتسامح ، والتمتع بمزاولة شعائرهم ، وتقاليدهم ، والاحتكام إلى قوانينهم وقضائهم ، والتحدث بلغتهم الخاصة . دون حيف أو ضغط متعمد يلحق بهم ، ودون مطاردات دينية من أى نوع تعصف بأنهم وسلامهم ، وأنهم كانوا يؤلفون في مختلف القواعد الإسلامية ، مجتمعات متقدمة مزدهرة ، ويشغلون في أحيان كثيرة في القصر وفي الحكومة . مناصب النفوذ والثقة ، وإن كانت التواريخ النصرانية تؤثر مع ذلك كله ، أن تقدم إلينا مجتمع المعاهدين في صور قائمة ، وترغم بأنهم كانوا ضحية الجور والإرهاق ، يعانون من ضغط الحكومة الإسلامية المادى والأدبى ، في صور وأوضاع شتى .

وقد أشرنا في نفس الوقت إلى ما كان يتسم به أولئك النصارى المعاهدون من نكران الصنيعة ، وعدم الولاء للحكومات الإسلامية ، بالرغم مما كانت تحيطهم به من ضروب الرعاية والتسامح ، وكيف أنهم لم يدخروا دائماً وسعاً في الكيد لها ، والتآمر على سلامتها ، ومداخلة أعدائها النصارى الإسبان ، وتحريضهم عليها ، ومعاونتهم على الإيقاع بها في كل فرصة سانحة ، وضرربنا لذلك عديد الأمثلة التاريخية ، التي تسجل على النصارى المعاهدين أعمال الخيانة والغدر ، والتآمر مع أعداء الأندلس المسلمة على القضاء عليها^(١) .

ولما سقطت سرقسطة في أيدي النصارى . وتوالت انتصارات ألفونسو المحارب ، وتوالت محن المسلمين في الثغر الأعلى ، وظهر التخاذل على الحيوش المرابطية ، أخذت طوائف المعاهدين في التحفز ، ولاح لها أنها تستطيع أن تعمل عملاً مثمراً لضرب الأندلس ، بالتفاهم مع عاهل الثغر الأعلى ، وإمداده بما وسعوا من ضروب الإمداد والعون .

وكان أشد طوائف المعاهدين نشاطاً في تدبير هذه المؤامرة الكبرى ، نصارى ولاية غرناطة ، وكانوا من أكبر طوائف المعاهدين عدداً ، وأغنائهم مالا ، وأكثرهم ازدهاراً ومقدرة ونفوذاً ، وكانت لهم خارج غرناطة ، تجاه باب البيرة ، في طريق قرية قوبلجر ، كنيسة عظيمة شامخة ، فريدة في العمارة والطرز ، فلما استولى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على غرناطة ، خاطبه الفقهاء في

(١) يراجع الفصل الخاص بذلك من كتاب « دول الطوائف » ص ٣٩٥ - ٤٠١ .

هدمها لما يدلى به صرحها الشامخ من نطاوول المعاهدين ، فأمر بتحقيق رغبتهم ، وخرج أهل غرناطة لهدم الكنيسة المذكورة ، في آخر جمادى الآخرة سنة ٤٩٢ هـ ، فصيرت في الحال ركاما ، وغدت قاعا صفصفا^(١) .

ويحاول دوزى أن يصور هذا الحادث — هدم الكنيسة — في صورة اضطهاد عام أنزله المرابطون بالنصارى المعاهدين ، ويقول لنا إن هذا الاضطهاد شمل هدم الكنائس بصفة عامة ، وشمل أيضاً أشياء أخرى لا يستطيع أن يتكهن بها ، لأن الرواية الإسلامية تلزم الصمت لإزاء ذلك ، ومن ثم فإنه يحاول أن يصور لنا استدعاء النصارى المعاهدين لألفونسو المحارب في صورة الإستغاثة والانتقام لما نزل بهم من صنوف الاضطهاد المضحى^(٢) . ويتابعه في هذا المعنى الساتر في الإسباني سيمونيت ، فيقول لنا إن نصارى مملكة غرناطة ، كان قد وقع عليهم اضطهاد شديد من جراء تعصب المرابطين ، فهدمت كنائسهم ، وطورد قساوسهم وانتهكت رسومهم ، وبعد أن صبروا على هذا الاضطهاد أعواماً ، اعتزموا أن يطلبوا عون الملك ألفونسو المحارب ، وكان قد اشتهر في أنحاء شبه الجزيرة بقوته وفتوحاته وانتصاراته ضد الكافرين (يريد المسلمين)^(٣) . ولكن سنرى أن هذا الاستدعاء للملك أراجون ، وما اقترن به من صنوف الاستعداد والتحضرر الخطر ، لم يكن كما قدمنا ، سوى مؤامرة كبرى دبرها النصارى المعاهدون لضرب الأندلس المسلمة في الصميم .

ذلك أنه لما ترددت أصداء انتصارات ألفونسو المحارب ، في جنبات الأندلس ، وشعر المعاهدون بأن فرصة العمل قد سنحت ، بعثوا إليه بكتبهم ورسولهم المتوالية ، يلحون عليه في غزو الأندلس وافتتاح غرناطة . وقد كانت غرناطة حسبما تقدم قاعدة الحكم المرابطى في الأندلس ، وكان لهذه الصفة فيما يبدو أثرها في قيام المعاهدين بها ، بالدور الرئيسى في هذه المؤامرة . وبعث أولئك المعاهدون إلى ألفونسو زماما يشتمل على أسماء اثني عشر ألفاً من أنجاد مقاتليهم ، على أهبة لمعاونته ، وأنه يوجد غيرهم جموع غفيرة مستترة على قدم الأهبة ، وبعثوا إليه في نفس الوقت بأوصاف غرناطة ، وما تشتمل عليه من الثروات والمخاضيل الحمة ،

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ح ١ ص ١١٤ .

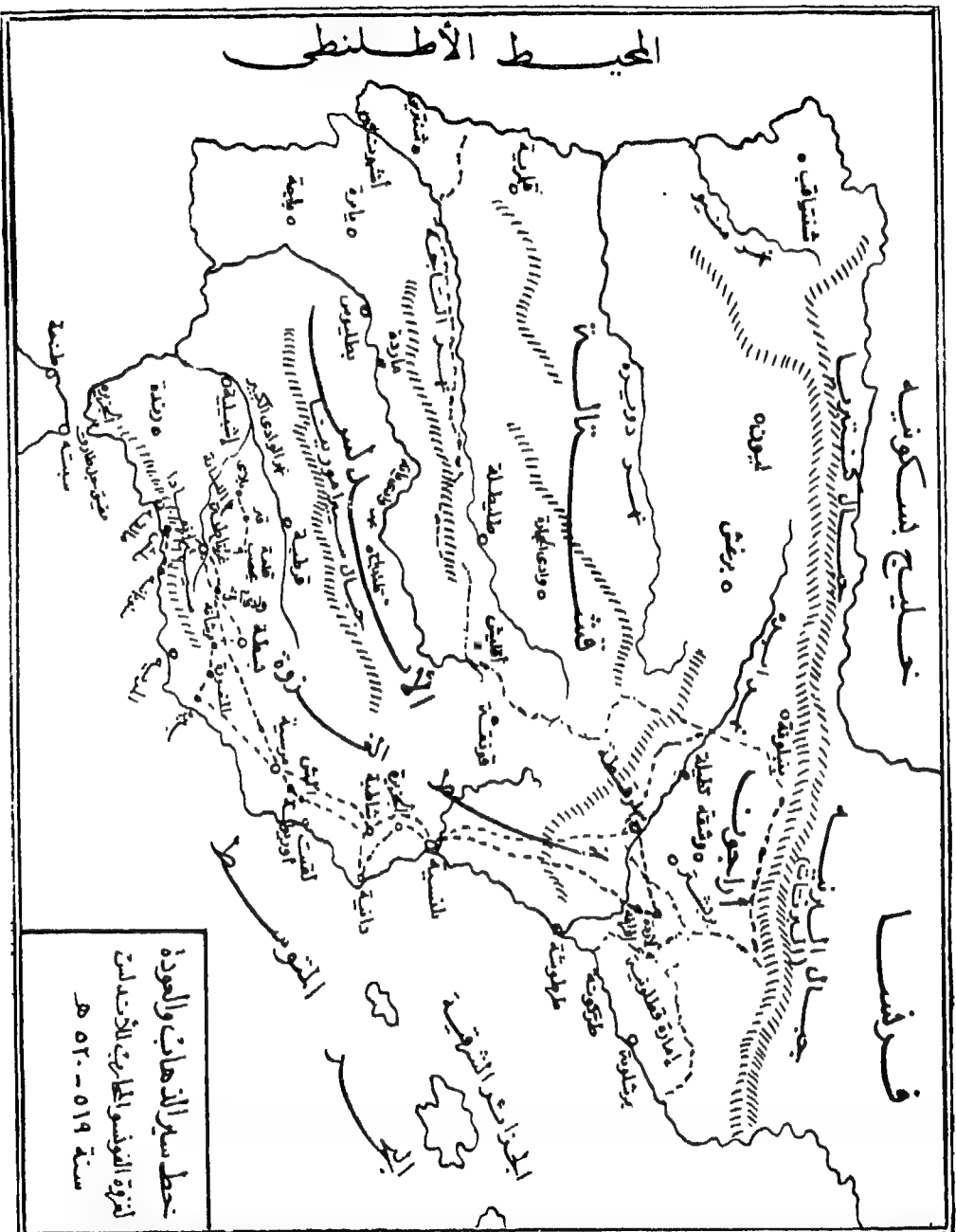
(٢) Dozy : Recherches. V. I. p. 348 & 349

(٣) F. J. Simonet : Historia de los Mozárabes de Espana, p. 745

والعيون والأنهار الغزيرة ، وما تمتاز به من حسن الموقع ، وروعة العمارة ، وازدهار العمران ، وكونها عاصمة الأندلس . وكان لهذه الدعوة المقرونة بالعون والإنجاد ، وهذا الإغراء بصفات الحاضرة الإسلامية التالدة ، أثرها في نفس ألفونسو المحارب ، وفي شحذ همته ، وإذكاء أطباعه ، وكان يشعر عندئذ أن الظروف مهيأة ، وأن تضعف قوى المرابطين منذ موقعة كُتُنْدَة ، مما يسهل له السبيل إلى اختراق الأندلس ، وتحقيق الغاية المنشودة .

فخرج من سرقسطة في أول شعبان سنة ٥١٩ هـ (سبتمبر سنة ١١٢٥ م) في قوة مختارة من أربعة آلاف ، وقيل في خمسة آلاف فارس مع أتباعهم من الرجال والرماة ، وقد بلغوا خمسة عشر ألفاً ، وكان معه الكونت جاستون دى بيارن الذى اشترك في حملة سرقسطة ، وفي ركبته عدد من رجال الدين في مقدمتهم أسقف سرقسطة ووشقة ، وقد تعاهدوا جميعاً ، وتحالفوا بالإنجيل على ألا يفر أحد منهم^(١) ، وهكذا كان للحملة طابعها الصليبي ، الذى طبع سائر الغزوات والحملات النصرانية ، منذ حصار سرقسطة . وسار ألفونسو بحملته شرقاً ، واخترق أراضي لاردة وإفراغة الإسلامية ، وهو يعيث فيها ، ثم انحرف جنوباً ودخل أراضي مملكة بلنسية ، وهو ينسف الزروع ويحرق القرى ، وقاومته في بلنسية قوة مرابطية ، بقيادة أبى محمد يدّر بن ورقاء (أواخر شهر رمضان) ، وكان من الصعب أن تجتمع القوات المرابطية للوقوف في وجهه ، لأنه حرص على إخفاء وجهته الحقيقية ، ولبت طول الوقت متحركاً في قواته . وفي أثناء ذلك كانت جموع المعاهدين تهرع إلى الانضمام إليه حيثما وجد ، حتى اجتمعت له أعداد وفيرة ، وكانوا يدلونه على الطرق والمسالك ، ويكشفون له مواطن الضعف لدى المسلمين ، في المدن والحصون التي يمر بها . ولما غادر بلنسية سار منها إلى جزيرة شُقَر فقاتلها أياماً ، ثم رحل منها إلى دانية ، فعاث في واديه ، وقاتلها ليلة عيد الفطر من هذه السنة ، واستمر في مسيره مخترقاً شرق الأندلس مرحلة مرحلة ، ومنازلاً سائر قواعده وحصونه ، ماراً بشاطبة ، وألش وأوريولة ، حتى وصل إلى مرسية ، ثم اجتاز منها إلى بيرة ، فالمنصورة ، فبرشانة ، حيث توقف أياماً . ثم سار إلى مدينة بسطة ، وحاول منازلها وافتتاحها . لسهولة موقعها ، وضعف

(١) الحلل الموسية ص ٦٧ . وهو الذى يأخذ بالتقدير الأول . ويأخذ ابن عذارى في البيان المغرب بالتقدير الثاني (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسبيرس ص ٨٣) .



تحصيناتها ، ولكنه لم ينجح ، فغادرها إلى وادي آش ، ونزل بقرية القصر القريبة منها ، وأخذ ينازل منها وادي آش ، ويقاتلها أياماً ، وذلك في أوائل شهر ذي القعدة من السنة المذكورة ، واستمر في محاولته زهاء شهر ، ولكنه لم ينل منها مأرباً .

وهنا نجد وصفاً دقيقاً لبقية هذه الغزوة الحريئة في أقوال مؤرخ غرناطي معاصر تقريباً ، هو أبو بكر ابن الصير في كتاب الدولة المرابطية ومؤرخها في كتابه « الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية » ، وهو مؤلف لم يصل مع الأسف إلينا ، ولم نلق منه سوى شذور يسيرة ، على يد بعض المؤرخين اللاحقين ، مثل ابن عذارى ، وابن الخطيب ، وصاحب الحلل الموشية^(١) .

يقول لنا ابن الصير في ، إنه لما اقترب ألفونسو المحارب بقواته من غرناطة ، تناجى النصارى المعاهدون بغرناطة باستدعائه ، فافتضح تدبيرهم ، وهم أميرها باعتقالهم ، فأعياه ذلك ، وتسلى المعاهدون من كل صوب إلى محلة الغزاة ، وكان المشرف على شئون الأندلس يومئذ الأمير أبو الطاهر تميم ، وقاعدته كما هو معروف بغرناطة ، فحشد سائر قواته ، وأمدّه أخوه أمير المسلمين على بجيش وفير ، وكان حينما سمع بعدوان ابن رذمير ، قد أمر بإعداده في العدو ، وعبوره إلى الأندلس على وجه السرعة ، وانضمت إليه قوات مرسية وإشبيلية ، وأحاطت الحيوش المرابطية الحرارة بغرناطة ، حتى صارت كاللدائرة ، وصارت المدينة في وسطها كالنقطة . وتحرك ألفونسو من وادي آش ، ونزل بقرية دجة غربي وادي آش ، في منتصف المسافة بينها وبين غرناطة ، فاشتد القلق بغرناطة ، وصلى الناس صلاة الخوف يوم عيد النحر ، واستعدوا بالسلاح . ويصف ابن عذارى حال غرناطة في قوله : « وجاءت الطلائع منبهة . . وانقطعت السابلة والواردة ،

(١) ترجم لنا ابن الخطيب لابن الصير في الإحاطة ، فقال هو « يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري يكنى أبا بكر ويعرف بابن الصير في ، من أهل غرناطة ، كان نسج وحده في البلاغة والجزالة والبريز في أسلوب التاريخ والتمل من الأدب والمعرفة باللغة والخبر . قال أبو القاسم (الملاحى) ، من أهل المعرفة بالأدب والعربية واللغة والتاريخ ، ومن الكتاب المحيدين والشعراء المطبوعين المكثرين . كتب بغرناطة عن الأمير أبي محمد تائيقين ، وله فيه نظم حسن . وألف في تاريخ الأندلس كتاباً سماه « الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية » ضمنه العجائب إلى سنة ثلاثين وخمسمائة ، ثم وصله إلى قرب وفاته . وكتاباً آخر في ذلك سماه « قصص الأديباء ، وسباسة الرؤساء » . توفي بغرناطة في حدود السبعين وخمسمائة (مخطوط الإحاطة بمكتبة الإسكوريال رقم ١٦٧٣ الغزيرى لوحة ٤١٥) .

وقلت المرافق ، وتراحم الناس في المدينة [وسكنت] المساجد والمصاطب ،
والرحاب ، وكثر الخزع والإرجاف والموجان .. والأسوار معمورة بأهل اللدة ،
وليس في الدور غير الصبية والنسوة^(١). وفي ظهر اليوم التالى وصل النصارى
إلى مقربة من شرق المدينة ، وكان عددهم قد بلغ عندئذ زهاء خمسين ألفاً ،
ونشب القتال بينهم وبين المسلمين . قال ابن الصيرفى : « وتوالى الحرب على
فريخين منها ، وقد أجلى السواد ، وتراحم الناس بالمدينة ، وتوالى الحليد ، وأظلت
الأمطار » . ولبت ألفونسو بحملته بضع عشرة ليلة ، وهو ملزم السكون بسبب
الحليد والأمطار ، والمعاهدون يعدونه بالأقوات والمؤن . ثم أقلع عن غرناطة ،
وقد ارتفع طمعه عنها ، لما لمسه من وفرة الجيوش المدافعة عنها ، وذلك في يوم
٢٦ ذى الحجة سنة ٥٢٠ هـ (٢١ يناير سنة ١١٢٧ م) ، وأنهى ألفونسو باللائمة
على المعاهدين ، وزعيمهم ابن القلاّس ، لتقاعسهم ، وعدم وفائهم بما التزموه ،
فردوا اللوم إليه ، واحتجوا ببطئه وتاومعه حتى تلاحقت الجيوش ، وأنهم قد أضحوا
بذلك عرضة للهلاك على يد المسلمين . وسار ألفونسو إلى قرية مرسانة ، ثم
إلى بيش^(٢) ثم اتجه شمالاً إلى قلعة يحصب ، ثم انحدر غرباً نحو قرية واللانة^(٣)
والجيوش الإسلامية تلاحقه ، وتناوشه في معارك صغيرة ، وكانت قوات إشبيلية
قد تحركت عندئذ بقيادة والها الأمير أبى بكر ابن أمير المسلمين ، وانضمت إلى باقي
الجيوش المرابطة في مطاردة العدو . ثم أقام ألفونسو بقية أياماً ، وسار منها إلى
بلاى^(٤) فاللانة ثم انحدر جنوباً ، والمسلمون في أثره حتى قرية شيجة^(٥) القريبة
من غرناطة ، وهناك في فحص الرينسل^(٦) وقعت بينه وبين المسلمين معركة ،
كان فيها الظهور في البداية للمسلمين . ولما جن الليل وقع في المعسكر الإسلامى
حادث أثار فيه الاضطراب . وذلك أن الأمير تيمها أمر بنقل خبائه ، من وهدة.

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسبرس ص ٨٤) .

(٢) مرساندو بالإسبانية Maracena وببش وبالإسبانية Beas قرنتان من أعمال غرناطة تقع
الأولى في شمالها الشرق والأخرى في شمالها الغرب .

(٣) قلعة يحصب هي اليوم بالإسبانية Alcalá la Real ، وقرية هي Cabra ، واللانة هي

Lucena .

(٤) هي قرية Poley القديمة ، وتسمى اليوم Aguilar

(٥) شيجة هي قرية Espejo الإسبانية .

(٦) فحص الرينسل أو أرنسل يقع جنوب غرناطة وبالإسبانية Arinsol .

كان فيها إلى نجدة ، فظن الناس أنه ينوى الانسحاب ، فاختلف الأمر ، وكثر الفرار ، وفي الغد هجم النصارى على محلة المسلمين ، واستولوا عليها ، ووقعت الهزيمة على المسلمين (مارس سنة ١١٢٧ م) .

وسار ألفونسو بعد ذلك في قواته نحو الجنوب الشرقي ، واخترق جبال سيرا نفادا (جبل الثلج) ، وانحدر إلى الشاطئ نحو وادي شلوبانية العميق المتحصن المجاز ، ويروى أنه قال عند رؤيته : «أى قبر هذا لو ألقينا من يرد علينا التراب» . ثم سار غرباً نحو مدينة بلش مالتة ، وأنشأ بها مركباً صغيراً يصيد له حوتاً ، أكل منه «كأنه نذر كان عليه وفي به ، أوحديث أراد أن يتحدث عنه» . ثم عبر جبال سيرا نفادا مرة أخرى ، عائداً إلى غرناطة ، وعسكر بقرية دلة على مقربة منها ، ثم انتقل منها إلى قرية همدان الواقعة في جنوبها ، وهناك وقعت بينه وبين المسلمين معركة شديدة ثم انتقل بعد يومين إلى «المرج» La Vega ، وفرسان المسلمين في أثره تضيق عليه ، ثم نزل بعين أطسة ، وهى على أتم الأبهة والحذر ، وسار بعد ذلك إلى وادي آش ، وقد أصيب كثير من عسكره ، خلال المناوشات العديدة التى وقعت بينه وبين المسلمين ، ولما رأى أنه لم يحقق بغزوته الطويلة المدى ، أى هدف يذكر ، عول على العود إلى بلاده ، فاتجه شرقاً نحو مرسية ، فشاطبة فبلنسية ، وقد لحق بعسكره خلال السير نحو عشرة آلاف من النصارى المعاهدين ، الذين فروا من مواطنهم خيفة الانتقام والهاكة ، هذا والعساكر الإسلامية تلاحقه في كل موطن ، والوباء يعصف بعسكره ، حتى وصل إلى بلاده مفلولاً ، قد حطمه وجنده الإعياء والوهن ، وذلك بعد أن أنفق في غزوته خمسة عشر شهراً ، وهو مع ذلك ، «يفخر بما ناله في سفره من هزيمة المسلمين ، وفتكه في بلادهم وكثرة ما أسر وغنم» (١) .

تلك تفاصيل غزوة ألفونسو المحارب الشاملة ، لأقطار الأندلس الشرقية والجنوبية ، وهى قد انتهت بعد المعارك والمناوشات العديدة . التى خاضها مع المسلمين ، إلى فشل مطبق ، ولم يحقق ملك أراجون من وراءها أية نتيجة عملية .

(١) راجع في تفاصيل غزوة ألفونسو المحارب للأندلس : الحلل المشوبة ص ٦٦ - ٧٠ ، وابن الخطيب في الإحاطة (الفاخرة ١٩٥٦) ج ١ ص ١١٦ - ١١٩ . وكلاهما بفيل روابه ابن الصر في مفصله . وابن عذارى في البيان المغرب ، وهو يقدم لنا نفس الرواية : ولكن مزبده بمعلومات ونفاصيل أخرى (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسبرس ص ٨٤ و ٨٥) . وراجع ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٢٤ .

ولكنها مع ذلك قد كشف عن حقيقة هامة ، وهى أن نظم الدفاع عن الأندلس ، لم تكن يومئذ وفق ما يجب من المتانة والإحكام ، وأن خطط القيادة المرابطية ، منذ نكبة سرقسطة لم تكن كفيلة ، بردع عدوان الممالك النصرانية . ولم يكن أدل على هذه الحقيقة من أن ملكاً من ملوك اسبانيا النصرانية ، استطاع أن يخترق الأندلس من الثغر الأعلى ، حتى شاطئ البحر المتوسط ، دون أن تستطيع قوة إسلامية ، مرابطية أو غيرها ، أن تقف في سبيله .

وثمة حقيقة أخرى كانت جديرة بالاعتبار ، وهى أن النصارى المعاهدين الذين يعيشون في ظل الحكومة الإسلامية ، ويتمتعون برعايتها ، لم يكونوا يشعرون نحوها بذرة من الولاء ، بل كانوا يمثلون خطراً داخلياً على الأندلس ، ولا يدخرون وسعاً في الكيد لها ، وممالة أعدائها ، وتحريضهم على التنكيل بها ، وقد سبق أن أشرنا من قبل في كتابنا « دول الطوائف » إلى هذه الحقيقة ، وبيننا كيف كانت الأحقاد والشكوك ، تحيط بمجتمع المعاهدين ، وبالأخص منذ سقوط طليطلة ، وكيف أن بعيدى النظر من الوزراء والفقهاء ، كانوا ينصحون بالحذر منهم ، ويدعون إلى ردعهم والتضييق عليهم ، كما فعل الوزير الكاتب عبد المجيد بن عبدون في رسالته عن الحسبة^(١) . ولقد كانت دعوة المعاهدين لألفونسو المحارب ، ومعاونتهم له في غزو الأندلس ، على هذه الصورة البعيدة المدى ، تمثل بالنسبة لهم ذروة الحود والاجترأ والخيانة ، ومن ثم فقد كان لابد من أن يحدث موقفهم أسوأ الأثر في الأمة الأندلسية والحكومة الإسلامية ، وكان لابد أن تتخذ في حقهم إجراءات رادعة ، تكفل قمع دسائسهم وعدوانهم بصورة حاسمة . وهذا ما حدث بالفعل عقب انتهاء غزوة ألفونسو المحارب ، فإن ما حدث على أثرها من بؤادر السخط على المعاهدين ، والتوجس من مكائدهم ، حمل كبير الجماعة في قرطبة القاضي أبا الوليد بن رشد ، على أن يعبر البحر إلى المغرب ، ثم قصد إلى أمير المسلمين على بن يوسف بمرآكش ، وشرح له أحوال الأندلس ، وما منيت به على يد المعاهدين ، وما جنوه عليها من استدعاء النصارى ، وما يترتب على ذلك من « نقض العهد والخروج على الذمة » ، وأقن بتغريبهم ووجوب إجلالهم عن أوطانهم ، وهو أخف ما يؤخذ به في عقابهم . فأخذ أمير المسلمين بهذه الفتوى ، وصدر عهده إلى جميع بلاد الأندلس ، بتغريب المعاهدين إلى العدو

(١) كتاب « دول الطوائف » ص ٣٩٩ و ٤٠٠ .

(المغرب) ، فنفتت منهم جموع غفيرة ، وسبق الكثير منهم إلى مكناسة ، وسلا وغيرهما من بلاد العدو ، وهلك منهم خلال العبور والسفر عدد جم ، وتفرقوا شذراً مذر ، وضم أمير المسلمين منهم عدداً إلى حرسه الخاص ، امتازوا فيما بعد بالإخلاص والبراعة . على أن هذا التغريب لم يكن شاملاً ، فقد بقيت في غرناطة وفي قرطبة وفي غيرها من القواعد ، جماعات من النصارى المعاهدين ، لأسباب مختلفة ، لتنمو وتزدهر مرة أخرى . وقد وقع تغريب المعاهدين في شهر رمضان سنة ٥٢١ هـ (أواخر سنة ١١٢٧ م) وكانت نكبة بالغة لم يصب المعاهدين مثلها منذ بعيد^(١) .

وينوه المستشرق سيمونيت بما أصاب المعاهدين من جراء هذا النفي من الآلام والحن ، ويقول إن العناية الإلهية شاءت أن ترد هذه القسوة ، بما أنزل بعد ذلك بقرون بالموريسكيين أو العرب المنتصرين عند نفهم من اسبانيا من قسوة مماثلة . وهذه مقارنة غير موفقة ، لأن ما أنزلته اسبانيا بالموريسكيين قبل النفي وخلال له ، من ضروب القسوة المروعة ، ينذر أن نجد له مثيلاً في صحف الاستشهاد القوي .

٢ - التعذيب والأسوار

وقد كانت سنة ٥٢٠ هـ ، هذه وهى التى وقعت فيها غزوة ألفونسو المحارب والنصارى المعاهدين للأندلس ، واشتدت في نفس الوقت حركة محمد بن تومرت المهدى بالمغرب ، سنة التحصينات ، والمنشآت الدفاعية سواء ، في المغرب أو الأندلس . فأما في المغرب ، فقد شرع أمير المسلمين على بن يوسف في تسوير حاضرتة مراكش ، وكانت حين إنشائها في سنة ٤٦٢ هـ ، قد أقيم السور فقط حول المسجد والقصبة اللتين ابتناهما يوسف بن تاشفين . وبقيت المدينة ذاتها دون أسوار تحميها . وكان الذى أشار على أمير المسلمين بتسويرها ، القاضى أبا الوليد ابن رشد ، حينما اشتدت حركة المهدى ، واستفتى أمير المسلمين فقهاء المغرب ، والأندلس في أمره ، فأفتى ابن رشد بوجوب إنشاء أسوار للمدينة ، تقوم بحمايته وحماية الساكنين معه . وشرع أمير المسلمين في بناء أسوار مراكش في جمادى الأولى

(١) يراجع في ذلك الخلل المؤشبة ص ٦٦ و ٧٠ ، وابن الخطيب في الإحاطة ج ١ ص ١١٩ و ١٢٠ ، والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هـسريس ص ٨٦) . وأشباخ في « تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين » (الطبعة الثانية) ص ١٤٧ - ١٥٠ . وراجع : F.J. Simonet :

سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) وهذه هي رواية صاحب الحلل المشوية وابن عذارى^(١). ويضع ابن القطان رحلة ابن رشد إلى مراكش وبناء سورها وفقاً لنصحته في سنة ٥٢٢هـ. ويقول لنا صاحب روض القرطاس، ويتابعه ابن خلدون إن بناء أسوار مراكش كان في سنة ٥٢٦هـ^(٢). والرواية الأولى أرجح فيما يبدو، لأن القاضي ابن رشد توفي في أواخر سنة ٥٢٠هـ (أواخر سنة ١١٢٦م). وحشد أمير المسلمين جمعاً غفيرة من الفعلة والصناع فتم بناء السور في نحو ثمانية أشهر. كما تم بناء الجامع ومناره. وبلغت النفقة على السور وحده سبعين ألف دينار من الذهب العين، ثم أصلح هذا السور، وأنشئت به أبراج جديدة وزيد فيه حتى شمل مقابر المدينة، وذلك في سنة ٥٣٠هـ. وبعث أمير المسلمين على بن يوسف في الوقت نفسه، كتابه إلى الأندلس، بوجوب إنشاء الأسوار، فأرجى النظر في ذلك حتى صرف الأمير تميم عن ولاية الأندلس وجاز إلى مراكش وهناك توفي، وقدّم أبو عمر ينالة اللمتوني على غرناطة، وقدّم أبو حفص عمر بن أمير المسلمين على قرطبة. وعمد ينالة إلى تعتيب غرناطة وفرض «المعتب» (إتاوة الدار) على سائر أهلها، واشتد في تحصيل المال، وأصلحت الأسوار وأكملت في أقرب وقت. ثم جاء سيل شديد فصدّم الأسوار، وسقطت منها أجزاء كبيرة مما يلي باب الرملة وباب البيرة، وهلك كثير من الناس. وتولى أهل قرطبة لإصلاح أسوارهم ورمّوها على سالف عاداتهم، دون تعتيب ودون ضغط. وكذلك فعل أهل إشبيلية نحو أسوارهم، فجمعت النفقة بأيسر أمر، ودون لإجحاف، وأقيمت الأسوار وأصلحت. وتولى النظر في إصلاح أسوار ألمرية رجل من أهلها يعرف بابن العجمي، فاستعمل الحزم والرفق معاً، وأبدى الناس إقبالا على أداء الإتاوة المطلوبة، وأصلحت الأسوار وأكملت دون ضغط ولا إرهاق.

واستمر ينالة اللمتوني، والياً على غرناطة حتى، عزل عنها في حمادى الأولى سنة ٥٢٢هـ، أى بعد سنة وتسعة أشهر. وكان ظلوماً جائراً، وكان من أعمال ظلمه أن استدعى فقهاء جيّان وعلماءها إلى غرناطة، ثم قبض عليهم، وأودعهم السجن دون جريرة، وسار إلى الغزو في شرقي الأندلس، وتركهم في المطلق،

(١) الحلل المشوية عن ٧٠ و ٧١، وابن عذارى في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر هسبيرس ص ٨٦)، ونظم الجمان (المخطوط لوحة ٣٣ ب).
(٢) روض القرطاس ٨٩، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤، وفي كتاب «الإستبصار في عجائب الأمصار» أن سور مراكش قد أنشئ في سنة ٥١٤هـ وهي رواية ضعيفة (ص ٢٠٩).

فلما نعى ذلك إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، أمر بعزله ، وعين ولده أباحفص عمر والى قرطبة والياً لغرناطة . فلما وصل إلى غرناطة بادر بالإفراج عن الفقهاء والعلماء المعتقلين ، وردهم إلى بلدتهم مكرمين ، واستراح الناس من ظلم ينالة وجوره^(١) .

٣ - موقعة القلعة

لما عاد ألفونسو المحارب من حملته الأندلسية الفاشلة ، عاد إلى استئناف نشاطه في أراضي الثغر ضد المرابطين . وكان المسلمون ما يزالون يحتلون من الثغر الأعلى ، المنطقة الواقعة شرقي سرقسطة ، فيما بين نهري سنكا وسجري فرعي إبرة ، وأهم قواعدها لاردة وإفراغة ومكناسة الواقعة عند ملتقى إبرة وسجري ، وكذلك المنطقة الممتدة بعد ذلك على طول نهر إبرة ، حتى مصبه عبر ثغر طرطوشة ، وكان ألفونسو يرمى إلى إجلاء المسلمين عن هذه المنطقة ، حتى يكفل اتصال مملكته بالبحر المتوسط عن طريق ثغر طرطوشة الهام . وكان ثغر طرطوشة الواقع شمال طرطوشة ، قد سقط في أيدي النصارى قبل ذلك بنحو أربعين عاماً . ونحن نذكر أن هذا الثغر كان من أعمال مملكة سرقسطة أيام بني هود ، وأنه لما توفي المقتدر بن هود في سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) قسمت مملكته بين ولديه يوسف المؤمن وأخيه المنذر ، وأن المنذر بن هود اختص بالجانب الشرقي من مملكة سرقسطة وفيه ثغرا طرطوشة وطرطوشة . ثم توفي المنذر بن هود في سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) وخلفه ولده الطفل سليمان الملقب بسعد الدولة ، وكان الكونت رامون برنجبر الثاني أمير برشلونة ، ومن ورائه أحبار قطلونية ، يتوقون إلى انتزاع ثغر طرطوشة من المسلمين وإعادته كما كان مركزاً رئيسياً للكنيسة القطلونية ، فكتبوا بذلك إلى البابا أوربان الثاني ، وهو محرك الحرب الصليبية الأولى في المشرق ، فشجع مشروعههم وباركه ، وأسبغ عليه الصفة الصليبية ، وأصدر طائفة من المنح والمزايا الدينية لمن يشتركون في هذه الحملة . وكتب إلى سائر الأمراء والبارونات والفرسان ورجال الدين ، في البلاد المجاورة ، يحثهم على الاشتراك في هذه الحرب المقدسة ، وهكذا جهزت حملة صليبية قوية لافتتاح طرطوشة ، على رأسها رامون برنجبر ، وجاءت وفاة المنذر بن هود في تلك الآونة بالذات مشجعة للغزاة . وسارت الحملة إلى طرطوشة واستطاعت انتزاعها من المسلمين بسهولة (١٠١٠ م) أضعف وسائلها الدفاعية ، وتخلّى المستعين بن هود صاحب سرقسطة عن إنجادهما ،

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هيسيرس ص ٨٦ ، و ٨٧) .

ولأن الجيوش المرابطية ، لم تكن قد وصلت يومئذ في زحفها نحو الشمال ، إلى الثغر الأعلى .

وبسقوط طرّكونه في يد أمير برشلونة ، وضمها إلى مملكة قطلونية ، لم يبق من ثغور مملكة سرقسطة القديمة سوى طرطوشة ، وكان ألفونسو المحارب يتوق إلى انتزاع هذا الثغر ، ولكنه كان مضطراً إلى أن يخوض قبل ذلك معارك عديدة مع المرابطين ، الذين يسيطرون على متطقي لاردة وإفراغة ، وما وراءهما من الأراضي حتى مصب نهر إبرة . ومن ثم فإنه ما كاد يعود من حملته الأندلسية ، حتى أخذ يعد العدة لتنفيذ مشروعه . ولم يمض سوى عامين حتى خرج في قواته من سرقسطة ، وزحف شرقاً نحو نهر سينكا في اتجاه إفراغة ولاردة . وكانت هذه المنطقة قد غدت منذ سقوط سرقسطة ، مسرحاً للصراع المستمر بين المسلمين والنصارى ، وكانت للمرابطين فيها يبدو حاميات قوية في تلك القواعد ، وكانت لهم فوق ذلك قوات متحركة ، تناسب بسرعة من شرقي الأندلس ، من منطقة بلنسية ، كلها همّ النصارى بالعدوان .

على أنه يبدو أن ألفونسو المحارب ، لم يرد أن يشتبك في هذه المنطقة من الثغر الأعلى مع المرابطين في صراع حاسم ، قبل أن يقضى على قواتهم في جنوبي الثغر ، وقد كانت تلاحقه نحو الشمال باستمرار . ومن ثم فقد سار في قواته جنوباً نحو أراضى بلنسية ، وكان على بن يوسف قد علم من عماله في بلنسية وما والاها أن ألفونسو المحارب يتأهب لغزو أراضى المسلمين ، فخشى على أن تكون حركة شاملة كالتى قام بها المحارب في قلب الأندلس ، وأمر بحشد قوات من السود تتكفل بنفقاتها مختلف المدن ، كل وفق طاقتها ، ثم أرسلت هذه الحشود إلى مرسية — ووالها يدّر بن ورقا — تعزيزاً للجيوش المرابطية في شرقي الأندلس . وهنا يحق شيء من الغموض حول تفاصيل الموقعة التى نشبت على أثر ذلك بين الأرجونيين والمرابطين ، وحول موقعها . وتذكر لنا الرواية الإسلامية الوحيدة التى لدينا عن الموقعة — وهى رواية ابن القطان — أن الموقعة نشبت في مكان يعرف بالقلعة أو القلاعة ، وأن القلعة هذه تقع على مقربة من جزيرة شقر جنوبي بلنسية ، وكان ابن زدمير (ألفونسو الأرجوني) يربط بقواته بها . وهكذا نشبت في القلعة معركة عنيفة بين المرابطين والأرجونيين ، ويضع ابن القطان تاريخها في سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩ م) ، ويقول لنا إن قوات المسلمين كلها كانت بقيادة

ابن مجبور ، وأن المسلمين أصيبوا فيها بهزيمة فادحة ، وفنى معظمهم قتلاً وأسراً ، واحتوى العدو على سائر أسلحتهم ومتاعهم ودوابهم ، وبلغت خسارتهم نحو اثني عشر ألفاً بين قتيل وأسير^(١) .

أما الغموض الذى يحيق بأمر هذه الموقعة ، فيأتى مما تذكره لنا الرواية النصرانية وهو أن القلعة أو القلاعة هذه Alcolea ، إنما هى بلدة صغيرة محصنة تقع على الضفة اليسرى لنهر سينكا أحد أفرع نهر إبرة ، على مقربة من إفراغة ، ولها قصبة منيعة ؛ ومعنى ذلك أن الموقعة نشبت بين المرابطين والموحدين فى الثغر الأعلى ، لافى أراضى بلنسية . وتضيف الرواية النصرانية إلى ذلك أن ألفونسو المحارب استولى على أثر الموقعة على بلدة القلاعة ، وحصنها ثم أقطعها لأحد أكابر رجاله ممن أبلوا فى خدمته^(٢) .

ثم إنه يوجد من جهة أخرى فى الرواية النصرانية ما يفيد أن ألفونسو المحارب قد حاصر بلنسية فى أوائل سنة ١١٢٩ م ، وهو مما يعزز قول الرواية الإسلامية فى أن المعركة قد نشبت بين الأرجونيين والمسلمين فى أراضى بلنسية .

هذا ، وإلى جانب رواية ابن القطان المتقدمة عن الموقعة ، توجد لدينا عنها وثيقتان مرابطيتان ، تلقيان عليها ، وعلى تاريخ وقوعها ، مزيداً من الضياء ، ويستخلص منهما ما يأتى :

أولاً - أن الموقعة وقعت فى « القلعة » أو « القلاعة » . ونحن نرجح قول الرواية الإسلامية فى تحديد موقع القلاعة ، بأنه على مقربة من جزيرة شقر .
وثانياً - أن وقوعها كان فى النصف الأول من سنة ٥٢٣ هـ (النصف الأول من سنة ١١٢٩ م) .

وثالثاً - أن المرابطين ، أصيبوا فى تلك الموقعة بهزيمة شديدة ، وقد كانوا بقيادة الأمير أبى محمد بن أبى بكر بن سير اللمتوني ، وهو ابن أخت على بن يوسف ، المعروف بابن قنونه ، باسم أمه أخت الأمير .

والوثيقة الأولى هى عبارة عن رسالة كتب بها أمير المسلمين على بن يوسف إلى الأمير أبى محمد بن أبى بكر من حضرة مراکش ، ومؤرخه فى السابع من شهر شعبان سنة ٥٢٣ هـ ، وذلك رداً على كتابه الذى أرسله إلى أمير المسلمين ينبئه

(١) ابن القطان فى « نظم الجمان » (المخطوط السابق ذكره لوحة ٣٤ ب) .

(٢) M. Lafuente : ibid ; Vol. III. p 240

فيه بخبر الموقعة . والرسالة من إنشاء كاتب الأندلس وإمام النثر بها يومئذ ،
أبي مروان بن أبي الحِصَال ، وقد كان يتولى الكتابة في بلاط مراکش ، وفيها
ينحى أمير المسلمين باللوم القارص على قائده أبي محمد بن أبي بكر ، وينوه بتقصيره
وخذلانه في عبارات لاذعة يقول فيها :

« وإن لبيان العذر بتلك الحال لقصير ، وإن الله على ذلك المشهد المضيع لمطلع
بصير ، توافقت مع عدوكم ، وأنتم أوفر منه عدة وأكثر جمعاً ، وأحرى أن تكونوا
أشد عن حريمكم منعاً ، وأقوى دونه دفعاً ، فتبت وزلتم ، وجد ونكلتم ، وشد
عقدة عزيمة وحلتم ، وكنتم في تلك الوقعة قرة عين الحاسد ، وشماتة العدو
والراصد ، وقد كانت نصبة توليكم بين يديه بشيعة هائلة ، ودعامتكم لولا انثناؤه
عنكم مائلة ، فشغله عنكم من غرتموه من الرجل الذي أسلمتوه للقتل ، وفرتم ،
ونصبتموهم دريئة للرماح ثم طرتم ، ولولا مكان من أوردتموه من المسلمين ولم
تصدروه ، وخذلتموه من المجاهدين ولم تنصروه ، لانكشف دون ذلك الرماح
جنتكم ووقاؤكم ، وأصيبت بها ظهوركم وأقفاؤكم ، عاقبكم الله بما أنتم أهله^(١) .

والوثيقة الثانية عبارة عن رسالة كتب بها أيضاً أمير المسلمين على بن يوسف
إلى قادة الجيش المرابطي الذين هزموا في موقعة « القلاعة » ، مؤرخة في الحادي عشر
من شعبان سنة ٥٢٣ هـ من حضرة مراکش ، رداً على كتابهم في وصف المعركة ،
وفيها يقول إنه لا محيص عن القدر ، وإنه لم يأل جهداً في العمل لإعلاء كلمة
الإسلام ، وبذل الأموال وحشد الرجال ، وإنه لو استطاع أن يكون حاضراً
بنفسه لديهم لفعل ، ثم يطمئنهم ويؤكد لهم أنه لا هم له إلا الدباد والدفاع عنهم
والتوفر عليه بأقصى جهد^(٢) .

وإنه يبدو لنا من رسالة ثالثة كتبها أمير المسلمين على بن يوسف إلى قاضي
بلنسية وسائر الفقهاء والوزراء والأعيان والعامّة ، عند نزول ابن رذمير عليها ،
أن ألفونسو الأرجوني ، بعد أن أحرز نصره في موقعة القلاعة المتقدمة
الذكر ، قد سار بقواته شمالاً مخترباً أراضي ولاية بلنسية ، وأنه اقترب من ثغر

(١) يراجع نص هذه الوثيقة بأكمله في باب الوثائق . وقد نقلناها عن مخطوط الإسكوريال
رقم ٤٨٨ الفزيرى (لوحة ٧١ ب - ١٧٢) وسبق أن نشر هذه الوثيقة وعلق عليها الدكتور حسين
مؤنس في بحثه الذي سبقته الإشارة إليه (مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٩) .

(٢) يراجع نص هذه الرسالة في باب الوثائق . وقد نقلناها عن نفس المخطوط (لوحة ٧٢ ب
و ١٧٣) وسبق أن نشر هذه الوثيقة أيضاً الدكتور حسين مؤنس في بحثه السالف الذكر .

بلنسية ، ورابط أمامه حيناً. والواقع أن ابن القطان يذكر لنا بعد حديثه عن موقعة القلاعة ، أن قوة من النصارى أغارت على غليرة Cullera الواقعة على البحر على مقربة من جنوبي بلنسية ، واكتسحت ما وجدت^(١) ، وعندئذ وجه قاضي بلنسية الخطيب أبو الحسن إلى أمير المسلمين رسالة استغاثة ، هي التي يرد عليها في رسالته . وقد صدرت رسالة أمير المسلمين من حضرة مراکش مؤرخه في السابع من شعبان سنة ٥٢٣ هـ ، في نفس اليوم الذي أرخت فيه الرسالة الأولى ، الموجهة إلى الأمير محمد بن أبي بكر بلومه ، وتقريعه على تخاذله في « القلاعة » . وفي هذه الرسالة يشير أمير المسلمين برفق إلى هزيمة جنده في القلاعة ، وأن ذلك لم يكن إلا بسبب تخاذلهم ، وعدم اعتبارهم بمواعظه ، ثم يطمئن أهل بلنسية ، ويؤكد لهم أنه إن يتركهم إلى الضياع ، ولن يألو جهداً للذب عنهم ، وأنه قد كتب إلى سائر ولاته ، بإرسال الأقوات ، والتعجيل بإنفاذها في أقرب وقت ، وأنه يضعهم من باله في أعز مكان ، ويختتمها بالدعاء لأهل بلنسية « بأن يشد الله أزرهم ، ويصح أمرهم ، ويسد ثغرىهم ، ويحفظ الألفة عليهم »^(٢). والظاهر أن ألفونسو المحارب ، قد اكتفى في زحفه بأعمال العيث والتخريب ، ولم يحاول مهاجمة بلنسية ذاتها^(٣).

٤ - موقعة إفراغة

شغل ألفونسو المحارب ، عقب غزوته الكبرى خلال الأندلس ، بضعة أعوام ، بالحرب مع منافسه ملك قشتالة الفتى ألفونسو ريمونديس ولد زوجه أوركا ، ولما انتهت هذه الحرب بعقد الهدنة بين قشتالة وأراجون في سنة ١١٣٠ م ، حول ألفونسو المحارب نشاطه إلى وجهة أخرى ، غير العدوان على الأندلس . فعبر جبال البرنيه في بعض قواته إلى فرنسا ، وحاصر مدينة بيونة الواقعة شمال نافار ، ولم توضح لنا الرواية النصرانية بواعث هذه الحركة ، من جانب ملك أراجون ، ولكن الظاهر ، أنه قام بها لإنجاداً لبعض أتباعه من السادة الفرنج ، الذين تجاوز أراضيهم نافار ، وانتهى الحصار باستيلاء ألفونسو على بيونة (سنة ١١٣١ م) ، ثم عاد إلى أراجون ، ليستأنف تدبير مشاريعه ضد الأندلس .

(١) نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٣٤ ب) .

(٢) نشرنا هذه الوثيقة في باب الوثائق ، منقولة عن مخطوط الإسكوريال السالف الذكر (لوحة ٧٢ ب - ١٧٣) .

وكانت الجيوش المرابطية في الثغر الأعلى وشرقي الأندلس ، خلال هذه الفترة ، التي شغل فيها ألفونسو المحارب بحروبه في قشتالة وجنوبي فرنسا ، تقوم بالإغارة على الأراضي النصرانية المجاورة والعيث فيها ، وكانت تخرج بالأخص من طرطوشة ولاردة ، وهما أهم القواعد التي بقيت بأيدي المسلمين في الثغر الأعلى ، لتجتاح أراضي النصراني المجاورة في أراجون وإمارة برشلونة . ووقعت بين المسلمين والنصارى في تلك الفترة ، عدة معارك ، وشغل الكونت رامون برنجير الثالث أمير برشلونة ، بمعاونة حلفائه الأرجونيين لرد غارات المسلمين . فلما عاد ألفونسو المحارب إلى استئناف نشاطه ضد المسلمين ، كان أهم مايشغله هو الاستيلاء على ما بقي من قواعد الثغر الأعلى ، وإجلاء المسلمين عنها . وكانت هذه القواعد ، تنحصر أولاً في لاردة وإفراغة ومكناسة الواقعة ، في المثلث الواقع بين نهري سنكا وسجري فرعي نهر إبرة (الإيرو) ، وثانياً في ثغر طرطوشة الواقع على البحر المتوسط عند مصب إبرة . وكان ثغر طرطوشة كما قدمنا بالأخص هدف ملك أراجون ، إذ كان الاستيلاء عليه ، يحقق له الاستيلاء على ما بقي من مجرى نهر إبرة ، ويضمن له سلامة الملاحة في هذا النهر العظيم ، ويصل ما بين مملكته وبين البحر . ومن ثم فقد وضع ألفونسو مشروعه الكبير من شقين ، يتضمن الأول الاستيلاء على القواعد الإسلامية ، الواقعة في مثلث نهري سنكا وسجري ، ثم يتبعها بالشق الثاني وهو الاستيلاء على طرطوشة . وأعد ألفونسو حملة جديدة قوية للبدء في تنفيذ مشروعه ، واشترك في هذه الحملة كثير من الأشراف والفرسان الفرنسيين ، على غرار ما حدث في حملة سرقسطة ، وبدأ ألفونسو بالزحف على مدينة (مكنسة) مكناسة الواقعة عند ملتقى نهري سجري وإبرة ، وهي قاعدة حصينة ، ولكن الدفاع عنها لم يكن ميسوراً لوقوعها في السهل المكشوف ، فهاجمها النصارى بشدة ، واضطرت إلى التسليم بعد مقاومة عنيفة ، وذلك في يونيه سنة ١١٣٣ م (أواخر سنة ٥٢٧ هـ) .

واتجه ألفونسو بعد ذلك إلى الاستيلاء على مدينتي إفراغة ولاردة ، وبدأ الزحف على إفراغة وهي تقع على الضفة اليمنى لنهر سنكا على مسافة قريبة من شمال مكناسة . ولم يكن الاستيلاء على إفراغة بالأمر الهين ، لموقعها الحصين فوق الرابي العالية في نهاية منحدر وعرض ضيق ، تصعب مهاجمته ، ويسهل الدفاع عنه . ومن جهة أخرى ، فقد شعر المرابطون ، من أهبة ألفونسو وعنف تحركاته ، أن

المعركة الحاسمة بينهم وبين النصارى فى الثغر الأعلى ، أضحت على وشك الوقوع . وكانوا مذوقفوا على حركات ألفونسو وأهباته ، لافتتاح قواعد الثغر الباقية ، قد رأوا من باب التحوط والاستعداد ، أن يعقدوا التفاهم والسلم مع أمير برشلونة رامون برنجير الثالث ، وذلك خشية أن ينتهز الفرصة فيهاجمهم من جانبه ، ويضطر المرابطون إلى القتال فى جهتين ، فاتفقوا على أن يؤدوا له جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دينار ، وذلك عن أمر على بن يوسف وتوجيهه . فغضب لذلك ألفونسو ، وأقسم بأنه سوف ينتزع تلك البلاد التى تؤدى عنها الجزية ، ويقطع بذلك منفعتها عن الطرفين الخصيمين^(١) .

ومن ثم فإنه ما كادت مكناسة تسقط فى يد العدو . حتى بادر المرابطون فى الثغر ، وفى وسط شرق الأندلس ، إلى التأهب للدفاع عن إفراغة ولاردة ، وهرع الزبير بن عمرو اللمتونى من قرطبة إلى الثغر الأعلى ، فى ألنى فارس ، ومعه مقادير وفيرة من المؤن . وهرع إليه الأمير أبو زكريا يحيى بن غانية وإلى بلنسية ومرسية ، فى قوة تقدرها الرواية بخمسمائة فارس ، وكان من أعظم وأشجع القادة المرابطين . وكذلك حشد عبد الله بن عياض وإلى لاردة قواته . وكان أهل إفراغة حينما ضيق عليهم ألفونسو الحصار . وأخذت مواردهم فى النضوب ، قد كتبوا إلى يحيى بن غانية باعتباره عميد القادة المرابطين . بطلب الإنجاد والأقوات ، وأنذروه فى كتابهم ، بأنه إن لم يفعل خضعوا لألفونسو . وسلموه المدينة . ولكن ابن غانية لم يكن فى حاجة إلى مثل هذا النذير . وكانت مهمة إنجاد إفراغة وإنقاذها تلقى لديه ، ولدى سائر القادة المرابطين منذ البداية منتهى الغيرة والاهتمام^(٢) .

وفى تلك الأثناء كان ألفونسو قد وصل بقواته إلى إفراغة ، وضرب حولها الحصار ، فقوامته حاميتها وأهلها بقيادة واليها سعد بن محمد بن مردنيش أشد مقاومة . واضطر أن يرفع الحصار غير مرة ، ثم يعود إليه . وحملته هذه المقاومة ذاتها ، على مضاعفة جهوده فى التضييق على المدينة المحصورة . والتصميم على أخذها . وأقسم ألفونسو تحت أسوار إفراغة . كما أقسم أبوه سانشو راميرز قبل ذلك بأربعين عاما . تحت أسوار وشقة ، أن يفتتح إفراغة أو يموت دونها ، وأقسم معه عشرون من ساداته . وأمر ألفونسو كذلك أن يؤتى برفات القديسين إلى المعسكر

(١) ابن القطان فى نظم الجان (المخطوط السالف الذكر) .

(٢) ابن القطان فى نظم الجان (المخطوط السالف الذكر) .

إذ كاء الحامسة الجند ، وأن يتولى الأساقفة والرهبان قيادة الصفوف أسوة بالقوامس (الكونتات) . وهنا تختلف الروايتان الإسلامية والنصرانية في تصوير الوقائع ، وبينما تقول الرواية الإسلامية إنه ما كادت الجيوش المرابطية تصل إلى إفراغة ، حتى نشبت الموقعة الحاسمة بين المسلمين والنصارى ، إذا بالرواية النصرانية تقدم إلينا تفصيلاً آخر ، وهو أنه ما كادت القوات المرابطية تصل إلى ظاهر إفراغة ، وتقدم إلى إنجادهها ، حتى وقعت بينها وبين النصارى معركتين متواليتين ، وهزم المرابطون في الموقعتين ، ولجأوا إلى الفرار ، وعندئذ دب اليأس إلى أهل المدينة وعرضوا التسليم ببعض الشروط ، فرفض ألفونسو كل عرض للتسليم ، وصمم على اقتحام المدينة بالسيف ، فانقلب المحصورون إلى مقاومة اليأس ، ونظم المرابطون قواتهم ، وعادوا إلى محاولة إنقاذ المدينة ، ودبروا كميناً جذبوا إليه الأرجونيين ، على يد قافلة من المؤن . وهنا نشب القتال واضطربت الموقعة .

وعلى أى حال ، فقد نشبت بين المرابطين وبين النصارى تحت أسوار إفراغة ، موقعة من أشد وأعنف ، مما عرف في تاريخ المعارك الحاسمة في الثغر الأعلى . وتقدر الرواية الإسلامية قوات المرابطين بنحو ثلاثة آلاف فارس^(١) ، وهو تقدير لا يتفق في نظرنا مع ضخامة المعركة ونتائجها ، وتقدرهم الرواية النصرانية بعشرة آلاف فارس^(٢) . وأما الجيش النصراني ، فتقدره الرواية الإسلامية بلائتي عشر ألف فارس^(٣) . ومن المرجح على أى حال ، أن القوات النصرانية كانت تتفوق في الكثرة على المسلمين . ووقع بين الفريقين قتال شديد مروع ، وأبدى المسلمون بقيادة ابن غانية ضروباً رائعة من البراعة والبسالة ، وقاتل الأرجونيون كذلك بفيض من الشجاعة ، وكان ملكهم يقود المعركة بنفسه ، وخرج أهل إفراغة ، فانقضوا على النصارى من الخلف ، فاشتد الأمر على النصارى ، وكثر القتل فيهم ، وهلك منهم عدة كبيرة من القادة والأكابر ، ومزقت صفوفهم تمزيقاً ، وأصيبوا بهزيمة ساحقة ، لم يصيبهم مثلها منذ موقعي الزلاقة وأقلش^(٤) ، واستولى

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ ، وهو يحدد القوات المرابطية على النحو الآتي : قوات قرطبة ألف فارس ، وقوات مرسية وبلنسية خمسمائة فارس ، وقوات لاردة مائتا فارس .

(٢) M.Lafuente: ibid ; Vol. III. p. 248 . وكذلك أشباخ في تاريخ الأندلس في

عهد المرابطين والموحدين (الترجمة العربية) ص ١٦٤ .

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ .

(٤) راجع في تحديد معالم الموقعة خريطة الثغر الأعلى (ص ٩١ من هذا الكتاب) .

المسلمون على محلتهم وعتادهم وسلاحهم ، وكان ذلك في اليوم السابع عشر من يولييه سنة ١١٣٤ م (٢٣ رمضان سنة ٥٢٨ هـ) (١) .

وتختلف الرواية اختلافاً بيناً في مصير ألفونسو المحارب . ومعظم الروايات النصرانية على أنه سقط خلال الموقعة . ويؤيد هذه الرواية صاحب « الأخبار الطليطية » وردريك الطليطلي . وثوريتا وغيرهم . ولكن الذي يثير ريباً حولها ، هو أن جثة ألفونسو المحارب لم توجد قط بين ضحايا الموقعة (٢) . وأما الرواية الأخرى ، فهي أن ألفونسو توفي بعد الموقعة بأيام قلائل ، ويروى مؤرخ قطلونى : معاصر في وصفه للمعركة ، أنه حين تمت الهزيمة الساحقة على النصارى ، عمد ألفونسو إلى الفرار بصحبة فارسين فقط . ولجأ إلى دير القديس « خوان دى لانبيا » في سرقسطة ، وهناك توفي نغماً ويأساً ، لثمانية أيام فقط من الموقعة ، وذلك في ٢٥ يولييه سنة ١١٣٤ . وهذا ما تؤيده الرواية الإسلامية مع خلاف يسير . فإن ابن الأثير يقول لنا في حديثه عن الموقعة ، أن ابن رذمير (ألفونسو) لحق عقب هزيمته بمدينة سرقسطة ، « فلما رأى ما قتل من أصحابه ، مات مفجوعاً بعد عشرين يوماً من الهزيمة » (٣) ويقول ابن القطان أن ابن رذمير فر في شزيمة قليلة جداً ، ولحق بمدينة سرقسطة ، واله العقل ، نجحوا الذهن ، ثم خرج منها إلى وشقة فأقام بها مختلاً أشهراً قليلة ثم حان أجله (٤) . ويقول لنا صاحب الروض المعطار ، إن ألفونسو فر عقب هزيمة ، وأوى إلى حصن خرب في رأس جبل شاهق . مع الفل الذى بقى معه . ثم غادره متسللاً بالليل حينما أحرق به المسلمون (٥) .

(١) تختلف الرواية العربية في تاريخ الموقعة فيضعه ابن عذارى في سنة ٥٢٨ هـ (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسبيرس ص ١٠٠) . ويقول لنا ابن القطان إنها وقعت في سنة ٥٢٩ هـ ويقول في موضع آخر إنها وقعت سنة ٥٢٨ هـ (المخطوط السابق ذكره) ويضعها ابن الأثير في سنة ٥٢٩ هـ (ج ١١ ص ١٣) . ويقول لنا صاحب الروض المعطار إنها وقعت في رمضان سنة ٥٢٥ هـ (صفه جزيرة الأندلس ص ٢٤) . ولكن الرواية النصرانية تحدد لنا تاريخها تحديداً دقيقاً واصحاً ، وهو يولييه سنة ١١٣٤ ، الموافق لرمضان سنة ٥٢٨ هـ .

(٢) يراجع في ذلك M. Lafuente : ibid ; Vol. III, p 248 . والهامس حيث يحدد الروايات النصرانية المؤيدة اسموط ألفونسو في الموقعة . وراجع أيضاً : F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almoravides p. 269 - 272

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ .

(٤) في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره)

(٥) الروض المعطار ص ٢٥ .

وقد كان لنصر المرابطين في إفراغة ، صدى عميق في سائر أرجاء الأندلس ،
وفي اسبانيا النصرانية بنوع خاص ، وعادت سمعة المرابطين العسكرية ، إلى سابق
مكانتها في شبه الجزيرة ، وذاع صيت يحيى بن غانية ، قائد المرابطين في ذلك
اليوم المشهود ، وسرى فيما بعد كيف يضطلع ابن غانية في قيادة المرابطين في
شبه الجزيرة بأعظم دور . وقد نظم الشاعر أبو جعفر بن وضاح المرسى ، في واقعة
إفراغة ، ومديح ابن غانية قصيدة يقول فيها :

شمرت برديك لما أسبل الوانى	وشب منك الأعادى نار غيان
دفنت في غاية الخطى نحوهم	كالعين يهفو عليها وطف أجفان
عقرهم بسيف الهنيد مصلثة	كأنما شربوا منها بغبوان
هون عليك سوى نفس قتلتهم	من يكسر النبع لم يعجز عن البان
وقفت والجيش عقد منك منتثرا	إلا فرائد أشياخ وشبان
والخيل تنحط من وقع الرماح بها	كأن نصالها ترجيع ألحان

وكان من أثر موقعة إفراغة ، وهلاك ألفونسو المحارب ، أن انقشع الخطر
مدى حين ، عما بقى بأيدي المسلمين من أراضي الثغر الأعلى ، وعن شرقي الأندلس ،
واختفت من ميدان الصراع بين المسلمين والنصارى ، شخصية خطيرة كانت
تهدد بمشاريعها البعيدة المدى وتصميمها المستميت ، سلام المسلمين ، وسلامة
الوطن الأندلسي . وقد كان ألفونسو المحارب في الواقع ، مثل فرناندو الأول ،
وآلفونسو السادس ، من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية ، في العصور الوسطى .
وكان افتتاحه لسرقسطة ، فاتحة عصر جديد لمملكة أراجون ، كما كان افتتاح
آلفونسو السادس لطليطلة فاتحة عصر جديد لمملكة قشتالة ، وقد غدت مملكة أراجون
في ظله ، باتحاد مملكة نافار معها ، منذ عهد أبيه سانشو ، قرينة مملكة قشتالة من
حيث تراهى الرقعة ، وضخامة الموارد ، وقوة المراس في مناجزة الأندلس ، وقد
استطاع هو أن يوطد حدود مملكته ، وأن يوسع رقعتها ، بافتتاحه سرقسطة وتطيلة
وطرسونة وقلعة أيوب ودورقة وغيرها ، من القواعد الإسلامية ، وكانت أمامه ،
بزواجه من أوركا ملكة قشتالة ، فرصة لأن يغدو قيصر لإسبانيا الكبرى ، ولكن
ما نشب بين الزوجين من خلاف حول السلطان ، وما أبداه أشراف قشتالة من
بغض لنير أراجون - كان كفيلا بتحطيم مثل هذا المشروع ، وكانت الحرب

الأهلية التي نشبت من جراء ذلك بين قشتالة وأراجون ، تتيح للمسلمين أوقاتاً للتهادن ، كما تتيح لهم فرص الغزو في الأراضي النصرانية . والرواية الإسلامية نفسها تشيد بعظمة ألفونسو المحارب . ويصفه ابن الأثير في قوله « وكان من أشد ملوك الفرنج بأساً ، وأكثرهم تجرداً لحرب المسلمين وأعظمهم صبراً »^(١) . هذا وسوف نغنى عند الكلام عن تاريخ اسبانيا النصرانية في عهد المرابطين ، بالتحدث عن أحوال أراجون وقشتالة في عهد ألفونسو المحارب .

ومما هو جدير بالملاحظة ، أن المرابطين . بالرغم من نصرهم الساحق في موقعة إفراغة ، وتمزيقهم للجيش الأراجوني شرمزق ، لم يفكروا في الاستفادة من نصرهم بالزحف توالاً على سرقسطة . ومحاولة استردادها ، وقد كانت على مقربة من ساحة نصرهم ، وكان سحق الجيش الأراجوني ، وهلاك عاهله ، مما يشجع على الاضطلاع بمثل هذه المحاولة ، ولكن المرابطين قنعوا في ذلك الموطن بالنصر ، وانصرفوا إلى قواعدهم ، على غرار ما حدث عقب نصر الزلاقة ، حيث أحجم عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين عن مطاردة القشتاليين ، وانتهز فرصة انهيار الجيش القشتالي لمحاولة استرداد طليطلة ؛ ومن الغريب أن المرابطين كانوا في نفس الوقت الذي اضطرت فيه معركة إفراغة سنة ٥٢٨ هـ يقومون بغزوات مخربة عقيمة في أراضي قشتالة ، بقيادة الأمير تاشفين ، ولد أمير المسلمين على بن يوسف ، ولو أنهم حشدوا مزيداً من قواتهم في الثغر الأعلى . على أثر انتصارهم في إفراغة بقيادة قائدهم المطل يحيى بن غانية ، لكانت لديهم بلاريب فرصة مرجحة ، لاسترداد الثغر الإسلامي العظيم - سرقسطة - وفي رأينا أن المرابطين ، بإحجامهم عن استغلال ظفرهم في الزلاقة وإفراغة ، وإحجامهم في الحالة الأولى عن محاولة استرداد طليطلة ، وفي الثانية عن محاولة استرداد سرقسطة ، قد ارتكبوا في الحالتين خطأ عسكرياً لاشك في خطورته ، وكانت له في الحالتين نتائج بعيدة المدى .

٥ - خاتمة ملك بني هود بالثغر الأعلى

لما دخل المرابطون سرقسطة بدعوة أهلها ، في أواخر سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠م) كان قد غادرها آخر ملوكها من بني هود ، عبد الملك بن أحمد المستعين بن هود الملقب بعماد الدولة . ولم يكن عبد الملك قد حكم سوى فترة يسيرة ، دب الخلاف

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ .

خلالها بينه وبين أهل سرقسطة لمخالفته النصارى وانضوائه تحت لوأهم ، حسبما فصلناه من قبل فى كتاب « دول الطوائف » . وسار عبد الملك فى أهله وأمواله إلى قاعدة روطه المنيعه ، الواقعة على الضفة اليسرى لنهر خالون أحد أفرع نهر لبرة الجنوبية ، على قيد خمسة وثلاثين كيلومتراً من سرقسطة . وكان بنو هود قد أنشأوا هذه القاعدة ، وحصنها وزودوها بالأبنية الضخمة ، وأعدوها لتكون لهم عند الضرورة ملجأ ومثوى . وفى بعض الروايات أن الذى أنشأ حصن روطه ، وأسبغ عليه مناعته الفاتكة ، هو المستعين والد عبد الملك ، وأنه حفر فيه إلى إلى الوادى سرباً أتقن أدراجه ، تنيف على أربعائة درج فلا ينقطع فيه الماء^(١) . واستقر عبد الملك فى هذه القاعدة ، وأنشأ بها إمارة صغيرة . والظاهر أن إمارة روطه كانت تشمل يومئذ ، رقعة من الأراضى ، تمتد شمالاً حتى برجة الواقعة شمال غربى سرقسطة ، على مقربة من تطيلة ، يدل على ذلك ما يذكره صاحب البيان المغرب فى أخبار سنة عشر وخمسمائة من أن الأمير أبا بكر صاحب سرقسطة ، خرج إلى الغزو ، وهاجم حصن روطه ، وأثنى فى أنحائه ، ثم تحرك إلى برجة ، وبها عماد الدولة بن المستعين بن هود ، فضيق عليها ، وبالغ فى إرهاقها ، حتى صالحها أهلها ، فرجع عنها إلى سرقسطة^(٢) . وعلى أى حال فإنه يبدو أن الدماء كان مستحكماً ، بين عماد الدولة وبين المرابطين ، ومن ثم فقد وضع عماد الدولة نفسه تحت حماية ملك أراجون القوى ، ألفونسو المحارب ، خشية من نقمة المرابطين سادة سرقسطة ، واستمر عبد الملك عماد الدولة ، فى حكم إمارته الصغيرة نحو عشرين عاماً ، حتى توفى بحصن روطه فى شعبان سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠م) . وكانت سرقسطة قد سقطت فى تلك الأثناء فى أيدي النصارى ، وأصبح ألفونسو المحارب سيد هذه الأنحاء بلا منازع . وتوجد ثمة رواية مفادها أن عماد الدولة بن هود ، لبث أميراً بسرقسطة ، تحت حماية المرابطين ، حتى سقطت المدينة فى أيدي النصارى ، وعندئذ فر منها إلى روطه^(٣) . بيد أن هذه الرواية ضعيفة لا تؤيدها أية رواية أخرى . وينقضها بالعكس ، ماسبق أن ذكرناه من توالى الولاة المرابطين على سرقسطة ، منذ دخلها ابن الحاج حتى سقوطها فى أيدي النصارى فى سنة ٥١٢هـ (١١١٨م) .

(١) ابن الكردبوس فى كتاب « الإكتفا » (مخطوط الأكاديمية السالف الذكر لوحة ١٦٥ ب) .

(٢) ابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبريس ص ٧٨) .

(٣) ابن الكردبوس فى كتابه السالف الذكر (المخطوط لوحة ١٦٥ ب) .

ولما توفي عماد الدولة خلفه في إمارة روطه وأعمالها . ولده أبو جعفر أحمد ابن عبد الملك . وتلقب بسيف الدولة المستنصر بالله . وكذلك المستعين بالله ، واستمر في حكم روطه وما حولها من الحصون والأراضي ، وحذا حذو أبيه في مخالفة النصارى ، والانضواء تحت حماية ألفونسو المحارب ملك أراجون . بيد أنه ما لبث أن شعر بوطأة هذا النير . ورأى أن يتجه إلى الناحية الأخرى من اسبانيا النصرانية ، إلى ناحية قشتالة . وكان ملك قشتالة الفتى ألفونسو ريمونديس ، الذى تسميه الرواية العربية أدفنش بن رمند باسم أبيه ريموند البورجونى ، وبالسليطن أى الملك الصغير — لانه تولى الملك وهو حدث . وأضحى بعد وفاة أمه أوراسكا في سنة ١١٢٦ م . ملكاً على ليون وقشتالة ولما تجاوز الحادية والعشرين . وكان ألفونسو ريمونديس . بعد أن انتهى النضال بينه وبين خصمه ومنافسه ألفونسو المحارب . زوج أمه القديم بظفره . وأضحى سيد قشتالة القوى ، يبدو لسيف الدولة حليفاً أفضل . وتعرف الرواية اللاتينية « سيف الدولة » معرفة جيدة . وتسميه « سفادولا » Zafadola ، وتقول لنا إن سيف الدولة عرض على أولاده ووزرائه ، فكرة التحالف مع ملك قشتالة والانضواء تحت لوائه . فوافقوا عليها . وأنه بعث إلى ملك قشتالة برغبته في زيارته . وبأن يرسل إليه بعض فرسانه لحمايته ، خوفاً من المرابطين ، فبعث إليه الملك ببعض أكابر فرسانه ، وصحبوه إلى بلاط طليطلة ، فاستقباها الملك بترحاب وعطف . وعامله معاملة ملك ، وقدم إليه طائفة من الهدايا النفيسة . وتأثر سيف الدولة بما رآه من فخامة بلاط قشتالة ، وكرم معاملته ، فأعلن أنه ينضوى تحت لوائه وحمايته ، ويضع نفسه هو وأولاده تحت تصرفه ، ثم نزل له عن حصن روطه ، مقابل حصون وبلاد في منطقة طليطلة وإسترامادورة ، أعطاه إياها ملك قشتالة . فانتقل إليها ووضع نفسه في خدمته (١) .

وتقدم إلينا بعض الروايات النصرانية الأخرى . قصة سيف الدولة في صيغة أخرى . فتقول إن سيف الدولة لما برم بحماية ملك أراجون المرهقة ، وخشى من انقلاب رعيته عليه لمخالفته للملوك النصارى . قرر أن يعترف بحماية ملك قشتالة ، ونزل له عن روطه اليهود . وغيرها من المواقع المنيعه . الباقية من مملكته الصغيرة ،

(١) راجع هذه الرواية في A. P. Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901) T.I.

p. 466-467 وكذلك في F. Codera : Dec. y Disp. de los Almoravides, p. 24-26

فاستقبله ملك قشتالة بترحاب ، وأعطاه في مقابل ذلك ، عدة أمكنة في قشتالة وليون (سنة ١١٣٢ م)^(١).

وتحدثنا الرواية العربية عن سيف الدولة المستنصر بن هود ، وعن تنازله عن حصن روضة لملك النصارى ، ولكنها تختلف في تفاصيل ذلك . ويضع ابن الأثير هذا التنازل في حوادث سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م) ، ويقول لنا إن المستنصر ابن هود ، عقد في هذه السنة الصلح مع « السليطين » (ألفونسو ريمونديس) . وكان « السليطين » قد أكثر من غزو بلاد المستنصر وقتالها حتى ضعف عن مقاومتها ، فرأى أن يريح نفسه وجنده مدة ، فاستقر بينهما الصلح لمدة عشر سنين ، على أن يسلم المستنصر حصن روضة ، وهو من أمنع الحصون وأحصنها ، وتسلم النصارى الحصن « وفعل المستنصر فعلة لم يفعلها قبله أحد »^(٢).

ويقدم إلينا ابن الكردبوس عن هذه الواقعة رواية ضافية ، ينفرد فيها بتفاصيل خاصة ، خلاصتها أن طاغية الروم الإمبراطور الملقب بالسُلطان ، هو الذي راسل المستنصر ، وعرض عليه أن يتخلى له عن روضة ويعوضه عنها بقشتالة ما هو أحسن وأفيد ، بحيث يغدو وأقرب إلى بلاد غربي الأندلس ، وأنه سوف يخرج معه بنفسه إلى طائفة من البلاد المتاخمة لقشتالة يدعوا أهلها لطاعته ، وأنه على يقين من أن أهل هذه البلاد سوف يستجيبون إلى دعوته ، لأن المرابطين قد أذاقوهم العذاب ، وهم يكرهونهم ، ويتمنون زوال دولتهم ، وأخيراً أنه لم يبق من أبناء الملوك المسلمين سواه ، أى المستنصر ، وهكذا تخلى المستنصر لملك قشتالة عن روضة وهى « معقل ما أبصر مثله من يعقل » . وعوضه عنها ملك قشتالة بقرى ومزارع مغلّة في بلاده . ثم خرج معه إلى غربي الأندلس ، في قوات كثيفة ، فما قصد موضعاً إلا ألفاه ممتنعاً ، ولم تستجب إلى دعوته أية قرية ، أو أى موضع ، وخشى أهل هذه البلاد جميعاً ، إن أطاعوه وانضموا تحت لوائه ، فإن العدو يغلبهم ويملكهم ، وهكذا رجع المستنصر من مشروعه بأخسر صفقة^(٣) . ويستفاد من رواية ابن الكردبوس هذه ، أن ملك قشتالة ، كان يرمى إلى استخدام المستنصر

(١) M. Lafuente: ibid ; Vol. III p. 247.

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣

(٣) وردت رواية ابن الكردبوس في كتاب « الإكتفاء » (مخطوط أكاديمية التاريخ السابق

الذكر لوجه ١٦٥ ب) .

في إنشاء إمارة متاحة لقتالة من ناحية الجنوب الغربي ، تتكون من بعض البلاد والقرى الإسلامية النائية المحاورة لحدود قشتالة . وذلك لكي يجعل منها قاعدة أممية لعدوانه على أراضي الأندلس ، ووسيلة للضرب والتفريق بين المسلمين في تلك المنطقة ، بيد أنه فشل في مشروعه واقتصر سيف الدولة المستنصر ، في مقامه بقشتالة . على الأماكن والأراضي التي منحت له ليعيش فيها . ويقول لنا ابن الأبار إن ملك قشتالة عوضه عن روضة بنصف مدينته طليطلة^(١) . وهذه رواية تدعو إلى التأمل . لأن طليطلة كانت في ذلك الوقت عاصمة مملكة قشتالة ، وتقول لنا الرواية اللاتينية السالفة الذكر إن ملك قشتالة منح المستنصر حصوناً وبلاداً في منطقة طليطلة وإسترامادورة ، وهو أقرب إلى المعقول ، وربما شملت هذه الأماكن حياً أو دوراً في طليطلة ذاتها . ويضع ابن الأبار تاريخ تنازل المستنصر عن روضة في شهر ذي القعدة سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م) .

وهناك رواية أخرى يقدمها إلينا ابن الخطيب ، وهي تختلف في مضمونها عما تقدم . وخلاصتها أن المستنصر بن هود لجأ إلى حماية ابن رذمير . أعنى ألفونسو الحنارب ملك أراجون ، وليس إلى حماية ملك قشتالة ، وأن ابن رذمير عاوضه عن روضة بأماكن من أعمال مدينة طليطلة في شمالي الثغرفانتقل إليها بأهله وأمواله^(٢) . وهكذا انتهت بتحلي المستنصر عن قاعدة روضة وأعمالها ، رئاسة بني هود فيما تبقى من أنقاض مملكة سرقسطة القديمة . وأقام المستنصر في مقره الجديد في كنف ملك قشتالة بضعة أعوام أخرى ، إلى أن سنحت له فرصة للتدخل في حوادث الأندلس ، وشق طريقه إلى الرئاسة من جديد ، وهو ما سنعنى به في موضعه المناسب .

(١) ابن الأبار في الحلة السبراء ص ٢٢٥ .

(٢) ابن الخطيب في أمال الأعلام ص ١٧٦ .

الفصل الخامس

الأمير تاشفين بن علي

وغزواته وأعماله في شبه الجزيرة

قاعدة التولية لدى المرابطين . علي بن يوسف يولي ولده تاشفين شئون الأندلس . الخلاف حول تاريخ هذه التولية . خروج تاشفين إلى غزو قشتالة . غزوة لوالى إشبيلية . القشتاليون يغزون أراضي قرطبة . غزوة ينتان بن علي لأراضي أراجون . تاشفين يفتح حصن السكة . عود القشتاليين إلى غزو أراضي قرطبة . مسر تاشفين إلى لقاءهم وهزيمتهم . غزو القشتاليين لأراضي إشبيلية وردهم . عودهم إلى الغزو بقيادة ملكهم ألفونسو ريموندس . التقاء تاشفين وقواته بالنصارى قرب بطليوس . هزيمة القشتاليين وفرارهم . خروج تاشفين إلى الغزو . اللقاء في موقعة البكار . هزيمة المرابطين في البداية ثم ثباتهم وانتصارهم . قصيدة أبي بكر الصيرفي في مدح تاشفين ونصحه . إيصاح عن مكان الموقعة . حوادث أندلسية مختلفة . غزوة قشتالية لأراضي الأندلس . توغل القشتاليين وعيهم حتى أراضي شريش . غزوات جديدة لتاشفين في أراضي قشتالة . غزوة قشتالية أخرى لأراضي قرطبة . نقل قاعدة الحكم المرابطي من غرناطة إلى قرطبة . التنويه بتاشفين وحسن إدارته . عود تاشفين إلى المغرب . اختياره لولاية العهد مكان أخيه سير . ظروف هذه التولية وبواعثها .

— ١ —

وضحح مما تقدم ، مما ذكرناه في أخبار ولاية الأندلس وأقاليمها ، أن الدولة المرابطية ، كانت تعتمد في حكم الأندلس على عصبية القبيل والأسرة ، فيتولى الحكم بها الأمراء من أبناء أمير المسلمين وقرابته وأصهاره ، ويتولى هؤلاء كذلك قيادة الجيوش المرابطية ، ويضطلع بالقيادة العامة ولد الأمير . وقد طبقت هذه القاعدة منذ البداية ، فكان الأمير سير ابن أبي بكر اللمتوني قائد الجيوش المرابطية ، ومتولى شئون الأندلس في عهد يوسف بن تاشفين ، ثم كان أبو الطاهر تميم ولد يوسف متولى القيادة العامة ، منذ وفاة والده ، وولاية أخيه علي بن يوسف ، وكذلك متولى شئون الأندلس ، وقاعدته الإدارية غرناطة . ولبت تميم في منصبه عدة أعوام ، قاد فيها الجيوش المرابطية منذ موقعة أفلدش في سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) ، حتى سقوط سرقسطة في سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) ، وموقعة كسندة في سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) . وفي سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) ، ولّى الأمير تميم ولاية إشبيلية إلى جانب ولاية غرناطة ثم صرف عن إشبيلية في العام التالي ، وولّى

إشبيلية الأمير أبو بكر بن علي بن يوسف . واستمر الأمير تميم بعد ذلك والياً على غرناطة . ومتولياً لساائر شئون الأندلس . حتى توفي سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ٥ ومما هو جدير بالذكر أن القاضي أبا الوليد بن رشد ، حينما عبر إلى العدو في هذا العام نفسه ، على أثر غزوة ألفونسو المحارب . بمالأة النصارى المعاهدين . كان يقصد — إلى جانب سعيه لدى أمير المسلمين علي بن يوسف في تغريب المعاهدين — أن يسعى كذلك في عزل أخيه تميم عن ولاية الأندلس . وتعيين غيره^(١) . ولكن القدر عجل بوفاته تميم . فعندئذ عهد أمير المسلمين علي بن يوسف بشئون الأندلس ، إلى ولده تاشفين بن علي ، فعبر إليها في جيش مرابطي جديد من خمسة آلاف فارس ، ولم يلبث أن بدأ سلسلة جديدة من الغزوات في أراضي قشتالة .

وتختلف الرواية في تاريخ تولية تاشفين لشئون الأندلس . فهناك قول بأن توليته كانت في سنة ٥٢٠ هـ عقب عزل عمه تميم^(٢) . وهناك قول آخر بأن هذا التعيين كان في سنة ٥٢٢ أو ٥٢٣ هـ^(٣) ، ثم هناك قول ثالث بأنه كان في سنة ٥٢٦ هـ^(٤) . بيد أنه يبدو من أقوال صاحب البيان المغرب عن غزوات تاشفين بالأندلس . وهي أقوال تؤيدها الرواية النصرانية . أن تاشفين كان موجوداً بالأندلس منذ سنة ٥٢٢ هـ . وأنه قد التقى في هذا العام ذاته بالقشتاليين على مقربة من قلعة رباح^(٥) . وهذه الرواية يؤيدها أيضاً ما يذكره لنا ابن القطان في حوادث سنة ٥٢٢ هـ ، وهو أن علياً بن يوسف . عزل ولده الأمير أبا بكر عن ولاية إشبيلية ، وغربه مكبولا إلى الصحراء . لأنه لم يرض عنبيعة أخيه . وتوليه شئون الأندلس . وعين مكانه لولاية إشبيلية أجدى والى قرطبة^(٦) . ويؤيد ابن عذارى واقعة عزل الأمير أبي بكر ولكنه لا يذكر لنا شيئاً عن تغريبه . ويقول لنا إن الذي خلفه في ولاية إشبيلية هو عمر بن سير . وذلك في شعبان سنة ٥٢٢ هـ^(٧) . وفضلاً عن ذلك ، فإن صاحب البيان المغرب . ينقل إلينا عن ابن الوراق رواية

(١) الحلل الموشية ص ١٠٧ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٦ .

(٣) ابن الخطيب في الإحاطة (الماهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤٥٤ و ٤٥٧ .

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ .

(٥) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة — هسبرس ص ٩٠) .

(٦) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره) .

(٧) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة — هسبرس ص ١١٠) .

أخرى مفادها أن ولاية تاشفين للأندلس كانت في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، وأنه قدم إلى غرناطة في السابع والعشرين لذي حجة من هذا العام^(١) .

وعلى أى حال فإن حديث غزوات تاشفين في شبه الجزيرة يبدأ بالفعل قبل هذا التاريخ . ويستفاد من رواية صاحب روض القرطاس أن تاشفين قد عبر إلى شبه الجزيرة منذ سنة ٥٢٠ هـ ، وأنه خرج في أواخر هذا العام أو أوائل العام التالي في جيشه ، وفي أجناد الولايات ، غازياً إلى أراضى طليطلة ، فعات في أحوازها ، واقتحم اثنين من حصونها ، ثم سار نحو الغرب ، والتقى بالنصارى في موضع يعرف « بفحص الضباب » فهزمهم هزيمة شديدة ، وافتتح ثلاثين حصناً من حصون هذه المنطقة وكتب إلى أبيه بالفتح^(٢) .

وقام الأمير تاشفين بعد ذلك بعدة غزوات في أراضى قشتالة ، وخاض مع القشتاليين معارك عديدة . وبالرغم من أن الرواية العربية تحدثنا عن غزوات تاشفين ووقائعها في عبارات حماسية ، فإنها لا تقدم إلينا تفاصيل شافية عن هذه الوقائع . وكذلك فإن الرواية النصرانية ليست دقيقة ولا واضحة في هذا الموطن .

وفي وسعنا أن نتتبع غزوات الأمير تاشفين وحروبه مع النصارى منذ سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) ، ففي تلك السنة غزا القشتاليون أراضى الأندلس بجيش ضخم ، ووصلوا في زحفهم إلى جبال الكرس ، على مقربة من قلعة رباح ، فخرج الأمير تاشفين إلى لقاءهم ، فارتدوا عائدين إلى بلادهم .

وفي العام التالي ، أعنى في سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩ م) ، سير الأمير تاشفين جيش إشبيلية بقيادة واليها عمر بن سير الممتونى ، فأغار على أطراف قشتالة ، فخرج إليه زهاء ثلاثمائة فارس للعدو وقاتلوه بشدة ، فانهزم المرابطون ، وقتل وأسر الكثير منهم . وكانت هذه الهزيمة ترجع بالأخص إلى تهاون عمر بن سير وعدم تحوطه ، فرفع أمره إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، فألزمه بدية من أسر ، وعزله عن ولاية إشبيلية ، وولى مكانه الأمير أبا زكريا يحيى بن على الحاج .

وفي سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) انحدرت القوات القشتالية جنوباً حتى أصبحت على مقربة من قرطبة ، فاستغاث واليها عبد الله بن تينغمر بالأمير تاشفين ، فبادر إليها في قواته ، فارتد القشتاليون أدراجهم ، ولم يشاءوا الاشتباك مع المرابطين ،

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هيسبرس ص ٩١) .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٧ .

وتحول الأمير تاشفين بقواته إلى جيان . فلبث بها قليلا يرقب الحوادث ، ثم سار منها إلى غرناطة^(١) .

وتوفي في أوائل هذا العام محمد بن يوسف بن يدّر والى بالنسية ، فعين مكانه ينتان بن علي وهو الابن الأصغر لعلی بن يوسف . وخرج بنتان بقواته غازياً في أراضي أراجون . فلقية النصاري بقيادة الكونت جاستون دي بيارن (وتسميه الرواية العربية غشتون) فهزم النصاري ، وقتل الكونت وسبق رأسه إلى غرناطة وطيف بها على رمح ؛ ثم حملت إلى أمير المسلمين بمراكش ، فطيف بها هنالك أيضاً .

وفي رمضان من نفس هذا العام . خرج الأمير تاشفين بجيش غرناطة ومتطوعها . واتصل به جيش قرطبة إلى حصن السكة Aceea من عمل طليطلة . وكان ملك قشتالة ، قد شحنه بالمقاتلة للإغارة على أراضي المسلمين ، فحاصره تاشفين . وافتتحه عنوة . وقتل من كان به ، وأسرقائده تليو فرنانديث — وكان من مشاهير فرسان قشتالة — وكذلك ضباطه ، وتزيد الرواية النصرانية على ذلك ، أن القتلى من حامية الحصن بلغوا مائة وثمانين ، وأن تاشفين سار بعد ذلك إلى حصن بارجاس فقتل من رجاله خمسين . واستمر في تقدمه حتى وصل إلى « سان سرقاندو » من ضواحي طليطلة ، ثم ارتد بعد ذلك بقواته جنوباً وعاد إلى غرناطة ، فاستقبله الناس أفخم استقبال^(٢) .

وفي صفر سنة ٥٢٥ هـ (يناير ١١٣١ م) ، هزم المرابطون قوة من القشاليين كانت تغير على الحدود وتضيق على المساحين .

وفي هذا العام أسندت ولاية قرطبة إلى ابن أخت علي بن يوسف . عبد الله ابن أبي بكر المعروف بابن قنونة . وفيه شبت النار بسوق الكتانين بقرطمة . واتصلت بسوق البز . فأنت عليه وأسفرت عن خسائر فادحة . ورجم الناس ابن المناصف صاحب السوق لتقصيره في المعونة^(٣) .

وفي ربيع الأول سنة ٥٢٦ هـ (يناير ١١٣٢ م) ، نمت إلى الأمير تاشفين أن

(١) نقلنا أخبار هائين الغزوين ، عن البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسبرس ص ٩١) .

(٢) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبرس ص ٩١) . وابن القطان في نظم الجان المخطوط السابق الذكر لوجه ١٦٧) .

(٣) نظم الجان (المخطوط السالف الذكر لوجه ٦٨ ب) .

القشتاليين خرجوا من طليطلة متجهين صوب قرطبة، فبادر بالسير إلى قرطبة ، ثم اتجه إلى لقاء العدو في قواته الخفيفة ، وترك الثقل بحصن أرجونة ، وفي تلك الأثناء كان القشتاليون قد وصلوا حصن شنت لإشتين على مقربة من جيان ، واستولوا عليه ثم ساروا إلى قرية براشة . وهناك التقى الفريقان ، ووقعت بينهما معركة عنيفة ، هزم فيها القشتاليون وقتل منهم عدد جهم ، وأسر قائد القشتاليين وعدة من أكابر ضباطه ، واستولى المرابطون على مقادير وافرة من الأسلحة والدواب والثياب ، وسار الأمير تاشفين بالأسرى والغنائم إلى قلعة رباح القريبة من ميدان المعركة ، فأصلح أحوالها وحصن أسوارها ، وترك الأسرى لدى أهلها ، ليفتدوا بهم من يستطيعون من أسراهم ، ثم عاد في قواته ظافراً إلى غرناطة^(١) .

وقد سجل لنا ابن القطان من أحداث هذا العام بعض صور أخرى غير أخبار الحرب والغزوات ، فذكر لنا أن المجاعة اشتدت فيه بقرطبة ، وانتشر الوباء بين الناس ، وكثر الموت ، وبلغ سعر المد من القمح خمسة عشر دينارا ، وذاعت الفوضى وكثر أهل الشر ، فجدد الوالي ابن قنونة في مطاردة أهله ، وقتل الكثير منهم .

وفي أواخر هذا العام ، أعني ٥٢٦ هـ ، خرج جيش من القشتاليين بقيادة الكونت ردرينجو كوثالث إلى ناحية إشبيلية وأغاروا على أراضيها من جهة حصن القليعة ، وعاثوا فيها قتلا وسيياً ، ثم انحدروا فجأة إلى الشرف^(٢) على مقربة من المدينة وقتلوا من أهله جموعاً غفيرة ، وأخذ والي المدينة عمر بن الحاج اللمتوني على غرة ، فبادر في قواته إلى لقاء القشتاليين بالوادي على ضفة النهر ، وبعث سرية من فرسانه إلى الضفة الأخرى ، فأسرت بعض القشتاليين وجاءت بهم فأمر الوالي بضرب أعناقهم أمام أعين إخوانهم في الضفة الأخرى ، فاضطرم القشتاليون سخطاً وحماسة ، واقتحموا النهر كالسيل المنهمر ، وأطبقوا على المرابطين ، ووقعت بينهما معركة عنيفة ، قتل فيها عمر بن الحاج ومعظم جنده ، فأغلقت المدينة

(١) ابن الخطيب في الإحاطة ج ١ ص ٤٥٩ . والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها .

هسبرس ص ٩٤ و ٩٥) .

(٢) إقليم « الشرف » في الجغرافية الأندلسية ، هو السهل الممتد غرباً من إشبيلية حتى لبله ، وجنوباً حتى شاطئ المحيط ، ويشمل حصن القصر ، ولبله ، وولبة ، وجزيرة شلطيش ، وجبل العيون . وقد سمي بهذا الاسم لأنه « مشرف من ناحية إشبيلية » (الإدريسي في نزهة المشتاق . الجزء الخاص بوصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس طبعة دوزي ص ١٧٤ و ١٧٨) .

أبوابها دون الغزاة . واشتد الخوف بالناس . وكان ذلك في منتصف رجب من السنة المذكورة (١) .

وزحف القشتاليون على إشبيلية حتى صاروا على قيد فرسخين منها . وهم يثخنون في أحوازها قتلا وسبيا وتخريباً . وكان الأمير تاشفين . حينئذ نفي إليه عدوان القشتاليين قد نهض في قواته إلى إشبيلية . فطارد العدو وطهر منه الوادي . وارتد النصاري إلى بلادهم مثقلين بالغنائم والسبي .

وتزيد الرواية الإسلامية على ما تقدم . أن الأمير تاشفين سار في قواته نحو الغرب ومعه ابن قنونة والى قرطبة . والتقى بقوة من النصاري . كانت قد أغارت على أحواز يابرة . فهزمها المرابطون . وقتلوا معظم رجالها ، وأنقذوا منها الغنائم والأسرى (٢) .

بيد أنه لم يمض قليل عن ذلك . حتى بدت نيات القشتاليين واضحة في استئناف العدوان على نطاق واسع . ففي أوائل سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٤ م) حشد ألفونسو ريمونديس (ألفونسو السابع) أو ألفنش بن رمند كما تسميه الرواية العربية ، جيشاً ضخماً من آلاف عدة ، وبه كثير من أبطال قشتالة وأنجاءه المشهورين ، وقصد إلى ناحية بطليوس ، وعاث في أحوازها ، وخرب أراضيها . فنهض إليه الأمير تاشفين من إشبيلية في قوات ضخمة ، ووقف من أدلائه وطلائعه على خط سير العدو ، ورابط للقائه في مكان يقع شرق بطليوس على مقربة من سهل الزلاقة . الذي اشتهر بانتصار جده العظيم يوسف بن تاشفين فيه ، على ألفونسو السادس (٤٧٩ هـ) ، وما كادت طلائع العدو تبدو ، وقد ملأت جموعه وغنائمه السهل . حتى تاهب المرابطون للقائه بحماسة وتوثب . ونظم الجيش الإسلامي مثلاً نظم يوم الزلاقة في وحدات متناسقة ، فاحتل المرابطون ، وعلى رأسهم الأمير تاشفين القلب ، تتقدمهم البنود البيض مكتوبة بالآيات ، واصطفت إلى جانبيه القوات الأندلسية تتقدمها الرايات الحمراء بالصور الهائلة ، واحتل الخناجين أهل الثغور وذوو الجلال . وعليهم الرايات المرقعات ، واحتل المقدمة أنجاد زنانة ، ولفيف الحشم ذوو العاثم . وأمامهم الأعلام المصبغات ، ونشبت بين الفريقين

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبيرس ص ٩٧) ونظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ٧١ ب) ، وابن الخطيب في الإحاطة ج ١ ص ٤٦٠ .
(٢) ابن الفطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٧٢) .

معركة عنيفة ، دارت فيها الدائرة على القشتاليين ، فهزموا شر هزيمة ، ولجأوا إلى الفرار ، وقد قتلت وأسرت منهم جموع غفيرة ، واستنقذ المسلمون الأسرى والغنائم من أيدي القشتاليين ، وكان ذلك في جمادى الأولى من سنة ٥٢٨ هـ (مارس سنة ١١٣٤) وقفل الأمير تاشفين في قواته ظافراً إلى قرطبة . ثم سار منها إلى غرناطة فاستقبل استقبالاً فخماً ، وأنشده الشعراء مهنئين ، فمن ذلك قصيدة طويلة جاء فيها :

أما ويض الهند عنك خصوم فالروم تبذل ما طباك تروم
تمضى سيوفك في العدا ويردها عن نفسه حيث الكلام وخيم
دار هجمت بيوتها بطباك فأبدأ على قمم الملوك هجوم^(١)

وفي شهر ذى الحجة من نفس العام (٥٢٨ هـ) خرج الأمير تاشفين أثر عيد النحر ، بقوات غرناطة وقرطبة وقوات المجاهدين من الخيل والرجل ، إلى الغزو ، فسار نحو الغرب ، وقد انضم إليه جيش إشبيلية « بفحص الرياحنة » ثم سار إلى موضع تسميه الرواية « بالبيكار » وهو طريق للعدو لا يحصى منها . ولما رأى القشتاليون القوات المرابطية ، وضعوا خطة لاجتذابها إلى هذا الموضع ، وأقبل المرابطون بالفعل إليه ، وندب القشتاليون نخبة من أنجادهم تبلغ نحو ألفين ، فانقضت على المرابطين فجأة عند دخول الظلام ، في هذا الموضع الحرج ، واستطاعت أن تحترق صفوفهم في عدة مواضع ، فدب الخلل بالجيش المرابطي ، ونفرت الخيل وشردت واقتحمت الأخبية ، وعلا الصياح بين المسلمين ، وفروا من كل جانب ، ووصلت سرية من النصاري إلى خيمة الأمير تاشفين ، فأشار إليه بعض خاصته بأن يبادر بالفرار ، فأبى ، فأحرق به فرسان الأندلس وأنجاد المرابطين ، وحالوا بينه وبين العدو ، ووقعت بين الفريقين معركة عنيفة ، والأمير تاشفين ثابت فوق فرسه ، متشح بسيفه ودرعه ، يشدد الضرب والطعان ، قال المؤرخ « فلم ير أربط منه جأشاً ولا أشهم نفساً ، في مطلع ذلك الهول » ، واستطاع أحد الحند العبيد أن يقضى على قائد القشتاليين المهاجمين بطعنة نافذة ، ثم انجلت الظلمة عن هزيمة النصاري ، وقد اجتمعت من القتلى من الجانبين أكساد ضخمة . وفي صباح الغد سار الأمير تاشفين في قواته إلى حصن قشرش ، وهو من

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة هسبيرس - ص ٩٧) ، وابن الخطيب في الإحاطة

ج ١ ص ٤٦٠ و ٤٦١ . ولم يذكر لنا ناظم هذه القصيدة .

حصون المسلمين ثم غادره عائداً إلى قرطبة^(١) . وقد وجه إليه كاتبه أبو بكر يحيى ابن الصيرفي بهذه المناسبة قصيدة ضافية ، يهنته فيها بالسلامة ، ويحذره من خدع الحرب ، ويسدى إليه بعض النصائح فيما يجب أن يكون عليه القتال . وهي طويلة في نحو ستين بيتاً . نقتطف منها الأبيات الآتية :

يا أيها الملأ الذي يتقنع	من منكم البطل الهمام الأورع
ومن الذي غدر العدو به دجى	فانفض كل وهو لا يتزعزع
تمضى الفوارس والطعان يصدها	عنه ويدمرها الوفاء فترجع
والليل مرضج الترايك بينهم	صبح على هام الكماة ملمع
عن أربعين نلت أعنتها دجى	ألفان ألف حاسر ومقنع
لولا رجال كالجبال تعرضت	ما كان هذا السيل مما يودع
فثبت والأقدام تزلق والردى	حول السرادق في الأسنة تقرع
لا يعظم على الأمير فإنها	خدع الحروب وكل حرب يخدع
ولكل يوم حنكة وتمرس	وتجارب في مثل نفسك تنجع
يا شجع الأبطال ليلة أمس	اليوم أنت مع التجارب أشجع
ومنها في نصائح الحرب :	

واحذر كمين الروم عند لقاءها	واخفض كمينك خلفها إذ تدفع
لا تبقي النهر خلفك عند ما	تلقى العدو فنشره متوقع
أجعل مناجزة العدو غشية	وراءك الصدف الذى هو أمتع
وصدمه أول وهلة لا ترتدع	بعد التقدم فالنكوص يضعضع
وجاء في ختامها في مخاطبة تاشفين وتهنئته :	

يا تاشفين أقم لجيشك عذره	بالليل والقدر الذى لا ينفع
هجم العدو دجى فروع مقبلا	ومضى يهيم وهو منك مروع
كم وقعة لك في ديارهم انثنت	عنها أعزتها تذلل وتخضع
النعمة العظمى سلامتك التى	فيها من الظفر الرضى والمقنع
كادت تكون ولو إذاً لتزلزلت	عنها البسيطة والجبال الخوضع
وهوت بأندلس عقاب لم تدع	فيها لذكر الله صوت يرفع

(١) نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٧٥) . والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة

الذكر - هيسيرس ص ٩٨ و ٩٩) .

لأَضَيَّعَ الرحمن سعيك إنه سعى به الإسلام ليس يُضَيَّعَ
نستودع الرحمن منك وديعة فهو الحفيظ لكل ما يستودع^(١)

وتشير الرواية القتالية إلى هذه الموقعة^(٢) ، ولكنها كالرواية العربية ،
لا توضح لنا مكان وقوعها توضيحاً كافياً ، والظاهر مما تشير إليه أقوال صاحب
البيان المغرب ، من أن الأمير تاشفين ، سار غداة المعركة في قواته إلى حصن
« قشرش » أنها وقعت على مقربة من هذا المكان . وتقع قشرش أو قاصرش
Cáceres ، جنوبي نهر التاجه وشمال شرقي بطليوس وغربي ترجاله . أما تاريخ
الموقعة ، فتضعه الرواية العربية حسباً تقدم ، في أواخر شهر ذي الحجة من سنة
٥٢٨ هـ (أوائل أكتوبر سنة ١١٣٤ م) . ومما تجدر ملاحظته أن وقوعها جاء
لنحو ثلاثة أشهر فقط من موقعة إفراغة ، التي هزم فيها ألفونسو المحارب وفقد
حياته ، هذا في حين أنه يبدو من أقوال الرواية النصرانية ، أنها وقعت قبل
موقعة إفراغة .

ومما يلفت النظر ، ما يذكره لنا ابن القطان غير مرة من هجوم أسراب الجراد
على بسائط الأندلس وإتلافها في هذين العامين الأخيرين . وقد ذكر لنا أنه في
العام الذي وقعت فيه الغزوة السابقة - وهو يضع تاريخها في سنة ٢٢٩ هـ -
« محت الجراد ما على الأرض من زرع وكلاً ، وأمر الناس بالخروج إليها فساقوا
منها خمسة آلاف عدل ، وثلاثمائة وثلاثين عدلاً ، وما غاب عن العيون أكثر
تركت في الموضع الذي قتلت فيه ولم تحمل » .

ومما يذكر من أحداث هذه الفترة أيضاً ، أنه في سنة ٥٢٩ هـ ، وقع بقرطبة
هياج شديد ، وثارت العامة ضد اليهود على أثر ظهور قتيل مسلم في بعض أحيائهم ،
واقترحوا منازل اليهود ، ونهبوها ، وقتل خلال ذلك عدد منهم . ووقعت في
نفس الوقت بعض اضطرابات بمدينة إشبيلية ، من جراء ثورة العامة ضد قاضيها
أبي بكر بن العربي ، وكان يشتد في زجرهم ، ومعاقبتهم بمختلف العقوبات
الأيمة المبتكرة^(٣) .

(١) راجع الحلل الموشية حيث يشير إلى هذه الموقعة بإيجاز (ص ٩٢) ، ثم يورد قصيدة
ابن الصير في كلها (ص ٩٣ - ٩٦) .

(٢) M. J. Lafuente : *ibid* ; Vol. III. p. 248

(٣) البيان المغرب (في الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هيسيرس ص ١٠١) .

وفي نفس هذا العام . وقع حادث مروع بجامع قرطبة . هو مصرع قاضي قرطبة أحمد بن خلف التجيبي (أو أبو عبد الله بن الحاج وفقاً لابن القطان) . وثب به أحدهم فطعنه بخنجره . وهو راكع حين صلاة الجمعة . فسقط مضرراً بدمه . ووقع بالجامع هرج عظيم . وأخرج المرابطون منه أميرهم تاشفين في حراسة قوية . وقبض على القاتل وقتل لحينه في صحن الجامع . وتوفى القاضي في مساء نفس اليوم . وهو الخامس والعشرون من صفر سنة ٥٢٩ هـ (١) .

وتقص علينا الرواية النصرانية قصة غزوة قام بها القشتاليون في سنة ١١٣٣ م ومعهم سيف الدولة المستنصر بن هود . في أراضي الأندلس . على غرار غزوة ألفونسو المحارب . وتقول لنا إن ألفونسو ريمونديس ملك قشتالة قسم جيشه لهذا الغرض إلى قسمين . بقصد تسهيل التموين والحركة . سار هو على رأس أحدهما . وقاد الآخر سيف الدولة . والدون ردرجو كونثالدي لارا زعيم ليون . وعبر الجيشان جبال سيرا مورينا . (جبل الشارات) . واجتمعا على مقربة من قرطبة ، وكان الفصل فصل الحصاد . فأمر ملك قشتالة بانتساف حقول القمح والكروم والزيتون وغيرها . فساد الرعب بين المسلمين وهجروا السهول والقرى . إلى الحصون ومغائر الجبال . ووصل الجيش النصراني في زحفه إلى أحواز إشبيلية ، وهو يحرق المزارع والقرى والقلاع المهجورة . ويدمر المساجد ويحرق المصاحف . ويقبض على الفقهاء ويعذبهم . وشمل هذا العيث المروع الذي كانت تقوم به سرديات خفيفة من الفرسان النصارى . سائر المنطقة الواقعة ما بين قرطبة وإشبيلية . وامتألت صفوف القشتاليين من الغنائم والأسرى والأقوات . ومن ثم سار ملك قشتالة إلى شريش . فخرّبها وهدمها . ثم سار إلى قادس . ولما رأى ذلك أمراء الأندلس . بعثوا إلى سيف الدولة يطلبون إليه أن يعمل ملك النصارى . على تحريرهم من نير المرابطين ، فبعث إليهم بعد التفاهم مع ملك قشتالة يحثهم على انتزاع الحصون ومقاتلة المرابطين . وعندئذ يأتي هو وملك قشتالة لإنقاذهم . بيد أن الملك اعزم أن يعود أدراجه على الأثر . وألا يغامر بالبقاء في أرض لا يأمن مغبتها . وارتد إلى منطقة طليطلة (٢) .

(١) البها المعرب (الأوراق المخطوطة - هيسبرس ص ١٠ و ١٠١) ، وابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره) .

(٢) M Lafuente; ibid; (cit. Crónica Alfonso VII); Vol. III. p. 249

وتقدم إلينا الروايات الإسلامية أنباء هذه الغزوة في عبارات موجزة . ويضع ابن القطان حدوثها في سنة ٥٢٦ هـ (١١٣٢ م) ، ويقول لنا إنه في هذه السنة خرج السليطين (ألفونسو ريموندس) وابن هود إلى بلد المسلمين ، فهبطوا إلى إشبيلية ، وأنبسطت خيلهم ، واقتحمت ما وجدت ، ثم هبطوا إلى شريش ، فدخلوها وقتلوا كل من فيها ، وبالغوا في النكاية بالمسلمين ، ثم رجعوا إلى بلادهم . ويقول لنا ابن عذارى نقلا عن ابن حمادة ، إن العدو وصل إلى حومة شريش والبحيرة ، ولم يلقه أحد من المسلمين . ويضع تاريخ هذه الغزوة في سنة ٥٢٧ هـ (١١٣٣ م) متفقاً بذلك مع الرواية النصرانية^(١) .

ولكن الرواية العربية من جهة أخرى تشير إلى غزوات ثلاث أخيرة قام بها الأمير تاشفين . وبالرغم من أنها تذكر لنا التاريخ والمكان في كل غزوة ، فإنها لا تقدم لنا عنها تفاصيل شافية . وقد وقعت الأولى في سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) ، وفيها التقى الأمير تاشفين بالقشتاليين في مكان يعرف « بفحص عطية » فهزمهم ، وقتل منهم جموعاً غفيرة . وفي العام التالي أعنى سنة ٥٣١ هـ (١١٣٦ م) ، غزا الأمير تاشفين أرض قشتالة ، واقتحم مدينة كركنى على مقربة من قلعة رباح فلم يجد بها أحداً .

وقد أورد لنا ابن الخطيب بهذه المناسبة أبياتا نظمها الكاتب الكبير أبو عبد الله ابن أبي الحصال يمدح فيها الأمير تاشفين ، ويشير إلى موقعة كركنى ، وفيها يقول :

الله أعطاك فتحاً غير مشترك ورد عزمك عن فوت إلى درك
أرسل عنان جواد أنت راكبه واضم يديك ودعه في يد الملك
قد كان بعدك للأعداء مملكة حتى استدرت عليهم كورة الفلك
فما تركت كماً غير منفجر ولا تركت نجيعاً غير منسفك
فصحبهم جنود الله باطشة والصبح من عبرات الفجر في مُسك^(٢)

ووقعت الغزوة الثالثة في سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) ، وكانت المدينة « أشكونية » (أو أشكلونة Escalona وفقاً لصاحب نظم الجمان) وقد كانت حسبما يقول لنا صاحب الروض المعطار من أعمال كورة تدمير أى مرسية^(٣) . وهذا

(١) نظم الجمان (المخطوط السابق الذكر لوحة ١٧٢) ، والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة هسبرس ص ٩٦) .

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة - مخطوط الإسكوريال السالف الذكر (لوحة ٢٩) .

(٣) الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ٢٢ و ١٧٢ .

ما لا يمكن قبوله لأن ولاية بدمير كانت كلها من الأراضي الإسلامية . بيد أن الرواية النصرانية تلتى بعض الضوء على أخبار هذه الغزوة ومكانها . فتقول لنا أن الأمير تاشفين ، قام قبيل عبوره إلى العدو باجتياح أراضي بلدتي وبدة ، وألاركون . وهما من أعمال مقاطعة قونقة الواقعة على الحدود ، ثم دخل قونقة وأخضعها . وكان أهلها قد أعلنوا الخروج والثورة وذلك في سنة ١١٣٧م^(١) ، وتقول الرواية الإسلامية إن تاشفين دخل أتكولونه (ألاركون ؟) عنوة ، وقتل كل من كان بها وسبى نساءها ، واحتوى على أسلابها . ومنها عدة من النواقيس العظيمة . ودخل قرطمة وبين يديه الأسلاب والغنائم ، فكان يوماً مشهوداً . ثم تضيف الرواية إلى ذلك قولها إن الأمير تاشفين حمل من سبى هذه الغزوة عند عبوره إلى العدو ثمنين ستة آلاف سببية^(٢) .

وأخيراً . فإن تاشفين قبيل معادرتة للأندلس وحين خروجه من قرطبة قاصداً إلى العدو . باغته قيام النصارى بغز ومنطقة جيان ، فاستعد للسبر إلى لقاءهم . وكان القشتاليون قد خرجوا في حشود عظيمة . وساروا نحو الوادي الكبير ، واقتربوا من بيتاسة وأبدلة ، وعاثوا في تلك المنطقة ، واستعدوا لعبور النهر ، ولكن الأمطار هطلت بشدة ، واستمرت على هطلها عشرين يوماً حتى فاض النهر ، وعجزت الخيل المغيرة عن عبوره . ووضع القشتاليون بعض المعادى فوق الماء ، وحاولوا عبور النهر . فانكسر بعضها وغرق من كان فيها ، وتبعهم قائد جيان فأوقع بجماحة منهم . وانصرف النصارى بعد أن هاجموا حصن شبيوطة من عمل أبدلة وعجزوا عن اقتحامه . أما تاشفين فإنه لث يترقب السير إلى الشمال ، مدى أسابيع ، والأمطار تهطل والسيول تغمر الطرق والبساتين وتعوقه عن السير . فلما باغته انصراف النصارى . ارتد من فوره صوب طريق العدو ، وجاز البحر عائداً إلى حضرة مراکش . وكان ذلك في سنة ٥٣٢ هـ^(٣) .

ومما هو جدير بالذكر أن الأمير تاشفين . كان حينما ولاه أبوه شئون الأندلس عقب وفاة عمه أبي الطاهر تميم . قد اتخذ مقره في غرناطة ، التي جعلها الدولة

(١) A. P. Ibars : Valencia Arabe, P. 476

(٢) نظم الجان (المخطوط السابق ذكره لوجه ٧٩) . وروص الفرطاس ص ١٠٧ .

(٣) ابن البطائى في نظم الجان (المخطوط السابق الذكر) .

المرابطة مركز الإدارة العامة لشئون الأندلس ، وكان الحاكم العام المرابطى يعتبر أحياناً في نفس الوقت والياً لغرناطة ، وكان من بين معاونيه يومئذ الكاتب والشاعر والمؤرخ البار ، أبو بكر يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى ، المشهور بابن الصير في صاحب كتاب « الأنوار الجلية في تاريخ الدولة المرابطة » . تولى له منصب الكتابة ، فحظى لديه وكانت له فيه مدائح جمة^(١) . بيد أنه لم تمض بضعة أعوام على تولى تاشفين لمنصبه ، حتى صدر إليه مرسوم أبيه أمير المسلمين من مراکش في العشرين من رجب سنة ٥٢٦هـ^(٢) ، بتعيينه والياً لقرطبة وبأن يجعل قرطبة « دار سكنه ومقر مثواه » ، وأن يستخلف على غرناطة عند مغادرته ، أبا محمد الزبير بن عمر ، ليقوم بالولاية على شئونها . وقد كان الزبير هذا من زعماء المتونة المروقيين ، ويشيد ابن الخطيب بذكوره ويصفه « بندرة الزمان كرمًا وبسالة ، وحزمًا وأصالة »^(٣) . ويوصى أمير المسلمين ولده في هذا المرسوم الذى دججه قلم الوزير الكاتب أبي عبد الله بن أبي الخصال بقوله : « وعلى مقرر ما درك من العمل ، فازدد من التيقظ باتساع ذرعك ، وامتداد مسعاك ، واستعن بالله فى إعلانك وأسرارك ، وخذ من أوقات ليلك الأوقات المباركة ، واجعل لنظرك حظًا من سهرك ، ولفكرك مستمنحًا من يديك ، على مستظهر عين المشورة فى مواطن الاشتباه ، فإن الله سبحانه يقول لرسوله : « وشاورهم فى الأمر »^(٤) . ويستفاد مما تقدم أن على بن يوسف قرر أن ينقل مركز حكم الأندلس ، من غرناطة إلى قرطبة لأسباب رآها ، وهى أسباب ربما كانت سياسية وعسكرية فى نفس الوقت .

ودخل تاشفين قرطبة والياً فى شعبان من هذه السنة (٥٢٦هـ) ، وعزل واليها السابق عبد الله بن قنونة ، وسير إلى إشبيلية فاعتقل بها لأسباب لم توضحها الرواية ، وذلك بالرغم من قرابته للأمير المسلمين^(٥) .

-
- (١) ابن الخطيب فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣ الفزيرى لوحة ٤١٥) .
 (٢) والظاهر أن ابن خلدون قد اعتبر أن هذا المرسوم ، هو مرسوم تولية تاشفين ولاية الأندلس ، ولذلك فإنه يضع تاريخ توليته لهذا المنصب فى سنة ٥٢٦هـ (كتاب البرج ٦ ص ١٨٦) .
 (٣) ابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٤٥٨ .
 (٤) نقل إلينا صاحب البيان المغرب بعض محتويات هذا المرسوم (وقد وردت فى الأوراق المخطوطة السابقة الذكر - هسبرس ص ٩٥ و ٩٦) . وقد نشرنا فى باب الوثائق بعض فقراته .
 (٥) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٧٢) .

وقد استوفينا فيما تقدم ، ما وقفنا عليه من تفاصيل الغزوات والحروب التي قام بها الأمير تاشفين خلال وجوده في شبه الجزيرة . أما عن أعماله الإدارية وأسلوبه في الحكم ، فلم نلتق الكثير . وقد لخص لنا ابن الصيرفي مؤرخ الدولة المرابطية ، سيرته في ذلك في عبارات موجزة خلاصتها ، أن الأمير تاشفين عني منذ ولايته لشئون الأندلس بإصلاح الحصون ، وسد الثغور ، وإذكاء العيون على العدو ، وتنظيم الجيش ، واقتناء الخيل والسلاح ، وتكوين فرق الرماة ، وتوسيع الأرزاق على الجند ، واستنهاض هممهم ، كما عني بالغزو ومباشرة الحرب ، فقام بعدة غزوات توجت بالظفر على العدو ، وافتتح فيها عديد الحصون . وأما عن أسلوبه في الحكم ، فإنه سار في حكم الأندلس وتمهيد أحوالها بالحزم ، والزم العدل في معاملة الرعية ، وكذلك في معاملة الجند ، فملك قلوب الجميع بعدله وورقه ، « ولم يكن منه إلا الجند ، ولم تُنل عنده الخطوة إلا بالغناء والنجدة »^(١).

وهذه أقوال يؤيدها صاحب البيان المغرب ، ويحملها في قوله : « وساس (أى تاشفين) أهل الأندلس سياسة طار بها ذكره ، من الاستقامة ، واتباع ناموس الشريعة »^(٢).

وتنوه الرواية في نفس الوقت بصفات تاشفين الشخصية ، فتقول لنا إنه « كان بطلاً شجاعاً حسن الركبة والهيئة لولا بخل أدخل به ، وأنه كان يسلك طريق ناموس الشريعة ، ويميل إلى طريقة المستقيمين ، وقراءة كتب المريدين . وقيل إنه لم يشرب قط مسكراً ، ولا استمع إلى قينة ، ولا اشتغل بلذة صيد ، ولا غير ذلك مما يلهو به الملوك من ساير اللهو »^(٣) . وينوه ابن الصيرفي بورعه وتقواه ، وصيامه وقيامه^(٤).

لبث الأمير تاشفين والياً على الأندلس ، وقائداً عاماً للجيش المرابطية بها

(١) ابن الخطيب عن ابن الصيرفي ، في الإحاطة ج ١ ص ٤٥٦ ، وراجع أيضاً الخلل الموشية ص ٩٠ .

(٢) البيان المغرب في الأوراق المخطوطة المنقمة الذكر .

(٣) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هيسرس ص ٩٠) ، والإحاطة

ج ١ ص ٤٥٦ .

(٤) الإحاطة ج ١ ص ٤٥٧ .

حتى سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) وقيل بل حتى سنة ٥٣١ هـ^(١). وهو إلى جانب مهامه الإدارية يضطلع بالغزوات المستمرة في أراضي النصارى حسبما فصلناه من قبل . ثم وصلته أوامر أبيه أمير المسلمين بالعودة إلى المغرب ، فغبر البحر إلى العدو في أوائل جمادى الأولى من هذا العام (٥٣٢ هـ) ، ودخل مراكش في أول رجب ، وفي ركبته عدد كبير من سبي غزوة أشكونية حسبما تقدم ، فاستقبله أبوه أعظم استقبال ، وسعد بلقائه أو « فرح به » على قول المؤرخ . وكان مما يتصل بذلك ما يرويه لنا ابن عذارى ، من أن أمير المسلمين عليا ، كان قد مرض في العام السابق (٥٣٠ هـ) ، واشتد به المرض ، حتى كثرت الإشاعات ، وساءت الطنون ، وسرى القلق إلى بلاد الأندلس ، فلما تلقى تاشفين خطاب والده بالعود ، أسرع بالاستجابة والقفول^(٢). وفي العام التالي ، أعني في سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) أصدر أمير المسلمين علي بن يوسف مرسوم ولاية عهده لولده الأمير تاشفين ، عقب وفاة ولده الأكبر وولى عهده سير ، وأخذ له البيعة بذلك وفقاً للقاعدة التي وضعها مؤسس الدولة المرابطية يوسف بن تاشفين ، باختيار أمير المسلمين لولى عهده في حياته من بين أبنائه ، وعقد البيعة له .

ولاختيار تاشفين لولاية العهد قصة فصلتها الرواية ، وهى أنه في سنة ٥٢٢ هـ اختار أمير المسلمين علي بن يوسف ولده الأمير سيراً لولاية عهده من بعده^(٣) ، وجعل له الأمر في بقية حياته ، واختار في نفس الوقت ولده الأمير تاشفين لولاية الأندلس ، وولاه مدينة غرناطة وألمرية ، ثم قرطبة بالإضافة إلى ما في يده . وأبدى تاشفين في أداء مهام منصبه مقدرة وهمة مشكورة ، وظهر بالأخص في ميدان الجهاد ضد النصارى ، وذاع صيته في شبه الجزيرة وفي العدو ، فكبر ذلك على أخيه سير ولى العهد ، وخاطب سير أباه في ذلك ، وأعرب له عن قلقه وامتناعه لما ناله أخوه من بعد الصيت وحسن الذكر ، وأنه قد غطى بذلك على اسمه ، ونال إعجاب أهل المملكة ، وأنه لم يبق له معه اسم ولا ذكر ، فحاول أمير المسلمين أن يرضى ولده وولى عهده سير ، باستدعاء أخيه تاشفين من الأندلس ، ولما وصل تاشفين إلى مراكش ، نظمته أبوه في حاشية أخيه « وصار من جملة من يتصرف بأمر أخيه ، ويقف ببابه كأحد حجابيه » . وكان علي بن يوسف متأثراً

(١) « روص القرطاس » ص ١٠٧ . والإحاطة ح ١ ص ٤٥٤ و ٤٦١ .

(٢) البيان المنرب (الأوراق المخطوطة - هسرس ص ١٠٣) .

(٣) ابن القطان في نظم الجاه (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٣٤) .

في هذا التصرف بنفوذ حظيته قرأه ولده سير ، وكان عظيم الإيثار والإرضاء لها ، وهي التي حملته على عزل تاشفين وإخماله إرضاء لأخيه .

ولكن شاء القدر أن يتوفى سير فجأة وفي حادث مروع مشين معاً وذلك في أوائل سنة ٥٣٣ هـ . وتلتزم الرواية الإيجاز والتحفظ في شأن هذا الحادث ، ويقول لنا ابن عذارى ، إن سيراً كان يركن إلى الراحة والبطالة ، ويصطحب أهل الفكاهة والمجون ، وأنه اقتحم ليلاً على أخيه تاشفين في داره ، فضربه حتى مات ، وقبل غير ذلك . والظاهر ، وهو ما تصرح به بعض الروايات ، أن الأمر يتعلق بمحاولة مشينة ، فإن ابن القطان يقول لنا ، إن على بن يوسف كان قد فتن بولده سير ، وقدمه ولي عهده ، ولم يكن أهلاً لشيء ، فعكف على البطالة ، ودخل متسوراً على أخيه عمر يريد زوجته ، ففجر جراحة عجلت منيته ، ففزع عليه أبواه . وكان مصرع سير على هذا النحو في آخر صفر سنة ٥٣٣ هـ^(١) . وعندئذ تدخلت قمر مرة أخرى لتحمل على بن يوسف على تقديم ولده الأصغر إسحاق لولاية العهد ، وكانت قد تبنته وعينت بتربيته عند موت أمه . ولكن علياً اعتذر بصغر سنه وبأنه لم يبلغ الحلم ، وأنه سوف يستدعى الناس إلى الجامع لأخذ رأيهم في ذلك . واستدعى على الناس وأكابر المرابطين ، وعرض عليهم الأمر ، فهتفوا جميعاً باسم تاشفين ، فنزل على عند هذه الرغبة ، وعقد البيعة بولاية العهد لولده تاشفين وذلك في الثامن من شهر ربيع الآخر ، ونقش اسمه في السكة ، وقلده النظر في الأمور السلطانية ، وكتب إلى سائر بلاد العدو والأندلس ببيعته ، فوصلت البيعات من كل جهة مؤيدة للبيعة ، ومؤرخة بشهر رجب سنة ٥٣٣ هـ (١٣٨ م)^(٢) . على أن استدعاء الأمير تاشفين من الأندلس إلى العدو ، ثم أخذ البيعة له على هذا النحو ، لم يكن يرجع فقط إلى ما تقدم من العوامل والظروف ، وإنما كان راجعاً بالأخص إلى ما وقع في تلك الأثناء بالمغرب ، من تطورات وأحداث عظيمة ، ترتبت على ظهور المهدي محمد بن تومرت ، ودعوته الدينية الجديدة ، وما تلاها من قيام دولة الموحدين في تينملل ، واضطرار الصراع المير بينها وبين المرابطين . وهو ما سنغنى بذكره وتفصيله في موضع آخر .

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبرس ص ١٠٤) ، وابن القطان في نظم الجمان المخطوط السالف الذكر (لوحة ٨٢ ب) .

(٢) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبرس ص ١٠٤) . وابن الخطيب عن ابن الوراق في الإحاطة ج ١ ص ٤٥٤ ، ٤٥٥ .

الفصل السادس

شرق الأندلس

ولاية بلنسية ومرسية . يحيى بن غانية . نذبه به لحاية الشرق . أصله ونشأته . ولايته لشرق الأندلس . مسيره في القوات المرابطية لإنجاد حصن أرنية . تقدمه نحو طليطلة . ما تقوله الرواية النصرانية عن انصراف المرابطين . الغزوات في غرب الأندلس . أخبار الجزائر الشرقية ، ولاتها بعد الفتح المرابطي . وانور بن أبي بكر . محمد بن علي بن غانية . استقلاله بحكم الجزائر ، وقيام دولة بني غانية بها .

— ١ —

كان شرقي الأندلس في عهد المرابطين ، يشتمل بعد سقوط سرقسطة ، على ولايتي بلنسية ومرسية ، وكان يتبع بلنسية سائر الأراضي والقواعد الممتدة شمالاً من شاطبة حتى الثغر الأعلى ، ومن البحر غرباً حتى قونقة ، ويتبع مرسية سائر الأراضي والقواعد الواقعة على ضفتي نهر شقورة ، والممتدة جنوباً حتى ولاية ألمرية .

وقد سبق أن أتينا على ذكر ولاية بلنسية ومرسية ، منذ الفتح المرابطي حتى سقوط سرقسطة . وكان والي مرسية قبيل سقوط سرقسطة ، الأمير أبو إسحق إبراهيم ابن يوسف بن تاشفين ، أخو أمير المسلمين علي بن يوسف ، وكان والي بلنسية أخوه الآخر الأمير أبو الطاهر تميم . وقد فصلنا في حديثنا عن سقوط سرقسطة ، الدور الذي قام به الأمير تميم في حوادث الحصار ، والدور الذي قام به أخوه إبراهيم في موقعة كسندة المشثومة (٥١٤ هـ) وهو يومئذ والي إشبيلية .

وخلف الأمير إبراهيم في ولاية مرسية ، أبو محمد يدّر بن ورقا ، وأوحسبها يسميه صاحب البيان المغرب محمد بن يوسف يدّر ، والظاهر أنه تولى في نفس الوقت ولاية بلنسية . ولما شعر يدّر باشتداد وطأة الغزوات النصرانية ، في شرق الأندلس ، طلب إلى أمير المسلمين علي بن يوسف ، أن يوجه إليه يحيى بن غانية لمعاونته ، فاستجاب أمير المسلمين إلى طلبه ، وبعث إليه بآبن غانية ، وكان ذلك في سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) . ويقول لنا صاحب البيان المغرب إن ابن غانية ،

وفد عندئذ إلى شرقى الأندلس والياً لمرسية^(١) . ولكن الظاهر أنه قدم إليه بصفة قائداً للجيش المرابطية ، وأنه لم يتشج بثوب الولاية إلا فيما بعد ، حينما توفى يدّر في سنة ٥٣٤ هـ^(٢) .

وهو الأمير أبو زكريا يحيى بن علي بن غانية الصحراوي ، الذي لعب فيما بعد في حوادث الأندلس في أواخر العهد المرابطي ، أعظم دور ، واضطلعت أسرته — بنو غانية — فيما بعد ، في الجزائر الشرقية ، وفي إفريقية ، ضد الموحدين ، بأخطر صراع . وقد سُمّي بنو غانية ، باسم أمهم غانية ، وهي لمتونية من قرابة يوسف بن تاشفين ، وربما كانت تسميتها بهذا الاسم دلالة على أصلها الإقليمي ، أو بعبارة أخرى نسبة إلى بلاد غانة ، وهي التي افتتحها المرابطون عند مطلع نهضتهم في مشارف الصحراء الكبرى . وتلقب الولد باسم الأم دون الأب ، من الأمور الدائعة في أسر لمتونة ، خصوصاً متى كانت الأم تمتاز بصفاتها وخلالها العالية . ولدنا من ذلك أمثلة أخرى ، مثل الأمير محمد بن عائشة ، ولد يوسف ابن تاشفين ، والقائد محمد بن فاطمة . وكان والد يحيى ، علي بن يوسف ، من زعماء قبيلة مسوفاة أحد بطون صنهاجة . وربى يحيى وأخوه محمد ، الذي ولى حكم الجزائر الشرقية فيما بعد ، في بلاط مراکش ، في عهد يوسف وولده علي ، ثم عبر يحيى إلى الأندلس وهو فتى ، وعاش في كنف الأمير أبي عبد الله محمد بن الحاج اللمتوني ، وإلى قرطبة في أواخر عهد يوسف ، وتزوج أمه غانية بعد وفاة أبيه علي ، فندبه لحكم مدينة إستجة ، فكانت أول ولاية أسندت إليه . ولما تولى علي بن يوسف الأمر بعد أبيه ، عزل ابن الحاج عن ولاية قرطبة ، لانضمامه إلى الخوارج عليه ، المناصرين لابن أخيه يحيى بن أبي بكر وإلى فاس ، وقد ذكرنا خبر خروجه في بداية حكم علي وفشل ثورته ، فانفصل عندئذ يحيى بن غانية عن ابن الحاج وجماعته . ثم عفا علي عن ابن الحاج وغيره من القادة الموالين ليحيى ، وعن ابن الحاج لولاية المغرب مكان أخيه أبي الطاهر تميم بن يوسف ، الذي وُلّي حكم الأندلس ، ثم نُدب ابن الحاج بعد ذلك لولاية بلنسية ، ومنها سار إلى سرقسطة ، وقد فصلنا أخباره وغزواته فيما تقدم .

ولسنا نجد في الأعوام التالية ، أثراً لأخبار يحيى بن غانية ، بين مختلف

(١) ابن عذارى في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة هسبرس ص ٨١) .

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ الغزيري) لوحة ٣٩١ .

الولاية . والظاهر أنه كان عندئذ ينتظم في قيادة الجيش ، لما ظهر من فائق شجاعته وبراعته . ثم كان ندبه لولاية مرسية ، أولمعاونة واليا يدّر في سنة ٥١٥هـ (١١٢١ م) حسبها تقدم . ومن ذلك الحين يلمع اسم يحيى في حوادث شبه الجزيرة لمعانا شديداً ، فهو يقوم بقيادة الخيوش المرابطة في شرق الأندلس بكفاية وبراعة ، وهو يكرر الغزو لأراضي النصارى في أراجون وقطالونية ، وقد كان له فيما يبدو دور ملحوظ في مقاومة قوات ألفونسو المحارب حينما اخترق شرق الأندلس ، في غزوته التي قام بها استجابة للنصارى المعاهدين (سنة ٥١٩هـ) ومر فيها بأراضي بلنسية ، واجتاز إلى جزيرة شقّر ، وقاتل أهلها أياماً ، ثم تحول إلى دانية ، واتجه بعد ذلك صوب شاطبة ومرسية . وقاومه المسلمون أينما حل . ولما توفي يدّر والى بلنسية ومرسية في سنة ٥٢٤هـ ، كما تقدم ، ولّى يحيى على شرق الأندلس^(١) ، بيد أنه كان أكثر انشغالا بشئون الحرب والقيادة ، وكان ينبغ عنه في حكم بلنسية ومرسية أخاه لأمه ، المنصور بن محمد بن الحاج . ولما حاصر ألفونسو المحارب إفراغة ، هرع يحيى في قواته لإنجاده ، مع من هرع إليها من ولاية الأندلس الآخرين . وقاد يحيى قوات الإنجاد في المعركة التي نشبت تحت أسوار إفراغة بشجاعته وبراعته المأثورتين ، فكانت الهزيمة الساحقة على النصارى في رمضان سنة ٥٢٨هـ (بوايه سنة ١١٣٤ م) حسبها فصلنا ذلك في موضعه^(٢) .

ولبث يحيى بن غانية ، بعد موقعة إفراغة ، والياً على شرق الأندلس بضعة أعوام أخرى . وتقص علينا الرواية الإسلامية قصة غزوة أخرى ، في الأراضي النصرانية ، اشترك فيها ابن غانية . وخلاصتها أن القشتاليين ضربوا الحصار بقوات كثيفة ، حول حصن « أرنية » أو أرلبة^(٣) الواقع شرق طليطلة ، على الحدود بين ولاية قونقة وقشتالة ، وكان من أمتع الحصون الإسلامية في تلك المنطقة ، وضيق النصارى على حامية الحصن ، وقطعوا عنها الأقوات ، فنهض والى قرطبة الأمير عبد الله بن أبي بكر ، واستمد الأمير تاشفين ، واستمد في نفس الوقت يحيى بن غانية والى مرسية وبلنسية ، وهرعت القوات المرابطة ، من قرطبة ومرسية ومن

(١) ولكن ابن عذارى يقول لنا إن الذي ولى على شرق الأندلس بعد وفاة يدّر ، هو نينتان بن على المتوفى (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هيسيرس ص ٩١) .

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٩١) . وراجع

Gaspar Remiro : Murcia Musulmana (Zaragoza 1905) p° 152—154.

(٣) وهو الحصن الذي يسمى بالإسبانية حصن Oreja ، أو حصن أورليا Aurelia .

إشبيلية ، واجتمعت تحت قيادة ابن غانية ، وسارت بسرعة لإنجاد الحصن وإمداده بالمؤن . واستعد القشتاليون للقاء المسلمين بقوات جديدة . ويضع صاحب البيان المغرب تاريخ هذا الحصار في سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م)^(١) . ولكن الرواية النصرانية ، تضعه بعد ذلك بعدة أعوام في سنة ١١٣٧ م . وليس هنالك في الرواية الإسلامية ، ما يدل على أن موقعة حدثت في هذا الموطن بين المسلمين والنصارى . وكذلك فإن الرواية النصرانية ، تقول لنا إن هذا اللقاء بين المسلمين والنصارى في أراضي طليطلة ، انتهى إلى خاتمة تنسم بالفروسة . وذلك أن الجيش المرابطى ، وقد كان وفقاً لأقوال هذه الرواية ، يتكون من ثلاثين ألف فارس ، سار من طريق طليطلة . وكان ملك قشتالة ألفونسو السابع (ألفونسو ريمونديس) قد عهد بحماية طليطلة إلى حامية قوية تشرف عليها زوجه الملكة برنجيلا ، فلما وصل الجيش المرابطى إلى ظاهر أسوار طليطلة ، خرجت الملكة برنجيلا إلى شرفة « القصر » العالى المطل على نهر التاجه ، وبدأت للقادة المسلمين مع وصافئها ، وقد ازدانت بأفخر الثياب والحلى ، وبعثت إلى ابن غانية رسولها ، يؤنبه بلسانها لأنه قدم لمهاجمة بلد تدافع عنه امرأة ، في حين أن الإمبراطور ينتظرهم في جيشه عند حصن أرنبه (أورينجا) ، فدهش ابن غانية وزملاؤه القواد المسلمون ، وأخذوا بذلك المنظر ، ولم يسمعهم إلا أن ينحنوا قبالة الملكة المطلة عليهم ، تكرماً لها وتعظيماً ، ثم استأنفوا سيرهم ، دون أن يقوموا بأية محاولة . أما حامية حصن « أرنبه » فقد اضطرت في النهاية إلى التسليم (أكتوبر سنة ١١٣٧ م) ولكن سمح لها أن تخرج بالأمان وأن تسير إلى قلعة رباح^(٢) .

وهكذا يبدو مما تقدم ، أنه لم تقع في شرق الأندلس ، في الفترة التي تلت سقوط سرقسطة ، وموقعة كسندة ، حوادث خاصة بهذه المنطقة ، سوى الغزوات المحلية العارضة ، والتي لم تقدم إلينا الرواية عنها تفاصيل شافية ، وقد كان شرق الأندلس ، يردد صدى الحوادث العامة في شبه الجزيرة ويشترك فيها ، كما تشترك باقي الولايات الأندلسية ، وقد كانت الجيوش المرابطية كلها ، سواء في شرق الأندلس أو غربه ، تعمل دائماً في حركات موحدة شاملة .

أما عن أخبار الغزوات في الناحية الأخرى من الأندلس ، فإن الرواية

(١) البيان المغرب (الأوراف المخطوطة المشار إليها - هيسيرس ص ٩٤) .

(٢) راجع : A. P. Ibras : Valencia Arabe (cit. Crónica Adefonsi Imperatoris)

الإسلامية تقدم إلينا بعض التفاصيل الموجزة ، عن بعض الأحداث التي وقعت عقب مغادرة تاشفين بن علي لشبه الجزيرة . ومن ذلك أن الزبير بن عمر وإلى قرطبة ، خرج في قواته غازياً لأرض النصارى ، وافتتح حصن مورة (سنة ٥٣٣ هـ) . وفي نفس العام ردت قوات شنترين وبابرة عسكرياً من النصارى (البرتغاليين) حاول غزو الأراضي الإسلامية ، وقتلت وأسرت منه حملة وافرة ، واحتوت على أسلابه . وفي أواخر هذا العام غزا ألفونسو ريمونديس ملك قشتالة أرض الأندلس ، وحاصر حصن إربلية ، فسارت قوات الأندلس من مختلف الأنحاء لردده وإنجاد الحصن ، ولكنها تخلفت في الطريق ، ثم عادت من حيث أتت ، واضطر الحصن ، بعد أن أرهق الحصار أهله إلى التسليم^(١) .

تحدثنا فيما تقدم من أخبار أمير المسلمين على بن يوسف ، عما وقع في أوائل عهده من استرداده للجزائر الشرقية (جزائر البليار) من البيزيين والحنويين في أواخر سنة ٥٠٩ هـ (١١١٦ م) . ولما كانت الجزائر الشرقية ، تلحق دائماً بشرق الأندلس ، فإنه يجدر بنا أن نتناول هنا ، طرفاً من أخبارها في تلك الفترة .

وقد ذكرنا عندئذ ، أن أمير المسلمين عين لولاية الجزائر عقب استردادها ، وانور بن أبي بكر اللمتوني^(٢) بيد أنه يبدو من بعض الرسائل السلطانية المرابطية التي بين أيدينا ، أنه قد سبقت ولاية وانور ولاية قصيرة الأمد للقائد أبي السداد وإلى دانية . ففي رسالة صادرة عن علي بن يوسف من حضرة مراکش ، في الحادى والعشرين من ربيع الأول سنة ٥١٠ هـ ، أعنى عقب استرداد الجزائر ببضعة أشهر ، يشير أمير المسلمين إلى موت القائد أبي السداد وإلى ميورقة ، ويسند ما كان تحت نظره إلى واليها الحديد ، ويسدى إليه النصيح بأن يحسن السيرة في أهل الجزيرة ، وأن يسلك طريق الرفق والعدل والحق ، وأن يستعمل الحزم في ضبط أحوالها ، وأن يسعى في استرجاع من خرج من أهلها ، وأن يستنيب من يرضاه في النظر على الأسطول والاستخلص بثغر دانية ، وأن يبذل جهده في

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف الذكره لوحة ٨٢ ب) .

(٢) هذه رواية ابن خلدون في كتاب العبر ج ٤ ص ١٦٥ .

استمالة الناس . وهدئة روعهم ولاسيما بعد الذي « أحدثه السفیه المعتوه ابن أبي السداد من إباحشهم وترويعهم »^(١) .

ويستفاد من هذه الرسالة أن القائد ابن أبي السداد . وقد كان والياً لثغر دانية ، حسباً تقدم ذكره ، قد ولى على ميورقة عقب استردادها في أواخر سنة ٥٥٩ هـ ، وأنه توفي بعد قليل من ولايته ، وأنه لم يحسن السيرة مع أهل الجزائر خلال ولايته القصيرة . وعلى أثر وفاته ، قام أمير المسلمين على بن يوسف باختيار خلف له . وبالرغم من أن اسم الوالي الجديد لم يرد في الرسالة . ولا في ديباجتها . فإنه يبدو من المرجح أنه لم يكن سوى وانور بن أبي بكر . وهو أول وال حقيقي ، ولها عقب الاسترداد . أما إغفال أبي السداد في رواية ابن خلدون وغيره . فالظاهر أنه يرجع إلى قصر ولايته . التي لم تتجاوز بضعة أشهر .

ولبت وانور بن أبي بكر والياً على الجزائر زهاء عشرة أعوام . وكان ظلوماً صارماً ، فعصف بأهل الجزائر واشتد في إرهابهم . وكان من أهم أسباب سخطهم عليه . أنه أراد أن يرغمهم على ترك ثغر ميورقة ، وإنشاء مدينة أخرى داخل الجزيرة . تكون بعيدة عن البحر . وأخيراً اضطرت الجزيرة بالثورة وغلب الثوار على وانور ، وقبضوا عليه ووضعوه في الأصفاد . وبعثوا إلى أمير المسلمين يشرحون أحوالهم وظلاماتهم ، فاستجاب على إلى صريحهم . وعين والياً جديداً للجزائر ، هو محمد بن علي بن غانية المسوّي . أخو يحيى بن غانية الأصغر . وكان عندئذ ينول النظر على بعض أعمال قرطبة . فقدم إلى الجزائر في سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، وأقر أهلها على ما فعلوه بواليهم السابق وانور . وبعثه مصفداً إلى مراکش لينظر هنالك في أمره^(٢) .

وقد شاء القدر أن يكون تعيين محمد بن غانية لولاية الجزائر الشرقية . ممهداً لتطور أحوالها . ودخولها في عهد جديد من تاريخها . وقيام دولة جديدة مستقلة بها . هي دولة بني غانية . ذلك أن محمد بن غانية ضبط الجزائر ، وحكمها بقوة وحزم . وطالت أيامه بها . حتى توفي أمير المسلمين على بن يوسف

(١) وردت هذه الرسالة ضمن مجموعة من الرسائل المرابطية نشرت بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدرية بنابه الدكتور محمود مكي (العدد السادس) سنة ١٩٦١ ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ . والمعجب للمراكشي ص ١٥١ . ١٥٢ . وراجع أيضاً .

A. Campaner y Fuertes : Bosquejo Hist. de la Dominación Islámica en las Islas Baleares; p.137 وكذلك : Alfred Bel : Les Benou Ghania (Paris 1903) p. 58-18

(٥٣٧ هـ) ، واضطربت أحوال الدولة المرابطية في المغرب ، وقامت الثورة في أنحاء الأندلس على المرابطين ، وولى أخوه يحيى بن غانية قرطبة وما إليها من قبل تاشفين بن علي بن يوسف في سنة ٥٣٨ هـ ، وأخذ نخوض من ذلك التاريخ مع الثوار ومع النصاري ، حروباً ووقائع مستمرة ، إلى أن توفي بغرناطة في سنة ٥٤٣ هـ . وفي خلال ذلك كان محمد بن غانية ، يعمل في مركزه النائي على توطيد سلطانه بالجزائر والاستقلال بها لنفسه ولعقبه . ومع ذلك فقد لبث على ولائه للدولة المرابطية وزعامة لمتونة ، واستمر يدعو في الخطبة لأمر المسلمين ، ولبنى العباس . وكان خلال اضطرام الفتنة بالأندلس يستقبل اللاجئين من فلول المرابطين بالجزائر ، ويشملهم بحمايته ورعايته .

ولست لدينا تفاصيل شافية عن حوادث الجزائر في تلك الفترة . ويبدو أنها كانت تجوز عندئذ فترة استقرار وسلام ، بعيدة عما تجيش به شبه الجزيرة من الحوادث والخطوب . وكان محمد بن غانية حينما شعر بتوطيد سلطانه ، وتمكن استقلاله بحكم الجزائر ، قد اختار لولاية عهده ولده الأكبر عبد الله . وهنا تختلف الرواية ، ف قيل إن عبد الله خلف أباه بعد وفاته على حكم الجزائر ، ثم خلفه بعد وفاته أخوه الأصغر إسحاق . وقيل إن إسحاق حقد على أخيه عبد الله حينما عين لولاية العهد ، ودبر مؤامرة قتل فيها أخوه وأبوه ، وتولى هو على أثرها حكم الجزائر ، وذلك في سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م)^(١) .

ونحن نقف في تتبع أحداث الجزائر الشرقية عند هذا الحد ، لنستأنفه في فرصة أخرى في موضعه المناسب .

(١) المراكشي في المعجب ص ١٥٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ ، وكذلك : A. Bel :

الكتاب الثاني
المهدي محمد بن قمر
والصراع بين المرابطين والموحدين
وقيام الدولة الموحدية بالمغرب

الفصل الأول

محمد بن تومرت

نشأته وظهوره

- حركة ابن تومرت وخصائصها المحلية . أول ظهور لابن تومرت في مراکش . أصله ومولده . معنى كلمة « تومرت » . نسبته البربرية . انتسابه إلى آل البيت . ما يحيط بهذه النسبة من الريب . نشأته . رحلته في طلب العلم إلى الأندلس ، ثم المشرق . قصة لقائه بالإمام الغزالي . سقم هذه القصة وبطلانها . ما ينقصها من الناحية الزمنية . ما يطبعها من ألوان الأسطورة . نفي البحث الحديث لصحتها . تأثر ابن تومرت بتعاليم الأشعرية وبآراء الغزالي . عودته بعد إتمام دراسته إلى المغرب . دعوته إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . نزوله بالمهدية . سفره إلى بجاية . ما وقع بها من هرج من جراء دعايته لإزالة المنكر . المناظرة بينه وبين طلبتها . مغادرته لبجاية ، ونزوله بملالة . لقاءه بعبد المؤمن بن علي وما يقال في ذلك من روايات وأساطير . مسيره إلى وانشرش ثم إلى فاس بمكناسة . نظرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . تفسيرها وفقاً لابن حزم . تعليق العلامة جولدسيهر على النظرية . نزول ابن تومرت بمراكش . استمراره في حملته دون هوادة . مظاهر الخلل والفساد في العاصمة المرابطية . تعرضه لأخت الأمير وما وقع بسبب ذلك من الهرج . أمير المسلمين يأمر بمنظرته . قبول ابن تومرت . ما وقع في هذه المناظرة . الأصول والفروع . تحريض الفقهاء للأمير على قتل ابن تومرت . اقتصره على اعتقاله ثم نفيه من مراکش . مسيره إلى إغيات ثم إلى السوس . تجوله في بلاد المصامدة . نزوله ببجل إيجلين في هرغة . عكوفه على بث دعوته والتبشير بنظرية المهدي . إعلانه لإمامته وأنه هو المهدي . مبايعة أصحابه له بهذه الصفة . أصحاب المهدي ومراتبهم . تلقيبه بالمهدي والإمام المعصوم . ملخص شريعته . وضعه لكتب الدعوة لأصحابه . ما يدل على أن ابن تومرت كان يفسر مشروعه ويعمل له .

ننتقل الآن إلى ناحية أخرى من تاريخ الدولة المرابطية ، وهي ناحية طارئة عليها ، وقد شاء القدر بأن تحول وجهة سيرها من التقدم والتوطد ، إلى الإدبار والانحلال المفاجئ ، فبينما هي في أوج قوتها ورسوخها ، إذا بها تجد نفسها فجأة أمام فورة دينية صغيرة ، يضطلع بها فقيه متواضع ، وتضطرم بسرعة مدهشة ، حتى تغمر كل شيء فيها ، وتستغرق كل قواها ومواردها ، ثم تنتهي بعد صراع قصير الأمد ، بالقضاء عليها : تلك هي ثورة المهدي ابن تومرت .

إن التاريخ الإسلامي ، قلما يقدم إلينا حركة أكثر تواضعاً في بدايتها ، وأبعد مدى في نتائجها ، من تلك الحركة التي قام بها محمد بن تومرت السوسي ، المتشعب بثوب المهدي ، والتي أسفرت عن قيام دولة من أعظم الدول الإسلامية ،

وأضعفها رقعة ، وأعظمها قوة وسلطانا ، هي الدولة الموحدية الكبرى .
ولقد كانت حركة ابن تومرت هي الثانية من نوعها في الغرب الإسلامي .
وكانت الأولى هي حركة الشيعة ، التي أسفرت عن قيام الدولة الفاطمية في
إفريقية (تونس) ، والتي كان زعيمها الروحي وأول خلفائها عبدالله يذبح كذلك
بثوب المهدي المنتظر . وبالرغم من أن الدولة الفاطمية قد انتقلت بعد ذلك إلى
مصر ، فإن نشاطها وفتوحاتها ، وسلطانها الروحي والسياسي . قد استمرت
بالمغرب رديحاً من الزمن ، على يد ولاتها من القبائل البربرية ، التي كانت هي الماد .
الأدمية التي استندت إليها في قيامها وتوطدها بالمغرب .
بيد أن حركة المهدي ابن تومرت هي حركة مغربية مستقلة . لم تنبعث كما هو
الشأن في قيام الدولة الفاطمية . من الدعوة الشيعية المشرقية . وإن كانت مع ذلك
تستند إلى نظرية المهدي المنتظر . وهي بذلك تمتاز بتخصصها القوي وصبغتها
الحلمية البربرية العميقة . كما تمتاز بأساسها الديني الواضح . الذي انبعثت منه .
قبل أن تتطور بسرعة إلى حركة سياسية . يزعّمها الإمام المعصوم والمهدي
المنتظر . وهي تتجه في خصوصيتها المذهبية إلى الصراع الحلي المحض . وتستمد
لمقوماتها العوامل الدينية المحلية . التي اختص بها المغرب منذ عصور .
ثم هي فوق ذلك تمثل معركة قومية داخلية . تضطرم بين فريقين من القبائل
البربرية . تستظل كل منهما بشعارها الديني الخاص . فتد رأينا كيف قام
المرابطون في البداية للجهاد في سبيل الله . وإحياء السنة ومحاربة البدع والضلالات .
والانحراف عن أحكام الإسلام . وقد كان يومئذ يسود كثيراً من القبائل البربرية .
ثم رأينا كيف استقرت رئاسة الدولة المرابطية في قبيلة لمتونة . وحلباتها كدالة
ومسوفة وغيرها من بطون صنهاجة . وكذلك فإن حركة ابن تومرت . قامت
في البداية على شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وبدأت رياسته السياسية
في وطنه بالسوس الأقصى . وفي قبيلته هرّغة . وغيرها من بطون مصوودة .
وإذن فقد كانت المعركة بين المرابطين والموحدين . تصطبغ في نفس الوقت
بالصبغة الدينية والقومية .

في أواخر سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) وقعت بمدينة مراكش أول بادرة
مؤذنة ببداية الثورة الدينية التي اضطلع بها محمد بن تومرت ضد الدولة المرابطية .

ففي ذات يوم جمعة ، من هذه السنة ، دخل إلى المسجد الجامع رجل صغير القد ، متواضع الهيئة ، وجلس على مقربة من المحراب بإزاء الموضع المخصص لجلوس أمير المسلمين ، فلما اعترض على ذلك بعض سدة الجامع ، تلا الآية « إن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » . ولما حضر أمير المسلمين على بن يوسف ، نهض سائر الحضور ، إلا ذلك الرجل ، فلما انتهت الصلاة بادر الرجل بالسلام على عليّ ، وقال له فيما قال « غير المنكر في بلدك ، فأنت المستول عن رعيتك » وبكى . فلم يجبه أمير المسلمين بشيء . ولما عاد إلى القصر سأل عنه ، فقيل له إنه قريب العهد بالوصول ، وهو يؤلف الناس ويقول لهم إن السنة قد ذهبت ، فأمر على بن يوسف ، وزيره عمر بن يثت أن يكشف عن أمره ومقصده ، فإن كانت له حاجة ينظر في قضائها ، فقال الرجل ليس لي حاجة ، وما قصدي إلا تغيير المنكرات^(١) .

كان هذا الرجل هو محمد بن تومرت ، وكان قد آب من رحلته إلى المشرق . ونزل بمراكش ، بعد أن طاف ببعض مدن المغرب الشمالية ، وهو يدعو للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وأصل هذا الرجل من قبيلة هرغة إحدى بطون مصمودة الكبرى ، من قوم بها يعرفون « بایسرغین » وهم الشرفاء في لغة المصامدة . وقد ولد بضیعة ، تقع في جنوبي السوس الأقصى ، تسمى « بإجلی ان وارغن »^(٢) . وقد اختلف في تاريخ مولده . وتضعه الرواية فيما بين سنتي ٤٧١ هـ ، و ٤٩١ هـ ، ويقول لنا ابن الأثير إنه توفي في سنة ٥٢٤ هـ عن إحدى وخمسين عاما أو خمسة وخمسين عاما ، مما يجعل تاريخ مولده في سنة ٤٦٩ هـ ، أو ٤٧٣ هـ ، ويضع ابن خلكان تاريخ مولده في العاشر من محرم سنة ٤٨٥ هـ ، وابن الخطيب في سنة ٤٨٦ هـ ، وابن سعيد في سنة ٤٩١ هـ ، ويضعه الغرناطي في سنة ٤٧١ هـ ، وهو أقدم تاريخ ينسب إليه مولد ابن تومرت^(٣) . وأما عن نسبته فإن الرواية أشد تباينا واختلافاً . ومن المتفق عليه أنه أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، ووالده من أهل السوس ، وكان أبوه رجلاً فقيراً ، وأمه من قوم يعرفون ببني يوسف من مسكالة من عمل السوس ، وبنو يوسف هم أخواله ، ومولده

(١) البيان المغرب (في الأوراق المخطوطة التي عثرنا بها) .

(٢) المعجب ص ٩٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٤ و ٢٢٥ .

(٣) يراجع في مولد ابن تومرت ، الزركشي في تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (تونس

١٢٨٩) ص ١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٥ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٥٢ .

بموضع يسمى « نومكران » ، وهو موضع لا ماء فيه . وإنما يشرب أهله من ماء المطر . وهناك كانت دار أسرته^(١) . وكان يقال لوالده تومرت وأمغار ، ومعناه في لغة المصامدة ، الضياء الذي يوقد في المسجد : ومن ثم فقد عرفه التاريخ باسمه الذائع . وهو محمد بن تومرت . كما عرفه بلقبه الديني وهو المهدي . ويفسر لنا مؤرخه « البيذق » معنى كلمة « تومرت » التي لصقت بأبيه ، فيقول لنا ، إن اسم أبيه عبد الله ، شهر في صغره إلى كبره « بتومرت بن وجلّيد » . وذلك أنه لما ولد فرحت به أمه وسرت ، فقالت باللسان الغربي « آتومرت آينؤ آيسك آيبوى » ، ومعناه : يا فرحتي بك يا بني . وكانت إذا سئلت عن ابنها وهو صغير ، تقول باللسان الغربي « يك تومرت » ، معناه صار فرحاً وسروراً . فلب عليه اسم تومرت . وترك دعاؤه باسم عبد الله الذي سمي به أولاً^(٢) .

ومن المحقق الذي لا يقبل ذرة من الجدل . أن ابن تومرت بربري الجنس ينتسب إلى هرّعة ومصمودة . ومع ذلك فإنه نظراً لانتحاله صفة المهدي والإمام المعصوم ، لم يعدم رواية تنسبه لآل البيت ، إذ لابد ، وفقاً لأسطورة المهدي المنتظر ، أن يكون المهدي منهم . ومن ثم فإننا نجد إلى جانب نسبة ابن تومرت البربرية المحضة . نسبة أخرى ترجعه إلى آل البيت . أما نسبته البربرية فهي أنه محمد بن تومرت بن نيطاوس بن ساولا بن سفيون بن أنكليدس بن خالد . أو أنه محمد بن عبد الله بن وجلّيد بن يامصال بن حمزة بن عيسى . وهذه النسبة الثانية تمتد بعد ذلك على يد بعض الرواة إلى آل البيت على النحو الآتي : ابن عبيد الله ابن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله^(٣) . وأما نسبته العربية العلوية فهي أنه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد ابن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن ياسر ابن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب . ويؤيد هذه النسبة ابن رشيق في شجرة أنساب الخلفاء والأمراء . وابن القطان . وابن صاحب الصلاة ، ومؤرخا

(١) ابن المطان في « نظم الخيام » (المخطوط السابق ذكره لوجه ١٤ ب) .

(٢) كتاب « أخبار المهدي ابن سمرق وأبداء دولة الموحدين » لابن بكر الصنهاجي المكنى بالبيذق . المنشور بعناية الأستاذ ليبي بروينسال (باريس سنة ١٩٢٨) ص ٣٠ ، وقد قرنت به ترجمة فرنسية .

(٣) أخبار المهدي بن تومرت ص ٢١ .

الدولة الموحدية^(١)، ويقول لنا المراكشي، إنه رأى بخط المهدي نسبه المتصلة بالحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب^(٢).

بيد أنه يوجد إلى جانب ذلك من المؤرخين، من ينكر هذه النسبة على ابن تومرت ويعتبره دعياً فيها. ومن هؤلاء ابن مطروح القيسي، وهو يصف ابن تومرت بأنه «رجل من هرغة من قبائل المصامدة يعرف بمحمد بن تومرت الهرغي». وقال بعضهم إنه من قبيلة جنميسة^(٣).

ونحن لا نرى في هذه النسبة العربية النوية التي يدعيها ابن تومرت لنفسه، والتي يؤيدها بعض المؤرخين من أولياء الموحدين وكتاب دولتهم، إلا نحلة باطلة، وثوباً مستعاراً، أراد به ابن تومرت أن يدعم به صفة المهدي التي انتحلها شعاراً لإمامته ورياسته الدينية والسياسية، ومما يافت النظر أن كثيراً من القبائل والأسر البربرية التي تشق طريقها إلى السلطان، تحاول دائماً أن تنتحل الأنساب العربية، كما هو الشأن في بني حمود الذين يرجعون نسبهم إلى آل البيت، وفي قبيلة صنهاجة وهي الأم الكبرى للمتونة، صاحبة الرياسة في الدولة المرابطية، فإنها تزعم أنها تنتمي في الأصل إلى العرب اليمنية^(٤).

وليست لدينا أية تفاصيل شافية عن نشأة ابن تومرت وحدثاته. وكل ما يقال لنا من ذلك أنه نشأ في بيت نسل وعبادة، وشب قارئاً محباً للعلم، وكان يسمى في حديثه «أسافور»، ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج القناديل بالمساجد التي يلازمها^(٥). ولكن الرواية تتبع سيرة حياته منذ سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م)، ففي تلك السنة، أو السنة التالية (٥٠١ هـ) حسبما ينقل إلينا ابن القطان، عن الشيخ يحيى ابن وسنا من أهل خمسين أصحاب المهدي — غادر ابن تومرت وطنه بالسوس في طلب العلم، وعبر البحر إلى الأندلس، ودرس في قرطبة حيناً، ثم جاز من ثغر ألمرية إلى المشرق^(٦)، ومر في طريقه على المهدية، وأخذ بها على الإمام المازري، ثم قصد إلى الإسكندرية ودرس بها على الإمام أبي بكر الطرطوشي، وقضى

(١) الحلل الموشية ص ٧٥، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٥ و ٢٢٦، والركشي ص ١.

(٢) المعجب ص ٩٩.

(٣) روض القرطاس ص ١١٠.

(٤) روض القرطاس ص ٧٥.

(٥) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦.

(٦) ابن القطان في «نظم الجمان» (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٢).

بعد ذلك فريضة الحج ، ثم سافر إلى بغداد ، وهناك درس الفقه والأصول على أبي بكر الشاشي الملقب بفخر الإسلام ، ودرس الحديث على المبارك بن عبد الجبار وغيره^(١). وفي بعض الروايات أن ابن تومرت لقي الإمام أبا حامد الغزالي ودرس عليه في بغداد ، وقيل بل لقيه بالشام أيام تزهده^(٢). ونحن نقف قليلا عند هذه الرواية ، التي يرددها كثير من مؤرخي المشرق والمغرب ، إذ منى وأبن كان هذا اللقاء ، وفي أي الظروف ؟ لقد خرج ابن تومرت من وطنه في طلب العلم في سنة ٥٠٠ أو ٥٠١ هـ ، وقضى فترة في الأندلس ، وفي المهديّة ، وفي الإسكندرية ، ثم سافر لقضاء فريضة الحج ، وقصد على أثر ذلك إلى بغداد ، وإذن فيكون من المرجح أنه لم يصل إليها قبل سنة ٥٠٤ أو ٥٠٥ هـ . وقد كان الإمام الغزالي ببغداد يضطلع بالتدريس في المدرسة النظامية بين سنتي ٤٨٤ و ٤٨٨ هـ (١٠٩١ - ١٠٩٥ م) . وفي سنة ٤٨٨ هـ غادر العاصمة العباسية ، في رحلته التأميلية الشهيرة التي استطلعت حتى سنة ٤٩٩ هـ ، والتي زار فيها دمشق وبيت المقدس والإسكندرية ومكة والمدينة . وإذن فيكون من المستحيل ماديا ، أن يكون ابن تومرت الذي غادر وطنه لأول مرة في سنة ٥٠٠ هـ ، قد استطاع أن يلتقي بالغزالي في بغداد أو غيرها من المدن التي زارها في خلال رحلته ، ثم إنه ليس من المحتمل أن يكون هذا اللقاء قد وقع عند عودة الغزالي إلى بغداد . ذلك أنه لم يمكث بها سوى فترة يسيرة ، ثم رحل منها إلى نيسابور حيث قام بالتدريس فيها استجابة لدعوة السلطان ملك شاه ، ثم غادرها بعد قليل إلى مسقط رأسه طوس ، وانقطع بها للعبادة والتأليف حتى توفي في جمادى الثانية سنة ٥٠٥ هـ (ديسمبر سنة ١١١٢ م) .

ويتضح من ذلك جليا بطلان قصة اللقاء بين ابن تومرت والإمام الغزالي من الناحية التاريخية . فضلا عن ذلك فإنه يوجد دليل مادي آخر على بطلان هذه القصة أو الأسطورة . ذلك أنها تقرر بواقعة أخرى خلاصتها ان ابن تومرت حينما لقي الإمام الغزالي ، وأخبره بما وقع من إحراق المرابطين لكتابه « إحياء علوم الدين » بالمغرب والأندلس ، تغير وجهه ، ورفع يده إلى الدعاء ، والطلبة يؤمنون ، فقال « اللهم مزق ملكهم كما مزقوه ، وأذهب دولتهم كما أحرقوه » ،

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ ، والخلل الموسوية ص ٧٥ ، والزركسي ص ١ . والمعجب

ص ٩٩ .

(٢) الخلل الموسوية عن ابن القطا ص ٧٥ ، والمعجب ص ٩٩ ، وروض القرطاس ص ١١٠

و ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨ ، والزركسي ص ١ .

وان ابن تومرت ، رجا الإمام عندئذ أن يدعو الله أن يكون ذلك على يده ، فاستجاب الإمام ، ودعا الله بذلك^(١) .

وينقض هذه الواقعة من أساسها ، أن قرار المرابطين بحرق كتاب « الإحياء » قد صدر لأول مرة في سنة ٥٠٣ هـ في أوائل عهد علي بن يوسف ، وذلك حسبما يخبرنا ابن القطان ، أعني بعد أن غادر الغزالي بغداد إلى نيسابور لآخر مرة ، وقبل وفاته بنحو عام . فأين إذن ومتى كان لقاء ابن تومرت به ؟ وكيف نستطيع إزاء هذه المفارقات الزمنية ، أن نصدق تلك القصة التي نسجت حول حرق كتاب الإحياء ؟ هي أسطورة إذن . نسجت كما نسجت نسبة ابن تومرت إلى آل البيت ، لتغدو هالة تحيط بشخصه وسيرته ، وتذكى عناصر الخفاء والقدسية ، حول شخصه وإمامته . وقد اختير الإمام الغزالي لبطولتها بالذات لتبوءه يومئذ أسمى مكانة من العلم والدين والورع في العالم الإسلامي ، ولشهرته الذائعة في المغرب ، وصلاته المعروفة بعاهل المرابطين يوسف بن تاشفين ، وتأثيره الشرعي لديه ، وتأيينه لدولته . وببدو لون الأسطورة في هذه القصة التاريخية بنوع خاص ، فيما تزعمه الرواية من أن الإمام الغزالي ، حين رؤيته لابن تومرت ، شهد من صفاته وشمائله ، وتبين فيه من العلامات والآثار ، ما يدل على أمره ومستقبله ، وأنه كان يقول لجلسائه « لا بد لهذا البربري من دولة ، أما إنه يثور بالمغرب الأقصى ، ويظهر أمره ، ويعلو سلطانه ، ويتسع ملكه ، فإن ذلك ظاهر عليه في صفاته ، وبان عنه في شمائله » . ثم تزيد الرواية على ذلك ، أن بعض الصحب نقل ذلك إلى ابن تومرت ، وأخبره أن ذلك عند الشيخ في كتاب ، فلم يزل ابن تومرت يجتهد في خدمة الشيخ ويتقرب إليه ، حتى اطلع على الأخبار التي كانت فيه ، فلما تحقق من ذلك اعتزم الرحيل إلى المغرب ليتابع قدره . ويسحث عن مصيره^(٢) .

ولم يقف أمر هذه الأسطورة التي تجمع بين الغزالي وابن تومرت عند هذا الحد . بل لقد كان من آثارها أنه يوجد كتاب منسوب للغزالي عنوانه « سر العالمين ، وكشف ما في الدارين » أو بعنوان أقصر « السرامكنون » وقد جاء في

(١) الحلل الموندة ص ٧٦ و ٣٧٧ راسان المغرب (الأوراق المخطوطة السابق ذكرها —

هيسيرس ص ٧٦) .

(٢) روض الفطاس ص ١١٠ و ١١١ .

أوله ما يأتي : « أول من استنسخه ، وقرأه على بالمدرسة النظامية سرّاً من الناس في النوبة الثانية بعد رجوعى من السفر : رجل من أرض المغرب يقال له محمد ابن تومرت من أهل سلمبة . وتوسمت فيه الملك »^(١).

وليس أشد إمعاناً من ذلك كله في عالم الأسطورة . ومن ثم فإننا نجد كثيراً من المؤرخين والمفكرين يرفضون هذه الأسطورة والأخذ بها ، فأبن الأثير ينفى بصراحة ويقول لنا « والصحيح أن ابن تومرت لم يجتمع به (أى الغزالي) »^(٢). ويبدى ابن خلدون ريبه فيها . ويحملها على محمل الزعم ، وكذلك يعاملها ابن الخطيب^(٣). وكذلك فإن البحث الحديث ينكرها وينفىها . ومن أصحاب هذا الرأى المستشرق الألماني ميللر^(٤) ، والعلامة المستشرق إجناس جولدمسير . ويستعرض جولدمسير بنوع خاص ما في هذه القصة من مفارقات ومتناقضات تاريخية ثم يقول : « ويبدو من ذلك كله أنه يحق لنا أن نلغى من ترجمة ابن تومرت قصة الغزالي ، فهى غير مقبولة إطلاقاً . سواء من حيث ترتيب الحوادث الزمنية ، أو من حيث منطق الحوادث نفسها . وكل ما هنالك أننا نرى فيها تحقيقاً لحاجة الناس ، بأن يجدوا سبباً موجباً ، غير الصفات الشخصية ، لارتفاع رجل ، وصل في لمعة نور خارقة إلى السلطان ، وإلى سحق الدولة القائمة »^(٥).

على أن ذلك كله لا يعنى أن ابن تومرت لم يتأثر في تعاليمه الدينية بآراء الغزالي ونظرياته . ومن المسلم به أن ابن تومرت ، قد تأثر خلال دراسته بالمشرق بالنظريات المشرقية في علوم الكلام والأصول والسنة . ويقول لنا ابن خلدون ، إنه تأثر بتعاليم الأشعرية ، وأخذ عنهم ، واستحسن طريقتهم في الانتصار للعقائد السلفية والدفاع عنها ، وفي تأويل المتشابه من القرآن والحديث^(٦) ، وهى

(١) هذا ما ورد في مقدمة العلامة جولدمسير الفرنسية لكتاب «أعز ما يطلب» الآتى ذكره (ص ١٩) ولكننا لم نجد هذه العبارة في مخطوطى دار الكتب المصرية من هذا الكتاب (رقم ١٨٠ و ٢٠٤ مجاميع) .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٠١ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ ، وابن الخطيب في الإحاطة في (القاهرة ١٩٥٦) في ترجمة

إدريس بن يعقوب بن عبد المؤمن ج ١ ص ٤١٧ و ٤١٨ .

A. Müller : Der Islam in Morgen und Abendland (Berlin 1885) B. II. (٤)

p 611)

(٥) مقدمة العلامة جولدمسير (1. Goldziher) لكتاب محمد بن تومرت (أعز ما يطلب)

Le Livre de Mohamad ibn Toumert (Alger 1903) Introduction, p. 12

(٦) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ .

مسائل سوف نعود إليها حينما نتحدث عن تعاليم المهدي الدينية . وأما فيما يتعلق بتأثير الغزالي ، فإن هذا التأثير يظهر في آراء ابن تومرت ومشاريعه الدينية ، وخصوصاً فيما أبداه ابن تومرت من المعارضة للتقاليد الدينية الكائنة بالمغرب ، فإن هذه المعارضة كانت تعكس في صور كثيرة . ما كان قائماً من نظرية الغزالي الكلامية . وبعض النظريات الأخرى في المشرق . على أن هذا التأثير بتعاليم الغزالي . لم يصل في رأى جولديسيهر إلى الأعماق . ولم يكن كبيراً . ويلاحظ جولديسيهر بالأخص أن المهدي ، بالرغم مما يوصف به في تراجمه من الورع والزهد . لم يبد قط ميلاً إلى المعارف الصوفية ، وإلى ذلك الجهد النفسى الذى يسمح للإنسان بالحياة في ضمير الحقائق الدينية ، وهو الغرض الأساسى في بحوث الغزالي الدينية . هذا إلى ما كان بينهما من خلاف في المناهج . وفي علم الشريعة . وفي بعض النقط الكلامية الأخرى (١) .

ولما أتم محمد بن تومرت بغيته من الدراسة بالمشرق ، اعتزم العودة إلى المغرب ، وكان قد قطع في دراسته وبحوثه مرحلة بعيدة المدى ، حتى غدا على قول ابن خلدون : « بحراً متفجراً من العلم ، وشهاباً واريماً من الدين » . وركب ابن تومرت البحر من الإسكندرية في أواخر سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) ، ويقال إنه أخرج منفياً من الإسكندرية ، لما ترتب من شغب على نشاطه في مطاردة المنكر . بيد أنه استمر في دعوته إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو على ظهر السفينة التى أقلته . فألزم ركابها بإقامة الصلاة وقراءة القرآن ، واشتد في ذلك حتى قبل إن ركاب السفينة ألقوه إلى البحر . فلبث أكثر من نصف يوم يسبح إلى جانبها دون أن يصيبه شيء ، فلما رأوا ذلك أنزلوا إليه من رفعه من الماء ، وقد عظم في نفوسهم ، وبالغوا في إكرامه (٢) . ولما وصل إلى المهديّة ، نزل بمسجد من مساجدها . وليس معه سوى ركوة ماء وعصا ، فتسامع به الناس ، وأقبل الطلاب يقرأون عليه مختلف العلوم ، وكان إذا شاهد منكراً من آلات الملاحى ، أو أوانى الخمر ، بادراً إلى إزالته وكسرها . وأصابه

(١) مقدمة جولديسيهر الفرنسية لكتاب محمد بن تومرت السابقة الذكر ص ٢٠ .

(٢) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوجه ١٥ ب) ، والمعجب ص ٩٩

بسبب ذلك بعض الأذى. ووصل خبره إلى الأمير يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ملك إفريقية ، فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء ، فلما رأى سمته . واستمع إلى مناقشاته أعجب به وأكرمه وسأله الدعاء^(١). ثم غادر المهديّة إلى بجاية ، وجرى فيها على نفس أسلوبه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان يقوم بدعوته بلا كلل ، حتى وقعت ذات يوم بسبب تشدده في إزالة المنكر ، ضجة وشغب ، وكان والى البلدة العزيز بن المنصور بن حماد الصنهاجي ، رجلاً فظاً قاسياً ، فسخط عليه هو وخاصه ، وأراد البطش به . وبفصل لنا ابن القطان بعض ما فعله ابن تومرت لإزالة المنكر ببجاية . وبعض ما كان بها من المناكر والبدع ، فيقول ، إن ابن تومرت لما دخل بجاية لقي بها الصبيان في زى النساء بالصفائر والأخراس والزينة ، وشواشي الخز ، وألنى الأردال قد فتنوا بذلك ، وانهمكوا فيه ، فشدد في مطاردته ، وفي إزالة هذا الزى المنكر . ثم إنه حضر عيداً فرأى فيه من اختلاط الرجال بالنساء والصبيان المتزينين المتكحلين صوراً مثيرة ، فزجرهم ، ونقص عليهم اجتماعهم ، فوقع المهرج ، وسرى الشر ، وسُلب النساء حلين . وسأل العزيز عن ذلك ، فعرف بأنه لا سبب لهذا المهرج سوى الفقيه السوسى ، وذلك حسماً كان يعرف ابن تومرت مذ كان بالمشرق . فأمر بجمع الطلبة لمناظرته ، فاجتمعوا في دار أحدهم على طعام وشراب ، واستدعى ابن تومرت للحضور ، فأبى ، فقصد إليه الكاتب عمر بن فلفول ، فلافطه وتضرع إليه حتى قبل المناظرة ، واجتمع بالطلبة ، وسألوه فأجابهم عن كل ما سألوا ، وسألهم فما استطاعوا الإجابة عن شيء . وتضرع إليه ابن فلفول عندئذ بأن يترك ما هو بسبيله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٢) . وخشى ابن تومرت العاقبة ، فغادر بجاية إلى ناحية قريبة منها تسمى ملالة ، ونزل في كنف أصحابها وهم من أعيان صنهاجة ، فأووه وأكروموه ، وطلب إليهم وإلى بجاية تسليمه إليه ، فأبوا ، وليث بينهم حيناً يدرس العلم . وكان إذا فرغ يجالس على صخرة بقارعة الطريق قريباً من ملالة . فن ذات يوم وفد إليه كهل وفقى حسن التكوين ، رائع الحمال ، ولم يكن هذا الفتى الوسيم سوى عبد المؤمن بن على بن علوى ، الذى شاء القدر أن يغدو فيما بعد أعظم أصحاب المهدي . وأعظم قاداته ، وخليفة

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٢ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٩ .

(٢) ابن القطان في « نظم الجنان » (المخطوط ذكره لوحة ١٦ ب و ١٧ أ) .

تراثه ودولته . وكان قد قدم مع عمه من بلده القريب من تلمسان ، في طريقه إلى المشرق ، ليطلب العلم ، ويتقضى فريضة الحج ، فسأله ابن تومرت عن شخصه وعن أحواله ، ولما وقف على مقصده ، قال له إن العلم والشرف والذكر التي يطلبها موجودة ، وإنما تنال بصحبته ، ودعاه إلى معاونته فيما هو قائم به ، من إمامة المنكر ، وإحياء العلم ، وإخادع البدع . ويقدم إلينا ابن القطان عن لقاء عبد المؤمن بابن تومرت رواية أخرى ، خلاصتها أن ابن تومرت حينما خرج من بجاية ، واتخذ مقره في رابطة ملالة ، وأقبل عليه طلبة العلم ، كان ممن وفد عليه منهم الفقيه عبد الواحد بن عمر التونسي ، وتعلق به ولازمه حيناً ، وكان التونسي من فقهاء رباط تلمسان ، فلما توفى ، اتفق أصحابه وتلاميذه على استدعاء ابن تومرت ليقوم بالتدريس مكانه ، فوجهوا إليه عبد المؤمن ، وكان من تلاميذ التونسي المذكور^(١) . وأعجب عبد المؤمن كذلك بشخصية ابن تومرت وغزير علمه ، وعول على البقاء إلى جانبه . وهنا تدخل الأسطورة مرة أخرى ، فيقال إن ابن تومرت قد اطلع على كتاب في الحفر من علوم آل البيت ، ورأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى ، من ذرية الرسول ، وإن استقامة أمره ، وتوطد مركزه ، يكون على يد رجل من أصحابه ، هجاء اسمه كاسم عبد المؤمن ، وبجاوز وقته المائة الخامسة ، وأنه ، أي ابن تومرت ، كان يبحث عن هذا الرجل أينما حل ، فلما رأى عبد المؤمن وسمع اسمه « أدرك أنه هو الشخص المبتغى »^(٢) . وقيل إن ابن تومرت التقى بعبد المؤمن بموضع يعرف بفنزارة من بلاد متيجة ، وإن عبد المؤمن كان عندئذ يشتغل بتعليم صبيان القرية المذكورة^(٣) . وبقي عبد المؤمن إلى جانب ابن تومرت . وانقطع إليه واختص به ، ودرس عليه حيناً بملالة ، ثم غادرا ملالة معاً ، وذهبا إلى وانشربش ، وهنالك انضم إليهما رجل من قبيلة هرغة ، أي قبيلة ابن تومرت ، هو أبو محمد البشير . وقصد ابن تومرت وصحبه بعد ذلك إلى تلمسان ، وقد تسامع الناس بخبره ، وذاع صيته ، فاستدعاه قاضيا ، وهو ابن صاحب الصلاة . وأنبه على مسلكه ، ومخالفته لعقائد أهل قطره ، وطلب إليه العدول عن دعوته ، فأعرض

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ٣ ب) .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩ ، والمعجب ص ١٠٠ .

(٣) المعجب عن ١٠٠ .

عنه ابن تومرت ، وسار مع صحبه إلى فاس ، ثم إلى مكناسة . وهناك اشتد في مطاردة المنكر ، فاعتدى عليه الغوغاء بالضرب والأذى ، فغادرها إلى مركش^(١) .

ونظرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي اتخذها ابن تومرت شعاراً له ، هي فكرة يختص بها الإسلام ، وهي مشتقة مما ورد في القرآن من قوله : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر » ، وقوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر » ، ومما ورد في الحديث مما شهد بصحته قوله : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده إن استطاع ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » ، وقوله : « لا طاعة في معصية ، إنما الطاعة في الطاعة ، وعلى أحدكم السمع والطاعة ما لم يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة » .

وأساس هذه الفكرة الإسلامية ، هو التضامن الاجتماعي ، والمسئولية العامة عن حماية المجتمع من المنكر والردائل التي ينهى عنها الدين . وقد تناول الإمام الفيلسوف ابن حزم القرطبي هذه النظرية في كتابه الجامع «الفصل» وشرح لنا أصولها ومغزاها ، وذكر لنا فيما يتعلق بتطبيق هذا الشعار في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بأنه قد ذهبت طوائف من أهل السنة والمعتزلة والخوارج والزيدية ، إلى أن سل السيوف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب ، إذا لم يمكن دفع المنكر إلا بذلك . فإذا كان أهل الحق في عصابة يمكنهم الدفع ، ولا ييثسون من الظفر ، ففرض عليهم ذلك ، وإن كانوا في عدد لا يرجون لقلتهم وضعفهم بظفر ، كانوا في سعة من ترك التغيير باليد . ويزيد ابن حزم على ذلك ، أنه يجب إن وقع شيء من الجور وإن قل ، أن يكلم الإمام في ذلك ويمنع منه ، فإن امتنع وراجع الحق وأذعن للقيود من البشارة أو من الأعضاء ، ولإقامة حد الزنا والقذف والخمر ، فلا سبيل إلى خلعه ، وهو إمام كما كان لا يحل خلعه ، فإن امتنع من إنفاذ شيء من هذه الواجبات عليه ولم يراجع ، وجب خلعه وإقامة غيره ممن يقوم بالحق لقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان »^(٢) .

ويعلق الإمام الغزالي أهمية كبيرة على تلك الفكرة ، ويصف الأمر بالمعروف

(٣) راجع الحلل المونبه ص ٧٧ و ٧٨ ، وابن خلدون ح ٦ ص ٢٢٧ .

(١) ابن حزم في « الفصل في الملل والأهواء والنحل » (القاهرة ١٣٢١ هـ) ج ٤ ص ١٧١

و ١٧٣ ، و ١٧٦ .

بأنه « هو القطب الأعظم في الدين ». ومن الطبيعي أن يكون الحاكم أو رئيس الدولة (الإمام) ، هو المسئول الأول عن تنفيذ هذا المبدأ الأخلاقي ، وأن يبذل ما في وسعه في قمع ما يخالف الشرع من الأعمال والذنوب ، بيده ، أى بواسطة مأموريه ، ثم بلسانه أى بالوعظ والحث على التزام أحكام الشرع . وقد كان منصب الحسبة في مختلف الدول الإسلامية في العصور الوسطى ، مظهراً من مظاهر العمل على محاربة بعض أنواع المنكر ، بيد أن هذه المطاردة للمنكر لم تكن وفقاً على الدولة ، أو ممثليها الرسميين ، وإنما كان حق الحسبة يمتد إلى كل مسلم ، فلكل مسلم أن يعمل أو أن ينه على الأقل لإزالة كل منكر يراه ، أو مخالفة لأحكام الشرع . وهذا المبدأ ما يزال مسلماً به في عصرنا في سائر المجتمعات الإسلامية ، وإن كان الشرع يقصر استعماله على التنبيه أو تبليغ السلطات المختصة .

يقول العلامة جولدمير معلقاً على هذا المبدأ : « كان أولئك الذين يحاولون تغيير المنكر ، وتغيير وجه الأمور ، رجال متحمسون مخلصون ، ولكنه كان أيضاً ذريعة لمغامرين أذكاء يحاولون الوصول إلى السلطان بطريقة سهلة ، فيسبغون الصبغة الدينية على حركة ثورية ، وقد كان مبدأ الأمر بالمعروف ، شعار الحركات لقلب أسر حاكمة ، ورفع آخرين إلى مكانها ، وهو يبدأ بنقد الأسرة الحاكمة ، ثم يتلو ذلك شهر السيف ، وإثارة الجموع . فإذا نجح ذلك ، تم الوصول إلى الغاية المنشودة .

« وقد كان هذا الشعار كلمة تجمع لثورات أسرى المشرق ، وكذلك في إفريقية الشمالية ، التي كانت دائماً مهددا خصبة لأولئك الذين يريدون إقامة صرح سياسي فوق أسس دينية . ولم تكن بين هذه ثمة حركة ، لا في أوائلها ، ولا في تقدمها ، تضارع في اتساع نطاقها ، تلك الثورة التي أدت في أعوام قلائل ، إلى طرد المرابطين ، وتأسيس الإمبراطورية الموحدية القوية في اسبانيا وشمال إفريقية » . وبالرغم من أن جولدمير يرى بصفة عامة أن ابن تومرت لم يتأثر بتعاليم الغزالي ، فإنه في هذا الموطن يقول لنا إن ابن تومرت ربما تأثر في نظرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بنفوذ الغزالي ، لأنه يعلق على هذه النظرية أهمية قصوى ، ويصفها كما تقدم « بالقطب الأعظم للدين »^(١) .

(١) مقدمة جولدمير الفرنسية لكتاب « محمد ابن تومرت » أو أعز ما يطلب : Mohamed

Ibn Toumert et la Théologie de l'Islam dans le Magreb au XI Siècle, p. 85-87 & 95 - 96

ونزل ابن تومرت بالحاضرة المرابطية ، وكان ذلك في سنة ٥١٤هـ (١١٢٠م) وعكف على طريقته في مطاردة المنكر وإزالته ، كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، والتقى في المسجد الجامع بأمير المسلمين على بن يوسف ، وجرى بينهما مأساة الإشارة إليه من الأحاديث . واستمر ابن تومرت في حملته الدينية الأخلاقية دون هوادة . وقد كانت مراكش وغيرها من المدن المغربية ، تبدى أيام المرابطين كثيراً من مظاهر التسامح الديني ، أو بعبارة أخرى كثيراً من مظاهر الاستهتار والفساد ، فقد كانت الخمر تباع علناً في الأسواق ، وكان النبيذ يشرب دون تحفظ ، وكانت الخنازير تمرح في أحياء المسلمين ، وكان القصف ذائعاً بسائر صنفه ، ومظاهر التدين ضعيفة باهتة ، هذا إلى ما كان يسود الإدارة من تفكك ، والقضاء من انحلال واغتصاب لأموال اليتامى ، وغير ذلك من ضروب الفساد^(١) ، وهو ما يلخصه المراكشي في قوله مشيراً إلى عهد علي بن تاشفين « واختلت حال أمير المسلمين بعد الخمسمائة ، اختلالاً شديداً ، فظهرت في بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ، ودعواهم الاستبداد . . واستولى النساء على الأحوال ، وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من لتونة ومسوفة ، مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل ، وصاحب خمر وماخور ، وأمير المسلمين في ذلك كله يتزايد تغافله ، ويقوى ضعفه »^(٢) .

ووقع ذات يوم حادث زاد في لفت الأنظار لابن تومرت ولدعوته . وذلك أن الصورة أخت أمير المسلمين خرجت في موكبها ، ومعها عدد من الجوارى الحسان ، وهن جميعاً سافرات على عادة المرابطين ، من سفور النساء ، واتخاذ الرجال اللثام . ورأى ابن تومرت هذا الموكب ، فأنكر على النساء سفورهن ، وأمرهن بستر وجوههن ، وضرب هو وأصحابه دوابهن ، فسقطت الأميرة عن دابتها ، ووقع الاضطراب والهرج ، ورفع الأمر إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، ففاوض الفقهاء في شأن هذا الداعية المضطرم . وكانت المعلومات التي جمعت عنه منذ حادثة المسجد ، هو أنه حديث العهد بالوصول إلى مراكش ، وأنه يؤلف الناس ، ويقول لهم إن السنة قد ذهبت . وكان على بن يوسف قد أمر وزيره ينتان بن عمر أن يكشف عن مذهبه ، وعن أحواله ومطلبه ، فإن كانت له

(١) مقدمة جولدسيهر الفرنسية لكتاب محمد بن تومرت السالفة الذكر ص ٩٧ .

(٢) المعجب ص ٩٩

حاجة ينظر في قضائها ، وكان جواب ابن تومرت حسبما أشرنا من قبل ، أن لا حاجة له إلا تغيير المنكر^(١).

ورأى أمير المسلمين أن يناظر الفقهاء هذا الرجل . وكان الفقهاء المرابطون يحقدون على ابن تومرت لاعتناقه مذهب الأشعرية . وما يملئ به من تأويل المتشابه ، ولحملته عليهم ، وإنكاره لجمودهم إزاء مذهب السلف ، وإقراره كما جاء ، وذهابه إلى حد تكفيرهم ، فأغروا الأمير باستدعائه للمناظرة معهم^(٢) . وقبل ابن تومرت هذا التحدي . وأبدى في مناظرته للفقهاء المرابطين تفوقاً ظاهراً . وقد ورد ذكر هذه المناظرة في كتاب « أعز ما يطلب » ، الذي دونه الخليفة عبد المؤمن بن علي عن إملاء ابن تومرت ، وملخص ذلك أن المهدي ، أو « الإمام العصوم ، المهدي المعلوم » كما يوصف ، طلب إلى مناظرته أن يختاروا من ينوب عنهم لمناظرته ، فقدموا من اختاروه ، فكان مما سألم المهدي ، أن قال لهم طرق العلم هل هي منحصرة أم لا ، فأجاب مقدمهم المذكور ، نعم هي منحصرة في الكتاب والسنة والمعاني التي نهت عليها . فقال المهدي ، إنما السؤال عن طرق العلم هل هي منحصرة أم لا . فلم تذكر إلا واحداً منها ، ومن شرط الجواب أن يكون مطابقاً للسؤال . فلم يفهم مناظره قوله ، وعجز عن الجواب . ثم سألم المهدي عن أصول الحق والباطل ما هي ، فعاد مناظره إلى جوابه الأول ، فلما رأى المهدي عجزهم عن فهم السؤال ، وعجزهم عن الجواب ، شرع يبين لهم أصول الحق والباطل ، فقال إنها أربعة وهي « العلم والجهل ، والشك والظن » . ثم أخذ يشرح ماهية كل منها في كلام طويل ، ثم يستعرض الكتاب بعد ذلك آراء المهدي مفصلة عن « الجهل » و « الشك » ، و « الظن » ، ثم عن « الأصل والحقيقة » ويقسمها إلى أقسام عديدة ، وكل قسم منها إلى فصول مختلفة^(٣) . وكان جل من حضر ذلك المجلس من الفقهاء المرابطين . من علماء الفروع ، ولبست لهم معرفة بعلم الأصول . ونقول بهذه المناسبة إن علم الأصول أو أصول الدين ، يقوم على دراسة الشريعة واشتقاقها من الكتاب والسنة ، ودراسة النصوص الشرعية ، والأدلة العقلية ، وتفصيل العقائد ، وأصول الفقه

(١) البيان المغرب في الأوراف المخطوط، السالف الذكر .

(٢) ابن خلدون ٦ ص ٢٢٧ .

(٣) كتاب محمد بن تومرت أو أعز ما يطلب (الجزائر سنة ١٩٠٣) ص ١ - ٥ - ١١ - ١٨ .

أى مصادر الشريعة ، ومعرفة النبوة والرسالة ، وكل ما يتعلق بذلك . وأما علم الفروع ، فإنه يقتصر على دراسة فرائض العبادات والمعاملات وأحكامها ، والحدود والأقضية ، أو بعبارة أخرى ، على دراسة الجانب العملى والدينى من الشريعة . وقد كانت الدراسات المفصلة فى ظل المرابطين هى علم الفروع . ويقول لنا المراكشى ، خلال حديثه عن نفوذ الفقهاء أيام على بن يوسف ، إنه لم يكن يحظى عنده إلا من أتقن علم الفروع أعنى فروع مذهب مالك ، ثم يستطرد قائلاً : « فنفتت فى ذلك الزمان كتب المذهب ، وعمل بمقتضاها ، ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نُسى النظر فى كتاب الله ، وحديث رسول الله (ص) ، فلم يكن أحد من مشاهير ذلك الزمان يعنى بهما كل الاعتناء »^(١) . وقد كان أخص ما تمتاز به هذه المناظرة الدينية ، هو أن ابن تومرت أبدى فى مناقشته تمسكه بأصول الشريعة ، إزاء الفقهاء المرابطين ، وهم أقطاب علم الفروع ، وأراد أن يبين جهلهم بمنهج الشريعة الحقيقية ، فجعل المناقشة تجرى على الأصول لا الفروع ، وأبدى فى عرضه لأصول الشريعة ، أنه يرجع خاصة إلى القرآن والحديث ، ولا يرجع قط إلى قول مستخرج ، ولا يعتبر الإجتهد مرجعاً من مراجع الشريعة^(٢) . ولم يكن بين الفقهاء المرابطين من استطاع أن يقدر براعة ابن تومرت ، وتبحره فى علوم الدين ، سوى فقيه أندلسى هو مالك بن وهيب قاضى مراكش ، وقد كان من أكابر العلماء والأدباء ، وكان متمكناً من علوم الدين والفلسفة ، ولكنه كان لا يظهر من علمه إلا ما يروج فى ذلك الزمان^(٣) . فبين لأمر المسلمين خطورة هذا الرجل ، وخطورة دعوته وتعاليمه ، وقال له إن هذا رجل ، لا يبغى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكنه يبغى تضليل العامة ، وإثارة الفتنة ، والوصول إلى السلطان ، وأشار عليه بقتله ، وأشار البعض الآخر على أمير المسلمين ، باعتقال الرجل وسجنه ، وعبر عن ذلك أحدهم بقوله للأمير : « ألقه فى الكهول لئلا يسمعك الطبول » . وخالفهم فى ذلك الوزير يئتان بن عمر ، وقال

(١) المعجب ص ٩٥ و ٩٦ .

(٢) جولديهر فى مقدمته الفرنسية السالفة الذكر لكتاب محمد بن تومرت ص ٣٩ و ٤٠ .

(٣) المعجب ص ١٠٢ ، وبمول لنا المراكشى إن مالك بن وهيب هذا ، قد وضع كتاباً فريداً

فى بابه اسمه « قراضة الذهب فى ذكر لثام العرب » ضمنه لثام العرب فى الجاهلية والإسلام ، وأنه رأى هذا الكتاب فى خزانة بنى عبد المؤمن .

لعلى بن يوسف إن هذا وهن في حق الملك ، ونوه بضعف الرجل وضآلة شأنه . فأمر على بن يوسف وزيره أن يعتقله لديه أياما حتى يرى فيه رأيه . ولم تمض أيام على ذلك ، حتى جاءت الأنباء بوقوع الفتنة في قرطبة ، وأخذ على بن يوسف في التأهب للعبور إلى الأندلس . فطلب إلى وزيره أن يأتيه بابن تومرت ، فحضر بين يديه . وقال له على بلغني عنك ما صنعت ببجاية وغيرها فتورع الناس عن قتلك ، فعرفني بحقيقة غرضك ، فقال ابن تومرت غرضي تغيير المنكر ، ورفع المغارم . وألا تولى من قبيلتك أحد ، وإن تركوا اللثام لأنه من شأن النساء ، ولا تجوز به صلاة ، فزجره أمير المسلمين . وأمر بإخراجه من مراکش . وكان ذلك في أوائل سنة ٥١٥ هـ (١) .

غادر محمد بن تومرت وصحبه مدينة مراکش إلى أغمات . وفي بعض الروايات أنه بالعمكس استمر حيناً يقيم في خيمة بين مقابر المدينة ، وينال عليه الناس والطلاب ، وهو يبث فيهم الدعوة ضد المرابطين . ويرميهم بالتجسيم والكفر ، ثم انتهى بأن أعلن بطلان بيعة على بن يوسف وخلع طاعته عن أعناق أصحابه وتابعيه (٢) ، ولكنه اضطر أن يغادر مكانه حينما بلغه أن القوم يضمرون اعتقاله وقتله (٣) . ولما حل ابن تومرت بأغمات استمر فيها على طريقته من مطاردة المنكر والحملة على المرابطين ، واتخذ لصلاته ودعايته مسجداً خارج أغمات ، فأمر صاحب المدينة بإخراجه وإبعاده (٤) . فعندئذ قصد ابن تومرت وصحبه إلى بلاد السوس ، ولحق بجبال المصامدة ، وذهب أولا إلى مسفيوة ، ثم إلى هنتانة . ثم إلى إيكلين ، ومر في خلال ذلك بكثير من المحلات البربرية . وهو يتوقف أوقاتا في بعضها ، ويبني المساجد ، وينضم إليه الصحب والأتباع . وقد فصل لنا أبو بكر الصنهاجي صاحب ابن تومرت ، برنامج رحلته منذ خروجه من أغمات . ومسيره

(١) البيان المغرب (الأوراف المخطوطة السائفة الذكر) ، ورض القرطاس ص ١١٢ ، والخلل الموسية ص ٧٣ و ٧٤ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٢ ، والمعجب ص ١٠٢ و ١٠٣ ، وراجع كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٦٨ و ٦٩ .

(٢) ابن العطان فعلا عن ابن الراعي (نظم الجان المخطوط لوحده ١٠ ب) .

(٣) هذه هي رواية أبي بكر الصنهاجي أحد أصحاب المهدي في كتابه « أخبار المهدي ابن تومرت »

(ص ٦٩) وقتلها صاحب روض القرطاس (ص ١١٣) .

(٤) البيان المغرب في الأوراف المخطوطة المشار إليها . وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٧ .

خلال جبال المصامدة ، ومن لقيه خلال رحلته من الصاحب والأتباع . ورحل ابن تومرت وصحبه بعد ذلك إلى قرية إيجليز أو جبل إيجليز من بلاد هرغة ، بلده وموطن قومه وعشيرته ، ونزل في مكان منيع لا يصل إليه أحد إلا من طريق لا يسلكها إلا الراكب بعد الراكب ، وتدافع عنها أقل عصابة من الناس^(١) ، وهناك انهال إليه المصامدة من كل فج ، وكثر صحبه وأتباعه ، وهو يدعوهم إلى التوحيد ، وإلى قتال المجسمين المرابطين ، وعكف على تدريس العلم . وكان يعنى بالأخص بأن يشرح لأنصاره وتلاميذه نظرية المهدي المنتظر والإمام المعصوم ، وماورد فيها من الأحاديث والأقوال المأثورة ، ويبث الخاصة من دعائه بين رؤساء القبائل يمهّدون لتلك الدعوة ويبشرون بها . ولما شعر ابن تومرت بأن دعايته قد آتت ثمرتها ، وأضحى الميدان ممهداً للعمل ، اعتزم أن يعلن إمامته^(٢) . وفي اليوم الخامس عشر من رمضان سنة ٥١٥ هـ (ديسمبر سنة ١١٢١ م) قام ابن تومرت خطيباً في أصحابه وأعلن إليهم أنه المهدي المنتظر^(٣) في خطبة قصيرة ينقل إلينا نصها ابن القطان في «نظم الجمان» فيما يلي :

« الحمد لله الفعال لما يريد ، القاضى بما يشاء ، لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله ، المبشر بالإمام المهدي ، الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً ، يبعثه الله إذا نُسِخ الحق بالباطل وأزيل العدل بال جور . مكانه المغرب الأقصى منبته وزمانه آخر الزمان ، واسمه اسم النبي عليه الصلاة والسلام ، ونسبه نسب النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام المقربون عليه وسلم ، وقد ظهر جور الأمراء ، وامتألت الأرض بالفساد ، وهذا آخر الزمان ، والإسم الاسم والنسب النسب ، والفعل الفعل » .

وعلى أثر ذلك ، وفي ظل شجرة خروب وارفة ، هرع إلى المهدي عشرة من أصحابه الملازمين له ، وبايعوه على أنه المهدي المنتظر والإمام المعصوم ، وهؤلاء العشرة الأوائل من أصحاب المهدي هم : تلميذه وألصق الناس عبد المؤمن بن علي ،

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٣٣) .

(٢) المراكشي في المعجب ص ١٠٣ .

(٣) هذه رواية روض القرطاس (ص ١١٣) ، ويؤيدها ابن خلدون ، (ج ٦ ص ٢٢٨) ، والخلل الموشية ص ٧٨ ، والزركشي ص ٤ ، ويقول ابن عذاري إنها كانت في سنة ٥١٨ هـ (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسبرس ص ٨٢) .

(٤) نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٢٣) . الخلل الموشية ص ٧٨ .

وكان أول من بايعه ، وأبو محمد عبد الله بن محسن الوانشريشي المسمى بالبشير ،
وعبد الله بن ملويات ، وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني ، وأبو حفص عمر بن
علي أزنجان (أصناك) ، وسليمان بن مخلوف ، وإبراهيم بن إسماعيل الخزرجي
وأبو محمد عبد الواحد الحضرمي ، وأبو عمران موسى بن تماري ، وأبو يحيى
أبو بكر بن يكيث . وسمى هؤلاء العشرة بالمهاجرين الأولين وبالجماعة^(١) ، ثم بايعه
من بعدهم خمسون رجلاً ، فسموا أهل خمسين ، وهم الطبقة الثانية من أصحاب
المهدي^(٢) . ثم بايعه من بعدهم سبعون آخرون فسموا أهل سبعين ، وهم الطبقة
الثالثة . وكانت هذه الطبقات الثلاث تضم أخلص أنصار المهدي ، وأقدرهم .
وقسم ابن تومرت بعد ذلك بقية أصحابه وأنصاره ، إلى طبقات تلي هذه ، فالطبقة
الرابعة تتكون من طلبة العلم ، والطبقة الخامسة تتكون من الحفاظ ، وهم صغار
الطلبة ، والطبقة السادسة تتكون من أهل الدار وهم أقارب المهدي وعشيرته
وخاصة خدمه . وقد ذكر لنا ابن القطان نقلاً عن ابن صاحب الصلاة أسماء
هؤلاء الخدم الذين كانوا يلزامونه ليل نهار . والطبقة السابعة تتكون من أهل
هرغة بلد المهدي وموطن قبيلته ، والطبقة الثامنة تتكون من أهل تينمائل ،
والطبقة التاسعة من أهل جدميوه ، والطبقة العاشرة من أهل جنفيسة ، والطبقة
الحادية عشرة من أهل هنتاتة ، والثانية عشرة تتكون من الحند ، والثالثة
عشرة من الغزاة والرماة . ويقول ابن القطان إن الطبقة الثانية عشرة كانت تتكون
من أهل القبائل ، والثالثة عشرة من الحند . ويضيف إلى ذلك طبقة أخرى ،
هي الرابعة عشرة . وهي طبقة « الفرات » ، وهم الأحداث الصغار الأميون .
ووضع المهدي فيما بعد نظاماً خاصاً لمهام هذه الطبقات ورتبها ، وجعل لكل
منها مهمة تختص بها . ورتبة لاتتعداها ، سواء في السفر أو الحضر ، وشرع القتل
جزاء لمن خالف الأوامر : ومن تخلف عن الحضور أدب ، فإن تمادى قتل ،

(١) الحلل الموشية ص ٧٩ ، وروض الفرج ص ١١٣ . وبذكر لنا ابن القطان اسمين ،
آخرين هما أبو الربيع سليمان بن الحضرمي ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان مكان أبي محمد عبد الواحد
الحضرمي ، وسليمان بن مخلوف (نظم الجمان لوجه ٣٣ ب) . ويورد أبو بكر الصنهاجي في كتابه أخبار
المهدي بن تومرت أسماء أخرى ، ويذكر نفسه ضمن العشرة الأوائل (ص ٧٣) . وكذلك يذكر
ابن خلدون بعض أسماء أخرى (ح ٦ ص ٢٢٨) .

(٢) ذكر لنا أبو بكر الصنهاجي صاحب كتاب أخبار المهدي ابن تومرت أسماء « أهل خمسين »

ومن لم يفظ حزبه عزز بالسياط ، وكل من لم يتأدب بما أدب به ، ضرب بالسوط مرة أو مرتين ، فإن تمادى في تصرفه وترك امتثال الأوامر قتل ، ومن داهن على أخيه أو أبيه أو ابنه أو من يكرم عليه قتل . وشدد المهدي في تنفيذ شريعته وضبط الأمور بنحزم ، وكان هذا النظام هو أساس الدولة الموحدية المستقبلية^(١).

ولما كملت بيعة ابن تومرت على هذا النحو ، لقبه أنصاره بالمهدي والإمام المعصوم ، وكانوا من قبل يقتصرون على تلقيبه بالإمام . وسمى المهدي وأصحابه وأهل دعوته بالموحدين . ويقول لنا ابن خلدون ، إنه اختار لهم هذه التسمية تعريضاً بلمتونة في أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم^(٢) . ووضع لهم في التوحيد كتاباً باللغة البربرية سماه « المرشدة » يحتوى على معرفة الله تعالى ، والعلم بحقيقة القضاء والقدر ، والإيمان بما يجب لله تعالى ، وما يجب على المسلم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويتضمن الأعشار والأحزاب والصور ، وقال لهم إن من لا يحفظ هذا التوحيد ، فليس بموحد ، وإنما هو كافر لا تجوز إمامته ، ولا تؤكل ذبيحته . قال صاحب روض القرطاس « فصار هذا التوحيد عند قبائل المصامدة كالقرآن العزيز ، لأنه وجدهم قوماً جهلة لا يعرفون شيئاً من أمر الدين ولا من أمر الدنيا »^(٣) . ووضع لهم بالبربرية كتاباً أخرى في العقيدة منها كتاب سمي « بالقواعد » وآخر سمي « بالأمانة » ، ودونها كذلك بالعربية ، وكان ابن تومرت أبرع أهل عصره في إتقان اللغتين العربية والبربرية . ثم وضع بالعربية فيما بعد . كتابه في العقيدة والعلم والإمامة الذي رواه عنه تلميذه وخليفته عبد المؤمن بن علي والذي يفتتحه بقوله « أعز ما يطلب » وهي عبارة أصبحت تعتبر عنواناً للكتاب ذاته^(٤) . وسوف نتحدث في فصل خاص عن محتويات هذا الكتاب . وعن عقائد المهدي وآرائه الدينية والسياسية بصفة عامة .

ولبت المهدي بن تومرت يثبت دعوته ، ويعمل على توطيدها في نفوس أنصاره ، بفصاحته وذلاقتة . ورقيق وعظه ، وأعوانه من المخلصين القادرين يجوبون جبال المصامدة ، ويدعون إلى إمامته ومهديته ، والناس يفدون عليه من كل صوب جموعاً غفيرة ، يبائعونه بالإمامة ، ويتبركون برويته ، حتى

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر ص لوحة ١٠ أ و ب) .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٣) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط ل لوحة ١٣) . وروض القرطاس ص ١١٤ .

(٤) روض القرطاس ص ٨٠ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ .

استفحل أمره ، وعلا صيته ، وكثر جمعه . وأضحى يمثل بما تنطوى عليه حركته من القوى الأدبية والمادية الضخمة . خطراً داهماً على سلطان المرابطين .
ولأنه ليحق لنا أن نتساءل هنا ، هل كان محمد بن تومرت يضممر منذ الساعة الأولى مشروعه في انتحال صفة المهدي توسلاً إلى نيل السلطان ، وأنه منذ عاد غقب دراسته بالمشرق إلى المغرب ، كان يضطرم بهذه الأمنية الكبيرة ، أم أنه حمل على مشروعه ، بما رآه من نجاح دعوته . وتكاثر أتباعه ، وشعوره بقوة ملاءه؟ يلوح لنا أن ابن تومرت كان يضطرم بأطباعه منذ الساعة الأولى . وأنه كان في بداية أمره يتخذ الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ستاراً يتحسس به طريقه ، حتى تسنح له فرصة العمل المثمر . يؤيد ذلك ما سبق أن نقلناه عن المراكشي من أن ابن تومرت ، كان خلال محادثاته لتلاميذه وأنصاره ، يعنى بأن يشرح لهم بالأخص نظرية المهدي المنتظر ، والإمام المعصوم ، ويبعث رسله ودعائه لإذاعتها بين القبائل . وتؤيده كذلك رسالة أشار إليها ابن القطان ، قال إنها وجهت من المهدي في آخر شهر رمضان سنة ٥١١ هـ إلى الفقيه القاضي علي بن أبي الحسن الحذامي وفيها يقول بعد البسملة : « أقول ، وأنا محمد بن عبد الله بن تومرت ، وأنا مهدي آخر الزمان »^(١) . وقد يؤيده أيضاً ما تردده تراجمه المختلفة من قصة لقائه بالإمام الغزالي ، وما ينسب إلى الغزالي ، حينما وقف منه علي ما فعل المرابطون بكتبه ، من دعائه بتمزيق دولتهم ، وزوال ملكهم ، وأن يكون ذلك على يده ، أي على يد ابن تومرت ، وما تردده هذه التراجم أيضاً من أن ابن تومرت ، قد اطلع في بعض كتب الحفر والملاحم السرية على ماورد فيها بشأن قدره ومصيره ، وأنه وقف منها على العلامات والشواهد الخاصة التي يتميز بها المهدي المنتظر ، وهي علامات كانت كلها متوفرة فيه^(٢)

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره لوحة ١٤) .

(٢) المراكشي في المعجب ص ١٠٣ . وراجع أيضاً جولدسهر في مقدمته الفرنسية لكتاب

محمد بن تومرت التي سبقت الإشارة إليها ص ٩٩ .

الفصل الثاني

الصراع بين المرابطين والموحدين

المرحلة الأولى

على بن يوسف يرسل جيشاً لمحاربة المهدي . تحصن المهدي بجبل إيجليز . نزول الموحدين للقاء المرابطين . هزيمة المرابطين وفرارهم . أمير المسلمين يرسل جيشاً آخر لمحاربة الموحدين . هزيمة المرابطين للمرة الثانية ، ثم للمرة الثالثة . أثر هذا الظفر في توطيد أمر المهدي وتقوية شيعته . المهدي يوجه رسالة إلى المرابطين . غزوات المهدي للمرابطين ثم للقبائل الخارجة . افتتاحه لجبال درن . انتقاله من جبل إيجليز إلى تينملل . رواية عن استيصال المهدي لتينملل ، وفتكه بقبيلة هزيمة . استعداد المهدي لمرحلة جديدة من الصراع ضد المرابطين . تمييزه لأصحابه عن يد محمد البشير . قصة البشير ومعجزاته المزعومة . بعث المهدي قواته لغزو المرابطين . غزوها لكليد وأغاث . هزيمة المرابطين في الموقعتين . حشد المهدي لسائر قواته . يعهد بقيادتها إلى محمد البشير وعبد المؤمن بن علي . زحف الموحدين على مراكش . تفاصيل عن المعارك التهديدية بين الموحدين والمرابطين . استعداد علي ابن يوسف للدفاع . اللقاء الأول بين المرابطين والموحدين تحت أسوار مراكش . هزيمة المرابطين والتجاؤهم إلى داخل المدينة . حصار الموحدين لمراكش . اجتماع الحشود المرابطية من سائر الأنحاء . نشوب معركة جديدة بين الفريقين في بقعة البحيرة . هزيمة الموحدين وتمزيق قواتهم . مصرع قائدهم البشير ومعظم زملائه . انسحاب عبد المؤمن في فلوله ، وفتك القوات المرابطية بها . ارتداد الموحدين إلى تينملل . فداحة النكبة التي أصابت الجيش الموحد . الخلاف حول تاريخ معركة البحيرة . مرض المهدي ووفاته . صفاته وخلاله وأحكامه . سفكه للدماء . خداعه واستغلاله لسداجة الجماهير . تصدى ابن خلدون للدفاع عن صفته ونسبه وعن صحة دعواته . بواعث هذا الدفاع ، وما يتسم به من سقم وتناقض . مثل الدعاية المحاتل الساعي إلى انتزاع السلطان . حكومة المهدي التيقراطية . الاتفاق على خلافة عبد المؤمن . قبر المهدي في تينملل .

— ١ —

كان واضحاً ، أن محمد بن تومرت أو المهدي حسبما نسميه منذ الآن ، كان منذ شعر بتوطيد أمره ، وتضخم أنصاره وجموعه ، يتأهب لمحاربة المرابطين . وهو قد أعلن ذلك لأنصاره « الموحدين » بالفعل مذ تمت بيعته وتسمى بالمهدي ، وأخذ الموحدون في التأهب للحرب ، بعد أن رتبهم المهدي ، وجعل لكل عشرة منهم نقيباً . وسرى فيما بعد كيف تنتظم الجيوش الموحدية وفق منهاج جديد ، وتتخذ لها في الحروب خططاً مبتكرة ، كانت من أهم أسباب ظفورها . وقد رأينا فيما تقدم ، كيف اضطر أمير المسلمين على بن يوسف أن يعبر

البحر إلى الأندلس في أوائل سنة ٥١٥ هـ ، حينما سمع بأمر الفتنة التي حدثت بقرطبة ، وكيف أنه لم يمكث عندئذ طويلاً بالأندلس ، ولم يضطلع بأية أعمال أو غزوات جديدة ، لما بلغه من تفاقم حركة ابن تومرت في بلاد السوس ، وكان قبل ذلك بأشهر قلائل فقط قد سرحه ، عقب المناظرة التي وقعت بينه وبين الفقهاء ، واكتفى بإبعاده عن حاضرتهم مراکش ، فسار ابن تومرت إلى بلاد السوس ، وهناك كشف عن حقيقة نيته ومشاريعه البعيدة المدى .

ولما عاد أمير المسلمين إلى مراکش حاول أن يستدرك ما فاتته ، وأن يدبر أمر القبض على ابن تومرت ، ولكن الأمر كان أخطر من ذلك وأعظم ، ولم يكن أمامه سوى محاربة الرجل ، الذي تحول في فترة قصيرة من فقيه متواضع يدعو إلى تغيير المنكر ، إلى داعية سياسى خطر ، يتشعّب ثوب الإمامة المهديّة ، ويجمع تحت لوائه قوى جرارة .

فبعث لقتاله والى السوس أبا بكر بن محمد اللمتوفى ، وقيل لإبراهيم بن تيعشت في جيش من الأجناد والحشم ، فقصده إلى السوس الأقصى ، وكان المهدي قد صعد عندئذ إلى جبل إيجاز من شعب جبال المصامدة ، وتحصن فيه مع أنصاره ، وكان لهذا الجبل طريق واحد ضيق وعربلا يستطيع أن يسلكه سوى فارس واحد ، وتصبعب مهاجمته على أية قوة محاربة ، فلما قدم المرابطون نزّلوا في شرقيّ الجبل ، وكان وعراً ، فخرج المهدي من معقله ، وعقد مجامعاً لأصحابه ووعظهم ، وقال لهم : أنظروا إلى أعدائكم ، واعلموا أن كل ما جاءوا به من خيل وعدة ، إنما هو هدية من الله تعالى لكم ، على غربتكم وفقركم ، فأعطاكم وأغناكم . ثم جهز لقتالهم جيشاً من أنصاره من أهل هرغة وهنتاتة وتينمل ، وزوده بالأعلام البيض ، وندب لقيادته محمداً البشير الوائشريشى أحد أصحابه العشرة ، فنزل الموحدون من الجبل ، وماكاد اللقاء يقع بين الجيشين حتى هزم المرابطون وركتوا إلى الفرار ، واستولى الموحدون على أسلحتهم من الخيل والسلاح ، وطاردوهم حتى مدينة مراکش ، ووقع هذا النصر الأول لجيوش المهدي ، في شهر شعبان سنة ٥١٦ هـ (أغسطس سنة ١١٢٣ م)^(١) .

وكان لهذا النصر أثر بالغ في ذيوع أمر المهدي ، وتضاعف صيته ، وتضعفم

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره لوحة ٣٧) ، والحلل المشية ص ٨٠ ، وروض القرطاس ص ١١٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ .

شيعة . وكان له بالأخص أثره في تقوية الروح المعنوية لدى جموع الموحدين . وبادر على بن يوسف فجهز جيشاً آخر . أضخم عدة وعدداً ، وسيره تحت إمرة الأمير أبي إبراهيم إسحاق ، وكان الموحدون قد كثر جمعهم ، وقويت نفوسهم ، وتزودوا بما غنموه من المرابطين من الخيل والسلاح . فلما التقى الجمعان للمرة الثانية سرى إلى الحشم والحند المرابطين رعب مفاجئ ، وانهزموا أمام الموحدين دون قتال ، وقتل منهم عدد وافر ، واستولى الموحدون على محلتهم ، وسائر عُددهم ، وكان لهذه الهزيمة الثانية أسوأ وقع في نفس على بن يوسف ، فجهز على الأثر جيشاً عظيماً ثالثاً ، وعهد بقيادته إلى الأمير سير بن مزدي اللمتوني ، فلم يكن في قتال الموحدين أسعد حظاً من سابقه ، فأصيب كذلك بهزيمة شديدة وقتلت من جنده حملة وافرة ، وكانت نكبة جديدة للمرابطين .

وبدا عندئذ ، لعلى بن يوسف على ضوء هذه الهزائم المتوالية لجيوشه ، أن المسألة ليست فتنة محلية ، وأن المهدي لم يكن ثائراً عادياً ، بل إن الأمر أجل من ذلك وأخطر ، وأن محاربة الموحدين أضحت بالنسبة للدولة المرابطية ، معركة حياة أو موت . وشعر المهدي من جهة أخرى أنه أضحي من حيث توطد أمره ، ووفرة حشوده ، وروح شيعة المعنوية ، التي أذكاه الظفر ، نداً قوياً للمرابطين ، وأنه يسير قدماً في هزيمتهم وتخطيم دولتهم ، وأنه لن يمضي سوى القليل ، حتى ينزعهم سلطانهم ، ويقيم دولته الموحدية الجديدة على أنقاض دولتهم . وكان من أثر هذه الثقة بالظفر النهائي ، أن وجه المهدي إلى المرابطين ، رسالة يدعوهم فيها إلى طاعته ، وينذرهم فيها بسحقهم إذا لم يستجيبوا . وإليك نص هذه الرسالة التي يوردها لنا صاحب الحلل الموشية : « إلى القوم الذين استذلهم الشيطان ، وغضب عليهم الرحمن ، الفئة الباغية ، والشرذمة الطاغية ، لمتونة ، أما بعد ، قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته ، وأن الدنيا مخلوقة للفناء ، والجنة لمن اتقى ، والعذاب لمن عصى ، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة ، فإن أدبتموها كنتم في عافية . وإلا فنستعين بالله على قتالكم حتى نمحو آثاركم ، ونكدر دياركم ، ويرجع العامر خالياً ، والحديد بالياً ، وكتابنا هذا إليكم إعدار وإنذار ، وقد أعذر من أنذر ، والسلام عليكم ، سلام السنة ، لاسلام الرضى »^(١) .

وقعت هذه المرحلة الأولى من الصراع بين الموحدين والمرابطين في سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) وربما كذلك في سنة ٥١٧ هـ . وقد ذكر لنا أبو بكر الصنهاجي المكنى بالبيذق ، وقد كان حسبنا يقرر لنا من حشم المهدي وخاصة ، في روايته في باب غزوات المهدي ، أو المعصوم كما يسميه ، ان هذه الغزوات الأولى بلغت تسع غزوات متوالية كانت كلها ضد المرابطين ، إلا واحدة منها ، وهي الغزوة السابعة ، فقد كانت لقبيلة هسكورة ، وكان من أبرز هذه الوقائع في مقاتلة المرابطين واقعتان ، الأولى نشبت بين المرابطين وأوحشم حسبنا ينعتهم ابن القطان ، وبين الموحدين في بلدة تادراوت ، وكانت معركة عنيفة هزم فيها الموحدون . وفي معظمهم أو قتلوا جميعاً حسبنا يروي ابن القطان . ونشبت الموقعة الثانية في أنسا ، وكانت الدائرة في هذه المعركة على الموحدين ، فقتلت منهم حملة كبيرة . أما غزوة هسكورة ، فلأنها كانت من القبائل المتخلفة عن بيعة المهدي ، والاعتراف بطاعته ، وفي هذه الغزوة اشترك المهدي بنفسه في القتال ، وأصيب بجراح ، وأسرع أنصاره بحمله وإنقاذه^(١) . والواقع أن المهدي لم يقتصر في بداية أمره على مقارعة المرابطين أو لمتونة ، ولكنه شغل في نفس الوقت بمحاربة القبائل المجاورة المتخلفة عن بيعته وطاعته ، مثل هسكورة ، ورجرجة ، وهزرجة ، وغجرامة ، وكثير من بطون المصامدة ، وكان بعض هذه القبائل مثل هزرجة وهسكورة من حلفاء لمتونة ، فكان المهدي يشتد في قتالهم ويرغمهم على الطاعة قبيلة بعد أخرى ، حتى دانت له سائر القبائل الخارجة ، من المصامدة ومن غيرهم^(٢) ، وجاز المهدي بعد ذلك إلى جبال دكرن ، فاحتوى على سائر بلادها ومخلاتها من بلدة تامبوت إلى ماغوصة إلى جنفيسة ، ثم جاز إلى تادراوت حيث وقعت هزيمة الموحدين الأولى ، فأغار عليها الموحدون وقتلوا أهلها قتلاً ذريعاً . وأنفق المهدي في تلك الحروب والغزوات المحلية زهاء ثلاثة أعوام . من سنة ٥١٦ إلى سنة ٥١٨ هـ (١١٢٢ — ١١٢٤ م) ، وبذلك استطاع أن ييسط سلطانه المطلق على منطقة السوس كلها .

وفي سنة ٥١٨ هـ ، غادر المهدي جبل إيجليز بعد أن أقام فيه ثلاثة أعوام ،

(١) كتاب أخبار المهدي ابن نومرت ص ٧٤ - ٧٨ ، وابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوجه ١٤٦) .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ ، وروض القرطاس ص ١١٥ ، والزركشي ص ٤ .

وسار في صحبه إلى تينملل ، وهي محلة صغيرة من عمل هرغة تقع فوق ربوة عالية في سفح جبل دَرَن من شعب جبال الأطلس على قيد نحو مائة كيلومتر من جنوب غربي مراكش ، فقسم أرضها وديارها على أصحابها ، وابتنى بها حصناً في قمة الجبل يشرف عليها من عل ، وابتنى كذلك داراً ومسجداً ، وأدار حول وهداتها سوراً . وكان اختيار المهدي لهذه البلدة يرجع بالأخص إلى حصانة موقعها الفائق ، وكان الوصول إليها من الغرب من طريق ضيق لا يتسع إلا لفارس واحد ، ومن الشرق كذلك من طريق في بطن الجبل تحت راكبها حافات وفوقه حافات ، والسير فيها خطر شاق . وهكذا استقر المهدي في تينملل ، وجعلها مقر رياسته ، ومركز جهاده ، وبذلك أضحي على مسافة قليلة من العاصمة المرابطية الكبرى^(١) .

ويقدم إلينا اليسع بن أبي اليسع عن استيطان المهدي لتينملل رواية ، خلاصتها أن أهلها بعثوا إليه بطاعة قبيلتهم هزيمة الجبل ، وأن سكناهم لديهم أصلح له ، وأقرب إلى بث دعوته ، فسار إليهم ، ونزل بتينملل ، فأكرمه أهلها أيما إكرام ، وأكدوا له خضوعهم وطاعتهم ، وبابعوه ، فرأى المهدي من كثرتهم وحصانة بلدهم مابق لديه ، وكان يخرج إلى الشريعة في خارجها ، ويجلس على حجر مربع أمام المحراب ، ويعظ الناس : فلاحظ أن قبيلة هزيمة محضرون دائماً متقلدين سلاحهم . فسألهم يوماً لم تمسكون سلاحكم ، وإخوانكم الموحدون لا تمسكونه ؟ فتركوا حمل السلاح مدة . وكان المهدي قد توجس من كثرتهم وقوتهم ، ونظر في أمرهم . فجاءوا ذات يوم إلى سماع الوعظ دون سلاح . وكان الموحدون بالعكس قد تقلدوا سلاحهم ، فانقضوا عليهم ، وأوسعوهم قتلاً ، فقتلوا منهم في ذلك اليوم وفقاً لرواية اليسع نحو خمسة عشر ألف ، وسبيت نسائهم ، ونهبت أموالهم ، وقسمت أراضيهم بين الموحدين . ثم ابتنى المهدي سوراً حول تينملل ، وأقام في قمة الجبل حصناً يكشف ما وراءه . وأخذ يبعث بقواته إلى الأماكن المجاورة من أراضي قبيلة تينملل أو هزيمة فيغيرون عليها ، ويقتلون أهلها ، ويسبون ويغنمون .

ووقعت هذه الحوادث كلها ، حسبما يخبرنا ابن القطان في سنة ٥١٨ هـ^(٢) (١١٢٤م)

(١) أتيح لي خلال إحدى زياراتي للمغرب أن أزور بلدة تينملل ، وأن أتأمل موقعها الحصين في سفح جبال الأطلس ، وهي اليوم بلدة صغيرة تحتوى على مساكن قليلة وأمامها مسجد المهدي وهو في حالة خربة ، وعلى مقربة منه موضع تظلل الأشجار ، قيل لنا إنه قبر المهدي .

(٢) ابن القطان عن اليسع ، في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٤٦ ب و ٤٧ ا و ب) .

وأخذ المهدي بعد ذلك يتأهب للمرحلة التالية ، وربما الحاسمة ، في صراعه مع المرابطين. وكان قد اعتاد أن يسميهم « بالحجسين » . وترجع هذه التسمية إلى حديث نقله إلينا أبو بكر الصنهاجي في كلامه عن الغزوة التاسعة ، وذلك أن المهدي سأل أنصاره الموحدين في هذه الغزوة ، وكان مشاركاً فيها ، عما يقوله المرابطون عنهم ، فقالوا إنهم لقبونا بالخوارج ، فقال المهدي « سبقونا بالقبيح » لو كان خيراً أحجموا عنه ، لقبوهم أنتم ، فإن الله ذكر في كتابه : « فن اعتدى عليكم ، فاعتدوا عليه » قولوا لهم أنتم أيضاً « المحسمون » . ومن ذلك الحين يطلق الموحدون على خصومهم المرابطين لقب الحجسين ، ويشير إليهم المهدي في سائر كتاباته بهذا اللقب^(١) .

ورأى المهدي ، استعداداً لهذا الصراع ، أن يستوثق من ولاء أنصاره ، فأمر أن ينادى في الجبل بدعوة الناس كافة ، وندب أبا محمد البشير لتمييز الناس ، فكان يخرج قوماً عن يمينه ويسمهم أهل الحنة ، ويخرج آخرين عن يساره ويسمهم أهل النار ، وهم الذين يشك في ولائهم ، وفي اعتقادهم أن ابن تومرت هو المهدي المعلوم . ويقول لنا ابن القطان ، إن البشير كان يطلق أهل اليسار ، وهم يعلمون أن ليس لهم إلا القتل فلا يفر منهم أحد ، وكان إذا اجتمع منهم كثير قتلهم قراياتهم ، وقتل الأب ابنه ، والابن أباه والأخ أخاه ، ولم تقل لنا الرواية ، ماذا كان مقياس الولاء أو المروق في هذا التمييز ، ولكن المفروض أنه انتهى بسحق المنافقين والمثبطين من صفوف الموحدين^(٢) .

ولمحمد البشير هذا ، وهو كما نذكر من أصحاب المهدي العشرة ، قصة ذكرها لنا ابن القطان نقلاً عن اليسع في أخبار سنة ٥١٩ هـ ، وهي التي وقع فيها التمييز . وذلك أن البشير كان منذ البداية يتظاهر بالبله ، ويلتزم الصمت والعزلة ، وتأخذه سنوات من النوم ؛ ففي ذات يوم خرج المهدي إلى الناس ، وقال لهم ، أتعرفون البشير ، فقالوا ومن هو ؟ فقال لهم هو الونشريشي ، وأنتم تعلمون أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وتعرفون أنه لا يثبت على آية ، ولكن الله قد جعله مبشراً لكم ، مطعماً على أسراركم ، وهو من آيات الله تعالى في هذا الأمر . وكان المهدي

(١) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٧٧ ، وراجع كتاب ابن تومرت مهدي الموحدين أو كتاب أعز ما يطلب ص ٢٥٨ .

(٢) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط لوحة ١٥٠) ، ونقل هذه الرواية ابن عذارى (في الأوراق المخطوطة السالفة الذكر هـ ٨٢) ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ .

قد عني سرّاً بتحفيظ القرآن للبشير ، فاستعرضه أمامهم ، وقرأه عليهم في أربعة أيام ، وركب أمامهم حصاناً فأتقن ركوبه ، ثم قال لهم المهدي . إن البشير هذا مطلع على الأنفس محدث ، وأنه يوجد إلى جانب الموحدين ، أقوام منافقون ، وقف البشير على دخيلتهم ، وأنه لا بد من النظر في أمورهم حتى يتم العدل^(١) .

وفي العامين التاليين ، وقعت بين الموحدين والمرابطين بضعة معارك . يصعب استجلاء تفاصيلها . وكان علي بن يوسف قد بعث جيشاً ليحاول اقتحام تينملل معقل المهدي ففشل وهزم . وكانت خطة المهدي ، أن يلتزم الدفاع في معاقلة الجبلية الوعرة ، وألا يهبط إلى السهل ، ليحمل أعداءه المهاجمين أن يصعدوا إليه إذا شاءوا قتاله^(٢) ، وكانت هذه الخطة تكبد المرابطين مشقات جمة ، وكان الفشل مصيرهم دائماً كلما حاولوا القيام بدور الهجوم .

وفي سنة ٥٢٠ هـ بدأ المهدي في تنفيذ خطته من الاضطلاع بالهجوم ، وغزو لتونة على نطاق واسع ، فبعث جيشاً ضخماً من الموحدين بقيادة أبي محمد البشير ، فغزاهم أراضي كيك شمالي تينملل وغربي أغمات ، فبعث علي بن يوسف لردهم جيشاً كبيراً حسن الأهبة ، بقيادة أخيه الأمير أبي الطاهر تميم ، فالتقى الجمعان على مقربة من جبل كيك ، ف وقعت الهزيمة على المرابطين ، وجد الموحدون في مطاردتهم حتى جبل وريكة قبل أغمات ، فلقيتهم هناك قوات مرابطية جديدة بقيادة أبي بكر بن علي بن يوسف ، وقيل بقيادة يطى اللمتوني ، وجموع غفيرة من أهل أغمات وغيرهم ، فانهزم المرابطون مرة أخرى ، ووصل الموحدون في زحفهم إلى أسوار مراکش ، ثم ارتد قائدهم البشير بقواته عائداً إلى الجبل ، وأمر علي بن يوسف أن تسد جميع الطرق الصاعدة التي ينزل منها الموحدون من الجبال إلى السهل ، حتى يعرقل بذلك نزولهم ، ويتقرب حرب المفاجأة التي درجوا عليها^(٣) . وكان خلال الأعوام الثلاثة التي قضها المهدي بجبل إيجليز قد عهد بحراسة طرق الجبل إلى الفلاكي الأندلسي ، وهو مغامر وقاطع طريق من أهل إشبيلية ، كان قد ذاع صيته ، وتاب ودخل خدمة الأمير ، فقام بمهمته خير قيام ، وأقام

(١) ابن القطان في نظم الجحان (المخطوط السالف الذكر لوحة ٤٩ ا و ب) .

(٢) أحبار المهدي ابن تومرت ص ٧٥ .

(٣) ابن القطان في نظم الجحان (المخطوط السالف الذكر) وابن عذاري في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبريس ص ٨٧) ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ .

سلسلة من الحصون سد بها ثغرات الجبل، ثم كان له بعد ذلك شأن سوف نعود إليه . وكانت المعركة التالية أعظم المعارك التي اضطرت بين الموحدين والمرابطين ، وفيها وضع المهدي خطته لافتتاح مراكش والقضاء على الدولة المرابطية في عقر دارها . وكان المهدي قد بلغ عندئذ ذروة سلطانه ونفوذه بين قبائل المصامدة ، ونفذت طاعته إلى أعماق تلك المضارب ، وبلغت جموعه أعظم حد من الكثرة والتوثب والظلم إلى القتال . وكانت الانتصارات المتوالية التي أحرزتها جموع المهدي على المرابطين . تذكى من عزمه وثقته في بلوغ النصر النهائي . وعندئذ وجه المهدي رسالة بخطه قرئت على الموحدين في سائر النواحي ، ووجهت بالأخص إلى جزولة وملطة وهنكية ودرعة وصنهاجة القبلة وهسكورة القبلة . وسائر القبائل المجاورة ، وفيها يستدعيهم ويأمرهم بالقدوم عليه ، وكان المهدي إلى جانب تسميته للمرابطين بالملثمين والمجسمين ، والحشم . قد أسبغ عليهم عندئذ اسما جديداً هو « الزراجنة » وذلك تشبيهاً لهم بطائر يقال له الزرجان ، وهو طائر أسود البطن أبيض الريش . لأنهم أى المرابطين « بيض الثياب سود القلوب »^(١) . وهرعت الجموع إلى المهدي من كل صوب . وهى في غاية الاستعداد والأهبة ، واجتمع منها جيش عظيم قوامه نحو أربعين ألف مقاتل ، منهم أربعائة فارس فقط ، والباقي من الرجالة ، وقدم المهدي على هذا الجيش أبا محمد البشير أعظم قواده ، وعبد المؤمن بن على . وجعل عبد المؤمن إمام الصلاة ، ولم يصحب المهدي جيشه الحرار في هذه الغزوة لمرضه . ونزل الموحدون من سفوح الجبال إلى السهول يتصدون إلى مدينة مراكش .

وهنا تضطرب الرواية أولاً في تحديد تاريخ هذا الزحف الموحدى على العاصمة المرابطية . وثانياً في ترتيب الوقائع . فأما من حيث التاريخ فإن اليسع يضع تاريخ هذا الزحف في سنة ٥٢١هـ (١١٢٧م) ، ولكن ابن القطان يعارضه . ويقول إنه في سنة ٥٢٤هـ وهى السنة التى توفى فيها المهدي ، وأن هذا هو قول سائر المؤرخين . ويقدم إلينا ابن القطان تفاصيل بعض المعارك الأولى التى وقعت قبيل نشوب المعركة العامة تحت أسوار مراكش ، فيقول إن معركة وقعت بين الموحدين وبين المرابطين بقيادة أبى بكر بن يندوج بكى هزم فيها المرابطون . واستولى الموحدون على سائر سلاحهم ومنايعهم . ثم تلتها معركة ثانية ، وكان المرابطون في جيش ضخم

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره) .

بقيادة بكو بن على بن يوسف ، ومعه يطي بن اسماعيل ، وكان الموحدون بقيادة محمد البشير ، ووقعت المعركة في الحروبة ، فانهزم المرابطون ، وسقطت محلاتهم ومتاعهم ودوابهم وسائر أسلحتهم في أيدي الموحدين ؛ ثم وقعت معركة ثالثة أمام أغمات ، وكان المرابطون قد جمعوا أشتات قواتهم واستعدوا للقاء الموحدين من جديد ، وانضمت إليهم حشود عظيمة من أهل أغمات . وكانت القوات الموحدية عندئذ بقيادة عبد المومن بن على وأبي حفص عمر بن أصناج ، وأبي عمران موسى بن تمارى . فنشبت بين الفريقين معركة هائلة ، هزم فيها المرابطون ، وقتل منهم ومن أهل أغمات جموع غفيرة ، واستول الموحدون على سائر محلاتهم وعتادهم وسلاحهم^(١) . ثم زحف الموحدون على مراكش ، ورابطوا تجاه باب الشريعة ، وكان على بن يوسف قد حشد في تلك الأثناء قواته ، واستعد للقاء الموحدين أعظم استعداد ، وبلغ الجيش المرابطي يومئذ زهاء مائة ألف مقاتل ما بين فارس وراجل ، وكان تحت إمرة الزبير بن على بن يوسف . والتقى الجمعان في ظاهر مراكش ، فكتب عبد المومن تنفيذاً لتوصية المهدي ، إلى على بن يوسف يدعوه إلى ما يدعوا إليه المهدي ، من قمع البدع ، وإحياء السنة ، والمبادرة إلى بيعه المهدي ، فرد عليه أمير المسلمين يحذره عاقبة مفارقة الجماعة ، ويذكره الله في سفك الدماء وإثارة الفتنة^(٢) ، فلم يلتفت عبد المومن لتحذيره ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة ، هزم فيها المرابطون ، وقتلت منهم جموع غفيرة ، وهرعت فلولهم مرتدة إلى المدينة ، فازدحموا على الأبواب في الدخول ، ومات منها في الزحام خلق كثير ، وفر على بن يوسف إلى داخل المدينة من باب المخزن ، وأغلقت المدينة أبوابها فاحتاط بها الموحدون وضربوا حولها الحصار .

واستمر حصار الموحدين لمراكش زهاء أربعين يوماً . وكان ما يزال بداخل المدينة جموع ضخمة من القوات المرابطية ومنها زهاء أربعين ألف فارس ، وأعداد لا تحصى من الرجال ، وكان المرابطون يخرجون من وقت لآخر لقنال الموحدين ، وتنشب بين الفريقين تحت الأسوار معارك طاحنة ، يقف فيها الكثير من الجانبين ، وكان من أعنف مواقع من هذه المعارك ، معركة هزم فيها المرابطون قبالة باب دكالة ، وهلك منهم عدد جسيم خلال الزحام الهائل ، الذي وقع عند دخولهم من هذا

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره) .

(٢) المراكشي في المعجب ص ١٠٦ و ١٠٧ .



الباب ، وفرت منهم جموع لم يستطيعوا الدخول ، حتى وصلوا إلى وادى أم الربيع ، فلما عادوا بعد ذلك إلى المدينة أمر على بن يوسف بخلق لحاهم ، ومثل بهم ليكونوا غيرة لغيرهم^(١) .

وفي تلك الأثناء كان على بن يوسف قد استنفر سائر أمراء لمتونة وولاتها وقادتها ، لموافاته بمحشودهم ، فقدمت إليه الأمداد من سائر النواحي ، ووافاه بالأخص جيش ضخيم حسن الأهبة ، قام بمحشده وإلى سجلماسة وانودين بن سير . وخرج على ابن يوسف في قواته من المدينة ، وانضمت إليه الأمداد الزاخرة ، وتولى قيادة الحيوش المرابطية الشيخ أبو محمد وانودين بن سير . وكان الموحدون منذ بدء الحصار ، قد ضربوا محلهم خارج المدينة تجاه باب الدباغن وباب إيلان أمام بستان كبير ، والبستان في اللغة المحلية يسمى بالبحيرة ، ومن ثم فقد سميت المعركة التي تلت بموقعة البحيرة^(٢) . ففي ظاهر تلك البقعة وقعت بين المرابطين والموحدين أعظم معركة نشبت في ذلك الصراع المروع ، وكان المرابطون يتفوقون على الموحدين بكثرتهم تفوقاً ظاهراً ، وكان الموحدون من جهة أخرى ، قد أرهقتهم المعارك المتوالية التي اضطروا إلى خوضها خلال الحصار . وبدأ القتال بمعركة محلية نشبت بين جيش سجلماسة وحرس الأمير النصراني ، وبين قوة من الموحدين ، فهزم الموحدون في هذه الحولة الأولى ، وكان لهذا النصر أثره في إذكاء روح المرابطين المعنوية ، والتدليل على أن الموحدون ليسوا من المنعة كما بدوا في المعارك الأولى . ثم نشبت بين الفريقين معركة عامة ، قاتل فيها الموحدون بشجاعة فائقة ، ولكن المرابطين فضلاً عن كثرتهم ، كانت تحذوهم عندئذ ، روح مضطربة من التوثب والظمأ إلى الانتقام ، فقاتلوا بشدة رائعة ، حتى رجحت كفتهم وأصيب الموحدون بهزيمة شنيعة ، وقتلت منهم جموع غفيرة يقدرها ابن القطان بأربعين ألفاً ، ويقول إنه لم يسلم من الموحدين إلا أربعمائة بين فارس وراجل^(٣) ، بل قيل بأن الجيش الموحدى ، قد أفنى عن آخره ولم تبق منه سوى فلول يسيرة^(٤) ، وسقط

(١) ابن عذارى عن ابن القطان في (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر هسبيرس ص ٨٨) .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٥ .

(٣) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحه ١٥٠) . وراجع ابن عذارى

(في الأوراق المخطوطة - هسبيرس ص ٩٣) .

(٤) الحلل الموشية ص ٨٥ ، وهو أيضاً قول عبد الملك بن صاحب الصلاة مؤرخ الموحدين

(أورده صاحب الحلل ص ٨٦) .

في الميدان أبو محمد البشير أعظم قادة الموحدين ، وسقط معه معظم الرؤساء والقادة ومن هؤلاء غير البشير ، أربعة من أصحاب المهدي العشرة ، هم سليمان بن مخلوف الحضرمي ، وأبو عمران موسى بن تماري الكدميوي ، وأبو يحيى بن يكيث ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان . ومما هو جدير بالذكر أن البشير لم يعثر له بأثر ، ولم توجد جثته ، فلداع بين المتعصبين من المصامدة أنه رفع إلى السماء^(١) . ولكن الحقيقة هي أن عبد المؤمن بادر بدفنه في مكان سقوطه . ولم ينقذ البقية اليسيرة الباقية من الموحدين سوى دخول الليل وهطل الأمطار ، فارتد قائدهم عبد المؤمن ، وهو جريح قد أصيب في فخذه ، في فلوله تحت جناح الظلام ، متجهاً صوب أغمات ، فطارده المرابطون ، حتى أرض هيلانة ، وهناك وقعت بينهما معركة أخرى ، قاتل فيها الموحدون بشجاعة اليأس ، ولكنهم هزموا مرة أخرى ، وقتل منهم عدد جم يقدره ابن القطان بنحو اثني عشر ألفاً ، وكان الموحدون قد عادوا فجمعوا أشتات قواتهم ، وأوعبوا في الحشد . وارتد المرابطون بعد ذلك إلى مراكش ، وسارت فلول الموحدين إلى تينملل . ويضع ابن القطان تاريخ هذه الهزيمة الساحقة للموحدين في يوم السبت الثاني من جمادى الأولى سنة ٥٣٤ هـ (١١ أبريل سنة ١١٣٠ م) .

وكان المهدي ابن تومرت عندئذ مريضاً ، فلما وقف على أخبار النكبة التي أصابت جيشه ، سأل هل « عبد المؤمن في الحياة » ، ولما أجيب بالإيجاب ، قال « الحمد لله قد بقي أمركم » . ويقول لنا أبو بكر الصنهاجي إنه هو الذي تولى لإبلاغ المهدي نبأ نجاة عبد المؤمن . وينقل لنا عبارات المهدي بالفاظها^(٢) .

وهكذا أحرز المرابطون نصرهم الساحق على الموحدين . بعد أن منوا قبل ذلك بسلسلة من الهزائم المتوالية . ويذكر لنا ابن صاحب الصلاة أن هزائم المرابطين بلغت قبل موقعة البحيرة نحو أربعين هزيمة . وأن المهدي اشترك في أربع من هذه الغزوات الظافرة ، كما يذكر لنا أن الموحدين في موقعة البحيرة « قتلوا أجمعين ، ولم ينج منهم إلا نفر يسير » . وهذا القول من مؤرخ الموحدين . يدلنا على فداحة النكبة التي نزلت بجيوش المهدي ، في تلك الموقعة الهائلة . ولكن سوف نرى أن إحرار المرابطين لهذا النصر لم ينجحهم من قدرهم المحتوم . وأن ما وضعه المهدي

(١) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٢٨ .

(٢) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٧٩ .

من الأمل والثقة في طالع تلميذه وزعيم أصحابه ، عبد المؤمن بن علي ، كان ينم عن تنبؤ صادق وفراصة دقيقة^(١) .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما هنالك من خلاف حول تاريخ موقعة البحيرة ، فإن اليسع يضع تاريخها في سنة ٥٢١ هـ ، ويضعه ابن القطان في سنة ٥٢٤ هـ ، ويضع ابن خلدون تاريخها في سنة ٥٢٢ هـ ، ويقول لنا إن وقوعها كان لأربعة أشهر قبل وفاة المهدي ، وهو يتفق بعد ذلك مع نفسه فيقول لنا إن المهدي توفي في نفس العام أي في سنة ٥٢٢ هـ^(٢) . ولكنه لما كان من المتفق عليه أن هزيمة الموحدين وقعت قبيل وفاة المهدي بأشهر قلائل ، فإن هذه الرواية لا يمكن الأخذ بها ، إذ أن المعول عليه أيضاً ، هو أن المهدي توفي في سنة ٥٢٤ هـ .

ولدينا إلى جانب رواية ابن القطان رواية موحدية قاطعة ، تضع تاريخ المعركة في سنة ٥٢٤ هـ ، هي رواية أبي بكر الصنهاجي أحد أصحاب المهدي الذين شهدوا الموقعة^(٣) . ويأخذ بهذه الرواية ابن الأثير^(٤) وصاحب روض القرطاس^(٥) ، والزركشي^(٦) . وأما عن وفاة المهدي ، فإن المتفق عليه ، أنه كان مريضاً وقت موقعة البحيرة ، وأن مرضه اشتد بعد وقوع الهزيمة ، ولم يعيش طويلاً أو لم يعيش بعد ذلك سوى أيام قلائل . وليس أدل على ذلك من أن الموحدين يسمون العام الذي توفي فيه المهدي وهو عام ٥٢٤ هـ بعام البحيرة^(٧) . ويصف لنا أبو بكر الصنهاجي ، وقد كان شاهد عيان ، تصرفات المهدي الأخيرة ، فيقول لنا إنه استدعى الموحدين ، فحشروا كلهم ، ثم وعظ الناس حتى أضحى النهار ، ثم دخل الدار فغاب ساعة ، ثم خرج حاسر الرأس ، وقال للناس إنني مسافر عنكم سافراً بعيداً ، فضج الناس بالبكاء وودعوه ، ثم دخل داره ، ولم يره أحد بعد ذلك .

(١) تراجع تفاصيل موقعة البحيرة في نظم الجمان لابن القطان (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٤٠ وما بعدها) ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٥ ، والخلل الموشية ص ٨٤ - ٨٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ و ٢٢٩ ، وأخبار المهدي ابن تومرت ص ٧٨ و ٧٩ ، والمعجب ص ١٠٧ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٣) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٢٨ .

(٤) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٤ .

(٥) روض القرطاس ص ١١٦ .

(٦) الزركشي في تاريخ الدولتين ص ٤ .

(٧) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ١٤٢) وابن خلكان ج ٢

والمعول عليه أن المهدي توفي في شهر رمضان سنة ٥٢٤ هـ (أغسطس سنة ١١٣٠ م)، ويقول لنا أبو بكر الصنهاجي إنه توفي يوم الأربعاء أو يوم الخميس الخامس والعشرين من رمضان سنة ٥٢٤ هـ^(١)، وتؤيد هذه الرواية رواية موحدة أخرى، هي رواية عبد الملك بن صاحب الصلاة مؤرخ الدولة الموحدية، مع خلاف يسير في يوم الوفاة، وهي أن المهدي توفي يوم الأربعاء الثالث عشر من رمضان سنة ٥٢٤ هـ^(٢)، وقال ابن القطان، ويتابعه صاحب الحلل الموشية إنه توفي يوم الاثنين الرابع عشر من رمضان سنة ٥٢٤ هـ^(٣). وكان عمر المهدي عند وفاته، على قول ابن القطان، نحواً من خمسين سنة^(٤)، وعلى قول ابن الأثير إحدى وخمسين سنة أو خمساً وخمسين سنة^(٥)، مما يرد تاريخ مولده في الحالة الأولى إلى سنة ٤٧٤ هـ، وفي الثانية إلى سنة ٤٧٣ هـ، وفي الثالثة إلى سنة ٤٦٩ هـ. وقد سبق أن أشرنا إلى هذا الخلاف في تاريخ موالد المهدي.

وكان المهدي ابن تومرت من أعظم الدعاة الدينيين، وأغزرهم علماً، وأشدهم دهاء، وأقواهم نفساً، وأشدهم تأثيراً في النفوس. وكان إلى جانب ذكائه ودهائه، يتمتع بمنطق قوى، ومحاجة قاطعة، وذلاقة مؤثرة. وكان خطيباً مفوهاً، فصيحاً في العربية والبربرية معاً. يستميل الجموع برائع بيانه ووعظه. وكان متمكناً من علوم القرآن والسنة ومن الأصولين، أصول الفقه وأصول الدين. شديد التقشف والزهد والورع، لم يلبس قط سوى ثياب الصوف من قميص وسراويل وجبة، وقد يرتدى الثياب المرقعة، ولا يقبل على شيء من متاع الدنيا، حتى قيل إنه كان يقتات من غزل أخت له في كل يوم، رغيفاً بقليل من سمن أوزيت، ولم يتحول عن ذلك حينما سما شأنه وأقبلت عليه الدنيا^(٦). وكان

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ٨٣. وابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره لوحة ١٤٢).

(٢) أورده روض القرطاس ص ١١٧.

(٣) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٤٢)، والحلل الموشية ص ٨٦.

(٤) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط لوحة ١٣٣). ونقله ابن عذارى في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة سالفه الذكر - هـ بـ ص ٩٤).

(٥) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٥.

(٦) ابن القطان عن ابن صاحب الصلاة (في نظم الجمان المخطوط السابق ذكره لوحة ١٤٥)،

وابن حلكان (عن المغرب) ح ٢ ص ٥٢.

ظهوره في ذلك المجتمع البربري الساذج ، الذي اختاره مسرحاً لدعوته ، والذي كان نخم عليه الجهل المطبق ، وتعصف به الخرافات والأساطير ، يتسم بصفات الزعامة الخارقة أو النبوة ، ومن ثم فقد ألقى ابن تومرت الطريق ممهداً ليعلم دعوته ، وليتشح بثوب المهدي المنتظر ، وينتحل صفة الإمام المعصوم ، وقد كان ابن تومرت من بين دعاة المهديّة ، أوفرهم عزماً وبراعة ، وأشدّهم تأثيراً وسحراً .

وكان يدعو الناس إلى عبادة الله تعالى ، ويخبرهم بأنه تعالى قد فرض عليهم الصلوات الخمس في يومهم وليلتهم ، وفرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم ، وترد على فقرائهم ، ويأمرهم بقراءة القرآن وحفظه ، ولزوم الأحزاب التي ألفها لهم بعد صلاة الصبح ، وبعد المغرب ، وأمر المؤمنين ، إذا طلع الفجر ، أن ينادوا « أصبح والله الحمد » إشعاراً بلزوم الطاعة وحضور الجماعة ، وللغزو لكل ما يؤمرون به ، وفرض عقوبة المخالفين .

ولكن ابن تومرت إلى جانب هذه الصفات الجليلة ، كان يتسم بطائفة من الصفات المثيرة ، فقد كان شديد التعصب ، صارم النفس ، سفاكاً للدماء ، غير متورع فيها ولا متحوط ، يهون عليه سفك دم عالم من الناس في سبيل رأيه وبلوغ مقصده ، لا تأخذه شفقة ولا رحمة في دماء خصومه ، ويستحل سبي نساءهم وأولادهم ونهب أموالهم^(١) ، ويسبغ على هذا السفك المروع ، صفة الشرعية ، لما يزعمه من مخالفة خصومه لأحكام الكتاب والسنة ، أو لمبدأ التوحيد الذي اتخذه شعاره . وقد رأينا فيما تقدم من مراحل صراعه مع خصومه أمثلة عديدة من هذا الإسراف المفرق في سفك الدماء ، وربما كان فيما ذكر عن المهدي من أنه « كان حصوراً لا يأتي النساء »^(٢) ما يفسر بعض عوامل هذه القسوة المروعة ، وهذا الظلم إلى سفك الدماء .

وبلاحظ العلامة جولدسيهر بهذه المناسبة أن ابن تومرت كان يث في أذهان أنصاره بتدرج غير محسوس ، فكرة محاربة المراطيين ، وأنه حينما كان في بداية أمره ، يقتصر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويتبع ما يقضى به الدين من العمل على حقن الدماء ، ولكنه منذ اتشح بصفة المهدي ، أخذ يشهر الحرب ،

(١) روص القرطاس ص ١١٧ .

(٢) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط لوحة ١٤ ب و ١٣٣) ، ونقله ابن خلدون ج ٦

ويدعو إلى سفك الدماء ، ويقول إن المحاربين الذين يسقطون في هذه المعارك ، إنما هم شهداء في سبيل الله^(١) .

كذلك تنوه الرواية بما جبل عليه ابن تومرت من الخداع والكيد والمكر ، وكيف أنه لجأ إلى هذه الصفات في استهواء الجماهير وخداعها ، واستغلال جهلها ، وسذاجتها ، حتى ذاعت دعوته ، وتمكن أمره^(٢) .

ومن الغريب الذي يلفت النظر في هذا الشأن موقف العلامة الفيلسوف ابن خلدون من ابن تومرت ودعوته ، فهو يدافع عن المهدي ، وعن صحة دعوته وصدق إمامته ، في نبذة طويلة يقول فيها :

« ويلحق بهذه المقالات الفاسدة ، والمذاهب الفائلة ، ما يتناولوه ضعفة الرأي من فقهاء المغرب من القدح في الإمام المهدي صاحب دولة الموحدين ، ونسبته إلى الشعوذة ، والتلبيس فيما أتاه من القيام بالتوحيد الحق ، والنهي على أهل البغي قبله ، وتكذيبهم بجميع مدعياته في ذلك ، حتى فيما يزعم الموحدون أتباعه من انتسابه في أهل البيت ، وإنما حمل الفقهاء على تكذيبه ، ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه ، فإنهم لما رأوا من أنفسهم مناهضته في العلم والفتيا وفي الدين بزعمهم ، ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأي ، مسموع القول ، موطأ العقب ، نفسوا عليه ذلك ، وغضوا منه بالقدح في مذاهبه ، والتكذيب لمدعياته ، وأيضاً فكانوا يؤنسونه من ملوك لمتونة ، أعدائه تجلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم ، لما كانوا عليه من السذاجة ، وانتحال الديانة ، فكان لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة ، والانتصاب للشورى كل في بلده ، وعلى قدره في قومه ، فأصبحوا بذلك شيعة لهم ، وحرماً لعدوهم ، ونقموا على المهدي ، ما جاء به من خلافهم ، والتثريب عليهم ، والمناسبة لهم ، تشيعةً للمتونة ، وتعصباً لدولتهم . ثم يقول دفاعاً عن المهدي : « وما ظنك برجل نقم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم ، وخالف اجتهاده فقهاءهم ، فنادى في قومه ودعا إلى جهادهم بنفسه ، فاقتلع الدولة من أصولها ، وجعل عاليها سافلها ، أعظم ما كانت قوة ، وأشد شوكة ، وأعز أنصاراً وحامية ، وتساقطت في ذلك من أتباعه نفوس لا تحصى إلا خالقها ، قد بايعوه على الموت ، ووقوه بأنفسهم من الهلكة ، فتقربوا إلى الله تعالى باتلاف مهجهم في إظهار تلك الدعوة ،

(١) جولدسيهر في مقدمته الفرنسية السالفة الذكر لكتاب « أعز ما يطلب » ص ١٠٠ .

(٢) روض القرطاس ص ١١٤ و ١١٧ .

والتعصب لتلك الكلمة حتى علت على الكلم ، ودالت بالعدوتين من الدول ، وهو بحالة من التقشف والحصص ، والصبر على المكاره ، والتقلل من الدنيا ، حتى قبضه الله ، وليس على شيء من الحظ والمتاع في دنياه .. فليت شعري ، ما الذى قصد بذلك إن لم يكن وجه الله ، وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله . ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تم أمره ، وانفسحت دعوته ، سنة الله التى قد خلت في عبادته^(١) .

وابن خلدون يقدم إلينا هذا الدفاع عن المهدي في معرض كلامه عن أخطاء المؤرخين وأوهامهم ودعائهم المغرضة . وهو يقدم إلينا منها نماذج ، يصاحبه التوفيق في بعضها ويخطئه في البعض الآخر . ونحن نرى أن التوفيق قد أخطأه في هذا الدفاع عن المهدي ابن تومرت ، وعن صدق دعوته . وقد استعرضنا فيما تقدم من حديثنا عن حياة المهدي ، ما يحملنا على الشك أولاً ، في صدق انتسابه إلى آل البيت ، وثانياً في انتحاله دعوة المهدية ، وهي دعوة نشك أيضاً في صدقها من الناحية الدينية والتاريخية . ونحن نعتقد أن مفكراً عظيماً ، ومؤرخاً فيلسوفاً ، وضعي العقلية ، كابن خلدون ، لا يمكن أن يؤمن بصدق هذه الدعوة ، وإنما حمل ابن خلدون على الدفاع عن المهدي ودعوته ، بواعث خاصة ، أولها أن بنى خلدون - أسرة المؤرخ - كانت مذ غادرت الأندلس في أوائل القرن السابع الهجري - قد نزلت بتونس ، وعاشت في رعاية بنى حفص ملوك الدولة الحفصية الموحدية التى أسسها الأمير أبو يحيى زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص عمر الموحدي ، وتولى أجداد المؤرخ في ظلهم مناصب النفوذ والثقة ، وبدأ هو حياته العامة في ظلهم ، وعاش في كنفهم رديحاً من الزمن ، وأهدى أول نسخة من مقدمته وتاريخه للسلطان أبي العباس الحفصي (سنة ٧٨٤ هـ) ، فلم يكن من المعقول أن يجاهر المؤرخ في مقدمته ، بالطعن في إمامة المهدي ودعوته ، وهى التى كانت أساساً لقيام الدولة الموحدية . وثانياً أنه ليس من المنطق السليم ، أن يكون نجاح دعوة المهدي ابن تومرت ، وما ترتب عليه من قيام الدولة الموحدية ، دليلاً على صدق هذه الدعوة ، لأن النجاح السياسى والعسكرى لداعية أو متغاب لم يكن قط في ذاته دليلاً على صدق إمامة أو دعوة دينية ، وثالثاً أن إنكار صدق دعوة المهدي ابن تومرت لم يكن قاصراً على الفقهاء المرابطين ، الذين يعلل ابن خلدون طعنهم في هذه الدعوة بما كان يجيش في صدورهم من حقد على رجل يتفوق عليهم

بعلمه ، ويغض بهذا التفوق من مكانتهم ونفوذهم القديم لدى الدولة اللاتونية ، بل شمل هذا الإنكار كثيراً من المؤرخين .

ولا يكتفى ابن خلدون بالدفاع عن صحة دعوة المهدي ، بل يقرن ذلك بالدفاع عن نسبه في آل البيت ، وهو هنا في تدليله أضعف منطقاً ، حينما يقول أنه لا دليل يعضد إنكار هذه النسبة ، والناس مصدقون في أنسابهم . وهو إذ يشعر هنا بضعف منطقته ، يقول لنا إن ظهور المهدي لم يكن يتوقف على نسبه ، وإنما قام أمره بعصبية القبيلة في هرغة ومصمودة ، وأن هذا النسب الفاطمي ، كان أمراً خفياً عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم^(١) .

ويذكرنا موقف ابن خلدون في الدفاع عن دعوة المهدي ابن تومرت ونسبه ، بموقفه عن نسب بني عبيد الخلفاء الفاطميين ، فهو يتصدى لتأييده وإثباته ، ويعتبر الطعن فيه من « الأخبار الواهية » التي غنى بتفنيدها في مقدمته ، وأن هذا الطعن يرجع بالأخص إلى الأحاديث التي لفتت لبني العباس خصوم الفاطميين تزلزلاً إليهم ، ويعتمد هنا على نفس النظرية التي لجأ إليها في الدفاع عن دعوة المهدي ، وهو أن ظهور الفاطميين ، وقيام الدولة الفاطمية المترامية الأطراف ، واتصال أمرها نحواً من مائتين وسبعين عاماً ، كل ذلك لا يمكن أن يتم لدعى^(٢) . وهي طريقة معكوسة في التدليل ، ونظرية واضحة الضعف والسقم ، إذ كان على ابن خلدون أن يقدم لنا الأدلة المباشرة ، على صحة نسب الفاطميين لآل البيت ، كما قدم خصومهم الأداة على بطلان هذه النسبة .

وقد تناول كاتب مشرق من كتاب النصف الأول من القرن الثامن الهجري هو الحسن بن عبد الله العباسي في كتابه « آثار الأول وترتيب الدول » ممثل ابن تومرت وقصة ظهوره ، في معرض الكلام عن الزهاد ، والمغالطين باسم الزهد ، والبدعة الذين يعمدون إلى الطعن في أحوال الملك ، وإثارة الجماهير ، وخطر تركهم ، وأنه « ينبغي للملك أن ينظر في حالة هذه الطائفة ، ويميز محققهم من مبطلهم ، ويفرق بين الزاهد والمتزهد ، وفيهم أصناف من أهل الغلط في طريق الزهد والمغالطة لأغراض أخرى ، منهم صنف يغلب عليهم محبة الرياسة والإمرة ، ويتفق أعراض الملك عنهم وانتقباضه لمخالفة طبعه لطباعهم » ، وأن ذلك مما يحملهم على الطعن

(١) ابن خلدون في المقدمة ص ٢٣ .

(٢) ابن خلدون في المقدمة ص ١٧ و ١٨ .

على أحوال الملِك ، وإهماله لضوابط الشريعة ، ثم يجمعون حولهم الجموع ، ويقصون عليهم من الأمور ، « ما يحركون به عزائمهم لتغيير المنكر ، ونصرة الحق ، فإن أهمل الملك أمرهم عظم وتفاقم ، وكان منهم خطر عظيم » .
ويعتبر هذا الكاتب مثل ابن تومرت ، هو أقرب ما جرى في هذا المعنى ، معنى الداعية المتزهد المخادع الذى يبطن انتزاع الرياسة ، وأنه تذرع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومعه طائفة يسيرة ، حتى اشتهر أمره ، ولم يعن الملك بشأنه ، ولم يدبر بجلده أنه قد يغدو خطراً على ملكه ، حتى كثرت جموعه واشتدت شوكته ، وانتهى بالاستيلاء ، على البلاد وقيادة الجيوش (١)

وقد نجح المهدي في إقامة نوع من الحكومة الشيوعية (الدينية) ، وكان الجماعة أو أصحابه العشرة الأوائل هم أعضاء وزارته ، يبحث معهم جلائل الأمور ، وعندئذ يخلو بهم ولا يحضر معه أحد سواهم . فإذا جرى البحث في أمور أقل أهمية ، حضر الخمسون من الصحب في هيئة جمعية استشارية ، وإذا جرى البحث في الشؤون العادية حضر معهم السبعون . ومن جهة أخرى فقد ذكر لنا اليسع أسماء سبعة رجال ، قال إنهم كانوا للمهدي رجال مشورته ، وهم أبو سليمان من هرغة ، وأبو الحسن ، وأبو وزغيف بن ياموهر بن ياوجان ، وأبو دايور يغور ميوركن ، من أهل تينمزل ؛ وقطران بن ماغليفة ، وأبو محمد سكانية ، وأبو عمران موسى بن واحد بن من أهل هنتانة (٢) .

واتخذ المهدي شعاراً لجيوشه علماً أبيض كتب على أحد وجهيه ، « الواحد الله . محمد رسول الله . المهدي خليفة الله » ، وكتب على الوجه الثاني « وما من إله إلا الله . وما توفيق إلا بالله . وأفوض أمري إلى الله » (٣)

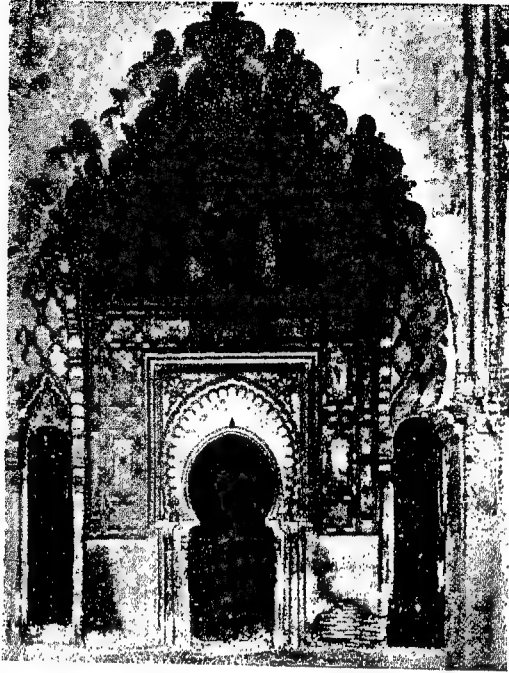
وأما عن شخصه ، فقد كان المهدي ، حسبما تصفه الرواية ، رجلاً ربعة حسن التكوين ، مفلج الثنايا ، عظيم الهامة ، أسمر مشوب بحمرة ، غائر العينين ، حديد البصر ، أقي ، خفيف العارضين ، له شامة سوداء في كفه الأيمن (٤) .

(١) كتاب « آثار الأول وترتيب الدول » المنشور على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطي (القاهرة سنة ١٣٠٥ هـ) ص ٦١ و ٦٢ .

(٢) هذا ما نقله إلينا ابن الفطان عن اليسع في نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره لوحة ١٠ ب و ٣٣ ب) .

(٣) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط لوحة ٤٣ ب) .

(٤) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط لوحة ١٤ ب) ، وكذلك ابن خلكان ج ٢ ص ٥٢ ، وروض القرطاس ص ١١٧ .



تينملل : محراب جامع
المهدي ابن تومرت



تينملل : إحدى واجهات
جامع المهدي
وأمامها لقيف من قبيلة جندافة

ولما توفي المهدي ، كتم أصحابه الأقربون موته حيناً تختلف الرواية في مداه . ويذهب ابن القطان ، ويتابعه صاحب روض القرطاس ، إلى أن هذا الكتمان استمر زهاء ثلاثة أعوام حتى سنة ٥٢٧ هـ^(١) ، وهي رواية تحمل طابع المبالغة . وعلى أى حال ، فقد كتمت وفاة المهدي حتى اتفق أصحابه على اختيار من يخلفه منهم ، وقد كان هذا الخليفة الأول لدولة الموحدين هو عبد المؤمن بن علي ، تلميذ المهدي وأحب أصحابه إليه ، وكان أول ما عمله أن قام بمواراة المهدي في مثواه الأخير . ويقول لنا ابن القطان ، وهو من أوثق مؤرخي الموحدين ، إن المهدي دفن بتينملل دون تخصيص للمكان ، ويقول لنا ابن خلدون إن عبد المؤمن قام بدفن المهدي في مسجده الملاصق لداره^(٢) ، الكائن بتينملل . وقد أتبع لنا أن نرور تينملل ، وأن نشهد مسجد المهدي . وتينملل اليوم محلة صغيرة (مدشر) تقع على سفح التل المنحدر إلى الوادي ، وتظللها من وراء البعيد آكام الأطلس العالية ، ومن بينها قمة « طبوتقال » الشهيرة التي يزيد ارتفاعها على أربعة آلاف متر ، وبها مساكن قليلة ، ولا يعدو سكانها مائة من الأنفس ، ولكنها مازالت تشتهر بكونها بلد المهدي ابن تومرت ، وأما المسجد فهو قائم في سفح الجبل ، وهو اليوم طلل دارس لا تقام فيه الشعائر ، ولكن جدرانها وعقوده مازالت قائمة ، وله محراب جميل . ولم نجد به ضريح المهدي حسبما تشير إلى ذلك الرواية التاريخية .

بيد أنه توجد على قيد نحو ستين متراً من المسجد ، بقعة صغيرة تظللها الأشجار ، وتقع فوق ربوة منحدرة ، فهذه البقعة تعينها الرواية المتواترة ، وهي رواية قبيلة جندافة ، التي تقطن هذه الناحية منذ أجيال ، بأنها تضم رفات المهدي وبها قبره ، وإن لم يك ثمة ما يدل على وجود قبر بها ، ولا تميزها سوى بضعة أحجار زرقاء ظاهرة الرؤوس ، يقال إنها شواهد القبر . وربما كانت هذه الرواية المتواترة في تعيين قبر المهدي ، تتفق مع ما يقول لنا ابن خلكان ، من أن المهدي « قد دفن بالجيل ، وإن قبره هناك مشهور يزار »^(٣) . وعلى أى حال فإن المتفق عليه هو أن المهدي يثوى ثواه الأخير بتينملل مبعث دعوته ، ومهد دولته ، وذلك سواء داخل مسجده أو في بقعة قريبة منه .

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره) ، وروص القرطاس ص ١١٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٥٢ .

الفصل الثالث

عقيدة المهدي ابن تومرت وتعاليمه الدينية والسياسية

تراث المهدي الفكري والديني . كتاب أعز ما يطلب ومحتوياته . فاتحته . طريق العلم . تحصيل الفقه . التواتر . رأى ابن تومرت في أصول الشريعة . حملته على الاجتهاد . تمسكه بالتفسير الظاهري . نظرية الإمام المعصوم هي السبب . معارضة الغزالي لهذه النظرية . ابن تومرت لم يتأثر بتعاليم الغزالي . تعليق العلامة جولديسير على ذلك . فكرة التوحيد عند ابن تومرت . نظريته في الإمامة . كيف يعرض لنا وجوب الإيمان بها . نظرية المهدي المنتظر . اعتمادها على الأحاديث الموضوعة . كيف يعرضها لنا ابن تومرت . وجوب طاعة المهدي باعتبارها طاعة الله ورسوله . قواعد علوم الدين والدنيا . تكفير من يشك في أمر المهدي . حلة ابن تومرت على المرابطين . العلامات التي ينسبها لهم . ما أحدثوه من المناكر . تحريم طاعتهم ووجوب جهادهم . نعمته خم بالمجسمين . حملته على اللثام . مظاهر الفساد أيام المرابطين . الطائفة التي تقوم آخر الزمان وتقاتل على الحق . استعارة فكرة التوحيد من المعتزلة . مناقضة فكرة التجسيم للتوحيد . حديث الصلاة والطهارة والفلول . تحريم الخمر . كتاب الجهاد تصنيف الخليفة أبي يعقوب يوسف . كتاب موطأ المهدي ومحتوياته . انتشار كتب المهدي بين البربر لكتابتها بالبربرية .

نقف الآن قليلا في تتبع ذلك الصراع المرير ، الذي اضطرم بين المرابطين والموحدين ، لنستعرض طرفاً من عقائد المهدي وآرائه ومبادئه الدينية والسياسية . لقد انتهى إلينا لحسن الطالع من تراث المهدي ، الفكري والديني ، ما يلقي الضياء على تلك المبادئ والآراء ، التي اتخذها سنداً لدعوته الدينية ، والتي جعل منها عقيدة جديدة ، يمكن أن توصف بالعقيدة الموحدة .

ويجتمع تراث المهدي الفكري والديني في كتابين ، أولهما يضم مبادئه ، ونظرياته في الأصول ، وفي الإمامة ، وفي التوحيد والعلم ، وهو أهم الكتابين ، وقد عرف بكتاب (أعز ما يطلب) لاستهلاله بتلك العبارة ، والثاني كتاب « الموطأ » أو « موطأ الإمام المهدي » ، وقد وضعه المهدي في العبادات والمعاملات والحدود ، أو بعبارة أخرى في علم الفروع ، على مثل موطأ الإمام مالك . وقد وُصف الكتاب الأول في أصل نسخته المخطوطة بأنه « سفر فيه جميع

تعاليق الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، رضى الله عنه ، مما أملاه سيدنا الإمام الخليفة أمير المؤمنين أبو محمد عبد المؤمن بن علي أدام الله تأييدهم ، وأعز نصرهم ومكن سعودهم » . ومعنى ذلك أن الكتاب لم يصل إلينا من المهدي مباشرة ، وأن الذي نقل إلينا تعاليم المهدي وآراءه ودونها ، هو تلميذه عبد المؤمن بن علي أول خلفاء الموحدين .

ويضم هذا الكتاب فصولاً وأبواباً عديدة ، ويشتمل على الكلام عن الجهل والشك والظن ، والأصل والفرع والتواتر ، وعن الصلاة ، وكون الشريعة لا تثبت بالعقل ، وعن العموم والخصوص ، وعن العلم ، وعن العقيدة ووجود الباري سبحانه ، وعن التنزيهات والتسبيحات ، ثم الكلام عن الإمامة وعلامات المهدي ، وعن طوائف المبطلين من المثلثين والمحسمين وعلاماتهم ، وعن الطائفة التي تقاتل عن الحق وتقوم بأمر الله ، وعن علاماتها وخواصها ، وعن التوحيد وثبوته ، وما يتعلق بذلك من الإيمان بالله ورسوله ، وعن تحريم الخمر وما ورد في ذلك ، ويختتم الكتاب بفصل عن الجهاد ، وهو منسوب للخليفة أبي يعقوب يوسف ولد الخليفة عبد المؤمن .

يفتح المهدي كتابه بهذه الفقرة الرنانة التي أضحى مستهلها عنواناً لكتابه وهي : « أعز ما يطلب ، وأفضل ما يكتسب ، وأنفس ما يدخر ، وأحسن ما يعمل ، العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير ، هو أعز المطالب ، وأفضل المكاسب ، وأنفس الذخائر ، وأحسن الأعمال » .

وأول ما يلفت النظر في أسلوب الكتاب جزالته ، فالمهدي رغم أصوله ونشأته البربرية ، يقدم إلينا آراءه في أسلوب قوى ، وبيان عربي متين ، ولكنه إلى جانب ذلك مولع بالتصنيف والتقسيم ، يكثر من ذلك في كل باب وفصل ، وهذه النبرة التي يبدأ بها المهدي كتابه ، والتي يتحدث فيها عن فضل العلم وطرقه ، تعتبر نموذجاً لما يتبعه في سائر الفصول من التصنيف والتقسيم المستمر لعناصر موضوعاته وآرائه :

« والذي يستعين به طالب العلم على فتح ما انغلق ، وكشف ما التبس ، لإخلاص النية ، واغتنام الفوائد ، والحرص على الزيادة ، والرغبة إلى الله في

الهداية والتوفيق . والعلم نور في القلب تتميز به الحقائق والخصائص ، والجهل ظلام في القلب تلبس به الحقائق والخصائص . وطرق العلم منحصرة في ثلاثة : الحس ، والعقل ، والسمع . فالحس على ثلاثة أقسام : متصل ومنفصل ، وما يجده الإنسان في نفسه . والعقل على ثلاثة أقسام : واجب وجائز ومستحيل . والسمع على ثلاثة أقسام : الكتاب والسنة والإجماع . والكلام الآن في الطريق الذي هو السمع فيما علق عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، رضى [الله عنه] في ذلك ، أول هذا الأمر برابط هرغة ببلد السوس سنة خمس عشرة وخمسة ، أن تحصيل الفقه في السنة بخمسة أوجه : « أحدها كيفية الأخذ والنقل عن الرسول (ص) . والثاني معرفة السند . والثالث معرفة ما يتعلق بالمتن . والرابع معرفة الصحيح والسقيم . والخامس معرفة الاستنباط والتأويل » . ثم يتحدث عن الأخذ عن الرسول ، وعن النقل ، وتسمية التواتر والآحاد ، ويقسم ذلك إلى أقسام وفروع عديدة^(١) .

ويحدثنا خلال ذلك عن مناظراته للفقهاء المرابطين بأغمت ، وماتلاه عليهم من إيضاح ما عجزوا عن الإجابة عنه ، من تبيان أصول الحق والباطل ، وفي رأيه أن هذه الأصول تنحصر في أربعة : هي العلم والجهل والشك والظن ، وهو يفيض في شرح نظريته ، وبيان الأدلة عليها ، ثم يتحدث عن كل أصل من الأصول الأربعة ، ويقول لنا إن الجهل والشك والظن هي من أصول الضلال ، ويدلل على أقواله بالآيات القرآنية . ثم يفيض بعد ذلك في التحدث عن التواتر والأخبار المتواترة وأصولها وفروعها ، ويقسمها إلى أقسام عديدة متفرعة ، ويشرح دور الأصل والفرع في الإثبات في حديث طويل متعدد الأقسام والفروع . وهو يعتبر « التواتر » علماً ويفيض في بيان أقسامه وخصائصه ، والدور الذي يؤديه كمصدر من مصادر العلم ، وطريقة التمييز بين ما يثبت بالتواتر ، وما يثبت بالآحاد . وهو يرى أن أفضل التواتر ما كان صادراً عن أهل المدينة ، لأن « الإسلام والشرائع والرسول والصحابة ، إنما كانوا في المدينة » ولهذا « صار عمل أهل المدينة حجة على غيرهم »^(٢) ، ويحاول أن يدعم شروحه بما أثر عن الرسول والصحابة ، من أقول وأعمال .

ويحدثنا المهدي بعد ذلك عن « الصلاة » وعن معناها ، وبيان فضلها ، وحكمتها وتفصيلها ، وبيان أحكامها ، وذلك في حديث طويل جداً ، يتخلله

(١) كتاب « أعز ما يطلب » للمهدي محمد بن تومرت (الجزائر سنة ١٩٠٣) ص ٢ ، ٣ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت أو أعز ما يطلب ص ٤٩ .

كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية يحاول بها أن يدعم أقواله وآراءه^(١). على أن هذه الشروح الجدلية ، مهما دلت عليه من مقدرة في العرض ، والسفسطائية ، ليست هي أهم ما يعرض لنا ابن تومرت من نظرياته الدينية ، وإنما تبدو أهمية تعاليمه ونظرياته في عدة مسائل خاصة ، هي التي تعتبر قوام مذهبه الديني .

وأول هذه المسائل هو رأى ابن تومرت في أصول الشريعة ، وهو يرى قبل كل شيء « أن الشريعة لا تثبت بالعقل من وجوه ، منها أن العقل ليس فيه إلا الإمكان والتجوز وهما شك ، والشك ضد اليقين ، ومحال أخذ الشيء من ضده » ، و « منها أن الله سبحانه وتعالى مالك الأشياء يفعل في ملكه ما يريد ، ويحكم في خلقه ما يشاء ، فليس للعقول تحكم ولا مدخل فيما حكم به المولى » . وهو يقصد بإشارته هذه الرد على بعض من لا خلاق لهم « فيما ذهبوا إليه من أن الشريعة لا حكمة فيها ، وأنها ليست على سنن العقل جارية ، طعنًا منهم في الدين ، وجهلا بحكمة الله تعالى » . وهو يحمل في نفس الوقت على من « ذهبوا إلى الاستنباط من عقولهم ، وتحسين الأشياء على مادتهم ، وجعلوا أقيسة في الشرع عدولا منهم عن الحق ، وذلك كله فاسد »^(٢) ، وعنده أن أصول الشريعة تنحصر في عشرة وهي : أمر الله ونهيه ، وخبره بمعنى الأمر ، وخبره بمعنى النهي ، وأمر الرسول ونهيه ، وخبره بمعنى الأمر ، وخبره بمعنى النهي ، وفعله ، وإقراره . وتنحصر الفروع في خمسة : « وهي الواجب والمندوب والمحذور والمكروه والمباح » . وهو لا ينخص لإجماع والقياس بالذكر ، باعتبارهما من أصول الشريعة ، ولكنه يقول إنهما داخلان فيما تقدم ، مائلين فيه ، ثم يفيض في شرح ذلك على طريقتيه من تصنيف القياس إلى أقسام وفروع لا نهاية لها . ومما هو جدير بالذكر أنه يعتبر « قياس الوجود » ، إنما هو « قياس المحسمة » وهم في نظره المرابطون ، ويعتبره من ضروب القياس الفاسد^(٣) ، ثم يعود إلى القياس في موضع آخر ، فيقول إنه « لا فرق بين القياس العقلي والشرعي في الإضطراد إذا حقق معناه ، فإن القياس العقلي هو المساواة فيما يجب ويجوز ويستحيل . والقياس الشرعي هو المساواة في الوجوب أو التحليل

(١) كتاب محمد بن تومرت أو أعز ما يطلب ص ٦٣ - ١٦٣ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت أو أعز ما يطلب ص ١٦٣ .

(٣) كتاب محمد بن تومرت ص ١٦٥ .

أو التحريم ، فهذه الثلاث هي المعتبرة في القياس الشرعي ، وهي مضطردة في جميع الشرع ، فمضى خرج عن هذه الثلاث أو واحدة منها لم يصح قياس ولا يقاس بعضها على بعض لأنها متناقضة . ولا يصح القياس في المتناقضات ، خلافاً لما ذهب إليه من لا معرفة عنده بالقياس ، فقاوسوا المتناقضات كالحرمات على المباحات ، ومزقوا الشرع كل ممزق (١) .

أما عن الاجتهاد كأصل منه أصول الشريعة ، فإن ابن تومرت يحمل عليه ، ويقول مشيراً إلى إثبات النفي ، إنه قلب للحقائق ، وقلب الحقائق محال ، ثم يقول « إن هذه القاعدة كثيرة الإلتباس ، وعنها زل كثير من الناس ، وبالجهل بها ، وعدم التحقيق لها ، قالوا كل مجتهد مصيب ، فجعلوا هذه المقالة سلماً إلى هدم الشريعة ، وإسناد الأحكام إلى غير مستندها ، وعكس الحقائق عن موضوعها ، وصيروا الحلال حراماً ، والحرام حلالاً ، وجعلوا الشرع متناقضاً ، واتبعوا قوله كل قائل ، وإن تناقضت ، واعتقدوا الحق في المجتهدين وإن تعارضت » (٢) .

ومعنى ذلك بقول آخر أن ابن تومرت كان يأخذ في تفسير الشريعة بالمذهب الظاهري ، فيما يقول به من وجوب الاعتماد في استفتاء الأحكام على القرآن والسنة دون غيرها ، وقد كان الإمام الفيلسوف ابن حزم القرطبي ، يرى فوق ذلك أن يطبق المذهب الظاهري على العقائد ، ويرى أنه يجب أن يؤخذ بمعنى الكلمة المكتوبة والحديث الثابت ، ويعتبرهما حاسمين . ومن الغريب أن الظاهرية لم تنتظم في ظل الموحدية إلى مدرسة مذهبية إلا بعد المهدي بنحوستين عاماً في عصر الخليفة يعقوب المنصور ، ففي هذا الوقت ، فقط اعترف بأن الظاهرية هي المدرسة الفقهية الرسمية . بيد أنها لم تكن مدرسة ناجحة ، وقد أخفقت في حل كثير من المسائل (٣) .

ولإنكار ابن تومرت لقيمة الاجتهاد كمصدر من مصادر الشريعة ، ومعارضته لجهود المجتهدين في تجديد الشريعة ، والاستنباط في مجال الاجتهاد ، من الأمور المنطقية ، لأن ابن تومرت يتشع بشوب « الإمام المعصوم » الذي لا تبحث آراؤه ، ولا ترد أحكامه . ويلاحظ العلامة جولديسير أن ابن تومرت يخالف بهذه النظرية سائر الآراء السنية التي تسلم بقيمة آراء المجتهدين في الإمامة وغيرها ، ويفرض

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥ .

(٣) الأستاذ شروتمان في دائرة المعارف الإسلامية (مقال الظاهرية ، وابن حزم) .

على أتباعه وجوب الاعتقاد في الإمام المعصوم ، والإمام المعلوم ، وذلك وفقاً لرأى الشيعة . فهم يعتبرون ، حسبما بصوغ لنا رأيهم الشهرستاني « بأن الإمامة ليست قضية مصلحية ، تناط باختيار العامة ، وينتصب الإمام بنصبهم ، بل هي قضية أصولية ، وهي ركن من أركان الدين ، لا يجوز للرسول إغفاله وإهماله ، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله . ويجمعهم أى الشيعة القول بوجوب التعيين والتنصيب ، وثبوت عصمة الأئمة وجوباً عن الكبراء والصغائر »^(١) . كذلك يلاحظ جولديسير بهذه المناسبة أن ابن تومرت بموقفه من الاجتهاد ، يعارض الإمام الغزالي ، الذى يعلق أهمية كبيرة على مبادئ الاجتهاد . ومن جهة أخرى ، فإن الغزالي يعارض نظرية الإمام المعصوم في غير كتاب من كتبه . وقد أشار إلى ذلك في إحدى رسائله ، وهي « المنقذ من الضلال » . وفيها يحيل إلى ما سبق أن كتبه في ذلك من مختلف الفصول ، ثم يحمل على فكرة « المعصوم » ويسخر منها في عبارة موجزة^(٢) .

ثم إن الخلاف بين ابن تومرت والغزالي لا يقف عند هذا الحد . والواقع أنه ليس من الحقيقة في شيء ، أن يقال إن ابن تومرت قد تأثر بتعاليم الغزالي سواء من تتلمذه المزعوم عليه بالمشرق ، أو بدراسة كتبه ونظرياته . وإليك ما يقوله لنا العلامة جولديسير في ذلك : « إن المستخلص من قراءة كتب الغزالي أن ابن تومرت لم يسترشد سواء في تعاليمه أو أعماله بتعاليم الغزالي ، بل هناك ما هو أكثر ، وهو أن التعصب الذى أبداه ابن تومرت نحو مسائل العقيدة ، يدل على أنه لم يتأثر بنفوذ الغزالي الشخصى . ذلك أن طريقة « الأستاذ » الرفيقة الموفقة ، وميوله المشبعة بالتوقير للإيمان التقليدى ، هي أبعد مما نجده في تصرفات الثورى « المصمودى » . ولو أن الغزالي عاش مدة أطول ليتبع حياة ابن تومرت ، وطُلب إليه أن يصدر في شأنه فتوى ، لأصدر فتواه بنقض عمل تلميذه المزعوم ، وأنه لا يوحد أجدر بلوم الغزالي ، من ذلك التقديم المغصوب « للتأويل » بين الطبقات الدنيا لشعب يتسم بالبدواة »^(٣) .

(١) كتاب الملل والنحل للشهرستاني المنشور على هامش الفصل والنحل لابن حزم « القاهرة » ج ١ ص ١٩٥ .

(٢) « المنقذ من الضلال » (طبعة القاهرة سنة ١٣٠٩ ص ١٩) . وراجع مقدمة العلامة جولديسير

الفرنسية لكتاب (محمد بن تومرت) Mohamed ibn Tcumert et la Théologie de

l'Islam dans le Maghreb au XI^{eme} Siècle, p. 21, 22 & 40

(٣) جولديسير في مقدمته الفرنسية السالفة الذكر ص ٨٣ .

ثم يحدثنا ابن تومرت بعد ذلك عن « العموم والخصوص ، والمطلق والمقيد ، والمجمل والمفسر ، والناسخ والمنسوخ ، والحقيقة والحجاز ، والكنية والتعريض والتصريح ، والأسماء اللغوية التي غلب عليها العرف وخصصها ، والأسماء المنقولة من اللغة إلى عرف الشرع » ، وهو يتناول هذه الأشياء على ضوء الدين ، ويمثل لها بمختلف الآيات القرآنية . ثم يعود فيحدثنا من جديد عن العلم وفضله وتقاسيمه في فصل خاص ، ينحو فيه منحاه المأثور في التصنيف والتقسيم .

بعد ذلك ينتقل بنا ابن تومرت إلى مسألة العقيدة ، ويحدثنا عن التوحيد ، وعن دلائل وجود الباري سبحانه ، وتزنيه عن التشبيه . وإذا كان التوحيد في الأصل ركناً من أركان الإسلام الأساسية ، فإنه يعتبر هنا وبنوع خاص أساساً لمذهب ابن تومرت الديني والسياسي معاً ، وهو يتحول على يد المهدي من صفة الدينية إلى فكرة سياسية ، هي التي أضحت أساس الدولة الموحدة ، ودعامة سلطانها الأولى . ويلاحظ العلامة جولدسيهر بهذه المناسبة ، أن فكرة التوحيد لم يبق معناها فيما بعد ، هو الاعتراف بوحداية الله ، ولكن غدا معناها الخضوع لحكومة الموحدين^(١) ، ويستشهد على ذلك بما ذكره ابن صاحب الصلاة في تاريخه من خضوع الزعيم الأندلسي إبراهيم بن همشك لحكومة الموحدين في سنة ٥٦٤ هـ ووصفه ذلك الخضوع في قوله : « توحيد ابن همشك » ، والتعبير عن رغبته في الاستسلام برغبته في « التوحيد والتوبة »^(٢) ويقدم إلينا ابن تومرت بعد ذلك صيغة التوحيد وصيغ التسبيح التي وضعها لأتباعه ، وهي صيغ تردد مضمون عبارات التوحيد والتقديس التي عرفت منذ الأجيال^(٣) .

على أن أهم ما يتضمنه كتاب ابن تومرت ، هو كلامه عن الإمامة وعن الإمام المعصوم ، وعن المهدي وعلاماته ، وعن قيام الطائفة التي تقوم في آخر الزمان لتقاتل في سبيل الحق . ويمكننا أن نعتبر هذا الفصل لب الكتاب ، ولب مذهب

1. Goldziher : Materialien zur Kenntniss der Almohaden Bewegung. (١)

(Z. der Mog. Gesellsch. 1887), p. 70.

(٢) في كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين » (مخطوط أكسفورد السالف الذكر ، لوحة ١٢٦ ب) .

(٣) كتاب المهدي ابن تومرت ص ٢٤٠ - ٢٤٤ ، وقد نفلنا بعضها في باب الوثائق في نهاية الكتاب .

ابن تومرت كله ، ولب دعوته السياسية كلها ، فإن الإمامة الدينية ، هي الشعار السياسي الذي انتحله ابن تومرت ، دعامة لزعامته وسلطانه . ونظرية المهدي المنتظر ، هي الثوب الروحي الذي اتشح به ، لتأييد شرعية إمامته وقديسيته . ونحن نعرف أن الإمامة هي شعار الدعوة الشيعية ، الديني والسياسي ، وأنها تخص بها آل البيت دون سواهم ، وعلى كرا العصور . ولكن ابن تومرت ، في تمسكه بنظرية الإمامة ، يبدو مستقلاً ، بعيداً عن الدعوة الشيعية ، وممثلاً لدعوة خاصة ، وإن كان في نفس الوقت يحرص على أن ينتسب إلى آل البيت ، حتى تتوفر فيه شرعية الإمامة ، وإليك كيف يعرض لنا ابن تومرت نظرية الإمامة وخصائصها حين يقول :

« هذا باب في العلم ، وهو وجوب اعتقاد الإمامة على الكافة ، وهي ركن من أركان الدين ، وعمدة من عمد الشريعة ، ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة في كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة . ما من زمان إلا وفيه إمام لله قائم بالحق في أرضه من عاد إلى نوح ، ومن بعده إلى إبراهيم . . ولا يكون الإمام إلا معصوماً من الباطل ليهدم الباطل ، لأن الباطل لا يهدم الباطل ، وأن يكون معصوماً من الضلال ، لأن الضلال لا يهدم الضلال . . وأن يكون معصوماً من الجور لأن الجائر لا يهدم الجور بل يثبت ، وأن يكون معصوماً من البدع ، لأن المبتدع لا يهدم الكذب بل يثبت ، وأن يكون معصوماً من العمل بالجهل ، لأن الجاهل لا يهدم الجهل ، وأن يكون معصوماً من الباطل لأن المبطل لا يهدم الباطل ، كما لا تدفع النجاسة بالنجاسة ، وكما لا تدفع الظلمة بالظلمة ، كذلك لا يدفع الفساد بالفساد ، ولا يدفع الباطل بالباطل ، وإنما يدفع بضده الذي هو الحق ، لا يدفع الشيء إلا بضده ، ولا تدفع الظلمة إلا بالنور ، ولا يدفع الضلال إلا بالهدى ، ولا يدفع الجور إلا بالعدل ، ولا تدفع المعصية إلا بالطاعة ، ولا يدفع الاختلاف إلا بالاتفاق ، ولا يصح الاتفاق إلا باستناد الأمور إلى أولى الأمر ، وهو الإمام المعصوم من الباطل والظلم»^(١) . ثم يعود ابن تومرت فيؤكد أهمية الإمامة كركن جوهرى من أركان الدين ، ووجوب اعتقادها والخضوع لها في قوله :

« والإمامة هي عمدة الدين وعموده على الإطلاق في سائر الأزمان ، وهو دين السلف الصالح ، والأمم السالفة إلى إبراهيم وما قبله ، فاعتقادها دين ، والعمل بها

(١) . كتاب محمد بن تومرت ص ٢٤٥ و ٢٤٦ .

دين ، والتزامها دين ، ومعناها الإلتباع والاقتراء ، والسمع والساعة ، والتسليم ، وامتنثال الأمر ، واجتناب النهي ، والأخذ بسنة الإمام في القليل والكثير^(١) . وإنه لا يمكن أن تكون ثمة تأكيدات أخطر من هذه وأشد فعلا ، وأبعد أثراً في النفوس ، لتأكيد الزعامة الدينية والسياسية ، والانضواء تحت لواها ، والإذعان لسلطانها . وقد كان المهدي مخاطب بأسلوبه القوي المنذر ، مجتمعاً يسوده الجهل ، وتسيطر عليه الخرافة ، فكانت أقواله وتعاليمه تنساب إلى هذا المجتمع الساذج ، كقرآن جديد . كيف لا وهو يؤكد بأنه « لا يكذب بهذا ، إلا كافر أو جاحد أو منافق أو زائغ أو مبتدع أو مارق أو فاجر أو فاسق ، أو رذل أو نذل ، لا يؤمن بالله واليوم الآخر »^(٢) .

ثم إن هذه الإمامة المطلقة الواجبة الطاعة في كل زمان ومكان ، لابد أن تتوج بصفة خاصة تؤكد من شرعيتها وتزيد في قدسيتها ، وتجعلها أقرب إلى مراتب النبوة ، وتلك هي صفة المهدي المنتظر . وهي أسطورة من أقدم الأساطير الدينية في الإسلام . ويرجعها البعض إلى عصر النبي ذاته . وهناك طائفة من « الأحاديث » تشير إلى هذه الأسطورة . وهناك أيضاً طائفة من الأقوال الماثورة تنسب للجماعة من أكابر الصحابة . ولكن هذه الأحاديث والأقوال ، موضع كثير من الجدل والريب ، وهي على الأغلب من خلق الشيعة الذين استغلوا هذه الأسطورة على كر العصور ، واتخذوها سبيلاً إلى تحقيق السلطان السياسي . وخلاصة هذه الأحاديث والأقوال « إنه لابد في آخر الزمان من ظهور رجل من آل البيت ، يؤيد الدين ويظهر العدل ، ويتبعه المسلمون ، ويعيد مجد الإسلام ودولته ، ويسمى بالمهدي » أو على حد عبارتهم الماثورة ، وهي أن المهدي يخرج في آخر الزمان « فيملاً الأرض عدلاً كما ملئت جوراً » . وقد كان قيام الدولة الفاطمية الشيعية بإفريقية ثم بمصر ، في أوائل القرن الرابع الهجري ، أعظم وأروع استغلال لهذه الأسطورة . وهذا الثوب القدسي — ثوب المهدي المنتظر — هو الذي اعتزم محمد بن تومرت أن يثشح به ، وأن يتوج به أمامته وسلطانه السياسي . ومن ثم فإننا نراه ، بعد أن يحدثننا عن أهمية الإمامة . وكونها ركن الدين الركين ، يعرض

(١) كتاب محمد بن نومرت ص ٢٥٣ و ٢٥٤ .

(٢) كتاب محمد بن نومرت ص ٢٥٤ .

لنا نظرية المهدي بقوة وحماسة . وهو يستهل كلامه بوصف مثير لأحوال العصر الذي تلا عصر النبوة والخلفاء الأربعة ، وما ساد فيه من ضروب التفرق والهووى والفتن ، وهو العصر الذي « يذهب فيه العلماء ، ويظهر الجاهل ، ويذهب الصالحون ، وتبقى الحثالة ، ويذهب الأمناء وتبقى الخونة ، وتذهب الأئمة ، وتظهر المبتدعة ، ويذهب الصادقون ، ويظهر الدجالون ، ويذهب أهل الحقائق ، ويظهر أهل التبديل والتغيير والتبليس والتنايس ، حتى انعكست الأمور ، وانقلبت الحقائق وعطلت الأحكام ، وفسدت العلوم ، وأهملت الأعمال ، وماتت السنن ، وذهب الحق ، وارتفع العدل ، وأظلمت الدنيا بالجهل والباطل ، واسودت بالكفر والفسوق والعصيان ، وتغيرت بالبدع والأهواء ، وامتلأت بالخور والظلم والهرج والفتن » . ثم جاء المهدي في زمان الغربية ، في الوقت الذي عكست فيه الأمور ، وقلبت الحقائق ، وبدلت الأحكام « وخصصه الله بما أودع فيه من معاني الهداية ، ووعد قلب الأمور عن عاداتها ، وهدمها بهدم قواعدها ، ونقلها إلى الحق بإذن الله ، حتى تنتظم الأمور على سنن الهدى ، وتستقيم على منهاج التقوى ، وينهدم الباطل من قواعده ، وتهدم بأنهدامه فروعه ، ويثبت الحق من أصله ، وتثبت بشبوته فروعه ، ويظهر العلم من معادنه ، ويشرق نوره في الدنيا بظهوره ، حتى يملأها عدلاً ، كما ملئت قبله جوراً ، بوعد ربه كما وعد ، وبفضله كما سبق ، هذا ما وعد الله للمهدي ، وعد الحق الذي لا يخلفه » (١) .

وهذا المهدي ، الذي تستحيل على يده شئون العالم ، من الفساد الشامل ، والظلم المطبق ، إلى الصلاح والعدل الشامل ، « لاند له في الورى » ولن يجد « من يعانده ، ولا من ينازعه ، ولا من يخالفه ، ولا من يضاده » ، ومن ثم فإن ابن تومرت يؤكد لأتباعه وأنصاره وجوب طاعة المهدي ، والإيمان برسالته ، والإذعان لمشيئته ، والاستسلام لحكمه ، وذلك بصورة مطلقة يعرضها لنا على النحو الآتي :
« فالعلم به واجب ، والسمع والطاعة له واجب ، وأتباعه والاقتداء بأفعاله واجب ، والإيمان به والتصديق به واجب على الكافة ، والتسليم له واجب ، والرضى بحكمه واجب ، والانقياد لكل ما قضى واجب ، والرجوع إلى علمه واجب ، وأتباع سبيله واجب ، والاستمسك بأمره حتم ، ورفع الأمور إليه بالكلية لازم » .

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٤٩ - ٢٥١ .

وليس ذلك فقط ، فإن طاعة المهدي ، والاستسلام إليه ، إن هي إلا طاعة الله ورسوله ذاتها ، « فإن سنة المهدي هي سنة الله ورسوله ، وأمره أمر الله ورسوله ، وطاعته طاعة الله ورسوله ، والانقياد له الانقياد إلى الله ورسوله ، وموافقته موافقة الله ورسوله ، وتعظيم حرمانه تعظيم حرمان الله ورسوله . هو أعلمهم بالله ، وأقربهم إلى الله ، به قامت السموات والأرض ، وبه كشفت الظلمات ، وبه تدفع الأباطيل ، وبه تظهر المعارف ، وبموافقته تنال السعادة ، وبطاعته تنال البركات » (١) .

أما أولئك الذين تسول لهم أنفسهم مخالفة المهدي ، ومعارضته أو الشك في أمره ، فويل لهم . ولم يذس ابن تومرت أن يتوعد هؤلاء بشر النكال . ذلك أن من نأوا المهدي « فقد تقمع في الردى ، وليس له التطرق إلى النجاة » . ثم إن « أمر المهدي حتم ، ومن خالفه يقتل ، لا دفع له في هذا للدافع ، ولا حيلة فيه لزائع ، ثبت بثبوت نصوص الكتاب ، وقواطع الشرع ، وبيان العلم ، ودام مادامت السموات والأرض بإذن الله الواحد القهار » (٢) .

ويتحدث ابن تومرت بعد ذلك في فصل قصير عن « القواعد التي بنى عليها علوم الدين والدنيا » يتناول فيه أموراً شتى ، ومما جاء فيه : « أن القيام بأمر الله واجب ، وأن الفساد يجب دفعه على الكافة ، ولا يجوز التماذى فيه ، وإن من منع فريضة واحدة كمن منع الفرائض كلها ، وإن التماذى على ذرة من الباطل ، كالتماذى على الباطل كله ، وأن الهوى لا يجوز إثارة عن الحق ، وأن الدنيا لا يجوز إثارتها على الآخرة ، وأن الحق لا يجوز تلبيسه بالباطل ، وأن العلم ارتفع ، وأن الجهل عم ، وأن الحق ارتفع ، وأن الباطل عم ، وأن الهدى ارتفع ، وأن الضلال عم ، وأن العدل ارتفع ، وأن الجور عم ، وأن الرؤساء الجهال استولوا على الدنيا ، وأن الملوك الصم البكم استولوا على الدنيا ، وأن الدجالين استولوا على الدنيا » ويختتم ابن تومرت هذا الفصل ، بالعود إلى الكلام عن المهدي في فقرة يلخص فيها كل ما تقدم ، ويؤكد به بقوة ، وذلك على النحو الآتي :

« إن الباطل لا يرفعه إلا المهدي ، وإن الحق لا يقوم به إلا المهدي ، وإن المهدي معلوم في العرب والعجم ، والبدو والحضر ، وإن العلم به ثابت في كل

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥٢ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥١ و ٢٥٤ .

مكان ، وفي كل ديوان ، وأن ما علم بضرورة الإستفاضة قبل ظهوره ، يعلم بضرورة المشاهدة بعد ظهوره ، وأن الإيمان بالمهدى واجب ، وأن من شك فيه كافر ، وأنه معصوم فيما دعا إليه من الحق ، لا يجوز عليه الخطأ فيه ، وأنه لا يكابر ، ولا يضاد ، ولا يدافع ، ولا يعاند ، ولا يخالف ولا ينازع ، وأنه فرد في زمانه ، صادق في قوله ، وأنه يقطع الجبابة والدجاجة ، وأنه يفتح الدنيا شرقها وغربها ، وأنه يملؤها بالعدل ، كما ملئت بالجور ، وأن أمره قائم إلى أن تقوم الساعة » (١).

لم ينس ابن تومرت في الوقت الذي يعرض فيه دعوته ، ويشيد بنظريته الإمام المعصوم والمهدى المنتظر ، وهي التي اتخذها دعامة لزعامته الدينية ، وسلطانته السياسي ، أن ينظم حملته ضد أصحاب الأمر القائم ، ضد أولئك المرابطين ، الذين كان يرى إلى تخطيم دولتهم ، والاستيلاء على تراثهم . ومن ثم فإنه يخصهم في كتابه بفصل ، يشهر فيه عليهم الخصومة والبغض ، ويحاول أن يسبغ على حملته لون القداسة ، وأن يردّها إلى أصول دينية ، وهو ينعتهم « بالمبطلين ، والمثمين ، والجسمين » . ويقول لنا إن لهم علامات خاصة يعرضها لنا في قوله :

« جميع غلاماتهم ظاهرة ، منها ما ظهر قبل مجيئهم من كادم ، ومنها ما ظهر بعد أخذهم البلاد ، ومنها ما ظهر من أحوالهم وأفعالهم . فالذي ظهر منها قبل مجيئهم خمس ، إحداهن أنهم الحفاة ، والثانية أنهم العراة ، والثالثة أنهم العالة ، والرابعة أنهم رعاء الشاء والبهم ، والخامسة أنهم جاهلون بأمر الله . والذي ظهر منهم بعد أخذهم البلاد سبع ، إحداهن أنهم في آخر الزمان ، والثانية أنهم مملوك كما والثالثة أنهم يتناولون في البنيان ، والرابعة أنهم يادون مع الإمامة وليستكثرون من الجوارى ، والخامسة أنهم صم ، والسادسة أنهم بكتم ، ويعني أنهم صم عن الحق لا يستمعون إليه ، بكتم عن الحق لا يقولون به ولا يفتخرون به ، وكل ذلك راجع إلى الجهل والعدول عن الحق ، والسابعة أنهم ما هم أهلا للأمانة في القيام بأمر الله . والذي ظهر من أحوالهم وأفعالهم ثمان ، إحداهن أنهم في أيديهم سيلا كأذناب البقر ، والثانية أنهم يعذبون الناس ويضربونهم بها ، والثالثة أن نساءهم رؤوسهن كأسنمة النجب ، يعني أنهم يجمعن شعورهن فوق رؤوسهن حتى تكون شعورهن على تلك الصفة ، والرابعة أنهم كاسيات عاريات ، والخامسة أنهن ماثلات يعني

عن الحق والرشاد ، والسادسة أنهم مميلات يعنى لغيرهن ، والسابعة أنهم يغدون في سخط ، والثامنة أنهم يروحون في لعنة . هذه علاماتهم ، وجملة علاماتهم عشرون أخبر الرسول بجميعها قبل وجودهم ، فظهرت كلها على وفق ما أخبر به ^(١) . ويحاول ابن تومرت أن يثبت صحة هذه العلامات بإيراد « أحاديث » تنسب روايتها إلى عمر بن الخطاب وإلى أبي هريرة ، وفيها ذكر للعلامات المتقدمة ، وأنها من علامات الساعة ، و« أحاديث » أخرى يدمغ فيها الرسول أصحاب هذه العلامات ، بالنار والسخط والغضب واللعنة ، ويذكر فيها صفة نساكن على النحو الذي تقدم ذكره ^(٢) .

ويتناول ابن تومرت بعد ذلك مثالب المرابطين ، وتحريم طاعتهم ، والحض على جهادهم ، في عدة أبواب رتب كما يأتي :

(١) باب فيما أحدثوه من المناكير والمغارم ، وتقليبهم في السحت والحرام يأكلون فيه ويشربون ، وفيه يغدون وفيه يروحون ، وتجسيمهم وكفرهم أكبر (٢) باب في تحريم معونتهم على ظلمهم ، وتصديقهم على كذبهم (٣) باب في معرفة أتباعهم الذين أعانواهم على ظلمهم ، وصدقوهم على كذبهم ، وبيان أفعالهم (٤) باب في وجوب مخالفتهم وتحريم الاقتداء بهم ، والتشبه بهم ، وتكثير سوادهم وجبههم (٥) باب في وجوب بغضهم ومعاداتهم على باطلهم وظلمهم (٦) باب في تحريم طاعتهم واتباع أفعالهم (٧) باب في وجوب جهادهم على الكفر والتجسيم وإنكار الحق ، واستحلال دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم (٨) باب في وجوب جهاد من ضيع السنة ومنع الفرائض (٩) باب في وجوب جهادهم على ارتكاب المناكر والفجور وتمادهم على ما لا يؤثرون به (١٠) باب في وجوب جهادهم على العناد والفساد في الأرض ^(٣) .

وهو خلال ذلك يحاول أن يؤيد أقواله وأحكامه باختلاف الأحاديث والآيات القرآنية . وهو ينعى على المرابطين بنوع خاص - وهو ينعتهم هنا بالمجسمين الكفار - مسألة اللثام ، وتشبههم في ذلك بالنساء ، في تغطية الوجوه بالتلثيم والتنقيب ، وتشبه نساكنهم بالرجال في السفور ، وعدم التلثيم والتنقيب ، وتحريم ذلك ، ولعن

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥٨ و ٢٥٩ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٦٠ و ٢٦١ .

(٣) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٦١ - ٢٦٦ .

من يرتكبه ، وفقاً لحديث تنسب روايته لابن عباس ، ونصه : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهات من النساء بالرجال ، والمتشبهين من الرجال بالنساء ، شملتهم اللعنة جميعاً »^(١). على أنه من الإجحاف البين أن تُنعى هذه المسألة بالذات - مسألة اللثام - على المرابطين ، وتعتبر في حقهم جرماً يستوجب اللعن . ذلك أنها ليست سوى مسألة تقليد قومي وقبلي لا شأن له بالدين . وقد قيلت في أصل اللثام وسببه أشياء كثيرة ، منها ما سبق أن أشرنا إليه من قبل ، وهو أن أهل المتونة - وهي قبيلة المرابطين - كانوا يتخذون في أعراسهم نوعاً خاصاً من الحجاب ، ومنها أنه حدث ذات مرة في بعض حروبهم أن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات ، حتى يحسن بذلك في عداد الرجال ، ومنها أنهم كانوا يلجأون إلى اللثام تخفياً من طلبية نأر الدم ، وأخيراً أن اللثام كان من ضرورات الحماية من لفح العواصف والرمال والحر والبرد . وما تزال عادة اللثام قائمة حتى اليوم بين بعض قبائل موريتانيا والسودان وغيرها ، ويقال إن الحكمة في ذلك هو أن الرجال الأشراف لا يكشفون عن أنفسهم . وأما عن سفور النساء ، فقد قيل إنه لكي يظهر انحطاطهن عن الرجال^(٢) .

وأما حملة ابن تومرت على المرابطين بسبب ما أحدثوه من « المناكر والمغارم » فإن لها ما يبررها . وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يسود العاصمة المرابطية ، (مراكش) وقواعد المغرب الأخرى ، أيام المرابطين ، من مظاهر الاستهتار والفساد ، ومن ذلك ذبوع الخمر والقصف علناً في الأسواق ، وغير ذلك من مظاهر الخروج على الدين . وهذا ما يردده المراكشي في قوله مشيراً إلى علي بن يوسف : « وكان رجلاً صالحاً ، إلا أنه كان ضعيفاً مستضعفاً ، ظهرت في آخر زمانه مناكر كثيرة ، وفواحش شنيعة ، من استيلاء النساء على الأحوال واستبدادهن بالأمور ، وكان كل شرير أوقاطع طريق ، ينتسب إلى امرأة قد جعلها ملجأ له ، وزراً على ما تقدم »^(٣). ومما هو جدير بالذكر أن أمثال هذه المناكر ، لم تلبث أن ظهرت في دولة الموحدين ، بعد ذهاب المهدي بفترة قصيرة . ومن ذلك أن

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٦٤ .

(٢) الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي ج ١ ص ٩٨ و ٩٩ ، وكذلك العلامة

جولدسبير في مقاله : *Materialien zur Kenntniss der Almohaden Bewegung* (Z. er Morg. Gesellsch. 1887 p. 101)

(٣) المعجب ص ١٠٣ .

عبدالمؤمن أول الخلفاء الموحدين ، أبى على ولده الأكبر محمد إتمام بيعته لولاية العهد ، لأنه كان مدمناً لشرب الخمر ، ولنقائص أخرى كانت تنسب إليه (١) .

على أنه إذا كان المرابطون ، أو كما بنعتهم ابن تومرت ، طائفة المبطلين من الملتئمين والمحسمين ، كانوا يتصفون بما يرميهم به من العيوب والمثالب التي يستحقون من أجلها اللعنات ، والتي تستوجب بغضهم ومعاداتهم ومجاهدتهم ، فإن هناك طائفة أخرى بشر الرسول بظهورها ، وهي التي تقاتل على الحق وتقاتل عنه ، وتقوم به إلى آخر الزمان ، وأن هذه الطائفة تقوم بأمر الله ، لا يضرها من خذلها أو خالفها ، وأنها ظاهرة على من عاداها إلى يوم القيامة ، وأنها تقاتل على أمر الله وتقهر عدوها إلى قيام الساعة ، وأنها تقاتل على الحق حتى تجتمع مع عيسى بن مريم ، وحتى يقاتل آخرهم الدجال ، وأن الله يفتح الدنيا كلها لأهل الغرب ، وأخيراً أن هذه الطائفة ينصرها الله حتى تقوم الساعة . وبالرغم من أن ابن تومرت لا يقول لنا من هي هذه الطائفة بصريح العبارة ، فإنه من الواضح أنه يعنى بها طائفة الإمام المعصوم ، والمهدى المعلوم ، أو بالحرى طائفته الخاصة ، طائفة الموحدين ، وهو يحاول هنا كعادته ، أن يؤيد كل أقواله ونبوءاته بطائفة من الأحاديث (٢) .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما ذكره ابن تومرت ، عند الحديث عن العقيدة ، عن التوحيد ودلائل وجود الباري سبحانه . ويلاحظ العلامة جولديسير ، أن ابن تومرت قد استعار عبارة « التوحيد » ، ومعناها التعلق بفكرة الله وصفاته ، من « المعتزلة » ، فهم الذين يعطون اسم « التوحيد » في تعريفهم لفكرة الله ، وهذا ما يوضحه لنا الشهرستاني في قوله عن المعتزلة : « واففقوا على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار ، ونفى التشبيه عنه من كل وجه ، جهة ومكاناً وصورة وجسماً وتحيراً وانتقالاً وزوالاً وتغيراً وتأثراً ، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها ، وسموا هذا النمط « توحيداً » (٣) .

ومن ثم فإن ابن تومرت ، كان يُشهر في ظل هذا التفسير لمعنى التوحيد ،

(١) المعجب ص ١٣١ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٦٧ - ٢٧٠ .

(٣) الشهرستاني في كتاب « الملل والنحل » ، المنشور على هامش كتاب « الفصل » (القاهرة

بالفكرة المادية التي كانت ذائعة في المغرب في ظل المرابطين ، والتي تناقض فكرة التوحيد الحقيقية ، ويعتبر المرابطين مسئولين عن فكرة « التجسيم » ، و« التشبيه » الذائعة بين رعاياهم ، وينادى من أجل ذلك بقتالهم ، لأنهم هم السبب في نشر ذلك الإلحاد الذي يسود العقيدة ، وأنهم يقيمون نظاماً دينياً ، لا تتوجه فكرة الله . ومتى كان المرابطون على هذا النحو من أهل الشرك ، فيجب أن يشهر عليهم الجهاد في سبيل الله^(١).

ويعود ابن تومرت فيتناول التوحيد هنا من ناحية أخرى ، وذلك كعادته في أبواب متعاقبة . أولها أن التوحيد ، هو أساس الدين الذي بنى عليه ، ثم يحدنا عن معنى التوحيد ، وتفسير لفظه ، وعن فضله ، وعن شروط الشهادة ، وكون التوحيد يهدم ما كان قبله من الفكر والآثام ، وعن وجوب العلم بالتوحيد وتقديمه على العبادة ، وعن كون التوحيد هو دين الأولين والآخرين من النبيين المرسلين ، وكون دين الأنبياء واحد ، وعن معرفة طريق إثبات العلم بالتوحيد . ثم يتلو ذلك التحدث عن الإيمان وفضله ، والإيمان بالرسول ، وعن معنى الإيمان والعلم ، واتباع الكتاب والسنة ، يتخلل ذلك كله طائفة من الآيات والأحاديث للشرح والتدليل^(٢).

يتناول ابن تومرت بعد ذلك طائفة من المسائل الدينية الأخرى التي لا تتصل أصلاً بدعوته الدينية أو السياسية ، ولكنها تتضمن مع ذلك ، بعض وقائع وأقوال تتصل بهذه الدعوة . وهو قد تحدث من قبل في فصل خاص ، عن الصلاة وفضلها وتفصيلها . وهو يتحدث هنا عن الطهارة ، وعن رفع العلم ، ورفع الدين والموالة . وفي هذا الفصل يكرر ما سبق ذكره ، من الأحاديث المتعلقة بالناس ، الذين يحملون سيافاً كأذناب البقر ، والنساء الكاسيات العاريات ، والمثلاث رؤوسهن كأسنمة البخت ، وهي التي يعدها بين علامات المثلثين الجسمين . ثم يحدنا بعد ذلك عن « التبديل والتغيير بعد رسول الله » . وفي هذا الفصل يعود إلى ذكر المهدي ، وما روى بشأنه من أحاديث ، تدل بأنه يكون من آل البيت ، وأن اسمه يطابق اسم النبي ، وأنه عملاً الأرض عدلاً

(١) جولديسير في مقدمته الفرنسية لكتاب « أعزما يطلب » التي سبق ذكرها ص ٥٦ و ٦١ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٧١ - ٢٨٠ .

كما ملئت جوراً ، وأنه يكون من عترة الرسول من ولد فاطمة (١) ، وما ورد في شأن خروج الدجال وهزيمته (٢) . ثم يلي ذلك كلام طويل في بابين لأعنوان لهما ، وكلاهما يفيض بالأحاديث والأقوال المأثورة المتعلقة بالجنة والنار (٣) .

وبعد أن تحدثنا ابن تومرت عن « الغلول والتحذير منه » وهو الخيانة ، ويقدم إلينا في ذلك طائفة من القصص النبوية ، يختم كتابه بفصل طويل في « تحريم الخمر » . وقد رأينا فيما تقدم من حياة ابن تومرت ، كيف كانت الحملة على الخمر ومطاردتها ، وإراقتها وكسر أوانها ، من أخص ما شغله في دعوته إلى إزالة المنكر ، وكيف أنه كان يتعرض لصنوف من السخط والأذى ، كلما نشط إلى ذلك ، وهو يقرر أن الخمر محرمة « بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة » ويستعرض ما ورد في ذلك من الآيات والأحاديث ، ويبين لنا أنواع الخمر المجمع على تحريمها في عصر الإسلام ، وهي التي كانت تصنع من العنب والتمر والعسل والشعير ، وهي كلها محرمة في رأيه قليلها وكثيرها ، ومن الواجب إراقتها وكسر أوانها ، وهو يؤيد أقواله هنا بمختلف الأحاديث وأقوال الصحابة (٤) .

أما الفصل الأخير من الكتاب ، وهو الذي يلي « كتاب تحريم الخمر » وعنوانه « كتاب الجهاد » فهو ليس من تأليف ابن تومرت ، وإنما هو من تأليف الخليفة أبي يعقوب يوسف ، ولد الخليفة عبد المؤمن بن علي وذلك حسبما يبدو من النبذة التي اختتم بها الكتاب ، وأشار فيها إلى تمام « كتاب الجهاد » وجميع تعاليق « الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، وذلك مما أملاه سيدنا الإمام الخليفة أمير المؤمنين . . وذلك في العشر الأواخر من شعبان سنة تسع وسبعين وخمسة » (٥) .

وكتاب الجهاد ، والترغيب فيه ، يضم طائفة كبيرة من الأحاديث التي وردت في فضل الجهاد ، والحث عليه . وتبيان محاسنه ، وفضل الشهادة في سبيل الله . ويالحق بذلك الكلام على الجهاد بالمال وماورد فيه أيضاً من الأحاديث (٦) . وهذا

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٣٠٥ و ٣٠٦ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٣٠٩ .

(٣) كتاب محمد بن تومرت ص ٣١٣ - ٣٤٦ .

(٤) كتاب محمد بن تومرت ص ٣١٣ - ٣٧٦ .

(٥) كتاب محمد بن تومرت ص ٤٠١ .

(٦) راجع كتاب الجهاد (من كتاب محمد بن تومرت) ص ٣٧٧ - ٤٠٠ .

- ٢١٦ -

الفصل وما ورد فيه من الأحاديث العديدة ، يتفق تمام الإنفاق مع ما أثر عن مقدرة الخليفة أنى يعقوب يوسف العلمية ، وبراعته فى علم الحديث ، والعلوم الشرعية ، وتقدمه « فى علم الإمام المهدي »^(١).

- ٦ -

إن كتاب « أعز ما يطلب » حسبما تبين من استعراض فصوله ومحتوياته ، يمكن أن يعتبر وصية ابن تومرت العقيدية والسياسية ، ويمكننا أن نعتبر ماورد فيه من تعاليم ومبادئ ، خاصة بالإمامة والزعامة السياسية والدينية ، أساس الدولة الموحدية الروحية والسياسي . على أن ابن تومرت قد ترك لنا بالعربية مؤلفاً آخر ، هو كتاب « الموطأ » المسمى « موطأ الإمام المهدي » وهو كتاب ضخم يتناول فيه ، على نسق « موطأ الإمام مالك » ، أبواب العبادات والمعاملات والحدود .

ونحن نعرف أن مذهب الإمام مالك^(٢) كان منذ أواخر القرن الثانى للهجرة ، هو المذهب المفضل فى المغرب والأندلس . وبالرغم من أن ابن تومرت قد درس بالمشرق ، على عدد من أقطاب عصره ، فإنه لبث على تقاليد علماء المغرب الراضية ، من اتباع المذهب المالكي ، ومن ثم فإنه يقدم لنا ثمرة شروحه للعبادات والمعاملات والحدود ، أو بعبارة أخرى لعلم الفروع ، متسمة باسم موسوعة الإمام مالك ، جارية على مذهبه وآرائه ، بل إنه ليبدو ، حسبما جاء فى مقدمة « موطأ » ابن تومرت ، أن مصنفه ليس إلا مختصراً من مصنف الإمام مالك . فقد جاء فى مقدمته طبعته التى نشرت بالجزائر فى سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م) ، مايقى : « قابلنا موطأ المهدي بموطأ الإمام مالك ، من رواية يحيى بن يحيى ، فوجدناه مختصراً منه بحذف الأسانيد مع تقديم وتأخير وزيادة تراجم وتفصيل على أسلوب مفيد وترتيب سديد » .

ويحتوى موطأ المهدي على سفرين : يتناول السفر الأول الكتب الآتية : الطهارة والصلاة ، والحنائز والصيام ، والاعتكاف والزكاة ، والحج والجهاد ، والإيمان والنذور .

ويتناول السفر الثانى الكتب الآتية : الضحايا والغنيفة ، والذبائح والصيد ، والأشربة ، والحدود ، والنكاح ، والطلاق ، والرضاع ، والبيوع ، والشفعة ،

(١) ابن صاحب الصلاة فى كتاب « المن بالإمامة » المخطوط السالف الذكر لوحة ٤٦ ا .

(٢) الإمام مالك بن أنس (٩٥ - ١٧٩ هـ) أحد أقطاب المذاهب الأربعة .

والرهن ، والإجارة ، والمساقاة ، والفرائض ، والعق ، والمكاتب ، والتدبير ،
والعقول ، والقسامة ، والتعدى والغصب ، والأقضية والجامع .

ومن الواضح أنه ليس في كتاب « موطأ المهدي » ما يهمننا من الناحية التاريخية .
بيد أننا نستطيع أن نتخذ دالة على ما كان يتصف به ابن تومرت من النشاط
العلمي ، والمقدرة الفقهية ، واجتهاده في أن يبصر قومه بأحكام الدين الصحيحة ،
ولاريب أن كتب ابن تومرت كانت تنتشر بين قومه بالبربرية لغتهم القومية ،
فيزداد بذلك نفوذها وتأثيرها ، وقد كان من أعظم مزايا ابن تومرت العلمية ،
مقدرته البارزة في إتقان اللغتين العربية والبربرية ، وكان وعظه ومخاطبته لقومه
بالبربرية ، تنفذ إلى سويداء قلوبهم ، وتزيدهم فتنة وبه وتعلقاً ، وتعمل على
توطيد مكانته الدينية والسياسية . وكانت كتب ابن تومرت ، بعد القرآن والسنة ،
هي أشد الكتب الدينية احتراماً بين أقوام الموحدين على اختلاف قبائلهم ، لأنها
نظراً لكتابتها بالبربرية ، كانت ذائعة ، وكانت في متناول كل إنسان .

الفصل الرابع

الصراع بين المرابطين والموحدين

المرحلة الثانية

بمساعدة عبد المؤمن . مختلف الروايات حول تاريخها وكيفية وقوعها . أهل عبد المؤمن ونسبته العربية . أساطير حول قدره وتخصيصه بالخلافة . مولده ونشأته . اتصاله بابن تومرت . قيادته للجيوش الموحدية . عزمه على استئناف الجهاد . خروجه من تينمل في القوات الموحدية . استيلائه على سقازاجورت وقصبة تادله وعلى درعة وحصن تاسنيموت . عودته إلى تينمل . محاولة ابن ملوية وإخمادها . إنسلاخ الفلاكني الأندلسي عن المرابطين وانضمامه للموحدين . اتحاد عبد المؤمن ألقاب الخلافة . غزواته في الأعوام التالية . استيلائه على تارودانت عاصمة بلاد السوس . هزيمة المرابطين وفرارهم . غزوه لأحياء بني ييغز . دفاع بني ييغز ثم جنوحهم إلى الطاعة . خروج عبد المؤمن إلى الفزو ثمانية . تحركه إلى أرض حاحة ونزوله في أحياء بني ملول . إغاراته عليها وقتله لأهلها . مسيره إلى أجر فرجان . لقاءه بالمرابطين بقيادة تاشفين بن علي والبربرتي . هزيمة المرابطين . مبادرة جزولة لإنجاد المرابطين . هزيمتها ومقتل معظمها . ارتداد تاشفين إلى مراکش . رواية ابن عذارى عن هذه الموقعة . خروج تاشفين والبربرتي ثانية لمحاربة الموحدين . اللقاء في نيزغور . هزيمة المرابطين وجرح البربرتي . البربرتي وأصله وظروف التحاقه بخدمة المرابطين . قيادته للمرابطين في معاركه أراضي كدميوه والسوس . غزو عبد المؤمن لأرض السوس . تبادل النساء الأسرى بين الفريقين . حملة عبد المؤمن الكبرى . مسيره إلى الشمال الشرقي . غزوه لعدد من القواعد والقلاع المرابطية . اختراقه لأرض فازاز واحتلاله لأزرو . مسيره شمالا نحو فاس . وصول القوات المرابطية بقيادة تاشفين والبربرتي . مقاساتها لأهوال البرد . انحدار الموحدين إلى منطقة الأطلس الوسطى . احتلالهم لوادي ملوية . مسيرهم نحو أرض غياثة ونزولهم في جبل عفرا . نزول المرابطين قباهم في السهل . عصف الرياح والأمطار بالمحلتين . رواية أخرى لابن القطان عن الحملة الموحدية إلى غياثة . مسير الموحدين إلى أرض لكائي . مسير المرابطين بقيادة تاشفين والبربرتي في أثرهم . التحام البربرتي في بعض قواته مع الموحدين في تازغندرا . مسير الموحدين نحو القصر الكبير . مسير المرابطين في إثرهم . وصول الموحدين إلى المزمة . قصة مقتل إبراهيم أخى عبد المؤمن . اقتحام الموحدين لغمر مليلة وسبي نسائه . مسيرهم إلى تاجرا . الحملات الموحدية تقتحم وهران وبني واثون وحل مديونة . ارتداد المرابطين إلى فاس وبقاء الموحدين قرب تلمسان . وفاة أمير المسلمين علي بن يوسف . بلوع الدولة المرابطية ذروتها في عهده . استخدامه للمرتزقة النصراني . إنشاؤه للفرقة الأجنبية بقيادة البربرتي . عزمه على إقالة ولده تاشفين . بعض الأحداث التي وقعت في أواخر عهده . صفاته وخلاله . حشده للأعلام الكتابة في بلاطه . أولاده . اختلال الدولة المرابطية ، وانسقاطها في أواخر سنده . خروج بني زمانو على تاشفين بن علي . مسير البربرتي لعقابهم . إنجاد الموحدين لهم . اقتحام الموحدين لنفى عبد الواد ونفى يبلوي . هزيمتهم ومصرع معظم أصحابهم على يد المرابطين . مسير عبد المؤمن من تلمسان إلى أرض

يلوم . مسير تاشفين إلى تلمسان . إرساله حملة قوية ومعها البربر إلى منداس . طريقة عبد المؤمن المتكررة في لقاء خصومه . معركة منداس الكبرى . هزيمة المرابطين الساحقة وغنائم الموحدين الوفيرة . غزو النورمانين لسبتة ورد الأسطول المرابطي لها . مصرع البربر في معركة بينه وبين الموحدين . رواية ابن عذاري عن ذلك . مغادرة النصارى للمعسكر المرابطي . استنفار تاشفين لسائر الحشود المرابطية . مقدم ولده تاشفين إليه وتوليته عهده . سير الموحدين ونزولهم بالصخرتين قرب تلمسان . نزول المرابطين قبائلهم في سطيف . وصول الحشود المرابطية . اشتباك الفريقين وهزيمة المرابطين في معركة بظاهر الصخرتين . مسير تاشفين في قواته إلى وهران . إرساله ولده إبراهيم إلى مراکش . مقدم بعض سفن الأسطول المرابطي إلى مياه وهران . مسير عبد المؤمن في أثر تاشفين . فتك الموحدين بأحياء المشونة في تلك الجهة . نزول الموحدين فوق جبل وهران . مغادرة معظم القادة المرابطين لتاشفين . اقتحام الموحدين للمحلة المرابطية . فرار تاشفين وخصاه إلى الحصن المطل على البحر . إضرام الموحدين النار حول الحصن . فرار تاشفين في الليل وسقوطه ومصرعه . روايات أخرى عن مصرع تاشفين . فتك الموحدين بالمرابطين . فرار الفلول المرابطية من تلمسان . دخول عبد المؤمن تاجررت وقتله لأهلها . دخوله تلمسان وقتله لأهلها . روايات أخرى عن دخوله تاجررت وتلمسان . نزوله بتلمسان وتنظيمه لشئون المنطقة . مسيره إلى فاس .

كانت خلافة عبد المؤمن بن علي ، للمهدي ابن تومرت ، في رئاسة الموحدين ، حدثا ذا شأن ، وكانت فاتحة عهد جديد في تاريخ الدولة الموحدية ، هو عهد التوطد والنماء .

وتختلف الرواية أما اختلاف في ظروف تولية عبد المؤمن . فهناك القول بأن بيعة عبد المؤمن ، قد تمت على أثر وفاة ، المهدي أوبعدها بأيام قلائل ، وأن المهدي هو الذي رشحه لخلافته قبيل وفاته وهذه هي رواية ابن القطان ، إذ يقول لنا لأنه لما توفي المهدي ، كتم أصحابه وأهل الدار ، وهم خدمته ، وأخته شقيقته ، موته ، وبايعوا الإمام أمير المؤمنين (يريد عبد المؤمن) في الحين « بيعة سر » ، ثم يقول في موضع آخر ، إن عبد المؤمن بويع على أثر موت الإمام المهدي عام أربعة وعشرين وخمسمائة « بيعة خاصة » . وهناك قول آخر ، بأنه لما توفي المهدي كتم أصحابه موته بعض الوقت ، حتى يتفقوا على من يتولى الخلافة من بعده . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة مؤرخ الدولة الموحدية وكذلك ابن القطان ، إن هذه المدة استطالت إلى عام سبعة وعشرين وخمسمائة ، أعنى مدى ثلاثة أعوام ، بويع من بعدها عبد المؤمن ببيعته العامة ، وذلك حين أعلن موت الإمام المهدي . ثم يقص علينا ابن صاحب الصلاة بعد ذلك قصة الحيلة ، التي دبرها عبد المؤمن ليقنع الموحدين ببيعته ، وهي تتلخص في قصة الطائر والشبل ، اللذين درهما خفية ، خلال هذه المدة ، الطائر على أن يدعو له بالخلافة ، والشبل على أن

يجلس بين يديه وادعاً هادئاً . ثم دعوته بعد ذلك الأشياخ الموحدين إلى مجلسه ، واستشارتهم في أمر من يتولى الخلافة ، ودعاء الطائر له بنطقه « العز والتكين للخليفة عبدالمؤمن أمير المؤمنين » ومثول الشبل بين يديه ، رابضاً مطيعاً لإشارته ، وتأثر الحاضرين بذلك ومبايعتهم له^(١) .

بيد أنه بغض النظر عما يطبع هذه الرواية من مبالغة ، وجنوح إلى الأسطورة ، فإنه توجد لدينا أكثر من رواية وثيقة تؤيد القول ، بأن بيعة عبد المؤمن . قد تمت عقب وفاة المهدي ، ووفقاً لسابق إشارته . من ذلك ما ذكره أبو بكر الصنهاجي المكنى بالبيدق ، وهو كما تقدم من أصحاب المهدي الأوائل ، من أنه عقب وفاة المهدي في يوم الأربعاء أو يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٥٢٤ هـ ، ببيع الخليفة أعني عبد المؤمن في يوم السبت الأقرب من هذا التاريخ^(٢) . وما ذكره في موضع آخر من أنه عقب وفاة المهدي ، قام عبد المؤمن بإعلان ذلك النبأ للناس ، وعندئذ تقدم إليه أربعة من الصحب ، اثنان من الجماعة ، وهما عمر بن عبد الله الصنهاجي المعروف بعمر أصناك ، وأبو إبراهيم إسماعيل ، واثنان من أهل خمسين هما عبد الرحمن بن زكو ، ومحمد ابن محمد ، وبايعوه على ما بايعوا عليه المهدي ، ثم تبعهم سائر الناس حتى دخل الليل ، واستمرت البيعة ثلاثة أيام متواليات^(٣) .

ويأخذ صاحب « الحلل الموشية » بمجمل هذه الرواية ، فيقول لنا إنه « لما توفي المهدي ، تفاوض بقية أصحابه وهم أربعة ، بمن يكون إمامهم بعده ، فوقع اتفاقهم على عبد المؤمن ، لما كانوا يشهدونه من تعظيم المهدي له ، بمحضر أصحابه وجميع الموحدين ، ويقبل عليه ، ويستبشرون بكلامه ، فاتفقوا عليه وقدموه »^(٤) . وكذلك يذكر لنا صاحب روض القرطاس أن المهدي ببيع يوم الخميس الرابع عشر من رمضان سنة ٥٢٤ هـ ، ويصف هذه البيعة ، بالبيعة الخاصة التي بايعه فيها عشرة من أصحاب المهدي . وأما البيعة العامة فقد وقعت وفقاً لقوله في

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره اوجه ١٤٥ و ١٦٦) . وراجع رواية ابن صاحب الصلاة في روض القرطاس ص ١١٩ و ١٢٠ .
(٢) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٨٣ .
(٣) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٨٥ ، والمحب ص ١٠٨ ، ويورد المراكشي اسمين آخرين مع عمر أصناك ، هما عمر بن مرزاك ، وعبد الله بن سليمان .
(٤) الحلل الموشية ص ١٠٧ .

٢٠ من ربيع أول سنة ٥٢٦ هـ ، بعد وفاة المهدي بنحو عامين بجامع تينملل^(١) .
وفضلاً عن ذلك ، فإن لدينا رواية المراكشي ، وهو أيضاً من مؤرخي
الموحدين ، وهي رواية مفصلة واضحة ، خلاصتها أن ابن تومرت استدعى
قبل موته بأيام يسيرة ، أصحابه من الجماعة وأهل خمسين ، وهم من قبائل متفرقة
لا يجمعهم إلا اسم المصامدة ، فلما حضروا بين يديه ، نهض متكئاً ، وخطب فيهم
فذكرهم بما كان عليه السلف الصالح ، من الثبات في الدين ، والعزيمة في الأمر ،
وما حدث من بعدهم من ظهور الفتنة ، التي أضحت في العالم متجاهلاً مدهائلاً ،
يقصد بعلمه الملوك ، ويحتلب الدنيا ، وكيف أن الله سبحانه قد خصهم بتأييده ،
وحقيقة توحيدهم ، وهذاهم بعد الضلالة ؛ ثم حذرهم من الفرقة واختلاف الكلمة ،
وأن يكونوا على عدوهم يبدأ واحدة ، ثم أعلن لهم اختياره عبد المؤمن لخلافته قائلاً
في تزكيته « وهذا بعد أن بلوناه في جميع أحواله ، من ليله ونهاره ، ومدخله
ومخرجه ، واختبرنا سريره وعلايته ، فرأيناه في ذلك كله ، ثباتاً في دينه ،
متبصراً في أمره » . وأنه على أثر ذلك قام القوم بمبايعه عبد المؤمن . ودعا لهم
ابن تومرت ، ومسح وجوههم وصدورهم . ثم توفي ابن تومرت بعد عهده
بيسير ، واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن^(٢) .

وهكذا يبدو أن عبد المؤمن ، تلقى بيعته عقب وفاة المهدي ، وربما قبيل
وفاته ، وفقاً لرواية المراكشي ، وليس من المستبعد أن يكون عبد المؤمن وأصحابه
قد كتموا موت المهدي حيناً ، حتى يجتنب الخلاف ، ويستوثق الأمر ؛ ذلك أنه
لما توفي المهدي ، أخذ كل زعيم ، وكل قبيلة ، تتطلع إلى اجتناء تراث المهدي ،
برئاسة الموحدين ، واشتد التنافس بينهم في ذلك ، فخشي الجماعة والخمسون ،
أن يفسد الأمر ، وأن تضطرم الفتنة ، فاجتمعوا وتفاوضوا ، ووقع اختيارهم
على عبد المؤمن . وكان عبد المؤمن في الواقع ، منذ البداية أرجح القوم مكانة ،
إذ كان أوثقهم صلة بالمهدي ، وأشداهم اختصاصاً به ، واستثنائاً بحبه وثقته ،
وكان ينسب للمهدي قوله فيه وإنشاده كلما رآه :

تكاملت فيك أوصاف خصصت بها فكلنا بك مسرور ومغتبط
السن ضاحكة والكف مانحة والصدر متسع والوجه منبسط^(٣)

(١) روض القرطاس ص ١٢١ . (٢) المعجب ص ١٠٨ و ١٠٩ .
(٣) المعجب ص ١١٠ ، ويقول ابن خلكان إن هذين البيتين ينسبان إلى أبي الشيص الخزاعي
الشاعر المشهور (وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٩١) .

وفضلاً عن ذلك كله فقد كان عبدالمؤمن ، غريباً بأصله وقبيلته عن المصامدة ، ولم يكن له بينهم قبيل ولا طائفة ، فكان ذلك مما شجع القوم على اختياره ، اجتناباً لكل منافسة وخلاف^(١) .

أما عن أصل عبد المؤمن ونسبه ، فإن الرواية تختلف أيضاً ، فهو وفقاً لرواية أبي بكر الصنهاجي ، عبد المؤمن بن علي بن علكوى بن يعلى بن علي بن حسن ابن نصر بن الأمير بن نصر بن مقاتل بن كومي بن عون الله بن ورجاج بن ينفر ابن مراو بن مطاط بن صطفور بن نفور بن رجيك بن يحيى بن هزرج بن قيس ابن عيلان : ثم يقول لنا أبو بكر معلقاً على هذا النسب ، إنه صحيح حتى مقاتل ابن كومي بن عون الله ، وأما ما ورد بعد ذلك من الأسماء إلى قيس بن عيلان ففيها اختلاف وتصحيف وتقديم وتأخير^(٢) .

وينتمي عبد المؤمن إلى قبيلة كومية ، وهي بطن من بطون زناتة ، وذلك سواء عن أبيه أو أمه ، إذ هي كومية أيضاً ، فهو بذلك بربرى الأصل ، وحسباً تذلي بذلك أيضاً نسبته . ولكن عبد المؤمن هو خليفة المهدي ، وهو أمير المؤمنين ، وإذاً فلا بد أن يكون له — حسباً حدث في شأن المهدي — نسبة عربية أولاً ، ثم لا بد أن تكون هذه النسبة متصلة بآل البيت . ومن ثم فإن الرواية تقول لنا إنه من ولد سليم بن منصور بن قيس بن عيلان بن مضر . وأما كيف تحولت نسبته العربية إلى النسبة البربرية ، فهو أن جدّاً من أجداده العرب ، نزل بساحل تلمسان ، فاراً من بعض الفتن بالأندلس ، وجاور بعض أحياء مطاطة ، إخوة زناتة ، فنسب ذلك إليهم بالحوار والخلف . وفي رواية أخرى أن نسبته ترجع مباشرة إلى آل البيت بانتسابه إلى جدته كنونة بنت إدريس بن إدريس بن عبد الله بن القاسم بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وإلى كنونة هذه أيضاً يرجع نسبة أمه تعلقو بنت عطية ، فهو إذن ، وفقاً لهذه النسبة لسيل آل البيت عن طريق أبيه وأمّه^(٣) . وقد كان عبد المؤمن نفسه ، حسباً يروى لنا المراكشي ، ينكر نسبته البربرية ، ويقول إذا ذكرت كمية (كومية) « لست منهم وإنما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . ولكمية علينا حق الولادة بينهم ،

(١) روض القرطاس ص ١١٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٢) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٢١ و ٢٢ .

(٣) المعجب ص ١٠٩ ، وروض القرطاس ص ١١٩ .

والمنشأ فيهم ، وهم الأخوال » . ويزيد المراكشي على ذلك ، أنه أدرك من أولاد عبد المؤمن وأحفاده ، من ينتسبون لقيس عيلان بن مضر (١) .

وكما نُسجت حول ابن تومرت ودعوتيه ، واختيار القدر له ليكون مهدي آخر الزمان ، هالة من الأساطير ، لتؤكد قدسية وصديق رسالته ، فكذلك نسجت مثل هذه الهالة حول عبد المؤمن وخلافته للمهدي ، لتؤكد أن القدر قد اختاره ، كما اختار المهدي منذ الأزل ، ليقوم بهذه الرسالة . وقد أورد لنا ابن القطان بعض ما ذكره أبو القاسم المؤمن في كتابه المسي « فضائل الإمام المهدي » ، من أقوال وأمارات للتدليل على صدق رسالته . ومن ذلك أنه جاء في كتاب أبي عبد الله الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين ، الخوض على الإيمان بالمهدي وطائفته ، وذكر عبد المؤمن بن علي القيسي ، وأنه هو الذي وعد بالنصر والتأييد والفتح . ويقول أبو القاسم ، أن ذلك قد ورد أيضاً في كتاب يحيى بن زيد ، وفي كتاب القاسم الأكبر ، وفيه جميع ما ذكر من فضائل الإمام المهدي ، وعلاماته ومواضعه ورجاله ، والخليفة الأخذ عنه . وقد شرح ذلك كله صاحب كتاب « النصر » لإدريس بن إدريس ، وأورد لتأييده أحاديث عديدة :

ثم ينقل إلينا ابن القطان بعد ذلك قول ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد في أرجوزة نظمها بعد ذكر « المهدي » « وفاته » (٢) ، حيث يقول :

ويرجع الأمر إلى عدنان لما جند قد خص من عيلان
زب الفتوح صاحب الملاحم وقامع الأعراب والأعاجم
وقول عبد الملك بن حبيب :

صاحب المهدي يأتي بعده خيرة الأعراب طربا والعجم
أقبل الملك به من نعيته أشيب المليحة ليس بالهريم

وأنه قد ورد ذلك أيضاً في بعض الأراجيز القديمة ، وفيها شرح صفاته وأفعاله وفتوحه . ويزيد أبو القاسم المؤمن على ذلك كله أنه رأى بالقدس في رباط للنصارى اسم المهدي منقوشاً على رخامة بيضاء ، كما رأى اسم عبد المؤمن خليفته ، وأنه أي

(١) المراكشي في المعجب ص ١٠٩ .

(٢) المقصود هنا « المهدي » بصفة عامة ، وليس المهدي بن تومرت ، لأن ابن عبد ربه قد عاش قبل المهدي ابن تومرت بنحو قرنين .

أبو القاسم ذكر ذلك للإمام المهدي ، فأمر بكتمانها حتى يحين الوقت الذي يكون فيه ظهوره^(١) .

وهكذا نرى كُتّاب الدولة الموحدية ومؤرخيها يجحدون في تقصّي الأساطير ، ونسجها حول إمامة المهدي ابن تومرت ، وحول خلافة عبد المؤمن ، حتى تتخذ الدعوة الموحدية ، ومن بعدها الخلافة الموحدية ، مكانتها من الرسوخ والقدسية . وكان مولد عبد المؤمن في آخر سنة ٤٨٧ هـ (أول سنة ١٠٩٥ م) بموضع يعرف بتاجرا على مقربة من مرسى هنين شمالي تلمسان ، وقيل إنه ولد سنة ٤٩٠ هـ ، أو سنة ٥٠٠ هـ^(٢) . ويبدو سقم هذه الرواية الأخيرة ، إذا ذكرنا أن عبد المؤمن قد لقي المهدي ابن تومرت عقب عودته من المشرق إلى المغرب في سنة ٥١٢ هـ ، وكان يومئذ شاباً ، ولم يكن غلاماً حدثاً . وكان والد عبد المؤمن فخّاراً يصنع الآنية من الطين ، وهي المعروفة بالنوابخ ، وكان بالرغم من وضعته رجلاً عاقلاً محترماً من قومه^(٣) . ويذكر لنا البيهقي أن والد عبد المؤمن كان بالعكس قاضياً في زمانه وفي قومه^(٤) . ونشأ عبد المؤمن منذ البداية محباً للقراءة والدرس ، يلازم المساجد لتلاوة القرآن ، ولما بلغ نحو العشرين من عمره ، اعتزم الرحلة إلى المشرق ليتابع الدرس ، وقد رأينا فيما تقدم كيف التقى هو وعمه بملاحة على مقربة من بجاية بمحمد بن تومرت ، وكان يومئذ يقود حملته المعروفة ضد المنكر ، وكيف آنس فيه ابن تومرت نجابة وذكاء ، وشعر أنه سوف يغدو أعظم معاونيه ، وكيف استطاع أن يقنعه بالبقاء إلى جانبه يطلب العلم على يديه ، ويعاونه فيما هو قائم به « من إماتة المنكر ، وإحياء العلم ، وإخماد البدع » . كان ذلك في أوائل سنة ٥١٢ هـ . وقد بقي عبد المؤمن من ذلك التاريخ إلى جانب ابن تومرت ، ولازمه واختص به ، يؤازره في دعوته ، ويشاطره مصيره أينما حل ، حتى كان من أمر ابن تومرت ما سبق ذكره من اشتداد دعوته الدينية ضد المرابطين ، ثم التجاؤه وصحبه إلى تينملل ، وإعلانه أنه هو المهدي المنتظر ، ومبايعه أصحابه وفي مقدمتهم عبد المؤمن له على ذلك .

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السلف الذكر لائحة ٥٣ ب و ٤٤١) .

(٢) الأولى هي رواية المراكشي (ص ١٠٩) ، والثانية والثالثة أوردتهما ابن خلكان

في الوفيات (ج ٢ ص ٣٩١) .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٩١ ، وروض القرطاس ص ١١٩ .

(٤) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٢٧ .

وقد رأينا فيما تقدم . كيف كان عبد المؤمن ، إلى جانب أبي محمد البشير ، أعظم قادة الموحدين . وكيف أنه عقب هزيمة البحيرة الساحقة (أوائل سنة ٥٢٤هـ) ومقتل البشير ، استطاع أن يجمع فلول الموحدين وأن ينقذها من الفناء المحقق ، وأن يقودها بالرغم من مطاردة المرابطين إلى تينملل ، وكيف أن المهدي ، وقد كان في مرض موته ، حينما أبلغ أمر الهزيمة ، سأل عن عبد المؤمن ، ولما علم بأنه سالم ، قال لأصحابه « الحمد لله قد بقي أمركم » .

- ١ -

لم تحب دراسة المهدي في تلميذه وصاحبه الأثير ، وخليفته من بعده ، فقد شاعت العناية الإلهية أن يغدو عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين الحقيقي ، وأن يقود الموحدين إلى ميادين النصر الباهر ، وأن يحقق لهم سلطان الإمبراطورية الموحدية الكبرى في المغرب والأندلس .

قضى عبد المؤمن بعد توليه الخلافة زهاء عام ونصف ، ينظم شئون الموحدين ويؤلف قلوبهم ، ويحشد جموعهم ، ويستنفرهم إلى الجهاد . ولما كملت أهباته ، اعتزم أن يستأنف الجهاد لمقاتلة أعداء الدولة الموحدية - المرابطين - وافتتاح البلاد من أيديهم ، وإرغامهم على الطاعة ، واستقر رأى الموحدين بعد البحث والتشاور على أن تكون أولى غزاتهم لقصبة تادلة في وادي درعة^(١) . فخرج عبد المؤمن من تينملل في شهر ربيع الأول (وقيل في شوال) سنة ٥٢٦هـ (يناير سنة ١١٣٢م) في جيش ضخم من الموحدين ، قوامه ثلاثون ألف مقاتل ، وسار أولا إلى قلعة تازاجورت ، وكانت تدافع عنها حامية مرابطية بقيادة يدربن ولحوط ، فاقتحمها واستولى عليها ، وسبى أهلها^(٢) . وفي رواية أخرى أن قائد تازاجورت المرابطي كان يدعى يحيى بن مريم ، وأن عبد المؤمن قتله وقتل معه نحو عشرين ألفاً من المحسمين ، وأسر زوجته ميمونة بنت يثبان بن عمر ، وصحبها معه إلى الجبل ، حتى افتديت فيها بعد بمن كان من أسرى الموحدين في تامسان^(٣) وسار عبد المؤمن

(١) إن تادله التي يذكرها بهذه المناسبة صاحب الحلل الموشية (ص ١٠٧) ، وروض القرطاس (ص ١٢١) ، وابن خلدون (ج ٦ ص ٢٢٩) ليست هي بلدة تادلا الواقعة شمال شرق مراكش ، ولكنها هي الحملة الحصينة الواقعة شرق وادي درعة ، وذلك حسبما يستدل من سير الحملة الموحدية والمواقع التي استولت عليها ، ومنها مدينة درعة .

(٢) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٨٥ .

(٣) هذه رواية ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٧٠) .

بعد ذلك إلى درعة ، واستولى عليها وعلى أحوازها ، ثم غزا سائر محلات تلك المنطقة وعاد إلى تينملل .

وافتح الموحدون في هذا العام حصن تاسغيموت ، وهو حصن منيع يقع فوق الجبل ، وبه حامية من هزرجة ، فتواطأ معهم الموحدون على فتحه ، واستطاعوا أن يدخلوه ليلاً ، وقتلوا واليه المرابطي أبا بكر بن وارصول ومن معه المرابطين ، وحملوا بابه الحديدى الضخم ، وركب فيما بعد على سور تينملل . وكذلك افتتح الموحدون في نفس العام حصن جلاوة ، افتتحه الشيخ أبو حفص عمر وجماعة من وجوه الموحدين ، ودخلوه عنوة وقتلوا كل من فيه . وكان أهل جلاوة هم الذين جرحوا المهدي في إحدى غزواته ، وقام الخليفة من ناحيته بافتتاح حصن هزرجة وأحرقه ، وقتل معظم أهله . ثم دخل بلدة جشجال ، وأحرقها أيضاً ، وسار منها إلى أرض غجدامة ، وافتتح بلدة أجلاحال .

ودخل في هذا العام في طاعة الموحدين ، بعض بطون من هزرجة وهسكورة ، ثم ارتدوا وعادوا إلى الخروج والعصيان (١) .

ولما عاد عبدالمؤمن إلى تينملل ، كانت قد وقعت خلال غيبته في تلك الغزوة حادثة خطيرة ، كادت تحدث صدعاً في صفوف الموحدين لو لم تخمد في المهد . وذلك أن عبد الله بن يعلى الزناتى . الشهير بابن مكنوية ، وهو أحد أصحاب المهدي العشرة ، وكان من أشد المعارضين لبيعة عبدالمؤمن ، انتهز فرصة ابتعاد عبدالمؤمن بالحيش ، وسار إلى مراکش . وتفاهم مع أمير المسلمين على بن يوسف على مهاجمة تينملل ، وسمح حكومة الموحدين ، فعهد إليه على بن يوسف بتموة من المرابطين ، فسار بها إلى تاماذاجوست مجتمع قبيلة كنفيسة على مقربة من تينملل ، لكي يضمها إليه ، ويسير بقواته المحتمة لتدمير العاصمة الموحدية ، وكان بتينملل عبد الله بن سيدرن أحد زعماء كنفيسة . فجتمعهم فأعلنوا تمسكهم بالعهد الذى قطعوه للمهدي ، ونعوا على ابن ملوية تلك الخيانة ، وفي الحال قام واحد من أهل خمسين هو أبوسعيد بخلف بن الحسن آتيكى ومعه غلامه ، وسار إلى محلة ابن ملوية في أسفل الجبل ، وقتلاه ، وحمل جثته إلى تينملل وصلبت بها ، وأخذت المحاولة في المهد . ولما عاد عبد المؤمن شكر لكنفيسة لإخلاصها ، وقسم الغنائم . ثم هبط

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ١٧١) .

ثانية إلى الوادى ، واستولى على أراضى صنهاجة القرية (أصناجان) وولى عليها على بن ناصر ، وهو أحد زعمائها ومن أهل خسين^(١) .

ويضع ابن القطان فى أخبار هذا العام - سنة ٥٢٦ هـ - حادثاً من نوع خاص ، هو انضمام الفلاكي الأندلسى ، وهو من قادة المرابطين ، إلى الموحدين . وكان الفلاكي حسبما تقدم أندلسى من أهل إشبيلية ، وكان فى بداية أمره شقياً وقاطع طريق ، يتسم بالجرأة والشجاعة ، ثم تاب وسلك سبيل الاستقامة ، فعفا عنه وإلى إشبيلية ، وقدمه على الرماة والرجالة . ونمى خبره إلى على بن يوسف ، فاستقدمه إلى مراكنش ، وقدمه على فرقة من الحند المرابطين ، وعهد إليه بحراسة مخارج جبل درن التى يهبط منها الموحدون إلى السهل لكى يعيق سبيلهم . ثم وجهه إلى السوس لمكافحة الموحدين ، ووالى السوس حينئذ وانودين بن سير ، فجد الفلاكي فى محاربة الموحدين ومكافحتهم . ثم فسد ما بينه وبين على بن يوسف ، فانضم إلى الموحدين مع طائفة من جنده ، وأخذ يغير على حصون لمونة ، ويفعل بها مثلاً كان يفعل من قبل بقواعد الموحدين ، وأخذ يغير على جهات السوس وأغامت . واستمر فى خدمة الموحدين مدى أعوام ، ثم ارتد بعد ذلك ، وفقاً لقول ابن القطان^(٢) . بيد أنه لا يذكر لنا ماذا كان مصيره بعد هذا الارتداد . ومن جهة أخرى ، فإن بعض الروايات تضع انضمام الفلاكي إلى الموحدين فى تاريخ لاحق - فى سنة ٥٣٥ هـ - أى بعد التاريخ الذى يقدمه لنا ابن القطان بنحو تسعة أعوام^(٣) .

وفى العام التالى ، أعنى فى سنة ٥٢٧ هـ أعلنت بيعة عبد المؤمن الخاصة ، وعقدت بيعته العامة ، وذلك إذا أخذنا برواية كتمان وفاة المهدي مدى ثلاثة أعوام ، وهى حسبما تقدم رواية ابن صاحب الصلاة وابن القطان . ويضع ابن القطان هذا الحادث سهواً فى أخبار سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، ومن الواجب لكى يكون متفقاً مع سابق روايته أن تكون سنة سبع وعشرين . ويقول لنا إنه فى هذه السنة ،

(١) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٨٥ ، هذا ويروى لنا ابن القطان أن ابن ملوية قتل فى سنة ٥١٨ هـ فى مناسبة سابقة ، خلاصتها أنه حينما قام المهدي بتدبير اغتيال قبلة هزيمة وسبى نسايتهم ، ونهب أراضيهم ، اعترض ابن ملوية ، ونمى عليه هذا التصرف الدموى ، وأنه لا يتفق مع ما يدعيه من العصمة ، فأمر المهدي بقتله فقتل وصلب على الفور (نظم الجمان المخطوط لوحة ٤٧ ب) .

(٢) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٣٩ ب وه ١٧٥) .

(٣) هذه رواية صاحب الحلل الموشية (ص ٨٣) ، وربما كان هذا الانضمام المتأخر من جانب الفلاكي إلى الموحدين ، هو انضمامه الثانى لا الأول .

كان الإعلان بموت المهدي والإعلان ببيعة الخليفة أمير المؤمنين ، ثم يعلق على ذلك بعبارات رنانة يقول فيها : « فرقع الغطاء ، ومسطع الضياء ، ومهرت الشمس ما دونها من السحاب ، وتبلج الحق واضحاً بغير حجاب » ، وبايعه الصاحب على ما بايعوا عليه « الإمام المهدي » ، واتصلت البيعة ثلاثة أيام « فأشرق الأرض بنور إمامته ، ونال أهلها عظيم حظوته وكرامته » . وعلى أثر ذلك اتخذ عبد المؤمن لقب « أمير المؤمنين » ، والظاهر أنه لم يكن يلقب به قبل ذلك^(١) .

ويوجد شيء من التناقض والغموض حول أعمال عبد المؤمن وحركاته في بضعة الأعوام التالية ، من سنة ٥٢٨ إلى سنة ٥٣٢ هـ . ويقدم إلينا ابن القطان بعض التفاصيل عن حوادث هذه الفترة ، فيقول لنا في أخبار سنة ٥٢٨ هـ ، إن الموحدين اشتبكوا مع المرابطين بقيادة إبراهيم بن يوسف المعروف بابن تاعياشت في معركة هزم فيها المرابطون وقتل قائدهم . ثم ينقل إلينا عن ابن الراعي ، خبر فتح الموحدين لمدينة تارودانت . فيقول إنه لما استولى الموحدون على سائر بلاد السوس ، ارتد المرابطون منهزمين إلى تيونوين ، وعندئذ سار « العليج الأعرج » (والغالب أنه البربري الذي سوف يأتي ذكره) من أجرفرجان ، فاقتحم طريق إيغيران في غفلة من الموحدين ، وسبقهم بمن معه ، فأتبعهم الموحدون حتى وصلوا إلى بلاد السوس . وكان العليج في نحو أربعمائة فارس ، فلما وصل تيونوين ، وعلم بمقدمه من كان قد فر إلى الأطراف من أهل السوس ، هرعوا إلى الالتفاف حوله . ونقتبس هنا وصف ماتلا من أدوار المعركة من رسالة كتب بها الخليفة عبد المؤمن ونقلها إلينا ابن الراعي . وفيها يقول الخليفة : « فميزنا عسكراً مباركاً من خيل ورجل ، فخرجوا إلى ناحية تارودانت ، وبعثنا تلك الليلة سرية إلى أسفل السوس ، فقتلوا وغنموا بقرأ وغنما وعبيداً ، وسبو ذراريهم ، ثم بعثنا سرية أخرى في الليلة التالية إلى بقية تلك الناحية ، أعنى أسفل السوس فقتلوا مقتلة أكثر من الأولى ، وغنموا أكثر مما غنم أصحابهم .

«وأما العسكر فقصدوا إلى تارودانت ودخلوها ، وفر من كان بها من المرابطين ، وقتل الموحدون من وجدوا بها ، واستقر الموحدون بالمدينة ، وأطلقوا النار في القصب ، فارتفعت النار في الهواء . كل ذلك والمرابطون في تيونوين يشهدون

(٥) نظم الجمان (المخطوط السابق لوحة ٧٤ ب و ١٧٥) وراجع روض القرطاس عن ابن

الذير ان تحرق أوطانهم . ولما أيقن البربر وغيرهم بعجز العليج ، انكسرت قلوبهم ، وحققت الهزيمة عليهم » .

وفي العام التالي سنة ٥٢٩ هـ ، سار عبد المؤمن لغزو بني ييغز ، وذلك لأنهم كانوا قد قتلوا أبا محمد عبد العزيز الغيغاثي من أصحاب الإمام المهدي ، فلما نزل الخليفة على أحيائهم ، وضعوا الأحطاب على ظهور الجبال ، وأضرموا فيها النار ، ودفعوها نحو محلة الموحدين ، فوقع المهرج في المحلة الموحدية ، وسار بنو ييغز في أثر جملهم وهاجموا الموحدين ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة . وحاول رجلان من بني ييغز أن ينفذا إلى خيمة عبد المؤمن وأن يقتلاه ، ولكن عبد المؤمن كان قد غادر خبائه نحو طأ وحذراً ، فأخذ الرجلان وقتلا . وقضى عبد المؤمن في تلك الغزوة أربعين يوماً ثم قفل عائداً إلى تينملل . ويضيف ابن القطان إلى ماتقدم نقلا عن ابن صاحب الصلاة ، أن عبد المؤمن كان قد وجه إلى بني ييغز بعض اخوانهم المخاورين لهم ، لينصحوهم ويندروهم ، وأن مساعيه في ذلك السبيل قد كالت بالنجاح ، إذ انقاد بنو ييغز وأذعنوا ، ودخلوا في طاعة الموحدين . وهذا ما يفسر لنا النتيجة السلبية التي انتهت إليها معركة بني ييغز ضد الموحدين (١) .

ويحدثنا اليسع عن موقعة نشبت بين المرابطين والموحدين في سنة ٥٣٠ هـ ، فيقول إن عبد المؤمن سار في قواته إلى أجرفرجان ومصكروطن ، فخرج إليه سير بن علي بن يوسف ، ولى العهد يومئذ ، في القوات المرابطية . ولبث عبد المؤمن حيناً معتصماً بالجبال يطاول العدو ، ثم التقى الفريقان في مصكروطن . فهزم المرابطون ، واستولى الموحدون على مقادير عظيمة من أسلحتهم ، من المال والسلاح (٢) .

ومن جهة أخرى فإن البيهقي أبا بكر الصنهاجي ، مؤرخ الموحدين المعاصر ، فيما يسطره لنا من غزوات عبد المؤمن يؤكد لنا عقب كلامه عن غزوة صنهاجة ، أن الخليفة التقى مع الإبريتير وتاشفين ، وفتح الله عليه في محاربتهم في البداية . وهذه أول مرة يلتقي فيها عبد المؤمن بجيش مرابطي يقوده الأمير تاشفين بن علي . وقد ذكرنا فيما تقدم من أخبار تاشفين ، أنه لبث والياً على الأندلس ، وقائداً للجيش المرابطية بها حتى سنة ٥٣١ هـ (أو سنة ٥٣٢ هـ) ، وأنه عبر في أواخر

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره) .

(٢) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط لوحة ٧٨ ب) .

سنة ٥٣٢ هـ إلى المغرب استجابة لدعوة أبيه ، وذلك حينما تفاقمت هجمات الموحدين ، وكثرت هزائم المرابطين . وإذن فلا بد أن يكون هذا اللقاء الأول بين الموحدين ، وبين الجيوش المرابطية بقيادة تاشفين قد وقع على الأقل في أوائل سنة ٥٣٣ هـ . والواقع أن ابن القطان يقص علينا خبر موقعة حدثت في سنة ٥٣٣ هـ بين المرابطين بقيادة الأمير تاشفين بن علي والبربرير وبين الموحدين ، فيقول إن الخليفة عبد المؤمن تحرك في هذا العام من تينملل ، ونزل في بلد بني ملول من منانة في أراضي حاحة ، ونزل تاشفين بقواته في تاحكوط من حاحة . وكان على بن يوسف قد قتل أعيان قبيلة منانة ، فدخلت في طاعة الموحدين ، ثم ارتدت غير مرة ، فأقام عبد المؤمن في بني ملول شهراً وثلاثة أيام ، وهو يغير على تلك الأحياء ، ويقتلهم قتلاً ذريعاً . ثم استولى على سائر أسلابهم من الحلي والثياب والأقوات وغيرها ، وسار بعد ذلك إلى أحياء بني واجدزان ، ثم إلى أحياء بني سوار من منانة الجبل ، وقصد بعد ذلك إلى أجرفرجان ، فتبعه تاشفين في قواته ، وهناك نشبت بين الفريقين معركة شديدة ، هزم فيها المرابطون وقتل منهم عدد جم . ثم تجدد القتال بعد ذلك ، فانهزم تاشفين مرة أخرى ، وارتد إلى جهة الميزتابوت ، واستولى الموحدون على أسلابه من السلاح والثياب والدواب والعبيد . وهرعت قوات جزولة من مراکش إلى مكان الموقعة لنجدة المرابطين ، وطمعت في أن تنتزع الغنائم من الموحدين ، فرتب لها عبد المؤمن الكمائن في مضائق الجبل ، وقدم الغنائم بين يديه اجتذاباً لها ، وخرجت جزولة ، وهاجت ساقة الغنيمة وقتلت بعض حراسها ، فخرجت إليها الكمائن الموحدية وأمعنت فيها قتلاً حتى أفنتها ، واستولت على سائر أسلحتها ودوابها . وكانت جزولة تضم آلافاً من الفرسان والرجال ، وارتد عبد المؤمن صوب بلاد جنفيسة ظافراً .

وجاء في رواية أخرى أن عبد المؤمن أراد أن يبني حائطاً في أضيق موضع من الجبل ليحول دون انصراف المرابطين حتى يهلكوا في تلك الهضاب ، فأحس تاشفين بمشروعه ، وارتد بقواته صوب مراکش ، وتركته جزولة عند أحياء رجرجة ، فتصدت لها قوة من المرابطين ، بقيادة الشيخ أبي حفص أصناج ، ففتكت بها ، واستاقت من خيلها إلى تينملل ثلاثة آلاف قسمت على الموحدين ، ثم عادت جزولة بعد ذلك ، فالت إلى التوحيد ، ودخلت في طاعة الموحدين^(١).

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ٨١ ب إلى ٨٢ ب) .

ويتفق ابن عذارى مع ابن القطان في حدوث الموقعة في سنة ٥٣٣ هـ ، ولكنه يقدمها إلينا في صورة أخرى ، فيقول إن القوات المرابطية كانت بقيادة الأمير تاشفين ، ومنهم جملة وافرة من قبائل جزولة ، وإن اللقاء وقع بين المرابطين وبين عبد المؤمن في موضع بين ملول ، وإن موقعة عظيمة نشبت بين الفريقين ، في مفاوز وجبال ضيقة ، استمرت شهراً وثلاثة أيام ، ثم انجلت عن هزيمة تاشفين . فطارده عبد المؤمن حتى موضع يسمى لإمران تانورت . ويزيد ابن عذارى على ذلك ، بأن أبناء جزولة رغبوا في الرجوع إلى بلادهم ، فأذن لهم تاشفين ، ونصحهم ألا يسلكوا طريق الجبال الوعرة ، حتى لا يتعرضوا لمهاجمة الموحدين ، ولكن جزولة لم يصغوا إلى نصحه . وكان عبد المؤمن قد رتب كائنه في هذا الطريق الجبلي ، فأكادت جزولة تسلك هذا الطريق ، حتى انقض عليها الموحدون وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، واستولوا على نسايتهم وخيلهم وسلاحهم ، واستاقوهم إلى تينملال . ثم رغب أشياخ جزولة بعد ذلك في مسالة الموحدين ، والدخول في طاعتهم ، فأصدر لهم عبد المؤمن أماناً وظهيراً بذلك^(١) .

وفي سنة ٥٣٤ هـ خرج تاشفين بجيش ضخم من المتونة والحشم وزناته ، لقتال الموحدين ومعه فرقة من النصاري المرتزقة بقيادة « الإبرتر » ، واستمرت المعارك بينه وبين الموحدين زهاء شهرين . ووقعت المعركة الأخيرة بينهما في شوال من هذا العام ، وقتل فيها كثير من الفريقين . وعلى أثر ذلك ارتد تاشفين إلى مراکش وعاد الموحدون إلى تينملال^(٢) .

ويبدو من أقوال البيدق أنه قد وقعت في ذلك الوقت معارك أخرى ، بين المرابطين والموحدين ، بأرض « حاحة » غربي تينملال ، وشمالي السوس الأدنى بموضع يسميه البيدق « تيزغور » ، وأن الموحدين انتصروا أولاً وأحرزوا بعض الغنائم ، ولكن المرابطين استطاعوا أن يحاصروا الموحدين بعد ذلك بهذا الموضع زهاء ستين يوماً ، حتى استنفد الموحدون غنائمهم . ثم تشبت بعد ذلك بين الفريقين موقعة جديدة ، هزم فيها الموحدون أولاً ، ثم انقلبت الآية ووقعت الهزيمة على المرابطين . وعلى أثر ذلك ارتد تاشفين في قواته إلى مراکش ، ومعه

(١) ابن عذارى في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة التي سبق ذكرها - هيسيرس ص ١٠٣) ، وكذلك في القسم الثالث من البيان المغرب (نسخة تاجروت التي نشرت في تطوان ص ١١) .
(٢) ابن عذارى في الأوراق المخطوطة السالفة الذكر (هيسيرس ص ١٠٤ و ١٠٥) .

زميله قائد الروم المسمى « الإبريتير » جريحاً ، وارتد عبد المؤمن في قوات الموحدين إلى تينملل^(١) .

ويجدر بنا قبل الكلام عن المعارك التي اضطرت بين الفريقين في تلك الفترة ، والتي كان يشترك فيها « الإبريتير » قائد الروم باستمرار ، أن نذكر كلمة عن هذا القائد النصراني .

إن الإبريتير أو البربريتير^(٢) حسبما تسميه الرواية العربية ، هو بالإفريقية El Reverter أو Roberto ، هو في الأصل سيد (فيكونت) من أشرف برشلونه ، حدث بينه وبين أميرها برنجار رامون نزاع ، فزعه ألقابه وأمواله ، فغادر برشلونة ، وعبر البحر إلى المغرب ، والتحق بخدمة الأمير علي بن يوسف . ونحن نعرف أن علي بن يوسف ، كان يضم إلى حرسه الخاص ، فرقة كبيرة من المرتزقة النصراني ، وقد كانت هذه الفرقة الأجنبية تشترك إلى جانب الحشم ، أوجند الحرس الخاص ، في كثير من المعارك ، وتبدى في القتال براعة وبسالة ، وتعرف الرواية العربية هذه الفرقة « بالخذ الروم » ، وتذكر أعمالها في مواطن كثيرة . فلما وفد البربريتير ، أو الكونت روبرتو ، على بلاط مراکش ، عهد إليه علي بن يوسف بقيادة حرسه من النصراني ، لما آتته من براعته وشجاعته . ويقول ابن صاحب الصلاة في وصف البربريتير « أنه كان من أكبر الطغاة بالأندلس نجدة وظهوراً متصله »^(٣) . وظهر البربريتير في الواقع في معظم المعارك التي اضطرت بين المرابطين والموحدين . وترك البربريتير عند مقتله ولدين ، اعتنق أحدهما الإسلام ، وتسمى باسم علي البربريتير ، واشتهر فيما بعد بمشاركته في حوادث مبروقة والحزائر الشرقية حسبما نذكر في موضعه .

ويبدو مما يذكره لنا البيهقي ، وابن عذارى أيضاً ، أن البربريتير ، هو الذي كان يقود الحشود المرابطية في المعارك التي وقعت بين المرابطين والموحدين في أراضى كدوميوه والسوس ، في ذلك العام أو في العام التالي ، وتفصيل ذلك ، هو أن البربريتير ، التقى بقواته مع الموحدين بقيادة عبد المؤمن أولاً في مكان يسمى

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ٨٦ . والبيان المغرب في الأوراق المخطوطة (هسبيرس ص ١٠٥) .

(٢) وبسمه ابن الأبار « البربريتير » ، ويقول لأنه كان علماً لبني تاشفين من كبار فوادم ، وأبطال رجاهم كانت له في الحروب مفاهيم شهيرة (الحلة السيرة ص ١٩٧ و ١٩٨) .

(٣) ابن عذارى في التسم الثالث البيان المغرب (نسخة تاجروت) ص ١٦ .

أمسيمى ، وهو يقع فى أرض كدميوه ، شمال تينملل ، ولم تقع بين الفريقين موقعة حاسمة ، فارتد كل منهما إلى أراضيه . ثم عاد الربرتير فخرج فى قوات لتونة ، وخرج عبد المؤمن للقائه ، فالتقيا بموضع يسمى آجظورور ، فهزّم المربطون ، وقتل منهم عدد جم ، وارتد الربرتير فى فلوله جريحاً إلى مراكش ، وعاد الموحدون إلى تينملل . ويضع البيدق وكذلك ابن عذارى تاريخ هذه الموقعة فى سنة ٥٣٥هـ^(١) .

وخرج عبد المؤمن بعد ذلك فى قواته إلى أرض السوس ، وهاجم حصن تليل ، وكان يدافع عنه حاكمه المرابطى ريجين بن ويدرن ، فبدأ الموحدون بحصاره ، ولكن قدمت القوات المرابطية عندئذ بقيادة الربرتير ، فغادر الموحدون الحصن ، ودخلوا أرض السوس ، واستولوا تبعاً على إيرمناد ميمون ، وتاسلوت ثم على تارودنت قاعدة السوس الأدنى ، ثم على حصن تينونين . وهزم الممتنون فى كل المواقع التى نشبت ، واستولى الموحدون خلال ذلك على كثير من الغنائم ، وسبوا النساء ، وعادوا بالغنائم والأسرى إلى تينملل . وكان من الحوادث التى وقعت فى تلك الغزوة ، وفقاً لرواية صاحب الحلل الموشية أن الفلاكي الأندلسى انضم بمن معه إلى الموحدين^(٢) ، وقد سبق أن ذكرنا أن هذا الانضمام قد وقع فى تاريخ سابق ، قبل ذلك بعدة أعوام . وفى نفس الوقت هاجم الربرتير محلة تيغيايين الموحدية ، وسبى نساءها ، وفى جملتهن زوجة يعزى بن مخلوف ، وأخذهن معه إلى مراكش ، ولما عاد عبد المؤمن بالسبايا إلى تينملل ، خاطبته تماجونت ابنة الوزير ينتان بن عمر ، وكانت بين الأسرى ، وذكرته بما قام به والدها ينتان من الشفاعة فى المهدي ، وقت أن كان بمراكش ، وحرّض الفقهاء على بن يوسف على التناكىل به ، وناشدته أن يسرحها هى وسائر النساء اللاتى معها ، فاستجاب عبد المؤمن إلى ضراعتها ، وأطلق النساء ، وبعثن إلى مراكش معززات مكرّمات ، فبادر على بن يوسف من جانبها ، بإطلاق سراح نساء تيغيايين ، وفى مقدمتهن زوجة يعزى بن مخلوف ، وأرسلهن كذلك فى أمن وكرامة إلى تينملل . وكان هذا عمل فروسية مشكورة من الجانبين^(٣) .

(١) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٨٧ ، وابن عذارى الأوراق المخطوطة (هيسيرس

ص ١٠٥) .

(٢) الحلل الموشية ص ٨٣ .

(٣) راجع كتاب المهدي ابن تومرت ص ٨٧ و ٨٨ .

— ٢٣٤ —

— ٢ —

لبثت المعارك التي تضطرم بين المرابطين والموحدين ، منذ وفاة المهدي ابن تومرت زهاء عشرة أعوام ، منحصرة في مناطق الأطلس ، جنوبي مراكش . في وادي درعة وبلاد السوس ، وفي بلاد حاحة من أحواز تينملل ، وقد كان النصر حليف الموحدين في معظم هذه المعارك . بيد أن انحصار الصراع في هذا النطاق المحدود من الإمبراطورية المرابطية ، لم تترتب عليه أية نتائج حاسمة ، ومن ثم فقد كان لازماً على الموحدين أن ينقلوا مسرح الصراع إلى قلب الإمبراطورية المرابطية . حتى يتاح لهم أن يضربوها في الصميم . وأن يقضوا عليها القضاء الأخير .

وهذا ما اعتزمه عبد المؤمن في الواقع ، واستدعى من أجله سائر حشود الموحدين ، من كل صوب وقبيل . وفي سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) خرج من تينملل بعد أن استخلف عليها صهره أبا عمران موسى بن سليمان ، في جيش ضخم ، يضم مجموعة كبيرة من الفرسان والرجالة . وسار في طرقات الجبل نحو الشمال الشرقي . ويفصل لنا البيدق ، وقد كان من شهود هذه الحملة الكبيرة . خط سير الجيش الموحدى ، فيقول لنا إن عبد المؤمن سار أولاً إلى موضع يسمى وانزال ، ثم إلى موضع يسمى وفاد ، وسار من وفاد إلى أشبار . وهى محلة تقع على مقربة من جنوب شرقي مراكش . وفي تلك الأثناء خرج جيش المرابطين بقيادة تاشفين من مراكش ، فغادر الموحدون أشبار إلى مكان قريب يقع في الشمال الشرقي ، ويسمى تاساوت ، ولحق المرابطون بأشبار . ثم غادر الموحدون تاساوت إلى دمنات الواقعة شرقي مراكش ، على قيد نحو سبعين كيلومتراً منها ، وسار المرابطون في نفس الوقت إلى يمللو الواقعة شمال شرقي دمنات . ولم تقع خلال ذلك معارك ذات شأن بين الفريقين ، ولكن القبائل والعشائر الواقعة في طريق الموحدين ، كانت تدخل في طاعتهم تباعاً ، واستمر الموحدون في مسيرهم شمالاً بشرق حتى واويزغت ، ثم إلى داي الواقعة جنوب تادلا . ووقعت خلال ذلك بين الفريقين معركة محلية في موضع يقال له تيزى . انتهت حسبما يقول البيدق بهزيمة « الفئدة الباغية » أى المرابطين . ولما وصل الموحدون إلى داي ، فرحوا بها المرابطى على بن ساقطرا ، واستولى عليها الموحدون دون مقاومة . وأعلن من كان بها من

صنهاجة بيعتهم للموحدين ، وطالبوا عبد المؤمن بالإفراج عن من كان معه من أسرى صنهاجة ، فأجاب مطلبهم .

وسار الموحدون بعد ذلك حتى تازاجارت ، وكان يدافع عنها حاكمها المرابطي يحيى بن ساقطرا ، فاقتحموها ، واستولوا على خيلها وغنائمها ، واقتحموا من بعدها قلعة واوما ، وكان يدافع عنها يحيى بن سير ، واستولوا عليها ، ثم استمروا في سيرهم حتى آزر ، التي تقع في قلب منطقة فازاز على قيد نحو مائة كيلومتر من شمالى شرقى تادلا ، فدخلوها ونزلوا بها . وبعث عبد المؤمن ، بضعة فرق من جيشه لتخضع الأنحاء المجاورة فقامت بمهمتها ، وعادت إلى آزر ، وأرسل في نفس الوقت بعض الأشياخ إلى تينملل يحملون إليها أخبار الحملة ، وليطمئنها على أحوالها . ودخل أهل فازاز جميعاً في طاعة الموحدين^(١) .

وغادر عبد المؤمن والموحدون آزر شمالاً نحو فاس التي تبعد عنها زهاء ستين كيلومتراً . وكان تاشفين قد وصل في تلك الأثناء في القوات المرابطية ومعه الربربر إلى فاس . ويصف لنا صاحب البيان المغرب سير الجيشين على هذا النحو في قوله : « كان الموحدون يمشون في الجبال المانعة حيث الأرزاق الواسعة ، وكان تاشفين ينزل البسائط بعساكره ، فما يجد من البرابر من يداخله ولا من يستعين به ، فيواصله ، وذلك بسبب إدباره إلى أن استقر عبد المؤمن بالجبال المجاورة لجهة فاس المعروفة بكراندة ، ونزل تاشفين بحصن بالموضع المذكور »^(٢) .

وهكذا عسكرت الجيوش المرابطية والموحدية ، كل منها على مقربة من فاس عاصمة المغرب القديمة ، وكان ذلك حسبما يستخلص من أقوال البيهقي ، وابن عذارى ، في أواخر سنة ٥٣٥ هـ (١١٤١ م) . وكان الوقت شتاء ، والشتاء قاسياً ، والمطر ينهمر بشدة . والظاهر أن المرابطين لم يحتاطوا لقسوة الطقس فعصف بهم البرد ، وأقاموا شهوراً دون حطب ولا فحم ، حتى أنهم اضطروا لحرق أوتاد أخبيتهم ، وخشب أبنيتهم ، ومات كثير منهم من البرد . وفي أثناء ذلك خرجت القوات المرابطية من فاس ومكناسة ، ومعها المؤن والميرة ، تقصد إلى محلة المرابطين ، ولكنها اختلفت أثناء الطريق واقتتلت ، ففر البعض منها ، وسار

(١) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٨٩ و ٩٠ .

(٢) القسم الثالث من البيان المغرب (نسخة تاجمروت) ص ١٢ . وراجع أيضاً الحلل الموشية

أحد قادتها ، وهو يحيى بن علي . هو ومن معه إلى محلة الموحدون ، وسلموا ، واعترض الموحدون قوة أخرى منها يقودها ابن ولحوط على طريق مكناسة ، وفتكوا بها ، وقتلوا معظمها واستولوا على ما معها من المؤن والعتاد .

وعبر الموحدون بعد ذلك إلى جبال الأطلس الوسطى ، وهاجوا القواعد المرابطية في غريس الواقعة جنوب آزر ، وتودجا الواقعة شمال سجلماسة ، وسيطروا على وادي مكنوية الواقع في شرق آزر ، ودخل القادة المرابطون في تلك الأنحاء في طاعتهم . ولما شعر والى سجلماسة المرابطى أبو بكر بن صارة ، باقتراب الموحدون من قاعدته ، خرج إليهم . وقصد عبد المؤمن ، وأعلن خضوعه ، فقبل منه ذلك عبد المؤمن ، وصرف النظر عن مهاجمة سجلماسة ، وعاد إليها واليها^(١) .

وفي أواخر سنة ٥٣٥ هـ ، وأوائل سنة ٥٣٦ هـ (صيف سنة ١١٤١ م) نرى عبد المؤمن وجيوشه الموحدية تندفع نحو الشمال في غزوات مستمرة ، تستغرق بضعة أعوام ، وتشترك مع الجيوش المرابطية المختلفة ، في معارك متعاقبة ، في أواسط المغرب وشماله ، وقد بدأت هذه المعارك منذ المحرم من العام المذكور ، حيث خرجت قوة موحدية بقيادة عبد الرحمن بن زجوة أحد أهل خمسين ، وهاجمت صفرو واقتحمها ، واستولت على غنائمها . ثم لحقت ببقية الجيش الموحدى في جهة الفلاج ، الواقعة شمال شرق صفرو . وكان تاشفين قد غادر عندئذ أحواز فاس ، وعسكر في جبل العرض الواقع في شرقها . وبعث البربرتير قائد الحند النصارى في قوة إلى الفلاج . فخرج إليه الموحدون بقيادة يحيى آغوال ، ونشبت بين الفريقين معركة ، هزم فيها الموحدون وقتل قائدهم . واحتجز رأسه وأرسل إلى فاس .

وعلى أثر ذلك سار الموحدون نحو أرض غيثة الواقعة شرق فاس ، وجنوبي رباط تازة ، وهى من أرض زنانة ، وضربوا محلهم بها فوق جبل عفرا . وسار المرابطون في نفس الوقت إلى موضع في السهل يسمى النواظر ، يقع على مقربة من جبل عفرا من ناحية تازا . وهنا دخل الشتاء بقره . وكان شتاء قاسياً توالى فيه الرياح العاصفة ، والأمطار الغزيرة ، بضعة أسابيع ، فأغرقت السهول واكتسحت الوديان والقرى ، وقاسى منها العسكران أيما عناء وشدة ، وكان وقعها على

(١) كتاب المهدي ابن تومرت ص ٩٠ .

المرابطين في السهل أشد وأنكى . حيث تساقطت الخيام ، وعامت أوتادها لرخاوة الأرض ، وغرقت الدور ، ومات كثير من المرابطين برداً وجوعاً ، وعزت الأقوات والوقود في المعسكرين ، وبلغ سعر الشعير وفقاً لقول البيهقي في معسكر الموحدين « ثلاثة دنانير للسطل ، وبلغ الحطب عند تاشفين ديناراً للرطل » ، ولم ترفع هذه الغمة إلا حينما دخلت طوالع الربيع ، وكان ذلك حسبما يحدثنا البيهقي سنة ست وثلاثين وخمسمائة (أوائل سنة ١١٤٢ م)^(١).

هذا ما يقوله لنا البيهقي عن حملة الموحدين إلى غياثة ، فهو أولاً يضع تاريخها في سنة ٥٣٩ هـ ، وهو ثانياً لا يذكر لنا أنه قد وقعت هنالك أية معارك بين الموحدين والمرابطين ، وإنما وقعت بعد ذلك في أماكن أخرى . ولكن ابن القطان يقدم إلينا رواية أخرى تختلف عن رواية البيهقي اختلافاً بيناً ، وهو أولاً يضع تاريخها في سنة ٥٣٢ هـ ، ثم يقول لنا إنه لما نزل الموحدون بجبل غياثة خرج إليهم سير بن علي بن يوسف في القوات المرابطية ، ونزل بجراندة عند وادي أبي جلوا ، وهنالك وافته حشود المغرب بقيادة عبد الله بن يحيى بن تيفلويت ، واجتمعت من حشود زناتة قوة أخرى من نيف وخمسة آلاف فارس بقيادة يحيى ابن فانو . وفي أثناء ذلك وحد زيري بن مازوخ من أشياخ زناتة ، ولحق بعبد المؤمن ، وطلب عسكرياً يقوده ضد المرابطين ، فأضعفه الخليفة بما طاب ، وقدم إليه عسكرياً تحت إمرة أحد أشياخ الموحدين ، فأخذ يهاجم الحشود المرابطية ، ويقتل العدد الجرم من رجالها ، وينهب سلاحها ومتاعها . ثم توفي قائد عسكري زناتة يحيى بن فانو ، فخلفه في القيادة ولده محمد . وأرسل زيري إلى إخوانه من مشايخ زناتة يحرضهم على النكث ، وأن يعملوا لهزيمة المرابطين . ثم وجه الخليفة قوة موحدية مختارة مع زيري ، فقصدت إلى محلة زناتة ، وهاجمتها ، ونسبت بين الفريقين معركة هزمت فيها زناتة ، وانتصر الموحدون .

وكان سير بن علي ، قد علم أن عبد المؤمن يزعم السير إلى أرض غمارة ، فرتب له في الطريق ألقي فارس ، تقيم وتستبدل باستمرار لتعيق سيره ، واستمر ذلك مدى شهرين^(٢).

(١) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٩١ ، وابن الأثير ح ١٠ ص ٣٠٥ . وكذلك ابن عذارى في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر) .

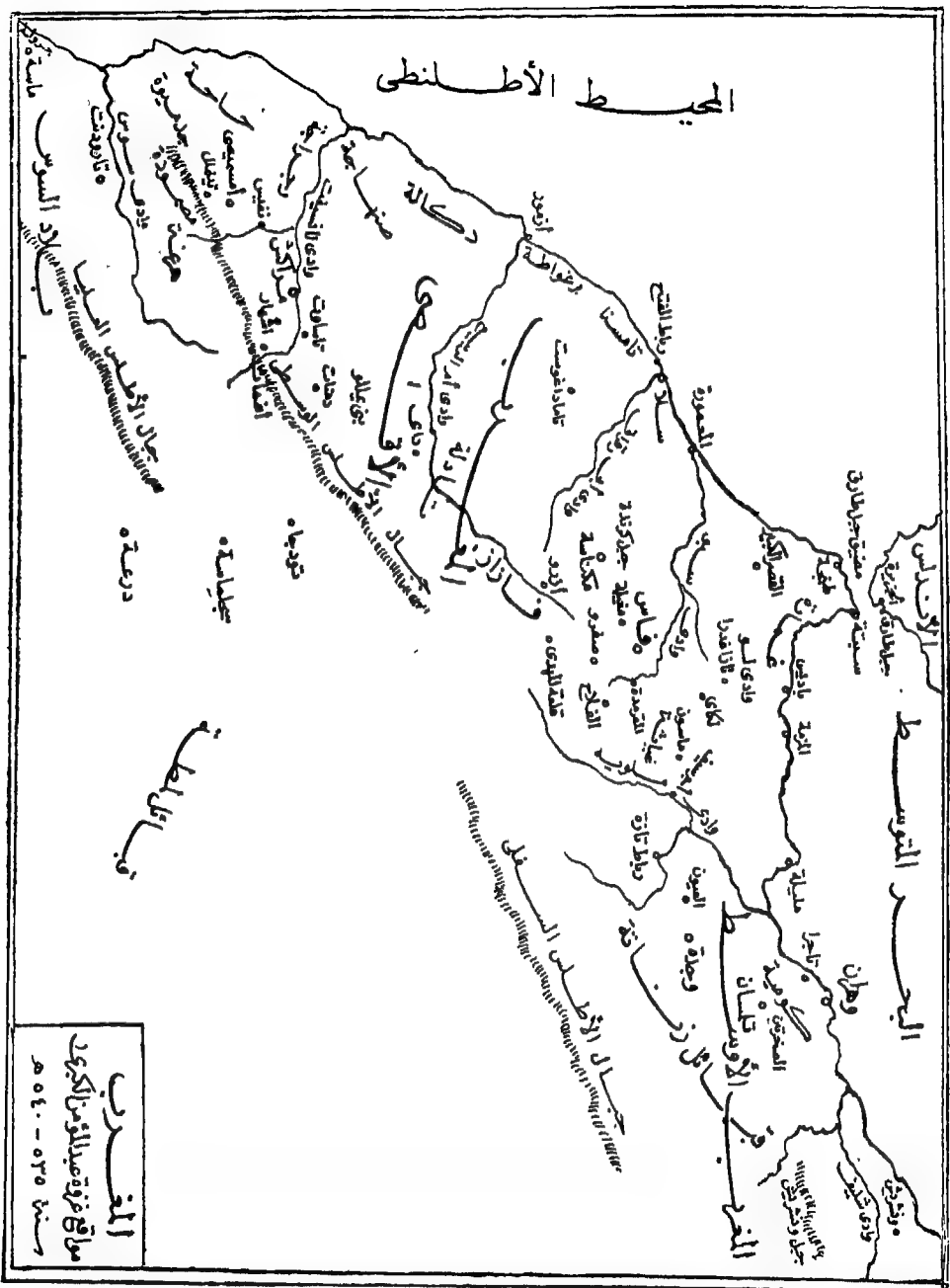
(٢) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره لوحة ٧٩ ب و ١٨٠) .

هذا ما يقوله ابن القطان عن حملة غيثة . وربما اختلط عليه القول هنا بأخبار حملة موحدية أخرى . ونحن على أى حال نفضل الأخذ برواية البيذق ، وهو معاصر وشاهد عيان .

يقول البيذق إنه لما هدأت الرياح ، وبدأ الربيع ، استأنف الموحدون زحفهم . ويمضى البيذق ، وقد كان من شهود هذه الحملة الشهيرة ، فيصف لنا سير عبد المؤمن نحو الشمال تفصيلا . وكان أول موضع قصده الموحدون عندئذ ، أرض لكاي الواقعة شمالى شرق فاس ، فى منتصف المسافة بينها وبين البحر المتوسط . وهناك استولوا على قلعة الويلة من حصونها . وسار المرابطون بقيادة تاشفين والبربرير فى أثر الموحدين ، وحاولوا تطويقهم فى أرض بنى سلمان ، ولكن الموحدين أحبطوا هذه الحركة بالسرى إلى أرض بنى غمارة ، من بطون صنهاجة ، الذين انضموا إليهم ، ودخلوا فى طاعتهم ، ثم جازوا منها إلى أرض لجة . وعندئذ سار تاشفين والبربرير إلى أرض بنى تاودا ونزلوا بها ، فكان بينهم وبين الموحدين نهر ورغة ووادية . . وهنا خرج البربرير فى قوة مختارة من المرابطين والجند النصارى ، واشتبك مع الموحدين فى موضع يقال له تازغردا ، فى معركة عنيفة ، قتل فيها كثير من الفريقين ، ثم ارتد البربرير إلى بنى تاودا ، وسار الموحدون إلى تاغزوت ، ثم إلى بنى مزكدة ، ثم إلى إيلانة ثم إلى أيجن على مقربة من القصر الكبير . وسار تاشفين والبربرير فى أثر الموحدين حتى موضع قريب من المعسكر الموحدى يسمى « نهليط » . وفى أيجن مرض عمر أرنج (أصناك) أحد الجماعة العشرة ، ولما شعر بدنو أجله ، قام فوعظ الموحدين وعظا طويلا ، وحثهم على طاعة الخليفة عبد المؤمن ، ثم توفى مساء ذلك اليوم . وسار الموحدون بعدئذ إلى تامقريت ، ثم إلى وادى لو ، أرض بنى سعيد . وسار البربرير فى أثرهم حتى وصل إلى تيطاوين (تطوان) ، فارتد الموحدون نحو الشمال حتى قلعة باديس الواقعة على شاطئ البحر المتوسط ، ودخل فى طاعتهم أهل تلك الأنحاء ، ثم ساروا بعد ذلك إلى ثغر المزمة^(١) ، فى شرقى باديس ونزلوا به أياما ، هبت عليهم فيها رياح شديدة ، كادت أن تهلك دوابهم ، فسماها عبد المؤمن تاغزوت . ثم أقلع عنها إلى جبل تمسامان^(٢) .

(١) المزمة هى التى تسمى فى الجغرافية الحديثة بحرقه « الحسيمة » Alhucemas .

(٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ٩٢ و ٩٣ ، والبيان المغرب فى الأوراق المخطوطة السالفة الذكر .



وهنا يقص علينا البيذق قصة غريبة ، خلاصتها أنه قد وفد عندئذ على الخليفة عبد المؤمن أخوه إبراهيم ، فغمره الخليفة بإكرامه ، وأعطاه الخيل والعبيد والخباء ، وأنزله في موضع محمد بن أبي بكر بن يكيث ، وقد كان أبوه ابن يكيث من أصحاب المهدي العشرة ، فاستاء لذلك محمد ووثب بإبراهيم فقتله ، فغضب الخليفة لمقتل أخيه أيما غضب ، وطالب بقتل ابن يكيث ، فاعترض عليه أبو حفص عمر اينتي ، وابن واجاج ، وقالوا له ، ألم يقل المهدي ، « بأن أهل الجماعة وصبيانهم ، عبيدهم كل من في الدنيا » ، فصمت الخليفة عندئذ ، وعدل عن قراره ، ولكنه أمر أن يقسم المعسكر الموحدى إلى فرق أو بنود ، وأن يكون لكل قبيلة بندها الخاص^(١) . وهنا يلاحظ الأستاذ هويثي بحق « أنه ليس أقطع دليلا من ذلك على التعصب الأعمى ، الذى كان يضطرم به الموحدون الأوائل ، ويدافعون به عن مزايا وامتيازات نظامهم الدينى »^(٢) .

وفى أثناء ذلك خرج عبد الرحمن بن زجّو في قوة من الموحدين ، وزحف على ثغر مليلة ، واقتحمه ، وحصل على غنائم كثيرة ، كان من بينها مائة بكر ، قسمها عبد المؤمن على أعيان الموحدين ، فتزوجوهن ، وبقيت منهن أميرتان ، هما فاطمة بنت يوسف الزناتية ، وابنة ماكسن بن المعز صاحب مليلة ، فأخذ الشيخ اسماعيل أبو إبراهيم أحد العشرة فاطمة ، وأخذ الخليفة بنت ماكسن . ثم رحل الموحدون بعد ذلك إلى ندرومة وبلاد كومية ، قبيلة عبد المؤمن ، فدخلت جميعاً في طاعة الموحدين . وسار الموحدون بعد ذلك إلى تاجرا الواقعة على البحر شرق مليلة ، فنزلوا بها^(٣) .

وكان الجيش الموحدى قد تضخم عندئذ ، ودخل في طاعة الموحدين ، عدد كبير من القبائل والبطون الشمالية . ومن تاجرا خرجت ثلاث قوات موحدية ، الأولى بقيادة عبد الرحمن بن زجّو ، وقد سارت شمالا بشرق ، وهاجمت ثغر وهران ، واقتحمته واستولت على غنائمها ، والثانية بقيادة الشيخ أبي إبراهيم ، وقد سارت إلى أرض بنى وانوان واستاقت غنائمها ، وخرجت الحملة الثالثة بقيادة

(١) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٩٣ و ٩٤ .

(٢) راجع : A Huici Miranda : Historia Política del Imperio Almohade .

(Tetuan 1956) V I. p. 126 .

(٣) البيان المغرب (في الأوراق المخطوطة - هسيرس ص ١٠٦) .

يوسف بن وانودين ، وسارت إلى جبل مديونة من أحواز تلمسان ، فخرج إليها المرابطون من تلمسان بقيادة أبي بكر بن الجوهري ، ومحمد بن يحيى بن فائق ، وتشبث بين الفريقين معركة عنيفة في وادي الزيتون ، هزم فيها المرابطون ، وقتل قائداهما . ووفد على الخليفة عندئذ ، عدد من زعماء القبائل المجاورة ، وأعلنوا خضوعهم .

ثم رحل الخليفة من تاجرا إلى تيفسرت من أرض مديونة ، وخرجت عندئذ قوة موحدية بقيادة الشيخ أبي حفص عمراني ويصلاصن بن المعز إلى العيون من أراضي قبيلة صاء غربي وجدة ، وغلبت على قبائل تلك الناحية ، وهم أربعة ، واستولت على غنائمهم .

وكانت الجيوش المرابطية بقيادة تاشفين والبربرير ، قد ارتدت عند دخول الشتاء إلى مراكزها في فاس ، وبقي الموحدون في مراكزهم في أحواز تلمسان .

وفي تلك الأثناء تطورت الحوادث بمراكش تطوراً خطيراً ، فقد توفي أمير المسلمين علي بن يوسف ، في السابع من شهر رجب سنة ٥٣٧ هـ (يناير سنة ١١٤٣ م) . وكانت حوادث الأعوام الأخيرة من حكمه ، وما توالى فيها من محن وخطوب ، ترتبت على قيام المهدي ابن تومرت ، وتوالى ظفر الموحدين ، وهزائم الجيوش المرابطية ، قد فتت في عضده ، وحطمت قواه ، وأذكت آلامه المعنوية ، فتوفي غماً وألماً ، وهو يشهد نذر النهاية المروعة جاثمة في الأفق . فكتم نبأ وفاته ثلاثة أشهر حتى السابع من شوال ، ثم أعلنت بعد ذلك ولاية ولده أبي محمد تاشفين ، وكان أبوه قد قلده ولاية عهده ، وبويع بها منذ سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) حسباً أشرنا إلى ذلك من قبل في موضعه^(١) .

وكان علي بن يوسف خير أمراء الدولة المرابطية ، بعد أبيه العظيم يوسف . ونستطيع أن نعتبر حكمه ، الذي امتد سبعة وثلاثين عاماً منذ ولي الملك بعد وفاة أبيه في الحرم سنة ٥٠٠ هـ ، هو عصر الدولة المرابطية الحقيقي ، بعد أن توطدت

(١) رجع البيان المغرب (الأوراق المخطوطة هـ ١٠٧) والحلل المشوية (ص ٩٠) ، والزرركشي في تاريخ الدولتين (ص ٥) . ولكن ابن الخطيب يذكر لنا في الإحاطة أن علي بن يوسف توفي في السابع من ربيع (؟) (سنة ٥٣٧ هـ) ولم يشهر موته إلا في الخامس من شوال (الإحاطة ، مخطوط الإسكوريال لوحة ٢٩٢) .

دعائهما في المغرب والأندلس ، وفي أوائل عهده ، وصلت الدولة المرابطية إلى ذروة قوتها وضخامتها ، بيد أنه سرعان ما ظهرت حركة المهدي ابن تومرت حتى انقلبت الآية ، وأخذ الانحلال يسرى إلى ذلك الصرح الشامخ ، وأخذت الدولة المرابطية ، تسير سراعاً إلى قدرها المحتوم .

ومما يؤثر عن علي بن يوسف ، أنه كان أول من استخدم النصاري في الجيش المرابطي . وقد بدأ في ذلك حينما وقع تغريب النصاري المعاهدين بالأندلس في سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) ، حيث استخدم جماعة من الذين قضى بتغريبهم في حرسه الخاص ، وكان ما أبداه أولئك الجند النصاري من الغيرة والإخلاص ، مشجعاً له على التوسع في استخدامهم ، واستقدامهم من شبه الجزيرة ، ودعوة أنجادهم من الفرسان ، وهكذا انتظمت في الجيش المرابطي فرقة أو فرق خاصة من المرتزقة النصاري . وفي أواخر عهد علي ، عهد بقيادة هذه الفرق الأجنبية إلى الفارس القسطلاني الإبرتيير أو البربرتيير كما تقدم ، وأخذت تقوم بدور هام في المعارك التي كانت تضطرم يومئذ بين المرابطين والموحدين . ويقول لنا صاحب البيان المغرب أن علياً كان يؤثر أولئك الجند النصاري ، ويمكن لهم ، وكانوا في ظل هذه الرعاية الخاصة يتعالون على المسلمين ، ويفرضون عليهم المغارم . ولما اضطربت الأمور في أواخر عهد علي ، أهمل أمر الجند المسلمين ، وعجز الأمير عن الإنفاق عليهم ، حتى كان أكثرهم يكرون دوابهم^(١).

ومما يذكره لنا ابن عذاري في هذا الصدد أيضاً ، أن أمير المسلمين علياً ، حينما رأى توالى فشل ولده تاشفين في محاربة الموحدين ساءه ذلك ، وعزم على إهالته ، وأن يقدم مكانه ولده إسحاق ، وكتب بالفعل إلى عامله على إشبيلية عمر ، بالقدوم ، ليجعله مدبر ولده ، وكان ذلك في سنة ٥٣٦ هـ . بيد أنه يبدو أنه لم يجد متسعاً من الوقت لتحقيق هذا العزم ، إذ توفي بعد ذلك بأشهر قلائل^(٢).

وكان من الأحداث البارزة في أواخر عهد علي ، السيل العظيم الذي وقع بطنجة ، في سنة ٥٣٢ هـ ، وقد اكتسح معظم دورها وصروحها ، وهلك فيه عدد عظيم من الناس ، والدواب^(٣) . ثم الحريق الكبير الذي وقع في العام التالي بسوق

(١) البيان المغرب ، في الأوراق المخطوطة الى سبقت الإشارة إليها .

(٢) البيان المغرب (في الأوراق المخطوطة المشار إليها - هيسيرس ص ١٠٥) .

(٣) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هيسيرس ص ١٠٣) .

مدينة فاس (٥٣٣ هـ) ، وتلفت من جرائه طائفة كبيرة من الدروب التجارية ، وهلك في أموال جليلة ، وافتقر كثير من الناس^(١).

وكان منها أيضاً ، أنه في سنة ٥٣٥ هـ ، هاجرت جموع عظيمة من أهل المغرب ، من مختلف نواحيه ، إلى الأندلس . وهذا ما يذكره لنا ابن عذاري نقلاً عن ابن حمادة . والظاهر أن ذلك كان راجعاً إلى توالي ظفر الموحدين على المرابطين ، وتوجس أنصار المرابطين وأوليائهم مما قد يوئول إليه الأمر من انهيار سلطان المرابطين بالمغرب^(٢).

وعلى بن يوسف هو الذي وسع مدينة مراكش ، وعمرها ، ونظم خططها ، حتى غدت أضعاف ما كانت عليه عند إنشائها ، وأنشأ بها الجامع ، والقصر المرابطي ، ونظم سقيتها ، وأدار أسوارها ، حتى غدت في عصره حاضرة عظيمة^(٣).

وتنوه الرواية بخلال على بن يوسف ، وتصفه بأنه كان ملكاً عظيماً ، عالي الهمة ، رفيع القدر ، فسيح المعرفة عظيم السياسة^(٤) ، وكان فوق ذلك ورعاً متعبداً ، يحب العلماء ويؤثر مجالسهم^(٥). بيد أنه لم يكن في ذلك صنو أبيه العظيم في الاقتصار على الاسترشاد بأرائهم دون خنوع واستسلام ، بل كان يخضع لأهوائهم ، ويترك لهم الكلمة العليا . وقد رأينا ما كان في استسلامه لهم ، من الحجر على حرية الفكر ، ومطاردة كتب الغزالي وإحراقها ، لما كانت تتسم به من إثارة لعلم الأصول ، وقد كان هذا من أكبر أخطائه ، ومن دلائل استسلامه لأهوائهم وتعصبهم .

وكان البلاط المرابطي في عهد على بن يوسف ، يزدان سواء في المغرب أو الأندلس بعدة من أكابر الكتاب ، وأعلام البلاغة في ذلك العصر . وكان في مقدمة هؤلاء أبو بكر بن القصيرة المتوفى سنة ٥٠٨ هـ ، وقد كتب عن يوسف ابن تاشفين ، ثم عن ابنه على ، وأبو القاسم ابن الجحد المعروف بالأحديب ، وأبو بكر بن عبد العزيز البطلبوسي المعروف بابن القبطرنة ، وأخوه أبو الحسن

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره) .

(٢) البيان المغرب (في الأوراق المخطوطة - هيسيرس ص ١٠٥) .

(٣) الزركشي في تاريخ الدولتين ص ٥ .

(٤) ابن الخطيب في ترجمة على بن يوسف في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر

لوحة ٢٩٢) .

(٥) المعجب للمراكشي ص ٩٩ ، والخلل الموشية ص ٦١ .

وأبو محمد ، وأبو عبد الله بن أبي الخصال وأخوه أبو مروان ، وأبو محمد عبد الحميد بن عبدون وزير بني الأفطس السابق^(١) . وأبو جعفر أحمد بن محمد ابن عطية القضاعى ، وقد خدم تاشفين بن على من بعد أبيه ، ثم انتقل فيما بعد إلى خدمة عبد المؤمن حسبا ينجى^(٢) .

وكان أنبهم وأثرهم لدى على بن يوسف ، أبو عبد الله بن أبي الخصال المتوفى سنة ٥٤٠ هـ . وقد كان من أعظم علماء العصر وكتابه وبلغائه . وكان اجتماع هذه الحمهرة من أعلام البلاغة فى البلاط المرابطى ، أثر من آثار قصور الطوائف ، التى امتازت بمحمد أقطاب الكتاب والأدباء بين وزرائها ، وأغدقت عليهم حمايتها ورعايتها .

وكان على قد استوزر فى أواخر عهده ، لإسحق بن يثنان بن عمر بن يثنان ، وكان فى حدثا لم يجاوز الثامنة عشرة من عمره ، ولكنه كان يتوقد ذكاء وفطنة وعزماً ، فأعجب به على ، وولاه خطة المظالم والشكايات ، فأبدى فى منصبه براعة وكياسة ، فانتفع به الناس وأحبوه ، وكان حسبا تصفه الرواية « مثل كاهن يأتى بعجائب الأخبار »^(٣) .

هذا ، وأما عن شخصه ، فلإن الرواية تصف على بن يوسف ، بأنه كان أبيض اللون ، مشرباً بحمرة ، حسن القد ، صبوح الوجه ، أفلج ، أفنى ، أكحل العينين ، سبط الشعر^(٤) .

وكان لعلى من الولد الذكور ، أحد عشر ، ولكنه لم يترك من أولاده الأحياء بعده سوى ولى عهده وخلفه تاشفين . أما ولده الأكبر سير ، فكان قد توفى قبل وفاته بمدة طويلة ، وكذلك توفى أولاده الآخرون قبل وفاته ، ومنهم ولده أبو بكر ، وقد كان والياً بالأندلس . وفى رواية أنه قد غرّب بأمر أبيه إلى الصحراء حينما اعترض على تعيين أخيه تاشفين لولاية الأنندلس ، وفى أخرى أنه أصيب لإصابة أعمته ، فحُمِّل على أعناق الرجال حتى الجزيرة ، ولكنه سجن هناك حتى توفى ، واشتد ألم أبيه على فقده .

(١) المعجب ص ٩٦ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٥٢٩ .

(٢) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧٠ .

(٣) البيان المغرب (فى الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسير ص ١٠٧) ، والحلل الموشية ص ٦١ .

(٤) روض القرطاس ص ١٠٢ .

— ٢٤٥ —

— ٤ —

وكانت دولة المرابطين في تلك الأعوام الأخيرة من حكم علي بن يوسف ، قد اضطربت أحوالها واهتزت أسسها ، وفقدت كثيراً من قواعدها وأراضيها ، وسادت الفوضى في كل ناحية ، وساءت الأحوال الاقتصادية من توالى الحرب ، وعزت الأقوات والموارد ، وارتفعت كلفة العيش ، وعانى الناس مشقات وشدائد . وما كاد علي بن يوسف يحنق من الميدان ، حتى وقع ما هو أخطر ، من تصدع الجبهة المرابطية وتفرق كلمتها . وذلك أن الحصومة قد اضطربت بين قبيلتي لمتونة ومستوفة وهما دعامتا العصبة المرابطية ، وخرج عدة من زعماء مستوفة على حكومة مراکش ، ورأوا ، أن يلوذوا بحماية الموحدين ، فسار منهم يحيى ابن تاكفت ، وبراز بن محمد ، ويحيى بن إسحاق المعروف بأنجار حاكم تلمسان السابق ، في صحبهم وأتباعهم ، إلى محلة الموحدين ، وقدموا طاعتهم إلى عبد المؤمن ، وكانت هذه ضربة جديدة لتاشفين بن علي ، فاشتد الاضطراب في الجبهة المرابطية ، ووغرت صدور اللمتونيين على مسوفة ، وأخذ يتربص بعضهم ببعض ، ويقتل بعضهم بعضاً .

وكان ممن انشق على تاشفين في تلك الفترة ، بنى وماتو من بطون زناتة ، وقد تم أشياخهم طاعتهم إلى عبد المؤمن ، فبعثهم مع بعض قواته إلى بلادهم ، فأعلنوا طاعتهم جميعاً للموحدين . ولما علم تاشفين بخروج بنى وماتو ، وجه إليهم عسكرياً على رأسه الربريز ، فسارع الموحدون إلى إنجادهم ، وتحصن بنى وماتو ببعض التلال ، فصعد إليهم المرابطون ، يحاولون اقتحام مراكزهم ، ولكنهم ردوا المرابطين على أعقابهم . وعلى أثر ذلك سار جيش موحدى بقيادة ابن وانودين ، وابن زجّو ، وابن يومور ، إلى بلاد بنى عبد الواد وبنى يلومى وهم من أنصار المرابطين ، وعاث في تلك المنطقة ، واستاق كثيراً من الغنائم ، ولكن فاجأته حين العودة قوة من المرابطين من زناتة واستولت على معسكر الغنائم ، وقتلت كل حراسة وهم من بنى وماتو وعددهم ستمائة رجل ، وتحصن الموحدون بجبل هنالك ، وسار عسكري المرابطين إلى موضع يسمى منداس بلد بنى يلومى من بطون زناتة ، فاجتمع إليه بنى يلومى ، وعدة أخرى من البطون .

ولما علم عبد المؤمن ما حدث ، سار بقواته من أحواز تلمسان إلى أرض يلومى ، وكان الأمير تاشفين قد قدم في نفس الوقت إلى تلمسان ، وحشد فيها

عسكرياً ، وأرسله على عجل إلى محلة المرابطين في منداس ، وكذلك انضم إليهم الربرير في قواته ، واجتمعت بذلك للمرابطين حشود ضخمة . فلما شعر عبد المؤمن بتفوق خصومه ، لجأ إلى خطة حربية جديدة مبتكرة ، هي خطة المربع الموحدى الذى اشتهر فيما بعد . وأضحى عماد خطط الدفاع الموحدية في الميدان المكشوف . وقد وصف لنا ابن اليسع خلاصة هذه الخطة ، نقلا عن بعض الموحدين ، فيما يلى :

« أن تُصنع دائرة مربعة في البسيط يجعل فيها من جهاتها الأربع صف من الرجال بأيديهم القنا الطوال ، والطوارق المانعة ، ومن ورائهم أصحاب الدروع والحرا ب صفاً ثانياً ، ومن ورائهم أصحاب الخالى فيها الحجارة صفاً ثالثاً ، ومن وراء هؤلاء الرماة صفاً رابعاً . وفى وسط المربعة ، ترابط قوى الفرسان » . يقول ابن اليسع « فكانت خيل المرابطين إذا دفعت إليهم ، إلى الموحدين ، لاتجد إلا الرماح الطوال الشارعة ، والحرا ب والحجارة والسهام ياسرة . فحين ماتوا من الدفع وتدبر ، وأخرج خيل الموحدين من طرق تركوها ، وفرج أعدوها ، فتصيب من أصابت ، فإذا كرت عليهم دخلوا في غاب القنا » (١) .

وهكذا فإنه حينما نشب القتال بين المرابطين والموحدين في منداس ، ظهرت آثار الخطة الدفاعية الموحدية واضحة في عجز المرابطين على تفوقهم في العدد والعدة ، عن النيل من خصومهم . وبالعكس فقد أثنى الموحدون في خصومهم ، وردوهم الكرة بعد الكرة بخسائر فادحة ، واستمر القتال على أشده ثلاثة أيام . وفى اليوم الرابع أحرز الموحدون على خصومهم نصراً باهراً ، واحتلوا على محلتهم ، ومحلات حلفائهم من بنى بلوى وغيرهم ، واستولوا على غنائم فادحة ، تقدرها الرواية بثلاثين ألفاً من الغنم ، واثنى عشر ألفاً من البقر . بيد أنه حينما ارتد عبد المؤمن بغنائمه صوب الصخرتين من أحواز تلمسان ، اعترضه الربرير في قواته ، وهاجمه بشدة واسترد منه معظم الغنائم ، وقتل من كومية قبيلة عبد المؤمن نحو أربعمئة رجل . ثم سار في قواته وغنائمه إلى تلمسان ، فانضم هناك إلى قوات الأمير تاشفين (٢) .

وفى خلال ذلك الصراع المرير الذى استغرق قوى المرابطين ، وصل إلى

(١) الحلل المشوية ص ٩٨ .

(٢) البيان المغرب (القسم الثالث نسخة تاجمروت) (تطوان ١٩٦٣) ص ١٥ .

مياه سبتة أسطول نورمانى ضخم قوامه مائة وخمسون سفينة ، وأغار أولئك النورمان (المحجوس) على سبتة ، محاولين اقتحامها ، فخرجت إليهم سفن المرابطين بقيادة أمير البحر ابن ميمون ، ووقعت بين الفريقين معركة بحرية عنيفة ، غرقت فيها من الجانبين سفن عديدة ، وقتل من الفريقين خلق كثير . وكان ذلك فى سنة ٥٣٨ هـ (١) . ودل ذلك الحادث على أن القوات البحرية المرابطية ، كانت ما تزال ، بالرغم مما حدث فى داخل المغرب ، يقظة ساهرة ، على حراسة الشواطئ والثغور المغربية المرابطية .

ووقع بعد ذلك بقليل حادث كان له فى مركز المرابطين أسوأ الأثر هو مصرع الربريتير قائد « الروم » . وتختلف الرواية فى شرح هذا الحادث وفى تفاصيله . ويقدم إلينا البيدق رواية خلاصتها ، أن عبد المؤمن وجه حشود جزولة لقتال الربريتير ، وكانوا بموضع يسمى « بكيرس » ، فسار الربريتير فى قواته للقائهم ، وكانت جزولة تحتفى وراء نخندق ، فاستطاعوا أن يردوا الربريتير ، فولى عنهم مهزوماً ، وكتب إلى عبد المؤمن كتاباً يسدى فيه النصيح ، ويقول إن جزولة ، قد غدروا بإخوانهم ، وهم بلارب سوف يغدرون بك ، وعندئذ عمد عبد المؤمن إلى تجريدهم من خيلهم وسلاحهم ، ثم قتلهم جميعاً إلا الصبيان الصغار ، واستولى على غنائمهم . فلما علم الربريتير بذلك قرر أن يسير لمهاجمة الموحدين ، واستخلاص الغنائم منهم ، فلم يعترض تاشفين على رغبته ، ولكنه لم يسر معه ، والتقى الربريتير بالموحدين فى موضع يسمى « تاكوط آن تيفسرت » ونشبت بينه وبين الموحدين معركة عنيفة هلك فيها هو ومعظم جنده ، ولم يسلم من عسكره حسبما يحدثنا البيدق سوى ستة ، ثلاثة من الروم ، وثلاثة من المرابطين ، يذكر لنا البيدق أسماءهم . وكان ذلك فى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) (٢) .

ويذكر لنا ابن عذارى من جهة أخرى مصرع الربريتير فى جملة موجزة يقول فيها « فى سنة تسع وثلاثين خرج قائد الروم بعسكره ، ومعه عسكر لمتونة والحشم ، فهزمهم الموحدون ، وقتل القائد المذكور » . وهذا ما ورد فى الأوراق المخطوطة التى بين أيدينا من البيان المغرب . ولكن ابن عذارى يحاول فيما بعد ، أن ينقل تفاصيل مصرع الربريتير عن ابن صاحب الصلاة ، وذلك فى القسم

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هيسيرس ص ١٠٨) .

(٢) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٩٦ .

الثالث من كتابه ، بيد أن ما نقله في ذلك قد سقط من نسخة « تاججروت » وهي التي تغلو مرجعنا منذ الآن فصاعداً^(١) .

ويقدم إلينا ابن خلدون عن مصرع البربرير رواية ثالثة يقول فيها ، إن تاشفين بعث البربرير في عسكر ضخم فأغار على بني سندم وزناته الذين كانوا في بسيطهم ، وعاد بالغنائم ، فاعترضه الموحدون ، ونشبت بين الفريقين معركة قتل فيها البربرير وجنده^(٢) .

ولما رأى الخند النصارى مصرع عميدهم ، ورأوا أنهم لا يستطيعون بعد أن يعملوا لتدعيم إمبراطورية أصبحت وشيكة الانهيار ، تفرقوا تبعاً ، وغادر الكثير منهم المغرب إلى اسبانيا ومعهم أسرهم وقساوستهم ، وساروا إلى طليطلة ملتجئين إلى حماة القيصر ألفونسو ريمونديس (ألفونسو السابع) ملك قشتالة ، فأحسن استقبالهم ، وأزلهم بدياره ، وحمد لهم تمسكهم خلال الحوادث والخطوب بدينهم وولائهم لمذهبهم^(٣) .

وعلى أى حال فقد كان مصرع البربرير وتبدد جنده ، ضربة جديدة أصابت الجيش المرابطى ، وكان تاشفين في تلك الأثناء قد كتب إلى الأقطار يستدعى الخشود من كل ناحية ، فقدم إليه عسكر سجالماسة ، وعسكر بجاية بقيادة طاهر ابن كباب الصنهاجى من بني حماد أصحاب إفريقية ، ووصل من الأندلس عسكر آخر بقيادة الأمير إبراهيم بن تاشفين ، وكان قد قدم إلى أبيه قبل ذلك على أثر موت جده على وزاره بجهة كراندة ، فبعثه والده إلى قرطبة لإتمام دراسته بها ، ثم استدعاه بعد ذلك فوصل في عسكره إلى تلمسان في أواخر سنة ٥٣٨ هـ ، فولاه أبوه في الحال عهده ، واجتمعت الجيوش المذكورة في ظاهر تلمسان ، وميزوا ، وبرزوا في نظام متقن وهيئة كاملة ، وعجب الناس من كثرتهم ، وحسن نظامهم ، وجمال هيئتهم ، بيد أنها كانت آخر خشود يحتفل بها المرابطون^(٤) .

ولما قتل البربرير وبدد جيشه ، غادر الموحدون « تيفسرت » وساروا إلى

(١) راجع القسم الثالث من البيان المغرب (نسخة تاججروت) ص ١٦ .

(٢) كتاب العبر ج ٦ ص ٢٣١ .

(٣) Simonet : Hist. de los Mozárabes. p. 760 & 761

(٤) القسم الثالث من البيان المغرب (نسخة تاججروت) ص ١٥ ، والحلل الموشية ص ٩٧ و ٩٨

شمال غربي تلمسان ونزلوا « بالصخرتين » القريبة منها ، وكان تاشفين قد أقام محلته في « سطفسيف » القريبة ، وكانت المعارك والمناوشات تنشب كل يوم تقريباً بين الفريقين ، واستمر ذلك مدى شهرين . ولما وصلت حشود الأقطار إلى تاشفين ، خرجت منها حشود بجاية ، واشتبكت مع الموحدين في معركة عنيفة في ظاهر « الصخرتين » ، فهزمت وقتل منها عدد جم ، وبعث قائدها سراً إلى عبد المؤمن ، يعده بالتوحيد ، وأنه متى افتتح المغرب ، فإنه إذا ورد المشرق وجده مفتوحاً كذلك .

وعندئذ أدرك تاشفين دقة مركزه ، فقرر أن يترك محلته في تلمسان ، وغادرها في قواته إلى وهران الواقعة على البحر في شمالها الشرقي . وبعث ابنه وولي عهده إبراهيم إلى مراکش في جماعة من أشياخ لمتونة ومعه كاتبه أحمد بن عطيه . وكان تاشفين قد ابتنى في وهران حصناً منيعاً على البحر كي يحتج به عند الحاجة ، ودبر مع قائد أسطوله محمد بن ميمون ، أن يوافيه إلى وهران بجناح من الأسطول فقدم ابن ميمون من ألمرية في عدة من السفن ، وأرسي قريباً من المعسكر المرابطي ينتظر تطور الحوادث . وكان ذلك في شهر شعبان سنة ٥٣٩ هـ (يناير ١١٤٥م) .

وكان المرابطون قبل أن يغادروا محلهم في سطفسيف إلى وهران قد دبروا كميناً لحيش موحدى يقوده ابن زجّو ، ففتكوا به وقتلوا ابن زجّو . فكان ذلك عاملاً جديداً في إذكاء سخط الموحدين . وماكاد المرابطون يتحركون نحو الشمال ، حتى سار في أثرهم عبد المؤمن في قواته ، وبعث في مقدمته الشيخ أبا حفص عمر ابن يحيى الهنتاني (عمرابنتي) ، وحشود بني ومانو من زناته ، فنفذوا إلى بلاد بني يلو ، وبني عبد الواد ، وبني ورسيفين ، وبني توجين ، وكلهم من أنصار لمتونة ، وأُخْتُنوا فيهم حتى أذعنوا إلى الطاعة ، وسار زعمائهم إلى عبد المؤمن ، وقدموا طاعتهم إليه ، فتلقاهم بالقبول ، وضمهم إلى قواته^(١) . وأشرف الموحدون على وهران ، وعسكروا فوق الجبل المطل عليها .

وكان كل شيء ينذر عندئذ بوقوع المعركة الحاسمة . وكان المرابطون يرقبون تحركات الموحدين في وجوم وتوجس وقد غادر عدة من قوادهم المعسكر المرابطي وتركوا تاشفين لمصيره . وشعر الموحدون من جانبهم أن الفرصة المنشودة قد حلت ، ففي ذات صباح أطلقوا من فوق الجبال صيحتهم الحربية بصوت واحد

(١) البيان المغرب القسم الثالث (نسخة تاجمروت) ص ١٦ ، وكتاب الدرر ج ٦ ص ٢٢١ .

ارتجت له الحملة المرابطية ، وأمر تاشفين جنده بان يلزموا أماكنهم خيفة الكمين . وعند الظهر سار الموحدون إلى عين الماء التي يشرب منها أهل وهران ، فسقوا دوابهم دفعة واحدة ، ثم قاد الشيخ أبو حفص قواته ، واقتحم الحملة المرابطية ، حتى أشرف على مكان خباء تاشفين ، وكان موقعه بإزاء الحصن المطل على البحر ، فوقع الاضطراب في المعسكر المرابطي ، وبادر تاشفين وخاصته ومنهم ابن مزدلي ، وبشير الرومي ، وصندل الفتى ، إلى الالتجاء إلى الحصن ، ووقع القتل بين المرابطين ، وجمع الموحدون الحشب ، وأضرمو النار حول الحصن ، وماكاد الظلام يرخي سدوله ، حتى كانت ألسنة الالهب قد تعالت ، فخشى تاشفين الهلاك ، وخرج من الحصن فوق فرسه « ربحانة » يطلب النجاة ويرجو أن تصل إليه بعض قطع أسطوله لتحمله إلى الأندلس ، وكان معه صحبه الثلاثة . فسقط صندل في النار واحترق . واستطاع ابن مزدلي أن يجوز إلى أسوار المدينة ، ولكنه فقد رشده ومات بعد ثلاثة أيام . وسار تاشفين وبشير إلى مرتفعات الجبل ، فقيض لبشير النجاة . ولكن تاشفين ، تردت به فرسه تحت جناح الظلام ، فسقطت في هوة سحيقة فهلكت الفرس ، وهلك تاشفين . وفي الصباح عثر الموحدون على جثة تاشفين في تلك الحافة فصلبوا الجثة ، واحزوا رأسه ، وبعث بها عبد المؤمن إلى تينملل ، فعلقت في الشجرة التي بإزاء مسجد المهدي . وكان مصرع تاشفين في ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ٥٣٩ هـ (٢٢ فبراير ١١٤٥ م)^(١) ، وذلك بعد أن قضى في مدافعة الموحدين زهاء خمسة أعوام متوالية ، لم يأو فيها إلى مكان . ولم ينعم بهدنة ، ولم يتصل بأهل ولا ولد^(٢) .

وقد أورد لنا ابن الأبار عن مصرع تاشفين رواية أخرى عن أبي علي بن الأشيري ، وقد كان داخل تلمسان حين نزل الموحدون على مقربة منها في سنة ٥٣٩ هـ ، وكان تاشفين عندئذ في ظاهرها في محلاته وجموعه . وخلاصة هذه الرواية ، أن تاشفين بعد أن وجه ابنه إبراهيم ولي عهده إلى مراكش خوفاً عليه في شعبان من تلك السنة ، وسير معه كاتبه أبو جعفر بن عطية ، سار إلى وهران ، ولجأ إلى حصن شرع في بنيانه ، فقصدته الموحدون ، وأضرمو النار حوله ،

(١) البیان المغرب ، القسم الثالث ص ١٦ و ١٧ ، وأخبار المهدي ابن تومرت ص ٩٨ ، والحلل المؤنيه ص ١٠٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣١ ، وابن الخطيب في الإحاطة (الفادرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤٦٢ .

(٢) ابن الأبار في الحملة السيرة ص ١٩٨ .

فلما رأى ذلك ودع أصحابه ليلاً ، واقتحم والنار محتدمة بباب الحصن ، فوجد من الغد ميتاً لا أثر فيه لضربة ولا طعنة ، ويقال إن فرسه صرعه . وتتفق هذه الرواية مع الروايات الأخرى في أن مصرع تاشفين وقع في ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان سنة ٥٣٩ هـ^(١) .

وأورد لنا المراكشي رواية ثالثة خلاصتها أن تاشفين لما ذهب إلى تلمسان لم يرضه موقف أهلها ، فغادرها إلى وهران ، فحاصره الموحدون بها ، فلما اشتد عليه الحصار ، خرج ركباً فرساً شهباء وعليه سلاحه ، فاقتحم البحر حتى هلك ، ويقال إنهم أخرجوه من البحر وصلبوه ثم أحرقوه^(٢) .

هذا ويصف لنا ابن الخطيب مصرع تاشفين بن علي في تلك العبارات الشعرية :
« واستقبل تاشفين مدافعة جيش أمير الموحدين ، أبي محمد عبد المؤمن بن علي خليفة مهديهم ، ومقاومة أمر قضى الله ظهوره ، والدفاع عن ملك بلغ مداه وتمت أيامه ، كتاب الله عليه ، فالتأت سعدة ، وفل جده ولم تقم له قائمة ، إلى أن هزم ، وتبدد عسكره ، ولجأ إلى وهران ، فأحاط به الجيش ، وأخذ الحصار ، قالوا فكان في تدبيره أن يلحق ببعض السواحل ، وقد تقدم به وصول ابن ميمون قائد أسطوله ليرفعه إلى الأندلس ، فخرج ليلاً في نفر من خاصته فرقهم الليل ، وأضلهم الروح ، وبددتهم الأوعار ، فنهزم من قتل ، ومنهم من لحق بالقواطع البحرية ، وتردى بتاشفين فرسه من بعض الحافات ، ووجد ميتاً في الغد ، وذلك ليلة سبع وعشرين لرمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وصلبه الموحدون ، واستولوا على الأمر بعده ، والنقاء لله تعالى »^(٣) .

وعلى أثر مصرع تاشفين ، اقتحم الشيخ أبو حفص بقواته وهران ، وأثنى في المرابطين حتى فنى معظمهم ، والتجأت منهم جماعة إلى الحصن ، فحاصروهم الموحدون وقطعوا عنهم الماء حتى أذعنوا إلى التسليم بعد ثلاثة أيام . ومع ذلك فقد قتلهم الموحدون جميعاً كباراً وصغاراً ، وكان ذلك في يوم عيد الفطر من سنة ٥٣٩ هـ . وكانت مذابح وهران هذه ، من أفظع المظاهر التي تميزت بها سياسة الموحدين الدموية .

(١) ابن الأبار في الحلة السراء ص ١٩٧ و ١٩٨ .

(٢) الممجب ص ١١٢ و ١١٣ .

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤٦١ و ٤٦٢ .

ولما وصل خبر مصرع تاشفين إلى تلمسان ، مع قلّ لمتونة ، أسرع من كان بها وبضاحتها القرية تاجررت من لمتونة ، فغادروها هائمين على وجوههم يقصدون إلى فاس وغيرها من الأماكن التي مازالت تحت حكم المرابطين . وكان في مقدمة من غادرها الأمير يحيى بن أبي بكر بن علي المعروف بالصحراوي وهو ابن أخي تاشفين ، وكان قد وفد إليها قبل ذلك بقليل في بعض قواته لإنقاذ تاشفين . فلما وقعت الكارثة أسرع في فلوله إلى فاس ، وامتنع بها ، وأخذ ينظم الدفاع عنها . ولم يبق بتلمسان سوى العامة وأهل الحضر ، وبادر جماعة من أعيانها في نحو ستين رجلاً إلى لقاء عبد المؤمن يلبسون منه الأمان ، فلقبهم يصلاتن (يصلاتن) الزناتي في قوة من الموحدين في وادي تافنا القريب ، فقتلهم عن آخرهم ، وطار نبالاً مصرعهم إلى تلمسان . فسرى إلى أهلها الرعب والروع ، وسادت بها الفوضى .

ودخل عبد المؤمن وجنده الموحدون تاجررت في غداة عيد الفطر ، فقتلوا أهلها ، واقتسموا دورها . ثم غادروها إلى تلمسان . وكان يسودها الوجوم والفرع . فلما اقترب الموحدون منها خرج الأعيان والطلبة . بسعون إلى لقاء عبد المؤمن والتماس العفو منه ، فأقبل يصلاتن وجنده وجردوهم من ثيابهم ، وقتلوا جماعة منهم ، تحت نظر الخليفة ، والشيخ أبي إبراهيم أحد الصاحب العشرة . ثم دخل عبد المؤمن المدينة ، وقتل الموحدون كثيراً من أهلها^(١) . ويؤيد هذه الرواية ويعززها صاحب الحلل الموشية . فبقول لنا إن عبد المؤمن دخل تلمسان عنوة وقتل أهلها وسبي حريمها ، ودخل كل واحد من الموحدين من الموضع الذي يليه ، فأخذوا منها من الأموال ما لا يحصى ، وقد بلغ فيها عدد القتلى ، وفقاً لابن اليسع مائة ألف أو تزيد .

وفي رواية أخرى أن عبد المؤمن استباح أهل تاجررت وقتلهم لما كان معظمهم من حشم اللمتونيين ، وعفا عن أهل تلمسان . وفي رواية ثالثة أن عبد المؤمن لم يدخل تلمسان فوراً ، ولكنها امتنعت عليه ، واضطر إلى محاصرتها ، وأنه لبث وقتاً على حصارها . وأخبار الفتوح والبيعات ترد عليه ، وأنه ترك على حصارها إبراهيم بن جامع وغادرها إلى فاس^(٢) . بيد أنه يبدو أن الرواية

(١) البيان المغرب ، القسم الثالث ص ١٨ ، والحلل الموشية ص ١٠١ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣١ .

الأولى هي الرواية الراجحة ، وأنه ليس من المعقول أن تصمد تلمسان في مثل هذه الظروف ، أمام جيش مظفر مثل جيش عبد المؤمن ، يندفع في فتوحه كالسيل يحمل من يصادره . هذا ، وربما كان فيما يقول ابن صاحب الصلاة ، مؤرخ الموحدين ، ما يرفع هذا التناقض بين الروايتين ، فهو يقول لنا إنه لما استقر عبد المؤمن بتلمسان بعد استشهاد من استشهد ، امتنعت عليه قصبتها من فيها ، فوضع عليها الحصار ، ولما رحل إلى فاس ترك عسكرياً ليتابع حصارها^(١) . ومن ثم فقد لبث عبد المؤمن ، وفقاً للرواية الأولى في تلمسان سبعة أشهر ، ليستريح وليرقب شئون الفتوح في تلك المنطقة . ومن المعروف بما تقدم أن عبد المؤمن كان من أهل تاجرا (تاجررت) وبها كان مسقط رأسه ، وأن أمه تنتمي إلى قبيلة كومية ، وموطنها يقع في نفس المنطقة جنوب تاجرا . وإذا فقد كان من الطبيعي أن يتمهل عبد المؤمن قليلاً في تلك الربوع ، التي نشأ فيها وترعرع . ولما تم تنظيم الشئون ، ندب عبد المؤمن للولاية على تلمسان ، سليمان بن محمد بن وانودين الهنتاني ، ثم غادرها في قواته في ربيع الثاني سنة ٥٤٠ هـ (أكتوبر ١١٤٥ م) ، قاصداً إلى مدينة فاس .

(١) أورده البيان المغرب ، القسم الثالث - ص ١٩ .

الفصل الخامس

نهاية الدولة المرابطية

في المغرب

الدولة المرابطية في طور الاحتضار . ولاية الأمير أبي إسحاق إبراهيم والخلاف حولها . مسير عبد المؤمن إلى وجدة ودخولها في الطاعة . مسيره إلى أجريسيف واقتحامها . زحفه على فاس ونزوله بالمقرمدة . خروج المرابطين بقيادة الصحرأوى ، واشتباكهم مع الموحيدين . مسير عبد المؤمن إلى وادي سبو ونزوله في عقبة البقر . احتلاله لجبل العرض . إرساله حملة لمحاصرة مكناسة . خروج المرابطين منها وفتحهم بالموحيدين . مسير عبد المؤمن بنفسه إلى مكناسة . محاصرة الموحيدين لفاس . قطعهم للنهر وإغراق مياهه للوادي . اتصال الجياني المشرف على المدينة بالموحيدين . غدره بالصحرأوى وفتح باب المدينة . دخول الموحيدين فاس وفرار الصحرأوى . قدوم عبد المؤمن من مكناسة ودخوله فاس . قتله لأشباخ المرابطين وهدمه لأسوار المدينة . مسيره إلى مكناسة ثم إلى سلا . سقوط مكناسة في أيدي الموحيدين . مسير عبد المؤمن إلى وادي أم الربيع وخضوع صنهاجة ودكالة . وفود ابن ميمون قائد الأسطول المرابطي ودخوله في الطاعة . وفود رسل أهل سبتة . مسير عبد المؤمن في قواته إلى مراكش . نزوله فوق جبل إيجليز . محاصرة الموحيدين لمراكش . حالة المرابطين داخل المدينة . خروجهم لقتال الموحيدين . هزيمة المرابطين وارتدادهم إلى الداخل . وفود أشباخ القبائل على عبد المؤمن . وفود الأندلس إليه . توحيد إسحاق بن يثنان . امتداد الحصار وصمود المدينة . استعمال الموحيدين للسلام واقتحامهم الأسوار . دخول الموحيدين مراكش ومقاومة أهلها اليائسة . اقتحام القصبة والقبض على الأمير إبراهيم وآله وخصاصته . استباحة الموحيدين لمراكش ، وقتلهم الذريع لأهلها . مقتل إبراهيم بن تاشفين وأمرأه وأشباخ لثونة . دخول عبد المؤمن المدينة ثم عوده إلى محلته . منع الدخول والخروج من المدينة . اعتبارها مدينة رجسة وتطهيرها وهدم جوامعها . جمع السبى والأسلاب ، وصف مراكش في هذا العهد . دخول الموحيدين قصبة تلمسان . وفود وفد إشبيلية على عبد المؤمن .

— ١ —

لم يكن ثمة شك ، بعد أن انهار سلطان المرابطين ، في المغرب الأوسط ، وفي المغرب الشمالى ، على هذا النحو الجارف ، وبسط الموحدون الظافرون سلطانهم ، على سائر القواعد الجنوبية ، فيما خلا مراكش ، وسائر الثغور الشمالية ، فيما خلا الركن الشمالى الغربى — لم يكن ثمة شك في أن الدولة المرابطية ، كانت تسير إلى نهايتها المحتومة بسرعة مذهلة .

وكان تبدد قوى الدولة المرابطية ، واستنفاد مواردها ، خلال هذه المعركة

الطويلة التي استمرت منذ قيام محمد بن تومرت المهدي ، زهاء عشرين عاما ، وتوالى الهزائم على الجيوش المرابطية ، معركة بعد أخرى ، وتمزق صفوفها ، وفناء عديدها . وهبوط روحها المعنوي ، من جراء هذا الإدبار المستمر - كان ذلك كله مما يؤذن بأنه مهما كانت المقاومة المريرة الياثسة ، التي يمكن أن تبذل في المرحلة الأخيرة ، من ذلك الصراع الرهيب ، فإنها لن تغني شيئا ، ولن نحول دون وقوع الكارثة المرتقبة ، التي أخذت طوالها تبدو قوية في الأفق ، ولاسيما بعد مصرع الأمير تاشفين بن علي ، وتبدد جيوشه الضخمة على هذا النحو الشامل .

والواقع أن الدولة المرابطية لم تعد بعد هذه الضربة القاضية ، سوى شبح هزيل . ففي مراكش . كان يمثل الفصل الأخير من مأساة الدولة المحتضرة ، وذلك حينما بويغ في مراكش ، على أثر مصرع تاشفين . لولده الأمير أبي إسحاق إبراهيم ، وكان أبوه قد ولاه ولاية عهده . منذ وفوده عليه في تلمسان في أواخر سنة ٥٣٨ هـ حسبا تقدم ، ثم وجهه إلى مراكش . وذلك قبيل وفاته بنحو شهر . على أن هذه البيعة التي تمت في أدق الظروف التي كانت تواجهها الدولة المرابطية ، لم تقع دون خلاف . فإن إسحاق بن علي عم الأمير إبراهيم ، خرج عليه ودعا لنفسه بالإمارة ، ووقع الجدل والتطاحن بين الفريقين داخل العاصمة المرابطية . وكان الموحدون في ذلك الوقت نفسه يقتربون من فاس ، والوفود والحشود ، تترى من كل صوب على عاهلهم عبد المؤمن ، فتزيد جموعه ، وتعزز قواه . ويصف لنا البيهقي ، مؤرخ الحملة ومرافقها ، مسير عبد المؤمن ، فيقول لنا إنه نزل على وجدات (وجدة) فأخذها ، ووجد أهلها^(١) . هذا في حين أن صاحب البيان المغرب يذكر لنا أن الموحدين استولوا على وجدة قبل ذلك بعامين (٥٣٨ هـ)^(٢) . وسار عبد المؤمن بعد ذلك إلى أجريسيف ، وهي تقع في منتصف المسافة بين تلمسان وفاس ، فنزل عليها ، ولقي الموحدون بعض المقاومة من بعض زعماء تلك الناحية ، فجرد عليهم عبد المؤمن بعض قواته ، فزقت جموعهم وقتلتهم . ودخل أجريسيف ، ثم غادرها إلى فاس ، ونزل بالمقرمدة التي تقع على مقربة من جنوب شرقي فاس ، وكان يحيى بن أبي بكر الصحراوي ، قد قدم

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ٩٨ .

(٢) البيان المغرب في الأوراق المخطوطة السالفة الذكر (هسبريس ص ١٠٨) .

إليها في جموعه من تلمسان كما تقدم ، وأخذ ينظم خطط الدفاع عنها . وكان عبد المؤمن يتوق إلى الوقوف على مدى استعداد المدينة للدفاع ، ومبلغ القوى المدافعة عنها . ذلك أنه بالرغم من وفرة جموعه التي تتألف حسبما تقول الرواية ، من ثمانين ساقا على عدد القبائل والوفود ، كان يريد التحوط للمفاجآت ، ويرمي إلى الاستيلاء على فاس ، بأقل التضحيات الممكنة . فبعث ألفاً من المشاة نصفهم من صنهاجة ، والنصف الآخر من هسكورة ، بقيادة أبي بكر بن الحبر ، فعبر بهم نهر سبو ، وصعد إلى جبل زالاغ الذي يشرف على فاس من الشمال ، وأوقد الموحدون النيران ليلاً فوق الجبل ، فلما رأى أهل فاس نيران الموحدين على مقربة من مدينتهم ، اضطربوا وهاجوا ، وخرج الصحراوي في قواته لقتال الموحدين ، وفي صباح الغد نشب القتال بين الفريقين ، وبقدرة الموحدون قوة أعدائهم بنحو ألف وخمسمائة ، ما بين لمتونة وأهل فاس . وفي العصر ارتد الصحراوي بقواته إلى داخل المدينة .

وفي الليلة التالية ، عاد الموحدون إلى إيقاد النيران . ولكن الصحراوي لم يخرج إلى القتال في تلك المرة . وفي صباح اليوم التالي ، سار عبد المؤمن في قواته إلى وادي نهر سبو ، ونزل في موضع يسمى « عقبة البقر » فلأت حشوده السهل والوعر ، هذا والصحراوي وأهل فاس ، يشهدون هذه الجموع الحرارة من فوق الأسوار ، فيملأهم منظرها رهبة وروعاً . وفي اليوم التالي ، تحرك عبد المؤمن في قسم منتخب من جيشه ، إلى موضع يعرف « بمنزل الحاج » وخرج الصحراوي في خيله إلى جبل العرض ، الواقع في شمال غربي المدينة ، يفصله عن الموحدين واد يسمى « بسد رواغ » . ولم يقع في ذلك اليوم قتال بين الفريقين . وارتد الموحدون إلى السهل الشاسع ، وبقى عبد المؤمن في « منزل الحاج » على قدم الأمانة ، في ثلاثة آلاف وخمسمائة من رجاله . وارتد الصحراوي بخيله ثانية إلى المدينة .

وفي صباح اليوم التالي ، غادر عبد المؤمن في قواته السهل ، واحتل جبل العرض ، مشرفاً منه على المدينة . وقطع الموحدون الأشجار ، وعملوا منها حول محلهم حاجزاً من الخشب ، ثم بنوا حائطاً من وراء الحاجز حماية لأنفسهم ، ولدوابهم ، واستعدوا لحصار طويل . وبعث عبد المؤمن قسماً من جيشه لمحاصرة مكناسة ، الواقعة على قيد ستين كيلومتراً غربي فاس ، وكان في مكناسة نحو

ثلاثة آلاف فارس من قوى لمتونة من الحشم والروم وغيرهم ، هذا عدا من انضم إليهم من رجال القبائل القريبة الموالية . فخرجت هذه القوة من مكناسة بقيادة يدر بن ولحوط اللمتوني واستطاعت أن ترد الموحدين ، وأن تثخن فيهم ، وتنفى معظمهم ، فعول عبد المؤمن عندئذ أن يسير بنفسه إلى مكناسة ، وخرج ليلاً في قسم منتخب من جيشه ، وعهد بحصار فاس إلى أبي بكر بن الحبر ، وأبي إبراهيم ، وأبي حفص عمر بن يحيى الهنتائي . ولما وصل إلى مكناسة ، ضرب حولها الحصار المهرق ، ولبت ينتظر الحوادث .

واستمر حصار الموحدين لفاس زهاء سبعة أشهر أوتسعة حسبما يروى البيهقي^(١) ، وفي داخلها يحيى بن أبي بكر بن علي الصحراوي في قواته ، ومعه أهل فاس صامدون وراء الأسوار ، يخرجون إلى قتال الموحدين من آن لآخر ، ثم يعتصمون بمدينتهم . وأخيراً لجأ الموحدون إلى عملية استراتيجية بارعة . ذلك أنهم قطعوا مجرى النهر الذي يدخل إلى المدينة ، وأقاموا عليه سدا منيعاً من الحطب والخشب والتراب ، فسألت مياه النهر في الوادي ، وتعالى حتى صارت بحراً تتلاطم أمواجه ، وانهارت بعض أقسام السور من ضغط الماء المتزايد ، وسقط معها باب السلسلة^(٢) . فبادر الصحراوي وجموعه إلى إصلاح ما تهدم من السور ، واجتمع المدافعون فوق الأسوار ، ونشبت بينهم وبين الموحدين معارك عديدة .

وقد كان حرياً أن يطول حصار فاس ، لولا أن عجل بنهايته ما حدث داخل المدينة ذاتها . ذلك أن حدث بين يحيى بن علي ، وبين أبي محمد عبد الله بن خييار الحيايى المشرف على المدينة ، خلاف من جراء اشتداد يحيى في مطالبة الحيايى بالأموال ، بطريقة أرهقته ، وحملته على أن يتصل سراً بقائده الموحدين أبي بكر ابن الحبر ، وأن يعده بفتح أبواب المدينة ، وكانت لديه مفاتيحها . وساعدت الظروف الحيايى على تحقيق مشروعه . ذلك أن يحيى الصحراوي ، أعرض بامرأة من قومه . فبعث إليه الحيايى بهدايا جليلة من الطعام والشراب ، وشغل الصحراوي في تلك الليلة بعمره وطعامه وشرابه^(٣) . وفي صباح اليوم التالي ، أوفى الحيايى

(١) أخبار المهدي ابن تومرت صفحة ١٠٢ .

(٢) روض القرطاس صفحة ١٢٣ .

(٣) الحلة السيرا . في القسم الذى نشره المستشرق ميلر ، ضمن مجموعة بعنوان :

(Beiträge zur Geschichte des Westlichen Araber) ص ٣١٥ - ٣١٨ .

بوعده ، وفتح « باب الفتوح » ، فتدفق منه الموحدون إلى داخل المدينة ، وخرج الجياني فانضم إليهم . ولما شعر الصحراوي بوقوع الكارثة ، بادر بالفرار مع نفر من صحبه ، واخترق الوادى دون أن يلوى على شيء ، حتى وصل إلى طنجة . وكان دخول الموحدين مدينة فاس ، حسبما يروى ابن صاحب الصلاة ، فى صباح اليوم الثانى عشر من شهر ذى القعدة سنة ٥٤٠ هـ (٢٦ أبريل سنة ١١٤٦ م)^(١) .

وظاهر مما يرويه البيذق وابن عذارى ، أن عبد المؤمن لم يكن حاضراً ، وقت دخول الموحدين فاس ، وأنه كان عندئذ على حصار مكناسة^(٢) ، وهذا ما يقرره ابن صاحب الصلاة وابن خلدون بطريقة واضحة^(٣) . ولكن صاحب الحلل المشوية من جهة أخرى ، يذكر أن الجياني اتصل بعبد المؤمن ذاته ، وأدخله المدينة من باب الفتوح^(٤) . بيد أنه من الواضح أن الرواية الأولى ، وهى التى يؤيدها البيذق مرافق الحملة ، وابن صاحب الصلاة مؤرخ الموحدين ، هى الرواية الراجحة . ولما علم عبد المؤمن ، وهو بمكناسة ، بسقوط فاس ، قدم إليها بسرعة ودخلها ، وولى عليها أبا إسحاق بن جامع^(٥) ومشرفها الجياني ، وأمر بقتل كل من قبض عليهم من أشياخ المرابطين ، إلا عمر بن يتان وزير على ابن يوسف السابق ، وهو الذى تعرض لحماية المهدي ابن تومرت ، وصرف على ابن يوسف عن إيذائه ، حسبما تقدم فى موضعه ، وكان المهدي نفسه قد نبى عن قتله وقتل ذريته ، فاكتفى عبد المؤمن باعتقاله^(٦) .

وأمر عبد المؤمن بهدم أسوار فاس ، فهدم معظمها ، وصرح عبد المؤمن بأن الموحدين لا يحتاجون إلى أسوار ، وإنما الأسوار هى سيوفهم ، وبقيت فاس بلا أسوار عصراً ، حتى قام بتشييدها من جديد ، حفيدة الخليفة

-
- (١) البيان المغرب ، القسم الثالث ، صفحة ٢٠ .
 (٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠١ . والبيان المغرب (القسم الثالث) ص ١٩ .
 (٣) البيان المغرب عن ابن صاحب الصلاة ، القسم الثالث ، ص ٢٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ .
 (٤) الحلل المشوية ص ١٠١ .
 (٥) هذا ما ورد فى البيان (القسم الثالث ص ٢٠) ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ . ولكن البيذق يذكر لنا أن الذى ولى على فاس ، هو أبو عبد الله محمد بن يحيى الكدميوى (أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٢) .
 (٦) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٢ .

يعقوب المنصور ، ثم ولده الناصر ، وذلك في سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) (١) .
ولم يمكث عبد المؤمن في فاس سوى أربعة أيام قام فيها بتنظيم شئون المدينة المفتوحة ، ثم غادرها في جموع الموحدين إلى مكناسة ، وهناك عهد بمتابعة حصارها لقائده أبي زكريا بن يومور . ثم غادرها إلى سلا . وضيق الموحدون على مكناسة ، وبنوا حولها سوراً ، وحفروا أمامه خندقاً ، وتركوا فيها ثغرات لمهاجمة المدينة ، ومقاتلة المدافعين عنها ، فلم تلبث أن سقطت في أيديهم . وعين عبد المؤمن ابن يومور والياً لها . ويبدو من رواية البيهقي أن عبد المؤمن حضر سقوط مكناسة . ثم يقول لنا إنه غادرها إلى تادلا ، وهناك ميز جنوده ، وانضمت إليه هسكورة وصنهاجة ، ثم سار في قواته إلى وادي أم الربيع ، واخترقه شرقاً حتى ثغر أزموور ، وهناك حملت إليه صنهاجة المؤمن ، واستدعى أشياخ دكالة جيرانهم في الجنوب ، فوفدوا عليهم وأعلنوا خضوعهم الأول . ثم هبط بعد ذلك إلى مراکش (٢) .

هكذا يصف لنا البيهقي مسير عبد المؤمن إلى مراکش . ولكن سائر الروايات الأخرى تجمع على أن عبد المؤمن ، حينما غادر مكناسة ، سار منها أولاً إلى سلا ، وافتتحها بعد مقاومة قصيرة ، وذلك في اليوم السابع من شهر ذي الحجة سنة ٥٤٠ هـ . واستولى كذلك على قصبة الرباط التي كان قد بناها الأمير تاشفين ، وعين والياً لسلا عبد الواحد الشرقي ، وبعد أن مكث بها أربعة أيام غادرها إلى مراکش (٣) .
وكان عبد المؤمن حين وجوده تحت أسوار فاس (سنة ٥٤٠ هـ) ، قد وفد عليه قائد الأسطول الأندلسي المرابطي علي بن عيسى بن ميمون ، وقدم طاعته ، ثم عاد إلى الأندلس ، وأقام الخطبة للموحدين بجامع قادس ، وهي مركز قيادة الأسطول في تلك المنطقة . ثم وفدت على عبد المؤمن خلال مسيره إلى سلا ، رسل أهل سبتة يحملون إليه بيعتهم . فقبلها منهم ، وندب للولاية على سبتة يوسف بن مخلوف التينمللي من مشيخة هنتاته (٤) .

(١) روض القرطاس ص ١٣٣ .

(٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٢ .

(٣) الحلال الموشية ص ١٠٢ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٠ ، وابن خلدون ج ٢

ص ٢٣ .

(٤) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ .

— ٢٦٠ —

وكان عبد المؤمن قد بعث في نفس الوقت قبل مسيره إلى مراکش حملة بقيادة أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي لغزو قبائل برغواطية : النازلة على الشاطئ شمالي أزموور وجنوبها ، فاقتحم ديارهم ، واستاق غنائمهم ، ثم ارتد أدراجه ، فالتقى بعبد المؤمن ، وهو في طريقه إلى مراکش ، فقسم الغنائم على الموحدين ، ثم تابع سيره إلى العاصمة المرابطية .

ولما وصل جيش الموحدين إلى ظاهر مراکش ، خرج إليه جمع كبير من طلائع لمتونة ، فلما رأوا كثرة الموحدين ، سرى إليهم الرعب وبادروا إلى الفرار نحو أسوار المدينة ، فأدركهم الموحدون وقتلوا عدداً كبيراً منهم . وعلم عبد المؤمن كذلك أن قوات كبيرة من قبيلة لمطة ، قد وفدت على المدينة نصرة للمدافعين عنها ، فطاردهم الموحدون ، وأثخنوا فيهم ، وانزعوا منهم آلافاً من الدواب وغيرها من الغنائم (١) .

— ٢ —

وكان نزول الموحدين على مراکش في فاتحة شهر المحرم سنة ٥٥٤١ هـ (١٣ يونيو سنة ١١٤٦ م) . وفي الحال احتل عبد المؤمن بقواته جبل إجليز الواقع غربها ، وضرب فوقه قبته الحمراء ، وبني الموحدون حولها محلة أو مدينة كبيرة يتوسطها مسجد وصومعة عالية ، تشرف على مراکش ، ونزلت فيها القبائل ، كل قبيلة في الموضع الذي حدد لها (٢) . وكان إقامة هذه المدينة دليلاً على ما كان يتوقعه الموحدون من طول المدافعة والحصار .

وضرب الموحدون الحصار حول العاصمة المرابطية . وكانت مراکش تموج بمجموع المدافعين عنها ، من بقايا الجيوش المرابطية الكبرى ، من مختلف الحشود والقبائل . وكان منهم قوة من النصاري المرتزقة ، هي بقية الحرس الملكي القديم . بيد أن هذه الجموع الحاشدة ، كانت تنقصها القيادة الحازمة ، وكانت تعاني من هبوط قواها المعنوية ، وكان على عرش مراکش في تلك الآونة الدقيقة ، صبي حدث لم يجاوز السادسة عشرة من عمره ، هو أبو إسحاق إبراهيم بن تاشفين بن علي . وكان يقود هذه المعركة الأخيرة نفر من أشياخ لمتونة ، مثل سير بن الحاج ،

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢١ و ٢٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ .

(٢) اللؤلؤ الموشية ص ١٠٢ .

وإسحاق بن ينتان ، ومحمد بن حواء ، ومحمد بن يانجالا وغيرهم ، وكان الشعور عاماً بأن مصير الدولة المرابطية أصبح أمراً مقضياً ، وأنها لم تكن سوى معركة يأس ، تملأها غريزة الاحتفاظ بالنفس ، والتعلق بأوهى الاحتمالات والآمال . وهكذا فإن الموحدين ، ما كادت تستقر حشودهم حول العاصمة المرابطية ، حتى اعتزم المرابطون أن يخرجوا لقنالم . وخرجت قوة مراطية قوامها نحو خمسة آلاف وخمسمائة فارس ، وحشود لا تحصى من المشاة ، يقودها إسحاق ابن ينتان ، ومحمد بن حواء ، ومحمد بن يانجالا ، وسارت إلى محلة الموحدين . ويقول لنا البيدق إن القتال الذي نشب بين الفريقين ، استمر أربعة أيام . وفي اليوم الخامس ، رتب عبد المؤمن من جنده عدداً من الكمان المستورة ، وخرج المرابطون إلى القتال كالعادة ، فلقبهم الموحدون في حشود قليلة ، واغتر المرابطون بتفوقهم ، بيد أنه ما كاد يتعالى النهار ، حتى خرجت الكمان الموحدية من أماكنها ، وحملت على المرابطين بشدة ، فانهزموا في الحال ، وارتدوا على أعقابهم نحو الأسوار ، والقتل متخفن فيهم ، حتى وصلوا إلى باب دُكَّالة ، أو باب الشريعة على قول البيدق ، فقتل منهم عدد جم ، واستولى الموحدون على نحو ثلاثة آلاف من خيلهم وامتنعت فلولهم بدخول المدينة^(١) .

وفي خلال ذلك كانت الوفود والحشود ، تترى على جيش عبد المؤمن ، ويفد عليه أشياخ القبائل وزعماءها موحدين معلنين لطاعتهم . وكان ممن وفد عليه في تلك الفترة بعض زعماء الأندلس الثائرين على سلطان المرابطين ، مثل أبي الغمر بن غرون الثائر بشريش ، وابن حمدين الثائر بقرطبة . وأرسل عدد آخر من زعماء الأندلس الذين شعروا بانهيار سلطان المرابطين ، كذلك رسلهم إلى عبد المؤمن^(٢) . ولم تقع بعد هزيمة المرابطين الكبيرة في ظاهر باب دُكَّالة ، بين الفريقين معارك ذات شأن ، اللهم إلا ما يقصه علينا البيدق ، من خروج ابن ينتان لقتال الموحدين من آن لآخر . ثم ما وقع بعد ذلك من إرسال الموحدين زعيم بني ينتان الذي كان قد « وحّد » إليه أغنى إلى إسحاق بن ينتان ، وتقديم إسحاق بطاعته وتوحيده ، وخروجه من المدينة مع أنصاره ، وانضمامه إلى الموحدين^(٣) .

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٢ و ١٠٣ ، والبيان المغرب (عن ابن صاحب الصلاة) القسم الثالث ص ٢٢ ، والحلل الموشية ص ١٠٣ .
(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢ .
(٣) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٣

واستطال حصار مراکش أكثر من تسعة أشهر ، وشدد الموحدون في تطويق المدينة ، وقطع علائقها مع الخارج ، حتى أضحي من المتعذر ، أن يدخلها داخل أو يخرج منها خارج . نكل ذلك والمدينة صامدة في وجوه المحاصرين . والظاهر أن الموحدين لم يقوموا خلال تلك الفترة بهجمات شديدة على المدينة ، وأنهم كانوا يكتفون بالمحاولات الجزئية . والظاهر أيضاً أنه لم تنجح كذلك ، أية محاولة من هذه المحاولات ، في اقتحام أية ناحية من المدينة ، أو ثلم أية ناحية من الأسوار . وفي خلال ذلك كان أهل المدينة يعانون ويلات الحصار ، وتنضب الموارد والمؤن تباعا ، حتى نفدت الحبوب والمواد الغذائية ، وفيت الدواب ، وختل المخازن السلطانية من مخزونها ، وتساقطت الألوف العديدة من الجوع . وتقدر الرواية عدد من هلك جوعاً من أهل مراکش في تلك المحنة بنيف ومائة وعشرين ألفاً ، وعجز الجند عن الحركة والدفاع ، وأضحت النهاية المحتومة على الأبواب . ولما شعر عبد المؤمن بأن الضيق بلغ ذروته بالمحصورين ، وأن المدينة أصبحت عاجزة عن كل دفاع ، اعترم أن يضرب الضربة الأخيرة . وكان قد مضى على الحصار عندئذ تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً . وتختلف الرواية فيما اقترن بتلك الخطوة الأخيرة . ويقول لنا البيذق وهو من شهود الحصار ، إن الخليفة أمر باستعمال السلام لصعود الأسوار ، وقسمها على القبائل ، وأن الموحدين دخلوا المدينة على أثر ذلك . بيد أن صاحب الحلل الموشية يقدم لنا عن ابن اليسع الذي عاش قريباً من العصر ، رواية أخرى مفادها ، أن جيش الروم أو النصارى المرتزقة الذين كانوا داخل المدينة ، اتصلوا بعبد المؤمن واستأمنوه ، فنحهم الأمان ، واتفقوا معه على أن يدخلوه المدينة من «باب أغمات» الواقع في جنوبها الشرقي ، وعندئذ أمر عبد المؤمن بعمل السلام . وفي يوم السبت الثامن عشر من شوال سنة ٥٤١ هـ (٢٤ مارس ١١٤٧ م) دفع الموحدون السلام إلى الأسوار ، وخُصت القبائل كل قبيلة بباب معين ، وأقبل أهل مراکش يبذلون آخر محاولة للدفاع . وكانت بالطبع محاولة يائسة . فافتحم الموحدون المدينة ، ودخلوها من كل صوب ، فدخلت هنتاتة ، وأهل تينملل من باب دُكالة ، في شمالها الغربي ، ودخلت صنهاجة وعبيد المخزن من باب الدباغين في شرقها ، ودخلت هسكورة مع القبائل الأخرى من باب بيتان . ولم يأت الظهر حتى استولى الموحدون على مراکش . ولجأ الأمير إبراهيم ابن تاشفين وجماعة من الخاصة والأعيان ، إلى القصبية الداخلية المعروفة « بقصر

الحجر» وهى قلعة منيعة ، فاستمر القتال حتى الزوال ، وكثر القتل فى المدافعين وأهل المدينة ، واقتحم الموحدون القصبة ، وقبضوا على الأمير إبراهيم ومن معه من الأمراء والكبراء ، والأهل والولد ، وأخذوهم إلى محلة عبد المؤمن ، فوق تل إيجليز ، لتقرير مصيرهم^(١) .

وهكذا اقتحم الموحدون مراکش ، ودخلوها بالسيف على النحو الذى تصفه لنا الرواية المعاصرة . ويضيف مؤرخ معاصر آخر هو ابن الأشرى إلى ذلك قوله ، إن أهل مراکش بعد هزيمة باب ذكالة ، أيقنوا بالهلاك ، وأن المحلة الموحدية انتقلت إلى دار الفتح وسط البحيرة (أى البستان) ، فى صدر شوال سنة ٥٤١هـ ، فلم تزل هناك ، وأمر المدينة فى كل يوم يزداد ضعفاً ، وأحوالها ترق ، إلى أن كان يوم السبت السابع عشر من شوال ، ففتحت مراکش ودخلها الموحدون^(٢) .

بيد أن ابن خلدون يقدم إلينا رواية أخرى خلاصتها ، أنه لما أجهد الحصار أهل مراکش ، وفتك بهم الجوع ، برزوا إلى قتال الموحدين ، فوقعت عليهم الهزيمة ، وتبعهم الموحدون بالقتل ، واقتحموا عليهم المدينة . ومعنى ذلك أن مراکش سقطت على أثر معركة ، نشبت خارج الأسوار ، بين المرابطين والموحدين^(٣) .

ويبدو من مختلف التفاصيل ، أن مراکش لم تسقط فى أيدي الموحدين إلا بعد دفاع مرير ، بذل فيه المرابطون وأهل المدينة جهوداً رائعة ، بالرغم مما كان يحيط بهم من الظروف الأليمة ، وقتل فيه من المرابطين والمدنيين ، حسبما يقول لنا ابن اليسع نيف وسبعون ألف رجل^(٤) . ومن المواقف الرائعة الحديرة بالإعجاب ، ما يقصه علينا البيهقى من أن فانتو بنت عمر بن يينتات ، وهى فتاة بارعة الحسن ، وافرة الجراءة ، كانت تقاتل الموحدين أمام القصر (القصبة) فى ثياب فارس . وكان الموحدون ، حسبما يقص علينا البيهقى يتعجبون من قتالها ، ومن شدة ما أعطاهما الله من الشجاعة ، ولم يعرفها الموحدون حتى قتلت وتبين أنها امرأة فى ثياب رجل^(٥) .

(١) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٣ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٣٣ ، والحلل المشية ص ١٠٣ و ١٠٤ . وراجع خريطة مراکش السابق نشرها فى ص ١٨٧ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤ و ٢٣ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ .

(٤) الحلل المشية ص ١٠٤ .

(٥) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٣ .

ولم يكتف الموحدون ، بما أوقعوا من الفتك الذريع بالمرايطين وأهل المدينة ، ولكنهم أعلنوا استباحة مراکش فيما يصفه ابن الخطيب « بالحنة العظمى » . وذلك أنهم قرروا استباحة دماء كل من اشتملت عليه من الذكور البالغين . واستمر بها القتل الذريع ثلاثة أيام أخرى ، ولم ينج من أهلها إلا من استطاع الاختفاء في سرب أو غيره . وطورد اللمتونيون بالأخص أشد مطاردة ، واستنصلوا أينما وجدوا . ثم أعلن عبد المؤمن بعد ذلك عفوّه عن أهل المدينة المفتوحة . قال ابن الخطيب « فظهر من جميع الخلق بها ، ما يناهز السبعين رجلا ، وبيعوا ببع أسارى المشركين ، هم وذرايرهم ، وعفى عنهم »^(١) . وقال صاحب البيان الغرب ، إن مراکش أبيعحت لقتل من وجد فيها من اللمتونين مدى ثلاثة أيام ، ثم عفا عنهم عبد المؤمن ، واشتراهم من الموحدين ، وأعتقهم وأطلقهم . واستولى عبد المؤمن على ذخائر تاشفين وجميع أمراء لمتونة ، مما لا يحيط به حصر ولا وصف ولا بيان .

ولم يكن مصير الأمير الصبي إبراهيم آخر ملوك الدولة المرابطية ، وزملائه من أشياخ لمتونة ، بأقل روعة . ذلك أنهم اقتيدوا حسبا قدما ، إلى قبة عبد المؤمن فوق تل إيجليز . وكان إبراهيم قد قبض عليه مع الآخرين في القصة . وقيل إنه وجد مختفياً في إحدى غرف القصر في كومة من الفحم^(٢) . فلما أخذ إلى عبد المؤمن ، أشفق عليه ورثا لمحتته وصغر سنه ، ومال إلى العفو عنه والإبقاء عليه . ويقص علينا البيذق وهو شاهد عيان ، أن الأمير الفتي كان يتضرع إلى عبد المؤمن ، ويقول له يا أمير المؤمنين مالي في الرأى شيء ، فيقول له وصيفه طلحة « أصمت عنا ، هل رأيت ملكاً يتضرع للملك مثله » . وفي رواية أخرى أن سير بن الحاج أحد أشياخ المرابطين ، لما رأى تضرع إبراهيم لعبد المؤمن ، تفل في وجهه وقال له « أترغب إلى أبيك ومشفق عليك ، اصبر صبر الرجال » . وعلى أى حال فقد تأثر عبد المؤمن لضراعة الأمير الفتي ، وقال لأبي الحسن بن واجاج (وهو من أهل خمسين) ، وكان قد قتل بيده عدة من أمراء وأشياخ لمتونة عقب إحضارهم إلى تل إيجليز « أترك هؤلاء الصبيان ، ما الذى تعمل بهم » ، فصاح به أبو الحسن « ارتد علينا عبد المؤمن ، يريد أن يربى علينا فراخ السبوعة » ، فغضب الخليفة ، وغادر

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة (١٩٥٦) ج ١ ص ١٩٢ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٣ .

مكانه وتبعه الموحدون إلا أبا الحسن ، والشيخ أبا حفص ، فاقتاد أبو الحسن الأمير إبراهيم وقتله ، ثم جذبوا طلحة ، وصيفه ليقتلوه ، فلما اقترب من أبي الحسن ، استل خنجرأ كان تحتفظ به ، وطعن أبا الحسن وقتله ، وقتله الموحدون على الأثر ، ويضيف البيهقي إلى ذلك أن أبا الحسن كان قد أوثق زهاء ألف رجل من أبناء دكالة ليقتلهم ، فلما قُتل أطلق سراحهم . وعنى عنهم (١) .

وهكذا زهق أبو إسحاق إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين ، صبيأ في السادسة عشرة من عمره ، بعد أن حكم حكمه الإسبي المنكود بمدى عامين ، وزهق ضحية بريئة للحوادث ، دون أن يضطلع منها بشيء ، أو يعقد أو يحل منها أمراً ذا خطر ، وقد كان حريأ برجل عظيم مثل عبد المؤمن أن يحقن دم هذا الأمير الصغير ، لو أنه استعمل الصرامة والحزم مع أولئك الأتباع الظميين إلى الدماء . وبموت إبراهيم اختتم ثبت ملوك المتونة ، وانهار عرش بني يوسف ابن تاشفين ، بعد أن لبث منذ تأسيس مراکش في سنة ٤٦٢ هـ ، ثمانين عاما ، ترفرف أعلامه الظافرة على أنحاء المغرب ، وخسين عاما ترفرف فوق جنبات الدولة المرابطية الكبرى بالمغرب والأندلس .

ويصف لنا البيهقي بعد ذلك مصير أبي بكر بن تيزميت خادم علي بن يوسف ، وكيف أمر الخليفة بقتله ، لأنه هو الذي قبض على المهدي أيام وجوده بمراكش وحمله إلى السجن ، وكيف غرر أبو بكر بالموحدين ، وزعم أن لديه بمنزله آنية ملأى بالذهب ، يريد أن يسلمها للموحدين ، فبعث معه الخليفة باثني عشر رجلا ليتسلموا الذهب فأغلق الدار عليهم وقتلهم ، وهم يشتغلون بالحفر بحثاً عن الآنية المزعومة ، فأخذ إلى الخليفة وأمر به فقتل (٢) .

وكان عبد المؤمن قد دخل مراکش على أثر افتتاحها ، ثم عاد منها في الحال إلى محله ، ورتب الأمناء على أبوابها . وبقيت مراکش بعد ذلك ثلاثة أيام لا يدخلها ولا يخرج منها أحد . ذلك أن الموحدين ، كانوا يرون ، في غلوأهم الدينية ، أن مراکش هي مدينة المجسمين وأهل اللثام ، الذين لعنهم المهدي ، وأقضى بشركتهم وتكفيرهم ، فهي إذن مدينة نجسة . لاتصلح لزول الموحدين الأطهار . وقال أشياخ الموحدين فوق ذلك إن المهدي امتنع عن سكنى مراکش ،

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٤ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤ .

(٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٥ .

لتشريق مساجدها عن القبلة المستقيمة : والتشريق والتحريف ، لغير المسلمين من اليهود وغيرهم . فأشار الفقهاء الموحدون عندئذ بتطير المدينة ، تمهيداً لسكنائها ، ونصحوا بهدم جوامعها القائمة ، بسبب تشريقها وتحريفها عن القبلة . وهكذا هُدم جامع على بن يوسف هدماً جزئياً ، وهدمت الجوامع الأخرى . وتولى الأمراء جمع السبي والأسلاب من الحلى والسلاح والمتاع وغيرها ، وحملت كلها إلى الخللزن ، وبيع النساء في اليوم الرابع ، بعد أن تم تطهير المدينة ، وجمعت أسلابها على هذا النحو ، ودخل عبد المؤمن مراکش ، وقسم أرزاقها ودورها على الموحدين ، فسكنوها بضع أسابيع^(١) .

ومما له مغزى بارز ، ما يقصه علينا المراكشي ، من أن عبد المؤمن حين دخوله مراکش ، بحث عن قبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أشد البحث ، فأخفاه الله عنه وستره ، وكان ذلك حسماً يروى المؤرخ ، دليلاً على رعاية الله وعادته الحسنى مع الصالحين المصلحين^(٢) .

ويقدم إلينا الإدريسي الذي تجول في أنحاء المغرب وقواعده في أواخر عهد المرابطين (حوالي سنة ٥٣٠ هـ) وصفاً لمدينة مراکش عقب سقوطها في أيدي الموحدين ، يقول فيه ، إنها أي مراکش كانت دار إمارة لتونة ومدار ملكهم ، وكان بها قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة ، وأزقتها واسعة ، ورحابها فسيحة ، ومبانيها سامية ، وأسواقها مختلفة ، وسلعها نافقة ، وكان بها جامع بناه أميرها يوسف بن تاشفين ، فلما كان في هذا الوقت ، وتغلب عليها المصامدة ، وصار الملك لهم ، تركوا ذلك الجامع معطلاً مغلق الأبواب ، ولا يرون الصلاة فيه ، وبنوا لأنفسهم مسجداً جامعاً يصلون فيه ، بعد أن نهبوا الأموال وسفكوا الدماء ، وأباحوا الحرم ، كل ذلك بمذهب لهم يرون ذلك فيه حلالاً . وشرب أهل مراکش من الآبار ، ومياهها كلها عذبة ، وآبارهم قريبة معينة . وكان على بن يوسف قد جلب إلى مراکش ماء من عين بينها وبين المدينة أميال ، ولم يستم ذلك ،

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٥ و ١٠٦ . والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٥ .

(٢) المعجب ص ١١٣ . ولو صحت رواية المراكشي ، فإن المرجح هو أن يكون المرابطون ، قد اصطاحوا على إخفاء قبر يوسف وتجهيله ، حتى لا يخربه الموحدون ، ويعتدوا على رفات البطل المرابطي . ولقد أرشدت في بعض زياراتي لمراكش إلى زاوية صغيرة ، بها صبيان يقرأون ، وقيل لي إن بها قبر يوسف بن تاشفين . ولكني لم أجدهم أي شاهد أو نقش أو دليل يحمل على الاعتقاد في صحة هذا القول .

فلما تغلب المصامدة على الملك ، تمموا جلب ذلك الماء إلى داخل المدينة ، وصنعوا به سقايات بقرب دار الحجر ، وهى الخطيرة التى فيها القصر منفرداً متحيزاً بذاته . والمدينة بخارج هذا القصر ، وطولها أشف من ميل ، وعرضها قرب ذلك ، وعلى ثلاثة أميال من مراكش نهر لها بسمى تانسيفت ، وليس بالكبير لكنه دائم الجرى^(١) .

وفى نفس الوقت الذى افتتحت فيه مراكش ، دخل الموحدون قسبة تلمسان ، وذلك فى الخامس عشر من شوال سنة ٥٤١ هـ ، أعنى قبل سقوط مراكش بثلاثة أيام . ووفد على عبد المؤمن عندئذ مع أشياخ الموحدين . يحيى بن إسماعيل المسوقى المعروف بأنجمار أمير تلمسان السابق ، وكان قد دخل فى طاعة الموحدين ، فشملة عبد المؤمن برعايته ، واحترمت داره وزوجته زينب بنت على بن يوسف ، وسائر أصحابه وأسره^(٢) .

وحدث خلال وجود عبد المؤمن بمراكش أن قدم عليه من الأندلس وفد لإشبيلية وعلى رأسه القاضى أبو بكر بن العربى المعافى ، بعد مقتل ولده عبد الله فى حوادث إشبيلية ، والخطيب أبو عمر بن الحجاج ، وأبو بكر بن الجند الكاتب ، وأبو الحسن الزهرى ، وأبو الحسن ابن صاحب الصلاة ، وغيرهم من زعماء إشبيلية ووجوهها ، فاستقبلهم عبد المؤمن ، وألقى القاضى أبو بكر وبعض زملائه بين يديه خطباً بليغاً ، ورفعوا إليه بيعة أهل إشبيلية مكتوبة بخطوطهم ، فاستحسن عبد المؤمن موقفهم ، وقبل طاعتهم ، وأغدق عليهم الجوائز والصلوات ، وكان ذلك فى أوائل سنة ٥٤٢ هـ . ولما عاد الوفد إلى الأندلس ، توفى القاضى ابن العربى ، خلال الطريق ، ودفن بفاس فى جمادى الآخرة من نفس السنة . وكان مقدم هذا الوفد البارز ، وهو يمثل أعظم حواضر الأندلس ، من الدلالات الواضحة ، على تحول ولاء الأندلس بسرعة ، إلى جانب الموحدين . وكان له أثره فيما بعد ، فى إثارة الموحدين لإشبيلية ، واتخاذها حاضرة الأندلس فى عهدهم^(٣) .

(١) وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (المأخوذ من كتاب نزهة المشتاق) للإدريسى (طبعة دوزى) ص ٦٨ و ٦٩ .
(٢) البيان المغرب - القسم الثالث - ص ٢٥ .
(٣) الحلل المشوية ص ١١١ و ١١٢ ، والزركشى فى تاريخ الدولتين ص ٦ .

الفصل السادس

الدولة الموحدية

في سبيل التوطد

اختتام الغزوة الموحدية الكبرى . اضطرام الثورة في بلاد السوس . زعيمها الهادي أو الماسي . اتساع نطاقها وخلع القبائل لطاعة الموحدين . مسير الموحدين لقمع الثورة بقيادة الشيخ أبي حفص عمر . لقاء الموحدين وقوات الماسي في وادي ماسة . هزيمة الماسي ومصرعه وتمزيق جموعه . الجندي الكاتب أبو جعفر بن عطية ورسائله عن الموقعة . إعجاب أبي حفص بها . إعجاب الخليفة واستدعاؤه لابن عطية ، وتقليده خطة الكتابة . مطاردة أبي حفص للقبائل الخارجة وتمزيقها . غزوه لأراضي برغواطة . نزول يحيى الصحراوي في سبتة . غدره بابن ميمون وقتله . دور القاضي عياض في حوادث سبتة . انتفاض أهل سبتة ومقتل واليها الموحد . مسير الصحراوي من سبتة إلى سلا ثم إلى أراضي برغواطة . اجتماع برغواطة ودكالة ورجراجة وحاحة حوله . عبد المؤمن يرسل إلى برغواطة حملة جديدة بقيادة يصلان . مسير يصلان إلى سلا واقتحامها وخضوعها . ثم إلى بني وراغل وإخضاعهم . مسيره إلى طنجة واقتحامها ، ثم إلى سبتة . مبادرة أهل سبتة إلى الخضوع والعفو عنها . عبد المؤمن يجهز الحشود لمقاتلة برغواطة والصحراوي . خروجه في قواته من مراكش ومسيره صوب دكالة ، ثم أزموور . مهاجمته لحشود الثوار وتمزيقهم . فرارهم نحو البحر وغرق الكثير منهم . فرار يحيى الصحراوي وصحبه إلى السوس ثم إلى الصحراء . استيلاء عبد المؤمن على أسلاب برغواطة ودكالة . إذعان برغواطة إلى التوحيد . عودة عبد المؤمن إلى مراكش . نزعة الموحدين إلى القمع الدموي . حادث الاعتراف وقتل المارقين والمعاندين . الجرائد الدموية لختلف القبائل وعدد القتلى من كل منها . تأملات حول موقف عبد المؤمن من هذا السفك المروع . إخماد ثورة أخرى في برغواطة . مسير عبد المؤمن في قواته إلى سلا . إنشاؤه لقصبة رباط الفتح . استيلائه لوفود الأندلس . اعتزاه فتح بجاية وبواعت هذا القرار . مسيره صوب بجاية من طريق ملتوية . استيلاءه على جزائر بني مزغنة . بنوحماد أصحاب بجاية والقلعة . قلعة بني حماد وموقعها . انتقامه إلى بجاية . استيلاء عبد المؤمن على بجاية وما يقال في ذلك . استيلاء عبد الله بن عبد المؤمن على القلعة . سقوط بونة وقسنطينة في أيدي الموحدين . مسير يحيى بن العزيز صاحب بجاية محجة عبد المؤمن إلى مراكش . وصف بجاية في هذا العهد . الصدام بين الموحدين والعرب في هذه المنطقة . هزيمة العرب وتمزيق حشودهم . ثورة صنهاجة قرب بجاية وإخمادها . مسير عبد المؤمن إلى تلمسان ثم إلى فاس ومكناسة وسلا فمراكش . مقاومة أخوي المهدي بمراكش . إخمادها وإعدام المتآمرين . قيام عبد المؤمن بحركة تطهير جديدة . عبد المؤمن يدبر مصرع القائد يصلان . ثورة جديدة في السوس . مسير أبي حفص لإخمادها . سحق القبائل الثائرة وأخذ غنائمها وتوحيد بعضها . مسير عبد المؤمن من مراكش إلى تينملل .

وهكذا اختتمت تلك الغزوة الكبرى ، التي اضطلع بها عبد المؤمن بن علي ، مذ خرج في حشوده الموحدية الحارقة ، من تينملل في سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) ،

واستمر زهاء سبعة أعوام يشخن في أنحاء المغرب ، من الجنوب إلى الشمال ، ثم إلى الشرق ثم إلى الجنوب ، ويوقع بالحيوش المرابطية مرة بعد أخرى ، ويستولى تباعاً على قواعد المغرب — اختتمت تلك الغزوة الكبرى باسنيلاء الموحدين على حضرة مراکش ، والقضاء على الدولة المرابطية في المغرب .

على أن تحقيق هذه الغاية الجوهرية ، لم يكن نهاية الصراع الذي كان على الموحدين أن يضطلعوا به . لتوطيد دولتهم ، والقضاء بصورة نهائية . على كل مقاومة لدعوتهم الدينية . وسلطانهم السياسي ، وذلك أولاً في المغرب . حيث قامت دعوتهم . وانتظمت دولتهم .

ثم كان عليهم بعد ذلك . أن يتابعوا فتوحهم . فيما وراء البحر . في الأندلس حيث كانت الدولة المرابطية ، هازالت تحتفظ ببقية من سلطانها ، في شبه الجزيرة . وفي بعض قواعد الأندلس ، وتحتفظ في نفس الوقت ببقية من قواتها العسكرية . وتفر من أكابر قادتها وزعمائها .

وفي الوقت الذي لاح فيه أن الموحدين . بفتح مراکش . قد وصلوا إلى ذروة سلطانهم ، اضطربت أول ثورة خطيرة ضد دعوتهم الدينية وسلطانهم السياسي . وكان ذلك في بلاد جزولة ، غربي بلاد السوس . حيث قام ثائر يدعى محمد بن عبد الله بن هود وتسمى بالهادي . وأصل هذا الرجل من سلا . وكان قصّاراً . فلما ذاعت الدعوة الموحدية ، واستولى الموحدون على سلا . ادعى الهداية ، وسعى نفسه بالهادي ، ثم سار جنوباً إلى أرض جزولة ونزل برباط ماسة . وذلك في شوال سنة ٥٤١ هـ ، ومن ثم اشتهر كذلك باسم الماسي^(١) ، فتبعه كثير من الناس من مختلف القبائل ، وذاعت دعونه بسرعة مددشة . وسرعان ما استولى على بلاد تامسنا ، وبلاد المصامدة ، وانضمت إليه عدة من القبائل التي كانت تدين بالتوحيد مثل حاحة ، ورجراجة ، وهزميرة وهسكورة ودكالة . وخلعت معظم القواعد التي توحدت الطاعة . حتى لم يبق تحت سلطان عبد المؤمن وطاعته ، في وسط المغرب وجنوبه . سوى فاس ومراكش . وكان استفحال الثورة ، واتساع نطاقها على هذا النحو . دليلاً على أن الدعوة الموحدية ، لم تكن قد تمكنت بعد في نفوس معتنقيها ، وأنهم لم يدينوا بها إلا تحت سلطان الضغط

(١) الحلل الموسمي ص ١١٠ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٦ . ويقول لنا صاحب روص القرطاس ، إن الماسي حضر فتح مراکش مع عبد المؤمن وبعده تم حرج عليه (ص ١٢٣) .

والإرهاب المادى . والواقع أن وسائل الموحدين فى نشر دعوتهم لم تكن حسبما رأينا مما فصلناه من قبل ، رفيقة ولا إنسانية ، بل كانت قائمة على الخضوع الأعمى للدعوة والإرهاب المطلق ، وسفك الدم السريع . ومن ثم كان ارتداد القبائل الموالية ، بمثل السرعة التى توحدت بها ، وانضمامها إلى راية الدعى الجديد . وشعر عبد المؤمن وأشياخ الموحدين ، أن الأمر سوف يخرج من أيديهم ، إذا لم لم تسحق ثورة الماسى بسرعة . فبعث عبد المؤمن لقتاله حملة بقيادة ابن يكيث ويحيى المستوفى المعروف بأنجمار ، فلقبهم الماسى فى قواته وهزمهم وأثنى فيهم . فعندئذ جهز عبد المؤمن لقتاله حملة ضخمة مختارة ، تضم طائفة من الروم ، أى النصارى المرتزقة ، والرماة وغيرهم ، من المقاتلة المدربين ، وعلى رأسها الشيخ أبو حفص عمر الهنتانى وعدة من أشياخ الموحدين . وكان بين الجند الرماة فى يمت إلى الأدب بصلة ، هو أبو جعفر أحمد بن عطية القضاعى ، وهو من أهل مراكش ، ولكنه يرجع إلى أهل الأندلس ، وأصله القديم من طرطوشة ثم من دانية^(١) ، وقد كان ضمن كتاب على بن يوسف ، ثم كتب عن ابنه تاشفين ثم عن حفيده إبراهيم ، وكان على حداثة سنه من أحظى كتاب الدولة اللتونية . فلما سقطت مراكش أخفى نفسه ، ودخل فى غمر الناس ، وانضم إلى كتائب الموحدين ، لا يعلم بحقيقته أحد . وكانت الحملة الموحدية تضم نحو ستة آلاف فارس ومثلهم من الرجال . وكان جيش الماسى يضم نحو الستين ألفاً ، ليس فيهم من الفرسان سوى سبعمائة . وسار الموحدون صوب تامسنا بوادى ماسه ، والتقوا بقوات الماسى ، وذلك فى السادس عشر من شهر ذى الحجة سنة ٥٤٢ هـ (٧ مايو ١١٤٨ م) ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، قاتل فيها جند الماسى بشجاعة ، ولكنهم هزموا فى النهاية ، وقتل الماسى ، قتله الشيخ أبو حفص بيده ، ومزق جنده شرمزق ، وحمل الموحدون جثته فوق بغل ، حيث صلبت على باب الشريعة بمراكش . وكان نصراً باهراً ، أنهارت على أثره ثورة الماسى وانفضت جموعه^(٢) .

وحدث على أثر انتهاء المعركة بظفر الموحدين ، أن بحث الشيخ أبو حفص

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧١ .

(٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٦ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٦ ، والحلل الموشية ص ١١٠ ، وروض القرطاس ص ١٣٤ .

عن كاتب بارع يقوم بإعلام الخليفة بما أتاها الله من نصره ، في رسالة قوية بليغة ، فأرشد إلى فتى من الجند الرماة ، يجيد الشعر والترسل ، فاستحضره ، وكان هو أبو جعفر بن عطية ، فعهد إليه بأن يكتب عنه إلى الخليفة رسالة يصف فيها المعركة ، فنزل أبو جعفر عند رغبته مرغماً ، وكتب رسالته الشهيرة ، في نصر الموحدين في ذلك اليوم ، فجاءت قطعة من البلاغة المتدفقة ، والبيان الرائع ، وهى الرسالة التى رفعت لاسمه وقدره ، لدى الخليفة : وبين سائر الموحدين ، وكانت سبيله إلى الوزارة ، وإلى النفوذ والسلطان . وقد أورد لنا ابن الخطيب نص هذه الرسالة . وإنه ليكنى أن ننقل منها هاتين الفقرتين .

جاء في الديباجة ما يأتى :

« كتبنا هذا من وادى ماسة ، بعد ما ترحزح من أمر الله الكريم ، ونصر الله المعلوم ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، فتح بمسرى الأنوار إشراقاً ، وأحرق بنفوس المؤمنين إحداقاً ، ونبه للأمانى القائمة جفوناً وأحداقاً ، واستغرق غاية الشكر استغراقاً . فلا تطيق الألسنة كنه وصفه إدراكاً ولا لحاقاً ، جمع أشتات الطب والأدب ، وتقلب في النعم أكرم منقلب ، وملا دلاء الأمل إلى عقد الكرب .

فتح تفتيح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القشب وتقدمت بشارتنا به جملة . حين لم تعط الحال بشرحه مهلة . كان أولئك الضالون المرتدون ، قد بطروا عدواناً وظلماً ، واقتطعوا الكفر معنى وإسماً ، وأملى الله لهم ايزدادوا إثمًا » .

ومنها في وصف مصرع أنصار الماسى : « فامتألت تلك الجهات بأجسادهم ، وأذنت الآجال بانقراض آمالهم ، وأخذهم الله بكفرهم وفسادهم . فلم يُعَين منهم إلا من خر صريعاً ، وسقى الأرض نجيعاً ، ولقى من وقع الهنديات أمراً فظيماً ، ودعت الضرورة باقهم إلى الترامى فى الوادى . فمن كان يؤمل الفرار ويرتجيه . ويسبح طامعاً فى الخروج إلى ما ينبجيه ، اختطفته الأسنة اختطافاً ، وأذاقته موتاً زعافاً ، ومن لج فى الترامى على لججه . ورام البقاء فى ثجبه ، قضى عليه شرقة ، وألوى فرقته غرقه » (١) .

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة فى ترجمة أبى جعفر بن عطية ج ١ ص ٢٧٧ .

يقول لنا ابن الخطيب ، إن الشيخ أبا حفص حين قرئت عليه رسالة هذا الجندى الأديب ، اشتد إعجابه بها ، وأحسن إلى كتابتها ، واعتقد أنه ذخيرة تحف به عبد المؤمن ، وأنها لما قرئت بعد ذلك على الخليفة بمحضر من أكابر الدولة عظم مقدارها ، ومقدار منسبها ، وبعث في طلبه معززاً مكرماً . ولما وفد ابن عطية على عبد المؤمن ، بالغ في إكرامه ، وقلده خطة الكتابة ، وأسند إليه وزارته ، ثم فوض إليه فيما بعد النظر في أموره كلها ، فنهض بأعباء منصبه ، خير نهوض . ولكن القدر كان يربص به ، وكان يدخر له تلك الخاتمة المؤسسية ، التي ستقص سيرتها فيما بعد .

وعلى أثر هزيمة الماسي ومصرعه ، وانهار حركته ، خرج الشيخ أبو حفص في قواته لمطاردة القبائل الخارجة ، فسار أولاً إلى هسكورة ، وأثنى فيها ، ومزق شملها ، وسبى أهلها ، واستاق غنائمها . ثم سار إلى أرض نفيس ، ثم أرض هبلانة ، فمزق جموعهم ، وفرض عليهم الخضوع والطاعة . وسار بعد ذلك إلى سجلماسة فاستولى عليها ، وأمن أهلها . وعاد إلى مراکش فاستراح بها قليلاً ، ثم خرج غازياً إلى أرض برغواطة ، وكانوا مازالوا على دعوة الماسي ، فنشب بينهم وبينه قتال مرير ، ومعارك متوالية ، استمرت حيناً ، وهزم الموحدون في نهايتها . واستمرت برغواطة ومن يجاورها من القبائل في ثورتهم وخروجهم فترة أخرى .

وكان يحيى بن أبي بكر بن علي الصحراوي ، أو ابن الصحراوية ، حينما فر من فاس ، عند سقوطها في أيدي الموحدين ، قد غادرها إلى سبتة ليحاول أن يجعل منها قاعدة للمقاومة ، وجمع أشتبات الفلول المرابطية . وهنا تختلف الرواية في شأن ما تلا من الحوادث التي وقعت في سبتة . ذلك أن البيهقي يقدم إلينا رواية خلاصتها . أن الصحراوي حينما نزل بسبتة ، حاصره بها علي بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول الأندلسي في منطقة قادس ، وهو الذي انحاز إلى الموحدين حسبما تقدم . فتودد إليه الصحراوي ، وأوهمه أنه يريد أن يبايع الموحدين ، وأن يكون توحيده على يديه ، وفي اليوم التالي نزل ابن ميمون من سفينته إلى البر ، فاستقبله الصحراوي ثم هاجمه فجأة وطعنه برمح فأرداه . وصلب جثته في برج المدينة ، ثم غادر الصحراوي على أثر ذلك سبتة إلى طنجة^(١) .

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٧ .

بيد أن هنالك رواية أوضح تفصيلاً، هي رواية صاحب روض القرطاس، وابن خلدون، وهي رواية تدور حول الدور الخطير الذي قام به القاضي عياض ابن موسى اليحصبي قاضي سبتة، في حوادث سبتة عندئذ. وكان القاضي عياض من أعظم فقهاء العصر وعلماؤه، وكان قد وُلِّي قضاء سبتة شاباً، فاشتهر بنزاهته وجزارة علمه، فنقل إلى قضاء غرناطة (سنة ٥٣١ هـ)، ثم أعيد بعد ذلك إلى قضاء سبتة (٥٣٩ هـ). فلما ظهر أمر الموحدين، بادر إلى الدخول في طاعتهم، وسار إلى لقاء الخليفة عبد المؤمن، وهو بسلا في أواخر سنة ٥٤٠ هـ، فأكرمه عبد المؤمن وأجزل صلته، فعاد إلى سبتة واستمر في منصبه^(١). بيد أنه لأسباب غير واضحة، تغير ضد الموحدين فجأة، ولم يلبث وفقاً للرواية المتقدمة، أن حرض أهل المدينة على الانتفاض والثورة، فثاروا بوالها الموحدي يوسف بن مخلوف التينملي، وقتلوه ومن معه من الموحدين. ثم عبر القاضي عياض البحر إلى الأندلس، ولقي يحيى بن غانية المسوّفي، وإلى الأندلس المرابطي. وطلب منه والياً لسبتة، فبعث معه يحيى بن أبي بكر الصحراوي. وكان وفقاً لنفس الرواية قد عبر البحر إلى الأندلس، وانضم إلى ابن غانية. فقام الصحراوي بأمر سبتة، ثم كتب إليه برغواطة تستنصره على قتال عبد المؤمن، فغادر سبتة، وسار في صحبه إليهم، فبايعوه واجتمعوا تحت رايته^(٢). بيد أن البيدق. بعد ذكر ما تقدم من اغتيال الصحراوي لابن ميمون، يقدم إلينا عن خطط الصحراوي ومسيره إلى الجنوب، تفاصيل أخرى، خلاصتها أن الصحراوي لما غادر سبتة، سار منها إلى طنجة، وهنالك ألقي واليها يحيى بن تابشا المرابطي، متمتعاً بأسوارها القوية، وعلى أهبة حسنة للدفاع. فغادرها إلى سلا، وكان بها الخياط والد الثائر الماسي. وكانت قد خرجت فيمن خرج على طاعة الموحدين. ولكن الخياط لم يكن من أنصار المتونة، فساء التفاهم بينه وبين الصحراوي. ولم يلبث أن وثب به الصحراوي وقتله. ووقعت هذه الحوادث كلها في أوائل سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م)^(٣).

وكان يحيى الصحراوي جندياً عظيماً. وفارساً وافر الجراءة^(٤). وكان يعتزم

(١) ابن الخطيب في الإحاطة - مخطوط الإسكوريال في ترجمة القاضي عياض لوحة ٣٥٠.

(٢) روض القرطاس ص ١٢٤، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٣.

(٣) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٧.

(٤) المراكشي في المعجب ص ١١١.

أن ينزل إلى ميدان تضطرم فيه الثورة ضد الموحدين . وكانت المنطقة الساحلية الممتدة من سلا جنوباً ، حتى أراضى برغواطة ، ودكالة ، قد غدت كلها بعد هزيمة الموحدين أمام برغواطة ، منطقة لمقاومة الدعوة الموحدة ، ومحاولة تحطيمها ، فإلى هذا الميدان نزل الصحراوي في صحبه القلائل ، واجتمعت برغواطة ودكالة حول رايته ، ثم قدمت إليه حشود رجراجة وحاحة ، وانضمت إليه ، واجتمع من هؤلاء وهؤلاء ، قوة يخشى بأسها .

فلما علم عبد المؤمن باجتماع هذه الحشود الضخمة الحصينة وتأهبها لمقارعتة ، بعث لقتال الثوار حملة بقيادة يصلاسن ، أحد خاصته . فسار يصلاسن أولاً إلى تادلا . ومنها إلى سلا لمعاينة أهلها على نكثهم ، فاقتحمها ، وغلب على قصبها بالسيف . فعاد أهلها إلى الخضوع والطاعة ، وعهد بولايتهما إلى موسى بن زيري الهنتاني . ثم سار إلى أرض بني ورياغل ، فيما بين سلا ومكناسة ، وكانوا من الناكثين . فأخضعهم واستاق غنائمهم إلى مكناسة ، فقسمت بين الموحدين ، ثم اتجه شمالاً صوب طنجة ، وكانت ما تزال من معاقل لمتونة ، فاقتحمها ، وقتل واليها المرابطي يحيى بن تايشا . وسار منها بعد ذلك شرقاً إلى سبتة وحاصرها ، ولكنه لم يدخلها ، وعاد بقواته إلى مكناسة^(١) . وهنا لابد لنا أن نتساءل عن سر هذا الإغضاء عن معاينة المدينة الثائرة أعنى سبتة . والجواب على ذلك هو أن القاضي عياض ، حسبما يروى لنا البيهقي ، بادر فبعث إلى القائد الموحدي ببيعتة وبيعة أهل سبتة للموحدين ، وبذلك أنقذت المدينة^(٢) . وفي رواية أخرى ، أنه لما قدم الموحدون إلى سبتة ، وشددوا في حصارها ، سعى إليهم القاضي عياض ، وتلطف في الاعتذار إليهم عما حدث ، وفي استدراج عطفهم وصفحهم ، فعفوا عنه . وملكوا البلدة ، ولقي القاضي من القائد الموحدي يصلاسن بن المعز ، كل عطف وإكرام . وأن القاضي عياض ، سار بعد ذلك إلى مراكش (سنة ٥٤٣ هـ) ، ليستعطف الخليفة ويلتمس صفحه . فعفا عنه عبد المؤمن ، وأمره بلزوم مجلسه ، وأغدق عليه عطفه . ثم مرض القاضي غير بعيد ، وتوفي بمراكش في ليلة التاسع من جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ ودفن بها (١١٤٩ م)^(٣) . وأخيراً يقول لنا

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٧ و ١٠٨ .

(٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٨ .

(٣) وردت هذه الرواية خلال ترجمة القاضي عياض يتضمنها مخطوط بالمكتبة الكائناتية بخزانة الرباط عنوانه : « كتاب في التعريف بعياض » ، ويحفظ بها برقم 553 (اوحات ٧ - ١٤) .

صاحب القرطاس « إن أهل سبتة حينما رأوا ما نزل بالناكثين من صنوف الويل ، بادروا بإعلان بيعتهم وطاعتهم ، وحمل البيعة إلى عبد المؤمن أشياخ المدينة وطلبها فتقبلها منهم ، وعفا عنهم ، وعن القاضي عياض ، ولكنه أمره بمغادرة سبتة والإقامة بمراكش ، فصدع بالأمر وسار إلى مراكش ، وهناك توفي بعد قليل في جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ ، وأمر عبد المؤمن كذلك بهدم أسوار سبتة فهدمت^(١) ، وأسندت ولايتها إلى حاكم موحدى هو عبد الله بن سليمان مع طائفة من الحفاظ ، وعاد إليها الهدوء والسكينة .

واعتزم عبد المؤمن أن يخرج بنفسه ليقضى على الخارجين عليه في منطقة برغواطة ودكالة ، التي غدت بعد حلول الصحراوي بها مركزاً للمقاومة المرابطية . فأرسل الكتب إلى سائر الأنحاء ، وجاءت إليه الحشود تترى من كل مكان ، وكان في مقدمتهم يوسف بن وانودين ، وقد وافاه بعساكر النواحي الشرقية ، ولكنه توفي خلال الطريق بفاس ، فخلفه في القيادة تاشفين بن ماخوخ وآخرون من الزعماء . ووفدت حشود المناطق الغربية وعلى رأسها عبد الله بن خيار الحياتي ، الذي عرفناه من قبل مشرفاً على فاس ، وقد لعب دوره في تسليمها إلى الموحدين ، ثم حشود زناتة ، بقيادة عبد الله بن شريف وثلاثة آخرين من الزعماء ، وحشود غمارة بقيادة عبد الله بن سليمان ، وحشود صنهاجة بقيادة أبي بكر ابن الجبر وأبي يدّر بن ومصال ، وحشود جيراوة بقيادة عبد الله بن داود . واجتمعت هذه الحشود كلها تحت راية عبد المؤمن ، فخرج من مراكش في عسكر جرار ، وسار شمالاً نحو أراضي دكالة . وكانت حشود برغواطة ودكالة ويحيى الصحراوي قد اجتمعت عندئذ على مقربة من ساحل المحيط جنوبي ثغر أزموور . وفي بعض الروايات أن هذه الحشوش التي اجتمعت لقتال عبد المؤمن بلغت زهاء عشرين ألف فارس ومائتي ألف راجل ، وهو تقدير يحمل طابع المبالغة . ويقدم إلينا ابن خلدون تقديرأ أكثر اعتدالاً ، فيقول إنهم كانوا في نحو ستين ألفاً من الرجال وسبعائة من الفرسان^(٢) . بيد أنها كانت خالية من فرق الرماة ، التي امتازت بها الحشوش الموحدية . والظاهر أيضاً مما تذكره الرواية المذكورة أن عبد المؤمن لجأ إلى خطة لم يحسب حسابها خصومه ، وفاجأهم بالهجوم ، فاختل

(١) روض القرطاس ص ١٢٤ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ .

— ٢٧٦ —

نظامهم ، وتبدد شملهم ، واضطروا إلى مغادرة مراكزهم الحصينة نحو البحر ، ففرقت منهم جموع غفيرة ، وتمت عليهم الهزيمة الساحقة^(١) ، ومزقت بالأخص حشود دكالة ، وفر زعماءها ومعهم يحيى الصحراوي إلى السوس ، فسار في أثرهم يصلالسن حتى أراضى رجراجة ، ومزق جموعها حتى أذعنت إلى التوحيد ، وفر يحيى إلى الصحراء . وفي رواية أخرى أنه بعث إلى عبد المؤمن يستأمنه فأمنه وبأبىه وحسنت طاعته^(٢) . واستولى عبد المؤمن على أسلاب برغواطة ودكالة ، وسبى نساءهم وأولادهم وبيعوا رقيقاً . وأذعنت برغواطة إلى التوحيد ، واسترد الموحدون منها ما سبق أن غنموه من أبي حفص حين هزيمته من السلاح والعتاد . وكذلك رد إليه ولده وجاريته ، وانتشر الموحدون في تلك المنطقة ، وأخمدوا عدة ثورات محلية صغيرة . ووقعت هذه الحوادث حسبما يقص علينا البيهقي في سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م)^(٣) ، وعاد عبد المؤمن إلى مراکش ظافراً بعد أن قضى في تلك الغزوة ستة أشهر .

— ٢ —

وهكذا هدأت الثورة ضد الموحدين في مختلف النواحي ، وأرغمت معظم القبائل والقواعد الثائرة ، بقوة السيف ، والسيوف وحده ، على العودة إلى الخضوع والطاعة . ولكن ما بثته هذه الثورات المضطربة ، من أقوام كان معظمهم قد آمن بدعوة المهدي ، وانضوى تحت لوائها ، في نفوس الموحدين من المرارة والسخط ، كان نذيراً بفورة دموية جديدة . ولقد رأينا فيما تقدم ، من مراحل الصراع بين الموحدين والمرابطين ، كيف كان هذا الصراع يتميز في كثير من المواطن ، بألوانه الدموية المثيرة ، وكيف كان الموحدون يتبعون نحو المهزومين والعزل من خصومهم . خطة التقتيل الشامل ، وسفك الدماء دون تحفظ . وهي خطة كانت حسبما رأينا شعار المهدي ابن تومرت في محاربة خصومه .

والظاهر أن هذه النزعة الدموية استمرت في الموحدين أجيالاً ، حتى بعد أن توطدت دولتهم بمدة طويلة ، فإن المراكشي مثلاً ، وهو من مؤرخي الموحدين ،

(١) اللحل الموشية ص ١١١ .

(٢) روض الفرج ص ١٢٤ .

(٣) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٩ . وفي ابن خلدون أنها وقعت في سنة ٥٤٢ هـ .

كتاب العبر ج ٦ ص ٢٣٣ .

بنوه في كتابه بما جبل عليه المصامدة ، وهم عماد الجيوش الموحدية ، من ميل إلى سفك الدماء ، وكيف أنه وهو في بلاد السوس (في أوائل القرن السابع) مهد المصامدة . قد شهد من ذلك العجب (١) .

والآن نقف أمام صفحة دموية جديدة كتبها الخليفة عبد المؤمن وصحبه الموحدون . عقب انتصارهم على القبائل الثائرة ، وهي صفحة يقدم إلينا البيدق تفاصيلها الرهيبة فيما يسميه « الاعتراف » أعنى الاعتراف بطاعة التوحيد .

وذلك أن الخليفة عبد المؤمن ، عقب عوده ظافراً إلى مراكش ، عقد للموحدين مجلساً ، ووعظهم وكتب لهم الجرائد بالوعظ والاعتراف ، ووزعها على أشياخ الموحدين ، وأمرهم باستعمال السيف في تنفيذها . ومؤدى ذلك أنه عهد إلى أشياخ مختلف القبائل وزعمائها ، كل بجريدة أو قائمة ، تحتوى على مئات من أسماء المارقين ، والمشكوك في ولائهم ، أو من يصفنهم البيدق « بأهل التخليط والمعاندين » ووجوب قتلهم . وتطهير القبائل والبطون منهم . ونحن نكتفي ، بأن ننقل مما يورده لنا البيدق من الأسماء والتفاصيل الكثيرة ، أسماء القبائل ، وعدد من أعدم منها ، على الوجه الآتي :

أعدم من قبيلة هزميرة خمسمائة . وأعدم من رجاجة ثمانمائة . وأعدم من حاحة ثمانمائة ، وأعدم من أهل السوس ستمائة من أهل إيحلي ، وستمائة من أهل إبنجيس ، وأعدم من أهل جزولة مائتان في تاعجيزت وثلاثمائة في هشتوكة ، وأعدم من هسكورة ثمانمائة . وهوجمت بقية بطونهم حتى بلغ عدد القتلى ألفين وخمسمائة ، وأعدم من أهل تادلا خمسمائة في محلة نظير ، ثم هوجم منهم أهل تيفسريت وقتلوا ، وأخذت غنائمهم ونساوهم . وقتل من صنهاجة وجراوة ألف في موضع يسمى بالعمرى . وقتل من زناتة ستة آلاف بأرض فازاز ، وقتل من صاربوه وبني ماكود اثنا عشر ألفاً ، وقتل من غمارة في تطاوين ثمانمائة ، وقتل في مكناسة مائتان . وفي فاس تمانين . وقتل في تامسنا ستمائة من أهل برغواطة ، وقتل من دكالة ستمائة ، ومن هيلانة ثمانمائة ، ومن وريكة وهزرجة مائتان وخمسون ، ومن لحاعة مائة وخمسون . ومن درعة ستمائة . وبجا أهل سجلماسة بدعاء عابد فيهم استجاب الله دعاءه (٢) .

(١) المعجب للمراكشي ص ١٠٦ .

(٢) أخبار المهدي ابن تومر ص ١٠٩ - ١١٢ .

يقول البيذق بعد إيراد ما تقدم « تم الاعتراف بحمد الله وعونه .. فهذه الله البلاد للموحدين ، وأعانهم على الحق ونصرهم ، وأقاموا الدين ، ولم يتفرقوا فيه . وتمهدت الدنيا ، وأزال الله ما كان فيها من التخليط . وهذا كان سبب الاعتراف » . ثم يضع تاريخ هذه الحوادث الدموية في سنة ٥٤٤ (١١٤٩ م)^(١) .

وإنه لما يلفت النظر في هذا الحادث الدموي ، أولاً وقبل كل شيء : أنه وفقاً لأقوال البيذق ، من عمل عبد المؤمن وتدبيره ، وأنه يدمغ جهود عبد المؤمن وسياسته في توطيد الدولة الموحدية ، بطابع بغض . بيد أننا نشعر من جهة أخرى ، أن هذا العمل . وما تقدمه من تصرفات دموية عديدة ، خلال هذا الصراع الديني والسياسي العظيم ، لا يمكن أن تنسب إلى عبد المؤمن دون تحفظ . ذلك أن عبد المؤمن إذا كان باعتباره خليفة الموحدين وقائدهم الأعلى ، مسئولاً عن هذه الأعمال المثيرة أمام التاريخ ، فإنه يجب أن نذكر أيضاً أن عبد المؤمن ، لم يكن بالرغم من رفيع مركزه ، وسلطانه الظاهر . مطلق التصرف في كل ما يقوله أو يفعله ، وأنه كان بالعكس مرغماً على أن يخضع في كثير من المواطن لضغط الأسياف والقادة . فقد رأينا مثلاً . كيف أنه حينما قُتل أخوه إبراهيم بيد بعض أكابر الموحدين . غلب على أمره . ومنع بتدخل أصحاب المهدي . من أن يقتص لمقتله من قاتله ، ثم رأيناه بعد ذلك يغلب على أمره مرة أخرى ، حينما دخل الموحدون مراكش . وقُبض على إبراهيم بن تاشفين ، وأُتي به إلى عبد المؤمن فرقاً لحدائث سنة . وأراد أن يعفو عنه وأن يفره من القتل ، فاعترض عليه بعض الأسياف ، وأخذ إبراهيم وقتل رغماً عن إرادته . ففي هذه الحوادث وأمثالها ما يدل بوضوح بأن عبد المؤمن ، لم يكن مطاق الحرية في سائر تصرفاته . وإنما لرتاب في أن يكون أمثال مذبح الإعراف ، معبرة عن خلق عبد المؤمن وميوله الحقيقية . ونعتقد أنه لا بد أن يكون وراءها ، وراء أمثالها من التصرفات الدموية المثيرة . ضغط الأسياف والصحب . وقد كانوا في تلك المرحلة . هم أصحاب التوجيه الحقيقي ، يزاولونه أحياناً . بصورة ظاهرة ، وغالباً من وراء حجاب .

بعد أن تم لعبد المؤمن سحق الثورة الكبرى ، في أراضى برغواطة ودكالة ، وبعد أن تم له تمييز القبائل ، وقتل المارقين على النحو المتقدم ، اعزم أن يقوم

(١) أخبار المهدي بن تومرت ص ١١٢ .

بجولته الثانية لسحق ما تبقى من مواطن الثورة والمقاومة ، ولتم افتتاح المغرب بافتتاح إفريقيا . وكان قد قام في تلك الأثناء بتأمينا ، عقب حرب برغواطة بقليل ، ثائر جديد يدعى بابن تمرکید ، فبايعه كثير من أهل برغواطة ، وغير هامن القبائل . ولبت حيناً يتحدى الموحدين ، ويشتبك معهم في معارك متوالية ، إلى أن هزم أخيراً ، وقتل ، وقتل معه كثير من أنصاره ، وحمل رأسه إلى مراکش (سنة ٥٤٤ هـ) .

وخرج عبد المؤمن في قواته من مراکش سنة ٥٤٥ هـ ، مستخلفاً عليها أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاني ، وسار إلى مدينة سلا ، وأمر بأن تنشأ قصبة وقصر فوق اللسان الممتد في البحر أمام سلا ، وبأن ينشأ سرب يستمد الماء من عين غبولة القريبة لإمداد المحلة الموحدية ، فتم ذلك ، وجرى الماء ، وغرست الحدائق والرياض . وأذن الخليفة للناس في التعمير والسكنى ، فكان ذلك منشأ مدينة رباط الفتح ، التي غدت من ذلك الحين مركزاً لتجمع الجيوش الموحدية الغازية . ولبت الخليفة بسلا خمسة أشهر . وفي خلال ذلك ، وفدت عليه وفود عديدة من الأندلس بلغت زهاء خمسمائة من الفقهاء والقضاة والزعماء والقادة ، فاستقبلهم الوزير أبو إبراهيم والوزير أبو حفص ، والكاتب الوزير أبو جعفر بن عطية ، وأشياخ الموحدين . فأكرمت وفادتهم وأنزلوا خير منزل . ثم أخذوا لمقابلة الخليفة ، وكان دخولهم عليه في غرة شهر المحرم سنة ٤٤٦ هـ ، وكان أول من تقدم بين يديه وفد قرطبة ، فشرح قاضيها أبو القاسم ابن الحاج للخليفة ، ما تعانيه قرطبة ، من تهديد النصارى وضغطهم ، وتلاه الكاتب أبو بكر بن الحد بنحطة بليغة ، ثم تعاقبت الوفود في السلام والتهنئة ، فشمّل الخليفة الجميع بعطفه ، وأجزل لهم الصلات كل على قدر مكانته ، ثم أمرهم بالانصراف إلى بلادهم^(١) . ولا ريب أن تعاقب الوفود الأندلسية على المغرب على هذا النحو ، كان له أثره في خطط عبد المؤمن المستقبلية ، نحو افتتاح الأندلس ، وتنظيم شئونها .

وغادر عبد المؤمن سلا في أوائل سنة ٥٤٦ هـ ، وسار إلى المعمورة ، وهو يعزم افتتاح بجاية وإفريقية . وكانت ثمة بواعث عديدة لها خطرها ، قد حملته على

(١) هذه هي رواية صاحب ررض القرطاس (ص ١٢٢) ، ويمر البليق على هذا الحادث بالصمت . ويشير إليه الزركشي في تاريخ الدولتين (ص ٧) ، ولكنه يضع تاريخه سنة ٥٥٣ هـ ، ويقول لنا إنه كان ضمن الوفد الأندلسي ، الشاعرة الأندلسية الشهيرة حفصة بنت الحاج الركوني ، وأنها أنشدت الخليفة شعراً ، أعجب به ، وأنه منحها إقطاع قرية ركانة .

اتخاذ هذا القرار ، منها اضطراب الأمور في إفريقية واختلاف أمورها ، واستطالة العرب عليها ؛ وعيشتهم في أراضيها ، حتى أنهم حاصروا مدينة القيروان . وأهم من ذلك كله ما حدث من اعتداء الفرنج الصقليين على الثغور الإفريقية ، وافتتاحهم لمدينة المهدية (سنة ٥٤٣ هـ) ، وسيطرتهم على الشاطئ الإفريقي من طرابلس حتى مياه تونس . كل ذلك حمل عبد المؤمن على أن يضع خطته لافتتاح إفريقية^(١) . بيد أنه لم يسر في ذلك الاتجاه توأماً . بل سار إلى سبته متظاهراً بقصد الجواز إلى الأندلس برسم الجهاد . وهناك استدعى وجوه الأندلس وفتهاها وقوادها ، فوفدوا إليه ، فحدثهم في مسائلهم ، وألقى عليهم توصياته ثم صرفهم ، وغادر سبته متجهاً في الظاهر إلى طريق مراکش ، ولكنه سلك طريقاً أخرى غير مطروقة ، وأمر في نفس الوقت بمنع السفر في الطرق المسلوكة ، في المغرب الأوسط ، من سلا إلى مكناسة ، ومن مكناسة إلى فاس ومن تلمسان إلى فاس . ثم اتجه نحو الشرق ، مبالغاً في إخفاء وجهته ، وسار مسرعاً صوب بجاية . واستولى في طريقه على جزائر بني مزغنة (وهي التي صارت مدينة الجزائر فيما بعد) ، ففر منها عاملها القائم بن يحيى إلى بجاية ، ونبأ أباه يحيى بن العزيز بالله الصنهاجي ، سليل بني حماد ، بمقدم الموحدون . وكان بالجزائر في نفس الوقت ، الحسن بن علي الصنهاجي صاحب المهدية ، وابن عم صاحب بجاية ، وكان الفرنج الصقليون قد استولوا على المهدية في أوائل سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) حسماً تقدم ، فخرج منها ملتجئاً إلى ابن عمه يحيى ، فأنزله بالجزائر منزلاً سيئاً ، فلما دخلها الموحدون ، بادر إلى عبد المؤمن فبايعه ، وصحبه مستظلاً برعايته .

ومجدد بنا أن نذكر هنا كامة عن مدينة بجاية هذه ، وهي التي سوف يتردد ذكرها منذ الآن فصاعداً ، في مواطن ومناسبات تاريخية كثيرة . وكان إنشاؤها نتيجة لما حدث من الشقاق ، بين بني زيري أمراء إفريقية . وذلك أنه قام خلاف بين تميم بن المعز بن باديس أمير إفريقية ، وبين ابن عمه الناصر ابن علناس ، ففارقه الناصر ، وخرج في أصحابه ، ودله بعضهم على موضع بجاية ، وقد كان به منازل قليلة للبربر . وبين له مزاياه من المنعة . والمرسى الذي يمكن أن يغدو مركزاً هاماً لرسو السفن . وترويج التجارة ، فأمر باختطاط مدينة بهذا الموقع . وهو في حماية جبل شاهق ، وكان ذلك في حدود سنة

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ .

٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م)^(١) . وفي رواية أخرى أن بناء بجاية جاء نتيجة لتوغل العرب في إفريقية وعيَّشهم فيها ، وأنهم لما قاموا بتخريب القيروان ، ومعظم مدن إفريقية ، فر منهم صاحب القيروان ، وخرج لنصرته ابن عمه المنصور بن حماد ، فهزمه العرب هزيمة شديدة ، ففر إلى قاعدته بالقلعة ، ولكن العرب جدوا في أثره ، وطاردوه ، فبحث عن موضع يختط فيه لنفسه محلة جديدة ليلحقه فيها شر العرب ، فدلّه بعض أصحابه على موقع بجاية ، وكان مرسى قديماً ، فاخترتها فيه ، ونقل إليها مركز حكمه ، واتخذها دار ملكه^(٢) . ومن ذلك الحين سارت بجاية في طريق التقدم ، وغدت من أغنى وأزهر الثغور الإفريقية .

وكان بنو حماد هؤلاء أصحاب بجاية والقلعة ، وما يليها من ثغور المغرب الأوسط ، بونة وقسنطينة والجزائر ، هم فرع من بني زيري بن مناد ملوك إفريقية الصنهاجيين ، الذين بسطوا عليها سيادتهم مذ غادرها بنو عبيد الفاطميون إلى مصر ، في أواخر القرن الرابع الهجري ، وكانوا يستظلون في البداية بسلطان الخلافة الفاطمية ، ثم أعلنوا استقلالهم ، وضخّم ملكهم بإفريقية . وفي أوائل القرن الخامس خرج حماد بن يوسف بن زيري على ابن أخيه باديس بن المنصور ابن يوسف ، واستقل بالمناطق الغربية ، أعنى الزاب والمغرب الأوسط ، وكان والياً عليها من قبل ابن أخيه ، وأسس بها إمارة جديدة عرفت بمملكة بني حماد . ولما توفي حماد في سنة ٤١٩ هـ ، تعاقب بنوه من بعده في الملك ، وكان مركزهم في البداية بالقلعة ، وهي محلة في غاية المناعة والحصانة ، اخترتها منشئ دولتهم حماد في بقعة حصينة ، تقع جنوبي بجاية على مقربة من بلدة أشير ، وقد كانت وفقاً لقول الإدريسي من أكبر البلاد في تلك المنطقة وأكثرها خلقاً ، وأغزرها خيراً ، وأوسعها أموالاً ، وأحسنها قصوراً ومساجن ، وأعمها فواكه وخصباً ، وهي في سند جبل سامي العلو ، صعب الارتقاء ، وقد استدار سورها بجميع الجبل ، ويسمى تقربست . ويقول لنا ياقوت في وصفها ، من أجهة أخرى ، « وليس لهذه القلعة منظر ولا رواء حسن ، إنما اخترتها حماد للتحصن والامتناع »^(٣) .

(١) ياقوت في معجم البلدان تحت كلمة بجاية .

(٢) الاستبصار في عجائب الأمصار المنشور بعناية الدكتور سعد زغلول (الإسكندرية

١٩٥٨) ص ١٢٨ و ١٢٩ .

(٣) الإدريسي في وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٨٦ ، وراجع ياقوت

في معجم البلدان تحت كلمة « قلعة حماد » .

ثم انتقل بنو حماد ، بعد ذلك إلى بجاية منذ اختطها وأنشأها الناصر بن علناس بن حماد وذلك في سنة ٤٥٧ هـ ، وجعلوها قاعدة ملكهم . وكانت مملكة بني حماد ، حينما زحف الموحدون على بجاية في حالة اضطراب وتفكك ، وكان ملكها يحيى ابن العزيز بالله أميراً ضعيفاً يعشق اللهو والصيد . وكان وزيره القائد أبو محمد ميمون بن علي بن حمدون هو حاكمها الحقيقي ، فلما وصل الموحدون إلى بجاية ضربوا حولها الحصار . واتصل ابن حمدون سرّاً بعبد المؤمن ، وفتح له أبواب المدينة ، فدخلها الموحدون^(١) . وفي الوثائق الموحدية ما يؤيد هذه الرواية . ففي الرسالة ، التي وجهها عبد المؤمن بعد فتح بجاية إلى أهالي قسنطينة يدعوهم إلى التوحيد ، ما يفيد بأن القائد ابن حمدون كان ضالماً في السر مع الموحدين ، وأنه عقب فتح بجاية انضم إليهم ، وخدمهم هو وأخوه الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي بن حمدون^(٢) . بيد أن هناك رواية أخرى تقول إن ابن حمدون بالعكس خرج في قوات بجاية ، وهي تزيد على العشرين ألف فارس ، واشتبك في ظاهرها مع الموحدين في معركة هزم فيها ، ودخل الموحدون المدينة على أثرها^(٣) . وزحفت في نفس الوقت قوة موحدية بقيادة عبد الله ولد الخليفة عبد المؤمن ، على القلعة — قلعة بني حماد الشهيرة — وقد كانت من أعظم وأمنع قلاع المغرب ، وكانت معقل بني حماد الأعظم ، ومهد ملكهم الأول ، فاستولت عليها ، وقتلت بها عدة ألوف من الصنهاجيين . ولما دخل الموحدون بجاية فر عنها صاحبها يحيى بن العزيز بالله إلى بونة ، وفر أخواه الحارث وعبد الله إلى صقلية حيث استظل بجاية الفرنج . ثم سار يحيى من بونة إلى قسنطينة ، فامتنع بها مع أهله وقرابته ، وهناك حاصره الموحدون ، فلما ضاق بالحصار ذرعاً ، أرسل أخاه وشيوخ صنهاجة وقسنطينة ، إلى عبد المؤمن يعلنون خضوعه ، وإذعانه إلى التسليم ويطلبون الأمان فأجابهم عبد المؤمن إلى ما طلبوه . ولما غادر عبد المؤمن بجاية سار معه يحيى في أهله وولده إلى مراكش ، وهناك عاش في كنف الخليفة في عزة وسعة من الرزق ، ولبثوا بمراكش حتى انقرض بيتهم . وكان استيلاء

(١) روض القرطاس ص ١٢٦ .

(٢) راجع رسائل موحدية ، المنشور بعناية الأستاذ لبني بروثنسال (الرباط سنة ١٩٤١) الرسالة السابعة ص ٢٠ .

(٣) ابن الأثير ح ١١ ص ٥٩ .

الموحدين على بجاية في شهر ذى القعدة سنة ٥٤٧ هـ (يناير سنة ١١٥٣ م) (١). وكانت بجاية في ذلك الوقت ، حسبما يصفها لنا الإدريسي ، الذي زارها قبل ذلك بنحو عشرين عاما ، قاعدة المغرب الأوسط ، ومينائها عامرة بالسفن الواردة والصادرة ، والبضائع تتدفق إليها برأ وبحراً ، وأهلها تجار مياسير ، وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد ، ولأهلها معاملات مع تجار المغرب الأقصى ، وتجار الصحراء ، وتجار المشرق ، وبها تحمل الشدود وتباع البضائع بالأموال الوفيرة ، ولها بواد ومزارع ، والحنطة والشعير يوجدان بها بكثرة ، وكذلك سائر الفواكه ، وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن الحربية ، عندها الخشب الكثير الموجود في جبالها وأوديتها ، والزفت البالغ الجودة والقطران الموجود في أقاليمها ، وبها أيضاً معدن الحديد الطيب ، وهي مركز هام للمواصلات إلى بلاد إفريقية . وهذا كله فضلاً عن حصانتها الطبيعية ، سواء من ناحية البر أو البحر (٢) .

وكانت جموع من العرب من بطون أثبج وزغبة ورياح وغيرها ، تحتل المنطقة الشاسعة ، الواقعة جنوبي بجاية ، وتعيش في ظل بني حماد ، وتحت حمايتهم . فلما استولى الموحدون على مملكة بني حماد ، شعر أولئك العرب بما يهددهم من فقد أوطانهم وأرزاقهم ، فاحتشدوا لمقاومة الموحدين ، وأخذوا يغفرون على مؤخراتهم ، ويزعجون محلاتهم ، فاعترزم عبد المؤمن أن يظهر هذه المناطق من عيئهم ، وسار في قواته إلى سطيف ، وجهاز لقتالهم حملتين ، الأولى بقيادة صهره وزوج ابنته عبد الله بن وانودين ، والثانية بقيادة بصلاسن بن المعز ، ولكن ثار بين القائدين خلاف ، تعدى فيه بصلاسن على زميله صهر الخليفة وأهانته . ثم تركه وحده في مواجهة العرب . فانتهاز العرب هذه الفرصة وهاجموا قوات عبد الله بن وانودين وهزموه وأسروه ثم قتلوه . فاستشاط عبد المؤمن لذلك غضباً ، وحشد كافة الموحدين لمقاتلة العرب . فلما شعر العرب بشدة وطأة الموحدين ، افترقت كلمتهم ، وأذعن بعض زعمائهم إلى التوحيد ، وشدد عبد المؤمن

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١١٣ و ١١٤ ، والخلل الموسية ص ١١٢ و ١١٣ ، وروض القرطاس ص ١٢٨ و ١٢٩ ، والمعجب ص ١١٣ و ١١٤ . وراجع الرسالة الثامنة من رسائل موحدية ص ٢٤ و ٢٥ ، وكذلك المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص ١١١ .

(٢) الإدريسي في وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٩٠ و ٩١ .

في قتال من تبقى منهم ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، دامت يوما وليلة ، وهزم العرب في نهايتها شر هزيمة ، ومزقت جموعهم ، وقتل وأسر منهم عدد جَم . وكان في مقدمة القتلى ألع زعمائهم هلال بن عامر . واستولى الموحدون على غنائمهم من العتاد والدواب ، وكانت وفيرة هائلة . ثم طاردوهم مدى ثلاثة أيام أو أربعة في مختلف الأنحاء ، حتى قضوا على معظم فلولهم . وحدثت هذه الموقعة الحاسمة في شهر ربيع الأول سنة ٥٤٨ هـ (يونيه ١١٥٣ م) ^(١) .

وبينما كان عبد المؤمن في بجاية ، إذ اجتمعت حشود غفيرة من صنهاجة يقودها زعيم يدعى أبو قصبة من بني زالدوى ، وانضمت إليها كذلك جموع كثيرة من كتامة ولواتة وغيرهما ، وسارت هذه الجموع لقتال الموحدين ، فبعث عبد المؤمن لردهم حملة قوية بقيادة أبي سعيد يخلف ، وهو من أصحاب خمسين ، فالتقوا في عرض الحبل شرق بجاية ، فانهزمت صنهاجة وحلفاؤها ، وقتل معظمهم ، وأخذت أسلابهم ونساؤهم ^(٢) . ويقول لنا البيذق إن الذي قام بمداغة صنهاجة هو عبد المؤمن نفسه ، وقد كان في قلة من جنده وحشمه ، ولكنه خرج ليردهم بنفسه ، واشترك في قتالهم ، مع أنه لم يمتشق السيف منذ موقعة البحيرة عام ٥٢٤ هـ ^(٣) .

وغادر عبد المؤمن بجاية ، بعد أن نظم شئونها ، وندب لولايتها ولده أبا محمد عبد الله ، وسار في جيشه الظافر ، أولا إلى تلمسان ، ثم سار إلى فاس ، ومكناسة ، ثم إلى سلا ، ووزع الغنائم والسبي على هذه البلاد . ثم غادر سلا إلى مراکش ، وفي ركبه عدة من زعماء العرب — أو سلاطينهم حسبما يصفهم البيذق — الذين خضعوا في تلك الحركة . ولما وصلوا إلى مراکش ، زودهم بالأموال ورد إليهم نساءهم وأولادهم ، وصرفهم إلى بلادهم .

وصل عبد المؤمن إلى مراکش ليواجه آثار مؤامرة دبرت في غيبته ، وكادت أن تصدع صرح حكومته ، لو لم تخمد في مهدها .

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١١٤ و ١١٥ ، رسائل موحدية ، في الرسالة التاسعة ص ٣٢ - ٣٥ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٦٠ .

(٣) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١١٥ .

وكان بطلا هذه المؤامرة أخوا المهدي ابن تومرت ، أبو موسى عيسى ، وأبو محمد عبد العزيز ، وكانا مذ ظفر عبد المؤمن بخلافة المهدي واجتناء ترائه ، يرقبان الفرص لبث الاضطراب والشغب ، ويظاهرها كثير من أهل هرغة ، قبيلة المهدي ، وكان عبد المؤمن بالرغم من وقوفه على ما يضمه الأخوان له من البغض والكيد ، وما جنح إليه من الانحراف ، ومخالطة أهل السوء ، يغضى عن سلوكهما ، ويجزل لهما الصلات والنفقة ، برأ بذكرى المهدي وقراتهما الوثيقة له ، ويكتفى بإسداء النصيح اليهما . فلما سار المهدي إلى غزاته لافتتاح إفريقيا ، شعر الأخوان بأن الفرصة قد سنحت لتدبير الانقلاب المنشود ، وكانا يقيمان بفاس ، ويانتف حولهما نفر من الناقمين . فسارا في صحبهما من فاس إلى مراكش ، وهنالك استطاعا تحريك بعض الجموع ، واضطرت بالمدينة فتنة ، قتل خلالها وإلى المدينة عمر بن تفرّاجين حين خروجه في الفجر إلى الجامع ، وكاد يستطير شررها . وعلم عبد المؤمن بما حدث وهو في سلا (أواخر سنة ٥٤٥هـ) ، فبعث الوزير ابن عطية على عجل ليستدرك الأمر ، فوصل إلى مراكش بعد يومين ، واستطاع في الحال أن يخمّد الفتنة ، وأن يقبض على زعيمها عيسى وعبد العزيز . ويقول لنا البيدق إن الخليفة ، أمر بقتل المخالفين من هرغة وأهل تينملل ، ولكنه أبقى على حياة أخوى المهدي وبعثهما إلى فاس حيث اعتقلا هناك تحت إشراف واليها الحيّاتي^(١) . ولكن صاحب البيان المغرب يقول لنا إنهما قتلا وصلبا ضمن من قتلوا وصلبوا من الخوارج ، فقتل عيسى قرب باب الدباغين ، وقتل عبد العزيز بباب أغمات^(٢) . ويؤيد هذه الرواية ما ورد في خطاب الخليفة الرسمي عن الحادث من الإشارة غير مرة إلى مصرع المخالفين ، وقتل العامة بهم وصلبهم خارج المدينة^(٣) .

وما كاد عبد المؤمن يصل إلى مراكش حتى قام بحركة تطهير شاملة ، قبض خلالها على كثير من الخوارج وأهل التخليط ، حسبما تصفهم الرواية ، من سائر القبائل ، وألقوا إلى ظلام السجن . ثم أصدر الخليفة أمره بأن يتولى الموحدون المخلصون ، من كل قبيلة ، قتل المارقين من قبيلتهم بأنفسهم . فامتثل الموحدون

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١١٦ .

(٢) البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٣٨ .

(٣) الرسالة الحادية عشرة من رسائل موحدية (ص ٣٢ و ٤٥ و ٤٦) .

لما أمروا به ، وتولوا الإجهاز بأيديهم ، كل جماعة على أبناء قبيلتها ، وكان الخليفة أثناء هذه المذبحة الحديدية ، يجلس في البرج القائم في أعلى قصره ، قصر الحجر ، ليشهد التنفيذ بنفسه . ويقول المؤرخ معلقاً على ذلك « فطرت للموحدين في هذا الوقت وحشة من الحجل والوجل ، ودهشة من قبيح ما ظهر من الغادرين المذكورين ، من نكوث العهد ، في السهل والجبل ، فتراموا على خليفتهم راغبين في العفو وإزالة الكدر ، وجلب ما تعودوه من الخلوص والظفر ، فقبل منهم ما أملوا ، وتعطف عليهم على عادته بما سألوا » . وبعث الخليفة بهذه المناسبة ، إلى مختلف البلدان ، رسالة من إنشاء الوزير ابن عطية ، تفيض بلاغة وبياناً ، يفصل فيها ما حدث ، ويوضح موقفه ويلتمس الأعذار لتبريره^(١) .

وكان من الحوادث البارزة في هذه الحركة الدموية مصرع القائد يصلاسن ، ابن المعز الهرغي . وكان يصلاسن أو يصلتين حسبما يسمى في رواية أخرى من زعماء قبيلة هرغة ، ومن أهل الدار ، أعنى من أقرباء المهدي^(٢) . وقد رأينا فيما تقدم كيف اختلف مع إميلة القائد عبد الله بن وانودين صهر الخليفة ، وتركه في قواته ليواجه وحده العرب ، وكيف كان ذلك سبباً في هزيمته ومصرعه . وكان عبد المؤمن يتوق إلى معاقبة يصلاسن على سوء تصرفه . ومن جهة أخرى ، فإنه يبدو أن يصلاسن كان ضالماً مع خصوم عبد المؤمن ، ومؤيداً لحركة أخوى المهدي . فلما عاد عبد المؤمن إلى مراکش ، كان يصلاسن في سبته ، فأرسل الخليفة إلى واليها عبد الله بن سليمان بأن يدبر حيلة للقبض على يصلاسن وإرساله ، فدعا عبد الله يصلاسن إلى نزهة بحرية في إحدى السفن ، في مياه سبتة ، فلما توسط البحر ، انقض عليه وكبله بالحديد ، ونبا عبد المؤمن بما تم ، فأمره بإعدام يصلاسن وصلبه بعد الإشهاد عليه بالذنب ، فقام عبد الله بما أمر به^(٣) . وفي رواية روض القرطاس ، أن عبد الله أرسل يصلاسن مكبولاً إلى مراکش ، وأنه أعدم بها وصلب على بابها تنفيذاً لأمر الخليفة^(٤) .

واضطربت الثورة في نفس الوقت بأرض السوس ، وارتدت قبيلة جزولة

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٨ و ٢٩ .

(٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ٢٩ .

(٣) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١١٥ و ١١٦ .

(٤) روض القرطاس ص ١٢٦ .

عن الطاعة ، وبعثوا إلى يحيى بن أبي بكر الصحرأوى ، فوفد إليهم مع زعيم آخر من خصوم الموحدين يدعى الحاج بن مركونة ، وارتدت كذلك قبيلة لمطة وتزعم ثورتها محمد بن آمرجال ، ثم ارتدت قبيلة إيت ييغز ، وساروا إلى تازاجورت واقتحموها ، وقتلوا حاكمها الموحدي ، وأما زير بن حواء الهنتاني ، فهاجم عبد المؤمن لهذه الحوادث ، وسير الشيخ أبا حفص في حملة قوية لإخماد الثورة ، فخرج إلى السوس ، وقاتل بني ييغز ، ففروا إلى حيث كان الصحرأوى ، ثم سار إلى سيروان ، حيث هزم بني واوزجيت ، وقسمهم إلى قسمين ، قسم ضمه إلى أهل تينملل وقسم ضمه إلى هنتانة ، ثم عاد إلى مراکش حيث أمر الخليفة بحشد قوات جديدة ، وخرجت هذه القوات بقيادة أبي حفص ، وأربعة آخرين من أكابر القادة الموحدين ، هم وسنار ، وعبد الله بن أبي بكر بن ونكى ، وعبد الله بن فاطمة ، وعمر بن ميمون ، وسارت كل قوة منها إلى منطقة من المناطق الثائرة ، وهوجمت قبائل لمطة ، وهشتوكة ، وتاسريرت وآهوكار وغيرها من القبائل الثائرة ، وهزمت جميعاً ، وأذعن بعضها إلى التوحيد ، وأخذت غنائمها وسبها إلى مراکش ، وبلغ نصيب الخليفة من تلك الغنائم ، ثمانمائة ناقة^(١) ، ووقعت هذه الحوادث ، فيما يرجح في أوائل سنة ٥٤٩ هـ (سنة ١١٥٤ م) .

ولما تم إخضاع القبائل الثائرة والمرتدة على هذا النحو ، غادر عبد المؤمن مراکش إلى تينملل ، وهناك زار قبر المهدي ، وفرق في أهلها أموالاً كثيرة وأمر ببناء مسجد لها ، وتوسيع خططها^(٢) .

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١١٧ .

(٢) روض القرطاس ص ١٢٦ .

الفصل السابع

فتح المهديّة

ولجاء الفرنج عن إفريقية

غزوات الفرنج النورمانيين لثغور إفريقية . استيلاؤهم على طرابلس والمهديّة . فرار الحسن الصنهاجي أمير المهديّة وآله . انتهاء مملكة بني زيري . استيلاء الفرنج على سوسة وصفاقس . التجاء الحسن إلى عبد المؤمن . إحجام عبد المؤمن حين غزوه لبجاية عن مهاجمة الفرنج . استيلاء الفرنج على بونة . وفاة الملك رجارالنورمانى . بداية الثورة في إفريقية ضد الفرنج . الثورة في جزيرة جربة وصفاقس وطرابلس وقابس . انتزاع الموحدون لبونة . فشل الثورة في المهديّة وزويلة . استغاثة أهل إفريقية بعبد المؤمن . تأهبه للجهاد ضد الفرنج . مسير عبد المؤمن في قواته إلى رباط الفتح . تكامل الحشود وتضخمها . مسير عبد المؤمن إلى إفريقية ومعه الحسن الصنهاجي . مسير الأسطول في البحر إلى شاطئ إفريقية . استيلاء عبد المؤمن على تونس . شروط الأمان الممنوح لها . عبد المؤمن يهاجم المهديّة ثم يحاصرها . دخول صفاقس وطرابلس وجبال نفوسة في الطاعة . افتتاح الموحدون لقابس . معركة بحرية بين الموحدون والفرنج . تسليم المهديّة بالأمان . إتمام تحرير إفريقية من غير الفرنج . المناوشات بين عبد المؤمن وبين العرب . أصل أولئك العرب الأفارقة . نزوحهم إلى مصر . قصة نزوحهم إلى إفريقية . عبورهم إلى الغرب ونزولهم به . محاولة استمالة المعز بن باديس لهم وعيشهم بأراضيه . الحرب بينهم وبين البربر . هزيمة المعز وفراره إلى القيروان . حصار العرب للقيروان . دخولهم إليها وتخريبهم لها . تخريبهم لتونس ونهبها . نزولهم في المهديّة . قطعهم السبل وبسطهم لحكم الإرهاب في إفريقية . سيطرتهم على طرابلس وقابس وبلاد الزاب . تحولهم إلى عنصر خطر يفيض . اعتداؤهم على قابس ، واستنقاذ عبد المؤمن لها . تفكير عبد المؤمن في حشد طوائفهم في عسكره . تظاهروهم بالقبول وغدرهم . محاصرة الموحدون لهم وفتحهم بهم . عبد المؤمن يرد حريمهم ويستميلهم بصلاته . عبور عبد المؤمن إلى الأندلس .

لما افتتح الموحدون بجاية معقل إفريقية^(١) من الغرب ، في أواخر سنة ٥٤٧ هـ ، وقضى عبد المؤمن على سائر الثورات والمؤامرات التي دبرت ضده سنة ٥٤٩ هـ ، وقصد على أثر ذلك إلى تينملل ، وزار قبر المهدي ، كانت الظروف تنهياً لمرحلة جديدة من الفتح الإفريقي . وكانت الحوادث في إفريقية ، قد تطورت خلال هذه الأعوام الأخيرة تطوراً سيئاً ، واستفحل عدوان الفرنج النورمانيين أصحاب صقلية ، على الثغور التونسية ، والشواطئ المخاورة . وكان الفرنج

(١) يقصد بإفريقية هنا « سطة تونس » .

النورمان قد استولوا على جزيرة جربة الواقعة في مدخل خليج قابس منذ سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٥ م) ، بعد أن قاومهم أهلها مقاومة عنيفة ، ثم حاولوا الاستيلاء على ثغر طرابلس في سنة ٥٣٧ هـ (١١٤٢ م) . فهاجموه بأسطول قوي ، ولكنهم فشلوا وردهم أهل المسلمون بخسارة فادحة ، وكانت طرابلس وقتئذ تابعة لمملكة إفريقية (تونس) ، ولكنها لم تكن تدين بالطاعة للملكها الأمير الحسن بن علي بن يحيى الصنهاجي . ثم عاد رُجَّار (روجر) ملك صقلية ، فجهز إلى طرابلس أسطولاً ضخماً ، واستطاع الفرنج هذه المرة الاستيلاء عليها (٥٤١ هـ - ١١٤٦ م) وولوا عليها رجلاً من بني مطروح . وفي العام التالي (٥٤٢ هـ) أعلن يوسف صاحب قابس المتغلب عليها طاعته للفرنج ، فبعث الأمير الحسن جيشاً لقتاله ، فنازل قابس وحاصرها ، وثار أهل البلد بيوسف ، فأسر وعذب وقتل ، وفر إخوته وأولاده إلى صقلية ، واستغاثوا بملكها رجار الثاني . وكانت الهدنة معقودة بين رجار وبين الحسن لمدة سنتين ، ولكن رجار علم ما تعانيه إفريقية والمغرب في هذه الفترة ، من الشدة الغلاء والقحط ، ولم يرد أن تفوته هذه الفرصة السانحة لمهاجمة إفريقية ، وانزعج ما يمكن انتزاعه منها . فسير إلى مياه إفريقية أسطولاً ضخماً قوامه مائتي وخمسين سفينة مشحونة بالرجال والسلاح والأقوات ، بقيادة أمير البحر جرجي الأنطاكي ، وكان قبل التحاقه بخدمة ملك صقلية ، أميراً لأسطول إفريقية الإسلامي ، ومن ثم كان علمه بأسرار هذه الشواطئ . واستولى الأسطول في طريقه على جزيرة قوصرة (بنتلاريا) الواقعة بين صقلية ، وبين الشاطئ التونسي ، ثم سار نحو الجنوب الغربي ، وقصد إلى ثغر المهديّة ، وهي قاعدة مملكة بني زيري الصنهاجين . وكان ذلك في اليوم الثاني من صفر سنة ٥٤٣ هـ (يونيه ١١٤٨ م) . وكان أمير البحر جرجي يرجو مفاجأة المدينة ، بالوصول إليها في وقت السحر ، ولكن الرياح عاكسته ، ولم يصل إلا في الضحى ، فرآه أهل المدينة ، وانزعج الأمير الحسن الصنهاجي من قدوم الفرنج ، وبعث إليه جرجي يخاطبه باللين ، ويقول إنه مازال يحترم الهدنة المعقودة بينه وبين الملك رجار ، ولكنه يطالب بثأر ضاحك قابس وردّها إلى ولده ، ويطلب أن تنضم إليه قوة من جند الحسن ، فجمع الحسن فقهاء المدينة وأعيانها ، وشاورهم في الأمر ، وبين لهم حرج الموقف ، وتخوفه من قيام الفرنج بحصار المدينة ، وقطع الأقوات عنها ، ثم اقتحامها عنوة ، والفتك بأهلها ، ونصح بمغادرة الناس

للمدينة ، قبل أن يفوت الوقت ، ثم بادر هو بالخروج منها ومعه الأهل والولد ، ومن صحبه من الفقهاء والأعيان ، وقد حمل معه كل ما استطاع من المال والذخائر ، وتبعه معظم الناس ، فخرجوا بأهلهم وأولادهم ، ومعهم ماخف حمله من أموالهم ومتاعهم . ولم يكد يأتى العصر حتى كان معظم أهل المهدية قد غادروها ، وأقبل الفرنج وعلى رأسهم جرجى ودخلوا المدينة دون ممانعة ، ودخل جرجى القصر ، وكان ما يزال غاصاً بنفيس المتاع والرياش والذخائر ، وبه عدة من جواري الحسن ، فاحتاط الفرنج على ما فيه ، ونهبت المدينة مدى ساعتين ، ثم نودى بالأمان ، فظهر من استخفى من أهل المدينة ، واستدعى جرجى العرب القريبين فأحسن إليهم ، وفرق فيهم أموالاً جزيلة ، وبعث طائفة من جند المهدية ، فى أثر من خرج من أهلها ، ومعهم الأمان لهم ، ومعهم كذلك دواب يعودون عليها ، فعاد معظمهم . أما الحسن ، فسار فى أهله وولده ، وكانوا اثنا عشر ولدأ غير الإناث ، والخاصة ، وقصد إلى أمير من أمراء العرب يدعى محرز ، وكان أبو الحسن قد آثره وأحسن إليه ، فأكرم محرز وفادته ، فأقام لديه شهوراً . ثم بعث إلى ابن عمه يحيى بن العزيز بالله صاحب بجاية ، يستأذنه فى الوفود عليه والانضواء تحت لوائه ، والسفر من لديه إلى الخليفة عبد المؤمن ، فأذن له يحيى ، ولكنه ما كاد يصل إلى بلاده ، حتى سيره إلى جزائر بنى مزغنة ، أو بنى مزغنان (وهى الجزائر الحالية) وأنزله بها هو وأولاده فى حالة اعتقال ، وضيق عليه . وهكذا انتهت باستيلاء الفرنج على المهدية ، وعزل الحسن ، مملكة بنى زيرى ابن مناد الصنهاجيين ، بعد أن لبث فى إفريقية منذ رحل المعز لدين الله عنها إلى مصر ، فى سنة ٥٣٦١ هـ ، وتولى زيرى بن مناد حكمها ، حتى سقطت المهدية فى سنة ٥٥٤٣ هـ ، مائة وثمانين سنة ، ولم تمض أيام قلائل على استيلاء الفرنج على المهدية حتى سير أمير البحر جرجى حملة بحرية إلى سوسة ، وكان واليها الأمير على بن الحسن ، فغادرها ، وخرج عنها أهلها ، ودخلها الفرنج دون قتال فى الثانى عشر من شهر صفر . وسر جرجى بعد ذلك حملة أخرى إلى صفاقس ، فاستولت عليها بعد مقاومة عنيفة من أهلها ومن حلفائهم العرب ، وذلك فى الثالث والعشرين من صفر . ثم نودى بالأمان ، فعاد الناس إلى سوسة وصفاقس ، وافقدوا حرمهم وأولادهم ، وأحسن الفرنج معاملتهم . ثم وصلت بعد ذلك كتب الملك رُجَّار بمنح الأمان لسائر أهل إفريقية . وهكذا استولى الفرنج النورمانيون على شاطئ

إفريقية من ثغر طرابلس حتى خليج تونس (١) .

ولما سار الخليفة عبد المؤمن في جيوشه من سلا في أوائل سنة ٥٤٦ هـ ، متجهاً إلى بجاية بغية فتحها ، واستولى في طريقه على جزائر بني مزغنة ، خرج إليه منها الحسن بن علي الصنهاجي ، وكان معتقلاً بها كما تقدم ، وبايع عبد المؤمن بالطاعة ، ملتجئاً إليه ومستظلاً برعايته ، فأكرم عبد المؤمن مثواه ، وصاهره بأن تزوج ابنة من بناته ، واصطحبه معه إلى مراکش . وبالرغم من تقدم الفرنج والنورمانيين على هذا النحو ، في امتلاك ثغور إفريقية ، فإن الظروف التي كانت تحيط بالموحدين يومئذ ، لم تكن تسمح لعبد المؤمن ، بأن يدخل في صراع مع الفرنج ، وهو مازال يعمل على توطيد أركان الدولة الجديدة ، ومطاردة أعدائها في الداخل ، ومن ثم فإنه بعد أن افتتح بجاية ، وقضى على شغب العرب المخالفين لبني حماد ، عاد إلى سلا ثم إلى مراکش ، ليواجه أحداثاً جديدة في الداخل . ولكن الفرنج الصقليين لم يقفوا عند حد . ذلك أنه لم تمض بضعة أعوام على افتتاحهم للمهدية ، وباقى ثغور إفريقية (تونس) الشرقية ، حتى سار من صقلية أسطول فرنجي جديد بقيادة أمير البحر فيليب المهدوي ، وقصد إلى مدينة بونة ، الواقعة شرقي بجاية ، في منتصف المسافة بينها وبين تونس ، فحاصرها واستعان على أخذها بالعرب ، وذلك في شهر رجب سنة ٥٤٨ هـ (أكتوبر ١١٥٣ م) . وبالرغم من أن فيليب قد سبى أهل بونة ، واستصنى أموالها ، فإنه أغضى عن جماعة الفقهاء والعلماء ، فتركهم يخرجون بأهلهم وأموالهم ، فترتب على ذلك أن اتهمه بعض خصومه بأنه نصراني مارق ، وأنه يبطن الإسلام هو وفتيانه ، فقبض عليه الملك رُجار ، وحكم عليه بالموت حرقاً . وتوفي رُجار بعد ذلك بقليل (فبراير ١١٥٤ م) وخلفه في الملك ولده ، ولیم ، وهو المسمى في الرواية العربية غليلم . ولم يكن ولیم يتمتع بكثير من مقدرة أبيه وحزمه ، فلم تلبث أن اضطربت شئون المملكة ، واثارت عليه بعض النواحي ، وكان لذلك أثره في تطور الحوادث في إفريقية .

ذلك أن أهل الثغور الإسلامية المفتوحة ماكدوا يشعرون باضطراب الأحوال في صقلية ، حتى بادروا بإعلان الخلاف ، ونبذ طاعة الفرنج ، وكان أول من ثار منهم أهل جزيرة جربة ، ثم تلتها مدينة صفاقس ، وكان واليها عمر بن

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٤٧ - ٤٩ .

أبي الحسن الفرياني ، قد وُلِّيَ عليها من قبل رُجار ، وأخذ أبوه الشيخ أبو الحسن إلى صقلية رهينة بحسن طاعته ، ولكن أبا الحسن أوعز إلى ولده بأن ينتهر أول فرصة لتحطيم نير الفرنج ، ولا يزال في ذلك بمصيره . فأعلن عمر الخلاف ، ودعا أهل المدينة إلى قتل الفرنج وسائر النصارى ، ففتكوا بهم ، وقتلوه عن آخرهم ، وكان ذلك في أوائل سنة ٥٥١ هـ (أوائل ١١٥٦ م) . واضطربت الثورة ضد الفرنج في نفس الوقت في طرابلس بقيادة شيخها أبي يحيى بن مطروح ، وكان زعيماً شهماً حازماً ، وأسرت الحامية النصرانية (أوائل ٥٥٣ هـ) ، وكذلك اضطربت الثورة ضد الفرنج ، في قابس ، وسارت قوة موحدة من بجاية إلى مدينة بونة ، وانزعجتا من الفرنج ، ولم يبق بيد الفرنج من ثغور إفريقية سوى سوسة والمهدية . وحرص عمر بن أبي الحسين والى صفاقس ، أهل بلدة زويلة الواقعة على مقربة من المهدية ، أن يقتلوا النصارى ففعلوا ، وعاونهم العرب على قطع المؤن والأقوات عن المهدية . ولما علم الملك ولم بذلك ، حاول أن يدفع الفقيه أبي الحسن إلى نصح ولده ، وبعث يتهدد عمرًا بالويل ، إذا لم يعدل عن سلوكه ، فلم تنجح المحاولة ، وأمر ولیم بأبي الحسن فصلب أو شق وهو يتلو القرآن^(١) . واجتمع أهل زويلة وصفاقس ومن معهم من الأعراب ، وحاصروا المهدية ، وضيقوا عليها ، فبعث ولیم إلى المهدية عدداً من السفن المشحونة بالرجال والأقوات ، واستمال الفرنج الأعراب بالمال والأعطية ، فانسحبوا من المعركة وانحصر القتال بين الفرنج وأهل صفاقس وزويلة ، واستطاع أهل صفاقس الانسحاب بطريق البحر ، ووقع عبء القتال كله على أهل زويلة ، فارتدوا إلى بلدهم ، وقتلوا تحت أسوارها حتى فنى معظمهم ، ولم ينج منهم إلا القليل ، ودخل الفرنج زويلة فقتلوا من وجدوا بها من النساء والأطفال ، ونهبوا الأموال ، واستقر الفرنج بالمهدية ، على أهبة للصراع المرتقب^(٢) .

ووفد على عبد المؤمن ، وهو يومئذ بمراكش ، وفود من زويلة ، وغيرها من الثغور المنكوبة يستغيثون به ، ويستصرخونه لرد عادية الفرنج عنهم وعن أرض الإسلام ، فأكرم وفادتهم ووعدهم خيراً . وكان الحسن بن علي الصنهاجى أمير المهدية السابق ، ما فتئ منذ نزوله في كنف عبد المؤمن ، يحرصه

(١) رحلة التجاني (تونس ١٩٥٨) ص ٧٥ و ٢٤٢ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٧٦ و ٧٧ .

على استنقاذ إفريقية ، وتحريرها من نير الفرنج ، وكان عبد المؤمن نفسه ، يرقب تقدم الفرنج في هذا الركن من شمال إفريقية ، بكثير من التوجس ، ويخشى أن يتفاقم عدوانهم بالتوغل في أرجاء أخرى من شمال المغرب . ومن ثم فإنه ما كاد ينتهي من تنظيم الشئون الداخلية ، حتى أمر باتخاذ الأبهة للجهاد ، وأن تجمع الأقوات ، ، وتحفر الآبار في الطرق ، وبعث كاتبه عبد الملك بن عيَّاش ، بالكتب إلى سائر قبائل الموحدين ، يستنفرهم للجهاد ، وادخار المؤن ، وكتب إلى أهل الثغور البحرية بإنشاء السفن والأجفان . وكان عبد المؤمن ، بعد أن نكب وزيره وكاتبه أبا جعفر بن عطية ، وأمر بقتله (صفر سنة ٥٥٣ هـ) حسبما نفصل في موضعه ، قد استوزر مكانه عبد السلام بن محمد الكومي ، وعين لكتابته عبد الملك بن عيَّاش القرطبي . وفي فاتحة شوال سنة ٥٥٣ هـ (نوفمبر ١١٥٨ م) ، غادر عبد المؤمن حضرة مراكش ، وسار إلى رباط الفتح ، قبالة ثغر سلا ، مستخلفاً على مراكش الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاني ومعه ولده أبو الحسن على ، وعلى فاس أبا يعقوب يوسف بن سليمان . وتوافدت عليه العساكر من كل صوب . فلما تكامل ورود الجيوش الموحدية ، تحرك عبد المؤمن من سلا في العاشر من شهر صفر سنة ٥٥٤ هـ (فبراير ١١٥٩ م) ومعه الحسن بن علي الصنهاجي أمير إفريقية السابق^(١) . وتقدر الرواية هذا الجيش الموحدى الكبير بمائة ألف مقاتل ومعهم مثل هذا العدد من الأتباع والسوقة^(٢) . وفي رواية أخرى أنه كان يضم خمسة وسبعين ألف فارس ، وخمسمائة ألف من الرجال ، وكان يضم عدا طوائف الموحدين ومختلف القبائل من زناتة والأغزاز والرماة وغيرها ، جموعاً كبيراً من قبائل العرب . وكان ينقسم إلى أربعة جيوش ، لكل عسكر يوم يختص به ، مسيره في كل مرحلة من السحر إلى وقت الغداة . وتنزل الجيوش مريحة إلى يوم آخر^(٣) . واخترق هذا الجيش الجرار هضاب المغرب ، متجهاً نحو إفريقية ، واخترق بلاد الزاب من جنوبها ، وهو يفتح المعازل الممتعة ، ويؤمن من استأمن . ثم اتجه نحو الشمال فوصل إلى أحواز مدينة تونس في الرابع والعشرين من جمادى الثانية ، ومعنى ذلك أنه قطع هذه المسافة الشاسعة ، وهى تبلغ نحو ألف

(١) البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٣٨ ، وابن الأثير ج ١١ ص ٩١ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٩١ .

(٣) الحلل الموشية ص ١١٥

وثلاثمائة ميل في نحو أربعة أشهر ونصف ، وقد كانت يومئذ « مسيرة سبعين يوماً للفارس المجتهد » . وسار الأسطول الموحدى في نفس الوقت قبالة شاطئ البحر المتوسط بقيادة أبى عبد الله بن ميمون ، وكان مكوناً من سبعين سفينة حربية ، من الشوانى والطرائد والشلندرات . ولما وصل الموحدون إلى المدينة ، بعث عبد المؤمن إلى أهلها يطلب الطاعة ، فرفض أهل المدينة ، وعلى رأسهم حاكمها أحمد بن خراسان ، فبدأ الموحدون مهاجمة المدينة ، وعاقبت الرياح الأسطول عن دخولها من ناحية البحر ، فلما دخل الليل ، أقبل سبعة عشر رجلاً من أعيانها يطلبون الأمان لأهلها ، فمنحهم عبد المؤمن الأمان المطلوب لأنفسهم ، وارتضى الأمان لأهل المدينة في أنفسهم وأهلهم فقط ، على أن يقاسمهم الموحدون أملاكهم وأموالهم بحق النصف ، وأن يخرج حاكم البلد وأهله منها ، فاستقر رأى على ذلك ، ودخل الموحدون المدينة ، ورصدت الأملاك والأموال ، وأقيم عليها الأمناء لتحصيل ما يستحق منها للموحدين ، وأقام بها عبد المؤمن ثلاثة أيام ، وعرض الإسلام على من بها من النصارى واليهود ، وأمر بقتل كل ممنوع عن اعتناقه ، ثم غادر عبد المؤمن تونس في قواته ، وسار جنوباً إلى المهديّة ، والأسطول يلاحقه في البحر ، فوصل إليها في الثامن عشر من شهر رجب سنة ٥٥٤هـ (٥ أغسطس ١١٥٩ م) .

وكان الفرنج بالمهدية على أهبة للدفاع ، وكانت حاميتها تتكون من ثلاثة آلاف مقاتل ، وكانت المدينة فوق ذلك تموج بطوائف الأشراف والفرسان الفرنج^(١) ، وقد أحلّى الفرنج ضاحيتها الشمالية زويلة ، فدخلها عبد المؤمن ، واحتلها الحند الموحدون والسوقة ، وانضمت إليهم جموع غفيرة من العرب وصنهاجة . وأخذ الموحدون في منازل المدينة ، ولكنهم لم يستطيعوا خلال ثلاثة أيام من الهجوم المستمر ، أن ينالوا منها شيئاً ، وكانت بمناعة موقعها الطبيعي ، والبحري كاد يحيط بها إلا من لسان متصل بالبر ، وبأسوارها الحصينة العالية ، ترد كل محاولة ، وكان الفرنج يخرجون منها بين آن وآخر لمقاتلة الموحدين ، فينالون منهم ، ثم يعودون بسرعة إلى الاعتصام بالمدينة . وعندئذ أدرك عبد المؤمن أنه لا سبيل إلى اقتحام المدينة ، وأنه لابد من أخذها بالحصار والمطاوله ، وأمر بجمع الغلال والأقوات ، فجمعت حتى صارت بين العسكر كالجبال . واستمر

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٩٩ ، والحلل الموشية ص ١١٧ .

الحصار زهاء ستة أشهر . وفي أثناء ذلك أعلنت مدينة صفاقس ، ومدينة طرابلس ، وجبال نفوسة ، وقصور إفريقية ، كلها الطاعة لعبد المؤمن ، وجاء إلى صفاقس عمر بن الحسين مع جماعة من الأشياخ فقدّموا طاعتهم ، وعين لهم عبد المؤمن حافظاً من الموحدين ، وترك الشئون المخزنية لعمر ، وكذلك جاء وفد من أعيان طرابلس وعلى رأسه واليها أبو يحيى بن مطروح ، وبايعوا عبد المؤمن بالطاعة فأقر عبد المؤمن أبا يحيى على ولايته ، واستمر في رياسته عصراً وسار جيش موحدى بقيادة السيد عبد الله بن عبد المؤمن ، وقيل بقيادة الوزير محمد بن عبد السلام الكوى إلى مدينة قابس ، فافتتحها بالرغم من خروج قاضيه وأعيانها لطلب الأمان ، ونهبت أموالها ، وأبيد من كان حولها من طوائف العرب . وفر إليها مدافع بن رشيد بن مدافع في أهله وصحبه . ثم عاد بعد فترة من التشريد ، فاستجار بعبد المؤمن فعفا عنه ، وأسكنه بقابس حتى توفي وكان مدافع عالماً حافظاً وأديباً شاعراً^(١) .

وجاء وفد من أعيان قفصة ، وعلى رأسهم واليها يحيى بن تميم بن المعز ، ليقدّموا طاعتهم إلى عبد المؤمن ، فتقبلها منهم ، ومدح عبد المؤمن شاعرهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبي العباس التيفاشى ، بقصيدة مطلعها :

ماهرٌ عطفه بين البيض والأسل مثلُ الخليفة عبد المؤمن بن على

ويقال إن عبد المؤمن لما سمع هذا البيت ، أشار على الشاعر بأن يقتصر عليه ، وأمر له بصلته قدرها ألف دينار^(٢) .

ولم تمض بضعة أسابيع على بدء الحصار ، حتى قدم أسطول فرنجى كبير ، مكون من مائة وخمسين سفينة ، مشحونة بالأقوات والمقاتلة لإمداد الفرنج . وكان هذا الأسطول قد عاد من جزيرة يابسة ، إحدى الجزائر الشرقية بعد ما أئتمن فيها ، وسبى أهلها ، فلما قرب من صقلية ، بعثه الملك ولیم لإنجاد حامية المهديّة ، فلما اقتربوا من الخليج ، خرج إليهم الأسطول المغربى بقيادة أبى عبد الله ابن ميمون ، ونشبت بين الأسطولين معركة بحرية عظيمة انتهت بهزيمة الفرنج ، واستيلاء المسلمين على عدة من سفنهم . ويقال إن عبد المؤمن كان خلال المعركة

(١) رحلة التجانى ص ٧٦ و ١٠١ و ٢٤٣ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٩١ ، وابن الأثير ج ١١ ص ٩٢ .

يمرغ وجهه في الأرض باكياً ، وهو يدعو للمسلمين بالنصر فحقق الله دعاءه^(١) واستمر الحصار على أشده بضعة أشهر أخرى ، حتى آخر شهر ذى الحجة من سنة ٥٤٩ هـ وقد نصبت الأقوات ، وأخذ الضيق يرهق المحصورين ، فلما رأى الفرنج ما رأوا من ضخامة جيوش عبد المؤمن وأساطيله ، وأنه لا أمل لهم في النجاة من مصيرهم المحتوم ، خرج منهم عشرة فرسان ، وقابلوا عبد المؤمن وسألوه الأمان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ، وأن يتركهم أحراراً يخرجون من المدينة ، ويذهبون إلى ديارهم ، فأجابهم عبد المؤمن إلى ما طلبوه ، وجعل لهم السفن ليعبروا البحر فيها . وكان تصرفاً مقروناً بالحكمة ، لأن صاحب صقلية الملك ولهم ، كان قد أئذّر بقتل المسلمين في بلاده وانتزاع أموالهم ، وسبي حريمهم ، إذا أقدم الموحدون على قتل الفرنج في المهديّة . ومع ذلك فقد غرق كثير من السفن التي كانت تحمل الفرنج إلى صقلية من جراء العواصف وثورة الموج . ودخل عبد المؤمن ثغر المهديّة في صبيحة يوم عاشوراء من أحرّم سنة ٥٥٥ هـ (٢١ يناير سنة ١١٦٠ م) وقد سماها عبد المؤمن سنة الأتماس . وأقام بالمهديّة عشرين يوماً يرتب شئونها ، ويصلح أسوارها ، ويشحنها بالذخائر والأقوات . ثم ندب لولايتها أبا عبد الله محمد بن فرج الكومي ، وجعل معه صاحبها القديم الحسن بن علي الصنهاجي ، وأقطعها إقطاعاً حسناً . وهكذا استطاع عبد المؤمن ، أن يقضي على عدوان الفرنج الصقليين على ثغور إفريقية ، بعد أن كاد يستقر ويتأثر ، وأن يحررها من نير النصرانية ، وأن يردّها إلى صولة الإسلام ، بعد أن خرجت عنها اثني عشر عاماً ، مذ سقطت في أيدي الفرنج في سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م)^(٢) . وفي فاتحة صفر سنة ٥٥٥ هـ ، غادر عبد المؤمن ثغر المهديّة ، وسار في قواته عائداً إلى المغرب . بيد أنه قبل أن يغادر أراضي إفريقية ، وقعت بينه وبين العرب بعض مناشات ومعارك .

وكان أولئك العرب ومعظمهم من بطون هلال وسليم من مضر ، قد نزحوا إلى إفريقية منذ أوائل القرن الخامس الهجري . وكانت أحياء بني سليم بالحجاز على مقربة من المدينة ، وأحياء بني هلال في جبل غزوان عند الطائف ، ومنهم جشم

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٩٢ . وراجع مواقع غزوات المهديّة في الخريطة المنشورة في ص ٢٨٣ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٩٢ ، والحلل الموشية ص ١١٧ و ١١٨ ، والبيان المغرب

القسم الثالث ص ٣٩ ، وروض القرطاس ص ١٣٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٥٦ و ١٥٥ .

والأثني عشر وزغبة ورياح وربيعة وعدى. وكانوا يزحفون أحياناً إلى أطراف العراق والشام ، ويقطعون الطرق ، ويفسدون السابلة ، وأحياناً كان بنو سليم يعتدون على الحاج أيام موسمهم بمكة ، وأيام الزيارة بالمدينة . واستمرت البعوث والكتائب تجهز لمعاقتهم ، وحماية الحاج من شرهم ، ولكن دون جدوى. ولما ظهر القرامطة بالبحرين في أوائل القرن الرابع الهجري لحق بهم بنو سليم ، وبنو هلال ، وكثير من بطون ربيعة بن عامر . ولما تغلب القرامطة على الشام ، وأخذوا يهددون مصر ، وظفر الخليفة العزيز بالله بهزيمتهم وردهم ، استبقى أشياعهم من العرب من بنى هلال وسليم بمصر ، وأنزلهم بالصعيد وفي الصحراء الشرقية ، فأقاموا هناك ، ولكنهم لم ينقطعوا عن عيهم وفسادهم .

وهنا تأتي قصة نزوحهم إلى إفريقية . وكان المعز لدين الله الفاطمي ، حينما انتقل من إفريقية إلى مصر في سنة ٣٦١ هـ ، قد استخلف على إفريقية يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجي ليحكم باسم الخلافة الفاطمية وتحت سيادتها . ثم تطورت الظروف وعمل آل زيرى على تدعيم استقلالهم ، حتى فسد الأمر بينهم وبين الخلافة الفاطمية ، فخلعوا طاعتها الإسمية ، وأعلن المعز بن باديس الصنهاجي انضواءه تحت لواء الخلافة العباسية (سنة ٤٣٧ هـ) ، فعز ذلك على الخلافة الفاطمية ، وغضب الخليفة المستنصر بالله ، وأخذ البلاط الفاطمي يبحث عما يمكن فعله لمقابلة هذا الإجراء ، الذى اعتبر خروجاً على الخلافة الفاطمية ، واعتداء على حقوقها الشرعية .

وكان العرب من بنى سليم وهلال الذين أنزلوا بالصعيد قد تكاثروا ، وتفاقم عيهم وشرهم ، فأشار الوزير أبو محمد الحسن بن على اليازورى ، على الخليفة المستنصر باسمالة أشياخهم ، وتقليدهم أعمال إفريقية وشئونها ، ليكونوا هنالك أولياء للدعوة الشيعية ، وليعملوا على نصرتها إزاء آل زيرى المنتزين عليها ، فإن نجحت الفكرة وبقي أولئك على ولائهم ، كان ذلك كسباً للخلافة الفاطمية وتقوية لجانبها ، هذا فضلاً عن انقطاع عيهم بنواحي مصر ، وإن كان الأمر بالعكس فهم وشأنهم . فوافق المستنصر على ذلك الرأى ، وبعث وزيره إلى العرب في سنة ٥٤١ هـ ، فسار إلى أحيائهم ، وبذل العطاء الوفير لأشياخهم ، وفرق في عامتهم بغيراً وديناراً لكل منهم ، وأباح لهم عبور النيل ، وقال لهم قد أعطيناكم ملك المغرب ، وملك المعز بن باديس .

فثارت أطاع أولئك العرب ، وأغراهم ما سوف ينالونه في إفريقية من أسباب الثراء والسلطان ، وجازت النيل من بطون سليم وهلال جموع غفيرة وساروا إلى برقة ، ونزلوا بها ، واقتحموا أمصارها ، واستباحوها ، واستولوا على أسلابها ، وبعثوا إلى إخوانهم في شرق النيل يرغبونهم في اللحاق بهم ، فجازت منهم جموع أخرى بعد أن أعطوا دينارين لكل رأس ، واقتسموا الأراضي المفتوحة ، فحصل لبني سليم الشرق ، ولهلال الغرب ، وأقامت طوائف من سليم وأحلافها برواحة وناصرة وعمرة من أرض برقة . وسارت قبائل دياب وزغبة وجميع بطون هلال إلى إفريقية ، وهم « كالجراد المنتشر لا يمرّون على شيء إلا أتوا عليه » حتى وصلوا إلى إفريقية وذلك في سنة ٤٤٣ هـ . وكان أول من وصل إليها من أشياخهم أمير رياح موسى بن يحيى الصنبري ، وكان المعز بن باديس حينما رأى تقاطر العرب نحو أراضيه ، قد فكر في استئثارهم ومحالفهم ، فاستدعى موسى إليه وقربه وأصهر إليه ، وحثه على استدعاء العرب ، وذلك لكي يقوى جانبه بمؤازرتهم ، فاستنصرهم وجلبهم . ولكنهم عاثوا في البلاد أما عيث ، ونادوا بشعار الخلافة الفاطمية ، واهتدوا على أحياء صنهاجة ، فغضب المعز ، وقبض على أخى موسى ، وخرج بقواته إلى ظاهر القيروان ، واستعان بابن عمه حماد بن بلكين صاحب القلعة ، فبعث إليه بالأمداد ، والتفت حوله زناتة والبربر ، وصمد في حشوده الحرارة للعرب ، وكانوا وفقاً لأقوال الرواية في ثلاثين ألفاً ، وفي مقدمتهم رياح وزغبة وعدى . فلما التقى الفريقان اتخذ العرب من أنصار المعز ، وخانته زناتة ، فكانت عليه الهزيمة ففر في فلوله الباقية إلى القيروان ، ونهب العرب جميع محلاته ، وقتلوا من حشوده أكثر من ثلاثة آلاف . ثم حاصر العرب مدينة القيروان ، وطال حصارها ، وخرب العرب أحوازها ، وعاثوا فيها أما عيث ، وطوقت زغبة ورياح المدينة ، ففر منها الأعيان والقراية من آل زيري ، وفر كثير من أهلها إلى تونس . وملك العرب في نفس الوقت قسنطينة وسائر أعمالها ، واقتسموا بلاد إفريقية ، وذلك في سنة ٤٤٦ هـ ، فكان لزغبة طرابلس وأحوازها ، ولرداس من رياح باجة وما إليها ، ثم اقتسموها مرة أخرى ، فكان لهلال من تونس إلى الغرب ، وبطونهم رياح وزغبة وجشم وقرّة والأثيج وسفيان .

وغلب عائذ بن أبي الغيث من شيوخهم على تونس ، ونهبها ، وملك أبو مسعود

سوسة صلحاً . ورأى المعز بن باديس ما كنهه يتصرم ، فحاول التقرب من العرب ، وصاهر ببنته الثلاث ثلاثة من أمرائهم ، هم فارس بن أبي الغيث وأخوه عائد ، والفضل بن أبي علي المرادي ، ولكن ذلك لم يحقق له ما أمل ، فسار إلى القيروان وسار العرب في أثره ، فخشى أمرهم ، وانحرف نحو الشاطئ ودخل العرب مدينة القيروان وخربوها ونهبوها ، وعاثوا فيها أما عيث واستباحوا سائر حريمها ، واستصفوا سائر أموال المعز وآله ، وفر عنها أهلها في سائر الأنحاء . وسار العرب بعد ذلك إلى المهديّة ، فنزلوها ، وضيقوا على أهلها ، وكثر فسادهم وعيهم وتصدت زناتة بعد صنهاجة لمقاومتهم ، فغلبوا عليها ، واستولوا على سائر الضواحي والأعمال في تلك المنطقة . واضطرب أمر إفريقية . وساد بها الذعر والفرع ، وانهارت أركان الأمن ، وفست السابلة ، وبسط العرب عليها حكم عصابات مروع ، وغلبوا على صنهاجة وزناتة ومغرواة وغيرها ، وسيطروا على نواحي طرابلس ، وقابس والزاب ، ومعظم أعمال إفريقية^(١) .

ثم وقع التهادن والصلح بينهم وبين صنهاجة وبقية القبائل البربرية ، وتفرقوا في الضواحي والبادي ، فتكاثروا في تلك الجهات ، وتأثّل نفوذهم وسلطانهم بمضى الزمن ، وأضحوا عاملاً بحسب حسابه في ميزان القوى ، في إفريقية ، وفي بلاد الزاب ، والمغرب الأوسط . بيد أنهم لبثوا دائماً عنصراً من عناصر الاضطراب والفوضى ، يتنقلون بين مختلف الأحزاب والمعسكرات ، ويتدخلون في مختلف الحروب التي تنشب على مقربة من ديارهم ، لاتحدوهم في ذلك أية مثل سياسية أو دينية ، ولا هم لهم إلا اجتناء الكسب والمغانم ، من أى جانب وبأى الوسائل ، وقد رأينا ما وقع بينهم وبين الموحدين من معارك ، على أثر افتتاح عبد المؤمن لبحاية . وقد كانوا أولياء لأمرائها من بنى حماد ، يعيشون في كنفهم وتحت حمايتهم .

تلك هي قصة نزوح العرب إلى إفريقية وقصة تخريبهم لها . وقد نوه سائر الكتاب والمؤرخين المعاصرين والمتأخرين بتلك الروح العدوانية المخربة ، وتلك الخواص الذميمة التي سادت طوائف العرب النازحين ، وجعلت منهم عنصراً خطراً ، تتوق سائر السلطات وسائر العناصر الأخرى من السكان إلى سحقه

(١) ابن خلدون في كتاب العبر ج ٦ ص ١٣ وما بعدها .

ولإبادته ، وإنقاذ العباد من شره وعدوانه^(١) . وسوف نرى فيما بعد أى دور خطير يلعبه أولئك العرب فى حوادث إفريقية أيام نزول بنى غانية بها .

وكان عبد المؤمن حينما تم له فتح المهديّة ، وإجلاء الفرنج من إفريقية ، يتجه بكل جوارحه نحو شئون الأندلس . وكان يعتقد أنه يستطيع أن يستعين بطوائف المرتزقة من أولئك الأعراب ، فى حملات الجهاد التى يزمع تسييرها إلى شبه الجزيرة ، وكانت طائفة من بنى سليم قد اعتدت على مدينة قابس ، على أثر افتتاح الموحدين لها ، فبعث إليهم عبد المؤمن يعاتبهم ويستدنيهم ، ووجه إليهم فى ذلك شعراً من نظم القاضي ابن عمران . بيد أنهم تمادوا فى عدوانهم ، وتغلّبوا على قابس ، فبعث عبد المؤمن عسكرياً لقتالهم ، وهو بالمهديّة ، فهزمهم ، واستنقذ قابس من أيديهم^(٢) .

وفكر عبد المؤمن قبل عودته إلى المغرب ، أن يدعو العرب إلى الانتظام فى عسكريه ، فجمع زعماء العرب من بنى رياح وغيرهم ، وحشّم على نصرة الإسلام بالأندلس ، وطلب إليهم أن يجهزوا لهذه الغاية عشرة آلاف فارس ، من أهل النجدة والشجاعة ، ليجاهدوا فى سبيل الله ، إلى جانب الجيوش الموحديّة ، فتظاهروا بالموافقة والطاعة ، وأقسموا على ذلك ، وساروا معه حتى جبل زغوان . وكان من بين زعمائهم ، زعيم يدعى يوسف بن مالك ، فاتصل بعبد المؤمن بالليل ، وأخبره بأن العرب لا يريدون المسير إلى الأندلس ، وأنهم يعتقدون أنه يريد بذلك أن يخرجهم من بلادهم ، وقد تحقق صدق ذلك فى الليلة التالية ، إذ هرب العرب تحت جنح الظلام إلى عشائهم ، ولم يبق سوى يوسف هذا ، فسماه عبد المؤمن يوسف الصادق ، وسار عبد المؤمن فى قواته حتى وصل إلى مقربة من قسنطينة ، ونزل هناك فى وادى نخصب يقال له وادى النساء ، بعيداً عن أطراف العمران ، واستمر هنالك عشرين يوماً ، والسكينة ترفرف على جيوشه ، وقد انصرف العرب إلى أحيائهم التى يحتلونّها . فلما علم عبد المؤمن باجتماعهم ثانية فى أحيائهم بعث إليهم جيشاً من ثلاثين ألف مقاتل ، بقيادة ولديه أبى محمد وأبى عبد الله ،

(١) يشير ابن خلدون فى مواضع كثيرة إلى عيث أولئك العرب وتخريبهم لمدن إفريقية (راجع كتاب البرج ٦ ص ١٤ و ١٥ و ١٦) . ويشير الإدريسي إلى ذلك غير مرة (وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٩٣ و ١٠٥ و ١٠٩ و ١٢٢) ، وكذلك صاحب الاستبصار فى عجائب الأمصار (ص ١٢٨ و ١٦١) ، وغيرهم .
(٢) الديان المغرب - القسم الثالث ص ٣٩ .

فسار الموحدون في هدوء ، وانعطفوا إلى الصحراء ، وراء أحياء العرب ، حتى لا يفلتوا بالتوغل فيها ، وكان العرب قد احتشدوا جنوبي القيروان عند جبل القرن ، تحت إمرة بعض المشاهير من مقدميهم ، مثل أبي محفوظ محرز بن زياد ، ومسعود بن زمام ، وجبارة بن كامل بن سرحان وغيرهم ، فلما دهمهم الموحدون اضطربوا واختل نظامهم ، وفر مسعود وجبارة ومن معهما من العشائر ، وثبت محرز بن زياد ومن معه ، واشتبكوا مع الموحدين في معركة عنيفة ، وذلك في منتصف شهر ربيع الآخر من سنة ٥٥٥ هـ ، فقتل محرز ، وانهمزت جموع العرب ، وسقط متاعهم وحريمهم وولدهم في أيدي الموحدين ، فأمر عبد المؤمن بالتحفظ عليهم ورعايتهم ، حتى أقبلت وفود رياح والأثبج ، في طلب حريمهم ، فردهن إليهم ، وفرق فيهم الصلات ، واستألم بحسن صنيعه ، وانتهى بأن جهز منهم قوة لتشارك في الجهاد في الأندلس^(١) . وسوف نرى فيما بعد أى دور هام يلعبه أولئك العرب ، في حوادث المغرب والأندلس ، وكيف تعتمد السياسة الموحدية إلى استمالتهم والاستعانة بهم ، ولا سيما في عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف ولد عبد المؤمن وخليفته .

وفي شهر ذى القعدة سنة ٥٥٥ هـ (نوفمبر سنة ١١٦٠ م) عبر الخليفة عبد المؤمن البحر إلى الأندلس ، وكان عبوره إليها حادثاً هاماً من أشهر حوادث العصر ، وكانت له نتائج بعيدة المدى .

بيد أنه يجب قبل أن نتحدث عن عبور الخليفة الموحدى إلى شبه الجزيرة ، أن نستعرض ما تقدمه من الحوادث المتعلقة بموقف الموحدين من شئون الأندلس .

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٩٢ ، ٩٣ .

الكتاب الثالث

ثورة القوى الوطنيّة بالأندلس
وتغلّب الموحّدين على شبه الجزيرة

الفصل الأول

الثورة في الأندلس

وانهيار سلطان المرابطين

صلى حوادث المغرب في الأندلس . اضطراب الفكرة القومية الأندلسية . قيام الثورة في غربى الأندلس . ابن قسى وأتباعه المريدون . دعوته ومزاعمه . ظهور أمره وفراره إلى ميرتلة . معاونة ابن القابلة . تخرج مركز المرابطين في الغرب . ابن قسى يدير خطة الاستيلاء على ميرتلة . مدهمة ابن القابلة لحصن ميرتلة وانتزاعه . نزول ابن قسى فيه . قيام الثورة في يابرة وشلب . ابن المنذر المتغلب على شلب . تسليم المرابطين بباجة ، ومغادرتهم لها . استيلاء ابن المنذر عليها . مبايعة ابن وزير صاحب يابرة ، وابن المنذر لابن قسى . ابن قسى يرسل سفارة إلى عبد المؤمن . خروج ابن المنذر في قوات المريدين واستيلائه على ولبة ولبة . مسيره إلى إشبيلية وانتزاعه بعض ضواحيها . لقاءه بالمرابطين . هزيمته وفراره . مسير ابن غانية أمير المرابطين إلى لبلة . وقوع الثورة بقرطبة وعود ابن غانية إلى إشبيلية . محاولة المريدين الزحف على قرطبة وفشلها . الخلاف بين ابن قسى وابن وزير . استيلاء ابن وزير على شلب وميرتلة . فرار ابن قسى إلى المغرب والتجاءه إلى عبد المؤمن . إقناعه للخليفة بالتدخل في حوادث الأندلس . ابن غانية أمير المرابطين بالأندلس وموقفه . قيام الثورة في قرطبة . زعيمها القاضى ابن حدين . مبايعة بالإمارة وتسميه بأمر المسلمين . استدعاء فريق من أهل قرطبة لسيف الدولة ابن هود . مقدمه إلى قرطبة ودخوله إياها . فرار ابن حدين . الثورة ضد ابن هود وفراره . عودة ابن حدين إلى حكم قرطبة . زحف ابن غانية على قرطبة . اللقاء بينه وبين ابن حدين . هزيمة ابن حدين وفراره . دخول ابن غانية قرطبة . تغلب ابن حدين على حصن أندوجر وأحوازه . مسير ابن غانية لقتاله . التجاء ابن حدين إلى ملك قشتالة . مسير ابن حدين وحلفاءه النصارى إلى قرطبة . دخولهم المدينة وعيهم فيها . امتناع ابن غانية بقصبتها . ذبوع الأخبار بمقدم الموحدى إلى شبه الجزيرة . التهادن بين قشتالة وابن غانية . ولاية ابن غانية لقرطبة . ما يروى في ذلك عن قيصر قشتالة . خروج ابن حدين من قرطبة . عبوره إلى المغرب ومقابله لعبد المؤمن . عوده إلى الأندلس والتجاءه إلى صاحب مالقة . الثورة في غرناطة . زعيمها القاضى ابن أضحق . استثنائه بابن حدين . دعوة أهل غرناطة لسيف الدولة بن هود . تحالف ابن أضحق وابن هود ضد المرابطين . لقاء ابن هود والمرابطين خارج غرناطة . تحصن المرابطين بالقصبة . وفاة ابن أضحق وقيام ولده محمد . تعاونه مع ابن هود ضد المرابطين . مقدم عسكر مرسية لقتال المرابطين ، هزيمتهم ومقتل زعيمهم . مفادرة ابن هود لغرناطة والتجاءه إلى جيان . رواية ابن الأبار عن مراحل الصراع في غرناطة بين المرابطين وخصومهم . الثورة في مالقة . ظاهرة تزعم القضاء للثورة ضد المرابطين وتعليقها . أبو الحكم بن حسون زعيم الثورة في مالقة . تغلبه على المرابطين وانزاعه للرياسة . استعائته بالمرتزة النصارى . تدبير مؤامرة لإسقاطه . نجاح المؤامرة وانتحار ابن حسون . ثورة ابن ملحان في

وادي آش . ثورة ابن جزى في جيان . ثورة أخيل بن إدريس في رندة . ثورة ابن عزون في شريش . عبوره إلى المغرب ولقاؤه لعبد المؤمن . إنضمامه إلى الموحدين عند عبورهم . رواية أخرى عن ابن عزون وبيعته لعبد المؤمن . قيام ابن ميمون في قادس . عبوره إلى المغرب وانضمامه إلى عبد المؤمن . ثورة ابن الحجام في بطليوس . دخوله في طاعة الموحدين .

كان من الطبيعي أن تحدث حوادث المغرب صداها القوي فيما وراء البحر ، في شبه الجزيرة الإسبانية ، حيث كانت الدولة المرابطية تبسط سلطانها على مختلف القواعد الأندلسية . وقد اتخذ هذا الصدى منذ البداية ، صورة ثورة عامة ضد المرابطين ، اجتاحت الأندلس بسرعة من غربها إلى شرقها . بيد أنه يجب أن نلاحظ بادئ ذي بدء ، أن هذه الثورة الجارفة ضد سلطان المرابطين لم تكن فقط نتيجة لحوادث المغرب ، وظهور أمر الموحدين ، وتضعيف قوى الدولة المرابطية ، وعجز المرابطين عن حماية الأندلس من غزوات النصارى المخربة ، وإن كانت هذه الحوادث ، قد بثت إليها قوة واضطرابا جديدين . وإنما كانت عوامل الثورة الأندلسية ، ضد الحكم المرابطي ، تكمن منذ بعيد ، بل هي ترجع حسبنا أشرنا في مقدمة هذا الكتاب ، إلى أعقاب الفتح المرابطي ذاته ، حيث كانت الفكرة القومية تحمّش بأذهان فريق كبير من أبناء الأمة الأندلسية ، وكان هذا الفريق ، يرى في المرابطين ، بعد أن تبددت آثار المديح والإعجاب الأولى ، التي تلت نصر الزلاقة ، وبعد أن انقلب الإخوة المنقلدون إلى فائحين متغلبين ، أجاناب غاصبين ، يستطلون بفكرة الجهاد ، ليبسطوا سلطانهم على الأمة الأندلسية . وبالرغم من أن فترة الجهاد الأولى ، التي اضطلع بها المرابطون في الأندلس ، في أوائل عهد علي بن يوسف ، والتي أسفرت عند ظفرهم ضد الحيوش النصرانية ، في عدة وقائع ، مثل موقعة أقليمش (٥٥٠١هـ) ، وما تلاها من الغزوات المظفرة ، حتى موقعة إفراغة (٥٥٢٨هـ) ، كانت تغالب هذه الفكرة القومية ، وتضفي على حكم المرابطين رونقا ومجداً ، فإن الأمة الأندلسية لم تنس الحقائق الواقعة ، ولم تنس أنها قد فقدت استقلالها وحرّياتها ، في ظل الحكم المرابطي ، خصوصاً بعد أن أخذت وطأة هذا الحكم تشد شيئاً فشيئاً . وكانت ثورة قرطبة على حكومتها المرابطية في سنة ٥١٥هـ (١١٢١م) ، أول تعبير مادي لهذا الشعور القومي ، وأول نفثة لهذا السخط المكبوت ضد عسف الحكم المرابطي . وقد رأينا كيف أدرك أمير المساهمين علي بن يوسف يومئذ خطورة

الموقف وتذرع إزائه بالإغضاء والتسامح . ويرى الأستاذ كوديرا ، أنه كان من أسباب سخط أهل الأندلس على المرابطين أيضاً ، مبالغة الدولة المرابطية في العطف على النصارى ، وإيثار على بن يوسف ومن بعده ولده تاشفين لهم ، وإدماجهم في الجيوش المرابطية ، وإعطائهم مراكز التفوق والقيادة^(١). بيد أن هذا السبب ، يعتبر في نظرنا ثانوياً ، إزاء العامل القومى ، لأن الأندلسيين أنفسهم ، كانوا أيام الطوائف ، يستظهرون بالنصارى على قتال بعضهم بعضاً ، وسوف نرى أنهم يلجأون إلى مثل هذه الوسيلة في ثورتهم ضد المرابطين ، ثم الموحيدين . وعلى أى حال ، فإن بذور الثورة الأندلسية ضد المرابطين ، لبثت حيناً تنمو وتختمر ، حتى أخذت الدولة المرابطية ، في أواخر عهد على بن يوسف ، ثم ولده تاشفين من بعده ، تترنج تباعاً تحت ضربات الموحيدين ، ولاح عندئذ أن الفرصة قد سنحت لتقوم الأندلس بدورها الفعال في تحطيم الدولة المرابطية ، والتخلص من نيرها . بيد أنه كان من الواضح ، أن تحقيق مثل هذه الغاية ، كان يرتبط أشد الارتباط بمسألة الإنضواء تحت لواء الدولة الحديدية التى غلبت على الدولة المرابطية ، ونعنى دولة الموحيدين ، وأن هذا الانضواء ، كانت تمليه ضرورات الموقف ، وبواعث المصلحة القومية ذاتها . ذلك أن الأندلس بالرغم مما كانت نجيش به ضد المرابطين من عوامل السخط والانتقاص ، لم تنس أن جيوشهم كانت عماد الدفاع عنها ضد إسبانيا النصرانية ، وأن مثل هذا الدفاع ، لا يمكن أن يتحقق ، بعد انهيار سلطان المرابطين ، إلا بقيام سلطان الدولة الحديدية ، وتدفع جيوشها على شبه الجزيرة ، لتقوم بنفس المهمة الدفاعية ، التى كانت تقوم بها الجيوش المرابطية من قبل .

وقد ظهرت أعراض الثورة في الأندلس ضد المرابطين ، أولاً في الطرف الغربى لولاية الغرب الأندلسية ، وهى أبعد المناطق عن سلطان الحكومة المركزية . ولنلاحظ أولاً أن هذه الأعراض الثورية ، قد ظهرت في الأندلس ، في نفس الوقت الذى بدا فيه انهيار الدولة المرابطية في المغرب أمراً محققاً ، وذلك حين جدد الموحدون في مطاردة الجيوش المرابطية بقيادة الأمير تاشفين بن على شمالاً ، ثم حين انتهت موقعة وهران بمصرع تاشفين وتبدد جيوشه . وذلك في رمضان سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٥ م) .

F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almoràvides, p. 28 & 29 (١)

في تلك الآونة ظهر أول الزعماء الثائرين بالأندلس في منطقة شلب في جنوبي البرتغال ، واضطربت أول ثورة فعلية ضد المرابطين . أما الزعيم الثائر فهو أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي . وأما الثورة فهي ثورة أتباعه المريدين . وكان ابن قسي مؤلداً ، يرجع إلى أصل نصراني . وقد نشأ في أحواز شلب ، واشتغل في بداية أمره مشرفاً بشلب^(١) ، ثم اعتنق طرائق الصوفية ، وتبحر فيها حتى غدا من شيوخها ، وألف فيها طائفة من الكتب ، منها كتاب « خلع النعلين » . ثم تزهد ، أو تظاهر بالزهد وباع أمواله ، وتصدق بثمنها ، وتجول في البلاد ، ولقى بالمرية قطب الصوفية يومئذ أبا العباس بن أحمد بن محمد الصنهاجي الأندلسي المعروف بابن العريف ، ودرس عليه ، ثم عاد إلى وطنه ، واستقر بقرية جلة من أحواز شلب ، وابتنى بها رابطة كان يجتمع فيها بصحبه ، وانكب على قراءة كتب الغزالي ، والتف حوله كثير من الصاحب والأنصار ، ينكبون على قراءة الكتب الصوفية والباطنية ، ورسائل إخوان الصفا وغيرها ، وينمكون في مزاوله شعائر الطريقة ورسومها ، حتى ذاع أمرهم بالأخص بمنطقة شلب وميرتلة ولبلة ، وغيرها من أعمال غرب الأندلس ، وسموا بطائفة « المريدين »^(٢) . وكان ابن قسي في الواقع يتخذ الصوفية قناعاً لمشاريع يضمهرها ، ويدعو إلى الثورة في الباطن ، ثم لم يلبث أن ادعى الولاية والهداية ، وتسمى بالمهدي وبالإمام ، وكثرت مخاريقه وشعوذته ، وزعم القدرة على الخوارق ، ومن ذلك أنه حج في ليلة واحدة ، وأنه ينجي بما يشاء ، وينفق من الكون ، فذاع أمره ، وتقاطرت إليه الوفود ، من أهل البيوتات والأجناد . وكان من حصه جماعة ممن ظهروا فيما بعد ، في ميدان الحوادث ، مثل أبي محمد سيدرأى بن وزير ، وابن عفان ، وكلاهما من زعماء يابرة ، ومحمد بن المنذر من أهل شلب ، ومحمد بن عمر ، وعبد الله بن أبي حبيب ، وغيرهم من زعماء ولاية الغرب . ولما شعر أن السلطات فطنت لأمره . وهمت بمطاردته . وقبض على جماعة من أصحابه ، وأخذوا إلى إشبيلية ، سار هو إلى جهة ميرتلة ، واختفى هناك بقرية الجوزة عند قوم يعرفون ببنى السنة . وكان

(١) ويمول ابن الأبار إنه كان يشغل بالأعمال الخزنية أي المالية (الحلة السراء ص ١٩٩) .

(٢) ابن الأبار في الحلة السراء ص ١٩٩ ، وابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٢٤٩ .

من أصحابه المقربين ، رجل وافر الدهاء والجرأة ، يدعى محمد بن يحيى الشلطيشي ، ويعرف بابن القابلة ، وكان يسميه بالمصطفى لاختصاصه به ، وإطلاعه على أموره ومشاريعه ، ويعتمد عليه في تنفيذ خطته . فأوعز إليه من مقره السري ، أن يسير في صحبه المريدين إلى قلعة ميرتلة ، وأن يدهموها وفق خطة وضعها لهم ، وكان ذلك في أوائل سنة ٥٣٩ هـ .

وكانت حال المرابطين ، ولاسيما في هذا الإقليم النائي ، إقليم الغرب ، قد اضطربت وغلب عليهم الضعف والوهن بما أصاب دولتهم في المغرب من الاختلال والانهيار ، وبما افتقدوه من أمداد كانت تشد أزهرهم وقت الحاجة ، وزادت الحفوة بينهم وبين أهل الأندلس ، لما اشتد من ضغطهم ، وعيث جندهم بسبب الحاجة ، وقد استطل عليهم الناس ، وأخذوا في التعدى عليهم وإرهاقهم . وشعر الثوار في هذه الظروف التي هبطت فيها قوى المرابطين المادية والمعنوية ، بأن مشاريعهم سوف يحالفها النجاح ، وكان هذا شعور ابن قسي حينما دبر مع معاونه ابن القابلة خطة الاستيلاء على ميرتلة . فجمع ابن القابلة نحو سبعين رجلا من أولئك المريدين المتعصبين ، وسار إلى ميرتلة ، ودهم حصنها في جوف الليل ، واستولى عليه ، وذلك ليلة الخميس الثاني عشر من صفر سنة ٥٣٩ هـ ، وضبط ابن القابلة القاعة ، وأعلن بها دعوة ابن قسي . وحاول المرابطون في تلك الجهة استعادتها من المريدين ، فلم يفلحوا فتركوها ، وانقلبوا إلى تخريب تلك المنطقة . وفي غرة ربيع الأول وصل ابن قسي إلى ميرتلة في جمع حاشد من المريدين ، شعارهم التهايل والتكبير ، فصعد إلى قصبتها ، واستقر بقصرها ، وتسمى بالإمام ، وبعث إلى أعيان ولاية الغرب وزعمائها ، يدعوهم إلى الانضمام إليه ، وإلى الثورة ضد المرابطين . فاستجاب له كثير من أهل تلك الأنحاء . وقام أهل يابرة بزعامة عميدهم سيدرأى بن وزير ، ونزعوا ساطان المرابطين . وحذا حذوهم أهل شلب ، بقيادة زعيمها محمد بن عمر بن المنذر . وكان ابن المنذر هذا ينتمي إلى بيت قديم من بيوتات المولدين بشلب ، وكان من علمائها ونهائها ، وقد درس في لإشبيلية ، وبرع في الفقه والأدب ، ووُلِّي خطة الشورى بباده ، ثم تزهد على مثل ابن قسي ، واستقر برابطة على شاطئ البحر تعرف برابطة الريحانة ، واعتنق دعوة ابن قسي وتوثقت صلاتهما . ولما قام بشاب اقتداء بابن قسي في ميرتلة . سار إلى حصن مرجيق في شرق شلب ، وانتزعه من المرابطين

وقتلهم . ولما علم المرابطون بباجة بما وقع ، طلبوا من أهلها الأمان ، وغادروها إلى إشبيلية . وعلى أثر خروجهم منها سار إليها ابن المنذر ، ومعه فرقة من جند يابرة أمدته بها ابن وزير بقيادة أخيه أحمد ، وخاله عبد الله بن الصميل ، واستولى عليها . ثم سار ابن المنذر وابن وزير إلى ابن قسى ، فسلم عليه بالإمارة ، وبايعاه بالطاعة (ربيع الأول سنة ٥٣٩ هـ) ، فأقر ابن وزير على حكم باجة وأحوازها ، وابن المنذر على حكم شلب وأحوازها .

والظاهر أن ابن قسى حاول في تلك الفترة بالذات ، أن يتصل بالموحدين لأول مرة . وكان لانتصار الموحدين في موقعة وهران وبصرى تاشفين بن على سنة ٥٣٩ هـ ، أعظم وقع في الأندلس ، وأكبر حافز للعناصر الثائرة ، على أن تخشى قدماً في ثورتها . وهنا بعث ابن قسى سفيراً إلى عبد المؤمن عاهل الموحدين ، وهو قائم على حصار تلمسان ، في أواخر سنة ٥٣٩ هـ ، وتلقب في رسالته بالمهدى ، فأنكر ذلك عبد المؤمن ولم يجابوه^(١) ، لما لمسه من تعاليه في الخطاب عليه . وفي خلال ذلك وقعت بولاية الغرب حوادث هامة . وكان ابن المنذر ، حين ولاء ابن قسى إمارة شلب ، قد حشد قواته وقوات أكشونية وسائر صحبه المريدین ، ثم سار إلى ابن قسى بميرتلة ، وجدد له البيعة والعزم على نصرته ونشر دعوته ، فجدد له ابن قسى عهده على ما بيده من البلاد ، وسماه العزيز بالله . وعندئذ خرج ابن المنذر في قواته ، وعبر نهر وادى يانه ، وسار إلى مدينة ولبة على مقربة من شرقيه ، فاقتحمها واستولى عليها ، ثم سار منها إلى مدينة لبلة الواقعة في شمالها الشرقي ، واستولى عليها بمعاونة يوسف بن أحمد البطروجي ، أحد أقطاب الثوار المريدین في تلك الناحية ، وأخرج من كان في قلعتها من المرابطين . وهنا شعر ابن المنذر بتضايف قواته ، وتملكه الغرور ، واعتزم أن يسير إلى مدينة إشبيلية ، وقد شجعه ما نعى إليه من أنها كانت حينئذ دون أمير يتولى أمرها . فخرج في قواته من لبلة ، وسار إلى حصن القصر وطليباطة من مشارف إشبيلية الغربية ، واستولى عليها ، ثم تقدم حتى الحصن الزاهر ودخله . بيد أنه حينما وصل إلى طريانة ضاحية إشبيلية الغربية ، التقى بقوة من المرابطين . وكان أمير الأندلس المرابطي أبو زكريا يحيى بن غانية ، حينما وقف على حركات الثوار في غرب الأندلس ، وسيرهم من لبلة صوب إشبيلية ، قد غادر قرطبة في قواته ، وسار

(١) ابن خلدون في كتاب العبر ج ٦ ص ٢٣١ ، وابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٢٥١ .

إلى إشبيلية فوصل إليها ، في الوقت الذي كان فيه ابن المنذر يعيث في نواحيها ، فبعث لقتاله قوة عبرت نهر الوادي الكبير ، والتقت بالمريدين في طريانة ، فأوقعت بهم ، وقتلت منهم عدداً جماً ، وفر ابن المنذر في فله إلى لبلة ، ثم لحق بشلب ، وترك يوسف البطروجي للدفاع عن لبلة . وزحف ابن غانية على لبلة . وكان ذلك في قلب الشتاء وشدة قره ، فلبث على منازل لبلة نحو ثلاثة أشهر ، وعندئذ بلغه قيام الثورة في قرطبة بزعامه القاضي ابن حمدين ، فترك لبلة وعاد إلى إشبيلية ، وقد عول على التريث وملازمة الحيلة والحذر ، إلى أن يستبين سير الحوادث .

ولما علم ابن قسيّ بما وقع من اضطرام الثورة في قرطبة ، ألقى الميدان مهدداً للقيام بمغامرات جديدة . فأمر ابن المنذر أن يحشد قواته ، وأن يسير ومعه ابن القابلة كاتب ابن قسيّ وصاحبه الأثر إلى قرطبة ، ليحاول دخولها . وبعث إلى نفر من أنصاره بقرطبة ليعملوا على بث دعوته ، وترغيب العامة في قبولها . فسار ابن المنذر وصاحبه في عسكر شلب وليلة ، إلى قرطبة . بيد أنهما حين اقتربا منها ، علما بأن الحوادث قد تطورت ، وأن أهل قرطبة استدعوا لرياستها سيف الدولة ابن هود ، وطردها ابن حمدين ، فارتدا خائبين إلى الغرب ، وفشلت محاولة ابن قسيّ في مهدا^(١) .

وكان الحو قد فسد عندئذ بين ابن قسيّ ، وحليفه السابق سيدراى بن وزير صاحب باجة . وكان ابن قسيّ ، قد دبر القبض عليه حينما وفد عليه بميرتلة أثناء غيبة المنذر وخلعه ، ثم أطلق سراحه ورده إلى ولايته . ولما عاد ابن المنذر خائبا من حملة قرطبة ، حاول ابن قسيّ أن يتفاهم مع سيدراى ، ولكن سيدراى ارتاب في مقصده ، وأبى الاستجابة له ، فبعث ابن قسيّ ، ابن المنذر لمحاربته ، فهزمه ابن وزير وقبض عليه ، ثم زحف على شلب وانتزعها^(٢) ، وانتهى بالاستيلاء على ميرتلة ، وأعلن خلع ابن قسيّ والدعوة لابن حمدين صاحب قرطبة ، وذلك في شعبان سنة ٥٤٠ هـ^(٣) . فبادر ابن قسيّ إلى الفرار ، وعبر البحر إلى المغرب ، وسار إلى مقابلة الخليفة عبد المؤمن ، وتقدم إليه تائبا متبرئا من دعاويه السابقة

(١) ابن الأبار في الحلة السراء ص ٢٠٣ و ٢٠٤ .

(٢) ابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٢٥١ .

(٣) الحلة السراء ص ٢٣٩ .

في الولاية والهداية ، فتقبل عبد المؤمن اعتذاره ، وأكرم وفادته . وهنا تختلف الرواية اختلافاً بيناً في الزمان والمكان ، اللذين التقى فيهما ابن قسي بالخليفة الموحدى . فيقول ابن الأبار ، ويتابعه ابن الخطيب ، إن ابن قسي لقي عبد المؤمن في سلا في ربيع الآخر سنة ٥٤٠ هـ ، ثم انصرف في المحرم سنة ٥٤١ هـ^(١) . هذا مع أن ابن الأبار يذكر لنا في موضع آخر أن تغلب سيدراى على ابن قسي واستيلاءه على ميرتلة كان في شعبان سنة ٥٤٠ هـ . ولا بد أن عبور ابن قسي كان عقب خلعه وفقدته لإمارته . ويقول لنا ابن خلدون إن ابن قسي عبر إلى المغرب في سنة ٥٤٠ هـ ، ثم يذكر لنا في موضع آخر أنه قدم إلى المغرب ، عقب افتتاح مراکش ، وقد كان افتتاح مراکش حسباً تقدم في شوال سنة ٥٤١ هـ^(٢) . ويزيد ابن خلدون على ذلك أن ابن قسي نزل عند عبوره بسبته ، وأن واليا ابن مخلوف هو الذى جهزه إلى عبد المؤمن . وربما كانت رواية ابن خلدون الأولى أكثر الروايات تمثيلاً مع سير الحوادث . وعلى أى حال ، فقد كان لمقدم ابن قسي نتائج عملية . ذلك أنه استطاع أن يحمل الخليفة الموحدى على المبادرة بالتدخل في حوادث الأندلس ، وتجهيز حملة موحدية بقيادة برّاز بن محمد المستوفى ، لقتال المرابطين والثوار فيما وراء البحر ، تلّتها بعد ذلك حملات أخرى حسباً تفصل بعد .

كانت غرناطة في البداية مقر الحكومة المرابطية العامة بالأندلس ، ثم رأى أمير المسلمين على بن يوسف أن ينقل مركز الحكم إلى قرطبة ، وذلك حينما أصدر مرسومه في سنة ٥٢٦ هـ بتعيين ولده الأمير تاشفين ، متولى شئون الأندلس ، والياً لقرطبة ، وأن يجعلها مقر الحكم . ثم استدعى تاشفين إلى المغرب في سنة ٥٣٢ هـ وعين لولاية العهد . ولما توفى على بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ ، وخلفه ولده تاشفين في الملك اختار الأمير يحيى بن غانية الصحراوي والياً لقرطبة ، ومشرفاً على شئون الأندلس ، وقائداً عاما للجيش المرابطى ، وذلك في سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) . وقد تحدثنا فيما تقدم عن أصل ابن غانية ونشأته ، وأعماله في شرقي الأندلس . ولما تجهمت الحوادث للدولة اللمتونية بالمغرب ، وتقوضت دعائمها تحت ضربات

(١) الحلة السبراء ص ٢٠٠ ، وأعمال الأعلام ص ٢٥١ .

(٢) كتاب العبر ج ٤ ص ١٦٦ ، وج ٦ ص ٢٣٤ .

عبد المؤمن ، ودوت أصداء النكبة في جنبات الأندلس ، أخذ ابن غانية يواجه عواصف الثورة هنا وهناك . ولما تفاقم حوادث الغرب ، وزحف المريدون أتباع ابن قسي على إشبيلية ، سار ابن غانية في قواته لردهم ، مستخلفاً على قرطبة أبا عمر اللمتوني ، فهزمهم في طريانة ، ثم طاردهم حتى لبلة ، وأخذ في منازلها ، وهنا بلغته أنباء الثورة في قرطبة ، فارتد أدراجه إلى إشبيلية ، ولبث بها حيناً يدبر أمره ، ويستعد لمواجهة الحوادث .

ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر على قيام الثورة في الغرب ، وسقوط قواعده في أيدي الثوار ، حتى اضطرت قرطبة بثورة مماثلة . وكان زعيم الثورة قاضي المدينة ، ابن حمدين ، وهو أبو جعفر حمدين بن محمد بن علي بن حمدين ، وكان يبتهم من أقدم البيوتات العربية . دخل جدهم الأندلس مع الطالعة البلجية ، واستقروا في باغة ، وبها ازدهر بيتهم ، وكان ابن حمدين قد ولى قضاء قرطبة في شعبان سنة ٥٢٩ هـ ، على أثر مقتل قاضيه أبي عبد الله بن الحاج ، وهو يصلي بالمسجد الجامع في صفر من تلك السنة . ثم صُرف ابن حمدين عن القضاء في سنة ٥٣٢ هـ ، وولى مكانه أبو القاسم بن رشد فوليه نحو عامين ، ثم أعفاه الأمير علي بن يوسف من منصبه دون أن يعين خلفاً له ، ووقع بعد ذلك بقرطبة هياج اعتدى فيه العامة على المرابطين ، فخرج إليهم ابن حمدين ، وتمكن من تسكين ثورتهم ، فظهر يومئذ بوافر حكيمته وشهامته ، وبقيت قرطبة دون قاض مدى عام . ثم أذن علي بن يوسف لأهلها أن يختاروا لهم قاضياً ، فأجمعوا على اختيار ابن حمدين ، فولى القضاء للمرة الثانية في سنة ٥٣٦ هـ ، واستمر في منصبه حتى أواخر سنة ٥٣٩ هـ .

وكانت حوادث المغرب من جهة ، وحوادث الثورة في الغرب ، قد أخذت تحدث أثرها ، وأخذت بذور الثورة تحتزم من جديد في أذهان الشعب القرطبي ، وقد عرفناه فيما تقدم من مراجل التاريخ الأندلسي شعباً سريع التقلب ، سريع الهياج . فما كاد الحاكم المرابطي ، الأمير يحيى بن غانية ، يبتعد في قواته صوب إشبيلية لحمايتها من عيث المريدون ، حتى اضطرت قرطبة بالثورة ، وثارَت العامة بالوالى المرابطي الرئيس أبي عمر اللمتوني ، وأعلنوا خلعهم ، وخلع دعوة المرابطين ، ونادوا برياسة القاضي أبي جعفر بن حمدين ، وبويع ابن حمدين بالإمارة في المسجد الجامع ، وبايعه الخاصة والعامة ، وذلك في الخامس من شهر رمضان سنة ٥٣٩ هـ . واستقر

ابن حمد بن بقصر الخلافة ، وتسمى بأمر المسلمين وناصر الدين ، ووفقاً لقول ابن الأبار بأمر المسلمين المنصور بالله ، وفي بعض الروايات بأمر المؤمنين . ودعى له على منبر قرطبة ومعظم منابر القواعد الأندلسية . وكان ابن غانية قد سار عندئذ إلى لبلبة ليجهز على المريردين الذين تحصنوا بها ، فلما علم بما وقع في قرطبة ، عاد أدراجه إلى إشبيلية . ولكنه ما كاد يستقر بها حتى ثار به أهلها ، وناصبوه الحرب وجرح أثناء القتال الذي نشب بينه وبينهم ، فارتد عندئذ في قواته إلى حصن مرجانة القريب (١) .

وفي تلك الأثناء تطورت الحوادث في قرطبة ، وسعى فريق من شعبها القلّب إلى الاتصال بأبي جعفر أحمد بن عبد الملك بن هود الملقب بسيف الدولة المستنصر بالله . وقد فصلنا فيما تقدم سيرة هذا الأمير ، وكيف آل أمره إلى مغادرة روضة آخر قواعد بني هود في الثغر الأعلى ، وتسليمها إلى ملك قشتالة ألفونسو رمونديس مقابل أراض منحها إياه في منطقة طليطلة ، وذلك في سنة ٥٣٤هـ (١١٣٩م) . وقد لبث سيف الدولة ، الذي تعرفه الرواية النصرانية باسم «سفاذولا» Zafadola مقماً في أراضيه الجديدة ، في كنف ملك قشتالة ، بضعة أعوام ، حتى قامت الثورة في قرطبة وفي غيرها من القواعد الشرقية . وكان فريق من أهل قرطبة يرى في هذا الأمير - آخر بني هود ملوك سرقسطة السابقين - خير ممثل للزعامة الأندلسية العريقة ، ومن ثم فقد عملوا على استدعائه ، ليتولى إمارة قرطبة . ولبي سيف الدولة هذه الدعوة ، وجاء إلى قرطبة ، فدخلها بمائة فريق كبير من أهلها ، فبادر ابن حمد بن إلى الفرار ، ولحق بحصن فرنجولش المنيع ، الواقع شمال غربي قرطبة ، في سطح جبل الشاراب (سيرامورينا) . بيد أن هذا الإزعاج لم يطل أمره . ذلك أنه لم يمض أيام قلائل على قيام سيف الدولة بالأمر ، حتى ثار القرطبيون مرة أخرى ، وهاجموا القصر ، وفتكوا بابن الشماخ وزير سيف الدولة ، وعدة من أصحابه ، ففر سيف الدولة ناجياً بنفسه ، ولما يمض على وجوده في قرطبة اثنا عشر يوماً ، وقصد إلى مدينة جيان ، وكان قد ثار بها القاضي ابن جزى ، فتغلب عليه وملكها منه ، ثم خاض عدة حوادث أخرى نرجئ التحدث عنها ، حتى تستوفى حوادث قرطبة (٢) .

(١) ابن الأبار في التكملة رقم ١١٩ ، ج ١ ص ٣٨ و ٣٩ ، وابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٥٣ ، وفي الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣٠٦ . وفي مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٩٢ .

(٢) الحلة السيرة ص ٢٢٥ .

وما كاد سيف الدولة يغادر قرطبة ، حتى عاد إليها ابن حمدين من حصن فرنجولش واستأنف رياسته ، واستطاع في الأشهر القلائل التي عاشتها حكومته ، أن يدون الدواوين ، وأن يجند الأجناد ، وأن يرسم الخطط ، وبعث إلى بعض زملائه الثوار في القواعد الأخرى في طلب الاعتراف برياسته ، فاعترف بها بعضهم ، ومن هؤلاء أبو الغمر بن عزون^(١) صاحب شريش ، وأبو جعفر بن أبي جعفر صاحب مرسية . واستمرت رياسة ابن حمدين الثانية أحد عشر شهراً . ولكن فريقاً من خصومه الناقين على حكمه ، كتبوا إلى يحيى بن غانية في القدوم عليهم ، واستعادة سلطانه على المدينة . فسار ابن غانية من إشبيلية قاصداً إلى قرطبة ، في جمادى الآخرة سنة ٥٤٠ هـ (١١٥٤ م) . وبرز ابن حمدين من قرطبة في قواته للقائه ، فالتقيا بأحواز لاستجة في جنوب غربي قرطبة ، وكانت بينهما وقعة ، هزم فيها ابن حمدين ، وفر إلى بطليوس ، ملتجئاً إلى حماية صاحبها عبد الله بن الصميل من زعماء المريدين . ودخل ابن غانية قرطبة في الثاني عشر من شعبان من تلك السنة ، ثم غادر ابن حمدين بطليوس ، وسار إلى حصن أندوَجَر الواقع شرقي قرطبة وتحصن به ، وبسط سلطانه على البلاد المجاورة ، فتحرك ابن غانية إلى قتالة ، وحاصره في أندوَجَر مدى شهر . وهنا لجأ ابن حمدين إلى تلك الوسيلة القديمة الذميمة ، التي كانت عماد الطوائف في محاربة بعضهم بعضاً ، وهي الاستنصار بعاهل قشتالة ، القيصر ألفونسو ريمونديس . ويقول لنا ابن الخطيب إن ابن حمدين ، « أطمع القيصر في قرطبة » ، فاستجاب إلى دعوته ، وتحرك وفقاً للرواية العربية إلى نصرته . ولكن الرواية النصرانية تقول لنا إن القيصر أرسل إلى معاونة ابن حمدين ، الدوق فرناندو خوانس في بعض قواته^(٢) . ولما وصل القيصر إلى أندوَجَر ، ولم يستطع ابن غانية ، دفعاً للنصارى ، انصرف في قواته إلى قرطبة ، فسار النصارى في أثره ، ومعهم حليفهم ابن حمدين في أصحابه ، ودخل النصارى وابن حمدين قرطبة في العاشر من ذى الحجة سنة ٥٤٠ هـ (مايو ١١٤٥ م) ، وامتنع ابن غانية في المدينة ، يدافع النصارى في صبر وجلد . وعاث القشتاليون في شرقي قرطبة ، واستباحوا المسجد الجامع ، وأخذوا ما كان فيه من النواقيس التي كانت رؤوساً للثريات ، ومزقوا المصاحف ، ومنها فيما زعموا مصحف عثمان ، ونزعوا المنار من الصومعة ، وكان من الفضة

(١) رسمت كذلك - ابن عزون - في البيان المغرب ص ٢٢ ، وابن خلدون ح ٦ ص ٢٣٤ ، وابن صاحب الصلاة (مخطوطات المجلد بالإمامة لوحة ١٧٥) . ولكن ابن الأبار يرسمها ابن غرون الخلة السبراء ص ٢٢٢

(٢) F. Codera : cit. *Anales Toledanes* (Dec. y Disp.) p. 61. (٢)

الخالصة ، وأحرقوا الأسواق . كل ذلك وابن غانية صامد يدفع النصارى عن القصبه بمنتهى الشدة والبسالة^(١) .

وحدث عندئذ أن جاءت الأخبار بأن الموحدين قد عبروا البحر إلى اسبانيا ، وأن أهل إشبيلية خلعوا طاعة المرابطين ، فاهتم القيصر لهذه الأنباء ، ورأى من الفطنة أن يهادن ابن غانية ، وأن يتركه بقرطبة « سدا بينه وبين بلاده » . وهكذا تم التفاهم بين القيصر وابن غانية ، وعقدت شروط الهدنة ، وخرج ابن غانية من القصبه ، واستحضر له القيصر أهل قرطبة بين يديه ، وقال لهم « إني قد فعلت معكم من الخير ما لم يفعله من قبلى ، وتركتم رعية لى ، وقد وليت عليكم يحيى بن غانية ، فاسمعوا له وأطيعوا » .

ويقص علينا ابن الخطيب الذى ننقل عنه هذه التفاصيل ، أن القيصر مضى في مخاطبة أهل قرطبة ، فقال « ولايربكم أن تكونوا تحت يدى ونظرى ، فعندى كتاب نبيكم إلى جدى » . حدث ابن أم العباد وأبو الحسن قال ، حضرت ، وأحضر حقاً من الذهب ، فُتِحَ وأُخرج منه كتاب من رسول الله (ص) إلى قيصر ملك الروم ، وهو جده بزعمه . والكتاب بخط على بن أبى طالب . قال أبو الحسن ، قرأته من أوله إلى آخره كما جاء في حديث البخارى^(٢) .

وهكذا استقر ابن غانية بقرطبة ، وأخذ في تحصين القصبه ، واشتد في معاملة أهلها ، وأخذ يسومهم الخسف ، لما أثموا به في حقه وغدروا به . وعهد بضبط المدينة ، وتدبير شئونها لمولاه فلوج العليج ، وكان حازماً شديداً الوطأة ، فقال على أهل المدينة ، وأذلم وانتزع كثيراً من أموالهم .

واستمر ابن غانية على تهادنه مع القشتاليين نحو عام آخر ، تطورت الحوادث خلاله بسرعة . أما ابن حمدين فقد غادر قرطبة مع النصارى ، وسار إلى حصن فرنجولش ، ولبت به فترة قصيرة ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، وسار إلى مقابلة الخليفة عبد المؤمن أسوة بمن سار إلى لقائه ، من زعماء الثورة في الأندلس ، فلقبه تحت أسوار مراکش ، وهو محاصر لها (أوائل سنة ٥٤١ هـ) حسبما تقدم ذكره ، فأحسن الخليفة استقباله . ثم عاد إلى الأندلس فنزل بمالقة ، في كنف زميله وحليفه ابن حسون الثائر بها ، وحاول مرة أخرى أن يسترد سلطانه

(١) نقلنا هذه التفاصيل عن ابن الخطيب في الإحاطة في ترجمة ابن غانية (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٩٢) .

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) نفس اللوحة السابقة .

- ٣١٦ -

بقرطبة ، فأخفق مسعاه ، وارتد ثانية إلى مالقة ، واستقر بها حتى توفي في رجب سنة ٥٤٦ هـ (نوفمبر ١١٥١ م) ودفن بمسجدها الجامع . ولما استولى الموحدون على مالقة ، بعد ذلك بعشرين شهراً ، نبشوا قبره ، واستخرجوا جثته وصلبوه ، وهو وفقاً للرواية ، بحاله لم يتغير (١) .

- ٣ -

كان من أصداء ثورة ابن حمدين في قرطبة أن قامت في نفس الوقت في غرناطة ثورة مماثلة ، زعيمها القاضي أبو الحسن علي بن عمر بن أضحي . وكان أبو الحسن هذا من أهل ألمرية ، وبها ولد في سنة ٤٩٢ هـ ، وولى قضاءها بعد قاضيها الزاهد ابن الفراء . ولما قامت ثورة ابن حمدين بقرطبة ، كان ابن أضحي بمدينة غرناطة ، فبعث إليه ابن حمدين يدعوه إلى اتباعه والدعوة له . فاستجاب ابن أضحي لدعوته ، وآزره فريق كبير من أهل المدينة ، وتعاونوا على إخراج الملتزمين (المرابطين) منها ، فاعتصموا بالقصبة ، ونشب القتال بين الفريقين ، وكان أمير غرناطة المرابطي يومئذ ، هو علي بن أبي بكر المعروف بابن فنتو . وهو اسم أمه ، أخت علي بن يوسف . ولما شعر ابن أضحي بتفوق المرابطين ، استغاث بحليفه ابن حمدين صاحب قرطبة ، وابن جزى قاضي جيان ، فبعث إليه ابن حمدين بعض قواته بقيادة ابن أخيه علي بن أبي القاسم المعروف بابن أم العمد . ولكن حدث خلال ذلك ، أن رأى فريق من أهل غرناطة ، أن يلتجئوا إلى رئيس يولونه على أنفسهم ، ويستطيع مغالبة اللمتونيين ، واقترح البعض أن يكون هذا الرئيس هو سيف الدولة بن هود ، لقدم بيته ، وبعد صيته في الرياسة ، وتغلبه على جيان وغيرها من القواعد ، وأيدهم في ذلك ابن أضحي وأصحابه . وبعث أهل المدينة برغبتهم إلى ابن هود ، فلما رأى ابن أم العمد تطور في عسكر « من أوباش النصاري وسقاط الخند » . فلما رأى ابن أم العمد تطور الأمور على هذا النحو ، ارتد في قواته ثانية إلى قرطبة . وتعاهد ابن أضحي وابن هود على مدافعة اللمتونيين . وكان اللمتونيون حين مقدم ابن هود ، قد أنسوا ضعف عسكره ، وانحلال جنده ، فبرزوا للقائه خارج غرناطة ، ونشب بينهما قتال شديد ، فهزم ابن هود ، وقتل كثير من أصحابه ، وكان ذلك في اليوم

(١) ابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٢٥٤ . ويقول الضببي إن وفاته كانت في سنة ٥٤٣ هـ (بغية الملتزم ص ٢٦١) ، ويمول ابن الأبار إنها كانت في سنة ٥٤٨ هـ (النكلة رقم ١١٩) .

التاسع عشر من ذى الحجة سنة ٥٣٩ هـ . ولم يستطع ابن هود أن يدخل غرناطة إلا بشق النفس ، فدخلها مع من بقى من رجاله ، من فوق الأسوار ، ومن أعلى التلال ، ثم جاز إليها من باب مورور ، بعد أن اشتبك في معركة أخرى مع قوة مرابطية ثانية ، وفقد عدداً آخر من جنده^(١) . وفي رواية ابن الأبار أن ابن هود وابن أضحى لبثا على قتال المرابطين بالقصبة شهراً ، وفي خلال ذلك جرح ولد ابن هود عماد الدولة وأسر ومات بالقصبة ، فدفع المرابطون بنعشه إلى أبيه . ثم توفي القاضي ابن أضحى ، فتقدم ولده محمد مكانه ، واستمر على التعاون مع ابن هود في مدافعة اللمتونيين . وقدم في نفس الوقت عسكر من مرسية قوامه نحو ألفي فارس بقيادة قاضيه الناصر بها ابن أبي جعفر ، فخرج إليه اللمتونيون ، فهزموه وقتلوه ومعظم عسكره ، واستباحوا البلد - غرناطة - استباحة قهر وغلبة ، وفر معظم الناس عن منازلهم ، ثم ارتدوا إلى القصبة واعتصموا بها . فلما رأى ابن هود تفاقم الأمور على هذا النحو ، وأنه لا طاقة له بمقاومة اللمتونيين ، غادر غرناطة ، وفر إلى قاعدته جيان ، وكان قد ترك بها ابن عمه نائباً عنه . وقد أورد لنا ابن الأبار ، في ترتيب هذه الحوادث ، رواية أخرى خلاصتها ، أن ابن أضحى لما قام بثورته ، دعا أولاً لابن حمدين وذلك في رمضان سنة ٥٣٩ هـ ، فامتنع الملتزمون بالقصبة ، إلى أن وصل من جيان مع بعض قواد الثغر مدد لابن أضحى ، وانضم إليه جمع وافر من أهل غرناطة ، فخرج إليهم الملتزمون ، وهزمهم شر هزيمة ، ثم عادوا إلى القصبة . ودامت الحرب بين الفريقين مدة داخل غرناطة وخارجها ، إلى أن قدم ابن أبي جعفر القائم بمرسية في عسكر قليل إنه كان يبلغ اثني عشر ألفاً بين خيل ورجل ، فخرج إليهم الملتزمون مرة أخرى وهزمهم ، وقتلوا ابن أبي جعفر ، ثم عادوا إلى الاعتصام بالقصبة مرة أخرى . وهنا قدم ابن هود في قواته ودخل غرناطة من باب مورور ، فاستقبله ابن أضحى وأنزله ، واستسقى ابن هود ، فأمر له بقدح من الماء المسموم ، فصاحت به العامة محذرة ، فخرج ابن أضحى . وتناول القدح وشرب منه . لكن يدفع مظنة الاتهام ، فمات من ليلته ، وانتقل ابن هود إلى القاعة الحمراء ، والقتال متصل بين الملتزمين وأهل غرناطة ، حتى كان ذات يوم تمكن الملتزمون فيه من

(١) نقلنا التفاصيل المتقدمة عن كتاب الذيل والكملة لابن عبد الملك المراكشي ، وقد وردت في ترجمة علي بن عبد الله بن ثابت الأنصاري (عن نسخة خزانة الرباط المصورة عن نسخة باريس) .

ابنه وقتلوه . وبقي ابن هود بعد ذلك نحو شهر في غرناطة ، والصعاب تكتنفه من كل صوب ، ثم هم أهل غرناطة بمناوأة ففر عنها ليلاً وقصد إلى مرسية ، أو إلى جيان . وقام من بعده بأمر غرناطة أبو بكر محمد بن أبي الحسن بن أضحي ، ولكنه لم يلبث بها سوى أيام قلائل ، وهو يدافع خصومه ، ثم فر بعد ذلك إلى المنكب ناجياً بنفسه (أول سنة ٥٤٠ هـ) واضطر أهل غرناطة إلى التفاهم مع حاكمها المراتبي ميمون بن بدر بن ورقاء ، وكان قد خلف أميرها السابق على بن فتو بعد وفاته ، وهكذا استعاد اللمتونيون سيطرتهم على غرناطة (١) .

وكان القاضي أبو الحسن بن أضحي فقيهاً بارعاً ، وأديباً ، وشاعراً جزلاً ، وقد أورد لنا ابن الآبار طائفة من نظمه ، ومن ذلك قوله :

يا ساكن القلب رفقاكم تقطعه الله في منزل قد ظل مثواكا
يشيد الناس للتحصين منزلهم وأنت تهدمه بالعنف عيناكا (٢)

— ٤ —

وحدث في مالقة نفس ما حدث في قرطبة وغرناطة ، وانقلب قاضيا إلى تزعم الثورة بها ضد المراتبين . ولأنه لما يلفت النظر في هذه الأحداث المتشابهة ، تلك الظاهرة العجيبة ، وهي أن قادة الثورة ضد المراتبين لم يكونوا زعماء الجند ، وإنما كان معظمهم قضاة من رجال القلم . ففي قرطبة ، وجيان ، وغرناطة ، ومالقة ، ومرسية ، وبلنسية ، وغيرها ، كان زعماء الثورة قضاة ، فقهاء أدباء وشعراء ، من أعلام التفكير في ذلك العصر . وقد نجد تعليلا لتلك الظاهرة ، فيما كان يتمتع بها الفقهاء والقضاة ، في ظل الدولة اللمتونية من واسع الجاه والنفوذ ، حتى تركزت فيهم عناصر الزعامة المحلية ، التي كان يتمتع بها من قبل جيل الأمراء والقادة ، الذين اختفى معظمهم حينما قضت الدولة اللمتونية على دول الطوائف ، وإلى أنه لما أخذ نجم الدولة اللمتونية في الأفول ، وانهار سلطان أولئك القضاة بانهار الدولة ، التي أظلم سلطانها ونفوذها ، حاولوا بإضرار نار الثورات المحلية ، وتولى زعامة مدائنهم ، أولا أن يحتفظوا بسابق رياستهم ، وثانياً أن يستردوا سلطانهم القومي ، بعد ما تحطم نير الدولة الغالبة . وسوف نرى فيما بعد ، أنه بعد أن تختفي هذه الثورات المحلية الصغيرة ، سواء بالقضاء

(١) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٠٩ .

(٢) الحلة السيرة ص ١٠٩ و ٢١٠ و ٢١١ ، وقد وردت بها مقطوعات شعرية أخرى لابن أضحي .

عليها ، أوبانضواء قادتها تحت لواء الدولة الموحدية الجديدة ، تبقى عناصر الثورة القومية الأندلسية العسكرية والسياسية ، مستمرة مدى جيل آخر ، على يد بعض الزعماء ، الذين لم يجدوا في قيام الدولة الموحدية بالأندلس ، مكان الدولة المرابطية ، تحقيقاً للغاية القومية التحريرية ، التي كانت تبغيتها الأندلس ، من تحطيم نير أولئك الغزاة البربر ، الذين جاءوا إليها من وراء البحر ، باسم الجهاد في سبيل الله ، ثم استقروا فيها سادة حاكمين .

في الوقت الذي قام فيه ابن حمدين بقرطبة ، وابن أضحي بغرناطة ، نهض بمالقة قاضيها أبو الحكم بن حسون ، ليتزعم ثورة مماثلة . وهو الحسين بن الحسين ابن عبد الله بن الحسين الكلبي بن حسون ، ويكنى بأبي الحكم ، وكان ينتمي إلى بيت من أعرق بيوتات مالقة ، اشتهر بالعلم والجاه والسراوة . ولّى قضاء مالقة في سنة ٥٣٨ هـ ، مكان قاضيها أبي محمد الوحيد حينما استقال لفقد بصره ، ولما وقعت الثورة بقرطبة وغرناطة ، وغيرها من القواعد ، في هذا الوقت بالذات ، وتكاتب القضاة ، أعلن أبو الحكم الثورة في مالقة ، ودعا لنفسه ، وقام بأمر المدينة ، وحاصر اللمتونيين في القصبية ، ولبت على منازلهم ستة أشهر ، حتى أخرجهم منها ، وملك القصبية ، واستقر بها وتسمى باللقاب الإمارة ، وعين أخاه أبا الحسن قائداً لقواته ، وأسند إليه ولاية قرطمة وما إليها .

ولكن المرابطين في أنتقيرهم وغيرها من الحصون المجاورة ، استمروا في مهاجمته ومضايقته ، حتى اضطر أخيراً ، أن يستعين بالمرتزقة النصراني ، واضطر من أجل دفع أجورهم ، أن يرهق أهل المدينة بالمطالب والمغارم المختلفة ، فنقموا عليه مسلحه ، وداخل فريق منهم رجلاً من خاصته ، كان قائد الحرس ببابه يدعى اللوشى ، واثتمروا معه على الإيقاع بأبي الحكم . ونجحت المؤامرة ، واستطاع المتآمرون بمعاونة اللوشى . أن يخترقوا الأبواب ، وأن يملكوا القصبية ، فامتنع ابن حسون داخل القصر ، ودافع عن نفسه بأعنف ما استطاع ، فلما نفذت جهوده ، وقتل أخوه وأيقن بالهلاك ، نفذ إلى داخل داره ، وأراد أن يقتل نساءه وبناته صوناً لهن ، فاعتصمن منه بالغرف والبيوت الداخلية ، فعمد عندئذ إلى إحراق كتبه وذخائره ، ثم تناول سماً فلم يقتله لفوره ، فتحامل على نفسه ، وطعن نفسه برمح نفذ إلى ظهره ، ولكنه لم يمت وارتمى وهو يحتضر متخبطاً في دمه ، ودخل أعداؤه القصر فألقوه على تلك الحالة ، ومات بعد يومين في الحادي عشر

— ٣٢٠ —

من ربيع الأول سنة ٥٤٧ هـ (يونيه سنة ١١٥٢ م). فصلبت جثته ، واحتز رأسه وأرسل إلى مراکش . ولما استولى الموحدون على مالقة بعد ذلك بنحو عام ، في أوائل سنة ٥٤٨ هـ ، قبض على أهله وولده ، وبيع بناته ، واشترى بعضهن بعض أكابر الدولة الجديدة . فكانت نهايته المحزنة من أتعس ما لقي ثوار النواحي في تلك الفترة^(١) .

— ٥ —

وقام في وادى آش ، على مقربة من غرناطة ، في الوقت الذى قام فيه ابن حمدين في قرطبة ، وابن أضحي في غرناطة ، أحمد بن محمد بن ملحان الطائى ، فاستولى على القصبه وحصنها ، ودعا لنفسه ، وتلقب بالمتأيد بالله ، وعمل على تعزيز مركزه بكل الوسائل ، واشتد في تحصيل المال والدخائر ، واقتنى الضياع الواسعة ، وتولى فلاحها وحرثها ، حتى غدا من أغنى أهل زمانه . وتغلب على بعض القواعد القريبة ، مثل بسطة وضمها إلى إمارته ، واستخدم في بلاطه الصغير عدة من مشاهير العلم والأدب في ذلك العصر ، مثل أبى بكر بن طفيل الفيلسوف الطبيب ، وأبى الحكم هروُدُس . واستطال عهده عدة أعوام . ولما قام محمد بن سعد بن مردنيش بثورته في شرق الأندلس ، وزحف على القواعد الوسطى والجنوبية ، قاصداً توسيع أملاكه ، ومحاربة الموحدين في نفس الوقت ، سار إلى وادى آش تعاونه فرقة من النصاري ، فلما رأى ابن ملحان أنه لا طاقة له به أعلن طاعته للموحدين ، وكانوا في ذلك الوقت قد استولوا على غرناطة ، بيد أنه لم يستطع الاحتفاظ بوادى آش فخرج عنها ، واستولى عليها ابن مردنيش كما استولى على بسطة وغيرها ، وذلك في سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) . وعبر ابن ملحان البحر إلى المغرب ، ودخل في خدمة الموحدين ، واستعمل بمراكش في بعض الأعمال الهندسية في إقامة البحيرة وإجراء مائها ، ثم نكب بعد ذلك لأسباب لا نعرفها ، ونزعت أمواله ، وتوفى في بؤس وضعة^(٢) .

— ٦ —

وثار في جيان قاضيها يوسف بن عبدالرحمن بن جُزى ، وأنشأ بها حكومة مستقلة ،

(١) ابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٢٥٥ .

(٢) ابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٢٦٤ ، والإحاطة ج ٢ (القاهرة) ص ٨٩ .

اقتداء بزملائه القضاة في قرطبة ، وغرناطة ، ومالقة ، ومرسية وغيرها . وليست لدينا عن حكمه وأيامه ببيان تفاصيل شافية . بيد أن رياسته لم تطل فيما يبدو ، لأن سيف الدولة بن هود استطاع التغلب على جيان وانتزاعها منه ، قبيل مسيره إلى قرطبة في أواخر سنة ٥٣٩ هـ (أوائل سنة ١١٤٥ م) (١) .

وشملت الثورة أراضي مثلث الأندلس الجنوبي ، فقامت في رندة ، وشريش وقادس حكومات مستقلة ، وقضى فيها على سيادة المرابطين . ففي رندة قام رجل من رجال القلم ، وهو أخيل بن إدريس الرندى ، وأنشأ بها حكومة مستقلة . وكان أخيل هذا ، وهو في الأصل من أهل رندة ، كما يدل على ذلك اسمه ، كاتباً أديباً شاعراً ، وكتب في بداية حياته للملثمين . ولما قام ابن حمدين في قرطبة ، استخدمه في بطانته ، وكتب له ، وكان وثيق الصلة به مذ كان متولياً قضاء قرطبة . فلما استرد الملثمون قرطبة على يد ابن غانية ، وسقطت حكومة ابن حمدين ، سار أخيل إلى بلده رندة ، وكانت أمورها فوضى لا ضابط لها ، فدعا لنفسه ، واستطاع أن يقوم بحكمها وضبطها ، ولكن قريباً من خصومه سعوا إلى إسقاطه ، وخاطبوا أبا الغمر بن السائب بن عزون ، صاحب شريش ، في القدوم إلى رندة ، والتغلب عليها . فاستجاب لهم ، وقدم إلى رندة ، واستطاع بمخادعة أخيل ، أن يستولى على القصبه دون قتال ، وانتزع أموال أخيل وأموال أصحابه ، وفر أخيل ناجياً بنفسه إلى مالقة ، ثم عبر البحر منها إلى المغرب ، واتصل في مراكش بالوزير ابن عطية ، فأكرم وفادته ، وساعده فيما بعد على استرداد أمواله . ولما استولى الموحدون على الأندلس ، وثى قضاء قرطبة ، ثم قضاء إشبيلية ، وتوفي بإشبيلية سنة ٥٦١ هـ (١١٦٦ م) ، وكان أديباً مطبوعاً وشاعراً جزلاً (٢) .

وكان ابن عزون في مقدمة الثوار الذين خلعوا طاعة المرابطين ، فقام في بلده شريش ، وأنشأ حكومة مستقلة ، في نفس الوقت الذي قام فيه أحمد ابن قسي في الغرب . وقوى أمر ابن عزون بسرعة ، وبسط سلطانه على أركش ، ثم على رندة حسبما تقدم ، وأعلن انصوائه في البداية تحت طاعة ابن حمدين صاحب

(١) أشار ابن الخطيب في أعمال الأعلام إلى ثورة ابن جزي في جيان إشارة عابرة ص ٢٥٩ .

(٢) الحلة السيرة ص ٢٢٢ .

قرطبة . فلما تطورت الحوادث وانهارت حكومة ابن حمدين ، واضطر إلى مغادرة قرطبة ، نادى بخلع طاعته ، والاستقلال بدعوته . وفي أوائل سنة ٥٤١ هـ ، عبر البحر إلى المغرب ، وسار إلى لقاء الخليفة عبد المؤمن ، وهو يومئذ يعسكر بمحلتة تحت أسوار مراكش وبايعه بالطاعة ، وكان من الوافدين على عبد المؤمن في نفس الوقت ابن حمدين زعيم قرطبة السابق^(١) . ولما عبر الموحدون إلى الأندلس ، كان ابن عزون وجند شريش أول من لقيهم ، وانضم اليهم . ويقدم إلينا صاحب روض القرطاس ، رواية أخرى ، خلاصتها أن أبا الغمر (ويسميه محرفاً أبا القمر) وهو من بني غانية ، كان هو القائد المرابطي لشريش ، وأنه لما عبر الموحدون البحر إلى الأندلس لأول مرة في سنة ٥٣٩ هـ ، وفتحوا مدينة شريش صلحاً ، انضم إليهم أبو الغمر في قواته ، وكانت ثلاثمائة فارس ، وأعلن بيعة عبد المؤمن ، فكانت شريش بذلك أول قاعدة أندلسية دخلت في طاعة الموحدين ، وكان الموحدون لذلك يسمون أهلها بالسابقين الأولين ، ومن أجل ذلك حررت أملاكهم من المغارم ، وكانت وفود الأندلس إذا قدمت للسلام على الخليفة الموحدى ، كان وفد شريش أول الداخلين . وتم فتح شريش وفقاً لهذه الرواية في شهر ذى الحجة سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٥ م)^(٢) . على أننا نؤثر الأخذ بالرواية المتقدمة ، وهى تقدم إلينا ابن عزون ضمن ثوار الأندلس ، ثم تفصل لنا أعماله وحركاته في منطقة الفرنتيرة ، ووفوده على عبد المؤمن بما يتفق مع باقى الحوادث التى وقعت في تلك المنطقة في تلك الفترة ، وهى رواية يؤيدها ابن الأبار ، وابن عذارى ، وابن خلدون ، وهى بذلك في نظرنا أوثق وأكثر قبولا^(٣) .

ونختتم هذا الثبت من ثوار غربى الأندلس ضد المرابطين بذكر زعيمين آخرين ، أولهما على بن عيسى بن ميمون والى ثغر قادس ، وقائد الأسطول المرابطى بهذه المنطقة ، وقد كان في مقدمة الزعماء الذين خلعوا طاعة المرابطين ، وفي سنة ٥٤٠ هـ عبر البحر إلى المغرب ، وسار إلى لقاء عبد المؤمن ، وكان يومئذ قائماً على حصار فاس ، فقدم إليه طاعته ، ثم عاد إلى قادس ، وأقام بها الخطبة

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٢ .

(٢) روض القرطاس ص ١٣٢ .

(٣) راجع الحلة السيرة ص ٢٢٢ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢ ، وابن خلدون

للموحدين . وهو الذى عاون ابن قسى على العبور إلى المغرب ، ودفعه إلى مقابلة عبد المؤمن بنفسه ، ليناشده الجواز إلى الأندلس . ثم كان بعد ذلك ممن ثاروا على الموحدين ، وخلعوا طاعتهم من زعماء الغرب ، وذلك حينما ارتد ابن قسى عن الطاعة ، وتبعه زعماء لبلة وبطليوس وطبيرة وغيرهم ، إلى أن عبرت عساكر الموحدين بعد ذلك بقليل بقيادة يوسف بن سليمان ، وأخضعت أولئك الزعماء الثائرين بمختلف قواعد الغرب .

والثانى هو محمد بن على الحجام الثائر ببطليوس ، وقد ذكره ابن الخطيب فى ثبت زعماء الثورة ضد المرابطين ، ولكنه لم يقدم لنا عنه أى تفصيل آخر^(١). وذكره ابن خلدون ضمن الزعماء الذين خلعوا طاعة الموحدين ، ثم ذكر لنا بعد ذلك أنه حينما عبر يوسف بن سليمان بعساكر الموحدين ، وسار إلى مقاتلة ثوار الغرب ، عاد ابن الحجام (ويسميه هنا محرفاً ابن الحاج) إلى الطاعة ، وبعث إلى عبد المؤمن بهدية كان لها وقع حسن^(٢). ونحن نعرف مما تقدم أن بطليوس كانت من القواعد التى بسط ابن وزير عليها سلطانه ، وندب خاله عبد الله بن الصميل والياً عليها^(٣) . ولم تذكر لنا الرواية بعد ذلك ، متى ولا فى أى ظروف ، آلت بطليوس إلى محمد بن الحجام .

(١) أعمال الأعلام ص ٢٤٨ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ و ٢٣٥ .

(٣) الخلة السيرة ص ٢٠٤ .

الفصل الثاني

عبد المؤمن وشئون الأندلس

وافتحاح إشبيلية وقرطبة وغرناطة والمرية

اجتأمت عبد المؤمن بشئون الأندلس . مقدم الوفود الأندلسية على عبد المؤمن . متى تدخل الموحدون في شئون الأندلس . عبور الجيوش الموحدية الأولى إلى شبه الجزيرة وأعمالها . زحفها على إشبيلية ، وافتتاحها إياها . أخوا المهدي وحكمها لإشبيلية . تطور الحوادث وخروج الزعماء الأندلسيين على الموحدين . عبد المؤمن يرسل جيشاً آخر إلى الأندلس . إخضاع الموحدين لليلة وطلباطة وطبيرة وبطليوس . التجاء ابن قسى إلى ملك البرتغال . سحق أهل تلب وتآمرهم ضده بزعامة ابن المنذر . مصرع ابن قسى وعودة شلب إلى طاعة الموحدين . استيلاء ابن وزير على شلب . اعتقال الموحدين لابن المنذر . شعر ابن قسى وابن المنذر . رياسة ابن غانية في قرطبة . ضغط ملك قشتالة عليه . تنازله عن رياسة وأبدته . مطالبته بالتنازل عن جيان . مقاضاة ابن غانية لبراز والى لإشبيلية الموحدى . الاتفاق على تسليم قرطبة وقرمونة للموحدين . مغادرة ابن غانية قرطبة إلى غرناطة . فكرته في التفاهم مع الموحدين . مرضه ووفاته وخلا له . زحف القشتاليين على قرطبة واحتلالهم إياها . مبادرة الحشود الموحدية لإنقاذها . انسحاب القشتاليين منها . احتلال الموحدين لقرطبة وجيان وأبدته ورياسة . قيام ابن مردنيش في شرق الأندلس . امتداد أملاكه حتى جيان . قيام الثورة ضده في بلنسية . اقتحامه لبلنسية واستعادته لسلطانه . معاقبته لأهل بلنسية ولورقة . رسالة عبد المؤمن لابن مردنيش . استيلاء الموحدين على مالقة . اختيار عبد المؤمن لولده محمد لولاية العهد . ظروف هذا الاختيار حسبما يعرضها عبد المؤمن في رسالته . رواية أخرى عن ذلك . عبد المؤمن يولى أولاده حكم البلاد . مهاجمة الوهيبى لمدينة لبلة . مسير ابن يومور والى لإشبيلية إليها . احتلاله لبلة وفتكه بأهلها . القبض على ابن يومور ومعاقبته . الشكوى إلى الخليفة من ابن الرنق . إنشاء عبد المؤمن لبستان شغللولية . طوافه بنواحي الأطلس والسوس . زيارته لتينملل . المصحف العثماني ونقله من قرطبة إلى مراكش . إنشاء عبد المؤمن لمسجد مراكش الجامع . نذب ابن يكيث لولاية قرطبة وعبد الله بن أبى حفص لولاية لإشبيلية . غزو ابن يكيث لأرض قشتالة . غزو عبد الله بن أبى حفص لأراضى البرتغال . تسليم الوالى المرابطى غرناطة للموحدين . التأهب لاسترداد ألمرية من النصارى . مسير السيد أبو سعيد والى غرناطة إليها . مسير الأسطول الموحدى إلى مياهاها . محاصرة الموحدين لألمرية . مبادرة ملك قشتالة وحليفه ابن مردنيش لإنجاد الحامية النصرانية . استمرار الحصار وقشل كل محاولة لإنجاد الحامية . مقدم الوزير ابن عطية ومعالجته للموقف . تسليم النصارى وعودة ألمرية إلى المسلمين . انسحاب ملك قشتالة وحليفه ابن مردنيش . وفاة ملك قشتالة ألفونسو السابع . حوادث الغرب . امتناع الوهيبى بنفر طيرة . مسير الموحدين إلى طيرة ومحاصرتها . إتفاق الموحدين مع الوهيبى . تغل ابن وزير عن باجة وميرتلة وشلب ، وعبوره إلى المغرب . الوزير ابن عطية . توليه الوزارة وتوطد مكانته . إرساله إلى الأندلس . تولية عبد السلام الكومى الوزارة في غيابه . سعى خصومه

— ٣٢٥ —

إلى التثمين به . مروان بن عبد العزيز وتحريضه للخليفة عليه . عود ابن عطية إلى المغرب . اعتزام عبد المؤمن التتكيل به . القبض عليه وعقد مجلس لاتهامه . القبض على أخيه عقيل بن عطية . توسل ابن عطية إلى الخليفة لاهتمو عنه . إعراض الخليفة عن توسله والسرى ذلك . مسير الخليفة إلى تينملل ومعه الأخوان . إعدامهما خلال عوده إلى مراکش . تأملات عن هذا الحادث .

— ١ —

لم يكن عبد المؤمن بغافل عن أهمية الأندلس ، والعمل على تحريرها من أيدي المرابطين باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية المرابطية ، التي نذر الموحدون أنفسهم للقضاء عليها ، واستخلاص تراثها ، ولم تكن تعوقه عن العناية بشئون الأندلس ، أية حوادث أو مشاغل داخلية ، مهما بلغت من الخطورة ، فنراه في أدق المراحل من الصراع بينه وبين المرابطين ، يستقبل وفود الأندلس ، ويزودها بنصحه وعونه ، ثم هو بعد ذلك ينتهز أول فرصة لتوجيه جيوشه إلى شبه الجزيرة ، لتأخذ بنصيبها من حوادث الأندلس ، ولتمهد السبيل لسيطرة الموحدين عليها .

وكان في مقدمة من وفد على عبد المؤمن من زعماء الثورة في الأندلس ضد المرابطين ، أبو الغمر بن السائب بن عزون زعيم شريش وأركش ورندة ، وأبو جعفر بن حمد بن زعيم قرطبة المعزول ، وفدا عليه في أوائل سنة ٥٤١ هـ وهو على حصار مراکش ، لاستنهاض همته للتدخل في حوادث الأندلس ، وإنجاد زعمائها الثائرين ضد المرابطين . ووفد في نفس الوقت أو بعده بقليل على عبد المؤمن زعيم الثورة في غرب الأندلس ، أو زعيم ثورة المريردين أحمد بن قسي ، عقب خلعه وفقده لإمارته في شلب وميرتلة على يد خصمه ومنافسه سيدراى بن وزير صاحب باجة . وقد سبق أن فصلنا في موضعه ظروف مقدمه على عبد المؤمن ، وما يحيط بذلك من خلاف على تاريخ مقدمه ، ومكان لقائه به . ثم وفد على عبد المؤمن في أوائل سنة ٥٤٢ هـ عقب افتتاح مراکش ، وفد كبير من إشبيلية ، وعلى رأسه القاضي أبو بكر بن العربي وعدة من زعماء إشبيلية ، يحملون إليه بيعة أهل إشبيلية ، وذلك على أثر افتتاح الموحدين لها . وفي أواخر سنة ٥٤٥ هـ وأوائل سنة ٥٤٦ هـ ، وفد على عبد المؤمن ، وهو بسلا يعد عدته لافتتاح إفريقية ، وفود أندلسية عديدة من مختلف حواضر الأندلس ، ومن بينها كثير من رجالات الأندلس البارزين ، من الفقهاء والقضاة والزعماء والقواد ، بلغوا نحو خمسمائة ، وشرح له خطباؤهم خطورة عدوان النصارى على الأندلس ،

واستطالتهم على قرطبة ، وما يقتضيه ذلك من مزيد العون والجهد ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل في موضعه^(١) .

كان لمقدم هذه الوفود الأندلسية المتوالية أثرها في إذكاء العزم ، الذي تكون لدى عبد المؤمن من قبل ، نحو شئون الأندلس ، ومبادرته إلى التدخل الفعلي في حوادثها ، ومضاعفة جهوده في توجيه البعوث العسكرية إليها . وقد اختلفت الرواية في تحديد تاريخ تدخل الموحدين في شئون الأندلس ، وفي كيفية هذا التدخل . ففي رواية صاحب روض القرطاس ومن روى عنهم ، أن هذا التدخل يرجع إلى أواخر سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) عقب افتتاح عبد المؤمن لتلمسان ، ففي هذا التاريخ بعث عبد المؤمن إلى الأندلس جيشاً موحدياً من عشرة آلاف فارس بقيادة الشيخ أبي عمران موسى بن سعيد ، ونزل هذا الجيش بساحل الجزيرة الخضراء ، وكان أول بلد افتتحوه هو مدينة شريش ، افتتحوها صلحاً ، إذ خرج صاحبها أبو الغمر بن عزون ، وهو من بني غانية المرابطين ، في حامية المرابطين ، وقوامها ثلاثمائة فارس ، وبايع لعبد المؤمن ، وأعلن دخوله في طاعته . وكان الموحدون لذلك يسمون أهل شريش بالسابقين الأولين ، وحررت أملاكهم من المغارم ، وكان خلفاء الموحدين إذا قدمت عليهم وفود الأندلس للسلام ، يقدمون وفد شريش ، ويُنادى عليهم ابن السابقون ، ثم تتلوهم بقية الوفود . ويحدد لنا صاحب روض القرطاس ، نقلاً عن ابن فرحون ، دخول الموحدين شريش بشهر ذي الحجة سنة ٥٣٩ هـ . ودخل الموحدون بلدة طريف والجزيرة الخضراء قبل ذلك بقليل ، وفر المرابطون منها إلى إشبيلية^(٢) . بيد أن هذه الرواية التي ينفرد بها صاحب روض القرطاس ، تعارضها رواية أخرى هي رواية ابن الأبار وابن خلدون ، وهي تدلّ بأن تدخل الموحدين في شئون الأندلس يرجع إلى سنة ٥٤٠ هـ ، وأن أول جيش موحدى وُجه إلى الأندلس ، دخلها في أوائل سنة ٥٤١ هـ . وتفصيل ذلك هو أنه حينما كان عبد المؤمن يعسكر بجيشه تحت أسوار فاس في سنة ٥٤٠ هـ ، وفد عليه علي بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول المرابطي في مياه قادس ، وقدم إليه طاعته ، ثم عاد إلى الأندلس ،

(١) البيان المغرب القدم الثالث ص ٢٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ ، والحلل الموشية ص ١١١ ، وروض القرطاس ص ١٢٥ ، والحلة السيرة ص ٢٠٠ .

(٢) روض القرطاس ص ١٢٢ و ١٢٣ .

وأقام الخطبة للموحدين بجامع قادس^(١) ، وفي وسعنا أن نرجع بداية تدخل الموحدين في شئون الأندلس إلى هذا التاريخ ، أعنى إلى سنة ٥٤٠ هـ . وأما تدخل الموحدين العسكري في شئون الأندلس فيرجع وفقاً لقول ابن الأبار إلى أوائل سنة ٥٤١ هـ . وذلك أنه حينما وفد ابن قسى زعيم ثورة الغرب ، على عبد المؤمن في ربيع الثاني سنة ٥٤٠ هـ ، ليحثه على إنجاد ثوار الغرب ، واستخلاص الأندلس من أيدي المرابطين ، بعث عبد المؤمن في المحرم سنة ٥٤١ هـ جيشاً إلى الأندلس ، ومعه ابن قسى . وهذا الجيش هو الذى افتتح طريف والجزيرة الخضراء ، ثم سار بعد ذلك إلى شلب ليفتحها من يد ابن وزير المتغلب عليها ، وليعيدها إلى صاحبها ابن قسى^(٢) . بيد أننا قد بينا من قبل ، أن عبور ابن قسى إلى المغرب ، لا بد أنه وقع بعد التاريخ الذى يحدده ابن الأبار بقليل ، وذلك عقب فقد ابن قسى لحاضرتة ميرتلة في شعبان سنة ٥٤٠ هـ ، وأن هذا العبور قد وقع حسبما يرجح في أواخر سنة ٥٤٠ هـ^(٣) ، فهنا وجه عبد المؤمن أول جيش موحدى إلى الأندلس بقيادة برّاز بن محمد المسوّفى ، وكان قبل من قاده الأمير تاشفين ، ثم انحاز بعد مصرعه إلى الموحدين ، ثم أمده بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد ، ثم بجيش ثالث بقيادة عمر بن صالح الصنهاجى ، وكانت مهمة الموحدين في شبه الجزيرة ، أن يقاتلوا اللمتونيين ، والثوار معاً . وكان عبور هذا الجيش الموحدى إلى الأندلس في شهر المحرم سنة ٥٤١ هـ . وبعد أن استولى الموحدون على طريف والجزيرة الخضراء ، ساروا إلى مدينة شّريش حيث انضم إليهم صاحبها أبو الغمر بن عزون وولده . ثم ساروا إلى مدينة لّسّلة ، فأعلن صاحبها يوسف بن أحمد البطروجى الطاعة . وقصد الموحدون بعد ذلك إلى ميرتلة ، حاضرة ابن قسى من قبل ، وكانت عندئذ تحت سلطان منافسه سيدراى بن وزير فاستولوا عليها . ثم استولوا على شلب ، وردوا أمرها إلى ابن قسى . وساروا بعد ذلك إلى باجة ثم إلى بطليوس ، وكانا لنظر ابن وزير ، وعلى بطليوس من قبله خاله عبد الله بن الصميل ، فأعلن ابن وزير الطاعة ، وأطلق سجينه محمد بن عمر بن المنذر أحد زعماء المريدن ، وكان قد تغلب عليه وسجنه

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٣ .

(٢) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٠٠ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦ ، و ج ٦ ص ٢٣٤ .

حسبنا ذكرنا من قبل في موضعه ، ثم سُمِلت عيناه وهو في السجن ، فقصد إلى شلب واستقر بها إلى جانب زميله وحليفه السابق ابن قسي^(١) . وسيطر الموحدون في هذه الجولة الأولى على قواعد الغرب ، التي كانت بأيدي المرينين ، ولم تستغرق منهم سوى بضعة أشهر . بيد أنها لم تكن سوى مقدمة ، لغاية أهم وأخطر ، هي الاستيلاء على حاضرة إشبيلية .

وسار الموحدون في سائر قواتهم إلى إشبيلية ، وانضم إليهم زعماء المرينين ، أحمد بن قسي وسيدراى بن وزير ويوسف البطروجي كل في قواته ، واستولوا في طريقهم صلحاً على طلياطة وحصن القصر ، وهما قلعتا إشبيلية من الغرب ، وقد أعلنت كلتاها الطاعة ، ثم ضربوا الحصار حول إشبيلية . وحاصرتها من البحر سفن الأسطول الأندلسي ، بقيادة على بن عيسى بن ميمون ، صاحب قادس . ولم يطل أمد هذا الحصار ، إذ لم يكن لإشبيلية سوى حامية مرابطة ضعيفة ، تدافع في ظروف دقيقة ، ومن حولها شعب خضيم متربص ، وسرعان ما اقتحم الموحدون المدينة ، ففر منها المرابطون إلى قرمونة ، وقتل الموحدون من أدركوه منهم ، وقتل في تلك المعركة عبد الله بن العربي ، ولد القاضي أبي بكر ابن العربي ، عميد فقهاء المدينة وزعمائها . وتم فتح إشبيلية في اليوم الثاني عشر من شعبان سنة ٥٤١ هـ (١٨ يناير سنة ١١٤٧ م)^(٢) وكتب بالفتح إلى عبد المؤمن ، فعلم به ، وهو على وشك دخول مراكش ، ثم قدم إليها بعد افتتاحها بقليل ، وقد لإشبيلية برياسة القاضي ابن العربي ، يحمل إليه بيعة أهلها ، حسبنا ذكرنا من قبل ، وذلك في أوائل سنة ٥٤٢ هـ .

وكان بين مشيخة عسكر الموحدين بإشبيلية ، عبد العزيز وعيسى ، أخوا المهدي ابن تومرت . ولما كانت إشبيلية ، عند فتحها دون أمير يتولى حكمها ، فقد توليا هذه المهمة ، فساء سلوكهما ، وبغى كلاهما وطغى ، واستحلا سفك الدماء ونهب الأموال ، وغدت المدينة في ظلهما مسرحاً لشر ضروب الفوضى ، وناهضهما في ذلك يوسف البطروجي صاحب لبلة ، فاعزما الفتك به ، فغادر

(١) ابن الأبار ص ٢٠٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ .

(٢) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٣٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ ، وابن الأثير ج ١١ ص ٤٤٣ و ٤٤٤ . ويقول صاحب روض القرطاس ان افتتاح الموحدين لإشبيلية كان في سنة ٥٤٠ هـ (ص ١٢٣) وهي رواية ضعيفة .

إشبيلية إلى بلده ، وأخرج الموحدین منها ، ونقض الطاعة ، وتحالف مع فلول المرابطين . وكذا فعل أهل طلياطة ، وحصن القصر . ثم خرج على الطاعة ابن قسى صاحب شلب ، وابن ميمون صاحب قادس ، ومحمد بن الحجام صاحب بطليوس ، ولم يثبت على طاعة الموحدین سوى ابن عزون صاحب شربش وولده . ولنلاحظ أن خروج أولئك الزعماء عن طاعة الموحدین ، قد وقع في نفس الوقت الذى اضطرت فيه بالمغرب ثورة الماسى ضد الموحدین (٥٤٢ هـ) ، ولاحمدى حين أنها تهدد سلطانهم ودولتهم . وانتهز يحيى بن غانية فرصة هذا الاضطراب الذين ترتب على سوء تصرف الموحدین ، وسخط زعماء الغرب على حكمهم ، فبعث قوة من المرابطين ، تغلبت على الجزيرة الخضراء ، مدخل شبه الجزيرة ، وتردد صدی ذلك في سبتة ، فخلع أهلها الطاعة ، بزعامه عميدها القاضي عياض السبتي ، وقتلوا واليها يوسف بن مخلوف التينملى ومن معه من الموحدین ، وتولى أمرها يحيى بن أبى بكر الصحرأوى ، وذلك حسبما فصلناه في موضعه . وفي خلال ذلك ساءت الأحوال في إشبيلية وغادرها عبد العزيز وعيسى أخوا المهدي ومن معهما من الموحدین ، ولحقا بحصن بيشتر من معقل ابن عزون ، ثم سارا ومعهما ابن عزون في قواته ، وحاصروا الجزيرة حتى افتتحوها ، وقتلوا من بها من المرابطين . ثم عبر عبد العزيز وعيسى البحر بعد ذلك إلى المغرب ولحقا بمراكش حيث كان من أمرهما ومصيرهما ماسبق ذكره في أخبار الخوارج على عبد المؤمن^(١) ولما علم عبد المؤمن بما حدث في إشبيلية وغربي الأندلس ، بادر فبعث جيشاً من الموحدین إلى شبه الجزيرة ، بقيادة يوسف بن سليمان ، وندب برآزاً ابن محمد المستوفى لشئون الجباية بالأندلس . وسار يوسف في قواته أولاً إلى لبله ، حيث قضى على ثورة البطروجي وأخضعه ، وتلا ذلك إخضاعه لطلياطة ، وحصن القصر . ثم سار إلى قاصية الغرب ، فأخضع مدينة طبيرة ، وأعلن صاحبها عامل ابن مهيب الطاعة ، وأعلن على بن عيسى بن ميمون صاحب شنتمرية الغرب وقادس كذلك عودته إلى الطاعة ، وحذا حذوه محمد بن على بن الحجام صاحب بطليوس ، وبعث بطائفة من الهدايا الفخمة برسم الخليفة عبد المؤمن ، فقبلت وكان لها وقع حسن . ولما دعيت وفود الأندلس إلى مقابلة الخليفة عبد المؤمن ، وهو بسلا في سنة ٥٤٥ هـ ، سار زعماء الغرب ، الذين تقدم ذكرهم وفي مقدمتهم سيدراى

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ .

ابن وزير صاحب باجة ويابرة ، إلى لقائه ، ولم يتخلف منهم سوى ابن قسي صاحب شلب وميرتلة^(١) . وكان ابن قسي ، حينما رأى تقدم الموحدين في أنحاء الغرب ، وانضواء زعمائه تحت لوائهم ، قد خشى البادرة على نفسه ، وهو لم يكن حين أعلن طاعته للموحدين لأول مرة ، مخلصاً لهم ، ولا مؤمناً بدعوتهم ، وإنما كان مقصده فقط أن يستعين بهم ، وأن يأمن سطوتهم ، فلما رأى أنه عاجز عن مقاومتهم ، بعد أن خضع كل زملائه زعماء الغرب ، تحول إلى النصارى ، وبعث إلى ألفونسو هنريكيث ملك البرتغال ، وهو الذى تسميه الرواية العربية بابن الرنق وابن الرنك^(٢) ينأشده التحالف والعون ، فاستجاب ألفونسو إلى دعوته ، وبعث إليه بفارس من أفراسه ، وترس ورمح ، ووعدته بالعون المنشود ، فلما رأى أهل شلب تحول ابن قسي إلى النصارى ، سخطوا عليه ، ودبروا مؤامرة للتخلص منه ، بزعامة ابن المنذر الأعمى ، زميل ابن قسي وحليفه السابق ، وكان الموحدون قد أطلقوا سراحه من سجن بطليوس ، فعاد إلى شلب وأقام بها ، حسبما تقدم ، وشغل المتآمرون الحسين ولد ابن قسي بنزلة أعدوها له ، ثم احتالوا على دخول القصر ، وهو المسمى بقصر الشراجب ، واقتحمت طائفة منهم الحصن ، وفتكوا بابن قسي ، ورفعوا رأسه على الرمح المهدى إليه من ملك النصارى ، ونصبوا مكانه لرياستهم ابن المنذر ، معلنين ولاءهم للدعوة الموحدية ، وذلك فى جمادى الأولى من سنة ٥٤٦ هـ (سبتمبر ١١٥١ م) ، وبذلك انتهت رئاسة ابن قسي ، ورئاسة المريدين الذين كانوا أول من أعلن الخروج والثورة على المرابطين فى ولاية الغرب .

وكان ابن قسي عالماً ضليعاً ، ولاسيما فى علم الكلام والتصوف ، وشاعراً جزلاً . وقد أورد لنا ابن الأبار طائفة من نظمه . فمن ذلك قوله يشيد بثورته :

وما تدفع الأبطال بالوعظ عن حمى ولا الحرب تطفأ بالرقا والتمائم
ولكن ببيض مرهقات وذبئل موازدها ماء الطلى والغلاصم
ولا صلح حتى نطن الخيل بالقنسا ونضرب بالبيض الرقاق الصوارم

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ .

(٢) ويسميه ابن الأبار بابن الرنيق (الحلة السيرة ص ٢٠٠) . ويسميه ابن الخطيب بصاحب قلورية Coimbra ، وقد كانت يومئذ عاصمة إمارة البرتغال الناشئة (أعمال الأعلام ص ٢٥١) .

ونحن أناس قد حمتنا سيوفنا عن الظلم لما جرتم بالمظالم^(١)
 وكان ابن المنذر ، وقد فصلنا أخباره فيما تقدم ، رجلاً قوى الشكيمة لا تؤمن
 عواقبه . وكان الموحدون بالرغم من تمسكه بدعوتهم ، يخشون انتقاضه وتقلباته ،
 وكان سيدراى بن وزير من جهة أخرى يطمح بعد مصرع ابن قسى إلى احتلال
 شلب وضمها إلى أملاكه ، ومن ثم فإنه لم يمض سوى قليل على ولاية ابن المنذر ،
 حتى سار إلى شلب وتغلب عليها ، وذلك حسبما فصله ابن صاحب الصلاة في
 كتابه « ثورة المريدن » ، وهو مؤلف لم يصل إلينا . ولم يعترض الموحدون على
 هذا التغيير في رياسة شلب ، ولكنهم خشوا أن يعود ابن المنذر الأعمى ، إلى
 الثورة مرة أخرى ، فنقلوه إلى إشبيلية ليقم بها تحت رقابتهم . وبعد حين غادرها
 ابن المنذر ، وعبر البحر إلى المغرب ، وقصد إلى سلا ، وأقام بها حتى توفى
 في سنة ٥٥٨ هـ .

وكذا كان ابن المنذر ، مثل زميله ابن قسى ، عالماً وأديباً شاعراً ، وقد
 نقل إلينا ابن الأبار طائفة من نظمه ، فمن ذلك قوله يخاطب وزيره أبا بكر
 ابن المنخل ، وقد كان أيضاً من شعراء الغرب في هذا العصر :

لئن غض منك الدهر يوماً بأزمة فحسبك أن تلقى وانت مبور
 فليس أسأ يتي وإن جل مثل ما على كل حال لا يدوم سرور
 أوجد في الدنيا من الناس صاحب إذا عرضت أبى لداك عسير
 طلبت عزيزاً لا ينال فإن يكن فإن أبا بكر بذاك جدير
 رضيت به حظاً من الناس كلهم فما بعده حرٌ إليه نُشِير^(٢)

نعود الآن بعد أن استعرضنا تطور الحوادث في غربي الأندلس ، وما انتهت
 إليه من بسط الموحدين لسلطانهم عليه ، منذ إشبيلية حتى شلب في قاصية ولاية
 الغرب ، إلى تتبع الحوادث في وسط الأندلس .
 تركنا قرطبة ، وقد استعاد الأمير يحيى بن غانية المراتبى سلطانه عليها ،
 بمؤازرة القيصر ألفونسو السابع ملك قشتالة ، وغادرها زعيمها السابق القاضي

(١) راجع الحلة السيرة ص ٢٠٠ و ٢٠١ و ٢٠٤ ، وأعمال الأعلام ص ٢٥١ و ٢٥٢ .

(٢) الحلة السيرة ص ٢٠٤ - ٢٠٦ .

بن حمدين ، بعد أن تخلى عن مؤازرته النصارى لما رأوه من تقدم الموحدين في ولاية الغرب ، واستيلائهم على إشبيلية ، واضطرارهم بذلك إلى مهادنة ابن غانية ، وحماية سلطانه على قرطبة (أوائل سنة ٥٤١ هـ) . وكان ألفونسو السابع يرى نحيق ، أن ابن غانية يمثل آخر ماتبقى من سلطان المرابطين في شبه الجزيرة ، وأنه أضحي رمز المقاومة لزحف الموحدين إلى أواسط الأندلس ، وكان ابن غانية يشعر في كثير من المرات ، أنه أضحي في الواقع تابعاً للملك قشتالة ، وأن مصيره في قرطبة وفي الأندلس أضحي رهيناً بمشيئته . واستمر ابن غانية عدة أشهر أخرى يصانع النصارى ، وملك قشتالة يشط في مطالبه ورغباته ، ويضيق عليه في تصرفاته . وأخيراً استدعاه ألفونسو إلى حصن أندوجر ، وكان حاكمه ، وهو رجل يعرف بالعربي ، منصوباً تحت لواء النصارى ، فسار ابن غانية إلى أندوجر ، وهناك طالبه ملك قشتالة ، بالتنازل له عن بياسة وأبده ، لقاء الاستمرار في محالفته وحمايته ، فاضطر ابن غانية إلى القول والتخلي عن هاتين القاعدتين الهامتين . ثم عاد ملك قشتالة فطالب ابن غانية ، بالتخلي له عن مدينة جيان ، أو مضاعفة الجزية المفروضة عليه . والظاهر أن ابن غانية وعد ملك قشتالة ، بإجابة مطلبه واستمهله بعض الوقت . واتصل في نفس الوقت سرّاً ، ببراز بن محمد المسوفي وإلى إشبيلية الموحدى ، وكان حسبما تقدم من القادة المرابطين السابقين ، واجتمع الإثنين خفية بمدينة إستجة ، واتفقا على أن يقوم ابن غانية بتسليم قرطبة وقرمونة للموحدين . ويقول لنا ابن الخطيب بأن ابن غانية وصله خطاب عبد المؤمن « بما أحب » دون أن يوضح لنا ما الذى طلبه ابن غانية مقابل هذا التخلي ، وربما كان ذلك هو معاونة الموحدين له على الاحتفاظ بجيان . ومن ثم فإنه لما بعث ملك قشتالة سفراء إليه يطالبونه بالتعجيل بتسليم جيان ، قبض عليهم وبعثهم إلى قلعة بنى سعيد (قلعة محصب) فاعتقلوا بها تحت حراسة مشددة ، واضطر النصارى إلى الإفراج عن جيان^(١) . وعلى أثر ذلك غادر ابن غانية قرطبة إلى غرناطة ، وهى آخر ما بقي للمرابطين من القواعد في شبه الجزيرة ، وذلك في جمادى الثانية سنة ٥٤٣ هـ ، وكان يمتنع بها والها ميمون بن يدّر اللمتونى مع جماعة من قادة المرابطين .

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ ، والإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر)
لوحة ٢٧٢ في ترجمة عبد الملك بن سعيد . ولوحة ٣٩٢ في ترجمة ابن غانية .

وكان ابن غانية يرمى وفقاً لرواية صاحب القرطاس إلى أن يحمل بدر الممتوني على أن يسلم غرناطة للموحدين ، على غرار قرطبة وقرمونة ، ووفقاً لرواية ابن خلدون على أن يحمله على « مثل حاله مع الموحدين » . ويزيد ابن الخطيب الأمر وضوحاً ، فيقول لنا إن ابن غانية كان يرمى إلى أن يجتمع في غرناطة بأعيان لمتونة ومستوفه ، في شأن تصريح الأمر إلى الموحدين . وقد يفهم من ذلك أن ابن غانية انتهى بإعلان طاعته للموحدين وانضوى تحت أوائهم^(١) . بيد أنه مما ينقص هذه الرواية ما يذكره لنا ابن الخطيب في موضع آخر من أن ابن غانية . بعد أن حل بغرناطة ، أقام بها شهرين ثم مرض وتوفي ، وكان يقول للمرابطين ، في مرض موته ، وقد عول على جعل غرناطة معقلاً للدعوة المرابطية : « الأندلس درقة وغرناطة قبضتها ، فإذا جشتمت يا معشر المرابطين القبضة لم تخرج الدرقة من أيديكم » . وهو ما ينني عن ابن غانية أية شبهة في الانحراف عن الدعوة المرابطية^(٢) .

وكانت وفاة يحيى بن غانية في الرابع والعشرين من شعبان سنة ٥٤٣ هـ (٧ يناير ١١٤٩ م) . ودفن بداخل قصبته بالمسجد المتصل بقصر بانيس ابن حبوس ، ومجاوراً له في مدفنه ، وكان قبره مزاراً معروفاً يتبرك به حتى أيام ابن الخطيب (أواسط القرن الرابع عشر)^(٣) .

وعلى أثر وفاة ابن غانية ، غادر مولاة العليج فلّوج غرناطة إلى حصن بنى بشير ، وكان سيده قد ولاه إياه ، وأودع فيه أمواله وذخائره ، وكانت مقادير طائلة واستعان على حفظه بجاعة من النصارى . ثم خطر له أن يلحق بابن أخى مولاة لإسحق بن غانية . واستخلف على الحصن رجلاً من أهل سرقسطة يعرف بابن مالك ، فقبض عليه إسحق وعذبه حتى مات . ولما علم الموحدون بما حدث ، سارت منهم سرية من مدينة لوشة القريبة ، وغلبوا على الحصن ، واستولوا على سائر ما كان فيه من الأموال والحلى والثياب وكان منها ذخائر جليله^(٤) .

وكان يحيى بن على بن غانية أميراً ناهياً ، وجندياً وافر الجرأة والشجاعة ، والخبرة بأساليب الحروب ، وكان في نفس الوقت سياسياً فطناً ، وحاكماً وافر

(١) روض القرطاس ص ١٢٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ . وابن الخطيب في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٣٩٢ .

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ١٠٣ و ١٠٤ .

(٣) ابن الخطيب في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٣٩٢ .

(٤) ابن الخطيب في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٣٦٠ .

الكفاية والمقدرة ، وقد استعرضنا فيما تقدم مراحل حياته ، وما وليه من مختلف المناصب ، وما ساهم به في محاربة النصارى ، ولاسيما موقعة إفراغة (٥٢٨ هـ) التى أحرز فيها المرابطون نصرهم الباهر على ألفونسو المحارب . ويلخص لنا ابن الخطيب خلالته فى قوله : « كان بطلا شهماً ، حازماً ، كثير الدهاء والإقدام ، والمعرفة بالحروب ، مجمعاً على تقدمه » . أما أخوه الأصغر محمد بن على بن غانية ، فقد ولى حكم الجزائر الشرقية منذ سنة ٥٢٠ هـ ، أيام على بن يوسف ، ولبت على ولايتها مدة طويلة حتى تعثرت أحوال الدولة المرابطية ، وانهارت دعائمها ، فاستقل بحكم الجزائر . وكان لعقبه بها دولة ، استمرت دهرأ حصناً للدعوة المرابطية ، ومركزاً للكفاح المرير ضد الدولة الموحدية .

وكان ملك قشتالة فى تلك الأثناء ، يرقب الحوادث ، ويتربص الفرص . فمكاد ابن غانية ، يتخلى للموحدين عن قرطبة ، ويغادرها إلى غرناطة ، حتى زحف القشتاليون على عاصمة الخلافة القديمة ، والظاهر أنها كانت عندئذ بلا دفاع ، أو كانت لديها حامية صغيرة ، لا تستطيع دفعاً للنصارى ، فدخلها القشتاليون للمرة الثانية خلال عامين ، وذلك فيما يبدو فى جمادى الثانية أو رجب سنة ٥٤٣ هـ (نوفمبر أو ديسمبر سنة ١١٤٨ م) . بيد أنه كان احتلالاً قصير الأمد ، ذلك أن الموحدين مذ حصلوا على موافقة ابن غانية ، على التخلي لهم عن قرطبة ، لم يفهم أن النصارى ، وهم على مقربة منها فى حصن أندوجر ، يرقبون الفرصة لاحتلالها ، ومن ثم ، فلن برأزاً المستوفى والى إشبيلية ، جهز فى الحال حملة موحدية بقيادة أبى الغمر بن عزون صاحب شريش ، توأزرها قوة أخرى بقيادة يوسف البطروجي صاحب لبلة ، وكتب إلى الخليفة عبد المؤمن فى نفس الوقت لإمداده بالعساكر ، فبعث إلى الأندلس على وجه السرعة ، جيشاً موحدياً بقيادة أبى زكريا يحيى يومور . وزحفت العساكر الموحدية صوب قرطبة ، فلما شعر ملك قشتالة بوفرة القوات الموحدية الزاحفة ، لم يرد أن يشتبك وهو بعيد عن قواعده ومملكته ، فى معارك لا تؤمن عواقبها ، فغادر قرطبة فى قواته لآيام قلائل من احتلالها ، ودخل الموحدون قرطبة ، وبسطوا سلطانهم عليها ، وذلك فى شهر رجب أو شعبان سنة ٥٤٣ هـ . ولم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى احتلوا مدينة جيان ، بعد أن لبث القشتاليون يهدونها حيناً ، ويحاولون احتلالها^(١) . ثم استولوا

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ ، وروض القرطاس ص ١٢٥ .

— ٣٣٥ —

على بياسة وأبدة من النصارى ، وبذلك امتد سلطان الموحدين إلى أواسط الأندلس ، ولم يبق بيد المرابطين سوى مدينة غرناطة ، التى استطاعوا أن يحتفظوا بها بضعة أعوام أخرى .

— ٣ —

وفى تلك الآونة بالذات ، حدثت فى شرقى الأندلس عدة حوادث هامة ، أولها قيام محمد بن سعد بن مردنيش فى بلنسية ومرسية ، وبسطه لسيادته على شرقى الأندلس (٥٤٢ هـ) ، ومخالفته للنصارى ؛ وثانيها سقوط القواعد الإسلامية الباقية من الثغر الأعلى فى أيدي النصارى ، وهى طرطوشة ولاردة وإفراغة ومكناسة (٥٤٣ — ٥٤٤ هـ) . وقد كان من الواضح منذ البداية ، ان ابن مردنيش ، وهو يمثل الفكرة القومية الأندلسية ، سوف يخوض مع الموحدين صراعاً لا هوادة فيه ، وهو قد بدأ هذا الصراع بالفعل ، مذهباً بتوطد سلطانه واجتماع قواته ، فسار إلى بسطة ، ووادى آش ، وانتزعهما من صاحبهما ابن ملحان الطائى فى سنة ٥٤٦ هـ (١١٥٣ م) وذلك حسبما فصلنا من قبل . وهكذا امتد أملاك ابن مردنيش إلى مقربة من جيان ، التى كانت يومئذ قاعدة موحدية . بيد أنه وقعت فى نفس هذا العام فى بلنسية وابن مردنيش بعيد عنها ، ثورة داخلية ، انتهت بقيام زعيم يدعى أبا مروان عبد الملك بن شلبان فى حكمها . فارتد ابن مردنيش بقواته ليحاصر بلنسية مدى حين . ولم يشر إلى قيام هذه الثورة ، ويقدم إلينا بعض تفاصيلها سوى ابن الأبار^(١) . بيد أن هنالك نص آخر يشير إليها من زاوية أخرى ، وهو عبارة عن رسالة موحدية ، بعث بها الخليفة عبد المؤمن إلى « الشيخ أبى عبد الله محمد بن سعد » من حضرة مراکش مؤرخه فى ١٦ جمادى الآخرة سنة ٥٤٨ هـ . والظاهر من نص هذه الرسالة ، أن هذه الثورة التى كانت فى بلنسية ضد محمد بن سعد ، كانت تعلن « التوحيد » شعاراً لها ، وأن ابن مردنيش ، حينما تم له اقتحام بلنسية ، وإخضاع الثورة ، قد نكل بالثوار ، ولا سيما الذين أبدوا ميلهم للدعوة الموحدية . كذلك يبدو من هذا النص أن أهل مدينة لورقة قد أبدوا نفس الميل إلى الدعوة الموحدية ، وأن ابن سعد قد نكل بهم أسوة بما فعله بأهل بلنسية ، ويدعو الخليفة عبد المؤمن فى رسالته ابن سعد إلى اعتناق أمر المهدي ، والدخول فى الدعوة الموحدية ، ويلفت نظره

(١) هذا ما ورد فى التكملة (القاهرة) - الجزء الثانى - رقم ١٣١٣ و ١٣٩٤ .

إلى أنه لم يفز أحد من زعماء الأندلس ببيغته إلا من دخل في هذه الدعوة ، وأن من خرج عليها منهم ، كان جزاؤه سوء المنقلب ، ثم يدعو إلى المبادرة إلى الاعتبار ، ويلومه بما كان منه في حق أهل بلنسية « حينما أظهروا كلمة التوحيد » وكذلك أهل لورقة « حينما ظهر أخلاصهم »^(١) .

وقد كان هذا فيما يبدو ، أول احتكاك بين ابن سعد وبين الموحدين . وقد كان الموحدون يعتقدون أنهم سوف يجدون في شرق الأندلس ، نفس الطراز من الزعماء الثائرين ، الذى لقوا في غربي الأندلس ، يعبرون البحر إليهم ، ويؤتمسون إلى خليفهم العون والإمداد ، ولكن هذا الأمل لم يتحقق في ابن مردنيش ، وهو سوف يغدو منذ الآن فصاعدا ، ألد خصومهم ، وأصلبهم عوداً ، وأرسخهم عزماً ، في مقاومة الدعوة الموحدية في شبه الجزيرة .

وفي أواخر سنة ٥٤٧ هـ (أواخر ١١٥٢ م) تقدمت القوات الموحدية من أنتقيرة ، وكذلك من الفرنتيرة نحو مالقة ، واستولت عليها ، وذلك عقب مصرع صاحبها المتغلب عليها القاضى أبى الحكم بن حسون ، وتم لهم بذلك الاستيلاء على كورة رية كلها .

وكانت سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٥ م) سنة مليئة بالأحداث الهامة بالنسبة للموحدين والدولة الموحدية . ويمكننا أن نعتبر أن أهم حادث وقع فيها ، هو إسناد عبد المؤمن ولاية عهده لولده البكر محمد . ونحن نعرف أن الدولة الموحدية ، قامت على أسس دعوة دينية ، وأن عبد المؤمن ، حينما أتبع له أن يحتنى تراث المهدي ابن تومرت ، لم يكن قيامه في الخلافة نتيجة وراثته أو ولاية عهد ، وإنما كان في الظاهر على الأقل نتيجة لاختيار مختلف القبائل والطوائف الموحدية ، وفضيلتها لعبد المؤمن ، بالرغم من كونه لم يكن من قبيلة المهدي ، لخلاله ومقدرته ، ولأنه كان بالنسبة للمهدي ، أوثق أصحابه وتلاميذه صلة به ، وآثرهم لديه . ولكن الحوادث تطورت منذ وفاة المهدي ، تطوراً عميقاً ، وقام عبد المؤمن في قيادة الدولة الموحدية الناشئة بأعظم دور ، وأبدى في مصارعة خصومها وفي توطيد دعائهما مقدرة فائقة ، وأضحى عاهلها القوى يقود مصايرها بعزم لا مثيل له ، وحوله تلتف سائر الزعامات الموحدية ، تحبوه بمطلق تأييدها وطاعتها .

(١) راجع رسائل موحدية التي سبقت الإشارة إليها ، الرسالة العاشرة ص ٣٦ و ٣٧ . وقد نشرت هذه الرسالة أيضاً في صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٤٣ .

ونحن نذكر أن عبد المؤمن ، بعد أن أتم فتح بجاية ، وقضى على ثورة العرب في إفريقية ، وعلى ثورة القبائل الخارجة في أرض السوس وغيرها ، غادر مراکش إلى تينملال ، فزار قبر المهدي ، وأمر ببناء مسجد لها وتوسيع خططها ، ثم سار منها إلى سلا ، لإصلاح خططها أيضاً ، وليتم المنشآت التي بدأها في عدوتها الرباط ، وكان ذلك في أوائل أواسط سنة ٥٤٩ هـ . في تلك الفترة ، وقعت تولية عبد المؤمن لولده أبي عبد الله محمد لولاية العهد . ولم يقدم لنا البيهقي وهو المؤرخ المعاصر وشاهد العيان ، أى تفصيل عن هذا الحادث الجلل ، في تاريخ الدولة الموحدية ، مكثفياً بالإشارة إليه في بضع كلمات^(١) . بيد أنه يستفاد من مختلف التفاصيل ، التي وردت في رسائل الخليفة عبد المؤمن ذاته ، أن هذا التعيين قد اتخذ سبيل الشورى والاختيار من جانب الموحدين ، فهو يقول في رسالته التي وجهها عن هذا الموضوع إلى أهالي سبتة وطنجة ، ومن بها من الطلبة والأشياخ والموحدين ، إن أولياء هذه الدعوة من القبائل والعشائر الشرقية المختلفة ، العربية والصنهاجية ، تقدموا باقتراحهم ورغبتهم في هذه البيعة بولاية العهد ، وبعثوا إليه بذلك مراراً وتكراراً ، وأنهم لما وفدوا عليه بسلا ، أبدوا رغبتهم صراحة ، واختاروا لذلك ولده محمداً بالذات ، ورغبوا إليه في أن يتولى هو حكم بلادهم ، وأنه أى عبد المؤمن لم يكن له في ذلك كله قصد ينويه ، وأنه رأى بعد استشارة الله تعالى ، أن يجمع حوله بسلا شيوخ الموحدين وطلبته وعمالمهم ، وأن يشاورهم في هذا الأمر . وتقدمهم الشيخ الأجل أبو حفص عمر ابن يحيى ، وأكد أنهم هم المتقدمون بذلك ، وأنهم يرون وجوبه وتنفيذه ، وأنهم هم السابقون إلى مبايعته على حدود الشرع ورسومه ، وأكد سائر الطلبة والفقهاء ما تقدم ، واتفقوا جميعاً على وجوب تحقيقه ، « لأن فيه من إبقاء الأمر في نصابه ، وإتيان الحق من أبوابه ، واتباع الدين من أخلاقه وأحبابه ، وقطع كل منافق مرتاب عن أسباب نفاقه وارتبابه ، والنظر فيما يجمع كلمة الموحدين ، ويضم شمل المؤمنين ، بأوائل هذا القصد الصالح وأعقابهم ، ما ابتنى عليه اتفاقهم وإصفاقهم ، واسترسل فيه تعيينهم وإطلاقهم » . ثم يزيد عبد المؤمن على ذلك ، بأن ذلك لم يكن له في نفسه « عقد سابق ، ولا نظر لاحق ، وأنه لما رأى اتفاق كلمة الموحدين على ربط هذا الأمر وعقدته ، استخار الله في الاتفاق

(١) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ١١٨ .

معهم على إنفاذه ؛ وبدأ البيعة الشيخ الأجل أبو حفص ، وتتابع من بعده الأشياخ والطلبة ، ومن حضر من قبائل الموحدين ، قبيلة بعد قبيل^(١) ، وكتب بولاية العهد إلى سائر البلاد .

ولأنه لما يلفت النظر ، أن الخليفة عبد المؤمن يؤكد في رسالته غير مرة ، أنه لم يفكر ولم يكن له قصد سابق في هذا التعيين لولده ، ثم هو يعود فيؤكد في رسالة ثانية وجهها إلى أهل سبتة ، وإلى الطلبة والأشياخ ، أنه لم يكن عنده في ذلك « قصد متقدم ، ولا عهد متوهم ، لكنه أمر الله أراده فأتمه ، واختاره لعباده فشمله بآمالهم وعممه »^(٢). نقول إن في هذا التنصل من جانب الخليفة الموحدي ، ما يدل بأنه كان يشعر بخطورة هذه الخطوة التي عمد إليها في اختيار ولده لولاية العهد ، ويخشى أن يبدو في اتخاذها ملكاً دنيوياً ، يعمل لتخليد السلطان في عقبه ، وليخلق منهم أسرة ملوكية . وقد رأينا فيما تقدم كيف أنه حينما توفي المهدي ابن تومرت في رمضان سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠ م) استطاع عبد المؤمن دون غيره من أشياخ الموحدين ، أن يفوز بالخلافة ، وأن يحتج تراث المهدي الديني والسياسي ، وأن يتم بعد جهود طويلة شاقة ، مهمته الأساسية في القضاء على الدولة المرابطية ، وفي توطيد سلطان الدولة الموحدية ، ولم يكن ثمة شك في أن تحقيق هذه المهمة الكبرى ، يرجع في معظم نواحيه إلى عبقرية عبد المؤمن ، ومقدرته العسكرية والسياسية ، وإذن فقد كان من الطبيعي أن يتطلع عبد المؤمن إلى الاحتفاظ بثمار جهاده ، وإلى أن يورثها لبننيه وعقبه .

بيد أن هناك رواية تقول لنا إن عبد المؤمن لم يحقق ولاية العهد لولده ، نتيجة للشورى ونزولا على رغبة الأشياخ والقبائل ، حسبما يؤكد لنا في رسائله ، ولكن تحقيقها كان بالعكس نتيجة لترتيب سابق ، دبره عبد المؤمن بالتفاهم مع بعض أنصاره . وذلك أن عبد المؤمن حينما شعر بتوطد مركزه ، وكثر أولاده من حوله ، قرر أن يستبق الملك في عقبه ، واستدعى أمراء العرب من بني هلال وزغبة وعدى وغيرهم ، ووصلهم وأحسن إليهم ، ودفع إليهم من يقول لهم ، أن يطلبوا إلى عبد المؤمن أن يختار لهم ولي عهد من بنيهم ، يرجع الناس إليه من بعده ، ففعلوا ما طلب إليهم ، فلم يجبه عبد المؤمن في بادئ الأمر ، إكراماً لأبي حفص

(١) مجموعة الرسائل الموحدية السالفة الذكر - الرسالة الثالثة عشرة ، ص ٥٦ - ٦٠ .

(٢) الرسائل الموحدية - الرسالة الرابعة عشرة ، ص ٦٢ .

عمر بن يحيى الهنتاني ، لعلو منزلته بين الموحدين ، وكان يعتبر ثاني رجل في الدولة بعد عبد المؤمن ، وكان من المتفق ، يوم تولى عبد المؤمن الخلافة ، أن يلي عمر الأمر من بعده ، ومن ثم فإن عبد المؤمن أجاب من طالبوه بترشيح ولده ، أن الأمر ليس له ، وإنما هو لأبي حفص عمر . فلما وقف أبو حفص على ذلك ، خشى عاقبة هذا التوريط ، فثل أمام عبد المؤمن وأعلن خلعه نفسه من الولاية ، فعندئذ بويح لحمد بن عبد المؤمن بولاية العهد ، وكتب بذلك إلى جميع الجهات ، وذكر اسمه في الخطبة إلى جانب اسم أبيه^(١) .

ولم يكتف عبد المؤمن بهذه الخطوة الحاسمة في تحقيق ولاية العهد لولده ولكنه قرنها في نفس الوقت (سنة ٥٤٩ هـ) بخطوة أخرى ، هي تولية أولاده حكم البلاد ، فندب ولده وولى عهده السيد أبا عبد الله محمد ، لحكم بجاية وأعمالها ، واستوزر له يخلف بن الحسين ؛ وولده السيد أبا الحسين لحكم فاس وأعمالها ، واستوزر له يوسف بن سليمان ؛ وولده السيد أبا حفص لحكم تلمسان واستوزر له أبا محمد بن وانودين ، وعين لكتابته الفقيه أبا الحسن بن عبد الملك ابن عياش ؛ وولده السيد أباسعيد لحكم سبتة ومالقة والجزيرة الخضراء ، واستوزر له محمد بن سليمان وسعيد بن ميمون الصنهاجي ، ومن الكتاب الفقيه أبا الحكم ابن هرودس ، والفيلسوف أبا بكر بن طفيل . ويضع البيدق تاريخ هذه التولية في سنة ٥٤٨ هـ : ويزيد على ذلك بأن الخليفة أعطى ولده يوسف حكم إشبيلية . ولكن سنرى أن هذه التولية تمت بعد هذا التاريخ . وولى ولده أبا الربيع حكم تادلا ، وولده أبا زيد أرض السوس ، ويقدم إلينا البيدق بهذه المناسبة بعض البيانات عن أولاد الخليفة وأمهاتهم ، فيقول لنا إن عمر ويوسف شقيقان وأمهما صفية بنت أبي عمران . وفي هذا العام أعني في سنة ٥٤٨ هـ ، وُلد للخليفة ولده يعقوب بقصر عبد الكريم ، وأمه جارية أهداها إليه ابن وزير ، وولد عمر الرشيد في عرض البحر ، وأمه من قادس ، وكان أبو زيد عند ولايته صبياً صغيراً ، وأمه لمطية من قبيلة لمطة . ومن أولاد عبد المؤمن أيضاً السيد اسماعيل ، وأمه بنت ماكسن بن المعز ، وعلى وأمه فاسية تدعى فاطمة ، ومحمد وأخوه موسى وأمهما من بلاد البسوس^(٢) .

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٧٩ .

(٢) راجع أخبار ابن تومرت ص ١١٦ و ١١٧ ، وابن الأثير ج ١١ ص ٧٩ ، وابن خلدون

ج ٦ ص ٢٣٦ ، وروض القرطاس ص ١٣٦ و ١٣٧ .

وبعد أن انتهى عبد المؤمن من عقد البيعة بولاية العهد لولده محمد ، وتولية أولاده الآخرين حكم البلاد ، أخذ في النظر في شئون الأندلس ، وتوجيه البعوث إلى حمايتها وضبط أمورها . وكانت قد حدثت في ذلك الحين في ولاية الغرب بعض الحوادث المقلقة . ومن ذلك أن علياً الوهبي أحد ثوار الغرب ، هاجم في صحبة مدينة لبلة ليلاً ، وأخذ أهلها على غرة وقتك بكثير منهم ، فلجأ الناس إلى قصبة الموحدين . فحاصر الوهبي القصبة ، وأرهمق من بها ، فلما وقف يحيى بن يومور والى قرطبة وإشبيلية الموحدى على ما حدث ، غادر من فوره قرطبة في عسكر من الموحدين ، وسار إلى لبلة ، فبادر الوهبي بالفرار ، وخرج أهل لبلة في اليوم التالى ، معتذرين طائعين ، فلم يقبل لهم عذراً ، واعتبرهم جميعاً مدنيين ، وأوقع السيف فيهم أجمعين ، ولم يرحم منهم أحداً ، وكان ممن قتل من أعيان فقهاءهم ، الفقيه أبو الحكم بن بطل المحدث ، وأبو عامر بن الحد . وتقدر الرواية من قتل من أهل لبلة في ذلك اليوم بثمانية آلاف ، ومن أحوازاها بأربعة آلاف ، ثم بيع نسائهم وأولادهم . وكان مع ابن يومور في تلك الواقعة أبو الغمر بن عزون ، وهو الذى أشار عليه بارتكاب هذا الحرم . ووقع الفتك بأهل لبلة ، على هذا النحو في الرابع عشر من شعبان سنة ٥٤٩ هـ . فلما بلغ عبد المؤمن ما فعله ابن يومور ، وما ارتكبه من شنيع السفك بأهل لبلة بمحض رأيه واستبداده ، بعث أبا محمد عبد الله بن أبى حفص إلى إشبيلية ومعه أمر باعتقال ابن يومور ، فاعتقله بمعاونة برّاز بن محمد ، وأخذاه يوم الفطر مكبلاً ، وبعثا به إلى مراکش في صحبة عبد الله بن سليمان ، فاعتقل بمنزله ، واستمر على ذلك حيناً إلى أن زار الخليفة قبر المهدي ، وسار ابن يومور في ركبه ، فعفا عنه وأمنه ، وأبقى عليه حساب الآخرة ، ثم بعثه إلى تلمسان صحبة ابنه السيد أبى حفص ضمن أشياخ الموحدين الذى ساروا في رفقة^(١) .

وفي آخر هذا العام ، وفد ابن وزير صاحب باجة ويابرة إلى مراکش ، مستغيثاً بالخليفة من أعمال ملك البرتغال ألفونسو هنريكز ، وهو المسمى في الرواية العربية ابن الرنك ، أو ابن الرنق ، وتفاقم عدوانه على الثغور ودأبه على غزو أراضهم والعيث في بساطهم ، وإتلاف زروعهم ، وتشيت شملهم ، فوعده الخليفة

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٩ و ٣٠ ، وروض القرطاس ص ١٢٧ ، وابن خلدون

بالعون ، وردع العدو وتحقيق النصر الذى يؤمل ، وأمر بالكتب بذلك إلى أهل يابرة وباجة ، فوجهت إليهم الكتب فى الثالث والعشرين من المحرم سنة ٥٥٠هـ^(١).

* * *

وزار عبد المؤمن قبر المهدي فى هذه السنة ، ثم غادر تينملل إلى سلا ، وبقي بها حسبما يحدثنا البيذق مدى عامين ، ثم عاد إلى مراکش ، وأمر بأن يغرس فى خارجها بستان عظيم ، أطلق عليه اسم « شنطلوليه »^(٢) ، وعنى بتخطيط هذا البستان (أو البحيرة كما كانت تسمى الحديقة يومئذ) أحمد بن ملحان صاحب وادى آش السابق ، وأجرى إليه الماء من أغات ، ومن عيون كثيرة أنشأها ، وكان قد وفد على مراکش بعد استيلاء ابن مردنيش على أراضييه فى سنة ٥٤٦ هـ ، واستعمل فى إنشاء البستان وغرسه ، لما له فى ذلك من خبرة هندسية فائقة^(٣). وزود هذا البستان الضخم ، بسائر الغروس من الفواكه والأزهار والرياحين ، والأشجار النادرة ، ولم يمض سوى قليل حتى غدا بجمال تنسيقه ، وروعة نظريته ، وكأنه قطعة من الجنان . ويقول ابن اليسع إن هذا البستان كان يشغل مساحة قدرها ثلاثة أميال فى مثلها ، وأنه بعد عامين أو ثلاثة من غرسه كان لإيراد زيتونه وفواكهه ، يبلغ ثلاثين ألف دينار مؤتمنة على رخص أثمان الفواكه^(٤). ويقص علينا صاحب المعجب ، أن الوزير أبا جعفر بن عطية ، دخل على عبد المؤمن ذات يوم ، وهو جالس فى قبة مشرفة على البستان ، فسحره جمال البستان وروعته ، ولاحظ ذلك عبد المؤمن ، فأبدى له أن المنظر الحسن إنما هو شيء آخر ، وبعد ذلك بأيام قلائل أجرى الخليفة عرضاً لعسكره ، ومرت الكتائب ، متوالية فى أكمل هيئة ونظام ، وكان إلى جانبه وزيره ، فالتفت إليه قائلاً « إن هذا هو المنظر الحسن يا أبا جعفر لا ثمارك وأشجارك »^(٥).

وقضى عبد المؤمن بقية هذا العام (سنة ٥٥٢ هـ) فى الطواف بنواحي الأطلس وبلاد السوس ، ومعه طائفة من أشياخ الموحدين وطلبته وحفاظهم ،

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٠ .

(٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٢٠ .

(٣) أعمال الأعلام ص ٢٦٤ .

(٤) الحلل الموشية ص ١١٠ .

(٥) المراكش فى المعجب ص ١١٢ .

وكان يرمى بهذا الطواف إلى الاتصال بالقبائل المنضوية تحت لواء التوحيد ، فاجتمع خلال طوافه بأبناء جدميوة ، ومصمودة ، وجنفيسة ، ورجراجة ، وحاجة ، كل قبيلة منهم في مكانها ، وأمر بأن تلقى عليهم المواعظ والتعريف بمقاصد التوحيد ، تذكيراً لهم ، وتوطيداً لعقائدهم ، وفرق فيهم الصلوات . ثم وفد عليه جملة من قبائل جزولة ، طالبين الأمان ، ومؤكدين ولاءهم وإيمانهم ، وصادق توبتهم ، فحذروا من العود إلى الخلاف ، وما يترتب على ذلك من الهلكة ، وشملهم العفو والرحمة . وسار الخليفة بعد ذلك إلى تارودانت واجتمع فيها بقبائل السوس ، فأكدوا له عهد الولاء والطاعة ، وشملتهم رعايته ومنته . ولما وصل إلى آنسا ، وهي طرف بلاد السوس ، اجتمعت حوله قبائل تينملل وهنتاة ، فناهم ما نال اخوانهم من أسباب الخير والبركة . وكان فصل الحريف قد انصرم يومئذ ، وأقبل الشتاء ، فسار عبد المؤمن إلى تينملل ليختم جولته بزيارة قبر المهدي مرة أخرى ، وقصد إليها ، « والنفوس قد حفزها الشوق إلى مقامه ، وسارع بها الحرص إلى معالمه المقدسة وأعلامه » ، وذلك حسبما يقول لنا في رسالته المستفيضه التي أمر بكتبتها عن رحلته . وهناك تقاطرت عليه وفود القبائل من سائر تلك الأقطار ، وازدحمت بهم الوديان والربى ، وشملوا جميعاً بالرعاية والإكرام ، « وأفهموا في أثناء ذلك من مقاصد الحق المبين ، وعقائد الدين المتين ، ما شرح صدورهم ، وضاعف سرورهم » ، وتأكد ولاؤهم ، وتمسكهم بدعوة التوحيد .

وانتهت رحلة الخليفة ، بعد أن تحققت مقاصدها ، في العمل على إحياء الدعوة الموحدية في مهادهما ، وتذكير مختلف القبائل بما يجب عليهم نحوها من الولاء والإخلاص ، وتحذيرهم من عواقب الخروج والردة ، وتنقية النفوس من الشوائب . وعاد عبد المؤمن إلى مراكش في أواخر رمضان سنة ٥٥٢ هـ ، وصدرت عن رحلته بتاريخ الثامن من شوال رسالة مستفيضة ، من إنشاء كاتبه أبي عقيل بن عطية ، أخى الوزير أبي جعفر ، وهي رسالة ممتعة كتبت بأسلوب بليغ مشرق^(١) .

وكان هذا العام - ٥٥٢ هـ - عام الأحداث المباركة ، فكان بعد الحج إلى تينملل ، أن أحضر المصحف العثماني من قرطبة إلى مراكش ، تحقيقاً لرغبة الخليفة عبد المؤمن . وكان هذا المصحف أحد المصاحف الأربعة المشهورة التي

(١) راجع هذه الرسالة ضمن مجموعة الرسائل الموحدية ، وهي الرسالة السابعة عشرة (ص ٨١ - ٩٢) .

بعث بها الخليفة عثمان إلى الأمصار — مكة والبصرة والكوفة والشام — وكان من ذخائر بني أمية بالأندلس ، يودعونه بجامع قرطبة الأعظم . وقد وصفه لنا الإدريسي عند حديثه عن جامع قرطبة في الفقرة الآتية : « وعن شمال المحراب بيت فيه عدد وطشوت ذهب وفضة وحسك ، وكلها لوقيد الشمع في كل ليلة من شهر رمضان المعظم . ومع ذلك ففي هذا المخزن مصحف يرفعه رجلا نثقله ، فيه أوراق من مصحف عثمان بن عفان ، وهو المصحف الذي خطه بيمينه رضى الله عنه ، وفيه نقط من دمه . وهذا المصحف يخرج في صبيحة كل جمعة ، ويتولى إخراج رجلا من قومة المسجد ، وأمامهم رجل ثالث بشمعة . وللمصحف غشاء بديع الصنعة منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه ، وله بموضع انصلي كرسي يوضع عليه ، ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه ، ثم يرد إلى موضعه »^(١) . فلما استولى الموحدون على قرطبة ، كان من أجل أمانى عبد المؤمن أن ينقل هذا المصحف إلى مراكش ، ويقال إن أهل قرطبة هم الذين عملوا على أهداثه إلى الخليفة الموحدى ، وكان إخراج رجلا من جامع قرطبة في اليوم الحادى عشر من شوال سنة ٥٥٢ هـ ، وحمله إلى المغرب السيدان أبو سعيد وأبو يعقوب ولدا الخليفة ، فلما وصل إلى مراكش استقبله الخليفة بأعظم آيات التبجيل والإجلال ، وصنع له كسوة عظيمة مرصعة بأنواع اليواقيت والأحجار النفيسة ، وتابوتا من صفائح الذهب المرصع بالياقوت الأحمر ، وعمل لحمله كرسي فاخر كذلك ، وكان عبد المؤمن يحمله بعد ذلك في مقدمة جيشه في حملاته تبركاً به ، وقد حمله معه في غزوة المهديّة سنة ٥٥٤ هـ^(٢) . ولبت هذا المصحف النفيس لدى الخلفاء الموحدين زهاء قرن آخر حتى أواخر دولتهم .

وأمر عبد المؤمن في نفس العام ، بإنشاء المسجد الجامع بمراكش ، وبدئ بإنشائه في أوائل ربيع الآخر سنة ٥٥٣ هـ ، وأنشأ له « ساباطا » يوصل إليه من القصر مباشرة ، وزوده بمنبر فخّم أمر بصنعه في الأندلس ، من خشب العود والصندل ، المغطى بصفائح الذهب والفضة ، وصنع له مقصورة من الخشب

(١) الإدريسي في « وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » ص ٢١٠ و ٢١١ .

(٢) نقل إلينا المقرئ رواية ابن طفيل عن قصة هذا المصحف وحمله إلى المغرب كاملة مفصلة ،

ووصف كسوته الفاخرة ، وما زينت به من روائع التحف والذخائر (نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٤ -

٢٨٨) . وراجع أيضاً الحلل الموشية ص ١١٥ و ١١٦ ، والمعجب ص ١٤٢ .

ذات ستة أضلاع ، تفتح أبوابها دفعة واحدة بطريقة آلية ، وكذا المنبر لايفتح إلا عند صعود الخطيب ، بطريقة آلية كذلك . وكان الذى قام على صنع المنبر والمقصورة على هذا النحو المبتكر ، رجل فنان من أهل مالقة هو الحاج يعيش المالى ، وهو الذى قام فيما بعد على تخطيط مدينة جبل طارق ، وصنع منارة الجامع بإشبيلية ، فى عهد الخليفة يعقوب المنصور ، حفيد عبد المؤمن . وكل بناء المسجد الجامع فى نحو أربعة أشهر ، فى منتصف شعبان من نفس السنة ، وبذلت فى بنائه وتجميله وزخرفته جهود عظيمة وأموال حمة^(١) .

لما أقبل ابن يومور عقب مذبحه لبلبة ، من ولاية قرطبة وإشبيلية على النحو المتقدم ، ندب الخليفة عبد المؤمن مكانه لولاية قرطبة أبا زيد عبد الرحمن بن يكيث أو يخيث ، ولولاية إشبيلية أبا محمد عبد الله بن أبى حفص بن على التينملى ، فوصلا إلى الأندلس فى أوائل سنة ٥٥٠هـ (١١٥٥م) ، وذهب كل منهما إلى مقر ولايته . وماكاد ابن يكيث يستقر فى قرطبة ، حتى خرج فى بعض القوات الموحدية ، وسار إلى مهاجمة الحصون النصرانية فى المناطق القريبة ، وكان القشتاليون بقيادة ملكهم ألفونسو السابع ، قد استولوا على حصن أندوجر ، وحصن البطروج القريب منه ، قبل ذلك بقليل ، فهاجم ابن يكيث ، حصن البطروج^(٢) وما يليه من حصون النصرانية ، وتغلب على الحصن المذكور ، وأسر قائده القشتالى ، وبعث به إلى مراکش ، ثم عاد فجهز حملة ثانية ، وسار إلى مهاجمة الحصون النصرانية ، واستولى منها فى تلك المرة على حصنين منيعين ، هما حصن منتور وحصن المدور^(٣) ، وهما يقعان جنوبى قرطبة ، وبعض حصون أخرى .

وكان مثل ابن يكيث حافزاً لزميله عبد الله بن أبى حفص والى إشبيلية ، فحشد قواته بمعاونة براز صاحب المخزن ، وكتب إلى ابن الحجام صاحب بطليوس بأن يحشد جند الثغر ، وخرج عبد الله فى قواته من إشبيلية وهى تزداد كل يوم ، بمن ينضم إليها من المتطوعين والمجاهدين ، حتى وصل إلى بطليوس

(١) الحلل الموشية ص ١٠٩ .

(٢) وهو بالإسبانية حصن Pedroche

(٣) وهما بالإسبانية Almodóvar, Montoro

فانضمت إليه حشودها ، فاستقر الرأي على غزو أراضى البرتغال انتقاماً من ملكها ألفونسو هنريكز (ابن الرنك) . فسارت القوات الموحدية وحلفاؤها نحو الشمال الغربى ، حتى عبرت نهر التاجه ، وهاجمت حصن أطرونكس^(١) وتغلبت عليه وقتلت حاميه ، وعاثت فى تلك المنطقة قتلا وسبياً ، وامتثلت أيدي الغزاة من الغنائم والأموال والأسرى ، وبادر النصارى فى تلك المنطقة فاحتشدوا وقدموا مسرعين لمقاتلة المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصارى ، واستولى المسلمون على أسلابهم ، وعاد الموحدون وقائدهم ظافرين إلى إشبيلية . ولما وصلت أنباء هذه الفتوحات إلى مراکش ، بعث الخليفة إلى عبد الرحمن ابن يكيث وعبدالله بن أبى حفص بالقدوم إلى الحضرة (مراكش) فقدموا إليها ، وقدموا إلى الخليفة خضوعهما ، وعرفاه بما فتح الله على عسكره من النصر ، وما تحقق للأندلس من رعاية أحوالها ، والتفاف أهلها حول رايته ، ودعائهم له بالتأييد ودوام النصر^(٢) .

وكان لهذه الانتصارات الموحدية بالأندلس ، تأثير حاسم فى سير الحوادث بمدينة غرناطة . وكانت غرناطة ، قد بقيت بأيدي المرابطين ، من بعد وفاة عميدهم الأمير يحيى بن غانية فى شعبان سنة ٥٤٣ هـ ، واستطاع واليها ميمون بن يدر اللمتوى ، أن يصمد بها طوال هذه الأعوام السبعة . فلما تتابعت الحوادث ، وامتد سلطان الموحدين إلى معظم قواعد الأندلس الغربية والوسطى ، وتوالت انتصاراتهم فى منطقة قرطبة وما إليها ، شعر المرابطون فى غرناطة بتخرج مركزهم ، وتضاؤل قواتهم ومواردهم ، فبعث واليها ميمون بن يدر إلى عبدالمؤمن يعرض تسليمها ، ويلتمس العفو والأمان ، فأجابه عبد المؤمن إلى طلبه ، وأمر عبد الله بن سليمان صاحب الأسطول بسبته ، وولده السيد أبا سعيد وإلى سبته والجزيرة الخضراء بالسير إلى غرناطة ، فسارا إليها ، واستقبلهما ميمون وحاميته المرابطية بترحاب ، وتسلم الموحدون المدينة ، وعاد ميمون وصحبه مع عبد الله ابن سليمان ، إلى العدو ، ووصلوا فى صحبته إلى مراکش ، حيث أنزلوا منازل حسنة ، وأغدقت عليهم الصلات والأرزاق . وندب عبد المؤمن ولده السيد أبا سعيد لولاية غرناطة بالإضافة إلى سبته والجزيرة ، فاستقر بها مع حاميه

(١) وهو بالإفريقية Trancoso .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث - ص ٣١ و ٣٢ .

موحدية . وكان استيلاء الموحدين على غرناطة في سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م)^(١). وتلا استيلاء الموحدين على غرناطة ، استيلاؤهم على ألمرية . وكان النصارى قد انتهزوا فرصة الاضطراب العام الذى ساد الأندلس ، عقب انهيار سلطان المرابطين ، وجهزوا حملة صليبية برية وبحرية ، اشتركت فيها ممالك اسبانيا النصرانية قشتالة ونافار (نبرة) ، وأراجون وقطلونية ، ومعها أمداد من جنوة وبيزة وبعض حشود من وراء البرنيه وذلك لافتتاح ثغر ألمرية ، وحاصروا ألمرية براً وبحراً ، مدى ثلاثة أشهر ، واستولوا عليها حسبما ذكر في موضعه في شهر أكتوبر سنة ١١٤٧ م (٥٤٢ هـ) . وكان الموحدون مذ عبروا إلى شبه الجزيرة ، واستقروا في قرطبة في أواسط الأندلس ، يتوقون إلى استرداد هذا الثغر الإسلامى العظيم ، خصوصاً وقد كان وجود النصارى فيه يهدد مواصلاتهم البحرية شرقى بحر الزقاق ، فيما بين شاطئ المغرب الأوسط ، وجنوبى الأندلس . فلما تم استيلاؤهم على غرناطة ، شعروا بأن الفرصة قد سنحت لتحقيق هذا المشروع ، الذى كان الخليفة عبد المؤمن ، يحبوه بمزيد من عنايته واهتمامه . فحشد السيد أبو سعيد والى غرناطة قواته ، وبعث إلى ألمرية بادئ ذى بدء حملة استطلاعية ، وصلت إلى أسوار ألمرية ، وقتلت عدداً من النصارى ، ثم ارتدت إلى حصن برجة الواقع شمال غربى ألمرية ، وعلمت من أهله أن النصارى بقصبة ألمرية فى عدد قليل ، ولا يستطيعون دفاعاً عن المدينة . وعلى أثر ذلك سار السيد أبو سعيد إلى ألمرية فى جيش ضخم من الموحدين ، ومعهم قوة أندلسية بقيادة أحمد بن ملحان صاحب وادى آش السابق ، بينما قصد إليها من البحر أسطول سبته الموحدى بقيادة أمير البحر عبد الله بن سليمان . وضرب الموحدون حول ألمرية حصاراً محكماً ، ونصبوا حولها المجانيق ، وأبثنى السيد أبو سعيد فوق الجبل الذى احتله الموحدون إزاء المدينة ، سوراً يمتد إلى البحر ، وأمامه خندق عميق ، وذلك حتى يعوق وصول النجداث إلى المدينة . وشعر النصارى بالقصبة منذ البداية بخطورة الموقف ، فبعثوا يستغيثون بعاهلهم ، وهرع ألفونسو السابع أو السلطيين حسبما تسميه الرواية الإسلامية ، لإنجاد المحصورين فى جيش قوامه اثنا عشر ألف فارس ، وقدم معه حليفه محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرقى الأندلس فى جيش من ستة آلاف من المسلمين . وكان مقدم الأمير المسلم فى هذا

(١) روض القرطاس ص ١٢٧ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٣٣ .

الموطن ، ليحارب إلى جانب النصاري ، أبناء دينه ووطنه ، وليحول دون تحرير الثغر المسلم ، من أشنع المواقف التي يمكن تصورها ، مهما كان وراءه من الإعتبارات القومية والوطنية . وحدث أثناء الحصار بين ابن ملحان وبين عبدالله ابن سليمان نزاع ، انسحب ابن ملحان على أثره مع قواته إلى معسكر ابن مردنيش ، ليشاطره خزي موقفه . واستمر حصار الموحدون لألمرية بضعة أشهر ، حاول النصاري وحليفهم ابن مردنيش خلالها غير مرة ، أن يقتحموا الحصار لإنجاد المحصورين ، فذهبت كل جهودهم عبثاً . وتقول الرواية النصرائية ، إنه نشبت خلال ذلك بين الموحدون والنصاري موقعة عنيفة ، فقد فيها الموحدون زهرة جندهم ، وتفرقوا في غير نظام^(١) . بيد أنه مما ينقض هذه الرواية ، أن القشتاليين لم يفلحوا في خرق الحصار ، وأن حامية ألمرية النصرائية ، لم تلبث أن أرغمت على التسليم . وكان السيد أبو سعيد قد بعث إلى أبيه الخليفة يستمده العون ، فبعث الخليفة وزيره أبا جعفر بن عطية القضاء إلى الأندلس صحة ولده السيد أبي يعقوب يوسف ، الذي ندبه لولاية إشبيلية ، وأمر بعد استقرار ولده بإشبيلية ، أن يتوجه أبو جعفر إلى ألمرية ليعالج أمرها ، ووصل ابن عطية إلى ألمرية ، وقد تخرج مركز النصاري بقصبتها ، وأرهبهم الحصار ، ففاوضهم ، ونجح في إقناعهم بالتسليم على الأمان . ودخل الموحدون ألمرية في أواخر سنة ١١٥٧ م (ذوالقعدة أو ذو الحجة سنة ٥٥٢ هـ) بعد حصار دام سبعة أشهر ، وعاد الثغر الإسلامي إلى سلطان المسلمين بعد أن احتله النصاري زهاء عشرة أعوام . وكان السيد أبو سعيد يتوق إلى العود مسرعاً بقواته إلى غرناطة خشية عدوان القشتاليين . ولكن الواقع أن ملك قشتالة وحليفه ابن مردنيش اضطرا إلى الانسحاب خائبين ، تاركين المدينة المحصورة لمصيرها ، ومرض ألفونسو السابع في طريق العود إلى عاصمته طليطلة ، وتوفي قبل أن يصل إليها في بلدة مورتلة (مورادال) وذلك في ٢١ أغسطس سنة ١١٥٧ م . وارتد ابن مردنيش في قواته إلى بلاده^(٢) .

وحدثت في نفس الوقت في ولاية المغرب تطورات جديدة . وذلك أن عليا الوهبي حينما فر من لبلبة عندما دهمها الموحدون ، سار إلى ثغر طبرية الصغير ،

(١) La Fuente: Historia General de Espana (Ed. 1889) T, III. p. 300

(٢) يراجع في استرجاع الموحدون لألمرية : ابن الأثير ج ١١ ص ٨٤ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٣٣ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٧ .

الواقع على شاطئ المحيط قرب مصب نهر وادى يانه ، وامتنع به . وكان الخليفة عبد المؤمن قد ندب ولده السيد أبا يعقوب يوسف لولاية إشبيلية ، تحقيقاً لرغبة أشياخها حينما وفدوا عليه بمراكش في سنة ٥٥١ هـ ، وذلك بالرغم من صغر سنه ، وبعث معه الوزير ابن عطية حسبما تقدم . فلما فرغ ابن عطية من تحقيق مهمته بالمرية ، عاد إلى إشبيلية ، ثم خرج منها مع السيد أبي يعقوب في حملة موحدية سارت لغزو طبيرة ، فامتنع بها الوهبي ، واضطر الموحدون إلى حصارها برأ وبحراً ، وأقاموا على حصارها زهاء شهرين ، ثم رأى ابن عطية مفاوضة الوهبي ، وقنع منه بذكر الخليفة في الخطبة ، على أن يبقى محتفظاً بطبيرة . واستولى الموحدون في هذه الغزوة على بلاد أبي محمد سيدراى بن وزير ، وهى شلب وميرتلة ، وباجة وأحوازها ، تخلى عنها ابن وزيرها طوعاً (١) ، وعبر البحر إلى المغرب . ولسنا نعرف سبباً لهذا التخلي ، إلا أن يكون ما يذكره ابن عذارى من أنه حينما كان السيد أبو يعقوب في جيشه تحت أسوار طبيرة ، وفد عليه أشياخ بلاد ابن وزير ، ومدحه شاعرهم الأديب أبو بكر بن المنخل بقصيدة طويلة ، والظاهر أن أولئك الأشياخ قد طلبوا إلى السيد أبي يعقوب إقالة ابن وزير ، وتعيين حاكم موحدى لبلادهم ، ومن ثم فقد عين لولاية شلب وبلاد الغرب حاكم موحدى هو يعقوب بن جبون الهزرجى ، وبعض الحفاظ الموحدين . ويضع ابن عذارى تاريخ هذه الحوادث في النصف الأول من سنة ٥٥٢ هـ ، وهو ما يحمل على الاعتقاد بأن الوزير ابن عطية قد قام بمهمته في المرية بعد أن اشترك في حوادث الغرب المتقدمة ، وليس من الممكن أن يكون اشتراكه فيها بعد عوده من المرية إلى إشبيلية ، إذ سقطت المرية كما رأينا في أيدي الموحدين في أواخر سنة ٥٥٢ هـ (٢) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى وقع بمراكش حادث محزن ، هو نكبة الوزير أبي جعفر بن عطية ، وأخيه الكاتب أبي عقيل بن عطية . وقد سبق أن أشرنا إلى نشأة أبي جعفر ، وظهوره خلال المعركة التى

(١) ابن الأبار في الحلة السبراء ص ٢٣٩ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث - ص ٣٤ .

اضطربت بين الموحدين وبين الماسي ، برسائله التي كتبها بتكليف الشيخ أبي حفص
التهتاني إلى الخليفة ، وصفاً لهذه المعركة ، وما كان من حظوته لدى الخليفة
بسببها ، وتولية الوزارة ، وتوطد سلطانه ونفوذه ، حتى غدا من أقرب أعوان
الخليفة ، وآثرهم لديه ، وأكثرهم فوزاً بثقته . وكان أبو جعفر في الواقع من
أقدر وزراء الدولة المؤمنية ، وأوفرهم كفاية ، وأبرعهم خللاً ، وكان رضى
النفس قريب المنال ، خدوماً يعمل على قضاء الحوائج ، فأحبه الناس ، وقدروا
مروءته ، ومكانته .

وكان يبدو أن ابن عطية ، ما يزال متمتعاً برفع مكانته ونفوذه ، حينما بعثه الخليفة
إلى الأندلس ليكون إلى جانب ولده السيد أبي يعقوب ، وليعالج قضية ألمرية .
بيد أنه كان ثمة طائفة من تيارات خفية تعمل ضده ، وتسعى إلى تقويض نفوذه ،
والقضاء عليه ، وكان ابتعاده عن مراكز فرصة سانحة لخصومه ، يحكمون فيها
تدبير خطتهم ودسائسهم . وفي خلال ذلك استوزر عبد المؤمن ، عبد السلام
ابن محمد الكومي ، من قرابته وأبناء قبيلته كومية^(١) ، فزعم خصوم ابن عطية ،
واشتد في مطاردته ، والحملة عليه والتشهير به ، وتبع عوراته وسقطاته « وأغرى
صنايعه ، وشحن عليه حاشيته » حسبما يقول لنا ابن الخطيب « فبروا وراشوا
وانقلبوا » . وكان في مقدمة مانسب إلى أبي جعفر ، مما لآته اللتين ، وإسرافه
في اصطناعهم ، وتوليهم الأعمال والوظائف ، وفوق ذلك ، فقد كانت زوجته
لمتونية ، أبوها يحيى الحمار من أمرائهم ، وأمها ابنة زينب بنت علي بن يوسف^(٢) ،
فكانت هذه الظروف ، تثير من حوله الريب ، وتدمغه في نظر المتعصبين من
أشياخ الموحدين . وكان يعمل لإهلاكه إلى جانب الوزير عبد السلام الكومي ، رجل
ممن شملتهم حمايته ورعايته ، فكفر بشكر الصنيعة ، هو القاضي مروان بن عبدالعزيز ،
أمير بلنسية السابق ، وكان ابن عطية قد سعى في إطلاق سراحه من سجنه الطويل
بميورقة ، واستغل في ذلك نفوذه لدى واليها إسحق بن محمد بن غانية ، فعبر
البحر إلى بجاية ، ثم إلى مراکش ، فأسعفه ابن عطية ، وعاونوه على الانتظام في

(١) ذكر لنا البيهقي نوع هذه القرابة ، فقال إن والدة عبد المؤمن « تملو » لما توفي زوجها
الأول على والد عبد المؤمن ، تزوجت من بعده ، والد عبد السلام الكومي ، ورزقت منه بابة سميت
فندة ، فكانت فندة هذه أخت عبد المؤمن لأمه وعبد السلام الكومي لأبيه (أخبار المهدي ابن تومرت
ص ٢٤) .

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧٣ .

مجلس الخليفة^(١) . بيد أنه ما لبث أن انقلب عليه ، وكفر بصنيعته ، وأخذ يحرض عليه ، ومن ذلك أبيات نظمها ضده وخرجت بمجلس عبد المؤمن يقول فيها :

قل للإمام أطل الله مدته	قولا تبين لذي لب حقائقه
ان الزاجين قوم قد وترتهم	وطالب الثأر لم تؤمن بوائقه
وللوزير إلى آرائهم ميسل	لذاك ما كثرت فيهم علائقه
فبادر الخزم في إطفاء نارهم	فربما عاق عن أمر عوائقه
هم العدو ومن والاهم كُتُهم	فاحذر عدوك واحذر من يصادقه
الله يعلم أني ناصح لكم	والحق أبلغ لا تخفى طرائقه ^(٢)

والظاهر أن هذه الأبيات ، قد تركت أثرها في نفس الخليفة ، وقد كانت مستعدة بما أوحى إليه من مختلف المصادر للتفكير بأبي جعفر . وكان أبو جعفر قد ترامت إليه وهو في شبه الجزيرة ، أنباء مقلقة عما يدور حوله من دسائس ، وما يرمى به من التهم ، ففعل بالعودة ، ليرد هجوم خصومه ، ولكن الخليفة ، كان عندئذ قد اعتزم أمره ، فما كاد يصل إلى مراكش ، حتى أمر عبد المؤمن بالقبض عليه واعتقاله ، ثم اقتيد بعد أيام قلائل إلى الجامع مهانا حاسر الرأس كسير الفؤاد ، واستحضر الناس على طبقاتهم ليعلموا ما يعلمونه من أمر الوزير المنكوب ، ومنهم أشياخ الموحدين والطلبة ، ووفود الأندلس ، وطلب إليهم ابن عمر باسم الخليفة أن يقول كل منهم ما يعلمه عن ابن عطية من سوء ، وما إذا كان قد أعطاه شيئاً أو صانعه ، وكان الوزير عبد السلام الكومي ، قد رتب أعوانه وصنائه لهذا اليوم . فأجاب كل من الحضور بما اقتضاه هواه . ولم يرتفع لسان بالدفاع عن ابن عطية سوى ابن وزير صاحب شلب وباجة السابق ، حيث أكد أنه لم يعط ابن عطية يوماً شيئاً إلا رده إليه مضاعفاً ، وأنه لو عين الخليفة للوساطة بينه وبين رعاياه ، عبداً حبشياً ، لكان من واجبه أن يعظموه وأن يهادوه . فلما انتهى المجلس أعيد ابن عطية إلى سجنه ، وسجن معه أخوه الكاتب أبو عقيل بن عطية ، ولبت الأخوان في المطبخ بضعة أشهر ، وأبو جعفر ، يتوسل إلى الخليفة

(١) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢١٥ ، و ٢١٦ ، وفي التكملة (القاهرة) رقم ١٧٥٠ .

(٢) الحلة السيرة ص ٢١٦ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧٤ .

لالتباس عفوه برسائل وقصائد تذب الحماة إشفاقاً وتأثراً ، ومنها الأبيات الآتية :
 فعفواً أمير المؤمنين فن لنا يحمل قاوب هدها الخفقان
 عطفاً علينا أمير المؤمنين فقد بان العزاء لفرط البث والحزن
 قد أغرقتنا ذنوب كلها للحج وعطفة منكم أنجي من السفن
 وصادفتنا سهام كلها غرض لها ورحمتكم أوفى من الجن
 هيات للخطب أن تسطو حوادثه بمن أجارته رحماكم من المحن
 أنتم بذلتهم حياة الخلق كلهم من دون من عليهم لا ، ولا ثمن
 ونحن من بعض من أحيت مكارمكم تلك الحياتين من نفس ومن بدن
 وصبية كفراخ الورق من صغر لم يألوا النوح في فرع ولا فن
 قد أوجدتهم أياد منك سابقة والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

ولكن عبد المؤمن لم يتأثر لضراعة وزيره ، ولم تجد الرحمة إلى قلبه سبيلاً .
 وقيل في سبب قسوة عبد المؤمن على وزيره ، أنه أفضى إليه بسر خطير فأفشاه .
 ويوضح لنا المراكشي ماهية هذا السر ، فيقول لنا إن يحيى بن أبي بكر
 الصحراوي أو ابن الصحراوية فارس المرابطين ، الذي فصلنا أخباره فيما تقدم ،
 كان قد استأمن إلى عبد المؤمن ، فأمنه وأكرمه وفادته ، وحظي لديه ، وجعله
 قائداً على من بقي من لمتونة ، وكانت زوجة ابن عطية ، زينب بنت أبي بكر أخت
 يحيى المذكور ، وحدث أن ترامت إلى عبد المؤمن أشياء وأقوال نسبت إلى
 يحيى الصحراوي غضب منها ، ونقمها عليه ، وقرر أن ينكل به ، وصدر عنه
 في بعض مجالسه ، ما يفصح عن هذا العزم ، فكان من ابن عطية أن قال لزوجته
 أخت يحيى أن تحذر أخاها ، وأن يتارض إذا دعى إلى مجلس الخليفة ، وأن
 يلوذ بالفرار إذا استطاع إلى ميورقة ، ففعلت زينب ما طلب إليها ، وتمارض
 يحيى ، وزاره بعض صحبه في مرضه ، فأفضى إلى بعضهم بما بلغه عن الوزير ،
 وما نصحه به ، فنقل هذا الصديق ما سمعه إلى بعض ولد عبد المؤمن . ووقف
 عبد المؤمن على ذلك ، فكان هذا هو أعظم سبب في نكبة ابن عطية^(١) . ولما توجه
 عبد المؤمن بعد ذلك ، في أوائل سنة ٥٥٣ هـ إلى تينملل لزيارة قبر المهدي ،

(١) المراكشي في المعجب ص ١١١ . وقد ذكرنا فيما تقدم نقلاً عن ابن الخطيب ، أن زوجة
 ابن عطية كانت حفيدة زينب بنت علي بن يوسف .

حمل معه أبا جعفر وأخاه أبا عقيل يرسفان في أغلالهما . قال ابن الخطيب : « وصدرت عن أبي جعفر في هذه الحركة من لطايف الأدب ، نظماً ونثراً ، في سبيل التوسل بترية المهدي ، أمامهم ، عجائب لم تجد ، مع نفوذ قدر الله فيه » . ولما غادر عبد المؤمن تينملل ، عائداً إلى مراکش ، حمل الأخوين معه ، فلما وصل إلى موضع يقال له تغمرت ، على مقربة من الملاحه ، أصدر أمره بإعدامهما واستصفاء أموالهما ، فأعدم على الأثر ، وكان إعدامهما في التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ٥٥٣ هـ (أول أبريل سنة ١١٥٨ م) ، وكان أبو جعفر عند مصرعه فتى في نحو السادسة والعشرين من عمره ، إذ كان مولده بمراكش وفقاً لابن الخطيب سنة ٥٢٧ هـ (١) .

وهكذا زهق الوزير الكاتب الشاعر ابن عطية ، ضحية نزعة دموية من الخليفة ، أثارها الأهواء والوشاية ، ودون ما خطير جريمة واضحة يسجلها لنا التاريخ ، وأضاف عبد المؤمن بذلك صفحة دموية جديدة إلى صفحاته العديدة السابقة . ومما يدل على أن عبد المؤمن كان متسرعاً في قراره إزاء وزيره المنكود ، ما يقصه علينا صاحب البيان المغرب من أن عبد المؤمن ندم أشد الندم على مقتل وزيره ، وذرف عليه الدموع . وإنه لما يؤسف له ، أن يضطر المؤرخ إلى أن يحصى مثل هذه النزوات الدموية المتوالية ، في سيرة رجل عظيم مثل عبد المؤمن أقامت عبقريته دولة من أعظم الدول الإسلامية في المغرب والأندلس ، وامتازت بطائفة من أبداع الحلال التي تزدان بها البطولة ، ولكننا ربما استطعنا أن نلتمس في روح العصر ، وروح الصراع الذي كانت تضطلع به الدولة الموحدية الفتية ، كثيراً من العوامل الملطفة ، لما تثيره هذه الصفحات القائمة من سحب على سيرة الرجل العظيم .

(١) راجع في نكبة الوزير ابن عطية : ابن الخطيب في الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧٣ - ٢٧٦ ، والبيان المغرب - القسم الثالث ص ٣٥ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٥٢ - ١٥٤ . ونود أن نلاحظ هنا أن تاريخ مولد ابن عطية الذي يقدمه لنا ابن الخطيب ، وهو سنة ٥٢٧ هـ - لا يتفق مع ما يقوله لنا عن مراحل حياته ، ومن أنه كتب عن علي بن يوسف ثم عن ولده تاشفين ثم عن حفيده إبراهيم . ومن الواضح أن هذا لا يستقيم من الناحية الزمنية ، إذ يكون عمره حين كتب عن علي بن يوسف نحو عشرة أعوام فقط . وربما يستقيم الأمر إذا قيل لنا إنه كتب عن الأمير إبراهيم ، إذ يكون عنده في نحو الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره .

الفصل الثالث

الثورة في شرق الأندلس

وظهور محمد بن سعد بن مردنيش

خواص الثورة في شرق الأندلس . بلنسية مركز الثورة في الشرق . فرار واليا عبد الله بن غانية . اختيار القاضي ابن عبد العزيز لولايتها . القتال بين المرابطين وأهل بلنسية . استيلاء ابن عبد العزيز على شاطبة . استيلاء ابن عياض على مرسية . تمرد الجند . فرار ابن عبد العزيز وسقوطه في يد ابن غانية . ولاية ابن عياض لبلنسية وعبد الله بن سعد لمرسية . مصير ابن عبد العزيز ووفاته . حوادث مرسية . تدخل ابن هود في شئونها . قيام القاضي ابن أبي جعفر بولايتها . مسيره لإنجاد ابن حدين ومصرعه . تطور شئون الرياسة في مرسية . تقديم ابن عبد الرحمن بن طاهر لولايتها . السعي إلى خلعه . دخول ابن عياض مرسية . اعتزال ابن طاهر وعبوره إلى المغرب . دعوة ابن عياض لرياسة ابن هود في بلنسية ومرسية . مقدم ابن هود إلى مرسية . خروجه وابن عياض لمقاتلة النصارى . مقتل ابن هود وعبد الله ابن سعد . موقعة البسيط . ظروفها وبواعثها حسبما تصورها الرواية النصرانية . سيف الدولة بن هود . شخصيته وأعماله . خضوعه لتوجيه ملك قشتالة . أدبه وشعره . ابن عياض يدعو لنفسه في بلنسية . نائب محمد بن سعد بمرسية . القائد عبد الله الثغري . نجاحه في انتزاع مرسية . استرداد ابن عياض لمرسية ومصرع الثغري . إمارة ابن عياض بمرسية وبلنسية . مصرعه والخلاف حول ذلك . محمد بن سعد ابن مردنيش يخلفه في بلنسية ثم في مرسية . محمد بن سعد وحقيقته أصله . ولعه بمصادقة النصارى والتشبه بهم . يبسط سلطانه على شرق الأندلس . سياسته نحو الممالك النصرانية . عقده لمعاهدات صلح مع أمير برشلونة وجمهوريتي بيزة وجنوة . إقدامه وشجاعته . حليفه ابن همشك . أصله ونشأته . أعماله وظهوره . تغلبه على مدينة شقورة . محالفته ومصاهرته لمحمد بن سعد . استيلاء النصارى على قواعد الثغر الأعلى . موقف ابن مردنيش من ذلك الحادث . استيلاء النصارى على ألمرية وقلعة رباح . استيلاء ابن همشك على شقورة . بيعة ابن مردنيش ببلنسية ومرسية استيلاؤه على بسطة ووادي آش . مواجهته للموحدين في أواسط الأندلس .

لم تكن تلك الثورات التي نشبت ضد المرابطين في أواسط الأندلس وفي غربها ، سوى جانب فقط من الثورة العامة ، التي اضطربت بها الأندلس من أقصاها إلى أقصاها . ذلك أن ريع الثورة قد اجتاحت في الوقت نفسه شرق الأندلس كله ، من بلنسية إلى ألمرية ، وكانت الثورة في شرق الأندلس ، أعرق مثلاً ، وأعمق جذوراً . وأشد مراساً منها في الغرب ، وكانت تُسيرها منذ البداية فكرة قومية عميقة ، هي الفكرة الأندلسية الخالصة ، فكانت تضطرم ضد

— ٣٥٤ —

المرابطين والموحدين معاً ، بنفس العنف والإصرار ، وكانت العوامل الجغرافية والعسكرية ، تشد من أزرها ، وتضاعف مقدرتها على المقاومة ، فقد كانت قواعدها الرئيسية ، بعيدة عن متناول الجيوش الموحدية ، وكان اتصالها بالبحر يمدّها بوسائل وموارد خاصة ، وكان وقوعها على مقربة من الممالك النصرانية ، يفتح لها باب الاتصال المستمر بالملوك النصارى ، ومحالفهم ، والاستنصار بهم ، وكانت هذه الوسيلة بالرغم مما يحيط بها من ملبسات ذميمة ، تعتبر في تلك الآونة من الخطط المشروعة ، في مقاومة الغزاة المحتلين ، مرابطين كانوا أو موحدين . وثمة عامل آخر ، في استفحال الثورة وصمودها في شرق الأندلس ، هو انحصار زعامتها ، وتركيزها مدى أعوام طويلة ، في شخصية واحدة قوية ، كانت تجتمع حولها خيوط المقاومة ، وكان يحدوها إيمان عميق بالفكرة الأندلسية ، تتحطم عليه سائر الاعتبارات الدينية : تلك هي شخصية محمد بن سعد بن مردنيش ، أعظم ثوار الأندلس ضد الموحدين ، وأشدّهم مراساً ، وأعنفهم كفاحاً .

— ١ —

وكانت بلنسية تحتل في شرق الأندلس ، نفس المكانة ، التي تحتلها قرطبة في الوسط ، وإشبيلية في الغرب ، باعتبارها قاعدة لسلطان المرابطين ، ومركزهم الدفاعي في هذا القطاع من الأندلس . وكان للمرابطين عناية خاصة بتأمين ثغر بلنسية ، لموقعه الدقيق على مقربة من الثغر ، والممالك النصرانية ، يولونه الصفوة من القراة والخاصة ، فكان ضمن ولائها الأمير مزدلى بن تيولتكان ، محررها من الغزاة النصارى ، والأمير أبو الطاهر تميم بن يوسف ، ومحمد بن يوسف ابن يدّر ، والأمير أبو زكريا يحيى بن غانية . وكان على ولايتها حينما اضطربت الثورة في غربي الأندلس ، وفي قرطبة ، أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي أنخى يحيى بن غانية ، وقاضيا يومئذ أبو عبد الملك مروان بن عبد الله بن مروان ابن عبد العزيز ، وكان قد ولاه منصب القضاء الأمير تاشفين بن علي في ذى الحجة سنة ٥٣٨ هـ .

فلما نشبت الثورة في قرطبة ، بعد نشوبها في الغرب ، ونادى ابن حمدين بنخلع نير المرابطين ، طافت ريح الثورة بقواعد شرق الأندلس ، وهاجت الحواطر في بلنسية وغيرها ، واجتمع إليها عبد الله بن محمد بن غانية ، وقاضيا

أبو عبد الملك مروان بن عبد العزيز ، وتفاهما ، بالرغم مما كان بينهما من المنافسة الباطنية ، على الائتلاف والتعاون على حفظ النظام وضبط المدينة ، واجتمع الناس في المسجد الجامع في أواسط رمضان سنة ٥٣٩ هـ ، فخطب فيهم مروان ، وذكرهم بجهاد اللتوتيين ضد النصارى ، ونصرهم لقضية الأندلس ، وتحريضهم لبلنسية من أبدى القشتاليين ، وحشهم على التمسك بدعوتهم والوفاء لهم . وتكلم الوالى بمثل ذلك ، وذكرهم بأيام عمه يحيى بن غانية ، وبما انعقد بينهم وبينه من التعاطف والمودة . بيد أن هذا التفاهم الظاهر بين زعيمى المدينة ، لم يكن سوى ستار لما يضطرم فى الأنفس الثائرة ، وسرعان ماتوجس الوالى عبد الله ابن غانية من نيات زميله وحليفه القاضى ، ومما قد يجيش به الشعب نحوه ونحو اللتوتيين من المقاصد الخطرة ، فبعث أهله وأمواله خفية إلى شاطبة ، ثم لحق بهم فى صحبه فى اليوم التالى ، واستطاع ، بالرغم مما وقع بينه وبين جند بلنسية من مناوشة ، أن يلوذ بالفرار ، وأن يصل إلى شاطبة . فلما استقر بها ، أخذت مرياته اللتوتية تغير على أحواز بلنسية ، وتثخن فيها ، وتعتدى على الأموال والأنفس ، فتقدم الحند والعرب وأعيان المدينة إلى ابن عبد العزيز ، بأن يتولى أمرهم ، فأبى ، وقال لهم اختاروا لولايتكم من ترون من شيوخكم ، فوقع الاختيار على بعض زعماء لمتونة ، ممن بقى منهم بالمدينة ، وأراد هذا الزعيم الحديد أن يقبض على ابن عبد العزيز ، فلم يستطع ، ثم تولاة الخوف والروع ، ففر إلى شاطبة ، ومعه بقية أشياخ لمتونة ، ووقع لإجماع الناس على اختيار القاضى ابن عبد العزيز للولاية ، فاستتر منهم ، فسعى إلى الانفراد به ، أبو محمد عبد الله ابن عياض قائد الثغر ، وعبد الله بن مردنيش ، وأقنعه بقبول الإمارة ، فقبها مكرها وبويع له فى اليوم الثالث من شوال من نفس السنة ، وولى عبد الله بن عياض الثغر وما والاها ، واستمر المرابطون خلال ذلك فى غاراتهم وعيهم فى أحواز المدينة ، فحشد ابن عبد العزيز جنود الثغر وسار إلى شاطبة ، فخرج المرابطون من قصبتها إلى المدينة ، وعاثوا فيها وسبوا النساء ، والتقى جند بلنسية بالمرابطين ، ونشبت بين الفريقين موقعة هزم فيها المرابطون ، فعادوا إلى الامتناع بالقصبة ، وقدم عسكر من مرسية بقيادة قاضيا ابن أبى جعفر محمد بن عبد الله لإنجاد ابن عبد العزيز ، وتعاونوا على حصار شاطبة ، وكلاهما يضمير فى نفسه أن يفوز بها ، ثم وصل ابن عياض فى جند الثغر ، وأدرك عبد الله بن محمد بن غانية ، الوالى

السابق ، أنه لا طاقة له بهذه القوى ، ففر من شاطبة في نفر من خاصته ، واستطاع أن يلحق بالمرية ، وهناك لقي محمد بن ميمون قائد الأسطول في تلك المنطقة وكان قد بقي على طاعة المرابطين ، فجهره إلى ميورقة ، حيث كان أبوه محمد ابن غانية يتولى أمن الجزائر ، فاستقر إلى جانبه ، وكان من أمر بني غانية ، ودولتهم بالجزائر الشرقية أيام الموحدين ، ماسوف نذكره في موضعه^(١) .

واستولى ابن عبد العزيز على شاطبة صلحاً ، وحصنها وعين لها قائداً ، وانضمت إليه لثقت وما مجاورها ، فاتسعت إمارته ، وضخم أمره ، ثم عاد إلى بلنسية حيث جددت له البيعة ، وذلك في شهر صفر سنة ٥٤٠ هـ . وانصرف ابن أبي جعفر إلى مرسية ، ثم خرج منها بعد ذلك لإنجاد ابن أضحى في غرناطة ، وقتل حسباً تقدم ، في المعركة التي نشبت بينه وبين المرابطين .

ولكن ابن عبد العزيز لم يلبث أن آنس متاعب جمّة من تمرد الجند ، وعجز الحباية ، وقصوره عن الوفاء بأجور الجند ، وما تتطلبه المصالح العامة ، فخطب الجند ابن عياض ، يستعجلونه في الوصول إليهم للاضطلاع بزمام الأمور ، وكان عندئذ بمرسية ، بعد استيلائه عليها ، من واليها السابق أبي عبد الرحمن بن طاهر ، وذلك في جمادى الأولى سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) . وفي أثناء ذلك ، أحاط الجند يقصر الإمارة فشرع ابن عبد العزيز بالخطر ، وغادر القصر خفية ، وتدلّى من سور بلنسية ليلاً ، وسار حتى لحق بالمرية ، وهناك قبض عليه ابن ميمون أمير البحر ، ودفعه إلى عدوه السابق عبد الله بن غانية ، وكان ما يزال بالمرية ، فاحتمله معه عبد الله مصفداً إلى ميورقة .

وعلى أثر اختفاء ابن عبد العزيز ، قدّم الجند للرياسة عبد الله بن محمد بن سعد بن مردنيش صهر ابن عياض نائباً عنه ، وأسكنوه قصر بلنسية . وفي آخر جمادى الأولى ، قدم ابن عياض إلى المدينة ، وقد وصلته بيعة أهلها ، وهوفي طريقه إليها ، فأقام بها حيناً ينظم شئونها ويحصن ثغورها . ثم عاد إلى مرسية ، وترك صهره عبد الله بن سعد بن مردنيش أميراً عليها من قبله ، وهو عم محمد ابن سعد بن مردنيش زعيم الشرق فيما بعد ، ويعرف بصاحب البسيط ، لأنه استشهد ، في موقعة البسيط مع ابن هود حسباً نذكر بعد^(٢) .

(١) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢١٢ - ٢١٤ ، وابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٢٥٦ .

(٢) الحلة السيرة ص ٢١٥ .

ولما ابن عبد العزيز ، فقد لبث يوسف في سجنه بميورة لدى بنى غانية نحو عشرة أعوام ، وهو يعانى أمر ضروب العذاب والمهانة ، حتى قيص الله له الخلاص فى النهاية ، بواسطة الوزير أبى جعفر بن عطية ، وكان والى ميورة يومئذ إسحق بن محمد بن غانية ، ولها بعد مقتل أبيه محمد وأخيه عبد الله ، وجنح إلى مهادة الموحدىن ، فأطلق سراحه ، وبعث به إلى ثغر بجاية ، وذلك فى سنة ٥٤٨ هـ فسار إلى مراكش ، وهناك عاونه ابن عطية على أن ينتظم فى مجلس الخليفة العلمى . بيد أنه لم يرع لابن عطية ، شكر الصنعة ، ونظم فى حقه أبياته المشهورة فى التحريض عليه ، ومطلعها :

قل للإمام أطال الله مدته قولاً تبين لذي لب حقائقه
فكانت هذه الأبيات حسبها نذكر بعد ، من أقوى الأسباب فى نكبة ابن عطية ، وظل ابن عبد العزيز مقبياً بمراكش فى خول ونسيان حتى توفى سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) فى الثالثة والسبعين من عمره^(١) .

ونود قبل أن نمضى فى تتبع مصابىر الثورة فى بلنسية وتطوراتها ، أن نتناول ما وقع من الأحداث فى مرسية ، وباقى أعمال الشرق .

كانت مرسية ثانى قواعد الشرق بعد بلنسية ، وكانت تحتل فى النصف الجنوبى من شرق الأندلس ، نفس المركز الدفاعى ، الذى تحتله بلنسية فى النصف الشمالى ، ومن ثم فإننا نجد فى فترات الثورة ، واضطراب الأحداث السياسية والعسكرية ، دائماً صلة وثيقة بين ما يقع فى هاتين القاعدتين من أحداث وتطورات ، وقد كان هذا شأنهما أيام الطوائف ، ثم كان شأنهما حينما اجتاحت ربح الثورة ضد المرابطين سائر قواعد الأندلس فى الغرب والشرق معاً .

وقد رأينا كيف نشبت الثورة فى بلنسية فى الوقت الذى اضطرت فيه بقرطبة ، وقام القاضى ابن حمدىن بدعوته ، فى هذه الآونة بالذات تضطرم الثورة أيضاً فى مرسية ، ويختار أهلها لرياستهم زعيماً منهم ، يدعى أبو محمد بن الحاج اللورى ، ودعا اللورى لابن حمدىن ، ولكنه لم يلبث فى رياسته سوى بضعة أسابيع ، خلال شهرى رمضان وشوال سنة ٥٣٩ هـ ، ثم رغب فى التخلّى عن منصبه لما آتته من صعاب ومتاعب لا قبل له بها . وكان سيف الدولة بن هود ، قد غادر عندئذ

(١) ابن الأبار فى الحلة السراء ص ٢١٥ و ٢١٦ ، وكذلك فى التكملة (القاهرة) رقم ١٧٥١ .

مقره على مقربة من طليطلة ، وأخذ يترقب فرص الحوادث هنا وهناك . فلما نعى إليه ماوقع في مرسية ، بعث إليها قائداً من قواده يدعى بعبد الله بن فتوح الثغرى ، فأخرج منها ابن الحاج ودعا لابن هود ، ولكنه لم يلبث أن أخرج منها بدوره ، وقدم الفقيه القاضى أبو جعفر محمد بن عبد الله بن أبى جعفر الحشنى ، وذلك في آخر شوال من السنة المذكورة ، فلبث في منصبه حتى أوائل سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥م) : وكان يتبرم بالإمارة ويقول : إنها « ليست تصلح لى ، ولست بأهل لها ، واكنى أريد أن أمسك الناس بعضهم عن بعض حتى يحىء من يكون لها أهلاً » . ولما سار القاضى مروان بن عبد العزيز أمير بلنسية إلى شاطبة لمقاتلة من امتنع بها من الممتونين ، سار الفقيه ابن أبى جعفر في بعض قواته لمعاونته ، ثم سار من مرسية في قواته مرة أخرى لمعاونة القاضى ابن أضحي زعيم الثورة في غرناطة على قتال الملتزمين ويقال إن قوات أبى جعفر ، بلغت في هذه الحملة اثنى عشر ألفاً من خيل ورجل ، فخرج الملتزمون إلى لقائه في جموع كثيفة ، ونشبت بين الفريقين في ظاهر غرناطة ، موقعة عنيفة ، هزم فيها ابن أبى جعفر وقتل ، وذلك حسبما فصلنا من قبل في أخبار الثورة في غرناطة . ونقل إلينا ابن الأبار عن ابن صاحب الصلاة رواية أخرى ، خلاصتها ، أن عبد الله الثغرى كان قائداً بمدينة كونكة ، فلما سمع بقيام ابن حمدين بقرطبة ، سار إليه والتحق بخدمته ، وفي خلال ذلك جاءت الأنباء من مرسية بقيام ابن الحاج ثم تبرمه من الرياسة ، فبعث ابن حمدين إليهم الثغرى واليا ، فقدم الفقيه ابن أبى جعفر قاضياً ، وذلك في منتصف شهر شوال سنة ٥٣٩ ، فأبدى شغفاً شديداً بالظهور والتعلق بالرياسة ، وحشد الناس لقتال المرابطين في أوريولة ، وغدر بهم عند نزولهم بالأمان ، وقتلهم ، فذاع صيته . ثم داخل أهل مرسية في أن يؤمروه ، وأن يُقدم للقضاء أبو العباس ابن الحلال ، ولقيادة الخيل عبد الله الثغرى ، فوافقوه على ذلك . ولما عقدت له البيعة ، نبذ طاعة ابن حمدين ، ودعا لنفسه وتلقب بالأمير الناصر لدين الله ، ثم قبض على الثغرى وعلى صهره ، ابني مسلوقة ، وعين لقيادة الخيل زعنون أحد وجوه الجند ، ثم سار إلى شاطبة لنصرة ابن عبد العزيز في مقاتلة المرابطين بها ، فثارت العامة خلال غيبته بمرسية ، وأطلقوا سراح الثغرى وصهره . فسار إلى مرسية على عجل ، وأخذ الهياج ، وفر الثغرى إلى كونكة . وعاد ابن أبى جعفر إلى متابعة القتال في شاطبة . ثم عاد بعد هزيمة الملتزمين ، وفرار أميرهم عبد الله بن غانية إلى

مرسية ، وذلك في صفر سنة ٥٤٠ هـ . ثم غادرها مرة أخرى في قواته إلى غرناطة لإنجاد ابن أضحى وقتل حسبما تقدم في الموقعة التي نشبت بينه وبين المرابطين^(١) . ولما عادت فلول عسكر مرسية بعد مقتل أميرها ، أجمع أهل مرسية على تقديم أبي عبد الرحمن بن طاهر للرياسة ، وذلك في أواخر شهر ربيع الأول سنة ٥٤٠ هـ ، فانتقل إلى القصر ، ودعا لابن هود ثم لنفسه . وأبو عبد الرحمن هذا ، هو محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن طاهر القيسي ، سليل بني طاهر أمراء مرسية أيام الطوائف . وقد سبق أن تحدثنا في أخبار مملكة مرسية عن أصلهم وعراقه بيتهم ، في الوجاهة والسرارة والعلم . وكان جده أبو عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية ، من أعظم علماء عصر الطوائف وكتابه ، وقد أشاد بذكره وروعة أدبه ابن بسام صاحب الذخيرة^(٢) ، وكان هو أي أبو عبد الرحمن بن طاهر الحفيد ، صنو جده في العلم والأدب والبراعة في الترسل .

تولى أبو عبد الرحمن بن طاهر الإمارة ، وقدم أخاه أبا بكر على الخيل . وكان ابن حمدين حينما اضطربت الأحوال في مرسية ، قد وجه إليها قوة بقيادة ابن عمه المعروف بالقلقل ، ومعه أبو محمد بن الحاج وغيره من أعيان مرسية اللاجئين إلى قرطبة ، فردت هذه القوة كسابقها . وهكذا بدأ ابن طاهر إمارته ، في جو مكفهر ، والدسائس تضطرم من حوله . ولم تمض أيام قلائل على رياسته ، حتى خاطب بعض أهل مرسية ، أبا محمد عبد الرحمن بن عياض قائد جند الثغر في بلنسية في القدوم إليهم وتقلد الرياسة ، فبادر بالسير إلى مرسية ، وتلقاه في طريقه والى أوربولة ، وهو القائد زعنون الذي تقدم ذكره ، وسلمه إياها ، ثم سار إلى مرسية ، ومعه عدة من وجوه أهل مرسية ، الذين خرجوا إلى لقائه والسير في ركابه ، كل ذلك وابن طاهر يعمل هادئاً في قصره ، ولا يدري بما يدور حوله من الأحداث . ثم دخل ابن عياض مرسية ، وقد برز الناس إلى لقائه ، وابن طاهر ، مستمر على سكوته وعلى حسن ظنه ، ودخل ابن عياض القصر ، لا يدفعه عند أحد ، فلم يشعر ابن طاهر ، إلا وقد نُزع من رياسته ، فانتقل إلى داره ، وعف ابن عياض عن دمه ، توقيراً له ، وإشفافاً لضعفه . وتم هذا الانقلاب في العاشر من جمادى الأولى سنة ٥٤٠ هـ (أكتوبر سنة ١١٤٥ م) .

(١) الحلة السيرة ص ٢١٨ .

(٢) راجع كتابي « دول الطوائف » ص ١٧٥ .

ولم تمض أيام قلائل على ذلك حتى تطورت الحوادث في بلنسية ، وخلع مروان ابن عبد العزيز من الإمارة ، واستدعى الحند ابن عياض لتولى الرياسة مكانه ، فسار ابن عياض إلى بلنسية في آخر شهر جمادى ، وقد فر عنها ابن عبد العزيز مخاوفاً ، وبويع بالإمارة ، ودعا لابن هود ، وأقام بها حيناً ينظم شئونها ، ثم غادرها إلى مرسية ، بعد أن أقر عليها صهره عبد الله بن سعد بن مردنيش عنه في رياستها حسبما تقدم من قبل .

أما ابن طاهر ، فإنه لزم داره ، وعاش في عزلة وهو يشهد تطور الحوادث في مرسية ، وفي شرق الأندلس ، في ظل زعيمه وأميره فيما بعد محمد بن سعد ابن مردنيش ، ويشهد صراعه المرير مع الموحدين ، وهو يزداد ، توجساً وحذراً ، كلما تطورت الحوادث ، وكلما تقدمت به السن ، إلى أن توفي ابن مردنيش في سنة ٥٦٧ هـ ، فعندئذ دخل في طاعة الموحدين ، وعبر البحر إلى المغرب ، وتوفي بمراكش في سنة ٥٧٤ هـ^(١) .

وقد أشرنا فيما تقدم ، إلى ما كان من مقدم سيف الدولة بن هود إلى قرطبة ، بدعوة أهلها ، ثم تحولهم إلى خصومته ، وقتلهم وزيره ابن الشماخ وطائفة من أصحابه ، ومغادرته عندئذ قرطبة إلى جيان ، وكان قد ثار بها قاضيا ابن جزى واستقل بحكمها ، فتغلب عليه وانتزعها منه . ثم سار إلى غرناطة بدعوة أهلها ، وخاض هناك بعض الوقائع إلى جانب القاضي ابن أضحى ، ولكنه لم يوفق إلى الاستقرار بها ، فغادرها في أواخر سنة ٥٣٩ هـ عائداً إلى جيان . وسرعان ما ألقي في حوادث مرسية فرصة جديدة للتدخل والمغامرة ، فبعث إليها أولاً قائده عبد الله الثغرى ، فتغلب عليها ، ولكنه أخرج منها بعد أيام قلائل ، ثم توالى الحوادث على النحو الذى فصلناه من قبل ، واستولى ابن عياض قائد جنود الثغرى على مرسية ، ثم على بلنسية ، ودعا لابن هود في كلتا الحاضرتين . فبعث إليه ابن هود بولده أبى بكر ، فخرج للقائه واحتفى به ، واصططحبه معه إلى بلنسية ، ثم سار ابن هود نفسه إلى مرسية . ودخلها ونزل بقصرها ، فعجل ابن عياض في اللحاق به ، وأعلن طاعته ، والامتثال لأوامره ، ونزل بالقصر الصغير ، فعهد إليه ابن هود بالأموال كلها ، وأسبغ عليه لقب الرئيس مكتفياً بلقب الإمارة ومظاهرها ، وكان ذلك في أواخر رجب سنة ٥٤٠ هـ (أوائل سنة ١١٤٦ م) .

وكان ابن عياض جندياً عظيماً ، وفارساً ذا نجدة ، ورئيساً وافر الحزم ، وكان فوق ذلك رجلاً صالحاً ورعاً ، رقيق الحس والعاطفة ، وكان النصراني يقدرون فروسيته وشدة مراسه ، ويعدون له وحده بمائة فارس^(١). وكان يقظاً لحركات النصراني في شرق الأندلس ، فلم تمض أيام قلائل ، على مقدم ابن هود ، حتى جاءت الأنباء باعتداء النصراني على أحواز شاطبة ، ومبادرة عبد الله ابن سعد بعسكر بلنسية لقتالهم . فأسرع ابن عياض وابن هود في قواتهما لنجدة . والتقى المسلمون والنصراني في موضع يسمى « بالليج » في ظاهر بلدة البسيط^(٢) على مقربة من جنجالة ، في يوم الجمعة العشرين من شهر شعبان سنة ٥٤٠ هـ (فبراير سنة ١١٤٦ م) ف وقعت الهزيمة على المسلمين ، وقتل في الموقعة عبد الله ابن سعد بن مردنيش ، وسيف الدولة ابن هود ، ونجا ابن عياض . وكانت ضربة شديدة للمسلمين في شرق الأندلس^(٣) .

هكذا تصور لنا الرواية الإسلامية موقعة البسيط . بيد أنه يوجد ثمة شيء من الغموض في تلك الرواية الموجزة . ذلك أننا نعرف أن سيف الدولة بن هود ، هو حليف النصراني ، وصنيعة عاهلهم القيصر ألفونسو السابع أو ألفونسو ريمونديس وهم الذين دفعوه إلى خوض غمار الحوادث في الأندلس ، وأمدوه بعونهم ، فكيف انقلب إلى محاربتهم بين عشية وضحاها ؟ والجواب على ذلك نجده في الرواية النصرانية المعاصرة ، وهي المسماة « رواية ألفونسو السابع » فهي تقول لنا إن سيف الدولة ، بعد أن فشلت محاولته في قرطبة بعث إلى ألفونسو السابع ملك قشتالة ، يخبره بأن أراضى أبدة ، وبياسة وقلاعها ، وهي من أملاكه التي تغلب عليها ، قد ثارت عليه ورفضت أداء الضرائب المطلوبة ، فندب ألفونسو أربعة من الأشراف القشتاليين هم الكونتات ما نريكي ، وأرمنجود ، وبانسيو ، ومارتن فرنانديث ، وأمرهم بأن يقوموا بإخضاع أراضى أبدة ، وبياسة ، وجيان وغيرها ، لطاعته وطاعة سيف الدولة ، فسار الكونتات في قواتهم ، وأغاروا على تلك الجهات وأثنخوا فيها ، وافتتحوا جيان وأبدة وبياسة ، ونكلوا بسكانها المسلمين ، وعندئذ استغاث المسلمون بسيف الدولة ، وأعلنوا بطاعته ، فاستجاب لدعوتهم ، وسار

(١) المراكشي في المعجب ص ١١٥ .

(٢) وهي بالإسبانية Albacete

(٣) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٢٦

إليهم في جيش ضخم ، وطلب إلى الكونتات النصارى أن يرفعوا أيديهم عن المسلمين ، وأن يكفوا عن غزواتهم المخربة التي قاموا بها في الأراضي الإسلامية ، بالتحالف مع القاضي الطموح عبد الله الطغرثي وإلى قونقة ، فيما بين شاطبة وأبدة ، وأخيراً أن يسلموا إليه الغنائم والأسرى . فرفض الكونتات مطالب سيف الدولة ، وأجابوا بأنهم لم يفعلوا إلا ما أمر به عاهلهم ، وماطلبه سيف الدولة ذاته . وطال الحدل بين الفريقين ، وعندئذ قرر سيف الدولة أن يلجأ إلى السيف ، وسار الكونتات النصارى وحليفهم القاضي الطغرثي ، بعد أن امتنعت عليهم شاطبة غربا ، وسارت قوات بلنسية ومرسية وسيف الدولة لقتالهم في نفس الوقت . والتقى المسلمون والنصارى في سهل البسيط على مقربة من جنجالة ، فهزم المسلمون شر هزيمة ، وقتل عبد الله بن سعد قائد جند بلنسية وأسر سيف الدولة ، وقتله بعض الحند النصارى دون معرفة لشخصه ، وارتد ابن عياض في فلول الجيش إلى بلنسية . ولما علم ألفونسو السابع بمصرع صديقه القديم سيف الدولة أسف كبل الأسف وأعلن أنه برىء من دمه (١) .

وكان أحمد بن يوسف بن هود ، المتلقب بسيف الدولة والمستنصر ، شخصية غامضة . وبالرغم من أنه كان سليل أسرة بني هود أصحاب الثغر الأعلى ، وحامته والمتفانين في الذود عنه ضد النصارى ، فإنه لم يكن يتمتع بشيء من خلال أسرته المملوكية العريقة . وقد رأينا كيف تخلى عن روضة ، آخر قواعد مملكة سرقسطة القديمة ، لملك قشتالة ، ألفونسو ريمونديس ، وأثر أن يعيش في أراضيه وتحت كنفه ، وأن يغدو آلة لخططه ودسائسه ضد المسلمين ، يحقق بها إذا استطاع بعض مآربه في الضرب والتفريق بين أبناء الأمة الأندلسية ، واقتطاع ما يمكن اقتطاعه من أراضيه . ولم يكن اشتراك سيف الدولة في حوادث الثورة ضد المرابطين ، وتدخله في شئون الرياسة بالقواعد الثائرة ، مثل قرطبة وغرناطة وجيان ومرسية ، محاوله اختيارية يشق بها طريقه إلى الرياسة ، ولكنه كان يقوم بها بوحى ملك قشتالة ، ومعاونته الفعلية بالمال والجند ، لانتهاز الفرص السانحة ، خلال هذا الاضطراب العام ، الذي كان يسود الأمة الأندلسية ، ولم تكن دعوات

M. Gaspar Remiro, cit. Crónica del Emperador Alfonso (Murcia (١)

Musulmana p. 180 & 181 . وراجع أيضاً تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباح (وترجمة محمد عبد الله عنان) الطبعة الثانية ص ٢١٦ .

الزعماء الثائرين له ليقدم عليهم ، أو ليستظلوا بصفته المملوكية السابقة ، إلا سراياً وخديعة لمواطنيهم ، بتنصيب شخصية لا تخلص لقضيتهم . ولقد كان من رحمة القدر بذكرى هذا الأمير المنكود - صنيعه القشتاليين وخديمهم - أن قتل في غمرة الدفع عن أمته ودينه ، ضد حلفائه القدماء ، في ظروف طارئة ، لم تكن من تدبيره ، وإنما استدرج إليها فكانت فيها خاتمة .

بيد أن سيف الدولة كان يتمتع بخلة العلم والتأدب شيمة آباءه وأجداده ، وكان شاعرا ينظم الشعر الجيد ، وقد أورد لنا ابن الآبار شيئاً من نظمه فمن ذلك قوله :

يا باكيّا عمر الطلول بدمعه أسفا على ذاك الدم المطلول
أودت بلبك لوعة صديت لها صفحات ذاك الخاطر المصقول
وقوله من قصيدة طويلة :

خطرت خطرة الغرام على القلب وحسب الفتى لها يستكين
أذكرتني بلجاء ورق تجسّسوا بين بنجد حديثن شجون
أطربني أصواتهن على الأبيكة قد يطرب الحزين الحزين
يامّة القوم والمنا يضع المرء إذا ما استقل يوماً قطين
إن تكوني قد استقر بك الربيع فقلبي مع الرفاق رهين
أو تكوني سلوت عنافلاً واللّه تسلك الطباء العين
أين للشمس أن تنال محيا ك وتغزى لمعطيك الغصون
غرر لحن من دجى الشعر بيض ما تجلت عن مثلهن الدجون^(١)

* * *

وعلى أثر مقتل ابن هود ، أعلن ابن عياض الدعوة لنفسه ببليسية ، وكان قد ترك في مرسية محمد بن سعد بن مردنيش نائباً عنه بها ، وكان قد عهد في نفس الوقت إلى عبد الله الثغري الذي شهدناه من قبل ، يشترك في حوادث مرسية باسم ابن هود ، بأن يكون سفيره لدى الإمبراطور ألفونسو ريمونديس ليعقد معه السلم والتحالف ضد أمير برشلونة ، فعاد من سفارته هذه ، وزعم أن الإمبراطور قد منحه إمارة مرسية ، واستعان على دخولها بطائفة من الخوارج

(٢) راجع الحلة السيرة ص ٢٢٦ و ٢٢٧ .

المشايخين له ، فنجح في محاولته ، وفر محمد بن سعد بن مردنيش نائب ابن عياض بمرسية ، ولحق بثغر لقنت ، وذلك في أوائل شهر ذى الحجة سنة ٥٤٠ هـ ، (مايو سنة ١١٤٦ م) . ولم تمض بضعة أشهر على ذلك ، حتى زحف ابن عياض على مرسية لاستخلاصها من الثغرى ، وقتل الثغرى في المعركة التي نشبت بينهما ، وذلك في السابع من رجب سنة ٥٤١ هـ (ديسمبر ١١٤٦ م) . ويقدم إلينا الضبي تفاصيل مصرع الثغرى ، فيقول إنه لما نجح ابن عياض في دخول مرسية ، وقع القتال بينه وبين ابن عياض في شوارع المدينة حتى هزم الثغرى ، وركن إلى الفرار ، وخرج من الباب المسمى باب الفارقة ، فألقى عليه من فوق السور حجر أصاب رأس جواده ، فوثب الجواد جاغأً براكبه نحو مجرى النهر ، وهناك قتله رجل ممن كانوا يرابطون في هذا المكان .

وهكذا استعاد ابن عياض إمارته على مرسية ، وأضحى ييسط سلطانه على سائر قواعد الشرق من بلنسية شمالاً حتى أحواز قرطاجنة ، جنوباً . واستمر في إمارته على تلك المنطقة بلا منازع مدى عام وتسعة أشهر وعشرين يوماً ، إلى أن لقي مصرعه في اليوم الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٤٢ هـ (٢١ أغسطس ١١٤٧ م) . ويقول لنا ابن الأبار إنه توفي قتيلاً من جراء سهم أصابه في بعض حروبه مع القشتاليين^(١) . ويقول الضبي إنه قتل بالعكس خلال معركة نشبت بينه وبين بني جميل على مقربة من بلش وحمل جثمانه إلى بلنسية ودفن بها . وقام على مواراته صهره ونائبه في بلنسية محمد بن سعد بن مردنيش ، وأعلن للناس أن ابن عياض قد أولاه عهده بالإمارة من بعده ، فبايعوه على ذلك . ويقول المراكشي إن ابن عياض حين حضرته الوفاة ، أشار إلى من اجتمع إليه من الأعيان والجنود بتقديم محمد بن سعد للرياسة ، وأبى أن يوصى برياسة ولده لأنه كان يشرب الخمر ويغفل الصلاة . وقيل أيضاً إن أهل بلنسية بايعوا ابن سعد ، ونصبوه أميراً عليهم دون عهد سابق . وأما في مرسية فقد اختار أهلها للإمارة عليهم نائب ابن عياض أبا الحسن علي بن عبيد ، ولكنه لم يملك في الإمارة سوى فترة يسيرة حتى أواخر جمادى الأولى ، ثم تخلى عنها لابن سعد أمير بلنسية . وهكذا نجح محمد بن سعد بن مردنيش في اجتلاء تراث ابن عياض بأكمله ، وخلفه في إمارة شرق الأندلس كله ، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ (أكتوبر ١١٤٧ م)

(١) المراكشي في المعجب ص « ١١٥ » ، وابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٢٠ .

— ٣٦٥ —

وبقيام ابن مردنيش ، في إمارة شرقي الأندلس ، تهيأ الظروف لصفحة جديدة من الصراع بين الأندلس النائرة وبين الموحدين ، وهو صراع عنيف يضطرم زهاء عشرين عاما ، وتخوضه منطقة الشرق كلها ، بسائر مواردها وقواتها ، تحت زعامة قوية موحدة ، ويقضى لمدافعتة معظم جهود الموحدين في شبه الجزيرة ، ثم لا تهدأ تأثيرته وتطوى صفحته ، إلا باختفاء مثير ضرامه من الميدان .

— ٣ —

إن ابن مردنيش ، الذي حمل لواء هذا الصراع الشهير ضد الموحدين ، ولبت طيلة اضطرامه صامداً ، كالصخرة الصلدة ، لا تفتر له همة ، ولا يهادن ، ولا تلين قنانه ، حتى طواه الموت ، هو شخصية من أغرب شخصيات التاريخ الأندلسي ، تمثل كل خلال العصر ، ورذائله في نفس الوقت ، ولو لم يبالغ ابن مردنيش في مداخلته النصاري ، وربط قضيته بعونهم ، لكان في وسعنا أن نعتبره بطل الوطنية الأندلسية ، وحامل لوائها ضد الموحدين .

وهو أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد الحذامي بن مردنيش . أصله من الثغر الأعلى ، وولد في قلعة من قلاع طرطوشة المنيعة تسمى بُنْشُكْلَة ، *Peniscola* (١) وذلك في سنة ٥١٨ هـ (٢) وإذن فقد كان حينما تولى إمارة شرقي الأندلس ، فتى في نحو الرابعة والعشرين من عمره . وقد كان أبوه سعد بن محمد ابن مردنيش واليا لإفراغة أيام المرابطين ، حينما حاصرها ألفونسو المحارب ملك أراجون في أواخر سنة ٥٢٧ هـ (يونيه سنة ١١٣٣ م) ، وأبدى في مدافعة النصاري بسالة رائعة ، واضطر المحاصرين أن يرفعوا الحصار غير مرة ، إلى أن وفدت الأمداد المرابطية ، ومعها الأمير يحيى بن غانية ، وكان ماكان من انتصار المسلمين الباهر على النصاري وذلك حسبا فصلناه من قبل في موضعه ، وعمه عبد الله بن محمد بن سعد بن مردنيش صهر ابن عياض ، ونائبه في بلنسية ، وهو الذي سبقت الإشارة إليه فيما تقدم غير مرة .

وقد لفت محمد بن سعد أنظار الباحثين باسمه ولقبه ، وصفاته الغريبة الفذة ، وتسأل بعضهم عن حقيقة أصله ونسبه ، فهو وفقاً لاسمه المدون جذأي ، أو

(١) ومكانها اليوم نضر *Peniscola* الصغير الواقع جنوبي طرطوشة .

(٢) ابن خلكان في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٩٢ ، في ترجمة أبي يوسف يعقوب المنصور .

وهو يضبط « مردنيش » وفقاً للشكل الموضوع عليها .

تجيبى وفقاً للبعض الآخر^(١) ، أو بعبارة أخرى عربي الأرومة . بيد أن في لقبه ، وهو ابن مردنيش وفي صفاته وسلوكه أيضاً ، ما يحمل على الريب في هذه النسبة . وأغلب الظن أنه ينتمي إلى المولدين أو بعبارة أخرى أنه إسباني الأصل ، دخل أجداده في الإسلام ، فأصبح من ذلك العنصر المسلم الدخيل ، الذي كان يؤلف شطراً له خطره من الأمة الأندلسية ، والذي لعب في تاريخها أعظم دور ، ولاسيما في أيام الفتن والثورات القومية . ويرى البحث الحديث . أن مردنيش ، هو تحريف الاسم الإسباني « مرتنيث » Martinez أو Martinizi أى (ابن مرتين) ، وربما تحريف لاسم Mardonius وهو سليل البيزنطيين القدماء في منطقة قرطاجنة^(٢) . ومن جهة أخرى فإن صفات ابن مردنيش وسلوكه حسبما تصورها لنا الرواية العربية ، تؤيد هذا الظن في انتمائه إلى عنصر المولدين . فقد كان شغوفاً بالتشبه بالنصارى (القشتاليين) في الزى والملابس والسلاح واللبس والسروج ، وكان يجيد اللغة القشتالية ، ويؤثر التحدث بها ، وكان يدعو إلى جيشه كثيراً من النصارى المرتزقة ، من القشتاليين والقطلان والبشكنس ، يبتغي لهم الأحياء والمعسكرات ، ويزودها بأسباب الرفاهية والحانات ، وكان يغدق عليهم الصلات الوفيرة من المال والإقطاعات ، وذهب في ذلك إلى حد أنه أقطع أحد أكابر فرسان البشكنس ، وهو المسمى بيدرو دى أثاجرا مدينة شنتمرية ابن رزين مع سائر مرافقها وأراضيها ، وقد أنشأ بها هذا الفارس مركزاً لأسقفية^(٣) . وقد كان من جراء هذا الإغداق الفياض على النصارى أن اشتط ابن سعد في فرض المغارم والرسوم المختلفة على رعاياه المسلمين^(٤) . وكان النصارى يسمونه الملك لوبى (لب) Rey Lope أو Lobo أعني « الذئب » . وفي بعض الروايات النصرانية أن هذا الاسم الأخير أطلقه عليه النصارى لما أثر من إقدامه وشجاعته^(٥) .

(١) ابن الخطيب في الإحاطة (طبعة القاهرة القديمة) ج ٢ ص ٨٥ .

(٢) Dozy : Recherches (1881) V.I. p. 365-Codera : Decad. y Desp. de los Almoravides p.113 & 311

(٣) وهي شنتمرية الشرق المسماة بالإسبانية Albarracin . وقد كانت أيام عصر الطوائف قاعدة لمملكة بنى رزين .

(٤) الإحاطة ج ٢ ص ٨٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ٢٦١ ؛ وكذلك . Dozy : Recherches .

V.I. p. 366

(٥) A. Piles Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901) p. 516

وأضحى محمد بن سعد بن مردنيش بتغلبه على بلنسية ، ومرسية ، سيد المنطقة الشرقية كلها ، وامتد سيطرته من أحواز طرطوشة شمالاً حتى قرطاجنة ولورقة جنوباً . ولما كان من الواضح أنه لا يستطيع أن ينصرف إلى توطيد سلطانه في تلك المنطقة الشاسعة إلا إذا أمن جانب النصارى ، وهم جيرانه من الشمال والغرب واستطاع بذلك أن ينصرف إلى مقارعة الموحدين ، الذين جازت جيوشهم الأولى إلى شبه الجزيرة ، فقد رأى أن تكون مسألة الممالك النصرانية ، شعاره الذي لا يحد عنه ، وأن يعقد معها التحالف كلما سمحت بذلك الفرص ودعت الضرورات .

ومن ثم فقد عقد لأول ولايته مع أمير برشلونة الكونت رامون برنجر الرابع صلحاً لمدة أربعة أعوام ، وعقد معاهدة صلح أخرى مع ملك قشتالة الإمبراطور ألفونسو السابع (ألفونسو ريمونديس) . وكان يؤدي لكل منهما في السنة جزية قدرها خمسون ألف مثقال من الذهب . ولم تقف هذه السياسة في مصانعة النصارى ومصادقتهم ، عند حدود شبه الجزيرة ، بل شملت الدول النصرانية في خارجها . ففي العام الثاني من حكمه ، أعنى في سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٩ م) عقد ابن مردنيش مع جمهورية بيزة معاهدة صلح مدتها عشرة أعوام ، ثم عقد معاهدة أخرى مع جمهورية جنوة ، يتعهد فيها بأن يؤدي إليها إتاوة قدرها عشرة آلاف دينار مرابطة خلال عامين ، وأن يبني للرعايا الجنوبيين الذين يقطنون في بلنسية ودانية فندقاً يزاولون فيه تجارتهم ، وأن يمنحهم حماماً مجانياً في كل أسبوع ، وتعهدت جمهورية جنوة من جانبها بأن لا تحدث أضراراً لأحد من رعايا الملك لوبو في طرطوشة والمرية . وكان ابن مردنيش فضلاً عما تقدم يرسل كثيراً من الملوك النصارى في مختلف أنحاء القارة ، ويبعث إليهم بالهدايا القيمة . ومن ذلك أنه أرسل إلى هنري الثاني ملك إنجلترا ، هدية قيمة من الذهب والخير والخيول والجمال ، وبعث إليه ملك إنجلترا هدية جلييلة^(١)

وظهر ابن مردنيش منذ البداية بفائق عزمه وشجاعته وإقدامه ، كما ظهر بوافر شهامته وجوده . ويقول لنا ابن الخطيب إنه « كان له يومان في الأسبوع ، يوم الاثنين والخميس ، يشرب مع ندمائه ، ويجود على قواده وخاصته وأجناده ، ويذبح الأبقار في المواسم ، ويفرق لحومها على الأجناد ، ويتخلل ذلك هو كثير »

حتى ملك القلوب من الجند، وعاملوه بغاية النصح، وربما وهب المال في مجالس أنسه»^(١).
وينوه المقرئ بشجاعة ابن مردنيش، ويقول إنه كان من أبطال عصره،
وأنه كان يدفع في المواكب ويشقها شقاً، يميناً وشمالاً، منشداً :
أحمرُّ على الكتيبة لا أبالي أحثي كان فيها أم سواها^(٢)

وجمعت الأقدار بين ابن مردنيش وزعيم يشبهه في كثير من صفاته وميوله،
وكان له أكبر عضد في مضاعفة صولته، وتوطيد سلطانه، وهو إبراهيم
ابن محمد بن مفرج بن همشك، وهو مثل ابن مردنيش شخصية تتميز
بصفاتها الخاصة، وهو من أصل نصراني صريح، فجده مفرج أو همشك
نصراني نزح إلى سرقسطة، وأسلم على يد أحد ملوك بني هود في أواخر
أيامهم، وكان مقطوع لإحدى الأذنين، فكان النصراني إذا رآه في القتال
عرفوه وقالوا «هامشك»، ويقول لنا ابن الخطيب أن معنى هذه العبارة في
لغتهم «تري المقطوع الأذن»^(٣) وأصل العبارة في القشتالية هو He Mochico
وبالتفصيل He aqui el Mocho pequeño, El desorejado menor. ومعناها
مقطوع الذيل الصغير، ومقطوع الأذن^(٤). ولما سقطت سرقسطة في أيدي النصارى،
وغادروا بنو هود، تحول إبراهيم بن همشك إلى قشتالة، وخدم ملكها حيناً،
ثم ترك خدمة النصارى، ونزح إلى الأندلس، وخدم اللمتونيين بعد أن أعلن
توبته، وشفع فيه بعض الأكابر. ولما ندب يحيى بن غانية لولاية قرطبة
من قبل تاشفين بن علي بن يوسف في سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) التحق بخدمته.
ولما ثار القاضي ابن حمدين بقرطبة في العالم التالي، وتسمى بأمر المسلمين، وكان
ابن غانية يومئذ في منطقة الغرب بطارد ثوارها، بعثه ابن غانية رسولاً إلى قرطبة
لمحاولة عقد الصلح بينه وبين ابن حمدين. ولكن الحوادث اتخذت يومئذ في قرطبة
وجهة أخرى، ثم اتسع نطاق الثورة بالأندلس، وتوالت الانقلابات في قواعد
الشرق، فاتصل ابن همشك بابن عياض، وقد تغلب يومئذ على بلنسية، ولم يمض
وقت طويل على ذلك حتى سنحت لابن همشك فرصة لاحتلال حصن شقوبش،

(١) ابن الخطيب في الإحاطة ج ٢ ص ٨٣.

(٢) نفح الطيب (القاهرة) ج ٢ ص ٣٢٢.

(٣) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣٠٥.

(٤) M. Gaspar Remiro : Murcia Musulmana, p. 166 (٤)

— ٣٦٩ —

ثم تغلب بعد ذلك على مدينة شقورة^(١) الواقعة على مقربة من شمال شرق أبدة ، فقوى أمره : وفي رواية أخرى أنه تغلب على شقورة فيما بعد حينما ندبه لذلك ابن مردنيس ، ولما آلت بلنسية ومرسية إلى محمد بن سعد اتصل به ، وعقد معه ابن سعد صهرًا على ابنته ، فتوثقت بينهما العلائق ، وغدا ابن همشك من أعظم أعوان ابن سعد وقادته . وكان ابن همشك في الواقع من أقدر قواد العصر ، وأوفرهم جرأة وشجاعة وإقداماً ، وقد خاض ضد الموحدين فيما بعد ، عدة من الحروب والوقائع الهامة^(٢) .

— ٤ —

ليست لدينا تفاصيل شافية عن حوادث شرق الأندلس في الأعوام الأولى لحكم ابن مردنيس ، بيد أنه وقع عقب تولى ابن مردنيس حكم بلنسية ومرسية بقليل ، حادثان خطيران ، الأول في شمال شرق الأندلس ، والثاني في جنوبي شرقها . أما الحادث الأول ، فهو استيلاء النصارى على ما بقي بأيدي المسلمين من قواعد الثغر الأعلى . ونحن نعرف أن النصارى ، منذ استولوا على سرقسطة في سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) لبثوا يتربصون الفرص لانتزاع القواعد القليلة الباقية في هذا الركن النائي من الأندلس . وقد صدّتهم هزيمة إفراغة المروعة (٥٢٨ هـ) عن مشاريعهم حيناً . فلما انفجر بركان الثورة في الأندلس ضد المرابطين ، وشغلت الحاميات المرابطية في كل قاعدة ، بالدود عن نفسها ، وشغل الزعماء الثائرون كل بتوطيد سلطانه ، شعر النصارى في الثغر الأعلى ، بأن الفرصة قد سنحت لتحقيق مشروعهم . وكانت القواعد الباقية ، داخل الثغر الأعلى تنحصر في لاردة وإفراغة ومكنسة (مكناسة) ثم في ثغر طرطوشة الواقع عند مصب نهر إيبرو (إبرة) ، وكانت جميعها تقع على حدود إمارة برشلونة . وكانت طرطوشة أولى القواعد التي سقطت عندئذ في أيدي النصارى . وكانت قد غدت في أواخر عهدها الإسلامي مثوى للمجاهدين والمغامرين من رواد الحملات البحرية ، التي تشخّن في شواطئ الأهم النصرانية المجاورة ، فدعا البابا أوجين الثالث إلى حملة صليبية لفتحها ، واجتمعت قوات النصارى من الأرجونيين والقطلان والبيزبين والجنوئين وفرسان المعبد بقيادة الكونت رامون برنجير أمير برشلونة « وضربت

(١) وهي بالإسبانية Segura de Sierra .

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣٠٦ و ٣٠٧ .

الحصار حول طرطوشة من البر والبحر ، ودافع المسلمون عن المدينة بمنتهى البسالة ، وصمدوا للحصار أربعين يوماً ، مؤملين أن ترد إليهم أمداد من بلنسية أو غيرها : فلما يئسوا من كل عون ، اضطروا إلى تسليم المدينة صلحاً في آخر سنة ١١٤٨ م (١٦ شعبان سنة ٥٤٣ هـ) . مشرطين الاحتفاظ بأملأهم ومساجدهم . بيد أنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بمساجدهم أكثر من ثلاثين أو أربعين عاماً : وهاجمت القوات النصرانية المتحالفة وعلى رأسها الكونت رامون برنجير مدينة لاردة بعد ذلك بقليل وكان طبيعياً ألا تصمد طويلاً بعد سقوط طرطوشة ، فسقطت في أيدي المهاجمين وذلك في ٢٤ أكتوبر سنة ١١٤٩ م (٥٤٤ هـ) وعبر إليها المرابطى ابن هلال البحر ملتجئاً إلى أمير ميورقة محمد بن غانية ، وسقطت معها في نفس الوقت ، بل وفي نفس اليوم حسبما تروى التواريخ القطلانية ، مدينتا إفراغة ومكناسة . ويقول لنا ابن الخطيب إن القشتاليين استولوا في نفس الوقت على حصن أقليش وحصن سرانية (سنة ٥٤٣ هـ)^(١) .

سقطت هذه القواعد الإسلامية الشمالية الأخيرة في أيدي النصارى ، وانتهت بذلك سيادة المسلمين في الثغر الأعلى . وقد كانت هذه القواعد ، تابعة من قبل لمملكة سرقسطة ، فلما سقطت سرقسطة في أيدي الأرجونيين ، أصبحت تابعة لولاية بلنسية ، كما كانت منذ بداية العهد المرابطى ، وإذن فقد كانت هذه القواعد خاضعة لسيادة ابن مردنيش ، من الناحية الإسمية على الأقل . بيد أن ابن مردنيش لم يكن في وسعه أن يحميها أو أن ينجدها ، وكان ارتباطه برباط الصداقة والمهادنة مع الكونت برنجير أمير برشلونة ، يحول دون أية محاولة لإنقاذها ، تفسد علاقته مع الممالك النصرانية ، ومن جهة أخرى فقد كان الدفاع عن هذه القواعد النائية الواقعة في قلب الأراضي النصرانية عملاً غير ميسور . ومن ثم فإن ابن مردنيش لم يحرك ساكناً ، إزاء هذا الحدث المؤلم ، وإن كان قد لبث يعتبر نفسه حامياً للرعايا المسلمين ، في تلك القواعد المنزوعة ، يدل على ذلك أنه حينما عقد معاهدة الصداقة مع جمهورية جنوة ، قد اشترط فيها أن تتعهد جنوة بالأتوقع أية أضرار برعايا الملك لوبو في طرطوشة وألمرية ، وقد كانت جنوة ضمن البلاد التي اشتركت في افتتاح طرطوشة .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٥٢ . وراجع روض القرطاس ص ١٧٦ ، والإحاطة ج ٢

ص ٨٩ . وراجع أيضاً : Codera : Ibid ; p. 124 - 126

وأما الحادث الثانى فقد وقع فى نفس الوقت ، الذى ظفر فيه ابن مردنيش بولاية بلنسية ومرسية ، وهو استيلاء النصارى على ثغر ألمرية . وكانت ألمرية فى الواقع شجى فى عيون الدول النصرانية القريبة مثل قطلونية وچنوة وبيزة ، بما كانت تقوم به الحملات البحرية الخارجة منها فى شواطئ هذه الدول من ضروب العيث والتخريب . فى غمرة الإضطراب العام ، الذى شمل الأندلس عقب انهيار سلطان المرابطين ، رأت الدول النصرانية ، وعلى رأسها البابا ، أن تقوم بانتزاع هذا الثغر الغنى الحصين من أيدي المسلمين ، وبادر ألفونسو السابع ملك قشتالة بانتهاز الفرقة السانحة ، ونظمت حملة برية وبحرية مشتركة من قوات قشتالة ، وقطلونية ، ونافار ، وچنوة ، وبيزة ، وبعض حشود فرنسية من وراء البرنيه ، وسارت هذه الحملة الصليبية المشتركة إلى ألمرية ، وحاصرتها من البر والبحر بقوات كثيفة ، واستمر الحصار ثلاثة أشهر ، حتى نصبت موارد المدينة ، واضطر المسلمون فى النهاية إلى تسليمها للنصارى ، وذلك فى العشرين من جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ (١٧ أكتوبر سنة ١١٤٧ م)^(١) . وقد كان سقوط هذا الثغر الأندلسى الهام فى أيدي النصارى حادثاً جلالاً ، بيد أن أصداءه الحزنة قد تبددت خلال المحنة العامة التى كانت تعانىها الأندلس يومئذ ، من تفرق كلمتها وتبدد قواها ومواردها ، وكان استرداده من أهم ما عنى به الموحدون ، مذ ثبتت أقدامهم فى شبه الجزيرة .

وكان ألفونسو السابع ملك قشتالة قد استولى فى نفس الوقت على معقل من أهم معاقل الأندلس الوسطى ، وهو قلعة رباح ، وذلك فى أواخر سنة ٥٤١ هـ (١١٤٧ م) ، وذلك قبل استيلائه على ثغر ألمرية بأشهر قلائل . وقد أحدث القشتاليون باستيلائهم على هذا المعقل المنيع ثغرة خطيرة فى خطوط الدفاع الأندلسية . وسنرى فيما بعد أى دور خطير تلعبه هذه القلعة الشهيرة فى حوادث الصراع بين الموحدين والنصارى .

فى ذلك الحين كان ابن مَرْدَنِيَش يعمل على توطيد سلطانه . وقد كان حريصاً على ألا ينتقص من أطرافه معتد خارجى أو داخلى ، حتى لقد بلغه خلال سيره إلى بلنسية ليتولى سلطانه بها ، أن النصارى هاجموا حصن « حلال » فكر إليه ،

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٤٦ ، وروض القرطاس ص ١٧٦ . راجع : Lafuente : Hist

واسترده من أيديهم ، ثم عاد إلى بلنسية فتلقى بها البيعة^(١) . ولما سار إلى مرسية ليستخلصها من يد تائها ابن عبيد ، بعث قائده ابن همشك إلى مدينة شقورة ، وقد كان يعتبرها من متعلقات بلنسية ، لينتزعها من صاحبها ابن سوار ، فاستولى ابن همشك عليها^(٢) ، ثم عاد إلى مرسية لمعاونة ابن مردنيش على السيطرة على مرسية وتلقى بيعتها . فلما تم له الأمر غادرها إلى بلنسية ، وترك ابن همشك نائباً عليها . وكان ابن مردنيش ، قد عين أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد ، منذ البداية نائباً له ببلنسية .

ولسنا نعلم الكثير عن أعمال ابن مردنيش في الأعوام الأولى لولايته . وأول ما تحدثنا عنه الرواية من ذلك هو استيلاؤه في سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) على مدينتي بسطة ووادي آش . وقد سبق أن ذكرنا ما كان من قيام ابن ملحان الطائي بوادي آش ، وتغلبه عليها وعلى بسطة . وكان الموحدون قد عبروا إلى شبه الجزيرة قبل ذلك ببضعة أعوام ، واستولوا على إشبيلية ، في شهر شعبان سنة ٥٤١ هـ ، وذلك بعد أن استولوا على شريش ، وقواعد الغرب ، التي كانت أولى القواعد النائرة ضد المرابطين ، ثم استولوا على قرطبة سنة ٥٤٣ هـ ، ثم على جيان وبياسة وأبدة . وهكذا وصلت طلائع الموحدين إلى أواسط الأندلس ، وأضحت تشرف من ناحية الشرق على أملاك ابن مردنيش . والظاهر أن ابن مردنيش كان يستعين في حملته ضد بسطة ووادي آش بجنود من القشتاليين أرسلها ألفونسو السابع لمعاونته^(٣) . ولما رأى ابن ملحان أنه لا طاقة له بمقاومة الغزاة أعلن طاعته للموحدين ، ثم غادر وادي آش في أهله وأمواله ، وعبر البحر إلى المغرب حسبما ذكرنا من قبل في موضع . وأوضحى ابن مردنيش باستيلائه على بسطة ووادي آش يواجه القواعد الموحدية في جيان وبياسة وأبدة من الجنوب كما يواجهها من الشرق ، وهكذا أخذت تجتمع عناصر ذلك الصراع المضطرم الذي لبث ابن مردنيش ، ومن ورائه قوى الأندلس الشرقية كلها ، يضطلع به ضد الموحدين أعواماً طويلاً ، والذي كان يمثل في كثير من نواحيه ثورة الأندلس القومية ضد غزاتها من وراء البحر ، أعنى المرابطين والموحدين .

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٨٥ .

(٢) M. Gaspar Remiro : Murcia Musulmann p. 188 . وقد سبق أن أشرنا إلى

رواية ابن الخطيب في تغلب ابن همشك على شقورة قبل اتصاله بابن مردنيش .

(٣) F. Codera : Ibid ; p. 133

الفصل الرابع

أعوام عبد المؤمن الأخيرة

وفاته وخلاله

ابن مردنيش ينتزع جيان ويحاصر قرطبة . خديته ومسبره إلى إشبيلية . إخفاقه وارتداده . غزو ابن همشك لأراضى قرطبة . هزيمة الموحدين ومقتل قائدهم . مسير ابن همشك إلى قرمونة وتغلبه عليها . الوزير ابن عبد السلام الكوي . سوء مسلكه وطفائه . مصرعه . تكسير الإمبراطورية الموحدية . كتب عبد المؤمن بالفتح . اهتمامه بشئون الأندلس . مشروعه لتحصين جبل طارق وإنشاء مدينته . بناء المدينة ووصفها وفقاً لرواية ابن صاحب الصلاة . عبور عبد المؤمن إلى جبل طارق . الاحتفال بافتتاح المدينة . وفود الأعيان والكبراء . مدائح الشعراء . عبد المؤمن ينظم شئون الأندلس . عبوره إلى المغرب وعوده إلى مراكش . استرداد الموحدين لقرمونة . مهاجمة ابن همشك لغرناطة ودخوله إياها . محاصرته للموحدين بالقصبة . مقدم الأمداد الموحدية . موقعة مرج الرقاد . هزيمة الموحدين وفرارهم . عبد المؤمن يرسل جيشاً إلى الأندلس . مسير ابن مردنيش لإمداد ابن همشك . موقعة السبيكة . هزيمة ابن همشك وحلفائه النصاري . استرداد الموحدين لغرناطة . ارتداد ابن همشك وابن مردنيش . تحصين الموحدين لغرناطة . نقل قاعدة الحكم الموحدى إلى قرطبة . إصلاح قرطبة وتنظيم شوارعها . استعداد عبد المؤمن للجهاد بالأندلس . زيارته لتينملل . مسيره إلى رباط الفتح . اجتماع الجيوش الموحدية . بحث خطة الغزو بالأندلس . مرض عبد المؤمن . تنحيته لولده محمد عن ولاية العهد واختياره لولده يوسف . وفاة عبد المؤمن . عقد البيعة لولده يوسف . تولى أخيه أبى حفص الوزارة . روايات أخرى عن تولية يوسف . عبقريته عبد المؤمن . إنشاؤه للدولة الموحدية الكبرى . إنشاؤه للخلافة الزمنية . عبد المؤمن أعظم حلفاء الغرب الإسلامى . قائد من أعظم قواد عصره . نظام حركة الجيوش الموحدية . تنظيم عبد المؤمن لطبقات الموحدين . تنظيمه للجيوش الموحدية . طوائف العرب وتقليبها . نظم الحكم والإدارة الموحدية حسبما وردت في رسالة لعبد المؤمن . حبه للعلم والعلماء . عنايته بأمر الطلبة وتدريبهم . علمه وأدبه . الجراوى الشاعر . صرامة عبد المؤمن الدينية . تشدده في معاملة النصاري واليهود . قسوته وسفكه للدماء . قواده وكتابه ووزراؤه وقضااته . سياسته في فرض الضرائب والحبائيات . مسحه لبلاد المغرب . أولاده . صفة شخصه .

لما تم لعبد المؤمن فتح المهديّة في العاشر من المحرم سنة ٥٥٥ هـ ، وإجلاء الفرنج الصقليين عن إفريقية ، ثم القضاء عقب ذلك على طوائف العرب الذين تصدوا لمقاومته ، كانت حوادث الأندلس ، قد أخذت تشغل معظم تفكيره ،

وكانت حوادث شرق الأندلس بالأخص ، قد تطورت خلال ذلك ، بصورة تدعو إلى القلق . ذلك أنه في الوقت الذي كانت جيوش عبد المؤمن ، تعسكر فيه تحت أسوار المهدية ، كان زعيم الشرق محمد بن سعد بن مردنيش ، قد خرج من مدينة مرسية ، بجيش مختلط من قواته ، ومن حلفائه القشتاليين ، وسار إلى مدينة جيان ، فلم يبد واليها الموحدى محمد بن على الكومى أية مقاومة ، وسلمها إليه ، وانضوى تحت لوائه ، وهو ما تعتبره الرواية الموحدية خيانة منه ، ونكثا لبيعتة للموحدين . ثم سار ابن مردنيش من جيان إلى قرطبة ، ونازلها بشدة ، وعاث في ربوعها ، وأتلف زروعها ، فخرج إليه واليها أبو زيد عبد الرحمن ابن يكيث (أو يخيث) في قواته ، واشتبك معه في معركة شديدة ، ثم ارتد إلى المدينة ، وامتنع بها ، فضرب ابن مردنيش الحصار حول قرطبة ، ولبث يرقب فرصة الاستيلاء عليها ، ولكن ابن يكيث ، وقاضى المدينة أخيل ابن إدريس لحا إلى حيلة أو خدعة حربية ، فكتبها على لسان سيدراى بن وزير إلى ابن مردنيش كتابا ، وبعث به إلى ابن مردنيش ، على يد رسول متنكر في صفة زيات من أهل الشرق ، وفيه يحث ابن وزير ، ابن مردنيش ، بأن يسرع بالإقلاع عن قرطبة ، والسير إلى إشبيلية لأنها دون دفاع . فآمن ابن مردنيش بالخدعة وبادر في الحال بالسير إلى إشبيلية ، وسبقه من قرطبة جاسوس موحدى إلى إشبيلية ، فأخطر ولاية الأمر بما حدث ، واعتقد هؤلاء في صحة ما نسب إلى ابن وزير ، فقبض عليه واعتقل . ووصل ابن مردنيش بقواته إلى إشبيلية ، ونزل بظاهرها بموضع يعرف بالفونت ، ونازلها ببعض قواته حتى وصل إلى باب قرمونة في شمالها الشرقى ، وأقام أمامها ثلاثة أيام ، وقد شاع الاضطراب في المدينة ، وتوجس الناس شراً ، وأبدى واليها السيد أبو يعقوب منتهى الحزم واليقظة في الدفاع عن المدينة ، بمعاونة الأشياخ والطلبة والحفاظ الموحدين ، ومعهم طائفة من جند الأندلس بقيادة أبى العلاء بن عزون صاحب شريش ، وكان أشياخ إشبيلية وأعيانها يسهرون طول الليل فوق الأسوار ، ويحرصون كل الحرص على ثفاف أبواب المدينة . واتخذ الموحدون داخل المدينة اجراءات صارمة ، فقتلوا عدداً ممن لحقت بهم ريبة الغدر ، واعتقلوا الكثير من الناس . وأدرك ابن مردنيش أمام ذلك كله ، أنه قد خدع بما جاء في الخطاب المزور ، وأن إشبيلية ليست بغية هينة ، فغادرها وارتد على عقبه ، دون أن يفوز بطائل .

ووقعت هذه الأحداث التي نستقيها من رواية كاتب معاصر ، وشاهد عيان ، هو عبد الملك بن صاحب الصلاة ، مؤرخ الدولة الموحدية^(١) ، في سنة ٥٥٤ هـ (١١٥٩ م) .

بيد أنه لم تمض بضعة أشهر أخرى حتى عاد ابن مردنيش إلى مهاجمة الموحدين ، فبعث جيشاً (في أوائل سنة ٥٥٥ هـ) تحت إمرة قائده وصهره إبراهيم بن همشك ، فسار إلى قرطبة واجتاح أراضيها ، وانتسف زروعها ، ونازلها وقتاً ، ثم ألقع عنها ، ورتب كمائنه على مقربة منها في قرية تسمى « أطابة » ، فخرج الموحدون من قرطبة بقيادة واليها عبد الرحمن بن يكت لاستطلاع الأحوال ، فخرجت عليهم كمائن ابن همشك ، وأثخن فبهم ، وقتل ابن يكت فيمن قتل ، وارتد الموحدون إلى المدينة فاعتصموا بها . وسار ابن همشك بعد ذلك في قواته إلى مدينة قَرْمُونَة ، وهي حصن إشبيلية من الشمال الشرقي ، فهاجمها ، واستولى عليها بمعاونة زعيم من زعمائها يدعى عبد الله بن شراحيل وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ (مارس ١١٦٠ م) . وامتنع الموحدون الذين بها بقصبتها . ولما وقف السيد أبو يعقوب والي إشبيلية على ذلك ، وكان على أهبة السفر لللاقاة والده الخليفة ، بادر فارسل عسكرياً إلى قَرْمُونَة لإنجاد حاميتها ، وانتظر حيناً يرقب الحوادث^(٢) .

وفي خلال ذلك ، وعقب اتمام فتح المهدية ، وقع في المعسكر الموحدى حادث يتصل بصميم الشئون الموحدية الداخلية ، وهو مصرع الوزير محمد ابن عبد السلام الكومي . ويبدو من أقوال ابن صاحب الصلاة ، أن عبد المؤمن ندب هذا الوزير لخدمته في شهر شوال سنة ٥٥٣ هـ ، عند خروجه إلى غزو إفريقية وافتتاح المهدية^(٣) . ولكننا قد رأينا مما تقدم ، أن هذا الوزير قد لعب وفقاً لرواية ابن عذارى وابن الخطيب^(٤) ، دوراً كبيراً في مصرع الوزير

(١) في كتابه « تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين » ، بأن جعلهم الله أئمة ، وحملهم الوارثين ، (السفر الثاني) وهو المخطوط الذي سبق التعريف به في بيان المصادر لوجه ١٢ و . وسوف يكون هذا المخطوط منذ الآن فصاعداً من أئمن مصادرننا . وراجع أيضاً البيان المغرب - القسم الثالث - ص ٤٠ .

(٢) تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين - المخطوط سالف الذكر لوجه (١٤٥) ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٤٣ و ٤٥ .

(٣) تاريخ المن بالإمامة - المخطوط السابق ذكره (لوجه ١٢٠) .

(٤) البيان المغرب - القسم الثالث - ص ٣٥ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧٣ .

ابن عطية ، وأنه في الوقت الذي كان فيه ابن عطية ، يقوم بمهمته في الأندلس ، كان ابن عبد السلام ، يتولى الوزارة ، ويتزعم خصوم ابن عطية ، في مطاردته ، وتدبير الوسائل الكفيلة بسحقه ، وأنه لما عاد ابن عطية من الأندلس مسرعاً لمناهضة سعى خصومه ، انتهى الأمر باعتقاله ، ثم إعدامه مع أخيه وذلك في شهر صفر سنة ٥٥٣ هـ . وإذن فن المرجح أن يكون ابن عبد السلام ، قد تولى الوزارة لعبد المؤمن قبل هذا التاريخ ببضعة أشهر . وعلى أى حال ، فقد شاء القدر أن يلتقي ابن عبد السلام بنفس المصير الذي لقيه زميله ابن عطية . وذلك أنه لما خرج عبد المؤمن إلى غزوة المهدية ، وعرج في طريقه على سلا ، كان ابن عبد السلام في ركابه ، فوجهه عبد المؤمن إلى الأندلس ليستطلع أحوالها بسرعة . فسار الوزير إلى إشبيلية ، ثم إلى قرطبة وغرناطة ، وتفقد أحوالها ، وأبلغ إلى الأشياخ والطلبة ما كان لديه من الأوامر والتوجيهات ثم عاد إلى الخليفة ، وكان ما يزال بمحلته في سلا ، وأبلغه نتيجة مهمته . ثم تحرك عبد المؤمن إلى تلمسان ، واستدعى معه واليها وهو ولده السيد أبو حفص ، ثم سار إلى بجاية ، واستدعى معه كذلك واليها ، وهو ولده السيد أبو محمد عبد الله . وكان الوزير ابن عبد السلام ، عندئذ في ذورة سلطانه ونفوذه يهيمن على سائر الشئون ، ويراقب أحوال السادة أبناء الخليفة ، وينقل أخبارهم إليه ، فكان مما نقل إليه أنهم يشربون الخمر ، ويعكفون على اللهو ، ويأتون فعلا قبيحة ، فتأثر الخليفة لذلك ، وعهد إلى بعض أشياخ الموحدين بتحقيق هذا الأمر ، فقاموا بالمهمة ، وراقبوا السادة ، وانتهوا إلى التحقق من بطلان التهم الموجهة إليهم ، فأدرك عبد المؤمن عندئذ تحامل وزيره ، وأسرها له . ولما حدث أثناء حصار المهدية من زحف الموحدين على قابس ، كان ابن عبد السلام ، على رأس الجيش المهاجم . فلما افتتحها الموحدون ، استأثر الوزير بجمع الأسلاب والغنائم والأموال ، واحتجز وأخفى منها ما شاء . وفي أثناء غيبته تكلم أشياخ الموحدين في حقه ، وشكوا من استعلائه عليهم ، ورغبوا إلى الخليفة أن يكون ابنه أبا حفص ، هو صلة الوصل بينه وبينهم ، فاستجاب الخليفة إلى رغبتهم . ولما تم فتح المهدية ، وتمزيق طوائف العرب في إفريقية ، ارتد عبد المؤمن في قواته إلى تلمسان ومعه وزيره ابن عبد السلام . وهناك ارتفعت الشكوى للخليفة من عمال ابن عبد السلام ، وظلمهم ، وتعديهم على الرعية ، ومن قرابته كوميه ، وتجربهم على سلب

الأموال ، ومضاعفة الحباية ، وغير ذلك من المظالم الفادحة بمألة ابن عبد السلام وتشجيعه ، وحبايته ، فأمر الخليفة بجمع المتظلمين وأشياخ الموحدين وطلبة الحضر والقاضى ، لسماع أقوالهم ، فأفاضوا فى التظلم والشكوى ، وكرروا اتهاماتهم ، ونقلت أقوالهم إلى عبد المؤمن ، فأبدى دهشته مما يحدث ، ومن كثرة الأموال التى تجمع ، وكونها لاتصل إليه ، وقلة ما بيده منها ، وعجزه عن أن يمد أجناده الموحدين بالعطاء المجزى ، هذا مع أن لمتونة التى لم تكن تملك مثل إمبراطوريته الشاسعة ، كانت بالنسبة لأجنادها أكثر بذلا وإنصافاً . وغادر الخليفة مجلسه مغضباً ، وكان ابن عبد السلام حاضراً ذلك المجلس ، فتوجس شراً ، ولم يأت ظهر ذلك اليوم حتى تحققت مخاوفه ، وقبض عليه فى مجلسه ، وسيق إلى المطبق . ولما غادر الخليفة تلمسان ، أوعز بقتل ابن عبد السلام ، فقدم إليه طعام مسموم توفى عقب تناوله ، وكفّر بذلك عما أثم به فى حق زميله الوزير ابن عطية ، وكان ذلك فيما يرجح فى أواسط سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) (١) .

وكان من الأعمال البارزة التى قام بها عبد المؤمن ، عقب افتتاح المهديّة ، وتوطد سلطانه فى سائر نواحي إفريقية والمغرب ، البدء بتكسير الإمبراطورية الموحدية أعنى مسحها من برقة إلى السوس الأقصى ، ومن شاطئ البحر المتوسط إلى مشارف الصحراء ، على أن يسهط من التكسير الثلث فى الجبال والوهاد والأنهار والسبخات والطرق ، ومابقى يفرض عليه الخراج ، وأن تلزم كل قبيلة بأداء قسطها من الزرع والورق أى المال ، وكان عبد المؤمن هو أول من قام بمثل هذا الإجراء من ملوك المغرب (٢) .

وهكذا شعر عبد المؤمن بعد افتتاح المهديّة ، واستكمال سيادة الموحدين على سائر نواحي إفريقية ، أن الأندلس تتطلب مزيداً من عنايته واهتمامه . ولم ينس أن الحركة التى قام بها ابن مردنيش بالاستيلاء على جيان ، وتهديد قرطبة وإشبيلية ، قد تتفاقم وتقضى على سيادة الموحدين الفتية فى شبه الجزيرة . ومن ثم فقد حزم أمره على أن يعبر البحر إلى الأندلس ، لينظر فى شئونها ، ولينظم وسائل الدفاع عنها .

(١) كتاب المن بالإمامة على المستضعفين - المخطوط المشار إليه لوجه ٢٢ ، والبيان المغرب القسم الثالث - ص ٤٣ و ٤٤ .

(٢) روض القرطاس ص ١٢٩ .

وكان عبد المؤمن عقب افتتاح المهديّة ، قد أرسل إلى الأندلس كتبه بالفتح ، وفي مقدمتها كتابه إلى ولده السيد أبي يعقوب وإلى إشبيلية ، وفيه يشرح حوادث الفتح ، وما وقع من إجلاء النصارى ، وما قام به العرب ، من ضروب التمرد والمقاومة ، ثم يقرنه بقصيدة يوردها لنا ابن صاحب الصلاة ومما جاء فيها :

ولما قضينا بالمشارك أمرنا وتم مراد الله في كل مطلب
وأشرقت الشمس المنيرة فوقنا وأصبح وجه الجو غير محجب
وطهر هذا الصقع من كل كافر وعاد به الإسلام بعد تغيب
وكسرت الصليبان في كل بيعة ونادى منادى الحق في كل مرقب
أشرنا بأعناق المطى إليكم فطار بها شأو السرور بمغرب

ووصل كتاب عبد المؤمن بالفتح إلى إشبيلية في صفر سنة ٥٥٥ هـ ؛ ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، إن السيد أبا يعقوب أمر أن يكتبه الناس والطلبة ، وأن يحفظوه ، وأن يتلى من فوق المنابر ، وأمر كذلك بقرع الطبول ، وإقامة المآدب للأجناد والناس كافة ، واستمر قرع الطبول ، والإطعام ثلاثين يوما ، والبشر يعم أنحاء المدينة ، والشعراء يشدون قصائدهم بالتهنئة ، في مختلف المناسبات والمواطن (١) .

ولم يكدر صفو هذا البشر الشامل ، سوى ما وقع في هذه الآونة بالذات من منازل ابن همشك لقرطبة ، ومصرع واليها ابن يكيك ، ومحاصرة قصبة قرمونة ، ومن ثم فقد كان رد السيد أبي يعقوب على كتاب الفتح ، يتضمن شرحاً لهذه الحوادث ، وتضرعاً إلى والده الخليفة ، بأن يجعل بالإنجاد والغوث .

وكانت خطة عبد المؤمن لتنظيم شؤون الأندلس وإتمام فتحها ، وإذكاء حركة الجهاد بها ، تتضمن فضلا عن مضاعفة البعوث العسكرية إلى شبه الجزيرة ، تحصين قاعدة جبل طارق ، وإنشاء مدينة كبرى بها . ومن حسن الحظ أننا نجد أدق شرح وأوفى تفصيل لهذا المشروع الضخم ، في رواية ابن صاحب الصلاة ، وقد كان فضلا عن اطلاعه على الكتب والوثائق المتعلقة بذلك ، شاهد عيان وثيق الصلة ببلاط الخليفة ، وبالسيد أبي يعقوب وإلى إشبيلية ، والسيد أبي سعيد وإلى غرناطة ، وهما اللذان عنيا بتنفيذ المشروع . وبالرغم من أنه يقرن روايته في معظم

(١) كتاب المن بالإمامة على المستضعفين - المخطوط السالف الذكر ، لوحة ٢٥ .



جبل طارق والمضيق

الأحيان ، بكثير من عبارات الدعاء والتبجيل والملق ، التي تفصح عن طبيعة علاقته بالبلاط الموحدى ، فإنه يقدم إلينا فى نفس الوقت كثيراً من المعلومات والتفاصيل النفسية ، التي لا توجد فى أى مصدر آخر .

أرسل السيد أبو يعقوب رسالة بطلب الإنجاد إلى والده الخليفة ، وإشيدلية تسودها ريح التوجس والقلق ، فسرعان ما وصل رد الخليفة من معسكره المظفر ، على مقربة من قسنطينة ، بتاريخ ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ « يعرف فيه بصحيح الآيات ، وما ثنى فيه من أمنة خيل الله لهذه الأصقاع ، وحماية ذلك الجناح » ، فأطمأن الموحدون لما وعد به الخليفة ، من سريع العون وبالغ ، واستبشروا بالنصر القريب ، وقرئ كتاب الخليفة على المنابر ، وساد البشزين الناس .

ووصل فى نفس الوقت كتاب آخر من الخليفة ، مؤرخ فى التاسع من ربيع الأول من نفس العام ، ومتضمن « للأمر العزيز » ، بإنشاء مدينة كبرى فى جبل طارق ، ذلك الجبل الذى يصفه ابن صاحب الصلاة « بالجبل الميمون القديم البركة ، على جزيرة الأندلس السامق الشاهق ، المفتتح منه دانيها وقاصيها ، وطايها وعاصيها » ، ولتكون هذه المدينة منزلاً للأمير عند إجازته بالعساكر ، ومستقراً تتقدم منه « الرايات المظفرة ، والأعلام المنشورة إلى بلاد الروم » . وكان الكتاب

يتضمن أمراً مشدداً من الخليفة إلى ولده السيد أبي سعيد عثمان وإلى غرناطة ، بأن يسير بنفسه من غرناطة مع صحبه وبعض عسكره إلى جبل طارق ، وأن يجتمع فيه بالطلبة الوافدين من إشبيلية ، وبالشيخ أبي حفص عمر ، وأبي إسحق برآز ابن محمد ، والحاج يعيش المالقي ، والقائد عبد الله بن جيار ، وأن يدرس الجميع خطط المدينة الجديدة ، وأين يكون موقعها من الجبل . فصعد السيد أبو سعيد بأمر الخليفة ونهض في صحبه إلى جبل طارق ، للعمل على تنفيذ الخطة المطلوبة ، وطُلب في الكتاب إلى السيد أبي يعقوب وإلى إشبيلية أن يحشد جميع العمال البنائين والجيارين والنجارين والعرفاء ، من جميع بلاد الأندلس التي تحت نظر الموحدين ، وأن يعجلوا بالسير إلى الجبل ، لتنفيذ الأمر الكريم ، فهض السيد أبو يعقوب بما طلب إليه ، وسار من إشبيلية العريف أحمد بن باسئ ، ومعه حشد كبير من العمال من بنائين وغيرهم من مختلف الحرف إلى جبل طارق ، ووصل إليه في نفس الوقت جهرة من القواد والكتاب وأهل الحساب ، لتنظيم النفقة على الأعمال المطلوبة ، ورصدها ، وتم ذاك كله في سرعة ونظام وحزم .

قال ابن صاحب الصلاة : « وابتدأوا البناء في الموضع الذي وقع الجميع عليه ، والاتفاق من نواحيه ، بسيف البحر ، مما يلاصقه ويليه ، وزادت الآمال بأهل الأندلس إلى ما تقدم إليهم من الأمل ، وتحققوا اليمن والسعد والفتح في بنيان هذا الجبل ، وكان من اشغال السيد الأعلى أبي يعقوب بإشبيلية في إزعاج الفعلة والرجال للبناء المذكور ، وأحكم البناءون فيه بناء من القصور المشيدة والديار ، واخترعوا في أسسها طيقاناً وحنايا ، لتعندل بها الأرض ، مبنية بالحجر المنجور والجيار ، بما هو عجيب في الآثار . . وهذا شريف البقعة كريم التربة ، عظيم المنعة ، باسق مع أعشار السماء ، تكاد في المسامطة إلى الحوزاء ، وكل ما استودع في أرضه من البطحة المنبسطة ، من بعضه ، مما زكى وفضل وجل ، وأثمر عن قرب لغرسه وأكل ، وأستقل من جميع الفواكه ، كشجر التين والعنب والتفاح والكمثرى ، والسفرجل والمشموم والأجاص والأترج والحوز وغير ذلك ، على ضيق صفته المدة كالجبل ، المستمدة من الظل والوبل ، وماؤه عذب زلال ، مروق سلسال . وكان الحاج يعيش المهندس مدة إقامته للبناء على ما ذكرته فيه ، فوضع في أعلاه رحي تطحن الأقوات بالريح ، عاينها الثقات مدة البناء المذكور ، فلما رجع إلى مراکش عند إكمال ما أمر به فسدت الرحي ، لعدم الاهتبال بها ،

واتصل بهذا العمل من بناء الدور القصور ، بناء السور والباب المسمى بباب الفتح في الفرجة التي كان يدخل منها إلى الجبل ، بين البحر المحرق به من كلا جانبيه ، فجاء فرداً في المعازل التي لا يمكن اطعام فيه طمع ، ولا يخطر على خاطر ساكنه جزع ، من بر ولا بحر^(١) .

واستمر العمل شهوراً مهمة مضاعفة ، والسيد أبو يعقوب وإلى إشبيلية ، يشرف على تنفيذ أوامر الخليفة ، دون هواة ولا كلل ، والمهندسون والعرفاء ، والعمال من كل ضرب ، يبذلون أقصى جهدهم في إتمام المشروع ، حتى كمل على أحسن وجه ، وتم بناء المدينة الحديدية في شهر ذي القعدة سنة ٥٥٥ هـ (ديسمبر سنة ١١٦٠ م) وابتنى بها جامع ، وقصر للخليفة ، ودور لأبنائه وحاشيته ، وغُرست الحدائق على طولها حذاء البحر ، وجُلِب إليها الماء العذب ، وجدد الحصن والأسوار القديمة ، وعنى بتحصين الصخرة ، أكمل عناية ، وسمى الجبل بأمر الخليفة جبل الفتح أو مدينة الفتح ، وكانت المراسلات أثناء ذلك تتردد بين السيد أبي يعقوب ووالده الخليفة ، بتحديد موعد عبوره ، واستعداداً للاحتفال بهذا الحادث الجلل . وكان السيد أبو يعقوب يعزم العبور إلى المغرب ، وليعاين أثناء مسيره ماتم من الأعمال في جبل طارق ، ولكنه ما كاد يركب السفينة التي أعدت بالنهر لعبوره ، حتى وصلته أبناء استيلاء ابن همشك على قرمونة ، وامتناع حاميتها الموحدية بالقصبة ، فارتد من فوره إلى المدينة ، وقد اضطربت بها الأحوال ، ووجه فرقة من العسكر لإنقاذ الحامية ، ومقاتلة أهل قرمونة ، وكان ذلك حسباً تقدم ، في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ (مارس سنة ١١٦٠ م) ، وهو الشهر الذي وصلت فيه رسالة الخليفة بإنشاء مدينة جبل طارق .

وكان عبد المؤمن يرتقب إتمام المدينة الحديدية بجبل طارق ، ليعبر إلى شبه الجزيرة ، فلما كملت ، وكان عندئذ في أحواز فاس ، سار إلى سبتة في جموع ضخمة من الموحدين والعرب من بني رياح ، وبني جشم ، وبني عدى وغيرهم . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة مناظر احتشاد الناس على الشاطئ لرؤية موكب الخليفة ، وجيشه في ذلك اليوم المشهود ، في قوله : « وبرز إليه يوم إجازته

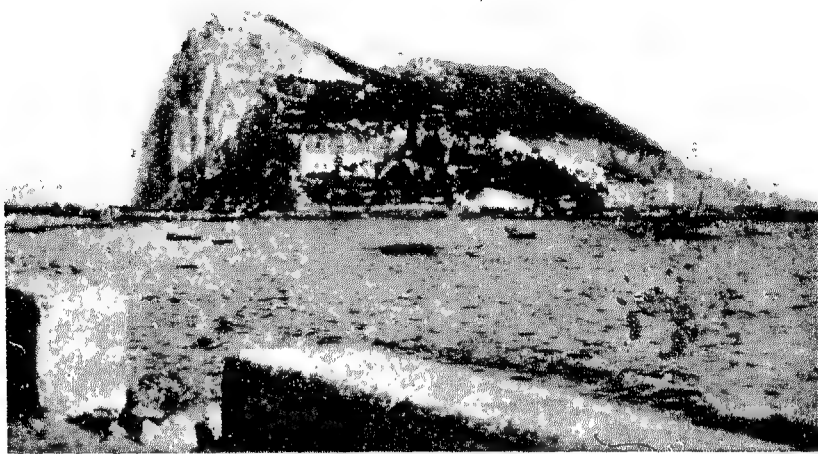
(١) كتاب المن بالإمامة على المستضعفين - المخطوط السالف الذكر لوحة ١٣ و ١٤ .

البحر من الناس ، النظارة على سيف البحر عالم لا يحصيهم إلا خالفهم . وكان يوماً
مذكوراً مشهوداً ، ظهر فيه من فخامة الملك والأمر ، ما لم يتقدم في سالف
الأزمان ، ولا تخيل مرآه في الأذهان .

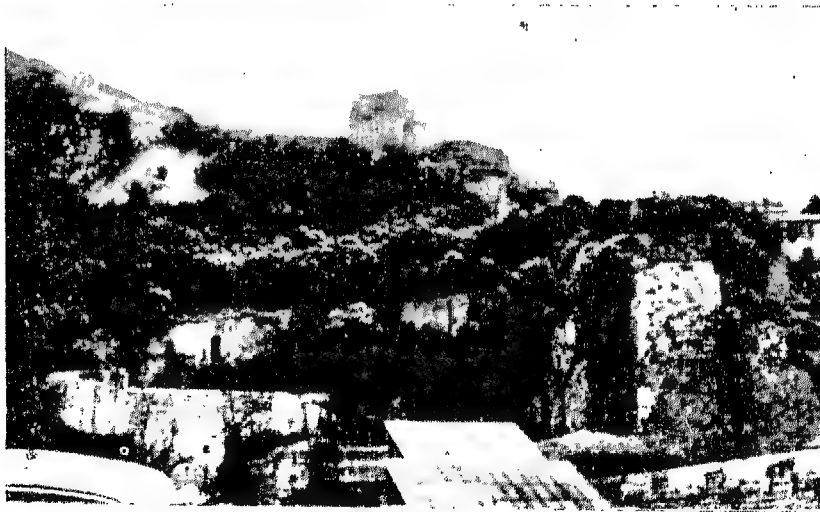
وكان عبور عبد المؤمن إلى شبه الجزيرة ، ونزوله في جبل طارق ، في شهر
ذي القعدة سنة ٥٥٥ هـ (يناير سنة ١١٦١ م) . وكان في استقباله في الجبل ،
ولده السيد أبو يعقوب والى إشبيلية ، وقد غادرها مع وفد كبير من أشياخ
الموحدين ، ورؤساء الأندلس وقادتها وعلى رأسهم أبو العلاء بن عزون ، وأعيان
إشبيلية وشيوخها وقاضيا أبو بكر الغافقي ، وكبير علمائها الحافظ أبو بكر
ابن الجند ، وسائر من بها من الكبراء والشعراء ؛ والسيد أبو سعيد والى غرناطة ،
مع من بها من أشياخ الموحدين والحفاظ ، وأكابر غرناطة وعلمائها ؛ وكذلك
أعيان قرطبة وعلمائها ، وأعيان غرب الأندلس وعلمائها ، وأعيان مالقة ورندة ،
وشريش ، وعلى الحملة سائر أعيان الأندلس الموحدين وكبرائها ، وعلمائها وأدباؤها
وشعراؤها . وندب عبد المؤمن ولده وزيره السيد أبا حفص لكي يتولى أمر
الوفود ، ويقودها إلى مجلسه للسلام وتجديد البيعة ، فأدخلوا بترتيب معين ،
وأدوا التحية للخليفة الموحدي ، وأكدوا له البيعة والطاعة ، وكان القضية
يتقدمون الوفود . وتعاقب الخطباء بين يدي الخليفة ، فخطب أبو الحسين
ابن الإشبيلي وصاحبه أبو محمد بن جبل ، وأبو محمد المالقي وغيرهم ، وكانت خطبهم
تدور كلها حول وجوب البيعة ، وما يوجبه الشرع من العهود والرسوم ،
والوفاء بالطاعة لولى الأمر ، ثم أذن لهم « بتقبيل اليد المباركة » (١) .

وجاء بعد ذلك دور الشعر ، فأمر عبد المؤمن باستدعاء الشعراء ، ولم يكن
يستدعيهم قبل ذلك اليوم ، إنما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم . وكان يوماً عظيماً
من أيام الشعر والشعراء . وكان بين هذه الوفود الحاشدة ، عدة من أقطاب
الشعر بالمغرب والأندلس ، ذكر لنا ابن صاحب الصلاة ، وصاحب المعجب
أسماءهم ، فكان منهم شاعر المغرب أبو عبد الله محمد بن حبوس من أهل فاس ،
والوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسي المعروف بالرُّصافي ، نزيل
مالقة ، وأحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي ، والقرشي القرطبي المعروف
بالطليق ، وأبو الحسن عبيد الله محمد بن صاحب الصلاة الباجي ، وأبو بكر

(١) كتاب المن بالإمامة على المستضعفين - المخطوط - لوحة ١٥ و ١٦ .



منظر جبل طارق من البحر الإسباني (من الجزيرة الخضراء)



بقايا الحصن الأندلسي قائمة فوق سطح صخرة طارق

ابن المنخل الشلبي ، وابن سيد الإشبيلي المعروف باللص وغيرهم .
وكان أول من أنشد شعره بين يدي الخليفة ، أبو عبد الله بن حبوس ،
وهو الذي يشبهه صاحب المعجب في طريقته بابن هانيء الأندلسي في تخير الألفاظ
الرائعة ، فأنشد قصيدة هذا مطلعها :

بلغ الزمان بكم ما أملا وتعلمت أيامه أن تعدلا
وبحسبه ان كان شيئا قابلا وجد الهداية صورة فتشكلا
وأنشد القرشي المعروف بالطلق قصيدة مطلعها :

ما للعدى جنة أوقى من الحرب كيف المفر وخيل الله في الطلب
لو بدلوا قد مازلت بقادمه لأصبح الكل طياراً من الرعب
وأنشد أبو الحسن عبيد الله بن صاحب الصلاة الباجي قصيدة هذا أولها :
تلاً من نور الخلافة بارق أضاءت به الآفاق والليل غاسق
وأشرقت الدنيا به فكأنها من البشر في كل الجهات مشارق
بسعدك يرى السيف ما عز قطعه وينفذ حد السهم ما هو راتق
ولازال أمر الله للدين هادياً وأنت للدين الكفر ماح وماحق
وأنشد الوزير الكاتب الشاعر أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي البلسي
قصيدة طويلة في نيف وستين بيتاً هذا مطلعها :

لوجئت نار الهدى من جانب الطور قبست ماشئت من علم ومن نور
من كل زهراء لم ترفع ذوابتها ليلا لسارٍ ولم تثبت لمغرور
فيضية القدح من نور النبوة أو نور الهداية تجلو ظلمة الزور
ومنها وصف مدينة الجبل :

يا دار دار أمير المؤمنين بسفح الطود طود الهدى بوركت في الدور
ذات العمادين من عز ومملكة على الأساسين من قدس وتطهير
ماكان يأتيك الواني الكرامة عن قصر على مجمع البحرين مقصور
وفي وصف الجبل :

لله ما جبل المفتحين من جبل معظم القدر في الأجيال مذكور
من شامخ القدر في سحنائه طلس له من القيم جيب غير مزرور

معبراً بذراه عن ذرى ملك مستمطر الكف والأكناف ممطور
تمشى النجوم على أكليل مفرقه في الجو حائمة مثل الدنانير^(١)
بيد أنه قد ظهر في هذا اليوم ، إلى جانب أكابر الشعراء ، شاعر حدث ،
لم يبلغ العشرين من عمره ، هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي ،
سليل بنى سعيد أصحاب قلعة يحصب من أعمال غرناطة^(٢) ، وكان قد حضر
إلى جبل طارق مع أبيه وإخوته وقومه ضمن وفد غرناطة ، ومثل بين يدي
الخليفة ضمن الشعراء . ولما جاء دوره ، أنشد قصيدة لفتت الأنظار بروعتها ،
وكانت فاتحة مجده الشعرى ، وقد نقل إلينا ابن الخطيب منها الأبيات الآتية :

تكلّم فقد أصغى إلى قولك الدهر	وما لسواك اليوم نهي ولا أمر
ورمّ كل ما قد شئت فهو كائن	وحاول فلا برّ يفوت ولا بحر
وحسبك هذا البحر فألاً فإنه	يقبّل ترّباً داسه جيشك الغمر
وما صوته إلا سلام مردّد	عليك وعن يشرّ بقربك يفتر
بجيش لكى يلتقى أمامك من غداً	يُعاند أمراً لا يقوم له أمر
أطلّ على أرض الجزيرة سعداً	وجدّد فيها ذلك الخبر الخبر
فما طارق إلا لذلك سطر	ولابن نصير لم يكن ذلك النصر
هما مهّداها لكى تحلّ بأرضها	كما حلّ عند التّم بالهالة بدر

فوقعت هذه القصيدة من الخليفة أجل موقع ، وأثنى على ناظمها الفنى ،
وهناً به والده عبد الملك . وحظى أبو جعفر هذا فيما بعد لدى السيد أبى سعيد وإلى
غرناطة ، فاستوزره حيناً إلى أن فسد ما بينهما ، بسبب تنافسهما فى حب الشاعرة
الأندلسية الجميلة حفصة بنت الحاج الركونى ، فقبض عليه ، واتهم بالاشتراك
فى فتنة ابن مردنيش ، وأعدم وذلك فى سنة ٥٥٩ هـ^(٣) .

ولبت عبد المؤمن فى جبل طارق زهاء شهرين ، وسماه « جبل الفتح »
حسبما تقدم ، واستمرت إقامة الوفود والاحتفال بها ، وغمرها بالضيافات وقضاء

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها فى المعجب للمراكشى ص ١١٩ - ١٢٢ ، وفى أعمال الأعلام
لابن الخطيب ص ٢٦٦ - ٢٦٨ .

(٢) وهو أحد مؤلفى كتاب « المغرب » الشهير الذى تعاقب فى تأليفه بنو سعيد ، واختتم
تصنيفه ابن أخيه موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد . وقلعة يحصب أو قلعة بنى سعيد هى اليوم القرية
المسماة القلعة الملكية Alcalá la Real الواقعة شمال غرناطة .

(٣) ابن الخطيب فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٢٣ و ٢٢٥ و ٢٢٦ .

الحوائج ، عشرين يوماً ، حتى ختام عيد الأضحى لسنة ٥٥٥ هـ ، وعندئذ أذن للوفود بالانصراف ، فانصرف الناس إلى مواطنهم . وكان عبد المؤمن خلال ذلك يدرس شئون الأندلس مع الأشياخ والقادة ، وينظر في المظالم ويقضى فيها ، ويبدل لختلف الوفود وعوده ببذل كل معونة لحماية الأندلس ومجاهدة أعدائها ، وقد خصص لإنجاءها بالغل جيشاً مختلطاً من الموحدين والأندلسيين قوامه ثمانية عشرة ألف فارس ، وجعل على قيادة الموحدين ابن الشرقى وعلى قيادة الأندلسيين ابن صناديد^(١) ، وأعاد تعيين ولده السيد أبي يعقوب والياً لإشبيلية ، وندب لمعاونته جماعة من أشياخ الموحدين ذوى المكانة والرأى ، وولده السيد أبي سعيد والياً لغرناطة ، وندب لولاية قرطبة الشيخ أبا حفص عمر ايتى ، وأوعمر ابن يحيى الهنتانى^(٢) . ولما فرغ من تنظيم شئون الأندلس على هذا النحو ، عبر البحر إلى سبتة ، عائداً إلى المغرب ، وذلك فى فاتحة سنة ٥٥٦ هـ (فبراير سنة ١١٦١ م) وسار توجاً الى حاضرتة مراكش . وكانت هذه الفترة القصيرة التى قضاهـا عبد المؤمن فى جبل طارق ، أو جبل الفتح ، من مواسم الأندلس وأيامها المشهودة ، بما تخللها من روعة السلطان ، وعظائم الأمور .

— ٤ —

على أثر مغادرة الخليفة لجبل طارق ، عائداً إلى المغرب ، غادره السيد أبو سعيد إلى غرناطة ، والسيد أبو يعقوب إلى إشبيلية . وكان الموقف ما يزال فى منطقة إشبيلية على خطورته ، وأهل قمرمونة على تمردهم بزعامة عبد الله بن شراحيل ، ومخالفهم لابن هـمـشك ، ومحاصرتهم للحامية الموحدية بقصبتها ، فجهز السيد أبو يعقوب لمحاربتهم حملة من الموحدين بقيادة الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي حفص بن على . وسار الموحدون بقيادة ابن أبي حفص من قلعة جابر شمالاً إلى قمرمونة ، ومعه أبو العلاء بن عزون فى قوة من الحند الأندلسيين ، وضربوا الحصار حول قمرمونة . وكان ابراهيم بن هـمـشك ، خلال ذلك قد غادر قمرمونة إلى جيان ولم يعبأ بأمرها . وضيق الموحدون على قمرمونة ، وأرهقوها بالغارات المتوالية ، حتى استطاعوا التفاهم سرّاً مع رجل من أهلها . على أن يفتح لهم باب البرج الأكبر ، فتم ذلك ، ودخل الموحدون

(١) الحلل المشوية ص ١١٨ ، والبيان المغرب -- القسم الثالث ص ٤٦ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٢٤ .

قرمونة بغنة ، وذلك في المحرم سنة ٥٥٧ هـ (ديسمبر سنة ١١٥١ م)^(١) ، وقُبض على عبد الله بن شراحيل ، وأخذ مكبولا إلى إشبيلية مع نفر من أتباعه ، وصلبوا هنالك في الميدان العام تحت قصر ابن عياد .

وهكذا عادت قرمونة إلى سلطان الموحدين بعد أن لبثت على خروجها نحو عامين منذ اقتحمها ابن همشك في ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ .

وفي نفس الوقت وصل إلى إشبيلية ، جيش موحدى جديد ، بقيادة يوسف ابن سليمان ، فاطمأت الخواطر ، وساد الهدوء في إشبيلية ومنطقة الغرب كلها ، وسارت منه قوة تحمل العتاد والأقوات إلى قرطبة لشد أزرها ، وتقوية وسائل دفاعها^(٢) .

وكان إبراهيم بن همشك ، حينما شعر بأن الجبهة الموحدية في إشبيلية وقرطبة ، قد عززت ، وأضحى من العسير مهاجمتها ، قد اتجه وجهة أخرى ودبر خطة لمهاجمة غرناطة ، وقد كانت أقرب إلى قواعده في جيان وهي التي عينه صهره ابن مردنيش لولايتها . ومن جهة أخرى فقد استطاع ابن همشك ، أن يتفاهم سرّاً مع جماعة من يهود غرناطة ، الذين أسلموا رغم إرادتهم ، ومع حليفهم المسمى ابن دهرى ، وأن يتفق معهم على أن يسهلوا له دخول المدينة في ليلة معينة . وكانت غرناطة في الواقع دون دفاع قوى ، وقد غادرها واليا السيد أبو سعيد إلى المغرب حسبا تقدم ، ولم تبق بها سوى الحامية الموحدية . فسار إليها ابن همشك في بعض قواته ، وفي ليلة من ليالى جمادى الأولى سنة ٥٥٥ هـ ، تمت الخيانة المدبرة ، وكسر اليهود بإيعاز ابن دهرى ، باب الربض بغرناطة ، وتنادوا بالصياح « يا للأصحاب » : فدخل ابن همشك وأصحابه المدينة ، وفرأنصار الموحدين إلى القصبة ، وكانت تموج بمن بها من جند الموحدين . ولما رأى ابن همشك حصانة القصبة ، وقوة الحامية الموحدية ، بعث إلى صهره محمد بن سعد ابن مردنيش ، وكان عندئذ بمرسية ، يطلب إليه الإنجاد ويطمعه في أخذ غرناطة ، فحشد ابن مردنيش قوة من جنده ، وانضمت إليهم فرقة من الجند النصارى بقيادة ألبار ردريجس الأصلع أو الأقرع حسبا تسميه الرواية العربية ، وهو حفيد القائد

(١) أخذنا في تاريخ استرداد قرمونة برواية صاحب البيان المغرب (القسم الثالث ص ٤٦) . ويصع ابن صاحب الصلاة تاريخ أخذها في أوائل سنة ٥٥٦ هـ ، وهو لا يتفق مع منطق الحوادث حيث طال حصار قرمونة نحو عام .

(٢) ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة - المخطوط - لوحة ٢٤ ا و ب .

الشهير ألبارهانيس . وسار هذا الجيش إلى غرناطة لإمداد ابن همشك . وكان ابن همشك قد نزل بالقلعة الحمراء القائمة فوق تل السبيكة في مواجهة القصبه ، وشرع في منازلها ، وضربها بالمخانيق . وكان ابن همشك جبارا قاسياً ، فظاً غليظاً في حربه ، فكان يعذب من يقع في يده من الموحدين بأروع نكال ، ويلقيهم في أفواه المخانيق ، ويقذفهم من الشواهي ، ويحرقهم بالنار ، ولكن الموحدين صمدوا بالقصبه ، وكانت لديهم مؤن وافرة ، وبعثوا إلى الخليفة في طلب الإنجاد ، وكذلك إلى الموحدين في إشبيلية . وكان الخليفة عبد المؤمن ، قد خرج كعادته من مراکش إلى سلا ، لتنظيم شئون الجهاد ، فبلغته حوادث غرناطة ، وهو في طريقه ، فلما وصل إلى سلا بعث ولده السيد أبا سعيد فيمن معه على جناح السرعة ، وعبر السيد البحر إلى مالقة ، وبعث منها يستدعى الشيخ أبا محمد بن عبد الله ابن أبي حفص القائم على ولاية إشبيلية ليوافيه عند غرناطة ، بجيش إشبيلية . واجتمعت القوات الموحدية ، في فحوص غرناطة^(١) وتقدمت حتى الموضع المسمى « بمرج الرقاد » على قيد أربعة أميال من غرناطة^(٢) ، وعندئذ خرج لقتالها ابن همشك في قواته وقوات مرسية من الأندلسيين والنصارى ، وكانت تبلغ ألى فارس . وليس في رواية ابن صاحب الصلاة ما يدل على أن ابن مردنيش قد اشترك في الموقعة التي تلت . ولكن ابن الخطيب يقول لنا إن ابن مردنيش قد مثل بنفسه في الموقعة ، وكانت محلته قائمة فوق الربوة العالية المتصلة ببرص البيّارين ، وهي التي عرفت فيما بعد بكدية ابن مردنيش^(٣) . واضطرم القتال في الحال بين الفريقين ، وسرعان ما ظهر تفوق ابن همشك وحلفائه النصارى . فاختل نظام القوات الموحدية ودارت عليها الدائرة ، وكثر القتل فيهم ، وغرق منهم في سواقي المريج ومياهه عدد جم ، وكان بين القتلى الشيخ أبو محمد عبد الله ابن أبي حفص وإلى إشبيلية ، وعدة من أشياخ الموحدين ، وأكابر الأندلسيين . وفر السيد أبو سعيد في نفر من صحبه إلى مالقة . وكانت نكبة موحدية بالغة الخطورة . وارتد ابن همشك في قواته المظفرة إلى القلعة الحمراء ، ومعه جملة من أسرى الموحدين أفحش في تعذيبهم ، والتنكيل بهم ، وازهاقهم بمرأى

(١) وهو المريج أو مرج غرناطة الشهير La Vega .

(٢) كان هذا الاسم يطلق على موضع يقع على بضعة كماترات من قرية الطرف Atarfe في سفح جبل إلدرة على مقربة من نهر سنبل وبطلو عليه اليوم اسم Majorrocal

(٣) الإحاطة ج ٢ ص ٨٩ .

من إخوانهم المحصورين ، وقد استمروا على حاحم من الاعتصام بالقصبة .
 ووصلت أنباء هذه النكبة إلى عبد المؤمن ، وهو ما يزال بسلا ، وكانت
 الجيوش قد توافدت عليه في تلك الأثناء ، فجهز جيشاً منتخباً من أنجاد الفرسان
 والحنند ، يضم زهاء عشرين ألف مقاتل ، وجمهرة من أشياخ الموحدين^(١)
 تحت إمرة ولده السيد أبي يعقوب يوسف ، ومعه الشيخ أبو يعقوب يوسف
 ابن سليمان ، زعيم أشياخ الموحدين ، ومستشار عبد المؤمن الأثير في العظامم
 والخطوب ، وهو الذي يصفه ابن الخطيب « بزعم وقته وداهية زمانه » . وعبر
 هذا الجيش الموحدى البحر إلى الجزيرة الخضراء ، ثم سار إلى مالقة حيث انضم
 إليه السيد أبو سعيد فيمن معه ، وزود بالعلوفات والمؤن الكافية ، وخرج
 الموحدون بعد ذلك من مالقة ، وساروا إلى غرناطة . وكان ابن مردنيش قد وقف
 على تلك الأهبة الموحدية الضخمة ، فسار في قواته ، ومعه فرقة من حلفائه
 النصارى لإنجاد صهره ابن همشك ، ونزل فوق الجبل المتصل بقصبة غرناطة
 على الضفة الأخرى لنهر حدره ، وبقي ابن همشك بقواته بالقصبة الحمراء فوق
 جبل السبيكة ، ومعه حلفاؤه النصارى تحت إمرة قائدهم ألبار ردرينجس الأصلع
 حفيد ألبار هانيس ، ومعه ابن كونت أورقلة (أرخل) وهم يبلغون نحو ثمانية
 آلاف مقاتل ، وكان نهر حدره يفصل بين محلة ابن همشك ومحلة صهره
 ابن مردنيش . واستمر الموحدون في سيرهم حتى وصلوا إلى قرية دلة على مقربة
 من غرناطة ، ثم صعدوا إلى الجبل المطل على وادى شتيل ، قبالة جبل السبيكة
 والحمراء . وفي يوم الخميس السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٥٥٧ هـ
 (١٢ يولييه سنة ١١٦٢ م) جمع يوسف بن سليمان قائد الجيش الموحدى أشياخ
 الموحدين ، وأشياخ الأجناد ، من مختلف القبائل ، ووعظهم وذكرهم بأن الجنة
 مشوى المجاهدين . وحثهم على التفانى في سبيل الله . وفي مساء هذا اليوم ركب
 الموحدون خيولهم ، وساروا فوق الجبل وأمامهم المشاة والطلائع من المصامدة ،
 وعلى ناصية ضفة شتيل المحاذية للسبيكة ، وكانت ليلة منيرة صافية الأديم . وعند
 الفجر وصلوا إلى مقربة من محلات ابن همشك وحلفائه النصارى فوق جبل
 السبيكة ، وفي الحال انقض الموحدون على أعدائهم على غرة ، قبل أن يتم
 استعدادهم ، بل وقبل أن يركب معظمهم خيولهم ، واضطربت بين الفريقين

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٠٦ .

موقعة عنيفة هائلة ، وأبلى الموحدون في قتال ابن همشك وحلفائه النصارى أعظم البلاء ، وقتلوا منهم جموعاً غفيرة ، ولم يأت الصباح ، حتى مزق الموحدون أعداءهم تمزيقاً وشتتوا في كل ناحية ، وقتل معظم قادتهم ، وفي مقدمتهم ألبار ردريجس الأصلع وزميله ولد كونت أورقلة . ورفعت رأس الأصلع بعد أيام بمدينة قرطبة على باب القنطرة ، وقتل كذلك معظم القادة الأندلسيين ، ومنهم ابن عبيد صهر ابن مردنيش . وكان مما حز في نفس ابن مردنيش ، وانفطر له فؤاده ، أنه لم يستطع ، وهو بقواته على الضفة الأخرى من نهر حدره ، أن يبادر لإنقاذ صهره ابن همشك . فلبث يرقب تمزيق قواته جامداً ، حتى تم الظفر للموحدين ، وتمت الهزيمة الساحقة على ابن همشك . وتعرف هذه الموقعة بموقعة السيكة . ودخل الموحدون غرناطة ظافرين ، في ظهر ذلك اليوم — يوم الجمعة الثامن والعشرين من رجب سنة ٥٥٧ (١٣ يولييه ١١٦٢ م) ، وخرج الموحدون المحصورون من القصبه ، وقتلوا سائر خصومهم والمتحالفين مع أعدائهم من أهل غرناطة ، وارتد ابن مردنيش وابن همشك كل بقواته ، وسار الأول صوب مرسية ، وسار الثاني في فلوله صوب جيان ، والموحدون في أثره . وكان من أثر هذا النصر الموحدى ، أن سارعت سائر النواحي في منطقة غرناطة ، إلى إعلان الطاعة والتوحيد . وعنى السيد أبو يعقوب يوسف والقائد يوسف بن سليمان بالنظر في شئون غرناطة ، وإصلاح قصبتها وأسوارها ، وإثابة من كان بها من الموحدين المحصورين والإنعام عليهم . واستقرت الأمور بها ، وسادتها السكينة والهدوء (١) .

وسار الموحدون في أثر ابن همشك إلى قاعدته جيان ، ولكنه لم يقف بها ، بل ترك أمر الدفاع عنها إلى وزيره أبى جعفر الوقشى ، فامتنع بها ، وحاصرها الموحدون حيناً دون جدوى . وعالوا فيما حولها من الأراضى ، وانفسوا زروعها ، ودمروا قراها ، حتى أصبحت خراباً مطلقاً ، ثم غادروها عائدين إلى قواعدهم (٢) وبعث السيد أبو يعقوب يوسف ، والقائد ابن سليمان بأنباء النصر يوم الواقعة ، الى الخليفة عبد المؤمن ، وكان ما يزال برباط الفتح قبالة سلا ،

(١) نفلنا تفاصيل هذه الموقعة الكبيرة عن ابن صاحب الصلاة في كتاب « المن بالإمامة » اللوحات ٢٩ إلى ٣٢ . ويراجع ابن الأبرح ١١ ص ١٠٦ ، والإحاطة (١٩٥٦) ح ١ ص ٣٠٩ و ٣١٠ ، وج ٢ ص ٨٩ و ٩٠ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٥٢ و ٥٣ ، وهو يلخص أقوال ابن صاحب الصلاة .

(٢) ابن الأبار في الخلة السيرة ص ٢٣٠ .

فسر بها أيما سرور ، وصدرت أوامره فيما يتعلق بشئون الأندلس بتحقيق أمرين ، الأول أن يجعل من غرناطة وقصبتها مركز دفاع قوى ، وأن تشحن بالعتاد والأقوات ، والثاني أن ينقل مركز الحكم الموحدى بالأندلس من إشبيلية إلى قرطبة ، وأرسلت لتحقيق الأمر الأول ، من شواطئ العدو إلى ثغر المنكب عدة سفن ، مشحونة بالأقوات والسلاح ، ونقلت حملتها إلى غرناطة ، وزودت قصبتها من ذلك بكيات كبيرة ، وندب لتنظيم شئون الدفاع عن المدينة إلى جانب الموحدين ، عدة من الزعماء الأندلسيين الموثوق بهم من أهلها ، وكان القصد من ذلك أن تغدو غرناطة مركز الدفاع الرئيسي في جنوبي الأندلس ، أو تغدو « سنام » الأندلس حسبما يقول ابن صاحب الصلاة .

وأما فيما يتعلق بنقل مركز الحكم إلى قرطبة ، فقد بعث عبد المؤمن إلى ولده السيد أبي يعقوب يوسف ، والشيخ أبي يعقوب سليمان « الأمر العزيز » باستيطان قرطبة ، وأن تكون مقر الأمير ، ومقر الحكم بالأندلس ، إذ هي « مؤسّطة الأندلس » كما تغدو مستقر الجيوش الموحدية . ووصل بهذا الأمر أبو اسحق برّاز بن محمد للمتوفى . وعلى أثر ذلك سار السيدان أبو يعقوب يوسف ، وأبو سعيد ، ولدا الخليفة ، ومعهما القائد يوسف بن سليمان ، إلى قرطبة فوصلوا إليها في الخامس عشر من شهر شوال سنة ٥٥٧ هـ ، وخرج أهل قرطبة لاستقبالهم في جموع حاشدة حافلة ، واستدعى إليها من إشبيلية عدة من أشياخها وأعيانها وكتابها ، ومنهم أبو القاسم بن عساكر ، وأبوبكر الخطار ، ويذكر لنا ابن صاحب الصلاة ، أنه كان من بين أولئك الكتاب المدعويين إلى العمل . وطُلب كذلك أن تُنقل من إشبيلية إلى قرطبة سائر الدواوين والأموال ، التي جمعت من القواعد المنزوعة من الثوار . وهكذا غدت قرطبة ، بعد إشبيلية قاعدة الحكم الموحدى بالأندلس ، واستردت قرطبة بذلك رياستها وأهميتها وحيويتها القديمة ، ورتبت بها الإدارات ، واستعمل الكتاب والأشباخ في مختلف الأعمال ، واختار أبو اسحق لحكم إشبيلية بعض أصحابه ، وقام هو على النظر في شئون المخازن (الشئون المالية) في قرطبة وسائر البلاد الخاضعة للموحدين ، ولم يزل قائماً بهذه المهمة حتى توفي في سنة ٥٥٩ هـ (١) .

واستقر السيدان أبو يعقوب وأبو سعيد حيناً بقرطبة ، ومعهما القائد الشيخ

(١) ابن صاحب الصلاة في كتاب المن بالإمامة لوجه ٣٣ و ٣٤ .

— ٣٩٢ —

أبو يعقوب . وقامت هذه الحكومة الجديدة لعاصمة الخلافة القديمة ، بتنظيم شئونها المختلفة ، وتعمير قصورها ودورها المهمة ، وإصلاح حصونها وأسوارها ، وتأمين أهلها ، فساد الهدوء والطمأنينة في أرجائها ، بعد أن لبثت أعواماً طويلة ، مسرحاً للقتل المحرقة ، والفورات المزعجة ، وعاد إليها الكثير من أهلها الذين غادروها ، مستبشرين بالعهد الجديد . ثم انصرف الشيخ أبو يعقوب عائداً إلى العدو ، واستمر السيدان من بعده فترة يسيرة ، حتى فاتحة الحرم من سنة ٥٥٨ هـ ، وعندئذ وردت دعوة الخليفة إلى ولده السيد أبي يعقوب يوسف بالمشول إلى حضرته ، فبادر بالسير إلى إشبيلية ، ولم يبق بها سوى أيام قلائل ، ثم غادرها إلى العدو ، ولحق بأبيه الخليفة ، وبقى السيد أبو سعيد بقرطبة ، قائماً على شئونها ، متعهداً لمصالحها ، وأضيف إليه النظر على إشبيلية ، وكان يعاونه القائد القدير أبو إسحق براز ابن محمد المسوفي ، وندب للنيابة على إشبيلية أبو داود بلول ابن جلداسن ، وتولى شئون المخزن بها محمد بن المعلم ، واستمر الأمر على ذلك فترة يسيرة أخرى .

— ٥ —

في خلال ذلك كانت حوادث المغرب تنذر بتطورات خطيرة . وكان عبد المؤمن حينما تلقى نبأ انتصار الموحدين في موقعة السيكة ، وهو بعدو سلا (الرباط) قد اعتزم أن يعد العدة لاستئناف الجهاد بالأندلس ، في البر والبحر على أوسع نطاق ممكن ، فأمر بكتب الكتب إلى سائر الجهات والقبائل ، لاستنفار الناس ، وحثهم على الجهاد في سبيل الله ، وأمر بإنشاء الأساطيل (القطائع) ، فأُنشئ منها مائتا قطعة ، وقيل أربعمئة ، أعد منها في مرسى المعمورة على شاطئ وادي سبو ، شمالي ثغر سلا ، مائة وعشرون قطعة ، وأعد الباقي في مختلف ثغور العدو والأندلس ، وأمر بإعداد الوفير من العتاد والمؤن والعلوفات ، وكان قد أعد منها خلال سنة ٥٥٧ هـ ، أكداً هائلة في وادي سبو ، في حمى الجبال المشرفة عليه ، وجلبت الخيل من سائر أنحاء إفريقية والمغرب ، وجلبت كذلك مقادير وفيرة من السهام والرماح الطوال ، والدروع ، والبيضات ، والتروس ، والبنود . والكسي ، ووزع ذلك كله على طوائف الموحدين والعرب الموالين من سائر القبائل^(١) ؛ وأذكى هذا العزم على الجهاد في الأندلس ، وأكده ما وقع

(١) ابن صاحب الصلاة في كتاب المن بالإمامة لوجه ٣٩ والمراكشي في المعجب ص ١٣١ .

في أواخر سنة ٥٥٧ هـ ، من غزو نصارى مدينة شترين بالبرتغال لمدينة باجة ، واستباحتها ، واحتلالها في ٢٢ شهر ذى الحجة هذا العام (أول ديسمبر ١١٦٢ م) ، ومكثهم بها نحو أربعة أشهر ، قبل أن يغادروها ، بعد أن دمروا ربوعها ، وخرّبوا أسوارها (١) .

وأقام عبد المؤمن بمراكش فترة يسيرة ، حتى أول عام سنة ٥٥٨ هـ ، وهو يتابع بعناية تلك الاستعدادات الضخمة للجهاد في الأندلس . ثم خرج من حضرته لزور قبر المهدي في تينملل ، وكان الفصل شتاء ، والبرد قارساً ، والأمطار والثلوج تنهمر بشدة ، حتى غمرت سائر السهول والربى ، ومع ذلك فقد شق الخليفة طريقة إلى تينملل بعزم ، وجاز المياه والثلوج الغامرة ، ولم يبال بما أصابه من البلل ، وتبعه أشياخ الموحدين بصعوبة ، ثم أدى زيارته المأثورة لقبر المهدي ، وعاد إلى حضرته ، ليستأنف الاستعداد للجهاد .

وفي اليوم الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٥٥٨ هـ (١٩ فبراير سنة ١١٦٣ م) خرج عبد المؤمن من مراكش ، وسار إلى رباط الفتح ، تتقدمه الجيوش الموحدية الحرارة ، في تودة وهوادة ، فلما وصل إلى رباط الفتح ، كانت البقاع المجاورة فيما بين سلا والمعصورة ، قد ضاقت بهذه الجيوش الضخمة التي يقدرها المؤرخ المعاصر بأكثر من مائة ألف فارس ، ومائة ألف راجل (٢) . وتقدرها بعض الروايات الأخرى بأكثر من ثلاثمائة ألف فارس ، من الموحدين والمرزقة العرب والبربر . ومن المتطوعة ثمانون ألف فارس ومائة ألف راجل (٣) ، وزعت عليهم جميعاً الأعطية والصلوات السخية . وماكاد الخليفة يستقر في محله ، حتى استدعى إليه سائر القادة والأشياخ من الموحدين والعرب ، وأهل الرأي ، وعفا مجلساً حربياً عاماً ، لبحث خير الوسائل لتنفيذ الغزوة الأندلسية الكبرى وتوجيهها ، سواء في البر أو البحر ، وكان من بين الحاضرين أبو محمد سيدرأى بن وزير ، فشرح للخليفة أحوال الأندلس وما يحسن أن يعمل ، واقترح ابن وزير ووافقه الأشياخ ، أن تقسم الحملة الكبرى إلى أربعة جيوش ، يسير أولها إلى البرتغال لمقاتلة ابن الرنك صاحب قلمرية (ألفونسو هنريكز) ، والثاني يسير إلى مملكة ليون ، وملكها

(١) كتاب المن بالإمامة لوحة ١١٧ .

(٢) ابن صاحب الصلاة في كتاب المن بالإمامة لوحة ٤١ .

(٣) الاستقصاء ج ١ ص ١٥٨ .

يومئذ فرناندو الثانى ولد القيصر ألفونسو ريمونديس ، وهو الذى تعرفه الرواية العربية « بالببوج » ، والثالث يسير إلى قشتالة ، وملكها يومئذ ألفونسو الثامن* طفل تحت الوصاية ، والرابع يسير صوب مملكة أراجون وبرشلونة ، وملكها يومئذ ألفونسو الثانى . واستحسن الخليفة اقتراح ابن وزير ووافق عليه .

ولم تمض أيام قلائل على ذلك حتى مرض عبد المؤمن مرضه الذى لم يبرأ منه . ولم توضح لنا الرواية نوع هذا المرض الذى حمل الخليفة إلى القبر ، والذى يقتصر ابن صاحب الصلاة على وصفه : « بالبلوجع » ، بيد أنه لبث يشتد ويتفاقم ، حتى كأن يوم الجمعة الثانى من جمادى الآخرة ، وقد شعر الخليفة بدنو أجله ، فأمر بإسقاط اسم ولده وولى عهده محمد من الخطبة ، وكان هذا القرار يخفى مأساة عائلية ، كان الخليفة يود أن يتلافى آثارها قبل موته . وذلك أنه نعى إليه أن محمداً يشرب الخمر ، ويبدو مخموراً أمام الأشياخ والقادة فى هيئة زرية ، ويرتكب أموراً طائشة مخلة بالكرامة ، وأنه يغلب عليه الخور وجبن النفس ، وقيل أيضاً إنه كان مصاباً بالجدام^(١) . ومن ثم فقد رأى أنه لا يصلح للخلافة ، وأنه يجب تنحيته وإبعاده ، ودعا الأشياخ إلى سريره ، وأخطرهم بتنحية ولده محمد وتولية يوسف ، باعتباره أصح من يتولى الخلافة ، وأوصاهم بتنفيذ إرادته ومبايعته ، ولا سيما الشيخ أبى حفص عمر الهنتانى عميد الأشياخ ، واستوثق من ولده أبى حفص بتقديم شقيقه الأصغر يوسف ، وكان أبى حفص يتولى الوزارة والحجابة لأبيه حسبما تقدم ذكره . وفى الأيام القلائل التالية تفاقم مرض الخليفة واشتد به الألم ، وفى فجر يوم الثلاثاء الثامن من جمادى الثانية - وفقاً لرواية البيهقي - توفى الخليفة عبد المؤمن بن على . بيد أنه إذا أخذنا بهذه الرواية فلا بد أن الوفاة كانت فى فجر اليوم السادس وهو الموافق ليوم الثلاثاء ، حيث كان اليوم الثانى من جمادى الآخرة يوافق يوم الجمعة ، وهو اليوم الذى أسقط فيه اسم محمد من الخطبة . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة إن عبد المؤمن توفى ليلة الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ (١٥ مايو سنة ١١٦٣ م) ، وهى رواية تبدو أرجح لانطباقها مع تسلسل الأيام والتواريخ^(٢) . وكانت وفاته بمحلته فى سلا ، وكان عند وفاته فى الثالثة والستين من عمره ، وقيل فى الرابعة والستين ، وكانت

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٣١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٣ .

(٢) كتاب المن بالإمامة لوحة ١٤٥ .

ولايته ، منذ وفاة المهدي في ٢٥ رمضان سنة ٥٢٤ هـ ، ثلاث وثلاثون سنة ، وخمسة أشهر ، وثلاثة وعشرون يوماً^(١) .

ولما توفي عبد المؤمن كتمت وفاته وقتاً ، واستأثر ولده السيد أبو حفص بتدبير الأمور ، وبادر إلى تنفيذ وصية أبيه في عقد البيعة بالخلافة لأخيه يوسف ، وكان قد قدم من قرطبة ، استجابة لدعوة أبيه ، وبقي إلى جانبه حتى توفي . والظاهر أن عبد المؤمن ، كان عندئذ قد قرر أمره نحو مسألة الخلافة ، وترشيح ولده يوسف لها ، واستدعاه لهذا الغرض وأبلغ السيد أبو حفص ، والشيخ أبو حفص الهنتاني وصية الخليفة الراحل لأشياخ الموحدين ، فأقروها جميعاً ، وبايعوا للسيد أبي يعقوب يوسف بالخلافة . ويقول لنا البيهقي إن بيعة الخليفة الجديد ، تمت في مدى يومين ، في العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ وأرضى أبو عبد الله محمد ما تقرر من أمر خلعه ، وبايع لأخيه راضياً ، وتمت هذه البيعة في سلا في محلة الخليفة الراحل ، ونفذ الأمر إلى الجيوش المحتشدة ، بالانصراف إلى بلادها ، في انتظار أوامر تصدر في فرصة أخرى . وتولى الشيخ أبو حفص عمر الهنتاني وعظ الموحدين على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم ، وذكرهم بما يجب عليهم من اتباع أوامر دينهم ، واكتمال ولائهم وطاعتهم واشتغالهم بأمورهم عن الأحاديث العقيمة والخزعبلات . ولما تمت البيعة حسبما تقدم ، سار الخليفة الجديد مع أشياخ الموحدين إلى مراکش ، ونزل في دار الخلافة ، وتولى أخوه السيد أبو حفص الأمور السلطانية والحجابة على نحو ما كان مع أبيه ، وعن رضى من أخيه الخليفة الجديد . وحمل جثمان الخليفة الراحل إلى تينمائل ، في يوم الجمعة أول شعبان ، حيث دفن إلى جانب أستاذه وأمامه المهدي ، وفقاً لوصيته^(٢) .

تلك هي الرواية الراجحة في شأن تولية السيد أبي يعقوب يوسف للخلافة .

(١) ينقل صاحب روض القرطاس عن تاريخ وفاة عبد المؤمن ، روائي البيهقي وابن صاحب الصلاة (الثامن من جمادى الآخرة والعاشر منه) ، ويضمها ابن الأثير في العشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ (ج ١١ ص ١٠٩) . ويضمها ابن خلكان في المعش الأخرى من جمادى الآخرة (ج ١ ص ٣٩١) ، ويضمها المراكشي في السابع والعشرين من جمادى الآخرة (المعجب ص ١٣١) . ويضمها الزركشي في ليلة العاشر من جمادى الآخرة متفقاً مع ابن صاحب الصلاة . تاريخ الدولتين ص ٢٩ • (٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ٨٣ ، وابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة لوحة ٤٥ والبيان المغرب المسم الثالث ص ٥٨ و ٥٩ .

وهي الرواية الموحدية التي يقول بها مؤرخا الموحدين المعاصران ، البيهقي ، وابن صاحب الصلاة . بيد أن هناك رواية أخرى ، يقدمها إلينا ابن الأثير ، وهي أنه لما توفي عبد المؤمن بسلا ، كتبت وفاته ، وحمل من سلا إلى مراکش فوق محفة ، وكأنه مريض ، ولما وصل إلى مراکش استبد ابنه أبو حفص بشئون الحجابة ، وكان يصدر أوامره باسم أبيه ، ويقول للناس أمير المؤمنين أمر بكذا ، واستمر على ذلك حتى كملت البيعة لأخيه يوسف ، في سائر البلاد والنواحي ، واستقرت الأمور ، وعندئذ أظهر موت أبيه^(١). وينقل إلينا ابن خلكان رواية أخرى ، ينفرد بها في شأن محمد وأخيه يوسف فيقول إنه لما توفي عبد المؤمن خلفه ولده محمد ، وتولى الأمر مدة خمسة وأربعين يوما حتى شعبان سنة ٥٥٨ هـ ، ولكن سرعان ما اضطربت الأمور ، وظهر منه من اختلال الرأى ، وكثرة الطيش ، وجبن النفس ، ما أدى إلى خلعه ، وكان الذى سعى فى خلعه أخواه أبو حفص عمر ويوسف . ولما تم خلعه ، انحصر الأمر بين أخويه المذكورين ، فتأخر عمر ، وسلم الأمر إلى أخيه يوسف فبايعه الناس ، واتفقت عليه الكلمة^(٢) . وينقل إلينا المراكشى هذه الرواية فى المعجب^(٣). بيد أنه يبدو ، إزاء ما تؤكده لنا الرواية الموحدية المعاصرة ، أنها رواية ضعيفة لاسند لها .

كان الخليفة عبد المؤمن بن على ، عبقرية فذة ، تنطوى على طائفة من أبداع الخلال التي تصاغ منها العظمة والبطولة ، وقد شادت هذه العبقرية دولة من أعظم الدول الإسلامية ، تمتد من أواسط شبه الجزيرة الإسبانية شمالا حتى مشارف الصحراء الإفريقية الكبرى جنوبا ، ومن طرابلس الغرب شرقاً حتى شواطئ المحيط الأطلنطى غربا ، وشادتها فى ظروف صعبة ، وفى غمر الكفاح المضنى ، من إمارات وقبائل بربرية متنابهة مفترقة الكلمة ، لم تعرف خلال حياتها الطويلة معنى للنظام والاتحاد ، ولم تأنس لأى نوع من الخضوع والطاعة ،

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٠٩ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٣ . ويقول لنا ابن خلكان إنه نقل هذه الرواية من كتاب بخط الهاد بن جربيل أخى المعلم المصرى ناظر بيت المال بالديار المصرية . فيه فوائد من أخبار المغاربة وغيرهم .

(٣) المعجب ص ١٣١ .

فصاغ عبد المؤمن بعزمه ، وقوة نفسه ، وبراعته العسكرية والسياسية ، من هذه العناصر المضطربة الخبيثة ، كتلة متناسقة متعاونة متحدة : وأنشأ منها ، الدولة الموحدية الكبرى ، أعظم الدول المغربية إطلاقاً ، واستطاع أن يجعل من الدعوة المهدية أو الدعوة الموحدية ، ناموساً دينياً ، ودستوراً نظامياً ، تقوم عليه وتستمد منه ، مقوماتها السياسية والعسكرية .

وقد رأينا أن عبد المؤمن ، نشأ طالب علم متواضع ، تجتمع آماله حول التقدم في هذا المضمار ، والتقى بالمهدي ابن تومرت ، في بداية أمره ، وقبل أن تلوح لدعوته وتعاليمه أية بارقة أمل ، في التقدم أو الرسخ . ومع ذلك فقد ثبت إلى جانبه وشاطرته كل آلامه ومحنه ، وكل آماله ومشاريعه ، وغدا ساعده الأيمن في كفاحه . وكان هذا الاختصاص بالمهدي وإيثار المهدي لتلميذه الوفي ، من أهم العوامل ، التي مهدت لعبد المؤمن ، عند وفاة أستاذه وإمامه ، سبيل الاحتواء على تراثه ونخلافته . ولم تحب فراسة المهدي في تلميذه ، حينما قال لصحبه وهو في مرض موته عقب هزيمة البحيرة الساحقة ، إنه مادام عبد المؤمن قد سلم ، فسوف يبقى أمرهم . وقد شاء القدر أن يقوم عبد المؤمن بالمهمة الكبرى ، مهمة سحق الدولة المرابطية ، وإنشاء الدولة الموحدية الكبرى على أنقاضها ، وأنقاض الإمارات الإفريقية . وقد استمرت الدولة الموحدية حيناً ، تحتفظ بطابعها الروحي ، وأساسها الديني ، حتى عمّد عبد المؤمن بعد أن تضخم ملكه ، وتوطد سلطانه ونفوذه ، بين سائر الطوائف والقبائل ، إلى إنشاء السلطة الزمنية الوراثة ، بتعيين ولده لولاية العهد . وكانت هذه الخطوة أعظم تطور حدث في طبيعة الدولة الموحدية ، التي تغدو من ذلك الحين ، خلافة زمنية سياسية ، ويتضاءل أساسها الروحي . ويمكننا أن نعتبر الخلافة الموحدية المؤمنية ، أعظم خلافة قامت في الغرب الإسلامي ، وإن كانت خلافة قرطبة الأموية تتفوق عليها بنحواتها التمدنية والحضارية ، وأن نعتبر عبد المؤمن أعظم خلفاء الغرب الإسلامي ، وإن كان عبد الرحمن الناصر يتفوق عليه بنحواته المصقولة وخلاله الإنسانية ، بل نستطيع أن نعتبر أن عظمة الدولة الموحدية الكبرى تنحصر في عصر عبد المؤمن ، وولده أبي يعقوب يوسف ، وحفيده أبي يوسف يعقوب المنصور (٥٢٤ - ٥٩٥ هـ) ، وهي حقبة من سبعين عاماً ، تستنفد الدولة الموحدية فيها كل مصادر قوتها ، وعظمتها .

هذا وربما كان عبد المؤمن بخلاله العلمية ، وحياته العسكرية الحافلة بالغزوات

والفتوحات المظفرة ، أكثر الرؤساء شهباً بالمنصور بن أبي عامر ، فإن هاتين الصفتين هما أبرز ما في حياة كل من هذين الرجلين العظيمين ، وإن كانت غزوات المنصور تنسم قبل كل شيء بطابع الجهاد في سبيل الله .

ولم تحل نشأة عبد المؤمن العلمية دون تحوله في ميدان الحرب ، إلى قائد من أعظم قواد عصره ، وأشدّهم فروسة ، وأوفرهم شجاعة ، وإقداماً . كان عبد المؤمن بصيراً بطرائق الحرب ، وأساليب القتال ، وقد أنفق في غزواته وحروبه أكثر من ربع قرن ، ذرع فيها وهاد المغرب وقفاره ، من أقصاه إلى أقصاه ، شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، وخرج مكللاً بغار الظفر في معظم هذه الغزوات والحروب ، ولم يجتمع للملك من ملوك المغرب أو خليفة من خلفائه ، مثل ما اجتمع لعبد المؤمن من الحيوش الجرارة ، التي كانت تضم مئات الألوف من الفرسان والرجالة ، من مختلف القبائل البربرية والعربية ، وكان عبد المؤمن خلال الحروب والغزوات جندياً بمعنى الكلمة ، يشاطر جنده مشاق السير الوعر ، وتقشف حياة الميدان ، وكانت عادته في أسفاره أن يرحل بعد صلاة الصبح ، بعد أن يُضرب طبل ضخّم ثلاث ضربات ليبدأ بالرحيل ، وكانت حركة الحيوش الموحدية تجرى عندئذ وفق النظام الذي رسمه المهدي لمسيرها ، فيتقدمها اللواء الموحدى الأبيض مع فرقة من الرجالة يكون بينها وبين الأمير نحو ربع ميل ، ثم يسير الأمير أو الخليفة خلف اللواء المذكور تحف به خاصته ووزراؤه ، ثم تتبعهم الرايات الكبار والطبول وجند الساقة ، ثم جند كل قبيل بترتيب خاص (١) . وكان عبد المؤمن في معظم الأحيان يرسم خطط المعارك بنفسه ، وربما قاد جنده ، واشترك معهم في القتال .

وكان عبد المؤمن إلى جانب هذه الصفات العسكرية البارزة ، من أعقل أهل عصره وأوفرهم ذكاء وحكمة ، وكان حازماً سديد الرأي حسن السياسة ، واسع الخيلة ، يعالج الأمور الصعبة بكثير من الفطنة والكياسة .

وكان مما فعله عبد المؤمن لتنظيم أصحاب المهدي وطوائف الموحدين ، بعد تعاقب الحوادث ، وفقد الكثير من أهل الجماعة وأهل خمسين وأهل سبعين ، أن استدعى أشياخ القبائل الموحدية من المصامدة وغيرهم إلى مراكش ، ولما اكتمل دورهم ، أعلن تصنيف الموحدين إلى ثلاث طوائف أو طبقات ، الأولى ،

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط لوحة ٤٣ ب) .

هم « السابقون الأولون » الذين بايعوا الإمام المهدي وصحبوه وغزوا معه ، وصلوا خلفه ، والذين شاهدوا واقعة البحيرة واشتركوا فيها ، ويتلو هذه الطبقة من آمن بالتوحيد ، ودخل في زمرة الموحدين من بعد البحيرة إلى فتح وهران (سنة ٥٣٩ هـ) ، وتتكون الطبقة الثالثة ممن انتظم في سلك الموحدين من فتح وهران إلى ما هلم جرا ، وقد تم هذا التصنيف الجديد بعد أن روعيت فيه كل الاعتبارات ، من الزلف والقرب والعدالة وغيرها ، لتعرف كل طبقة مكانتها ومركزها (١) .

وقد أسبغ عبد المؤمن سياسته في تأليف القبائل المختلفة ، وإدماجها في الجيش الموحدى الضخم ، على هذا الجيش وحدة وتناسقاً ، لم تعرفها الجيوش المغربية من قبل . بيد أنه لم يكن موفقاً في سياسته لتأليف القبائل العربية ، وضمها للقوات الموحدية . ذلك أن هذه الفرق العربية التي استمرت عصراً تكون جناحاً هاماً في الجيوش الموحدية بالمغرب والأندلس ، كانت متعيرة الولاء كثيرة التقلب ، لا تدين بمبدأ ولا عقيدة ، سوى انتهاز الفرص ، والكسب المادى الرخيص ، وكان تقاعسها وتقلبها في حروب إفريقية ، فيما بعد أيام الخليفة أبى يعقوب يوسف وولده يعقوب المنصور من أهم الأسباب ، في نجاح ثورة بنى غانية في إفريقية ، وتغلبهم على معظم نواحيها ، وفي تخاذل الجيوش الموحدية ، في معظم المعارك التي خاضتها إلى جانبها .

وأما عن نظم الحكم والإدارة ، فقد كان عبد المؤمن ، وهو مؤسس الدولة الموحدية الحقيقي ، أول من وضع القواعد والنظم التي يسترشد بها في تسيير دفة الحكم ، وفي تطبيق السياسة الشرعية ، وفي جباية الأموال . وقد انتهت إلينا في ذلك رسالة هامة من إنشاء الكاتب أبى جعفر بن عطية ، وجهها الخليفة من تينمائل في السادس عشر من ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ ، إلى الطلبة والمشيخة والأعيان والكافة بالأندلس ، وفيها يبسط ما يمكن أن يسمى بالأسس الدستورية لنظم الحكم الموحدى ، ونحن نورد فيما يلي ملخصاً لما احتوته هذه الرسالة الدستورية الهامة ، التي يتفرد ابن القطان بإيرادها .

١ - يقول الخليفة ، إنه اتصل به أن بعض العمال ممن لا يخافون الله ، يتسلطون بأهوائهم على الأموال والإبشار ، ويستحلون حرمة المسلمين ، وينقضون

(١) راجع الرسالة الثانية عشرة من « رسائل موحدية » ص ٥٣ و ٥٤ .

أحكام الشرع ، ويتبدعون مظالم شنيعة ، ويستنبطون من فواحش الآثام صنوفاً فظيعة ، ويتسببون في قتل المسلمين ، فضلاً عن استباحة أموالهم وأعراضهم بتلبسات يسيئون بها ، ويمدون أيديهم بضرب الناس بالسياط وسيلة إلى أخذ أموالهم . وهو ينذر هؤلاء بشر العقاب ، ويقول ، إن لمن يستوجب الضرب أو يستحقه حدود معلومة ، ومواقف مرسومة ، تقابل كلا بمقتضى جرمه .

٢ — وأنه قد ذكر له في أمر المغارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسي وغيرها ، مظالم وكبائر عظيمة ، ثم يتساءل ألم يقم الأمر العالِي لقطع أسباب الظلم وإجراء العدل .

ومن ذلك ما ذكر في أمر المسافرين الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم ، فإن بعض هؤلاء الظلمة ، يزعمون لهم أن للمخزن حقوق تمتد إلى جميع ما أتى به ، ثم يضطروه بالوعيد إلى الخروج عن جزء كبير من ماله ، ويسائل الخليفة الموحد والطلبة ، كيف تقع هذه الأمور ، وهم يرصدون الشئون ، وكيف تسفك الدماء على هذه الصورة ، وتنهك الحرمات ، وهم لا يمتعضون .

٣ — وأنه ليجول بخاطره ، أن أسباب تلك المنكرات ، هو أن قوماً يتوسطون بينهم وبين الناس ، وينقلون الأمور إليهم بطريق التدليس ، وذلك لبعدهم عن مباشرة الأمور ، ثم ينصحهم بأن لا يتركوا مباشرة الأمور إلى أحد سواهم ، وأنه يجب عليهم أن يباشروا الأحكام مباشرة تعهد وتفقد ، وأنهم في ذلك يجب أن يتذرعوا بالحزم والاعتدال وسلوك الطريق الوسط ، والتواضع لأمر الله تعالى وترك الاستعلاء المنتقد ، وعليهم أن يبحثوا عن المتسببين في وقوع تلك القبائح ، وأن يعرفوه بأمرهم ليقوم بعقابهم .

٤ — ثم يقول الخليفة : « وقد استعزنا الله في سد تلك الذريعة ، وصدد تلك الأفعال الشنيعة ، فرأينا أن ترفعوا إلينا أحكام المذنبين للكبائر ، وتعلمونا نبأ كل من ترون أنه يستوجب القتل بفعله الخاسر ، دون أن تقيموا الحد عليه ، أو تبادروا بالعقاب إليه ، ولا سبيل لكم إلى قتل أحد من كل من هو في بلاد الموحدين وأنظارهم ، ومن هو معهم داخل في مضارهم ، وكل من ترون أنه يستوجب القتل ، ممن يريد المكر في أمر الله تعالى والختل ، فعفرؤنا بحليلة أمره وتصحيحه ، وخطبونا بميز أمره ومشروحه ، لينفذ فيه من قبلنا ما يوجب الحق ويمقتضيه ، ونغضى في عقابه ما ينفذه الشرع ويمقتضيه . فإياكم من مخالفة أمرنا

هذا في قتل أحد من ذكرنا كائناً من كان ، كبر ذنبه عندكم أو هان ، ولتبادروا إلى إعلاننا بذنبه بعد سجنه وتثقيفه لنقابله بما نراه ، ونجربى الحق فيه مجراه .

٥ - وأنه قد بلغه أن يقع بيع النساء بصورة تخالف حكم الشرع ، وأنه يوجد من يتتاع المرأة ثم يبيعهها دون استبراء ، وأنه لا يتحفظ في ذلك من موقعة الزنا المحض ، وأنه يجب ألا يتولى أمر بيع النساء إلا من اتصف بالدين والأمانة ، فهو الذى يشرف على أسواق بيعهن . ثم إنه يجب التوقف عن بيع النساء في جميع من يغنمن منهن ، حتى يخاطب بأصل أمرهن وكيفيته ، ليرسم لهم فيها ما يجب اتباعه .

٦ - ويحض الخليفة على مطاردة الخمر ، والاجتهاد في إراقها وكسر دنائها ، واختيار الأمناء الذين يسهرون على ذلك ، وتعهدهم لمواضع « الرُّب » واعتصامه ، وأن لا يبيحوا من ذلك إلا ما تجوز بإباحته شرعاً .

٧ - وأنه قد ذكر له أن الراقصين (الزسل) الذين يردون بالكتب . ويصدرون ، يأخذون الناس بالنظر في كلفهم ، ويلزومهم بزادهم وعلفهم في كل موضع ، ويحلون بأفنية الناس حلولاً شنيعاً ، ويتحكمون عليهم بحكم المغرم ، ويطلب إليهم المسارعة في قطع تلك العادة الذميمة ، وتزويد الرسل بما يقوم بأودهم في الحجيء والانصراف ، ويقطع شأنهم من التكليف والإلحاف ، وتحذيرهم من تكليف أحد من الناس بأى شيء .

٨ - وأنه قد ذكر له ما يقع من التحكم في الأموال ، وعدم المبالاة بالتفريق فيها بين الحرام والحلال ، وأن هناك من يفعلون بأموال الناس ما تقدم ، وتمتد أيديهم إلى المخازن فيعيثون بها ، ويجروئون في التعدى عليها ، ويطلب إليهم أن يتقوا الله في أموال « الخزن » ووجوب السهر على صونها ، وحمايتها من التعدى عليها ، إذ هي أموال الله الخزونة في أرضه ، وأنه يجب عليهم ألا ينفذوا منها قليلاً ولا كثيراً إلا بعد استئذانه وتعريفه .

٩ - هذا ، وأنه يجب عليهم اتباع كل ما جاء في هذا الكتاب بدقة وأن يجمعوا لقراءته والاطلاع ، عليه سائر الطلبة والعمال ، وكافة المقدمين للأعمال ، وأن تكتب منه نسخ لكل قبيلة من قبائل أقطار الموحدين ، وكل كورة من الكور ، وينذر من لم يتبع ما جاء فيه بشر العقاب .

ويختتم الخليفة كتابه بقوله ، إنه لا غرض له إلا أن يحقق دعة المسلمين وأمانهم ، وأنه يجب أن يعلموا أن الموحدين ، مسئولون عن هذه الرعاية ، وأنهم يجب أن

يكونوا إخواناً فضلاء ، لعباد الله ، وأن يعاملوا الناس بالحسنى ، وأن يغدقوا عليهم المبرات ، وأن هذا هو واجبهم ، وأن هذه نصيحته ، فليقبلوها .

وأنه كان مما دعاه إلى تنبيههم وتذكيرهم بما تقدم ، ما وجدته بحضرة مراکش من تلك الأنواع التي أحدثها أهل الابتداع مثل القبالة وما يجري مجراها ، وأنه لم يكن يدور بخلده أن يسلك أحد مثل هذا المسلك ، وأنه أنكر ما وجدته منه ، وقام بإزالة ما يحظره الشرع ^(١) .

وقد لبث عبد المؤمن بالرغم من غلبة الحرب والجهاد على حياته ، محتفظاً بسمته وخلاله العلمية . كان عبد المؤمن فقيهاً بارعاً حافظاً للسنة ، وعالمياً متمكناً من علوم الدين ، ولا سيما علم الأصول الذي تلقاه عن المهدي ابن تومرت ، وكان يقوم بإملاء علوم المهدي وقراءة العقائد ، وكتاب الموطأ ، وكان محباً للعلماء مؤثراً لهم ، مقبلاً على مجالستهم ، محسناً إليهم ، يستدعيهم من سائر البلاد ليسكنوا بالحضرة إلى جواره ، ولينظموا في مجلسه ، ويجري عليهم الأرزاق السخية ، ويعظم من شأنهم ومكانتهم . وكان في الوقت نفسه يعنى أشد العناية بأمر الطلبة والحفاظ ، ويقسمهم إلى طائفتين ، طلبة الموحدين ، وطلبة الحضر ، والطائفة الأولى هي طلبة المصامدة ، بعد أن سمي المهدي المصامدة بالموحدين ، لخوضهم في علم الأصول ، الذي لم يكن أحد من أهل هذه الأنحاء يخوض فيه ^(٢) . واستقدم عبد المؤمن في نفس الوقت صغار الصبيان النجباء من مختلف قواعد المغرب ، والأندلس ، من إشبيلية وقرطبة وفاس وتلمسان وغيرها — إلى حضرته ، وكان منهم من إشبيلية وحدها خمسون صبياً ، حضروا إلى مراکش مع أستاذهم أبي الحسن وأبي بكر الحصار ، وعنى الخليفة بأمر هؤلاء التلاميذ الصغار أتم عناية ، وأنزلهم أكرم منزل ، وأمر بأن يحفظوا القرآن ، وكتب التوحيد وموطأ المهدي وصحيح مسلم وغيرها ^(٣) . وعنى عبد المؤمن بأمر الحفاظ أشد عناية ، وأمر بأن يحفظوا كتابي الموطأ ، وأعز ما يطلب ، وغيرهما من آثار المهدي ، وكان يستدعيهم في كل يوم جمعة إلى داخل القصر ، وهم نحو ثلاثة آلاف حافظ ،

(١) أورد لنا ابن القطان نص هذه الرسالة كاملاً في « نظم الجمان » وهي تقع في عدة صفحات (المخطوط لوحة ٥٦ ب إلى ١٦٥) . وسوف ننشرها في باب الوثائق .

(٢) المراكشي في المعجب ص ١١٢ ، وروض القرطاس ص ١٣٣ .

(٣) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط لوحة ١٥٣) .

فيوجههم إلى ما يبغيه من سرعة الحفظ والتدريب ، فيأخذهم يوماً بتعلم الركوب ، ويوماً بالرمي بالقسي ، ويوماً بالسباحة في بحيرة أنشأها لهم خارج بستانه ، في مربع ضلعه نحو ثلاثمائة ذراع ، ويوماً بالتدرب على إصابة الهدف ، على قوار وخوازيق صنعها لهم بتلك البحيرة ، وذلك لكي يجعل منهم رجالاً مثقفين ، مدربين مقتدرين . وكانت نفقتهم وسائر مؤنهم وخيلهم ، وعُددهم ، كلها من عنده . وفضلا عن ذلك ، فقد قرر عبد المؤمن ، بموافقة أشياخ الموحدين ، أن يدفع لكل طالب من هؤلاء قرضاً يتجر به إسعافاً لهم ، وصرف لكل منهم من مال الخزن قرضاً قدره ألف دينار ، فتاجروا وأثروا ، ولم يسترد منهم هذا القرض قط^(١) . ولما كمل تدريبهم ، وأصبحوا طائفة يعتمد على علمها فدربتها وخبرتها ، ندهم لختلف الأعمال والرياسة بدلا من أشياخ الموحدين ، وقال لهم إن العلماء أولى منكم ، واستبقي الأشياخ لمشورته^(٢) . وقد رأينا فيما تقدم كيف ندب كثير من أولئك الحفاظ لأعمال الإدارة والرياسة ، في كثير من القواعد الأندلسية المفتوحة ، وهم سوف يشغلون من الآن فصاعداً حيزاً كبيراً ، في أعمال الولاية والرياسة ، في أنحاء الدولة الموحدية .

وكان عبد المؤمن فوق ذلك ، كاتباً بليغاً ، وأديباً ضليعاً ، إماماً في النحو واللغة ، حافظاً للتاريخ وأيام الناس ، وشاعراً ينظم الشعر الجيد ، وقد أورد لنا صاحب روض القرطاس له مطارحة شعرية مع وزيره ابن عطية^(٣) ، وذكر صاحب الحلل الموشية ، أن عبد المؤمن حينما هنأه أبو عبد الله الجياني يوم انتصاره على المرابطين بفحص مراکش بقصيدة أولها :

أضاءت لنا الأيام واتصل النجج وكانت وجوه الدهر مسودة كلح
أجابه عبد المؤمن بقوله :

هو الفتح لا يحملو غرائبه الشرح أصاب بني التجسيم من بأسه طرح
اتنسا به البشرى على حين غفلة بمهلك قوم كان وعدهم الصبح
وكان ممن وفد على عبد المؤمن من أدباء العصر وشعرائه ، أبو العباس أحمد

(١) ابن القطان في نظم الجان (المخطوط لوحة ٥٢ ب) .

(٢) الحلل الموشية ص ١١٤ .

(٣) روض القرطاس ص ١٣٣ .

ابن عبد السلام الجراوى الشاعر ، وهو ينتمى إلى قبيلة جرّاء البربرية ، التى توجد منازلها على مقربة من مليلة ، وكان أديباً بارعاً وشاعراً جزلاً فحظى لديه ، ثم لدى أولاده من بعده ، وغدا شاعر البلاط الموحدى الأثير ، وظهر بمدائحهم للخلفاء المتعاقبين حتى عهد الناصر ، وألف للخليفة المنصور كتابه « صفوة الأدب » حسبما نذكر بعد :

ووجه أبو عبد الرحمن بن طاهر صاحب مرسية المخلوع إلى عبد المؤمن رسالته الشهيرة « الكافية » فى إثبات أمر المهدي بالدليل والبرهان فى صورة مناقشة بين النفس مطمئنة ، والنفس الأمانة بالسوء . وقد أورد لنا ابن القطان نص هذه الرسالة ، وسوف نعود إلى ذكرها .

وكان عبد المؤمن شديداً صارماً ، فى تطبيق أحكام الدين ، ولا سيما فى تأدية الصلاة فى أوقاتها ، وفى إيتاء الزكاة ، وتحريم الخمر ، وإقامة الحد على شاربيها ، وكان يذهب فى صرامته إلى قتل تارك انصلاة أو شارب الخمر ، وكان فوق ذلك ورعاً ، كثير التلاوة والخشوع .

وكان متمزناً صارماً فى سياسته نحو النصارى واليهود . ونحن نعرف أن الدولة الموحدية قامت على أسس دينية خاصة ، وكان من الطبيعى ، وهى تحارب خصومها من المسلمين الخارجين على عقيدة التوحيد ، أن تكون شديدة الوطأة على النصارى واليهود . ولما توطدت الدولة الموحدية بالمغرب ، وبسطة سيادتها على معظم قواعد الأندلس ، أصدر عبد المؤمن قراراً بوجوب خروج النصارى واليهود من أراضى الدولة الموحدية ، وحدد لهم فيه أجلاً لمغادرة البلاد ، إلا من أسلم منهم ، فهؤلاء يصبحون رعايا ، لهم ما للمسلمين الخلص وعليهم ما عليهم ؛ ومن بقى من النصارى أو اليهود بعد الأجل المضروب ولم يعتنق الإسلام ، فقد حل دمه وماله . وكان من جراء هذا القرار أن غادر المغرب والأندلس كثير من النصارى واليهود الخائفين أى الذين لا تثقلهم أعباء الأسرة والأعمال ، وبقى منهم من ثقلت أعباؤه ، وتظاهروا باعتناق الإسلام إنقاذاً لأنفسهم وأموالهم ، ومما يذكر أنه كان بين هؤلاء العلامة الفيلسوف والطبيب اليهودى الكبير موسى بن ميمون ، وكان من أهل قرطبة ، فتظاهر عند صدور القرار باعتناق الإسلام ، والقيام بأداء شعائره . حتى مكنته الفرصة من مغادرة الأندلس مع أهله ، فقصده إلى مصر ،

وخدم في بلاطها ، وعين طبيباً خاصاً للسلطان صلاح الدين ، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ م)^(١)

وكان عبد المؤمن بالرغم من نشأته وسمته الفقهية المتواضعة ، رئيساً وافر الهبة والجلال ، وهو ما يشير إليه المراكشي في قوله : « كان عبد المؤمن في نفسه سرى الهمة ، نزيه النفس ، شديد الملوكية ، وكأنه كان ورثها كابراً عن كابر ، لا يرضى إلا بمعالى الأمور »^(٢) .

* * *

ولكن عبد المؤمن كان إلى جانب هذه الخلال البديعة كلها ، يتسم بالقسوة وسفك الدماء . وهذا ما ينوه به مؤرخ ناقد مثل ابن الأثير ، إذ يقول لنا : إن عبد المؤمن كان كثير السفك لدماء المسلمين على الذنب الصغير^(٣) . وقد سبق أن أشرنا إلى هذه الصفة القائمة من صفات عبد المؤمن ، وسردنا خلال استعراضنا لمراحل حياته ، كثيراً من الحوادث الدموية التي سالت فيها الدماء غزيرة على يديه ، وقد كان أروع ما وقع منها حادثة الاعتراف الشهيرة ، التي تم فيها تطهير القبائل ، وفقاً لجرائد أعدها عبد المؤمن بنفسه ، وتضمنت ألوفاً مؤلفة من الضحايا ، التي أعدمت تنفيذاً لأوامره (سنة ٥٥٤ هـ) . وقد سبق أن علقنا على هذه الحادثة وأمثالها ، من الصفحات الدموية ، التي توالى في عهد عبد المؤمن وعلى يديه . ونود أن نضيف هنا ، أن هذه الظاهرة الدموية ، كانت أصلاً راسخاً من أصول الدعوة المهدية ، وأن المهدي ابن تومرت ، كان من أشد الدعاة دعوة إلى سفك دماء خصومه ، وقد أبدى في تطبيقها قسوة تدنو إلى الوحشية . ومن وجهة أخرى فإنه يمكن القول بأن سفك الدماء وسيلة مأثورة من وسائل تدعيم الطغيان ، يلجأ إليها الطغاة في كل عصر ، وكل قطر ، وقد كان عبد المؤمن طاغية من أعظم طغاة العصور الوسطى ، فليس بمستغرب أن يكون القتل الذريع وسيلة لتأييد سلطانه المطلق ، وإن يكن قد ذهب في ذلك إلى حدود مثيرة مروعة .

* * *

(١) القفطى في بأخبار العلماء بأخبار الحكماء ، في ترجمة موسى بن ميمون (القاهرة ١٣٢٦ هـ)

ص ٢٠٩ .

(٢) راجع المعجب ص ١١٢

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٠٩ .

وقد اعتمد عبد المؤمن في تنظيم دولته ، وتسيير حكومته ، وقيادة عسكره ، على طائفة مختلطة من الكتاب والقادة من مختلف القبائل ، وأهل المغرب والأندلس . وقد كان من الواضح أن أصحاب المهدي وأشياخ الموحدين من المصامدة ، وغيرهم من القبائل البدائية الموالية ، وإن كان يمكن الاعتماد عليهم في شئون الدعوة وفي بعض القيادات العسكرية ، فإنه لا يمكن أن يعتمد عليهم وحدهم في بناء الدولة الموحدية ، وتوطيد قواعدها . ومن ثم فإن عبد المؤمن لم يتردد في أن يستخدم في حكومته وفي قيادته ، كثيراً من أولياء الدولة المرابطية السابقة من لمتونة ومسوفة ، ومن أهل الأندلس ، مثل علي بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول المرابطي السابق ، وبرزاز بن محمد المسوفي ، وقد كان من أبرز القادة المرابطين ، ومثل الكاتب أبي جعفر بن عطية وأخيه عقيل بن عطية ، وقد كانا من كتاب الدولة اللمتونية ، وميمون الهواري . واستخدم عبد المؤمن من أهل الأندلس اكتابته أخيل بن إدريس الرندي صاحب رندة السابق ، وقد كان أيضاً من كتاب الدولة اللمتونية ، وأبا الحسن بن عياش القرطبي ، وأبا بكر بن ميمون القرطبي ، والخطيب أبا الحسن بن الإشبيلي ، وصاحبه الخطيب أبا محمد عبد الله بن جبل . وقد كان الاعتماد على معاونة الوزراء والكتاب الأندلسيين ، في بلاط مراکش ، مبدأ مقررأ منذ أوائل الدولة المرابطية ، وذلك لما كانوا يمتازون به في هذا الميدان من المواهب والصفات المصقولة ، ولما كان لأعمال الوزارة وشئون الكتابة بالأندلس من التقاليد الخلية الرائجة ، والأساليب المشرقة العالية . وسوف نرى فيما بعد ، كيف يمثل أقطاب الكتاب والعلماء والمفكرين بالأندلس ، بقية القرن السادس الهجري ، بين وزراء الدولة الموحدية وكتابها البارزين .

وقد وزر لعبد المؤمن الكاتب أبو جعفر بن عطية ، ثم أبو محمد عبد السلام ابن محمد الكومي ، ثم ولده السيد أبو حفص ، ومعاونه أبو العلا إدريس ابن ابراهيم بن جامع ، وهو الذي تولى الوزارة بعد وفاته ، لولده الخليفة الجديد أبي يعقوب يوسف .

وتولى القضاء في عهده ، صهره أبو عمران موسى بن سليمان الضرير من أهل تينملل ومن أصحاب خسن ، وأبو الحجاج يوسف بن عمر .

وعنى عبد المؤمن بالشئون المالية بنوع خاص ، ولقى في تنظيمها صعاباً ومتاعب . وكانت مسألة الفروض أو « الجبايات » التي يتكون منها دخل الحكومة

الموحدية من المسائل الدقيقة ، التي واجهت عبد المؤمن . وقد كانت مسألة المكوس والمغارم التي تفرضها الدولة المرابطية على رعاياها ، من المسائل التي شهّر بها المهدي ابن تومرت ، وعددها بين مثالب المرابطين ، باعتبارها مغارم غير شرعية يحرمها الكتاب والسنة . وكانت الدولة الموحدية في البداية تحرص على ألا تحيد عن تطبيق هذا المبدأ في فرض الجبايات ، وتلغى سائر المغارم المحرمة ، وتكتفي بتحصيل الزكاة والأعشار ، وهذا ما يسجله الخليفة عبد المؤمن في رسالته التي بعث بها عقب فتح بجاية سنة ٤٤٧ هـ ، إلى أهل قسنطينة ، يدعّوهم إلى الطاعة ، ويذكرهم بما هو مفروض عليهم منذ أيام « أهل الاختلاق والابتداع » من « القبالات والمكوس والمغارم وسائر تلك الأنواع » ، وأن الله قد أراح الناس بالتوحيد ، من تلك المغارم ، وأنه سوف لا يطلب إليهم إلا ما أوجب الله ، وما توجهه السنة من « الزكوات ، والأعشار »^(١) . وقد كان ما استولى عليه الموحدون من ثروات الدولة المرابطية وذنخائرها ، في المغرب والأندلس ، وما كانوا يحصلونه من غنائم خصومهم المهزومين ، يكفي في البداية لمواجهة نفقات الحرب والإدارة . بيد أنه لما اتسع نطاق الغزوات والفتوحات في المغرب والأندلس ، وتضاعف عدد الجيوش الموحدية الغازية ، اضطر عبد المؤمن إلى التماس مصادر أخرى للنفقة ، فكان مما استحدثه ، ما نقله إلينا صاحب روض القرطاس ، من أنه أمر بمسح بلاد إفريقية والمغرب من برقة ، إلى السوس الأقصى ، بالفراسخ ، والأميال ، طولا وعرضا ، وأسقط من هذه المساحة مقدار الثلث مقابل الجبال والأنهار والطرق وغيرها من التوالف ، وما بقي فرض عليه الخراج ، وألزم كل قبيلة بأن تؤدي قسطها من الزرع والمال ، وهكذا تحررت السياسة المالية الموحدية ، من الجمود الذي فرضته عليها تعاليم المهدي ، ولتتطور مع مقتضيات ما تحتاج إليه الدولة من ضروب النفقة العسكرية والإدارية .

* * *

وترك عبد المؤمن من الولد ستة عشر من البنين ، وهم أبو يعقوب يوسف الخليفة من بعده ، وأبو حفص عمر ، وأبو عبد الله محمد المخلوع من ولاية العهد ، وأبو محمد عبد الله والي بجاية ، وأبو سعيد عثمان والي غرناطة وقرطبة ، وأبو علي الحسن ، وأبو علي الحسين ، وأبو الربيع سليمان ، وأبو زكريا يحيى ،

(١) مجموعة الرسائل الموحدية - الرسالة السادسة - ص ٢١ و ٢٢ .

وأبو إبراهيم اسماعيل ، وأبو إسحق إبراهيم ، وأبو يوسف يعقوب ، وأبو زيد عبد الرحمن ، وأبو سليمان داود ، وأبو موسى عيسى ، وأبو العباس أحمد ، وترك من البنات اثنتين هما صفية وعائشة^(١) .

هذا ولدنا عن أوصاف شخص عبد المؤمن ، فقرتان ، نقل إلينا أولاها ، ابن خلكان عن مؤلف في سيرة عبد المؤمن ، وفيها أن عبد المؤمن ، « كان شيخاً معتدل القامة ، عظيم الهامة ، أشهل العينين ، كث اللحية ، شثن الكفين ، طويل القعدة ، واضح بياض الأسنان ، بخذه الأيمن نجال »^(٢) .

ويقول في الثانية صاحب روض القرطاس : « كان أبيض اللون شرباً بحمرة ، أكحل العينين ، أجعد ، تام القد ، له وفرة تبلغ شمة أذنه ، أزج الحاجبين ، ملائم الأنف ، عريضه ، مستدير اللحية »^(٣) .

(١) ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة لوحة ٤٢ ب ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٥٦ .

(٢) ابن خلكان في وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٩١ .

(٣) روض القرطاس ص ١٣٣ .

الكتاب الرابع

نظم الدولة المرابطية
وخواص العهد المرابطي

الفصل الأول

طبيعة الحكم المراتبي وأوضاعه العسكرية والإدارية والمالية

الطابع الديني للدولة المراتبية . استنثار الفقهاء بالنفوذ . ما ترتب على ذلك من الفساد . ضعف الفقهاء وانصرافهم إلى علم الفروع . الطابع العسكري للدولة المراتبية . نزعها إلى الجهاد . تضائل منعتها العسكرية . الدولة المراتبية إمارة ملكية . طابعها الملك الوراثي . عمالات المغرب والأندلس في عهد المراتبيين . قرطبة مركز الحكم المراتبي . ولايات الأندلس للوى القربي . تولى الأندلسيين المناصب القضاء . القضاة زعماء الثورة فيما بعد . استنثارهم بمناصب الكتابة . لمتونة وشجاعها في القتال . الجيش عماد الدولة المراتبية . تنظيمه وتكوينه . النصاري المرتزقة . ترتيب المعركة عند المراتبيين . القوات الأندلسية . النزعة الجهادية وتضاهها . الجيش المراتبي بالأندلس . الأساطيل المراتبية . السياسة المالية ونظم الجباية . الضغط على اليهود . التوسع في الجبايات والقبالات أيام على . الدولة المراتبية ووسائلها في الحكم . حملة العلامة دوزي على المراتبيين . ما يطبع هذه الحملة من تحامل . رأى العلامة كوديرا . أقوال المراكشي . قول في مديح المراتبيين وعهدهم . شرح لاسباب هذه الحملة ضد المراتبيين . الفتح المراتبي الأندلسي وما تحلله من فظائع . قسوة أمير المسلمين نحو المعتد . مطاردة كتب الدين والفلسفة . حملة المهدي ابن تومرت . فضل المراتبيين في الجهاد وإنقاذ الأندلس . تقاعسهم في حرب الإسرداد . مسئوليتهم في سقوط سرقسطة . حكم المراتبيين للأندلس . طابعه العسكري الخشن . وثائق رسمية تؤيد اهتمام على بن يوسف بشئون الأندلس والدود عنها . توصياته بشأن الحكم . اهتمامه بتجنب الاستبداد ، واتباع الرفق والعدل . اهتمامه بأمر القضاء . توصيته بحسن اختيار القضاة . حجر المراتبيين على حرية الفكر . مطاردتهم لكتب الأصول وكتب الفرائض . إصرارهم على هذه المطاردة حتى أواخر عهدهم . مطاردتهم لكتب الكلام والفلسفة . عيث الخند والعبيد المراتبيين . ملاحظات ابن عبدون على ذلك . اشتداد وطأة الحكم المراتبي وأسباب ذلك . الحكم على العصر المراتبي والمبالغة في ذلك . تعليق الأستاذ كوديرا . أحوال الشعب في ظل الحكم المراتبي . الأمة الأندلسية وتحريرها من مظالم الجباية . تمتعها بنوع من الاستقرار والرخاء . وحدة المغرب واستقراره . ما شمله من تعمير ورخاء . الاضطراب والفوضى منذ حركة المهدي .

كان مصرع الدولة المراتبية ، حادثاً من أهم الحوادث ، الحاسمة في تاريخ المغرب والأندلس ، وكان نتيجة لعوامل عديدة ، عسكرية وسياسية واجتماعية . وسوف نحاول في هذا الفصل ، أن نستعرض هذه العوامل ، التي أدت إلى سقوط هذه الدولة العظيمة الشاحنة ، التي شادتها عبقرية يوسف بن تاشفين ، وهي ما تزال في عنفوان فتوتها ، ولما يمحض على قيامها وتوطدها أكثر من نصف قرن ،

وأن نستعرض في نفس الوقت ، طرفاً من المبادئ والنظم التي سار عليها بنو تاشفين في حكم إمبراطوريتهم العظيمة بالمغرب والأندلس ، ومن الظروف والأحوال الحضارية التي عاشت في ظلها .

قامت الدولة المرابطية ، حسب رأينا على أساس من العقيدة الدينية ، وكان منشؤها الروحي فقيه متعصب ، هو عبد الله بن ياسين الجزولي . واحتفظت هذا الطابع الديني معظم حياتها ، وكان يتخذ منذ البداية صورته العملية ، في سيطرة الفقهاء على شئون الدولة وتوجيهها ، وفي اتجاه الحيوث المرابطية ، في المراحل الأولى من حياة الدولة إلى أعمال الجهاد ، سواء في المغرب أو الأندلس . وكان نفوذ الفقهاء في تسيير الدولة المرابطية ، يتخذ أيام يوسف بن تاشفين ، صورة الشورى ، فكان العاهل المغربي يستفتيهم في الخطير من الأمور ، لا استفتاء المستسلم الخانع ، ولكن استفتاء الحذر المستنير ، الذي يحاول أن يطمئن على سلامة تصرفاته ، وأن يلتزم لها السند الشرعي . ولكن هذا النفوذ لم يلبث أن غدا في عهد ولده علي ، نوعاً من الدكتاتورية الدينية (ثيوقراطية) . ولم يكن لعلي بن يوسف ، بالرغم من ذكائه وقبيل صفاته ، وبالرغم من ورعه وتقواه ، من العزم والحزم ، ما يكفي لمغالبة هذا النفوذ الخارف . وهذا ما يصوره لنا المراكشي ، عند حديثه عن علي بن يوسف ، في تلك الفترة التي تبرز لنا روح الحكم المرابطي على حقيقتها : « وكان (أي علي بن يوسف) حسن السيرة ، جيد الطوية ، نزيه النفس ، بعيداً عن الظلم ، كان إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين ، أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين . واشتد إثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولي أحداً من قضائه ، كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ، ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير ، إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً ، لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس . ولم يزل الفقهاء على ذلك ، وأمور المسلمين راجعة إليهم ، واحكامهم صغيرها وكبيرها ، موقوفة عليهم ، طول مدته . فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا ، وانصرفت وجوه الناس إليهم ، فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم » .

وفي ذلك أيضاً يقول شاعر من شعراء العصر ، هو أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن النبي ، من أهل مدينة جيان :

أهل الديار لبستموا ناموسكم كالذئب أولوج في الظلام العاتم
فلكتموا الدنيا بمذهب مالك وقسمتموا الأموال بابين القاسم
وركبتموا شهب الدواب بأشهب وبأصبع صبغت لكم في العالم^(١)
كانت هذه الثيوقراطية أو الدكتاتورية الدينية ، وما ترتب عليها من مثالب
وأهواء لا مفر منها ، أهم عامل في ضعف الحكم المرباطي وفساده ، وكان من
جاء ذلك أن تحولت المزية الرئيسية ، لصفة الدولة المرباطية ، وهى الأساس
الدينى المفرق ، إلى عنصر من عناصر الانحلال الخطر ، واستحالت فضائل التقى
والزهد والورع ، لدى الأمير ، إلى نوع من الخضوع الأعشى ، لطائفة ، لا تؤمن
مطامعها وأهواؤها ، هى طائفة الفقهاء ، الذين غدوا يسيطرون على الأمير ،
ويحكمون الدولة ، لامن وراء ستار فقط ، ولكن كذلك فى نوع من الجهر ،
وفقاً لهذه المطامع والأهواء . أضف إلى ذلك أن هذه الطائفة كانت إلى جانب
هذا الاستغلال لنقودها الدينى ، تتسم خلال العهد المرباطي بالقصور وضيق
الآفق ، ولم تكن على شىء من ذلك التعمق العلمى ، الذى كان يمتاز به جيل
الفقهاء القدامى ، أيام الدولة الأموية ، فى دراسة الشريعة وأصول الدين ، وذلك
حينما كان فقهاء أقطاب مثل عيسى بن دينار ، ويحيى بن يحيى ، وعبد الله
ابن حبيب ، وبقى بن مخلد ، يتبأون ذورة النفوذ العلمى ، ولكن يقف نفوذهم
عند حدود الفتيا والشورى ومزاولة القضاء . بل كان الفقهاء أيام الدولة المرباطية ،
يقتصرون حسباً أشرنا من قبل على دراسة علم الفروع من العبادات والمعاملات
والحدود والأقضية ، وعلى مذهب مالك دون غيره . وهذا ماينوه به المراكشى
فى قوله : « لم يكن يقرب من أمير المسلمين ، ويحظى عنده ، إلا من علم علم
الفروع أعنى فروع مذهب مالك ، فنفتت فى ذلك الزمان كتب المذهب ، وعمل
بمقتضاه ، ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله وحديث
رسول الله (ص) ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بها كل
الاعتناء ، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض فى شىء من
علوم الكلام ، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين ، تقييح علم الكلام ، وكراهة
السلف له ، وهجرهم من ظهر عليه شىء منه ، وأنه بدعة فى الدين »^(٢) . وقد

(١) المراكشى فى المعجب ص ٩٥ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ٩٦ .

ترتب على ذلك ما عمدت إليه الدولة المرابطية بإيعاز فقهاءها ، من مطاردة العلماء الذين يعنون بعلم الكلام والأصول ، ومطاردة الكتب المتعلقة بذلك ، وفي مقدمتها كتب الغزالي ، وجاء ابن تومرت فاتحده أيضاً مادة لدعايته الدينية ضد الدولة المرابطية ، حسبما فصلنا من قبل في موضعه .

إلى جانب هذا العامل الخطير في تصدع أسس الدولة المرابطية ، كان ثمة عامل آخر ، يحدث أثره السيئ في تحطيم قواها المادية والأدبية ، هو انهيار منعها العسكرية . ذلك أن الدولة المرابطية نشأت في مهاد التثقف والبدواة ، واستمدت من بداوتها ومن حماسها الدينية ، صلابتها الحربية ، وكانت هذه المنفعة التي تمتاز بها جيوش لمتونة وزميلاتها من القبائل المختلفة ، تذكيتها وتضاعفها ، نزعة الجهاد في سبيل الله . وفي ظل هذه النزعة الجهادية استطاع المرابطون عند مطلع نهضتهم في مشارف الصحراء الكبرى ، أن ينشروا بجهادهم وغزواتهم المستمرة تعاليم الإسلام ، في غانة ومالى وموريتانيا . ولما عبرت الجيوش المرابطية إلى شبه الجزيرة لتتخذ الأندلس مما يهددها من خطر الفناء ، على يد اسبانيا النصرانية ، كانت هذه النزعة إلى الجهاد ، أنخص ما يميزها ، إلى جانب ما اشتهرت به من المنعة والبسالة . وحتى بعد أن تحولت الجيوش المرابطية ، من مهمتها في إنجاد الأندلس ، إلى جيوش غازية ، وأصبحت الأندلس جزءاً من الدولة المرابطية الكبرى ، فإن هذه النزعة إلى الجهاد في سبيل الله ، لبثت حيناً آخر شعار الجيوش المرابطية في شبه الجزيرة ، فكانت موقعة أقلش ، وكانت موقعة إفراغة ، وكانت ثمة مواقع محلية أخرى ، ظهرت فيها الجيوش المرابطية ، ببسالتها ، وتفانيها في الجهاد في سبيل الله .

بيد أنه سرعان ما خبت هذه الروح ، وخصوصاً بعد أن اختفى من الميدان أقطاب القادة المرابطين ، الذين امتازوا بالجرأة والشجاعة والبراعة العسكرية ، أمثال سيرين أبي بكر اللمتوني ، وأبي محمد مزدلى ، ومحمد بن الحاج ، ومحمد ابن فاطمة ، وسرعان ما تأثر الأمراء والقادة المرابطون ، بما انغمسوا فيه من ثروات الأندلس ، ونعمائها ، وحياتها المرفهة ، وتأثر الحند المرابطون ، أبناء الصحراء والقفر ، بحياتهم الجديدة الرغدة ، في هذه القواعد العظيمة ، والوديان النضرة ، والعيش الرخص ، وفث ذلك في مقدرة الجيوش المرابطية ، ومنعها القديمة ، فأضحت عاجزة عن أن تقوم بمهمتها الأساسية في حماية الأندلس ، ورد عادية

— ٤١٤ —

النصارى عنها ، كما غدت في نفس الوقت عاجزة عن أن تعزل على توطيد سلطان الدولة المرابطية وهيبتها ، بين شعب أضحي يترحم بحكمها ، ويتمنى زوال نيرها ، بعد أن ثقلت وطأته ، وكثرت مثالبه . وقد كان هذا عاملاً له خطره في تحطيم هيبة الدولة المرابطية وسيادتها بالأندلس :

— ١ —

كانت الدولة المرابطية أو الدولة اللمتونية في عهدها الأول ، حينما انتهى يوسف بن تاشفين من إنشائها ، وتوطيد قواعدها ، وتخطيط عاصمتها مراكش ، إمارة يتسمى منشؤها بالأمير . وعقب انتصار الزلافة ، تسمى يوسف « بأمير المسلمين وناصر الدين » وهو اللقب الذي أصبح من بعده لقباً للملوك لمتونة : وهذا إلى اعتراف العاهل المرابطي بطاعة الخليفة العباسي . وهو إجراء لم يتعد الحدود الشكلية ، من الدعوة للخليفة العباسي في الخطبة مع الأمير ، وذكر اسمه في السكة .

ثم غدت الدولة المرابطية ، مملكة وراثية ، منذ اختار يوسف ولده علياً لولاية عهده في سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٢ م) ، وحذا حذوه في ذلك علي ، فاختر ولده تاشفين لولاية عهده في سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) . واختار تاشفين ولده إبراهيم لولاية عهده في سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٥ م) ، وهو في وهران بخوض مع الموحدين آخر المعارك الحاسمة ، وقد شاء القدر أن يكون إبراهيم خاتمة ملوك الدولة المرابطية .

ولم يكن العاهل المرابطي ، يتقيد في هذا الاختيار لولاية العهد ، بشروط وتقاليد معينة ، ولم يكن يؤثر به الابن البكر ، وإنما كان يجري وفقاً لمشيئة الملك القائم ، فيختار من ولده من يراه أهلاً لخلافته . وكانت ولاية الأندلس ، بقيادة الجيوش المرابطية بها ، تمنحان للابن البكر ، إذا نحى عن ولاية العهد ، وذلك حسبما حدث في شأن الأمير أبي الطاهر تميم ولد يوسف الأكبر ، حينما انتخب أخوه الأصغر علي لولاية العهد ، فقد لبث والياً للأندلس وقائداً عاماً للجيوش المرابطية بها حتى وفاته في سنة ٥٢٠ هـ ، وخلفه في مناصبه الأمير تاشفين بن علي ، في الوقت الذي كان فيه أخوه الأكبر سير بن علي يتشح بولاية العهد ، فلما توفي سير في سنة ٥٣٣ هـ ، استدعى تاشفين من الأندلس ، ومنح ولاية العهد .

وكانت عمالات المغرب أو ولاياته ، وهى نحو ثمانية ، مراکش ويتبعها أغات وبلاد السوس وسائر بلاد المصامدة ، وفاس ، وسجلماسة ودرعة ، ومكناسة ، وبلاد فازاز ، وتلمسان ، وطنجة ، وسبتة ، تخصص ، لأبناء الأمير وقرايته . وقد بدأ يوسف بن تاشفين فى ذلك بتقسيم عمالات المغرب على «بنيه وأمرأه قومه وذويه» (١) . أما الأندلس فكانت تنقسم فى عهد الدولة المرابطية ، إلى خمس ولايات ، هى إشبيلية وغرناطة وقرطبة وبلنسية ومرسية . وكانت سرقسطة قبل سقوطها فى أيدي النصارى فى سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) تعتبر ولاية سادسة . واتخذ المرابطون فى البداية قرطبة مركزاً لحكومتهم بالأندلس ، وفيها أصدر يوسف بن تاشفين عهده بولاية عهده لولده على . ولما تولى على الملك ، أمر بنقل قاعدة الحكم إلى غرناطة ، فلبث كذلك حتى سنة ٥٢٦ هـ ، وفى هذا العام عين أمير المسلمين على بن يوسف ، ولده الأمير تاشفين والياً لقرطبة ، وأمره أن يجعل منها « داره وسكناه ومقر مثواه » . وهكذا غدت قرطبة مركز الحكم المرابطى مرة أخرى ، واستمرت كذلك حتى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ، وهى السنة التى اضطرت فيها قواعد الأندلس ، ومنها قرطبة ، بالثورة على المرابطين ، وكان والى الأندلس يومئذ الأمير أبو زكريا يحيى بن غانية ، آخر ولائها المرابطين .

وكانت مناصب الولاية المحلية بالأندلس ، وقفاً على الأمراء والقادة المرابطين ولاسيما ذوى القربى منهم ، وقد ذكرنا فيما تقدم أسماء عدد عديد من هؤلاء الأمراء والقادة ، الذين تولوا حكم القواعد الأندلسية ، منذ الأعوام الأخيرة من حكم يوسف بن تاشفين ، حتى نهاية العهد المرابطى ، وكان فى مقدمة هؤلاء بعض أقطاب القادة المرابطين الأوائل ، مثل الأمير سير بن أبى بكر اللمتونى فاتح إشبيلية ثم واليها ، ومحمد بن الحاج والى بلنسية ، ثم سرقسطة ، ومن بعده يحيى بن غانية ، والأمير أبو محمد مزددى والى ، قرطبة وهو من أبناء عمومة يوسف ، وولده محمد وعبد الله ، والأمير محمد بن عائشة ولد يوسف ، ومحمد بن فاطمة والى إشبيلية ، وعبد الله بن تينغمر والى قرطبة ، وهو ابن أخت على بن يوسف ، والأمير إبراهيم والى إشبيلية ، وهو أخو على بن يوسف ، وأبو بكر بن على بن يوسف ، وقد ولى أيضاً إشبيلية وغيرهم . أما مناصبه

(١) روض القرطاس ص ٩١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٥ .

القضاء في القواعد الكبرى ، فقد تركها المرابطون للأندلسيين ، وذلك لسبب واضح ، هو أنه لم يكن بين العلماء المرابطين ، من يستطيع الاضطلاع بهذه المناصب ، في بلد كالأندلس ، امتاز قضاته بغزير علمهم ، وقد كان أولئك القضاة الأندلسيون يتمتعون لدى العاهل المرابطي ، بكثير من النفوذ ، ولهم كلمة مسموعة في كثير من الشئون الهامة ، وكانوا في نفس الوقت رسلة لتدعيم هيئته ونفوذه ، لدى الشعب الأندلسي ، وكان من أبرز نماذج أولئك القضاة رجال مثل أبي الوليد بن رشد ، وأبي القاسم بن حمدين ، وقد تولى كلاهما قضاء قرطبة . وقد رأينا فيما تقدم ، كيف أخذ بفتوى القاضي أبي القاسم ابن حمدين في حرق كتاب الأحياء للإمام الغزالي (سنة ٥٠٣) ، وكيف استطاع القاضي ابن رشد ، أن يقنع أمير المسلمين علي بن يوسف بتغريب النصارى المعاهدين (٥٢٠ هـ) . ثم كان أولئك القضاة فيما بعد ، حينما اضطربت شئون الدولة المرابطية ، هم قادة الثورة ضد المرابطين في مختلف القواعد ، وهم الذين تولوا حكم المدن الثائرة ، حتى مقدم الموحدين .

ونود أن نلفت النظر هنا إلى تلك الظاهرة التي جعلت من قادة الثورة ضد المرابطين أما كتابا وشعراء ، أو قضاة . ففي الغرب كانت ثورة المريدين ، وزعمائها قبل كل شيء ، رجال مثل ابن قسى ، وابن المنذر ، وأبو بكر بن المنخل ، يمتازون إلى جانب دعوتهم الثورية ، بمواهبهم الأدبية والشعرية . وفي أواسط الأندلس وفي شرقها ، كان زعماء الثورة كلهم تقريباً من القضاة . ففي قرطبة ، كان زعيم الثورة قاضيا أبو جعفر بن حمدين ، وفي غرناطة كان هو القاضي أبو الحسن علي بن أضحى ، وفي مالقة كان قاضيا ابن حسون ، وفي بلنسية كان قاضيا مروان بن عبد العزيز ، وفي مرسية كان قاضيا أبو جعفر الحشنى ، وكان خلفه في الرياسة بعد مصرعه ، قطب بن أقطاب الكتاب والشعر ، هو أبو جعفر عبد الرحمن ابن طاهر . وهذه ظاهرة تدعو إلى التأمل ، ويمكن أن نرجعها من بعض الوجوه ، إلى أن المرابطين استطاعوا خلال حكمهم بالأندلس ، أن يقضوا على معظم الزعامات الملوكية والعسكرية القديمة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقضوا على الزعامات الفكرية ، ولم يستطيعوا بالأخص ، أن يقضوا على نفوذ الفقهاء ، بالأندلس ، وكان نفوذهم المستمر ، حسباً تقدم من خواص الحكم المرابطي ذاته . أما عن الكتابة ، فإن الدولة اللمتونية ، كانت منذ بدايتها تعتمد في شئون

الكتابة على الكتاب الأندلسيين . فكان كاتب يوسف بن تاشفين ، حتى قبل أن يعبر إلى الأندلس ، أندلسي من أهل ألمرية هو عبد الرحمن بن أسباط . ولما توفي خلفه في منصب الكتابة أبو بكر بن القصيرة ، وهو يومئذ من أئمة البلاغة بالأندلس ، ثم كتب بعد وفاة يوسف عن ولده علي . وكان بلاط مراکش عهد علي بن يوسف ، يضم إلى جانب ابن القصيرة ، طائفة من أقدر الكتاب الأندلسيين في هذا العصر ، مثل أبي القاسم بن الجحد ، وأبي بكر بن عبد العزيز البطلبوسي المعروف بابن القبطرنة ، وابن عبدون وزير بني الأفطس السابق ، وأبي عبد الله بن أبي الخصال ، وغيرهم . وقد كان من الطبيعي ، أن تعتمد الدولة الممتونية ، التي نشأت في مهاد البداوة والتقصيف ، في شئون الكتابة ، ولا سيما بعد افتتاح الأندلس ، على أقطاب البلاغة من الكتاب الأندلسيين ، وأن يكون أولئك الكتاب ألسنتها لدى الشعب الأندلسي ، الذي اعتاد على أساليب الكتابة العالية ، وقد شهد المرابطون كيف كان ملوك الطوائف ، يحشدون في قصورهم ، أئمة البلاغة والترسل يومئذ ، سواء في سلك الوزارة أو الكتابة ، فكانت لهم في ذلك أسوة ، فاستخدموا معظمهم أولئك الكتاب في بلاط مراکش .

وكان الجيش هو أهم أجهزة الدولة المرابطية ، ودعامتها الأولى ، وكانت الدولة المرابطية بالرغم من انضوائها تحت لواء الدعوة الدينية الإصلاحية ، التي نظمها عبد الله بن ياسين ، قبل كل شيء دولة عسكرية ، نشأت في مهاد المعارك التي اضطرت بين لمتونة وبين القبائل الخصيمة من وثنية وغيرها ، وخرجت منها لمتونة ظافرة ، واستطاعت أن تبسط سلطانها على أنحاء المغرب ، وأن تقيم الدولة المرابطية الكبرى ، وكان أولئك البربر الصحريون جنوداً يمتازون بوافر الجرأة والشجاعة . وقد نوه بشجاعة لمتونة في القتال كاتب معاصر هو الجغرافي المؤرخ ، أبو عبيد البكري ، فوصف لنا لمتونة وشجاعته وطرائقها في القتال فيما يأتي : « وكان للمتونة ، في قتالهم شدة وبأس ليست لغيرهم . وكان قتالهم على النجب أكثر من الخيل ، وكان معظم قتالهم مرتجلين ، يقفون على أقدامهم صفاً بعد صف ، يكون بأيدي الصف الأول منهم القنا الطوال ، وما يليه من الصفوف بأيديهم المزاريق ، يحمل الرجل الواحد منها عدة ، يزرقيها فلا يكاد يخطئ ولا يشوي ، ولهم رجل قدموه أمام الصف بيده الراية ، فهم يقفون ما وقفت منصته ، وإن أمالها إلى الأرض جلسوا جميعاً ، فكانوا أثبت من الهضاب ، ومن فر أمامهم لم

يتبعوه ، وكانوا يختارون الموت على الانهزام ، ولا يحفظ لهم فرار من زحف»^(١) ، وقد تطورت أساليب لمتونة في القتال فيما بعد ، ولكن هذه الصفة العسكرية لبشت تغلب على الدولة المرابطية ، حتى بعد أن استقرت وتوطدت ، وقامت بها نظم الحكم المدنية ، فكان الجيش هو قوام حياتها الأول ، وكان أمير المسلمين هو القائد الأعلى لهذا الجيش ، وكان معظم الولاة في المغرب والأندلس ، من قادة الجيش البارزين . وكان مذهب الدولة المرابطية الكبرى يوسف بن تاشفين جندياً وقائداً من أعظم قواد عصره ، وقد بذل هذا البطل الشيخ في تنظيم الجيش المرابطي ، وفي تزويده بالعتاد والسلاح ، جهوداً رائعة ، حتى غدا من أعظم جيوش العصر . وكانت قوته الرئيسية تتألف من الفرسان ، وقد بلغت في عهد يوسف نحو مائة ألف فارس من مختلف القبائل^(٢) هذا غير المشاة من الرماة وغيرهم . وأنشأ يوسف فضلاء عن ذلك حرسه الخاص الأسود ، من عبيد الصحراء من غانة ، من نحو ألني مقاتل ، دربوا أعظم دربة ، وزودوا بأجود الأسلحة ، حتى غلوا قوة ضاربة لها خطرهما^(٣) . وقد رأينا كيف أبلى هذا الحرس الأسود الخاص ليوسف ، في معركة الزلاقة عند تخرج الموقف ، أعظم البلاء ، وساعد ببسالته على تحول مصابير المعركة . وأنشأ يوسف قوة كبيرة خاصة من فرسان جزولة ولمطة وزناتة سميت بالحشم^(٤) . وأنشأ كذلك فرقة خاصة لحرسه من النصاري ، معظمهم من المعاهدين الذين اعتنقوا الإسلام ، وقد نمت هذه الفرقة في عهد ولده علي ، حتى غدت جناحاً كبيراً من الجيش المرابطي ، يتألف من النصاري المرتزقة ، ويقوده القائد القشتالي الذي تسميه الرواية العربية « بالبربرير » والذي تحدثنا عنه فيما تقدم ، وقد اشتركت هذه الفرقة الأجنبية التي تسميها الرواية العربية « بالجنود الروم مع الجيش المرابطي ، في معارك عديدة ، وكانت تمتاز دائماً ببسالتها ، وفائق دربتها . وكان ترتيب المعركة عند المرابطين يقوم على نظام خماسي . فيتقدم الجيش ، الجنود المشاة ووحدات الفرسان الخفيفة ، وحمة القسي ، والرماة ، ويرتبون في

(١) أبو عبيد البكري في كتاب « المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب » المشتق من كتاب « المسالك والممالك » (طبعة دي سلان) ص ١٦٦ ، ونقل بعضه الحلل الموشية ص ١٠ و ١١ .
 (٢) روض القرطاس ص ٨٩ .
 (٣) الحلل الموشية ص ١٣ .
 (٤) الحلل الموشية ص ٢٠ .

الجناحين . ويتكون القلب من وحدات الفرسان الثقيلة ، وهي التي كان لها على الأغلب القول الفصل في المعارك . وكانت قوات المؤخرة ، أو القوات الاحتياطية يقودها أمير المسلمين بنفسه ، إذا كان مصاحباً للجيش ، وتتألف من صفوف الجند ، وقوى الحرس المختلفة من العبيد والنصارى المرتزقة . وكان لكل قسم من القوات المقاتلة قائده الخاص ، ويجتمع القادة جميعاً في مجلس الحرب الذي يعقد قبل المعركة ، وترتب فيه خطط الهجوم والدفاع ، وفقاً لأوامر القائد الأعلى . وكان الجند يحشدون وفقاً لاختلاف القبائل والأقاليم . ويؤلف جند الأندلس في الجيش المرابطي المخصص لشبه الجزيرة وحدات خاصة ، تحمل أعلام المدن التي تنتمي إليها ، مثل إشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة وبلنسية ومرسية وغيرها . بيد أن القوات الأندلسية لم يكن لها في الجيش المرابطي كبير شأن ، وكانت القيادة العليا بنوع خاص ، تركز في أيدي القادة المرابطين . وكانت هذه سياسة مرسومة واضحة القصد والمرمى .

وكانت نزعة الجهاد ، تغلب في البداية على الجيش المرابطي ، وكانت تحذوه هذه النزعة المضطربة حينما عبر إلى شبه الجزيرة لأول مرة ، وانتصر في موقعة الزلاقة ، ضد الجيوش النصرانية المتحدة ، واستمر بجيش بهذه النزعة إلى الجهاد ، طوال عهد يوسف ، وفي أوائل عهد ولده علي . ثم خبت هذه النزعة حينما اضطربت أحوال الدولة المرابطية ، منذ وفاة المهدي ابن تومرت ، وأضحى الجيش المرابطي في المغرب ، أداة دفاعية عن كيان الدولة التي أنشأته ، ولم يعد له في الأندلس تلك الهيبة القديمة ، التي كانت تتوجها غزواته الجهادية ضد النصارى ، ولم يلبث أن اضطر غير بعيد أن يشغل بأمر الدفاع عن نفسه في مختلف القواعد الأندلسية .

وكان الجيش المرابطي يستعمل البنود والطبول^(١) . وقد لعبت طبوله في الزلاقة دوراً كبيراً في إزعاج الجند النصارى ، وبث الرعب في قلوبهم . وكان الجيش المرابطي الدائم بالأندلس يتكون من سبعة عشر ألف فارس ، منها سبعة آلاف بإشبيلية وقواعد الغرب ، وبقربطبة ألف فارس ، وبغرناطة مثلها ، وأربعة آلاف بشرقي الأندلس ، والأربعة آلاف الباقية موزعة على مختلف القواعد والثغور الأخرى . وكان يعهد بالدفاع عن الحدود والقواعد المتاخمة

(١) روض القرطاس ص ٨٩ .

للتصاري إلى الأندلسيين ، لما لهم في مقاتلة النصارى ومدافعتهم من خبرة خاصة ، وكان الفارس المرابطى فى الأندلس يتقاضى خمسة دنانير فى الشهر ، غير نفقته الخاصة ، وعلف فرسه ، ومن ظهر منهم بشجاعته وتفوقه ، يُعهد إليه بولاية موضع ينتفع بفوائده^(١) .

ولم ينس المرابطون أهمية الأساطيل ، ولا سيما منذ افتتحوا الأندلس ، وغدت الأندلس ولاية مغربية ، فكانت لهم فى سبتة وقادس والمرية أساطيل دائمة : وكانت قطائع النقل ، تجتمع بنوع خاص فى مياه سبتة وطنجة ، والجزيرة الخضراء وطريف ، لتتنقل الجيوش المرابطة إلى شبه الجزيرة ، ومن شبه الجزيرة إلى المغرب ، وكانت الدولة المرابطة تمتلك فى أواخر أيامها أسطولا ضخماً من القطائع والسفن المقاتلة ، حتى أن الأمير تاشفين بن على ، كان وهو يجوز معركة وهران الفاصلة ضد الموحيدين ، يعلق أمله فى النجاة على الأسطول ، وقد استدعاه فعلاً إلى مياه بجاية . وقد اختصت أسرة بنى ميمون عصرًا بقيادة الأساطيل المرابطة ، وانتقلت هذه الأساطيل على يدهم ، إلى خدمة الدولة الموحدية حينما دالت دولة المرابطين .

وأما فيما يتعلق بالنظم المالية فقد اتبعت الدولة المرابطة ، فى البداية ، نظراً لنشأتها الدينية ، حكم الشرع فى شئون الجباية ، فكان يوسف بن تاشفين يقتصر أولاً على تحصيل ما تجزيه الشريعة من الفروض ، مثل الزكاة والأعشار وأخماس الغنائم وجزية أهل الذمة . بيد أنه لما ضخمت الدولة المرابطة ، وتضاعفت جيوشها ومسئولياتها ، ولا سيما بعد افتتاح الأندلس ، واتساع نطاق أعمال الجهاد ، فى شبه الجزيرة ، لم تعد هذه الموارد الشرعية المتواضعة تكفى لمواجهة مسئولياتها العظيمة ، واضطر يوسف بن تاشفين إلى فرض الإتاوات على أهل المغرب والأندلس ، للمساهمة فى أعمال الجهاد ، ولحلاً أيضاً إلى تحصيل الأموال من اليهود ، ولا سيما يهود بلدة أليسانة^(٢) ، بمختلف الطرق والوسائل . وكان يوسف بن تاشفين يبغض اليهود ، ويرى إرغامهم على اعتناق الإسلام ، وشجعه على ذلك بالنسبة لليهود الأندلس ، فقيه قرطبي زعم أنه وقع فى أحد الكتب ، على حديث منسوب إلى النبي ، مفاده أن اليهود تعهدوا بأن يؤمنوا بالنبى العربى ، وأن يعتنقوا الإسلام ،

(١) الحلل المشوية ص ٥٧ و ٥٩ .

(٢) تقع بلدة أليسانة أو اللسانة Lucena ، شمال غربى لوشة بولاية غرناطة .

إذا حلت الخمسمائة عام من الهجرة ، ولم يظهر لهم النبي الرسول ، الذى بشر به موسى فى التوراة ، وبأنه سوف يكون منهم ، وأن نبيهم يكون عندئذ هو نفسه نبي المسلمين ، ويتحتم عليهم اعتناق الإسلام . وكان يهود الأندلس يجتمعون بالأخص فى مدينة أليسانة المتقدمة ، وهى مدينة يهودية خالصة ، بها ربض واحد يسكنه المسلمون ، ولا يختلطون بأحد منهم ، وآهلها أغنياء مياسير ، ومن أغنى يهود العالم . وكان أمير المسلمين حين مر بتلك المدينة ، يريد أن يرغم أهلها اليهود على اعتناق الإسلام وفقاً لما تقدم ، ولكن فقيهاً آخر ، أفقى بأنه يجوز تركهم على وجه الافتداء ، فدفع اليهود مبالغ طائلة لأمر المسلمين ليحتفظوا بدينهم^(١) . ثم تبادت هذه السياسة فى عهد ولده على ، ولحقاً علىّ فى نفس الوقت إلى فرض القبالات والإتاوات ، على مختلف الصنائع والسلع ، فكانت القبالات تفرض على الصابون والعمطور والنجاس والمغازل ، كما تفرض على كل شئ يباع جل أو صغر ، كل شئ على قدر قيمته^(٢) ، كما لحق على إلى استخدام النصارى والروم فى تحصيل الجبايات^(٣) . ولما اضطربت أحوال الدولة المرابطية ، على أثر قيام حركة المهدي ، اشتد نفوذ النصارى فى الجيش ، وفى شئون الجبايات ، لما كان محبوبهم به على بن يوسف من ثمة وحماية ، وأساءوا معاملة المسلمين ، واشتطوا فى تحصيل المغارم والفروض ، وغلبت القوضى على شئون الدولة المالية ، كما غلبت على غيرها .

وقد اختلفت الآراء حول طبيعة الدولة المرابطية ، وطبيعة وسائلها فى الحكم ، واشتد بعض المؤرخين فى الحكم عليها ، ورميها بأقصى النعوت والصفات ، وجنح البعض بالعكس إلى امتداحها ، وامتداح عهدها وحكمها .

وكانت تعليقات العلامة المستشرق دوزى ، وحملته على المرابطين ، والدولة المرابطية ، من أشد ماصدر من الأحكام فى هذا الموضوع . ومن الأسف أن هذه الحملة التى شنها دوزى على المرابطين ، وعلى عهدهم بالأندلس ، قد تناقلها

(١) الحلل الموشية ص ٥٨ . وراجع فى وصف مدينة أليسانة « وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » المأخوذ من نزهة المشتاق للإدريسى (طبعة دوزى) ص ٢٠٥ .

(٢) الإدريسى فى المرجع السابق ص ٧٠

(٣) الحلل الموشية ص ٦١ .

معظم الكتاب والنقده المحدثين ، واعتبروها حكماً مبرماً ، لا يقبل جدلاً ولا نقصاً .
ومن ثم فإنه لابد لنا أن ننقل أولاً ما تضمنته أقوال دوزى من وجوه الطعن
والنقد ، ثم نعود بعد ذلك إلى تحليلها ومناقشتها .

يقول دوزى بادىء ذى بدء : « إن الشعب (الأندلسى) لم يكن له أن يهتئ
نفسه بالانقلاب الذى وقع (يعنى تحول الأندلس إلى سلطان المرابطين) . ذلك
أن الحكومة والقادة والجند ، جميعاً قد فسدوا بسرعة مذهلة .

إن قواد يوسف حينما قدموا إلى اسبانيا ، كانوا حقاً أميين ، ولكنهم كانوا
أنقياء شجعاناً أمناء ، وقد اعتادوا على حياة الصحراء البسيطة المتقشفة . فلما
أغنهم كنوز الأمراء الأندلسيين التى أغدقها عليهم يوسف ، فقدوا فضائلهم بسرعة ،
ولم يعودوا يفكرون إلا فى أن يتمتعوا فى سلام بهذه الثروات التى غنموها .
ولقد كانت حضارة الأندلس بالنسبة لهم مشهداً جديداً ، ولما كانوا ينجلون من
بربريتهم ، فقد أرادوا أن يندمجوا فيها ، واتخذوا لهم مثلاً من الأمراء الذين
خالعهم . بيد أنهم كانوا لسوء الحظ من ذوى الجلد الخشن ، ولم يكن بوسعهم
أن يتمشوا مع النعومة ، والكياسة ، والركة الأندلسية ، وكان كل شئ لديهم
يحمل طابع التقليد الخانع القاصر .

ثم يقول : « ولم يكن الجند (أعنى المرابطين) ، بالرغم من كونهم أكثر
محافظة ، أفضل من رؤسائهم ، وقد كانوا يمتازون بالقحة نحو الأندلسيين ،
وبالحين لزاء العدو . والواقع أن جبهتهم كان فادحاً ، حتى أن الأمير على ، اضطر
أن يتغلب على بغضه للنصارى ، وأن يحشد فى جيشه أولئك الذين كان قائد
أسطوله ابن ميمون يحبهم من شواطئ جليقية ، وقطلونية وإيطاليا ، وبلاد
بزنطية . وأما عن قحتهم ، فإنه لم يكن لها احد . فقد كانوا يعاملون الأندلس
كبلد مفتوح ، ويأخذون منها كل ما راق لهم ، من نقد ومال ونساء . وكانت
الحكومة تركهم يفعلون ذلك ، ولا تستطيع ضدهم شيئاً . وكان ضعفها فى ذلك
يدعو إلى الرثاء . وقد اضطر الفقهاء إلى ترك السلطان للنساء ، أو على الأقل إلى
أن يشاطروهن هذا السلطان . وكان الأمير على يترك لزوجه قمر كل شئ ،
وثمة نسوة أخريات كن يحكن وفقاً لأهوائهن كبار الأعيان ، ومادام فى وسعهم
أن يحققوا جشعهم ، ففى وسعهم أن يفعلوا ما شاءوا . بل لقد كان فى وسع قطاع

الطريق أن يؤملوا النجاة، إذا استطاعوا أن يشتروا حماية أولئك السيدات»^(١) :
 هذا ما يقوله دوزى فى « تاريخه » . وإليك ما يقوله فى « بحوثه » :
 « فى نحو أواخر القرن الحادى عشر ، حينما استبدلت الأندلس أمراءها
 الوطنيين ، بمملكة إفريقية ، جاءت كحليفة ، ثم انتهت بأن فرضت سيادتها ،
 حدثت فى هذا البلد ثورة سريعة محزنة . فقد حلت البربرية مكان التمدن ،
 وحل التخريف مكان الذكاء ، وحل التعصب مكان التسامح . وأضحت البلاد
 تن تحت النير المرهق الذى يفرضه رجال الدين والحند ، فلم يعد يسمع مكان
 المناقشات العلمية الروحية فى المعاهد ، وأحاديث الفلاسفة العميقة ، وأناشيد
 الشعراء ، سوى صوت الفقهاء الرتيب ، وضجيج السيوف تجر على الإفريز»^(٢) .
 ونكتفى بنقل ما تقدم من أقوال دوزى وتعليقاته عن المرابطين بالأندلس .
 والواقع أنه يشهر مثل هذه الحملة : فى مواطن كثيرة من تاريخه^(٣) . وهو بصفة
 عامة شديد الوطأة على المرابطين ، وعلى عاهلهم يوسف ، ينتقص منهم كأمة ،
 وكدولة وحكومة ، وهو قد يكون على حق فى بعض الأحيان ، وقد نجد سنداً
 لحملة فى بعض الوقائع . ولكن حملته تم على الأغلب عن روح واضح من التحامل .
 ولقد رى من قبل ، دوزى هذا التحامل العلامة المستشرق كوديرا ، فهو
 يقول معلقاً ، على تلك الأحكام التى أصدرها دوزى فى حق المرابطين :
 « لقد صيغت أحكام قاطعة جداً ، مجحفة بالنسبة لحكم المرابطين . ولما كنا
 نعتقد أنه لا مبرر لهذه الأحكام ، بالرغم من مكانة دوزى العظيمة ، الذى هذا
 حذوه معظم الكتاب المتأخرين ، فلما نعتقد أنه يجب علينا أن نقول شيئاً من عندنا ،
 لأنه إذا كان يبدو أن العلامة الهولندى يستند فى أقواله إلى وقائع مأخوذة من الكتاب
 المسلمين والنصارى ، فإنى أشعر أنه يجيش بكثير من التحامل ، وهذا يرجع
 بالأخص إلى تعصبه ضد رجال الدين ، وإلى تطبيق هذا التعصب بالنسبة للأمة
 الإسلامية ، وإلى ميله الواضح إلى التعميم ، وإلى أن يستخرج النتائج بالاستناد
 إلى قليل من الوقائع »^(٤) .

Dozy : Histoire des Musulmans d' Espagne (1932) V. III. p.162 - 164 (١)

Dozy : Recherches (Ed. 1881) Vol. I. p. 348 (٢)

(٣) انظر مثلاً : تاريخه (ج ٣ ص ١٥٥ و ١٥٧ و ١٦٨)

F. Codera : Decad. y Desp. de los Almorávides p. 190 & 191 (٤)

والواقع أن دوزى لا يجد أقوال الرواية العربية كثيراً من الأسانيد المؤيدة لحملته ، ولا يعتمد في ذلك إلا على ملخص لفقرتين أوردهما المراكشى في « المعجب » ، يقول في أولاهما ما يأتي :

« واختلف حال أمير المسلمين رحمه الله (مشيراً إلى علي بن يوسف) بعد الخمسة اختلالاً شديداً ، فظهرت في بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ، ودعواهم الاستبداد ، وانتهوا في ذلك إلى التصريح ، فصار كل منهم يصرح ، بأنه خير من أمير المسلمين ، وأحق بالأمر منه ، واستولى النساء على الأحوال ، وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من أكابر لتونة ومستوفة تشتمل على كل مفسد وشرير وقاطع طريق ، وصاحب خمر وماخور ، وأمير المسلمين في ذلك كله يتردد تغافله ، ويقوى ضعفه ، وقنع باسم إمرة المسلمين ، وبما يرفع إليه من الخراج ، وعكف على العبادة والتبتل ، فكان يقوم الليل ويصوم النهار ، مشتهراً عنه ذلك . وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال ، فاختلف لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس ، وكادت تعود إلى حالها الأولى ، ولا سيما مذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس »^(١).

ويقول في الثانية : « وكان (أى علي بن يوسف) رجلاً صالحاً مجاب الدعوة ، يعد في قوام الليل ، وصوام النهار ، إلا أنه كان ضعيفاً مستضعفاً ، ظهرت في آخر زمانه مناكر كثيرة ، وفواحش شنيعة ، من استيلاء النساء على الأحوال ، واستبدادهن بالأمور ، وكان كل شرير من لص أو قاطع طريق ، ينتسب إلى امرأة قد جعلها ملجأ له وزراً على ما تقدم »^(٢).

هذا ما يقوله المراكشى . ولنلاحظ أولاً أن المراكشى يجانب الدقة التاريخية في أحيان كثيرة ، وهو ما يعترف به ويعتذر عنه في مقدمته ، ثم هو بعد ذلك كاتب ومؤرخ موحد من أولياء الدولة الموحدية وصنيعة بعض أمرائها ، ومن ثم فإنه يصعب علينا أن نتخذ من أقواله دائماً حجة قاطعة ، ومن جهة أخرى فإنه يوجد إلى جانب هذه الأقوال ، أقوال أخرى لمؤرخين وكتاب ، عاش بعضهم في العهد المرابطى أو قريباً منه ، تشيد بحكم المرابطين وأيامهم ، فن ذلك ما يقوله صاحب الحلل الموشية ، معلقاً على عهد يوسف بن تاشفين :

(١) المعجب ص ٩٨ و ٩٩ .

(٢) المعجب ص ١٠٣ .

« أقامت بلاد الأندلس في مدته سعيدة حميدة ، في رفاهية عيش ، وعلى أحسن حال ، لم تزل موفورة محفوظة إلى حين وفاته ، وقد كان الجهاد انقطع بها منذ تسع وسبعين سنة من مدة آل عامر إلى حين دخوله إليها . قدم أشياخ المرابطين فيها وكانوا أقواماً ربهم الصحراء ، نيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة ، ولا غخالطة الأسافل »^(١) .

وما ينقله إلينا عن القاضي أبي بكر بن العربي ، وهو ماجاء في كتابه في شرح الزمردى ، وهو قوله :

« المرابطون قاموا بدعوة الحق ، ونصرة الدين ، وهم حاة المسلمين ، الدابون والمجاهدون دونهم ، ولو لم يكن للمرابطين فضيلة لولا تقدمهم إلا وقية الزلافة التي أنسى ذكرها حروب الأوائل ، وحروب داحس والغبراء مع بني وائل ، لكان ذلك من أعظم فخرهم ، وأربح تجرهم »^(٢) .

والقاضي ابن العربي من أعلام فقهاء الأندلس في العصر المرابطي ، وقد توفي في سنة ٥٤٢ هـ ، على أثر عوده من لقاء عبد المؤمن ، عقب افتتاحه لمراكش ، وكان قد وفد إليه على رأس زعماء إشبيلية ، ليقدّم إليه بيعة أهلها ، حسبما أشرنا إليه في موضعه . هذا وينقل إلينا صاحب روض القرطاس عن ابن جتّون الفقرة الآتية :

« كانت لمتونة أهل ديانة وثية صادقة خالصة ، وصحة مذهب ، ملكوا بالأندلس من بلاد الفرنج إلى البحر الغربي المحيط ، ومن مدينة بجاية من بلاد العدوة ، إلى جبال الذهب من بلاد السودان . لم يجر في عملهم طول أيامهم رسم مكروه ، معونة ولاخراج في بادية ولا في حاضرة ، وخطب لهم على أزيد من ألفي منبر . وكانت أيامهم دعة ورفاهية ورخاء متصل ، وعافية وأمن . . كان ذلك مصطحباً بطول أيامهم ، ولم يكن في بلد من أعمالهم خراج ولا معونة ، ولا تقسيط ، ولا وظيف من الوظائف الخزنية ، حاشا الزكاة والعشر ، وكثرت الخيرات في دولتهم ، وعمرت البلاد ، ووقعت الغبطة ، ولم يكن في أيامهم نفاق ولا قطاع طريق ، ولا من يقوم عليهم ، وأحبهم الناس إلى أن خرج عليهم محمد بن تومرت مهدي الموحدين سنة خمس عشرة وخمسةائة »^(٣) .

(١) الحلل الموشية ص ٥٩ .

(٢) الحلل الموشية ص ١٠٥ .

(٣) راجع روض القرطاس ص ١٠٨ ، ونقله أيضاً السلاوي في الإستقصاء ج ١ ص ١٢٨ .

ويبدو من كل ما تقدم أن الحكم على العهد المرابطي ، كالحكم على أى عهد آخر من عهود التاريخ ، يتردد بين القدح والمديح . ونحن لانود أن نقف اعتباطاً عند إحدى الوجهتين . بيد أنه يلوح لنا أنه إذا كان حكم المرابطين ، ولا سيما فى الأندلس ، قد ينطوى من بعض نواحيه على أخطاء ومثالب ، فإنه من الناحية الأخرى ، قد أغمط حقه وبولغ فى انتقاصه والحملة عليه .

ولنقف هنا لحظة لنحاول أن نستعرض بعض العوامل والأسباب التى هبت ذلك الجو المحجف بسمعة المرابطين ، وأذكت ضدهم حملة الانتقاص والتشهير التى ما زال صداها يتردد حتى يومنا . ويلوح لنا أن هذه العوامل ترجع إلى ثلاثة أمور يمكن أن نلخصها فيما يلى :

الأول ، هو ما اقترن بالفتح المرابطى لمالك الطوائف الأندلسية من مظاهر القسوة البالغة ، ومن قتل عدد من أمراء الطوائف بصورة مثيرة ، مثل بعض أبناء المعتمد بن عباد ، والمتوكل بن الأفطس وولده وغيرهم من الأمراء والأكابر ، ونهب الأموال ، ومعاملة الحند المرابطين لقواعد الأندلس معاملة المدن المفتوحة ، والعيث فيها دون وازع . وقد كان المستول الأول فى ذلك هو سير بن أبى بكر اللمتونى كبير القادة المرابطين وفاتح إشبيلية وبطليوس . وفى اعتقادنا أنه لو كان عامل المرابطين يوسف بن تاشفين موجوداً فى شبه الجزيرة فى تلك الفترة ، لأمكن اجتناب كثير من هذه الحوادث الدموية ، وهذا العيث الفظيع . على أنه يمكن أن نقول من جهة أخرى أن قسوة أمير المسلمين فى معاملة المعتمد بن عباد وهلاكه فى سجنه بأغماط ، على النحو المؤسى الذى وقع ، كانت أيضاً مادة خصبة لتغذية هذه الحملة المرة على المرابطين . وقد كان لما صدر من المعتمد فى سجنه من النظم المبكى ، أعمق وقع وأبعد صدى فى تصوير هذا الأمير الشاعر ، بالرغم من كل ما أحاق بسيرته وسلوكه من أخطاء ومثالب ، فى صورة الشهيد الذى يستحق أبلغ عطف . ونحن نجد ذلك الصدى بالأخص ، فضلاً عن الأدب والشعر الأندلسى ، ماثلاً لدى الكتاب والمؤرخين المشاركة . وقد كان حملاتهم العنيفة على أمير المسلمين وعلى المرابطين ، أكبر الأثر فى إذكاء هذه الحملة التى صدعت من هيبة المرابطين وهيبة عاهلهم حتى عصرنا .

والأمر الثانى ، هو ما وقع منذ بداية عهد على بن يوسف من مطاردة كتب بالدين والفلسفة وغيرها ، ولا سيما كتب الأصول وفى مقدمتها كتب الغزالى . وقد

أشرنا فيما تقدم إلى ما كان من تأثير الفقهاء على أمير المسلمين على بن يوسف . ولم يك ثمة شك في أن مطاردة الحركة الفكرية على هذا النحو يرجع قبل كل شيء إلى وحى الفقهاء وتدبيرهم . وقد كان لهذه السياسة ، أثر بالغ في إذكاء عاطفة السخط ضد المرابطين بالأندلس ، ولاسيما في البيئة الفكرية ، وفي توجيه الأقلام ضدهم أو على الأقل في حرمانهم من عطف هذه الأقلام . ومما هو جدير بالذكر أنه فيما عدا أمثلة قليلة ، يندر أن نجد في الأدب الأندلسي من نظم أو نثر خلال العهد المرابطي ، مدائح شعرية أو رسائل نثرية تشيد بالمرابطين أو أمرائهم .

والأمر الثالث ، هو الحملة العنيفة المضطربة التي شهرها المهدي ابن تومرت ضد المرابطين ، ونحن نعتقد أن هذه الحملة كانت أخطر عامل في القضاء على هبة الدولة المرابطية ، وسمعتها الدينية ، وهي الدعامة التي قامت عليها . والواقع أن ابن تومرت قد لمس في دعايته ضد المرابطين أشد النواحي حساسية وتأثيراً ، وذلك حينما صور المرابطين بأنهم كفار خوارج على شريعة الإسلام ، وأنهم قد ارتكبوا كثيراً من المناكر المثيرة ، من إباحة للمحرمات من ذبوع الخمر ، والقصف والفسق ، واغتصاب أموال الناس بالباطل ، وغير ذلك مما كانت مظاهر العاصمة المرابطية ، وأحوال الدولة المرابطية ، والمجتمع المرابطي ، تؤيده في ذلك الوقت بصفة فعلية . وقد استمرت هذه الدعاية الملتبسة التي شهرها المهدي ضد المرابطين طول حياته ، واستمرت من بعده ، وحتى بعد أن سقطت الدولة المرابطية وحيث آثارها ، وكان لها أبلغ الأثر في القضاء على هبة المرابطين وسمعتهم بصفة نهائية . تلك هي العوامل التي اجتمعت لتصدع من هبة الدولة المرابطية ، ولتسبغ على سيرتها ، وعلى ذكرياتها لدى الأجيال اللاحقة ، ذلك اللون القاتم ، الذي تأثّل بمضى الزمن ، وبما جنحت إليه التواريخ والكتابات المتعاقبة ، من الأخذ به دون تمحيص أو تفنيد .

وما من شك في أن الدولة المرابطية قد لبثت طوال عهد مؤسسها العظيم يوسف بن تاشفين ، وهو نصف حياتها ، دولة مجاهدة ، تحتفظ بكثير من فضائلها الأولى ، من التقشف والمتعة والعدالة والتمسك بأحكام الكتاب والسنة . وقد كان افتتاح المرابطين للأندلس على النحو الذي تقدم ، بعد عبورهم إليها إخوة منقذين ، أول سحابة قائمة أسببت على دولتهم ، وعلى سياستهم ومراميمهم . وقد ناقشنا هذه المسألة في موضعها من كتابنا « دول الطوائف » ، وأوضحنا ما لها وما عليها ، على ضوء

الظروف التي أحاطت بها . بيد أنه مهما قيل في هذه المسألة ، فإن الفتح المرابطي للأندلس ، فضلا عن كونه حدث يتفق مع روح العصر الذي وقع فيه ، لا يمكن أن يُمحي ما تقدمه ، وما أعقبه من فضل المرابطين في الجهاد ، وسميتهم لحيوش اسبانيا النصرانية ، في موقعة الزلاقة العظيمة ، التي كانت أروع مثل لبطلتهم ، وجهادهم في سبيل الله ، وإنقاذهم الأندلس بذلك من خطر الفناء الداهم . ولا يمكن أن يمحي فضلهم بعد ذلك في الذود عن الأندلس ، وحمايتها من مطامع ألفونسو المحارب ملك أراجون ، وألفونسو ريمونديس ملك قشتالة . ويكفي أن نستعرض في تلك الحقبة ، مراحل جهادهم وغزواتهم في أراضي اسبانيا النصرانية ، منذ موقعة أقاليش (٥٠١ هـ) حتى موقعة إفراغة (٥٢٨ هـ) ، وهي تنطوي على صفحات مشرقة من الجهاد في سبيل الله ، والذود عن الدين والوطن ، وفيها تبدو بسالة هذه الجبهة الممتازة من القادة المرابطين ، الذين سبق أن ذكرناهم غير مرة فيما تقدم .

ومن المسلم به أن هذه الصفحات من جهاد المرابطين في سبيل إنقاذ الأندلس والذود عنها ، هي أنصع ما في تاريخهم من تلك الفترة التي حكموا فيها الأندلس . على أنه يجب من جهة أخرى ألا نبالغ في تقدير هذه النزعة الجهادية ، وهذه الصفحة من الجهاد المرابطي في الأندلس ، فإنه يوجد ثمة ما يغشى صفاءها ، وينتقص من عظمتها . ذلك أن المرابطين كانت لديهم بعد نصر الزلاقة الحاسم ، أكثر من فرصة لمهاجمة اسبانيا النصرانية وضربها في الصميم ، وكان بوسعهم ، لو صدقوا العزم ، وضاعفوا الهمة ، أن يستردوا مدينة طليطلة العظيمة ، قبل أن تنتعش قوى اسبانيا النصرانية من ضربة الزلاقة . ولكنهم لم يبذلوا هذه المحاولة في وقتها . وقد ناقشنا هذه المسألة في موضعها عند الكلام على نتائج موقعة الزلاقة . أجل إن المرابطين ، حاولوا في بداية عهد علي بن يوسف ، استرداد طليطلة ، وهاجموها وحاصروها مرتين ، الأولى في سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) ، والثانية في سنة ٥٠٧ هـ (١١١٤ م) ، ولكنهم أخفقوا في المراتين ، بالرغم مما بذلوه في كل مرة من الجهود العنيفة . ذلك أن الفرصة كانت قد وُتت ، والوقت قد فات . ولما اضطربت شئون اسبانيا النصرانية بعد ذلك بقليل ، وشغلت بحروبها الأهلية ، لم يكن بوسع المرابطين أن يستغلوا هذه الفرصة ، لما دهمهم بالمغرب من ثورة المهدي ابن تومرت ، وعجزهم عن أن يبعثوا إلى شبه الجزيرة بقوات كبيرة .

وثمة سقطة أخرى تصدع من قيمة جهاد المرابطين بالأندلس ، هي موقفهم من الدفاع عن مدينة سرقسطة . فقد رأينا فيما تقدم ، كيف تجلّى المرابطون ، وأميرهم أبو الطاهر تميم بن يوسف ، عن الاستجابة إلى صريح المدينة المنكوبة ، ورفضوا بذل أية محاولة لإنقاذها ، وآثروا الانسحاب والسلامة ، مع أنهم كانوا يرابطون في ظاهرها على مقربة من النصارى المحاصرين لها ، وترتب على ذلك أن اضطرت المدينة العظيمة المسلمة إلى التسليم (سنة ٥١٢ هـ) . وتونه الرواية الإسلامية بما ينطوى عليه هذا الموقف من الحزن والحزى ، وهو موقف كان له أكبر الأثر في النيل من هبة المرابطين العسكرية .

أما حكم المرابطين للأندلس ، فإنه يبقّى من الناحيتين الإدارية والاجتماعية ، عرضة لكثير من وجوه المواقظة والنقد . ومن الواضح أن المرابطين وضعوا الأندلس ، عقب افتتاحها ، تحت حكم عسكري مطلق ، ونزعوا أبناءها كل سلطة فعلية في حكم بلادهم ، واحتفظوا للمرابطين بسائر المناصب العليا من ولاية وقيادة ، وبالرغم من أن أولئك الولاة والقادة المرابطين ، كانوا على الأغلب رجالا ، من ذوى الحزم والبراعة العسكرية ، والصفات البدوية النقية ، فإنه كان ينقصهم المرونة والكياسة في حكم أمة متمدنة كالأمة الأندلسية ، وكانت أساليبهم العنيفة الخشنة في ذلك ، تجافى ما طبع عليه الأمة الأندلسية من الأساليب الرفيعة المصقولة . ولم تظهر آثار هذا الحكم المطلق في صورها البغيضة ، أيام يوسف بن تاشفين ، حيث كانت هبة البطل المرابطي ، وحزمه وبعد نظره ، وميله إلى تحقيق العدالة ، ورفع المظالم ، تلطف كثيراً من وقع الحكم الحديدي ، على الأمة التي كانت تشعر نحوه بشكر الصنيعة . واستطاع ولده على في أوائل حكمه ، أن يحتفظ بقسط من محبة أهل الأندلس وتقديرهم . وقد كان في الواقع أميراً صالحاً ، محباً للخير ، يضمّر أحسن النيات بالنسبة للأندلس ، والذود عنها ، وبالنسبة لطرائق حكمها ، وذلك حسبما تدل عليه عدة من الرسائل الرسمية ، التي صدرت عن ديوانه في شئون الأندلس ، والتي وفق البحث أخيراً إلى نشرها ، لتلقى ضوءاً جديداً ، على كثير من النواحي السياسية والنظامية المتعلقة بتاريخ العهد المرابطي في الأندلس^(١) .

(١) عني بتحقيق هذه الرسائل ونشرها الدكتور محمود على مكى في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، وذلك عن مخطوط مغربي كان ضمن تركة المرحوم الأستاذ ليثي بروثنسال ، وحصل عليه معهد =

ففي إحدى هذه الرسائل ، وهى المؤرخة فى شوال سنة ٥٥٧ هـ ، ينوه على ابن يوسف ، بالحركة التى يعدها للجهاد ، وبكونه قد بالغ فى الاحتشاد والاستعداد ، ويؤكد لمن وجهت إليهم الرسالة ، إخلاص نيته ، وصدق حميته « فى نصر دين الإسلام ، ومنع جانبه أن يضام ، أو يناله من عدوه اهتضام »^(١) . وفى رسالة أخرى ، وهى التى يشير فيها إلى ما عرضه عليه القاضى أبو الوليد ابن رشد ، عن شئون الأندلس (والمرجح أنها وجهت فى أوائل سنة ٥٢٠ هـ) يبدى على عطفه وإشفاقه على الأندلس ، ويؤكد أنه لن يدخر وسعاً « فى الذود عن حوزة الملة »^(٢) . وتوجد ثمة رسائل أخرى ، تم عن نقطة الأمير واهتمامه بشئون الأندلس ، وتنبهه لما يدبره أعداؤها ضدها^(٣) . وإلى جانب ذلك توجد عدة رسائل تم عن صفة الحكم المرابطى وطبيعته الدكتاتورية المطلقة . من ذلك ما ورد فى الرسالتين السادسة والسابعة ، من حث الأمير على طاعة الحاكم ، واعتباره فى كل ما يصدر عنه متحكماً باسمه ، ومنفذاً لرأيه^(٤) ، لبس لأحد معه فى ذلك من يد ، ولا مصدر ولا مورد ، « قد فوضنا إليه ذلك كله ، وأفردناه النظر فى دقه وجله ، وكثره وقه ، وحكماه فى جميعكم ، يثيب من استحق الثواب ، ويعاقب من استحق العقاب »^(٥) ، وكذا فى الرسالة الثالثة عشرة ، وهى الصادرة فى شهر المحرم سنة ٥٠٠ هـ ، ولعلها أول رسالة وجهها على بن يوسف عقب توليه الملك ، وفيها يوصى بالطاعة والولاء للوالى أبى محمد ابن فاطمة « ما أمركم به أتيتموه ، وما نهاكم عنه تركتموه »^(٦) .

بيد أنه توجد طائفة أخرى من هذه الرسائل ، تدل على أن الأمير كان يعنى فى نفس الوقت بالعمل على تجنب الاستبداد ، واتباع الشورى ، وعدم الاستئثار بالرأى . وهذا ما يوصى به ولده أبا بكر فى الرسالة التى يوجهها إليه بتاريخ

= الدراسات الإسلامية ، وقد نشرت بالمجلدين السابع والثامن فى الصحيفة المذكورة ، تحت عنوان « وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين » (ص ١٠٩ - ١٩٨) .

(١) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية (المجلد المشار إليه ص ١٦٨) .

(٢) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية (المجلد السالف) ص ١٦٧ .

(٣) راجع بالأخص الرسالة الثانية عشرة (ص ١٨٠ و ١٨١) .

(٤) راجع الرسالة السادسة ص ١٧٥ .

(٥) راجع الرسالة السابعة ص ١٧٦ .

(٦) الرسالة الثالثة عشرة ص ١٨٢ .

صفر سنة ٥٢٠ هـ ، بمناسبة تعيينه قائداً عاما للجيش المراتبية بالأندلس (١) .
وثمة رسالة موجهة من الأمير إلى محمد بن فاطمة ، يحث فيها على أن يستعمل
من العمال ، من يتبع الرفق والعدل ، وأن يعزل منهم من ينحرف عن الأحكام
ومن يأخذ أموال الرعية ظلماً ، وأن يعاقبه على ذلك ويلزمه برد ما أخذ (٢) .

هذا وتوجد ثمة رسالة هامة ، تدل على عناية على بأمر القضاء ، وحسن
تنظيمه ، وبإقامة العدل واستتبابه ، وهي رسالة موجهة منه إلى الوحيدى قاضى
مالقة ، فى شهر ذى الحجة سنة ٥٢٣ هـ ، وذلك على أثر ما قام بعض
المرافعين (المتقاضين) من السفر إلى مراکش ، والتظلم لدى الأمير ، وفيها
يعرف موضوع القضاء بأنه « رفع المشكلات ، وتمييز الحقائق من المتشابهات
والفصل بعد التبرم فى الدعاوى والمنازعات » ، ويطلب أن تنظر « شكوى
العامة فى اللطيف والجليل » ، وأن يجرى التعرف على شئون الرعية ، وأن يجرى
الحق فى كل ما رفع من أحوالها ، وما وقع فيه التظلم من عمالها ، وأن الأمر
فى ذلك معلق على حسن اختيار النواب فى الأقطار ، وأنه يجب أن يتوفر فى
هؤلاء « الثقة والديانة والصون والأمانة » ، فإذا وقع من أحدهم تعد أو جور ،
كان له أن يطلب عزله إلى الحاكم الذى يتبعه ، فإن توافى فى ذلك ، فله أن يرفع
الأمر إلى الأمير مباشرة . وفى الرسالة بعد ذلك حث على تحصيل الزكوات ،
على تباين أنواعها ، وموجب فريضتها دون تحريف ولا تبديل (٣) .

هذا مجمل ما تدلى به هذه المجموعة من الرسائل المراتبية : فهى من جهة تدلى
بما كانت تنطوى عليه نفس أمير المسلمين من نيات صادقة فى الأخذ بيد الأنداس ،
والذود عنها ، وتدلى من جهة أخرى بما كانت تحرص عليه الحكومة المراتبية
من جمع سائر السلطات بين يديها .

وكان الحاجر على حرية الفكر من أسوأ صور الحكم المراتبى المطلق . ونحن
نعرف ما عمده إليه أمير المسلمين على بن يوسف ، بتحريض فقهاءه : من مطاردة
كتب الأصول ، وفى مقدمتها كتب الإمام الغزالي ، ولا سيما كتاب « إحياء
علوم الدين » (سنة ٥٠٧ هـ) . وقد لبثت هذه المطاردة طوال العهد المراتبى ،

(١) راجع الرسالة الثالثة ص ١٦٩ .

(٢) الرسالة الخامسة عشرة ص ١٨٣ و ١٨٤ .

(٣) تراجع هذه الرسالة الهامة وهى الرابعة من المجموعة فى ص ١٧٠ - ١٧٤ .

ففرى مثلاً في الرسالة التي وجهها أمير المسلمين تاشفين بن علي بن يوسف ، إلى فقهاء بلنسية وأعيانها وأهلها ، في جمادى الأولى سنة ٥٣٨ هـ ، إلى جانب ما تخص عليه من وجوب الرفق بالرعية ، وإجراء العدل ، وتحقيق المساواة بين الناس ، والأخذ بمذهب مالك ، دون غيره ، في الفتيا وسائر الأحكام ، حثاً على مطاردة كتب البدعة ، «وخاصة كتب أبي حامد الغزالي» ، وأنه يجب «أن يتبع أثرها ، ويقطع بالحرق المتتابع خبرها ، ويبحث عليها ، وتغلظ الأيمان على من ينهم بكتبتها»^(١).

ومن الواضح أن هذه المطاردة الفكرية لم تكن تقف عند كتب الأصول وكتب الغزالي ، ولكنها كانت تشمل سائر المصنفات الكلامية والفلسفية ، التي تنكرها التعاليم المرابطية ، وغيرها مما تصفه الرسالة « بكتب البدعة » . وكان من ضحايا هذه المطاردة ، عدة من المفكرين الأندلسيين ، ومنهم العلامة الصوفي أبو العباس أحمد بن محمد الصنهاجي الأندلسي المعروف بابن العريف ، حيث نفاه أمير المسلمين علي بن يوسف من بلده ألمرية إلى مراكش^(٢).

ثم إنه يبدو من جهة أخرى أن الحكام المرابطين بالأندلس ، لم يبدو حزمياً كافياً في قمع طغيان الحند والعبيد التابعين لهم ، وأن هؤلاء كانوا يرتكبون ضد أبناء الشعب الآمنين ، ضرراً مثيراً من التعدي والأذى . وهذا ما يسجله لنا وزير وكتائب أندلسي كبير معاصر ، هو أبو محمد عبد الحميد بن عبدون ، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ ، (١١٢٦ م) وقد كان من كتائب الأندلس الذين خدموا في بلاط علي بن يوسف ، يسجله لنا في رسالته التي وضعها عن القضاء والحسبة ، حيث يقول عند « ذكر المرابطين » :

« يجب ألا يُلتم إلا صنهاجي أو ملتوني أو ملطي ، فإن الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يُلتم ، يلثمون على الناس ويهيبونهم ، ويأتون أبواباً من الفجور كثيرة ، بسبب اللثام ، وهمماً ، ويكلم في ذلك مع السلطان ، فإنهم عتاة . ويمتاز بذلك من عسى أن يكرم أو يؤقر ، أو تُقضى له حاجة من المرابطين ، لأن العبيد

(١) وردت هذه الرسالة في المخطوط رقم ٥٣٨ الغزيري بالإسكوريال وقام بنشرها الدكتور حسين مؤنس ضمن مجموع النصوص السياسية المرابطية ، وذلك في مجلة المعهد المصري بمدريد (العدد الثالث سنة ١٩٥٥) ص ١١٠ - ١١٣ . وقد نشرناها نحن في باب الوثائق .

(٢) راجع في ترجمة ابن العريف ابن خلكان ج ١ ص ٦٧ ، والصلة لابن بشكوال (القاهرة) الترجمة رقم ١٧٦ .

أو الحشم إذا تلثم وغير شكله ، حسبته رجلا مثيلا ، فتجري إلى برّه وإكرامه ، وهو لا يتأهل لذلك . يجب ألا يمشی أحد في المدينة^(١) بسلّاح ، فإن ذلك داعية إلى الفساد ، ولاسيما البربر ، فإنهم قوم إذا غضبوا ، قتلوا أو جرحوا .

عبيد المرابطين إن تلثموا ، فتكون علامة يعرفون بها ، مثل أن يتلثموا بخمار أو بمزور وشبه ذلك . وكذلك الحشم والأتباع ، يكون شكلهم غير شكل المرابطين ، وهذا أحسن إن قُدّر عليه ، وفيه منافع كثيرة . يجب أن يُحمل مكان السلاح التي يحبسونها ، إما أسواط لدوابهم ، وإما أقرال ، وهو الرمح الصغير^(٢) .

فهذه الأقوال ، تدل على أن طوائف الحشم والعبيد التابعة للحكام والسادة المرابطين ، كانت تعتدى على الناس ، وتعبث بالأمن ، تحت ستار اللثام الوهمي . كما تدل على أن الجند البربر كانوا يتسمون بالنزق وتوتر الأعصاب ، مما يدفعهم إلى القتل والجرح بسهولة ودون تحوط .

وكذلك ليس ثمة شك في أن الحكم المرابطي بالأندلس ، أخذت تشتد وطأته شيئا فشيئا ، ولاسيما مذ بدأ اضطراب أحوال الدولة المرابطية بالمغرب ، على أثر ظهور المهدي ابن تومرت ، واشتداد حركته في أواخر عهد علي بن يوسف ، وعمد الحكام المرابطون عندئذ إلى تشديد قبضتهم في مختلف القواعد ، واشتدوا في معاملة الأندلسيين ، وكانت بوادر الخصومة والحفاء ، قد ظهرت قبل ذلك بين الفريقين ، وكان أخص مظاهرها ثورة قرطبة التي اضطربت ضد المرابطين منذ سنة ٥١٤ هـ ، ودلت بعنفها على حالة الأندلسيين النفسية ، وما يضمرونه من بغض للحكم المرابطي ووسائله . وكان انشغال حكومة مراکش بحركة المهدي ، وتضاؤل رقابتها ، على شئون الأندلس ، عاملا له أثره في ازدياد مطالب الحكم المرابطي بالأندلس ، وترك حبله على الغارب ، إلى الحكام المحليين ، وكان من أثر ذلك أن ازداد سخط الشعب الأندلسي وحفيظته ، وشعوره باقتراب الفرصة السانحة ، للتحرر من نير حكم أجنبي ، أضحي يرهقه ، وأضحى يتوق هو إلى تحطيمه .

ونحسب أننا بهذا الاستعراض الموجز لظروف الحكم المرابطي وأحواله

(١) وهو يقصد هنا مدينة إشبيلية ، حسبما يبدو من سياق ما سبق .

(٢) رساله ابن عبدون في القضاء والحسبة المنشورة بعناية الأستاذ ليثي بروثنسال ص ٢٨ .

بالأندلس ، قد أوضحنا ما ينطوى عليه هذا الحكم من مختلف نواحيه الحسنة والسيئة . وإذا كانت حسنات الحكم المرابطى تتلخص قبل كل شيء فى أعمال الجهاد التى اقترنت بحقبته الأولى ، فإن مثالبه تتلخص فى استئثار المرابطين بالسلطان ، وفرضهم على الأندلس حكم طغيان مطلق ، شديد الوطأة ، لم تألفه الأمة الأندلسية ، ويزيد من وطأته عدوان الحند والعبيد ، ثم حجرهم على العقائد والفكر . بيد أنه يبقى من المبالغة والتحامل ، أن يقال إنه بقيام الحكم المرابطى بالأندلس « قد حلت البربرية مكان التمدن » ، وحل التخريف مكان الذكاء ، وحل التعصب مكان التسامح »^(١). ذلك أن مثل هذا الحكم الدامغ ، لا يسوغ إصداره عن عصر كالعصر المرابطى ، تتراوح أحواله وظروفه بين مختلف الظواهر اللامعة والقائمة . وإذا كان المرابطون ، ينتمون إلى القبائل البربرية البدوية ، فقد كانوا على بداوتهم وتقصفهم يتمتعون بكثير من الفضائل والخلال الحسنة ، من الشجاعة والفروسة والورع ، والتعلق بالجهاد فى سبيل الله ، وقد أتيح لهم بهذه الفضائل ، أن يشيدوا دولة من أعظم الدول التى قامت فى الغرب الإسلامى ، وإن لم يتح لهم أن يشيدوا مدينة خاصة . أجل لقد فقد المرابطون بتعصبهم الجهنسى ، وتزمتهم الدينى ، حب الشعب الأندلسى ، ولكنهم لم يحاولوا تغيير أساليبه فى الحياة الخاصة ، ولم يحاولوا وقف تيار الحركة الفكرية والأدبية ، بل بالعكس حاولوا أن يوجهوها لمعاونتهم وخدمة قضيتهم ، فكان معظم وزراء الدولة المرابطية وكتابها ، منذ البداية ، من أكابر كتاب الأندلس وأدبائها ، وكان بلاط مراكش البربرى ، يصدر كتبه ومراسيمه لأهل الأندلس ، مدبجة بأقلام أقطاب البلاغة فى ذلك العصر ، مثل أبى بكر بن القصيرة ، وأبى القاسم بن الحد ، وأبى محمد عبد المجيد بن عبدون ، وأبى عبد الله بن أبى الخصال ، وغيرهم . وإذن فإنه يكون من التعسف المحض أن يقال إنه بقيام الحكم المرابطى بالأندلس « قد حلت البربرية مكان التمدن » .

ويقول الأستاذ كوديرا معلقاً على ذلك : « إن ذلك لم يحدث بأى حال . فإن حياة المسلمين الإسبان سارت كما كانت تسير حتى يومئذ . وأنه يمكن أن نتحدث أى شخص يقوم بدراسة سير الشخصيات التى تضمها معاجم التراجم ، وأن يجد فيها خلافاً فى طريقة تكوين الأدباء ، أو بعبارة أخرى ، فإن رجال

(١) راجع أقوال دوزى السالفة الذكر .

الأدب حتى عصر الطوائف ومن بعده ، كانوا يدرسون ما يشاءون ، ومع الأساتذة الذين يختارونهم ، إذ كان التعليم بين المسلمين حراً تماماً ، إلا في العصور الأخيرة .

« في تراجم الشخصيات الكثيرة التي تبدو في ذلك العصر ، ومعظمهم من المسلمين الإسبان ، وقليل منهم من المرابطين ، لانجد شيئاً أو نجد قليلاً مما يدل على حدوث تغيير . وإن أولئك الذين عرفوا بحكومات الطوائف ، رأوا أنفسهم مرغمين أن يغيروا طريقة حياتهم ، ورأى رجال البطانة المداهنون والعاطلون ، أن التغيير سوف يسوءهم ، إذا لم يملقوا السادة الجدد ، بيد أن ذلك يحدث دائماً حينما يتغير أهل السلطان »^(١).

ولأنه يبدو من الصعب أن نقدم صورة واضحة عن حياة الشعب المغربي والأندلسي ، في العهد المرابطي . بيد أننا نستطيع على ضوء بعض الإشارات القليلة التي انتهت إلينا ، أن نعرف عن هذه الحياة بعض الشيء .

ومن المعروف أن العهد المرابطي لم يطل بالأندلس أكثر من أربعين عاماً ، وهو قد بدأ بالمغرب قبل ذلك بنحو عشرين عاماً ، فالدولة المرابطية لم تعيش في حالة انتظام واستقرار ، أكثر من جيلين ، هما عصر يوسف بن تاشفين ، وعصر ولده علي ، وحتى فترة الاستقرار في عهد علي لم تطل ، ومذ ظهر محمد ابن تومرت ، في سنة ٥١٥ هـ ، تضطرب أحوال الدولة المرابطية بالمغرب ، ثم تسوء شيئاً فشيئاً ، حتى تنتهي بالانهيار .

في خلال تلك الفترة القصيرة — فترة الاستقرار — مذ أتم يوسف بن تاشفين فتوح المغرب ، والتغلب على سائر الإمارات والقبايل الحصيمة ، وتأسيس مدينة مراكش ، تجوز الأمة المغربية فترة سكونية ورخاء ، بعد أن هدأت فترة الحروب الأهلية ، وأقبل الناس على الأعمال السلمية . وتمتعت الأندلس ، منذ الزلافة ، ثم بعد ذلك مذ سقطت دول الطوائف ، بمثل هذه الفترة من السكونية والرخاء . وكانت الأمة الأندلسية ، أيام الطوائف ، تعاني من حكم أولئك الطغاة الأصاغر ، كثيراً من ضروب الظلم والإرهاق ، ولاتكاد تفيق من الحروب الأهلية التي يشهرها أولئك الأمراء كل على الآخر ، والغزوات المتوالية التي

كان يشهرها النصارى ، والى كانت تعصف بوديانها النضرة ، وتبث إليها الخراب والحدب . فلما قضى المرابطون على دول الطوائف ، ووضعوا حداً مؤقتاً لعدوان النصارى ، ولما شغلت اسبانيا النصرانية ، بحروبها الأهلية ، عقب وفاة ألفونسو السادس ، استطاعت الأمة الأندلسية ، أن تتنفس الصعداء ، وأن تستأنف نوعاً من حياة السلم والدعة . وهناك ما يدل أيضاً على أنها تحررت في ظل العهد المرابطى ، أو على الأقل في نصفه الأول ، من كثير من المكوس والمغرم الظالمة ، التى كانت تفرض عليها أيام الطوائف ، لتغذية قصور أولئك الطغاة الأصاغر ، بما كانت تنعم به من ضروب الإسراف والبدخ .

على ضوء هذه القرائن والظروف ، نستطيع أن نقول إن الأمة الأندلسية ، كانت في أعوام يوسف بن تاشفين الأخيرة ، وفي أوائل عهد ولده على ، تتمتع بفترة من السكينة والرخاء ، لم تعرفها منذ أيام الدولة العامرية ، وقبل انهيار الخلافة الأندلسية . وإذا استثنينا ما فرضه المرابطون على الحياة العقلية ، وعلى الطبقة المفكرة ، من ضروب الحجر ، فإنه يبدو أن طبقات الشعب العادية ، كانت تشعر بتحسن مآدى حياتها ، وكانت بعد أن خفت عنها وطأة الأعباء المالية والعسكرية ، بعد اضطلاع المرابطين بشئون الجهاد والدفاع ، تستطيع أن تنصرف إلى الأعمال السلمية ، وإلى تحصيل أرزاقها وأقواتها ، في هدوء وسلام ، وأن تتمتع من جراء ذلك بشيء من الرخاء الذى كان ينقصها من قبل . ومن ثم فإنه يسوغ لنا ، بالرغم مما يمكن أن ينسب إلى الحكم المرابطى من صفات العسف والطغيان ، أن نصف العهد المرابطى ، بأنه كان بالنسبة للأمة الأندلسية عهد استقرار نسبي ، تتمتع فيه بنوع من الدعة والرخاء . وهذا ما يؤيده قول المؤرخ معلقاً على حكم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين : « أقامت بلاد الأندلس في مدته سعيدة حميدة ، في رفاهية عيش ، وعلى أحسن حال ، لم تزل موفورة محفوظة إلى حين وفاته » (١) .

ومن جهة أخرى ، فإنه ليس ثمة ريب في أن المغرب ، كان يتمتع بمثل هذا الرخاء والدعة ، في عهد يوسف بن تاشفين ، وأوائل عهد ولده على ، أعنى قبل أن تضطرب أحواله من جراء ثورة ابن تومرت . وإنه ليكنى أن نستعرض ما كان عليه المغرب ، في أواسط القرن الخامس الهجرى قبل قيام

الدولة المرابطية بقليل ، من ضروب التفكك والفوضى ، والحروب الأهلية المتوالية ، لندرك أن قيام الدولة المرابطية كان بالنسبة للمغرب نوعاً من الإنقاذ القومى ، وأن الأمة المغربية استطاعت أن تعيش فى ظل الحكم المرابطى ، عزيزة الجانب ، موحدة الكلمة ، وأن تتمتع بكثير من الأمن والرخاء ، وأن تتحرر من كثير من المظالم ، وضروب الفوضى ، التى كانت تعانيها من قبل . ولدنا ما يؤيد ذلك من النصوص الصريحة . فمن ذلك ما ينقله إلينا صاحب روض القرطاس عن ابن جنثون وهو ما سبق أن اقتبسنا بعضه :

« كانت لمتونة أهل ديانة ونية صادقة خالصة ، وصحة مذهب . وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل ، وعافية وأمن ، تنهى القمح فى أيامهم إلى أن يباع أربع أسق بنصف مثقال ، والتامر ثمان وأسق بنصف مثقال ، والقطاني لا تباع ولا تشتري . كان ذلك مصطحباً بطول أيامهم ، ولم يكن فى بلد من أعمالهم خراج ، ولا معونة ، ولا تقسيط ، ولا وظيفة من الوظائف الخزنية حاشا الزكاة والعشر . وكثرت الخيرات فى دولتهم ، وعمرت البلاد : ووقعت الغبطة . ولم يكن فى أيامهم نفاق ولا قطاع ، ولا من يقوم عليهم ، وأجهم الناس ، إلى أن خرج عليهم المهدي الموحدين فى سنة خمس عشرة وخمس مائة »^(١) .

ومن الواضح أن ذلك كله ينصرف إلى عهد يوسف بن تاشفين وأوائل عهد ولده على . فلما اضطربت الأمور عقب قيام حركة المهدي ابن تومرت تبدلت الأحوال ، وغلبت الفوضى ، وكثر الفساد ، وغاض الأمن والرخاء ، على نحو ما يحدثنا المراكشي فى قوله ، إنه فى آخر عهد على « ظهرت مناكر كثيرة ، وفواحش شنيعة ، من استيلاء النساء على الأحوال ، واستبدادهن بالأمور ، وكان كل شريد من لص أو قاطع طريق ، ينتسب إلى امرأة قد جعلها له مائجاً وزراً على ما تقدم »^(٢) . ومهما يكن من مبالغة فى هذا التصوير ، فإن الذى لا ريب فيه هو أن حركة المهدي ابن تومرت كانت ضربة قاضية ، لكل ما حملته الدولة المرابطية إلى المغرب من أسباب الاستقرار والأمن والرخاء ، وأن المغرب لبث خلال المعركة التى اضطرت بين المرابطين والموحدين ، يعانى كثيراً من أسباب الاضطراب والفوضى ، إلى أن تم الظفر للموحدين . وتوطدت دعائم الدولة الجديدة .

(١) روض القرطاس ص ١٠٨ .

(٢) المعجب ص ١٠٣ .

الفصل الثاني

الحركة الفكرية الأندلسية

خلال العهد المرابطي

القسم الأول

المرابطون والحركة الفكرية . إزدهار التفكير الأندلسي أيام الطوائف ، احتفائه بنشاطه أيام المرابطين . رعاية الدولة المرابطية لكتاب الأندلس . استخدامهم في البلاط المرابطي . أبو بكر بن القصيرة . بنو القبطرنة . ابن عبدون . ابن الجد الفهري . أبو عبد الله بن أبي الخصال ، أدبه ونثره وشعره . أبو جعفر بن عطية . ابن خاقان . ابن الصيرفي . أخيل بن إدريس . علي بن عبد العزيز الأنصاري . الحركة الفكرية في ظل المرابطين امتداد لها منذ الطوائف . العلماء والأدباء والشعراء في هذه الفترة . أبو عبد الرحمن بن طاهر . رسالة الكافية . مروان بن عبد العزيز وشعره . أبو جعفر الوقشي . تنويه ابن الأبار بمكانته . شيء من شعره . ابن الأزرق . علي بن أحمد الشلطي . علي بن مسعود الحولاني . الأدباء المؤرخون . ابن بسام الشنتريني وكتابه الذخيرة . الحجاري صاحب المسهب . أبو محمد عبد الله الرشاطي . أبو عامر الطرطوشي . أبو بكر الشلبي . أبو القاسم بن بشكوال . بعض الشعراء المتخصصين . أحمد بن عبد الملك بن سعيد . محمد بن عبد الرحمن العقيلي . ابن سيد اللص . أمير الزجل أبو بكر بن قزمان .

لم بطل عهد المرابطين بالأندلس أكثر من نصف قرن ، أنفق معظمه في أعمال الجهاد ، ومداغة النصاري . ولم تكن الدولة المرابطية ، سواء بالمغرب أو الأندلس ، سوى دولة دينية عسكرية قبل كل شيء ، ولم تكن بطبيعتها البدوية الخشنة ، تميل إلى الأخذ بأساليب التمدن الرفيعة ، أو تتجه إلى رعاية العلوم والآداب ، أو أن عهدها القصير لم يفسح لها مجالاً للأخذ بمثل هذه الأساليب ، وبذل مثل هذه الرعاية ، ومن ثم فإنه يمكن القول ، بأن الحركة الفكرية ، بالأندلس ، لبثت خلال العهد المرابطي ، في حالة ركود نسبي ، ولم تحظ باندفاع خاص ، أو بازدهار يلفت النظر ، بل يمكن أن يقال أيضاً ، إن ما عمدت إليه الحكومة المرابطية من مطاردة البحوث الكلامية والفلسفية ، كان له أثره في صد الحركة الفكرية ، وفي تأخرها .

يبد أنه يجب ألا ننسى ، أن الحركة الفكرية بالأندلس ، كانت في عهد دول الطوائف ، وقبل مقدم المرابطين ، تجوز حركة اندفاع قوى ، وأن العلوم

والآداب قد ازدهرت في ظل قصور الطوائف ، ورعاية ملوكها ، ازدهاراً يدعو إلى الإعجاب ، وإذا فقد كان من الطبيعي . أن يستمر هذا الاندفاع وقتاً آخر قبل أن يخبو ، وأن تحتفظ الحركة الفكرية بقوتها مدى حين ، وذلك بالرغم مما فقدته في ظل العهد الجديد - العهد المرابطي - من عوامل الرعاية والتشجيع ، التي كانت تغذيها أيام الطوائف .

وهذا ما يمكن أن نفسر به تلك الظاهرة ، وهي أن الحركة العلمية والأدبية بالآندلس ، لبثت خلال العهد المرابطي ، تحتفظ بكثير مما كان لها أيام الطوائف من قوة وحيوية ، وأن النصف الأول من القرن السادس الهجري ، وهو الذي يستغرق عهد المرابطين ، يحفل بجمهرة كبيرة من رجال العلم والأدب ، ومنهم بعض الأقطاب البارزين .

ثم إنه يجب ألا ننسى إلى جانب ذلك ، أن الدولة المرابطية ، قد بذلت رعايتها لطائفة كبيرة من العلماء والأدباء الآندلسيين ، واستخدم بلاط مراکش ، والأمراء والحكام المرابطون بالآندلس ، كثيراً منهم في مناصب الوزارة والكتابة ، أسوة بما كانت تجرى عليه قصور الطوائف من حشد أعلام التفكير والبلاغة بها ، ليزدان بهم بلاط الأمير ، وليكونوا لسانه البليغ في تدبير الأوامر والمراسيم ، وفي مخاطبة الكافة . بيد أنه مما تجب ملاحظته ، هو أن الدولة المرابطية ، إذا كانت في حاجة لأن تستخدم كتاب الآندلس البلغاء ، للإعراب عن رغباتها ومخاطباتها ، فإنها لم تكن تعنى بأمر الشعر أو تقدره قدره ، ولم يستهوا رنينه وروعته ، اللهم إلا في أواخر عهدها ، حيث بدأ الشعراء ينظمون مدائحهم لعلى بن يوسف وولده تاشفين ، ومما يذكر في ذلك ما لاحظته الشقندى في رسالته عن يوسف بن تاشفين من أنه « لولا توسط ابن عباد لشعراء الآندلس في مدحه ، ما أجزوا له ذكراً ، ولا رفعوا للملكه قدراً ، وأنه حينما أنشده الشعراء مدائحهم سأله المعتمد أيعلم أمير المسلمين ما قالوه ، قال لا أعلم ، ولكنهم يطلبون الخير »^(١) .

وسنحاول في هذا الفصل ، أن نستعرض تلك الجمهرة من العلماء والأدباء الآندلسيين ، الذين ظهوروا في تلك الفترة القصيرة - فترة العصر المرابطي - ويأتي في مقدمة هؤلاء تلك الصفوة من الكتاب والأدباء ، الذين ظهوروا في أواخر عهد

(١) راجع رسالة الشقندى في فضائل الآندلس ، وقد نشرها المقرئ في نفح الطيب (القاهرة ،

الطوائف ، واستدعيتهم الدولة المرابطية لخدماتها ، بعد أن زالت قصور الطوائف ، وأصبحت الأندلس جزءاً من الإمبراطورية المرابطية الكبرى .

— ١ —

بدأ استخدام البلاط المرابطي للكتاب الأندلسيين ، منذ عهد يوسف بن تاشفين ذاته ، فكان كاتبه قبل أن يعبر إلى شبه الجزيرة ، أديب أندلسي من أهل ألمرية ، هو عبد الرحمن بن أسباط ، حسبنا أثرنا إلى ذلك في موضعه . فلما توفي سنة ٤٨٧ هـ ، وكان يوسف قد افتتح ممالك الطوائف يومئذ ، خلفه في منصب الكتابة ، كاتب من أعظم كتاب الأندلس يومئذ ، هو محمد بن سليمان الكلاعي الإشبيلي ، ويكنى أبا بكر ، ويعرف بابن القصيرة . فكان مثوله في البلاط المرابطي بداية لاحتشاد أعلام الكتابة الأندلسيين للخدمة فيه . وكان ابن القصيرة من وزراء بني عباد وكتابهم ، خدم المعتضد ثم ولده المعتمد ، وحظي لديه حتى غدا في أواخر عهده أعظم وزرائه نفوذاً وسلطاناً . ولما تخرجت الأمور ، واشتد ألفونسو السادس ملك قشتالة في إرهاب الطوائف ، كان ابن القصيرة ضمن سفراء الأندلس ، الدين وفدوا إلى المغرب ، لطلب الإنقاذ والغوث من يوسف بن تاشفين . ولما استولى يوسف على دول الطوائف ، اعتزل ابن القصيرة وقتاً حتى استدعاه يوسف لكتابته ، حسبما تقدم . وكان ابن القصيرة كاتباً بليغاً مبدعاً ، ويصفه ابن الصيرفي بقوله « الوزير الكاتب الناظم ، النائر ، القائم بعمود الكتابة ، والحامل للواء البلاغة ، اجتمع له براعة النثر وجزالة النظم » . ويصفه ابن بشكوال في الصلة بأنه « كان من أهل الأدب البارع ، والتفنن في أنواع العلم » . وقد انتهت إلينا من آثار ابن القصيرة المنشورة ، قطع عديدة ، منها أولانص المرسوم الصادر عن يوسف ابن تاشفين بإسناد ولاية العهد لولده ، علي ، وهو مديح بقلمه ، وقد أوردناه من قبل في موضعه ، ورسائل مختلفة أوردناها لصاحب القلائد ، وهي جميعاً تدل على قوة أسلوبه ، وروعة بيانه . وكان ابن القصيرة شاعراً جزلاً في نفس الوقت ، وقد أورد لنا ابن الخطيب من شعره قصيدة في هجو ابن ذى النون ، ومدح ابن عباد حينما استولى على قرطبة . وتوفي ابن القصيرة في جمادى الآخرة سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م)^(١)

(١) راجع في ترجمة ابن القصيرة . الصلة لابن بشكوال (القاهرة) رقم ١٢٥٣ ، وقلائد العتيان ص ١٠٤ - ١٠٦ ، والإحاطة في مخطوط الإسكوريال السالف ذكره لوحة ٦٤ و ٦٥ .

واحتشد في البلاط المرباطى إلى جانب ابن القصيرة ، عدة من أعلام الكتاب وأئمة البلاغة في ذلك العصر ، منهم بنو القبطرنة وهم أبو بكر بن عبد العزيز البطليوسى ، وأخوه أبو الحسن وأبو محمد ، وقد كانوا من أهل بطليوس ، ومن كتاب دوله بنى الأفطس ، وقد كتب ثلاثهم بعد ذهابها عن أمير المسلمين على ابن يوسف ، وكانوا جميعاً من أكابر الكتاب والشعراء . وكان أبو بكر المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) فيما يبدو عميدهم في النباهة والبلاغة ، أو حسبها بصفه ابن بسم « علم بردهم ، وواسطة عقدهم » . وقد ذكرهم صاحب القلائد ، وأورد لنا طرفاً من منظومهم ومنثورهم ، وكذا ابن الخطيب في الإحاطة ، وابن سعيد في المغرب^(١) .

ومنه وزير بنى الأفطس وكتابهم وصاحب مراثيتهم الغراء ، أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، وقد سبق أن أتينا على ترجمته في « دول الطوائف »^(٢) .

وأبو القاسم محمد بن عبد الله بن الحسد الفهرى ، وهو من أهل لبلة ، برع في الفقه والأدب ، وسكن لإشبيلية ، وخدم في بداية أمره دولة بنى عباد . ولما ذهبت دولتهم ، تولى خطة الإفتاء بلبلة ، ثم استُدعى للكتابة في بلاط على ابن يوسف ، واستمر في منصبه حتى توفى في سنة ٥١٥ هـ . وقد أورد لنا صاحب القلائد طرفاً من نظمه ورسائله ، ومنها رسالة عن أمير المسلمين إلى أهل سبتة ، بولاية الأمير يحيى بن أبي بكر الصحرأوى لفاس وسبتة ، ورسالة إلى أبي محمد عبد الله بن فاطمة وإلى لإشبيلية ، يدعو فيها إلى التزام الحق واتباع العدل ، والرفق بالرعية ، ورسالة إلى أهل لإشبيلية يحثهم فيها على نبذ الشقاق والتطاحن^(٣) .

وكان منهم أخيراً ، أبو عبد الله بن أبي الخصال ، وأخوه أبو مروان عبد الملك . وأبو عبد الله هو محمد بن مسعود بن خلصة ، ابن أبي الخصال الغافقى ، أصله من كورة جيان ، من أهل شقورة ، ولد في سنة ٤٦٥ هـ ، وسكن قرطبة وغرناطة ، وبرع في الحديث وعلوم اللغة والسير ، وبرع في الكتابة والنظم ،

(١) راجع قلائد العقيان ص ١٤٨ - ١٥٥ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٥٢٨ - ٥٣١ ، والمغرب في حل المغرب ج ١ ص ٣٦٧ و ٣٦٨ .

(٢) راجع كتابنا دول الطوائف ص ٤١١ .

(٣) ترجم ابن بشكوال لابن الجدي في الصلة (القاهرة) رقم ١٢٦٧ ، وقلائد العقيان ص ١٠٩ - ١١٥ .

حتى نعت بإمام البلاغة ، ووصفه ابن بشكوال بأنه « كان مفخرة وقته . وجمال جماعته » . وقال أبو القاسم الملاحى لم يكن في عصره مثله . اتصل برجال الدولة اللمتونية ، وتولى الوزارة والكتابة لعلى بن يوسف ، وحظى لديه ، حتى غدا أنبه كتابه ، وأعلام مكانة ، وآثرهم لديه ، وكان يعاونه في ديوان الكتابة أخوه أبو مروان عبد الملك . وصدرت بقلم ابن أبي الخصال عن على بن يوسف رسائل كثيرة في مختلف الأغراض ، وانتهى إلينا الكثير منها ، وهى تدل جميعاً على روعة أسلوبه وفيض بلاغته ، واستمر على مكانه في البلاط المرابطى . حتى صدرت عنه بأمر على بن يوسف رسالة موجهة الى الجند المرباطين ببلنسية ، يلومهم فيها على تخاذلهم أمام العدو ، فجاءت رسالة قاسية تفيض بالسباب المقذع ، والظعن المهين^(١) ، فكانت سبباً في الوحشة بينه وبين الأمير ، وترتب على ذلك أن استعفى أبو عبد الله من منصبه ، فأعفاه على بن يوسف ، وعاد إلى قرطبة ، ثم توفى بها بعد قليل في شهر ذى الحجة سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٦ م) ، وتوفى أخوه عبد الملك قبله بمراكش في سنة ٥٣٩ هـ^(٢) .

وقد كتب أبو عبد الله بن أبي الخصال عدة مؤلفات قيمة منها كتاب « سراج الأدب » الذى صنفه على طريقة كتاب النوادر لأبى على القالى ، وزهر الآداب للحصرى ، وكتاب « ظل الغمامة وطوق الحمامة » ، وهو في مناقب الصحابة . وقصيدته الموسومة « بمعراج المناقب ، ومنهاج الحسب الثاقب » في نسب رسول الله . وجمعت رسائله في غير مجموع . وله أيضاً آثار شعرية كثيرة . وقد سبق أن أوردنا شيئاً من نظمه في مديح الأمير تاشفين^(٣) .

(١) وردت هذه الرسالة في مجموعة الإسكوريال المخطوطة رقم ٥٣٨ الفزيرى . ونشر المراكشى في المعجب جزءاً منها (ص ٩٨) . ونشرها الدكتور حسين مؤنس كاملة في مجلة المعهد المصرى بمديرية في العدد الثالث سنة ١٩٥٥ ص ١١٦ - ١١٨ .

(٢) راجع في ترجمة ابن أبي الخصال : الصلة لابن بشكوال (الفاخرة) رقم ١٢٩٤ . والإحاطة مخطوط الإسكوريال السالف الذكر - لوحة ٣٩ ، والمعجب ص ٩٦ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ١٣٧ ، وكذلك

P. Boignes : Historiadores y Geograficos Arabigo - Espanoles No 165

ونشر الدكتور محمود على مكى عدة من رسائل ابن أبي الخصال الصادرة عن على بن يوسف في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية (المجلدان السابع والثامن) ص ١٦٧ - ١٧٤ .

(٣) أورد لنا ابن دحية في كتابه « المطرب من أشعار أهل المغرب » شيئاً من نظمه ص

ومن شعره :

وافى وقد عظمت على ذنوبه في غيبة قبحت بها آثاره
فحى إساءته لنا إحسانه واستغفرت لذنوبه أوتاره
وقوله يتشوق إلى قرطبة :

أسمت لهم بالغور والشمل جامع بروقاً بأعلام العذيب لوامع
فباحث بأسرار الضمير المدامع ورب غرام لم تنله المسامع

ويجب ألا ننسى ، أنه كان يوجد إلى جانب هذه الصفوة من الكتاب الأندلسيين ، وزير وكاتب نابه من أصل أندلسي ، ومن أعلام البلاغة وأئمة البيان في ذلك العصر ، هو الوزير الكاتب ، الناصر الشاعر ، أبو جعفر أحمد بن عطية ، الذي تبعنا أخباره فيما تقدم ، مذ خدم الدولة اللمونية حتى سقوطها ، ثم انتقل إلى خدمة الموحدين في الظروف التي شرحناها ، حتى كانت نكبته على يد الخليفة عبد المؤمن بن علي .

وكتب عن أمراء الدولة اللمونية أيضاً ، كاتبان أندلسيان آخران هما أبو نصر الفتح بن خاقان ، وابن الصيرفي . فأما الفتح بن خاقان ، فهو لإشبيلي من كتاب الطوائف الأعلام . وقد اشتهر بأسلوبه الأدبي البليغ المسجع ، وهو الذي اتبعه في كتابيه « قلائد العقيان » و« مطمح الأنفس » . طاف في أول أمره بقصور الطوائف ، واتصل بمعظم أمراءها . ثم خدم الأمير أبا إبراهيم إسحق بن يوسف بن تاشفين ، أخا أمير المسلمين علي بن يوسف ، وكتب له كتابه « القلائد » مشتملاً على تراجم أمراء الطوائف ، وأعيان العصر وفقهائه وكتابه . وانتقل في أواخر حياته إلى مراکش وعاش بها ، وكان خليعاً مدمناً ، منحرف السلوك ، فاتمى بأن توفي قتيلاً في الفندق الذي يسكنه ، وقيل إن الذي أشار بقتله هو علي بن يوسف^(١).

وأما ابن الصيرفي ، فهو يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري ، يكنى أبا بكر ، ويعرف بابن الصيرفي . كان من أعلام العصر المرابطي في البلاغة والأدب والتاريخ ، وكان من الكتاب المجيدين ، والشعراء المطبوعين ، كتب بغرناطة عن الأمير تاشفين بن علي ، أيام أن كان والياً للأندلس ، وألف في تاريخ الأندلس في العصر المرابطي كتاباً سماه « الأنوار الحلية في أخبار الدولة

(١) راجع ترجمة الفتح بن خاقان في ابن خلكان (ج ١ ص ٥١٥) .

وكذلك : P. Boigues : ibid ; No 162

المرابطية » . وكتاباً آخر سماه « قصص الأنباء وسياسة الرؤساء » . وهما مؤلفان . لم يصل إلينا مع الأسف . ولم يصل إلينا من مؤلفه الأول سوى شذور نقلها المتأخرون ، مثل ابن الخطيب وغيره ، ومن ذلك روايته عن غزوة ألفونسو المحارب للأندلس ، وهي واقعة كان من معاصريها وشهودها ، وقد فصلنا حوادثها في موضعها . وتوفي ابن الصيرفي بغرناطة في سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م)^(١) .

ومن الكتاب الذين اتصلوا بالدولة اللاتينية ، وكتبوا عنها أخيل بن إدريس الرندي ، الذي تتبعنا مصايره من قبل خلال حديثنا عن حوادث الثورة بالأندلس ، فقد كتب في بداية حياته للمرابطين ، ولما قام القاضي ابن حمدين بقرطبة تولى الكتابة عنه ، ثم لحق ببلده رندة ، واستبد بحكمها حيناً ، فلما انتزعها منه ابن عزون صاحب شريش ، عبر البحر إلى مراكش واتصل بحكومة الموحدين ، ثم ولى بعد ذلك قضاء قرطبة ، فقبضاء إشبيلية ، حيث توفي بها في سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٥ م) . وكان أخيل كاتباً بليغاً وشاعراً مطبوعاً . وقد ورد لنا ابن الأبار شيئاً من شعره^(٢) .

وكان من هؤلاء الوزراء الكتاب أيضاً ، علي بن عبد العزيز بن الإمام الأنصاري ، وهو سرقسطي الأصل ، سكن غرناطة ، وكان من الكتاب المحيدين وأهل البلاغة والفصاحة . ووزر للأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف أيام ولايته لغرناطة ، ثم كتب من بعده لأخيه الأمير علي بن يوسف^(٣) .

كان اجتماع هذه الصفوة الممتازة من كتاب الأندلس في البلاط المرابطي ، ظاهرة تدل بأن المرابطين لم تفهم أهمية القيم العلمية والأدبية ، وأهمية الأساليب البليغة العالية ، في عرض مراسيم الدولة ، وأوامرها ، والإفصاح عن رغباتها ، ووجهات نظرها ، بيد أنها كانت رعاية محدودة المدى ، مقصورة على المجال الرسمي ، ولم تكن تسيرها تلك النزعة المستنيرة ، التي تعتبر الحركة العلمية والأدبية ، من المقومات الحيوية ، لأمة عريقة متحذنة ، كالأمة الأندلسية .

يمكننا أن نعتبر الحركة الفكرية والأدبية بالأندلس ، في العصر المرابطي ،

(١) ترجمة ابن الصيرفي في الإحاطة ، مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٤١٥ . وقد سبق أن نقلناها في ص ١١٠ من هذا الكتاب (الحاشية) .

(٢) راجع ترجمة أخيل بن إدريس في الحلة السيرة ص ٢٢٢ - ٢٢٤ .

(٣) ابن الخطيب في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٣٣١ .

هي امتداد لها منذ أيام الطوائف . ومع ذلك فإن هذه الحركة لم تخل من بعض عناصر القوة ، التي نبتت وتأنثت في العصر المرابطي ذاته . وقد يرجع ذلك إلى أن الضغط الذي عانته الحركة الفكرية من الحكم المرابطي ، لم يكن شاملاً ، ولم يكن بالأخص طويل الأمد .

وبالرغم من أن الحركة الفكرية الأندلسية لم تصل خلال العصر المرابطي ، إلى ذلك المدى من الازدهار والضحامة والتنوع ، الذي باغته في ظل دول الطوائف ، فإننا نستطيع مع ذلك أن نستعرض إلى جانب هذه الجمهرة من أكابر الكتاب الذين خدموا في البلاط المرابطي ، جمهرة كبيرة أخرى من العلماء والأدباء والشعراء الذين ظهروا في تلك الفترة ، ومنهم بالفعل عبقریات فذة ، يمكن أن تزهو بها أية حركة عقلية .

ولنبداً بذكر أعلام الأدباء من كتاب وشعراء ، ولدنا منهم ثبت حاشد . فمنهم أولاً ، أميران من أمراء بلنسية ، هما أبو عبد الرحمن بن طاهر القيسي ، وأبو عبد الملك مروان بن عبد العزيز . وقد سبق أن أتينا على سيرة كل منهما في الحكم ، وما تقلب فيه من أحداث السياسة . فأما أولهما أبو عبد الرحمن بن طاهر ، فقد كان صنو جده أبي عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية أيام الطوائف ، وأحد أمراء البيان المبرزين في عصره ، كان صنوه في العلم والأدب ، وفي سحر البيان وروعته ، وكان إلى جانب ذلك شاعراً مطبوعاً . عاش بعد خلعه من الإمارة على يد ابن عياض ، حيناً بمرسية ، في عزلة مطبقة ، وهو يشهد تطور الحوادث في شرقي الأندلس . ولما توفي محمد بن سعد بن مردنيش زعيم الشرق ، وإنهات بوفاته جبهة الثورة ضد الموحدين ، دخل ابن طاهر في الدعوة الموحدية ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، واستقر بمراكش ، وتوفي بها في سنة ٥٧٤ هـ (١) .

ومن آثاره النثرية ، رسالة يخاطب بها الخليفة عبد المؤمن ، ويحاول فيها أن يثبت أمر الإمام المهدي بالأدلة التاريخية والمنطقية . وقد وضعها على طريقة المساجلة بالدليل والبرهان ، بين النفس المطمئنة المؤمنة الراضية ، والنفس الزوعية الثائرة . وتحمل النفس المطمئنة خلال حديثها على عهد المرابطين ، وتصفه بعهد الضلال والفسق ، وتحاول أن تؤيد صدق قضية المهدي وشرعية إمامته ، وصحيح نسبته إلى آل البيت . وقد اقتنعت النفس الزوعية الأمارة بالسوء في النهاية بصدق

(١) أورد لنا ابن الأبار في الحلة السيرة ترجمة ضافية لابن طاهر (ص ٢١٦ - ٢٢٢) .

تدليل خصيمتها النفس المطمئنة . ويختتم ابن طاهر رسالته ، وهى المسماة « بالكافية »
بمدح الخليفة عبد المؤمن والدعاء له ، والإشادة بمآثره^(١) .
ومن نظمه قوله :

هجرت من الدنيا لذيد نعيمها لأنك لا ترضاه إلا مخلدا
وقضيت شهر الصوم بالنية التى رقيت بها فى رتبة القدس مصعدا
وودع عن شوق إليك مبرح فلو كان ذا جفن لبات مسهدا
وأما مروان بن عبد العزيز ، فقد كان فقيهاً عالماً وأديباً كبيراً ، وشاعراً
جزلاً ، وكان قبل توليه إمارة بلنسية ، يلى قضاءها . وقد تبعتها فيما تقدم أطوار
حياته السياسية ، ثم محنته بعد أن خُلِع من الإمارة ، وأُلقي إلى ظلام السجن أعواماً
طوالاً . وذكر لنا ابن الأبار أنه نظم فى محنته قصيدة هذا مطلعها :

يا نفس دونك فاجزعى أو فاصبرى طاع الزمان بوجهه المتنمّر
ولما أطلق سراحه بواسطة الوزير أبى جعفر بن عطية ، وانتظم فى مجلس
الخليفة عبد المؤمن ، نظم فى حق الوزير المحسن إليه ، وفى التحريض على نكبته ،
تلك القصيدة التى أوردناها فيما تقدم والتى مطلعها :

قل للإمام أطل الله مدته قولاً تبين لى لب حقائقه
ومن شعره فى وصف بلنسية :

كأن بلنسية كاعب وملبسها السندس الأخضر
إذا جثتها سترت نفسها بأكامها فهى لا تظهر

وتوفى ابن عبد العزيز بمراكش سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) .
وكان من الوزراء الأدباء الشعراء ، أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن الوقشى^(٢)
وزير ابن هـمّشك وكتابه ونائبه بمدينة جيان . وكان ابن هـمّشك حينما هزم فى موقعة
السبيكة بأراضى غرناطة (سنة ٥٥٧ هـ) ، قد فر منسحباً إلى الشرق ، وطارده
الموحدون ، وحاصروا مدينة جيان ، وكان بها الوزير الوقشى فامتنع بها ودافع

(١) تسمى هذه الرسالة باسمها الكامل « الكافية فى براهن الإمام المهدي رضى الله عنه تعالى
عقلاً وبقلاً » ، وقد أورد لنا ابن القطان نصها الكامل فى « نظم الجان » وهى تستغرق منه عدة صفحات
(المخطوط لوحة ٢٠ إلى ٣٠ ب) .

(٢) راجع ترجمة مروان بن العزيز فى الحلة السيرة ص ٢١٢ - ٢١٦ ، والتكملة (القاهرة)
رقم ١٧٥١ . وراجع أيضاً المغرب من أنعار أهل المغرب ص ٨٠ و ١٠٨ .

عنها ، حتى أقلع الموحدون عنها دون طائل . ولما وقع الشقاق بين ابن همشك ، وبين حليفه وصهره محمد بن سعد بن مردنيش ، ودخل ابن همشك في دعوة الموحدين (٥٦٢ هـ) ، بعث وزيره الوقشي إلى بلاط مراکش ليسعى في إنجاده ضد صهره . وينوه ابن الأبار بمكانة الوقشي الأدبية ، ويقول لنا إن له « تحقق بالإحسان ، وتصرف في أفانين البيان » ويشير إلى أن الشاعر ابن غالب الرصافي ، قد مدحه في ديوانه « وأعرب عن جلالة شأنه » ثم يقارنه بأبي جعفر بن عطية ، وقد كان كلاهما . من مفاخر الأندلس « وكانا متعاصرين في الكفاية متكافئين ، ولذلك في النثر مزية هذا في الشعر » . وقد أورد لنا ابن الأبار طائفة من شعر الوقشي ، ومن ذلك قوله يصف الشقائق :

وشقائق لاحت على الأغصان مثل الحدود تزان بالخيولان
يهفو النسيم مع الأصائل والضحى فيهب منها معطف النشوان
فكانها قصب الزمرد ألصقت بالمسك فيها أكؤس العقيان^(١)
وذكر ابن عبد الملك في التكملة ، أن الوقشي مدح الأمير أبا يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن بقصيدة مطلعها :

أبت غير ماء النخيل ورودا وهاجت به عذب الحمام مرودا
وقالت لحادها أتم زيادة على العشر في وردى له فأزيذا
ومنها في الحث على الجهاد :

ألا ليت شعري هل يُمد لي المدى فأبصر خيل المشركين طريدا
وهل بعد يقضى في النصارى بنصرة تغادرهم للمرهقات حصيدا
ويغزو أبو يعقوب في شات ياقب يعيد عميد الكافرين عيدا^(٢)

وتوفي الوقشي بمالقة في سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨ م) .

ومن أعلام الأدب الذين ظهروا في العصر المرابطي ، أبو الحسن عبد الملك ابن عباس بن فرج بن عبد الملك المعروف بابن الأزرق ، وهو من أهل قرطبة ، وكان كاتباً بليغاً وشاعراً مقتدرًا ، كتب عن قاضي الجماعة أبي القاسم بن حمدين في أواخر عهد المرابطين ، ولما ثار أبو جعفر بن حمدين وانتزع الرياسة لنفسه ، خشى ابن الأزرق العاقبة ، وفر إلى إشبيلية ، وانقطع إلى العبادة ، في بعض

(١) أورد لنا ابن الأبار في الحلة السراء ترجمة ضافية للوقشي (ص ٢٣٠ - ٢٣٦) .

(٢) الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي (الجزء الأول من مخطوط باريس لوحة ١٦) .

قرى لإشبيلية . ثم استدعاه أبو إسحق برّاز بن محمد المسنوني عامل لإشبيلية الموحدى للكتابة ، فتولى منصبه على كره منه ، ثم كتب من بعده للأمير أبي حفص ابن عبد المؤمن ، ثم كتب عن عبد المؤمن نفسه ، بعد مقتل كاتبه ابن عطية ، ثم عن ولده أبي يعقوب يوسف ، وقت ولايته لإشبيلية ، وتوفى في سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢) (١) .

ومنهم على بن أحمد بن محمد بن عثمان الكلبي الشلطي ، من أهل الغرب ، سكن قرطبة ، وكان فقيهاً متمكناً ، وكاتباً بليغاً ، وشاعراً مجيداً . ولما ثار أخوه أبو بكر محمد داعية المريدين بميرتلة ، سنة ٥٣٩ هـ ، خاف على نفسه ، واحتفى أشهراً ، ثم غادر قرطبة وتجول حيناً في مختلف القواعد الأندلسية ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، ونزل بمراكش ، وأقام بها حتى توفى سنة ٥٦٦ هـ (١١٧١ م) (٢) .

ومثهم أبو الحسن على بن مسعود بن إسحق بن عصام الخولاني ، من أهل سرقسطة ، وكان فقيهاً بارعاً ، حافظاً للمدونة ، وله حظ وافر من الأدب ، ولى قضاء ميورقة . ولما دهم النصارى سرقسطة في سنة ٥١٢ هـ ، وبعث قاضياً بصريخه إلى الأمير أبي الطاهر تميم المراتب بجيشه على مقربة منها ، كان أبو الحسن الخولاني ، وزميله الخطيب أبو زيد بن منتال ، هما اللذان خرجا لمخاطبة الأمير تميم بالنيابة عن أهل سرقسطة ، وناشداه الغوث والإنجاد ، ولكنه لم يستجب إلى هذا الصريخ ، وانتهت سرقسطة إلى التسليم (٣) .

ولمع في العصر المراتبي عدة من الأدباء المؤرخين ، وأعلام الرواية المحققين ، الذين ما زالت آثارهم من أقيم مصادرنا في تاريخ الأندلس ، وتاريخ الأدب الأندلسي .

وكان في مقدمة هؤلاء قطبهم وعميدهم ، أبو الحسن على بن بسام الشنتريني ، صاحب كتاب « الذخيرة » ، وهو من أقيم وأشهر كتب الأدب والتاريخ في هذا العصر ، إن لم يكن أقيمها وأشهرها جميعاً . وابن بسام من أهل غربي الأندلس من مدينة شنترين البرتغالية ، ولكنه غادرها في شبابه إلى إشبيلية حينما اضطربت

(١) الذيل والتكلة المخطوط سالف الذكر .

(٢) الذيل والتكلة المخطوط سالف الذكر .

(٣) الذيل والتكلة المخطوط سالف الذكر . وراجع ص ٩٦ من هذا الكتاب .

بها الأحوال ، واشتد خطر سقوطها في أيدي النصارى . ودرس ابن بسام في إشبيلية وقرطبة ، وكتب مؤلفه الضخم « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » بقرطبة ، وانتهى من كتابته في سنة ٥٠٣ هـ . ويصارعنا ابن بسام في مقدمته بالدفاع النفسي ، الذي دفعه إلى تصنيف كتاب « الذخيرة » ، وهو أنه رأى انصراف أهل عصره وقطره ، إلى أدب المشرق ، والتزود منه والإعجاب به ، وإهمال آداب بلدهم ، فأراد بوضع الذخيرة ، وجميع ما تضمنته من رائق المنشور والمنظوم ، أن يبصّر أهل الأندلس بتفوق أدبائهم ، وروعة إنتاجهم ، وأن من حقهم أن يزهدوا بأدبهم وأن يتذوقوه ، وأن الإحسان ليس مقصوراً على أهل المشرق^(١) . وقد سبق أن أشرنا إلى أهمية الذخيرة كمصدر من أنفس مصادرها التاريخية والأدبية والاجتماعية ، ولا سيما عن عهد الطوائف وأمرائه وأدبائه وشعرائه^(٢) . ولأنه لما يدعو إلى الغبطة أن البحث قد استطاع أخيراً ، أن يضع يده على النص الكامل لكتاب « الذخيرة » بأقسامه أو مجلداته الأربعة ، بعد أن لبث مدة طويلة مفتقداً لبعض أجزائه . وكتب ابن بسام غير « الذخيرة » عدة مصنفات أخرى ، منها كتاب في شعر المعتمد بن عباد ، وكتاب في شعر ابن وهبون ، ورسالة عنوانها « سلك الجواهر في ترسيل ابن طاهر » ومجموعة مختارة من شعر أبي بكر بن عمار . ويمتاز ابن بسام بأسلوبه المشرق ، الذي يغلب عليه السجع ، دون أن ينتقص من قوته وإشراقه ، كما يمتاز بملاحظات النقدية القوية ، التاريخية والاجتماعية . ومما هو جدير بالذكر أنه لم يُعرف عن ابن بسام أنه خدم أحداً من أمراء عصره ، أو تطفل على مواعدهم أسوة بمعظم زملائه ، كتاب العصر وأدبائه . وكانت وفاته بقرطبة سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م)^(٣) .

ومنها أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن وزمر الحجاري ، صاحب كتاب « المسهب » الشهير . وأصله من وادي الحجارة حسبا يدل على ذلك اسمه . ولما سقطت وادي الحجارة في أيدي النصارى ، غادرها مع أهله ، وطاف بعدة من بلاد الأندلس ، ثم نزل مدينة غرناطة ، وسار منها إلى قلعة بني سعيد (أو قلعة يحصب) ، وهناك استقبله صاحبها عبد الملك بن سعيد ، وهو من أقطاب علماء

(١) راجع مقدمة الذخيرة (المجلد الأول القدم الأول) طبعة جامعة القاهرة ص ٣٥٢ .

(٢) كتاب دول الطوائف ص ٤١٨ .

(٣) راجع في ترجمة ابن بسام ، مقدمة كتاب الذخيرة ، وكذلك Pons Boigues : ibid ; No 171

والمراجع

عصره ، وأكرم وفادته ، وقدر علمه وأدبه . وكان الحجارى أديباً كبيراً وشاعراً مطبوعاً ، وكان يشتهر بنظمه في كل بلد نزل فيه . ثم غادر قلعة يحصب ، وقصد إلى المستنصر بن هود بروطة ، ومدحه ، وسار معه في بعض وقائعه مع البشكنس ، فوقع أسيراً ضمن الأسرى . ولما قيض له الخلاص من أسره ، عاد إلى قلعة يحصب ، وعاش في كنف حاميه عبد الملك بن سعيد . وأشهر آثار الحجارى كتابه « المسهب في فضائل (أوغرائب) المغرب » في ستة أجزاء . وقد ألفه تحقيقاً لرغبة ابن سعيد ، وكان فيما بعد مستقى لأسرة بنى سعيد في تأليف كتابها الشهير « المغرب في حلل المغرب » ومن أنحصب وأقيم مصادرها ، وفيه يتناول الحجارى تراجم رجال الأندلس وحوادثها منذ الفتح إلى سنة ٥٣٠ هـ . وقد نقل إلينا المتأخرون منه الكثير ولاسيما المقرئ في نفح الطيب ، حيث ينقل منه عشرات الشذور ، في مختلف المواطن . وتوفى الحجارى في سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م)^(١) .

ومنهم أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الله اللخمي المعروف بالرشاطي ، أصله من أهل أوريولة من شرق الأندلس ، وبها ولد سنة ٤٦٦ هـ . ودرس على عدة من أعلام العصر ومنهم الحافظ أبو علي الصدي . ثم انتقل إلى ألمرية ، وعاش بها . ونبغ الرشاطي في الحديث والرواية والتاريخ والأنساب . وكتب كتابه الشهير « اقتباس الأنوار ، والتماس الأزهار ، في أنساب الصحابة ورواة الآثار » . وأخذ عنه كثير من علماء عصره . وتوفى بألمرية شهيداً حينما دخلها النصاري في يوم ٢٠ جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ (أكتوبر سنة ١١٤٧ م)^(٢) .

ومنهم أبو عامر محمد بن أحمد بن عامر الطرطوشي السالمي ، من أهل طرطوشة من أعمال الثغر الأعلى ، وسكن مرسية ، وكان متقدماً في فنون عديدة من الأدب والشعر والتاريخ وغيرها . وكتب عدة مؤلفات أشهرها كتابه « درر القلائد وغرر الفوائد » . وهو كتاب تاريخي جغرافي . وكتاب « السالك المنظوم والمسلك المختوم » . وتوفى في سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٣ م)^(٣) .

(١) راجع ترجمة الحجارى في « المغرب في حلل المغرب » ج ٢ ص ٣٥ و ٣٦ ، والمقرئ ج ٢ ص ٤٠٦ ، وكذلك Pons Boigues : ibid : No 178

(٢) ترجمة الرشاطي في ابن حلكان ج ١ ص ٣٣٧ ، والصلة رقم ٦٥١ ، وكذلك :

P. Boigues : ibid ; No 169

(٣) ترجمته في التكملة لابن الأبار رقم ٧٢٥ . وكذلك في P. Boigues : ibid ; No. 187

ومنهم أبو بكر محمد بن يوسف بن قاسم الشَّلبِي ، وهو أديب ومؤرخ من أهل الغرب ، ومن مدينة شلب ، وكان تلميذاً للكاتب أبي بكر بن القصيرة . ألف كتاباً في تاريخ المعتمد بن عباد لم يصل إلينا . وتوفي أوائل القرن السادس الهجري^(١) .

ومن الرواة وعلماء الأخبار الذين ظهروا في العصر المرابطي ، محمد بن عبد الله ابن سيّدالة التجيبي من أهل شاطبة ، روى عن جمهرة من أعلام عصره . وكان عارفاً بالأخبار ، حافظاً لأسماء الرواة . وقد ألف مجموعاً في رجال الأندلس ، وصل به كتاب الصلة لابن بشكوال ، وتوفي في سنة ٥٥٨ هـ .

ونذكر أخيراً علماً من أعلام المؤرخين وأصحاب الأخبار المحققين ، في العصر المرابطي ، هو العلامة المؤرخ أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال القرطبي ، ولد بقرطبة سنة ٤٩٤ هـ ، ودرس بها على أشهر أساتذة العصر ، وكان حافظاً ، شغوفاً بالأخبار والسير ، ولاسيما أخبار الأندلس ، محققاً واسع الرواية ، حجة في تحقيقها ، كتب عدة مؤلفات ، أشهرها كتابه « الصلة » الذي جعله تنمة لكتاب ابن الفرّضي في « تاريخ العلماء والرواة بالأندلس » ، والذي يضم أكثر من ألف وخمسمائة ترجمة لعلماء الأندلس ورواتها ، ولاسيما علماء قرطبة ، وقد فرغ من تأليفه بقرطبة في سنة ٥٣٤ هـ ، وجاء ابن الأبار بعده ، فوضع له ذيلاً سماه التكملة في مجلدين كبيرين . ثم جاء أبو جعفر بن الزبير فوضع له ذيلاً آخر سماه « صلة الصلة » . ويعتبر كتاب « الصلة » إلى يومنا من أنفس وأوثق مصادر التاريخ الأندلسي . وكتب ابن بشكوال غير « الصلة » عدة مؤلفات أخرى ، منها « كتاب الغوامض والمهمات » وكتاب « الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة » وكتاب « الحاسن والفضائل » وكتاب « المستغيثين بالله تعالى عن المهمات والحاجات » ، وغير ذلك من مصنفات بلغت نحو الخمسين مؤلفاً . وتوفي ابن بشكوال بقرطبة بعد حياة علمية حافلة ، في رمضان سنة ٥٧٨ هـ (أوأخر سنة ١١٨٢ م)^(٢) .

ولقد تحدثنا فيما تقدم عن علماء وأدباء لم يكن الشعر خاصتهم الأولى ، وإن كانوا

(١) راجع ترجمته في P. Bógues : ibid ; No. 187

(٢) راجع ترجمة ابن بشكوال في التكملة لابن الأبار (القاهرة) رقم ٨٣١ ، وفي وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٥ .

مع ذلك قد لمعوا في ميدان الشعر ، وكانت لهم فيه آثار طيبة . ونود الآن أن نذكر بعض الشعراء الذين نبغوا في العصر المرابطي ، وكان الشعر خاصيتهم الأولى .

فمن هؤلاء أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد ، من بني سعيد العنسي سادة قلعة بني يحصب من أعمال غرناطة ، وهو بيت من بيوتات الأندلس المشهورة ، وينتمي إليه قواد ووزراء وقضاة وكتاب وشعراء ، ومنهم مؤلفو كتاب « المغرب في حلى المغرب » . وشغف أبو جعفر بالأدب والشعر منذ حداثة ، وحفظ الكثير من أشعار القدماء ، وظهرت مواهبه الشعرية لأول مرة حينما وفد مع أبيه وأهله لمقابلة الخليفة عبد المؤمن ، وهو بجبل طارق في سنة ٥٥٦ هـ ، وألقى بين يديه قصيدته التي مطلعها :

تكلم فقد أصغى إليك الدهر وما لسواك اليوم نهى ولا أمر
وقد كانت هذه القصيدة التي نقلناها فيما تقدم ، فاتحة مجده الشعرى . ولما ولى غرناطة السيد أبو سعيد ولد عبد المؤمن ، استوزر أبا جعفر ، وحظى لديه . ثم فسد ما بينهما بسبب تنافسهما في حب الشاعرة الحسناء حفصة بنت الحاج الركوني ، وأخذ السيد أبو سعيد يترقب الفرص لنكته ، وأبو جعفر يتحفظ كل التحفظ ، وفي حالته تلك يقول :

من يشترى منى الحياة وطيبها	ووزارتي وتأدبني وتهلبي
بمحله راع في ذرى ملمومة	زويت عن الدنيا بأقصى مرتب
فلقد شمت من الحياة مع امرئ	متغضب متغلب مترتب
الموت ياحظني إذا لاحظته	ويقوم في فكري أوان تجنبي

وانتهى الأمر بأبي جعفر إلى أن ائتمر مع أخيه وبعض أقاربه على الانضمام إلى ابن مردنيش ، ولحق أخوه وأقاربه بقلعتهم في بني يحصب . ولكنه جبن وتأخر ، ثم فر إلى مالقة ، ليركب منها البحر إلى بلنسية ، ولكن عمال السيد اكتشفوا أمره وقبضوا عليه ، فأمر بقتله صبراً ، وكان مصرعه في جمادى الأولى سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) .

ولأبي جعفر كثير من الشعر الرقيق الحيد . فمن ذلك قوله :

أتاني كتاب منك يحسد الدهر	أما حبره ليل ، أما طرسه فجر
به جمع الله الأمانى لناظري	وسمعى وفكري فهو سحر ولا سحر

ولا غرو أن أبدى العجايب ربّه وفي ثوبه بر ، وفي كفه بحر^(١)

ومنهم محمد بن عبد الرحمن العقيلي الجراوى من أهل وادى آش . سكن غرناطة ، وكان أديباً مشاركاً فى علوم جمّة ، ولاسيما الطب ، كما كان شاعراً جزلاً مطبوعاً . ومن قوله يمتدح أمير المسلمين على بن يوسف :

رحلوا الركائب موهنا فأذاع عرفهم السننا
والحلى قد أغرى بهم لما ترغم معاننا
كم دب حول حمامهم من كل خطّار القنا^(٢)

ومنهم أحمد بن على بن محمد بن عبد الملك بن سليمان بن سيلم الكنانى النحوى ، من أهل إشبيلية ، وقد عرف « باللص » لما نسب إليه فى صغره من إغاراته على أشعار الآخرين . وكان أديباً ، مثقناً للعربية ، شاعراً جزلاً مجيداً . ولد سنة ٥٠٣ هـ ، وتوفى فى سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) . ومن نظمه قوله :

وقائلة والضنا شاملى على م سهرت ولم ترقد
وقد ذاب جسمك فوق الفراش حتى خفيت عن العود
فقلت وكيف أرى نأماً وراعى المنية بالمرصد^(٣)

ومنهم أبو بكر بن قزمان ، أمير الزجل الأندلسى ، وهو محمد بن عيسى ابن عبد الملك بن قزمان الزهرى من أهل قرطبة ، برع فى الشعر والأدب ، وبرع بنوع خاص فى نظم القصائد الهزلية بلغة عوام الأندلس أو بعبارة أخرى فى نظم الزجل . يقول ابن الخطيب « وهذه الطريقة بدیعة يتحكم فيها ألقاب البديع ، وتنفسح لكثير مما يضيق سلوكه على الشاعر ، وبلغ فيها أبو بكر مبلغاً حجّره الله عن سواه فهو آيتها المعجزة ، وحجتها البالغة ، وحارسها المعلم ، والمبتدى فيها والمتحم . ويصفه ابن خلدون بأنه « إمام الزجالين على الإطلاق » . وخدم ابن قزمان فى شبابه المتوكل بن الإفطس صاحب بطليوس ونال لديه حظوة وجاها . فلما انتهت دولتهم ، عاد إلى قرطبة وتردد بينها وبين غرناطة . ولما قام ابن حمدين فى قرطبة ، تعرض ابن قزمان لمطاردته ونكاله ، وذلك بسبب « شكاسة

(١) راجع ترجمته فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٢٢ - ٢٢٧ .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة ، مخطوط الإسكوريال رقم (١٦٧٣) الفيزرى) لوحة ٥٦ .

(٣) ترجمته فى التكملة لابن الأبار ج ١ رقم ٢١٢ .

أخلاق كان موصوفاً بها ، وحدة شئ بسببها » . وتوفي ابن قزمان بقرطبة في رمضان سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) .

وقد اشتهرت أزجال ابن قزمان في الأندلس والمغرب ، وجمعت في ديوان خاص متداول ، وترجم الكثير منها فيما بعد إلى القشتالية ، وكان لها أثر عميق في صوغ الأناشيد الشعبية القشتالية ، ثم الأناشيد البروفنسية . وقد أبدى البحث الحديث ، أن كثيراً من الأغاني الشعبية في إسبانيا وغيرها من الأمم النصرانية المجاورة ، اشتق من أزجال ابن قزمان .

وتحن نكتفي بأن نورد هذين النموذجين من أزجال ابن قزمان :

قدر الله وساق الخناس
إلى وادى على عيون الناس
ولعبنا طول النهار بالكاس
وجاء الليل وامتد مثل القتل

وقوله يصف عريشاً أمامه تمثال أسد من رخام يصب الماء من فمه على صفائح مدرجة من الحجر :

وعريش قد قام على دكان	بحال رواق
وأسد قد ابتلع ثعبان	في غلظ ساق
وفتح فمه بحال إنسان	فيه الفواق
وانطلق يجرى على الصفاح	ولقي الصباح ^(١)

(١) راجع في ترجمة ابن قزمان : قلائد المعيان ص ١٨٧ ، والإحاطة في مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٥٩ - ٦١ . وقد أورد لنا ابن الخطيب كثيراً من أزجاله ورسائله الثرية . وكذلك ابن خلدون في المقدمة ص ٥٢٤ .

الفصل الثالث

الحركة الفكرية الأندلسية

خلال العهد المرابطى

القسم الثانى

أعلام المحدثين والفقهاء . الحافظ أبو على الصدى . القاضى ابن العربى . أبو الوليد بن رشد الجدى . ابن ورد التميمى . أبو العباس أحمد بن الصقر الأنصارى . أبو محمد بن عطية الحارثى . مديحه للمرابطين . عبد الرحمن بن عبد الله المعافى . عبد الله بن محمد المرسى . ابن الحلال . ابن أبى مروان . أبو جعفر البطروجى . ابن الدباغ . سفيان بن أحمد العاصى . أحمد بن عبدالعزيز الأزدي . على بن صالح بن عز الناس . عبد الله بن خلف القرشى . ابن الباذن . القاضى عياض السبى ، حياته وتراثه . ابن بركة . ابن صاحب الصلاة . ابن اشكيندر . ابن صنمون . ابن هذيل . ابن سيد الجراوى . العلامة الصوفى أبو العباس ابن العريف . نموذج من شعره الروحى . دعوة المريدين وتطورها على يد ابن قسى . ابن المنذر . أبو بكر ابن المنخل . ابن سفيان الخزوى . ابن الإقليشى . علماء اللغة . ابن السيد البليوى . يونس بن مغيث . العلوم . ابن باجة . شئ من شعره . ابن يحيى الخزرجى . أبو القاسم خلف بن عباس . أمية بن أبى الصلت . حياته ومؤلفاته . بنو زهر . أبو العلاء بن زهر . ابنه عبد الملك . ولده أبو بكر . أبو عبد الله الطغفرى . تأملات .

— ١ —

ظهر فى شبه الجزيرة الأندلسية ، من أعلام المحدثين والفقهاء ، فى العصر المرابطى ، جمهرة كبيرة ، بلغ بعضهم فى ميدانه أرفع مكانة . وكان فى مقدمة هؤلاء اثنان لمع أحدهما فى شرق الأندلس ، ولع الثانى فى غربى الأندلس ، وكان لهما أكبر أثر فى ازدهار علوم السنة والفقه فى ذلك العصر .

أولهما العلامة الحافظ أبو على حسين بن محمد بن فبره الصدى . أصله من سرقسطة من أهل الثغر الأعلى ، وبها كان مولده ونشأته ، ودرس فى سرقسطة وبلنسية وألمرية ، وكان من أساتذته أبو اليد الباجى ، وأبو العباس العذرى ، وأبو عبد الله بن المرابط . ثم رحل إلى الشرق فى سنة ٤٨١ هـ ، وحج ودرس بمكة وبغداد ودمشق والقاهرة ، على أشهر علماء العصر . ثم عاد إلى الأندلس سنة ٤٩٠ هـ ، واستوطن مرسية ، وقد ذاع صيته العلمى ، واشتهر بالأخص بتبحره فى علوم السنة . وولى قضاء مرسية مدة ، ولكنه استعفى فأعفى ، وانقطع لنشر

العلم وتدريسه ، فخرج الناس لسماعه والأخذ عليه ، وكان أعظم حفاظ عصره . وكتب عدة كتب في الحديث . وفي سنة ٥١٤ هـ ذهب إلى شاطبة وأقام بها ، وكان دائب الحث على الجهاد . ولما سار الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين غازياً إلى الثغر الأعلى لإنقاذ دورقة وقلعة أيوب ، كان أبو علي ضمن العلماء الذين ساروا في ركبته ، وكان ممن أسستهم في موقعة كتندة ، التي نشبت على أثر ذلك بين المرابطين وبين الأرجونيين ، بقيادة ألفونسو المحارب ، في ربيع الأول سنة ٥١٤ هـ (يونيه ١١٢٠ م) وذلك حسبما فصلناه من قبل في موضعه^(١).

والثاني هو القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العربي المعافري ، وهو من أعظم فقهاء العصر المرابطي وحفاظه . ولد بإشبيلية سنة ٤٦٨ هـ وبرع في الحديث والأدب ، ورحل إلى المشرق مع ابنه حينما أرسله يوسف بن تاشفين سفيراً عنه إلى الخليفة المستظهر والإمام الغزالي ، وذلك في سنة ٤٨٥ هـ ، ودرس بمكة والقاهرة وبغداد ودمشق . وقرأ في بغداد على أبي بكر الشاشي ، وأبي حامد الغزالي ، وبدمشق على أبي بكر الطرطوشي ، ثم عاد إلى الأندلس سنة ٤٩٣ هـ ، يسبقه صيته العلمي . ويصفه تلميذه ابن بشكوال « بالإمام العالم الحافظ ، المستبجر ، ختام علماء الأندلس ، وآخر أئمتها وحفاظها » . وتولى ابن العربي قضاء بلده لإشبيلية لأول مرة في سنة ٥٠٨ هـ ، ولبث به مدة وعرف بحزمه ونزاهته ، وتحريره العدل والحق والتزام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى أودى بسبب ذلك وانتهت أمواله وكتبته . ثم صرف عن القضاء وانقطع للتدريس ونشر العلم . وكتب عدة مؤلفات منها « كتاب ترتيب الرحلة » ، وكتاب « العواصم والقواصم » ، وكتاب « أنوار الفجر » في مدح الرسول ، وكتاب « قانون التأويل » ، وكتاب « التلخيص في النحو » ، وكتاب « القبس في شرح موطأ مالك » وبلغت مؤلفاته نحو الأربعين كتاباً . ولما اضطربت أمور الدولة المرابطية بالأندلس ، وغلب الموحدون على إشبيلية ، عبر القاضي ابن العربي البحر إلى المغرب ، على رأس وفد كبير من علماء إشبيلية وأعيانها ، ولقي الخليفة عبد المؤمن بمراكش في أوائل سنة ٥٤٢ هـ ، وذلك عقب افتتاحها ، وقدم إليه بيعة أهل إشبيلية ، ولما غادر الوفد مراكش عائداً إلى الأندلس ، توفي القاضي ابن العربي خلال الطريق ، ودفن بفاس وذلك في جمادى الآخرة من نفس السنة (١١٤٧ م) . وما تجدر ملاحظته

(١) راجع الصلة لابن بشكوال الترجمة رقم ٣٣٠ . وكذلك : Pons Boigues : ibid; No 143

أن ابن العربي بالرغم من تحوله إلى جانب الموحدين حينما قامت دولتهم ، لم يرض بمديحه للمرابطين وعهدهم ، حسبنا أشرنا إلى ذلك من قبل (١) .

وكان من أعلام الفقهاء في العصر المرابطي ، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجند ، قاضي الجماعة بقرطبة ، وقد برع بالأخص في الفقه المالكي ، وألف فيه عدة مصنفات جليلة ، منها «كتاب البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل» و«كتاب المقدمات لأوائل كتاب المدونة» ، واختصار كتاب المبسوط ، واختصار مشتمل الآثار لأبي جعفر الطحاوي . وكان ابن رشد بجلال بيته ، ورفيع خلاله ، ورياسته العلمية ، من الرؤساء ذوي المكانة والنفوذ ، لدى البلاط المرابطي ، وقد رأينا فيما تقدم خطورة الدور الذي اضطلع به ، في إقناع أمير المسلمين علي بن يوسف بتغريب النصارى المعاهدين . ولد بقرطبة سنة ٤٥٠ هـ ، وتوفي بها في شهر ذى القعدة سنة ٥٢٠ هـ (أواخر ١١٢٦ م) (٢) .

ومن أشهر الفقهاء المحدثين والحفاظ ، في ذلك العصر ، أبو القاسم أحمد بن عمر بن يوسف بن ورد التيمي من أهل ألمرية . وكان متمكناً أيضاً من الأدب والنحو والتاريخ ، ومتقناً لعلم الأصول والتفسير . انتهت إليه ، وإلى زميله القاضي ابن العربي رئاسة الفقه المالكي في عصرهما ، ولّى قضاء غرناطة ، فظهر فيه بكفائته وعدله وحسن سيرته ؛ وتوفي بألمرية في رمضان سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٦ م) (٣) .

ومن أعلام المحدثين والفقهاء أيضاً ، أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن الصقر الأنصارى الخزرجي ، أصله سرقسطة ، ومولده بألمرية سنة ٥٠٢ هـ ، وكان محدثاً بارعاً ، وفقهاً متمكناً متقدماً في علم الكلام ، وكاتباً بليغاً وشاعراً محسناً ، استدعاه أبو عبد الله بن حسون قاضي مراكش المرابطي إلى كتابته ، فلما صرف عن القضاء ، تولى أبو العباس خطة الإمامة ، واستمر بها ، حتى سقطت مراكش وآل الأمر إلى الموحدين . ولما وقعت النكبة ، واستباح الموحدون دماء أهل المدينة ، اختفى أبو العباس حيناً ، وكتب له النجاة ، حتى نودى بالعفو ، ثم استنقذ من الرق ، واتصل بالسادة الجدد ، أعنى الموحدين .

(١) راجع الصلة الترجمة رقم ١٢٩٧ ، ونفع الطيب ج ١ ص ٣٣٥ - ٣٣٧ ، وكذلك :

Pons Boigues: ibid ; No 172

(٢) ترجمته في الصلة رقم ١٢٧٠

(٣) ترجمته في الإحاطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ١٧٥ - ١٧٧

فمنظمه عبد المؤمن بن طابة العلم ، وأضفى عليه رعايته ، ثم ولاه قضاء غرناطة ، ثم قضاء إشبيلية . وهناك توثقت صلاته بجاره وصديقه العلامة أبي بكر بن طفيل . ولما تولى أبو يعقوب يوسف الخلافة ، عينه للنظر على الخزانة (المكتبة) وهى عندهم من الخطط الجليلة ، لا يتولاها إلا أكابر العلماء . وكتب أبو العباس عدة مصنفات منها « شرح الشهاب » وكتاب « أنوار الأفكار فيمن دخل جزيرة الأندلس من الزهاد والأبرار » . وله شعر جيد معظمه فى الإلهيات والزهد . فمن ذلك قوله :

إلهى لك الملك العظيم حقيقة وما للورى مهما منعت نقر
تجافى بنو الدنيا مكانى فسررتى وما قدر مخلوق جداه حقير
وقالوا فقير وهم عندى جلالة نعم صدقوا إني إليك فقير

وتوفى أبو العباس بمراكش فى جمادى الأولى سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) :
ورثاه صديقه العلامة ابن طفيل بقصيدة بعث بها إلى ولده عمراكش مطلعها :

لأمر ما تغيرت الدهور وأظلمت الكواكب والبسود
وطال على العيون الليل حتى كأن النجم فيه لا يغور (١)

ومنهم الفقيه الحافظ أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المهارى ، من أهل غرناطة ، برع فى علوم القرآن والسنة وكان فقيهاً متبحراً ، وأديباً واسع المعرفة ، متقدماً فى فنون عديدة . وتولى القضاء بغرناطة وألمرية ، وألف فى التفسير كتاباً ضخماً لخص فيه كل ما تقدمه من كتب التفسير ، واشتهر بالمغرب والأندلس ، وألف كتاباً فى « الأنساب » ، وانتهى إلينا من مؤلفاته « معجم شيوخته » وهو محفوظ بمكتبة الإسكوريال .

ولد سنة ٥٤١٨ هـ ، وتوفى بلورقة سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) (٢) . وكان فوق ذلك أديباً ينظم الشعر ، ومن قوله فى مدح المرابطين :

إذا لثموا بالريط خلت وجوههم أزاهر تبدو من فنون كرائم
وإن لثموا بالسابرية أظهروا عيون الأفاعى من جلود الأراقم (٣)

(١) أورد لنا ابن الخطيب فى الإحاطة ترجمة ضافية لأبي العباس ج ١ ص ١٨٩ - ١٩٣ ، وكذا ابن عبد الملك فى الذيل والتكلمة . ويقول ابن عبد الملك إن مولد أبي العباس كان بألمرية سنة ٥٩٢ هـ ووفاته سنة ٥٦٩ هـ ، وبذلك يختلف معه ابن الخطيب فى التاريخين . وراجع التكلمة لابن الأبار رقم ٢٠١ .

(٢) راجع بغية الملتبس للضبى (المكتبة الأندلسية) ترجمة رقم ١١٠٣ .

(٣) راجع الصلة الترجمة رقم ٨٢٩ ، وكذلك P. Boigues; ibid; No 109 ، والمطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية ص ٩١ .

وهذا المديح للمرابطين من الأمور النادرة في الشعر الأندلسي . وقد نجد شاعراً يمتدح أميراً منهم لصلة خاصة . ولكن يندر أن نجد شعراً في مدح المرابطين بصفة عامة .

ومنهم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله المعافري ، وكان من الفقهاء الوزراء . كان متمكناً من الفقه والحديث ، بارعاً في الأدب ، محسناً للنظم ، كاتباً بليغاً ، ولى أيام الأمير علي بن يوسف مستخلص غرناطة وإشبيلية (الأملاك السلطانية) فقام على إدارتها بحزم وكفاية ، ثم ندبه الأمير إلى طرطوشة ليشرف على أهلها وتجديد مبانيها ، فأدى مهمته خير أداء ، وكان جواداً كثير البذل ، وتوفى في سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م)^(١) .

ومنهم عبد الله بن محمد عبد الله النفري المعروف بالمرسي ، ولد بمرسية سنة ٤٥٣ هـ ، ودرس بها ثم انتقل إلى سبتة ، وتولى الخطابة بجامعها مدة ، وكان متفوقاً في علم الحديث ، وأخذ الناس عنه ، ومنهم صاحب الصلة ، وكتب عدة مؤلفات ، وتوفى بقرطبة سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م)^(٢) .

ومنهم قاضي قضاة الشرق أبو العباس أحمد بن محمد بن زيادة الله الثقفي المعروف بابن الحلّال . درس الفقه والحديث والأدب ، وولى خطة الشورى ، ثم ولى قضاء أوريولة ، ثم نقل إلى مرسية حيث تولى بها قضاء الجماعة ، وعلت مكانته لدى محمد بن سعد أمير الشرق ، ولكنه كان سيئ التصرف ، كثير الرعونة ، ووشى به إلى الأمير ، فقبض عليه واستصفى أمواله ، واعتقله ببلدة أندة على مقربة من بلنسية ، ثم أمر به فقتل ، وكان مقتله في سنة ٥٥٤ هـ (١١٥٩ م)^(٣) .

ومنهم أحمد بن عبد الملك بن محمد بن إبراهيم الأنصاري ، ويعرف بابن أبي مروان ، من أهل إشبيلية ، كان حافظاً متقناً ، فقيهاً ظاهري المذهب على طريقة ابن حزم القرطبي ، وله مؤلف في الحديث عنوانه « المنتخب المتقى » جمع فيه ما اختلف في أمهات المسندات من نوازل الشرع . توفى قتيلاً ببلدة خلخال ثورة أهلها وتغلب الموحدين عليهم ، وذلك في شعبان سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م)^(٤) .

(١) الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٢٥٦ .

(٢) ترجمته في الصلة رقم ٦٤٩ ، وكذلك في P. Boigues: ibid; No 164

(٣) ترجمته في التكملة لابن الأبار ج ١ رقم ١٧٤ .

(٤) ترجمته في التكملة لابن الأبار ج ١ رقم ١٦٢ .

وأبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن البطروجي ، وقد نبغ في الفقه والحديث ، وكتابة السير ، وكان من أشهر حفاظ عصره ، وتوفي بقرطبة سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ^(١) .

ويوسف بن عبد العزيز بن يوسف بن فيره الليثي ، ويعرف بابن الدباغ ، أصله من أهل أندة ، وسكن مرسية ، ودرس على أبي علي الصدقي ، وكان من أنبه تلاميذه . ونبغ في الحديث والرواية ، وكتب عدة مصنفات منها « كتاب طبقات المحدثين » و« طبقات أئمة الفقهاء » ، ورسائله في الحفاظ ، وغيرها . وتوفي سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) ^(٢) .

وأبو بحر سفيان بن أحمد العاصي الأسدي ، أصله من شرقي الأندلس من مدينة مريبطر من أعمال بلنسية ، برع في الحديث والأدب والرواية ، وكان حسباً يصفه ابن بشكوال من جلة العلماء ، وكبار الأدباء ، سمع منه وحدث عنه كثير من أهل عصره . وكان من شيوخ ابن بشكوال . وتوفي بقرطبة سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ^(٣) .

ومنهم أحمد بن عبد العزيز بن محمد الأزدي ، وهو شقوري الأصل ، نشأ ودرس بمرسية . وكان فقيهاً متمكناً ، حافظاً ، بصيراً بالفتوى . ولى قضاء شاطبة مدة ، أيام الأمير محمد بن سعد بن مردنيش ، ثم ولى إلى جانبه قضاء أوريولة ، ولما نكب قاضي الجماعة أبو العباس بن الحلال ، نكب معه ، واعتقل شهوراً ، ثم أطلق سراحه ، وأعيد إلى قضاء أوريولة ، ومنصب الشورى بها ، إلى أن توفي في سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) ^(٤) .

وعلى بن صالح بن أبي الليث الأسعد بن الفرغ ، أبو الحسن بن عز الناس ، أصله من طرطوشة ، ونشأ بميورقة ، وتجول في بلاد الأندلس يدرس أينما حل ، ويتلقى العلم عن أقطاب عصره ، وكان من أساتذته أبو بكر بن العربي ، وأبو القاسم بن ورد ، وأبو الوليد بن رشد ، وبرع في الفقه والأصول والحديث ، وكان في نفس الوقت أديباً شاعراً ، خدم الأمير أبي زكريا بن غانية ، أيام إمارته

(١) ترجمة في الصلة رقم ١٧٩ ، وكذلك في P. Boignes : ibid;No 168

(٢) ترجمة في الصلة رقم ١٥١٠ ، وكذلك في P. Boignes : ibid;No 176

(٣) ترجمة في الصلة رقم ٥٢٦ ، وكذلك في P. Boignes : ibid;No 147

(٤) التكملة لابن عبد الملك — مخطوط خزانة الرباط المصور ، السفر الأول لوحة ٤٤ ، والتكملة لابن الأبار رقم ١٨٩ .

لبنسية ، ثم صحبه إلى قرطبة ، ولأزمه إلى أن توفي بغرناطة في سنة ٥٤٣ هـ ،
فانتقل إلى شرقي الأندلس ، واستقر بدانية ، ومن مؤلفاته كتاب « العزلة » ،
« وشرح معاني التحية » . ولد بطرطوشة سنة ٥٠٨ هـ ، وقتل بدانية بأمر محمد
ابن سعد في رمضان سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م)^(١).

وعبد الله بن خلف بن محمد القرشي ، من أهل مورور ، وسكن إشبيلية
ودرس بها وبقرطبة على أقطاب عصره ، ومنهم ابن حمدين ، وأبو محمد بن عتاب ،
وأبو الوليد بن رشد ، وكان فقيهاً حافظاً متقناً لفروع المذهب المالكي ، ماهراً في
استنباط الأحكام ، بصيراً بالفتوى ، تولى قضاء بلده مورور حيناً ، ولد في
سنة ٤٩٣ هـ ، وتوفي سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م)^(٢).

ومنهم محمد بن خلف بن صاعد الغساني ، من أهل شلب ، يكنى أبا الحسين
ويعرف بالبلبي لأن أصله من لبلة ، درس على أقطاب عصره مثل أبي الوليد
ابن رشد ، وأبي محمد بن عتاب ، وأبي عبد الله بن الحاج ، وبرع في الفقه ،
ورحل إلى المشرق ودرس هنالك على طائفة من أعلامه ، ثم عاد إلى الأندلس ،
فعنى بتدريس الفقه والحديث وعقد الشروط ، ثم ولي قضاء شلب ، وتوفي في
سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م)^(٣).

وكان من أشهر أئمة القراءات في ذلك العصر ، أحمد بن علي بن أحمد بن خلف
الأنصاري المعروف بابن الباذش ، وأصله من جيان ، وكان إلى جانب ذلك أديباً
متقناً للنحو ، بصيراً بالأسانيد ، ومن مؤلفاته « كتاب الإقناع » وهو من أجل
كتب القراءات ، وكتاب « الطرق المتداولة » وهو في القراءات أيضاً ، وكانت
وفاته في سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م)^(٤).

ونستطيع أخيراً أن نذكر من أكابر الفقهاء والحفاظ ، القاضي الأجل ،
والعلامة الفقيه الحافظ ، عياض بن موسى اليحصبي السبتي ، وهو إن كان أكثر
نسبة إلى المغرب ، إلا أنه درس بالأندلس ، وشارك في الحياة العقلية الأندلسية
مشاركة قوية .

ولد بثر سبتة في منتصف شعبان سنة ٤٧٦ هـ ، وتلقى العلم حدثاً عن أشياخ

(١) التكملة لابن عبد الملك - مخطوط المتحف البريطاني - السفر الرابع لوحة ٤٨ ا .

(٢) التكملة لابن عبد الملك - مخطوط الإسكوريال (١٦٨٢ الغزيري) .

(٣) ترجمته في التكملة لابن الأبار رقم ٦٧١ .

(٤) ترجمته في الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٠١ - ٢٠٣ .

بلده ، ثم عبر البحر إلى الأندلس في أوائل سنة ٥٠٧ هـ ، ودرس أولاً بقربطية ، وأخذ فيها عن ابن عتاب وابن حمدين وابن الحاج وغيرهم . وقصد بعد ذلك إلى مرسية ، وسمع بها على حافظها أبي علي الصدفى ولازمه حيناً . ثم عاد إلى سبتة بعد أن قضى بالأندلس نحو عام ونصف ، وجلس للدرس والمناظرة ثم الشورى . وفي سنة ٥١٥ هـ ، ولى القضاء ، وكان ما يزال شاباً في الثلاثين من عمره ، فسلك فيه طريقة مشكورة ، وأبدى حملاً في تطبيق الأحكام والحدود ، واشتهر بغزير علمه وحفظه ، وصدق طريقته ، ودقة فتياه . ثم ولى قضاء غرناطة في سنة ٥٣١ هـ ، فقام به خير قيام ، وأعرض عن الشفاعات والمؤثرات ، وصد أهل السلطان عن الباطل ، وتسبب في تشريدهم عن الأعمال ، فاستاء الأمير تاشفين بن علي ، لمسلكه ، وضاق به ذرعاً ، وسعى في صرفه عن قضاء غرناطة . فصرف عنه في رمضان سنة ٥٣٢ هـ ، وعاد إلى سبتة ، ولبث بها مدة وهو عاكف على التدريس والفتيا . ثم ولى قضاء سبتة للمرة الثانية في سنة ٥٣٩ هـ . ولما ظهر أمر الموحدين ، بادر بالدخول في طاعتهم ، فأقره عبد المؤمن على ما كان عليه ، وصرف إليه شئون سبتة ، وحظى لديه بالتقدير ، ثم رحل إليه ولقيه في سلا ، وهو يتأهب للسير لحصار مراكش (سنة ٥٤٠ هـ) ، فأجزل الخليفة صلته وعاد إلى سبتة ، وهنا وقع الاضطراب بسبتة وخلع أهلها طاعة الموحدين ، وقتلوا عاملها الموحدى ، ونسب التحريض في ذلك إلى القاضى عياض . وكان القاضى قد اتصل ببيحيى بن غانية ، وانقلب على الموحدين ، فلما قدم الموحدون إلى سبتة ، وشددوا في حصارها ، عاد القاضى فسعى في الاعتذار إليهم ، واستدرا عطفهم ، فصفحوا عنه ، وعن أهل سبتة ، وسار القاضى بعد ذلك إلى مراكش (سنة ٥٤٣ هـ) ليستعطف الخليفة ويلتمس صفحه . فعفى عنه عبد المؤمن ، وأكرم وفادته ، وعينه بمجلسه ، ثم مرض عياض بعد ذلك وتوفى بمراكش ، في الليلة التاسعة من جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) ، وذلك كله حسبما سبق أن فصلناه في موضعه .

وكان القاضى عياض من أكابر الحفاظ ، ومن أعظم أئمة عصره في الحديث ، وفي فهم غريبه ومشكله ومختلفه ، بارعاً في علم الأصول والكلام ، حافظاً للمختصر والمدونة ، متمكناً من الشروط والأحكام ، أبرع أهل زمانه في الفتيا . متقناً للنحو واللغة ، أديباً كبيراً ، وشاعراً مجيداً ، حسن التصرف في النظم ،

كاتباً بليغاً ، وخطيباً مفوها ، عالماً بالسير والأخبار ، ولا سيما سير العرب وأيامها وحروبها ، وأخبار الصالحين والصوفية ، مشاركاً في علوم كثيرة أخرى ، وكان حسن المجلس ، ممتع المحاضرة ، فصيح اللسان ، حلو المداعبة ، بساماً مشرقاً ، جهم التواضع ، يمتنع الإطراء والملق ، معزراً بنفسه ومكانته ، محباً لأهل العلم ، معاوناً لهم على طلبه ، جواداً ، شجاعاً ، من أكرم أهل زمانه ، كثير الصدقة ، والمواساة^(١) .

وللقاضي عياض ثبت حافل من المؤلفات الحليّة منها كتاب « الشفاء بتعريف حقوق المصطفى » وهو أشهر كتبه . و « مشارق الأنوار » ، في تفسير غريب الحديث . وكتاب « التنبيهات » . وكتاب « ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة المالكية » وكتاب « الإكمال » وكتاب « العيون الستة في أخبار سبته » وغيرها ، من كتب الدين واللغة والأنساب والتاريخ . ويعتبر القاضي عياض أعظم حفاظ المغرب وعلمائها في عصره ، وقد خصه حافظ المغرب ومؤرخ الأندلس الكبير شهاب الدين المقرئ بكتابه الضخم « أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض »^(٢) .

وهناك جبهة من الفقهاء والمحدثين ، الذين ظهروا في العصر المرابطي ، وتجاوزوه إلى العصر الموحدى ، نذكر بعضهم فيما يلي :

كان من هؤلاء ، محمد بن سليمان بن خلف النفري من أهل شاطية ويعرف بابن بركة ، كان فقيهاً متمكناً ، حافظاً للمسائل ، بصيراً بالفتوى ، خبيراً بعقد الشروط ، حافظاً لمتون الأحاديث ، مستظهراً لمقدمات ابن رشد ، ولى خطة الشورى^(٣) بشاطية ، واشتهر بكفايته وورعه ، وزهده ، وتوفى في جمادى الأولى سنة ٥٥٣ هـ^(٤) .

وأحمد بن يوسف بن اسماعيل بن صاحب الصلاة من أهل باجة ، وكان

(١) من ترجمة للقاضي عياض بمخطوط المكتبة الكتانية المحفوظ بخزانة الرباط ، برقم 558 ، وعنوانه « كتاب في التعريف بعياض » (لوحة ٧ - ١٤) .

(٢) ترجمة القاضي عياض في الصلة ، رقم ٩٧٥ ، ووفيات الأعيان ج ١ ص ٤٦٩ ، وقلائد العقيان من ٢٢٢ - ٢٢٦ ، وابن الخطيب في الإحاطة - مخطوط الإسكوريال السالف الذكر ، لوحة ٣٥٠ .

(٣) سوف نتحدث عن خطة الشورى فيما بعد عند الكلام على نظم الحكم الموحدى .

(٤) ترجمته في التكملة (القاهرة) رقم ١٣٤٣ .

من رواة الحديث ، وأهل العناية به ، وقد توفي شبيداً ، حينما دهم النصارى مدينة باجة في ليلة السبت ٢٢ من ذى الحجة سنة ٥٥٧ هـ^(١).

وأبو جعفر أحمد بن مسعود بن إبراهيم بن يحيى القيسي المعروف بابن اشكندر ، أصله من سرقسطة بالشجر الأعلى ، وولد بشاطبة ، ودرس بها ، ونبع في الحديث والرواية ، وكان من أكثر حفاظ عصره علماً بأسماء الرجال ، وموالدهم ووفياتهم ، حتى شبه في ذلك بالقاضي عياض ، تولى خطة الشورى بشاطبة ، وحدث وأخذ عنه بعض علماء عصره ، وكان ورعاً منقبضاً زاهداً ، وتوفي بالمهدية وهو في طريقه إلى الحج في رمضان سنة ٥٥٨ هـ^(٢).

ومحمد بن أحمد بن محمد بن أبي العافية ، من أهل مرسية ، ويعرف بالقسطل ، لأن أصله من قسطلونة ، درس الفقه ، وبرع في الفقه المالكي ، وقام بتدريسه ، وتولى الشورى ببلده ، وكان موصوفاً بالحفظ ، والعدالة والنزاهة وتوفي في شهر ذى الحجة سنة ٥٥٨ هـ^(٣).

ومحمد بن عبد الله بن أحمد بن مسعود بن صنعون بن شعبان ، وهو من أهل شلب ، ويعرف بالقنطري ، نسبة إلى قنطرة السيف من أعمال الغرب ، وهي دار سلفه . درس بإشبيلية وقرطبة وألمرية على جماعة من أقطاب العصر مثل أبي بكر بن العربي ، وابن مغيث ، وابن أبي الخصال ، وغيرهم ، وبرع في الحديث واشتهر بالحفظ والضبط ، وبرع كذلك في الفقه ، وتولى خطة الشورى ، وكتب ذيلاً لكتاب « الصلة » لابن بشكوال ، نقلها ابن الأبار كلها ، وتوفي بمراكش في شهر ذى الحجة سنة ٥٦١ هـ^(٤).

وأحمد بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس التجيبي من أهل مرسية . درس على أبيه وعلى أبي علي الصدي وغيره من شيوخ العصر ، وبرز في الفقه ، وعلوم القرآن ، مع مشاركة في الأدب ، وتقلد خطة الشورى وأحكام القضاء بمرسية مدة طويلة ، ثم ولي قضاء شاطبة ، وعرف بالكفاية والنزاهة ، وتوفي بمرسية ثاني عيد الأضحى سنة ٥٦٣ هـ^(٥).

(١) ترجمته في التكملة رقم ١٧٦ .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ١٧٧ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ١٣٦٣ .

(٤) ترجمته في التكملة رقم ١٣٧٧ .

(٥) ترجمته في التكملة رقم ١٨٨ .

ومن الفقهاء الذين جمعوا بين الفقه والأدب ، أحمد بن محمد بن هذبل الأنصارى من أهل بلنسية . درس بها وبقرطبة ، وبرع في الفقه ، وتولى خطة الشورى ببلنسية ، ثم تولى قضاء بعض مدن ولاية قرطبة مثل إستجة وباجة . وكان فوق ذلك شغوفاً بالأدب ، بارعاً في الكتابة ، محسناً للنظم ، وولى في أواخر حياته خطة المواريث ببلنسية في إمارة محمد بن سعد ، ثم اضطهد ، ونفى إلى جزيرة شُقر ، وهناك توفي في سنة ٥٥٨ هـ (١) .

ومهمهم أحمد بن حسن بن سيد الجراوى من أهل مالقة ، ويعرف بابن سيد . درس الحديث واللغة والأدب على أقطاب عصره ، وكان بارعاً في اللغة ، وفي النحو ، وله حظ من قرص الشعر الجيد ، وقد أورد لنا صاحب التكملة ، من شعره هذين البيتين :

وبين ضلوعى للصبابة لوعسة بحكم الهوى تقضى على ولا أقضى
جنى ناظرى منها على القلب ما جنى فبما من رأى بعضاً يُعين على بعض
وتوفى ابن سيد في نحو سنة ٥٦٠ هـ (٢) .

وظهرت بالأندلس في العصر المرابطى ، حركة دينية خاصة ، اتخذت طابع التصوف ، وهى التى أسفرت عن قيام طائفة المريدين في غربى الأندلس . وكان إمام هذه المدرسة العلامة الصوفى أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجى المعروف بابن العريف . وهو من أهل ألمرية ، وبها ولد سنة ٤٨١ هـ . ودرس علوم القرآن والسير ، وغلب عليه الزهد والورع ، ومال إلى طرق الصوفية ، حتى غدا من أقطاب نحلهم . وألف عدة تصانيف منها «كتاب الخالس» ، وكتب رسالة يحمل فيها على الفيلسوف ابن حزم ، وكانت بينه وبين القاضى عياض السبتي ، مراسلات ومجادلات فقهية . والظاهر أنه قد أثار بكتاباته وتعاليمه سخط الفقهاء المرابطين ، فسعوا به إلى على بن يوسف ، فاستدعاه إلى مراکش وبقى بها بحالة اعتقال حتى توفي ، وذلك في صفر سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م) ، واحتفل الناس بجنائزته ، وندم أمير المسلمين على ماكان منه في حقه (٣) .

(١) ترجمته في التكملة رقم ١٧٩ .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ١٨٢ .

(٣) راجع ترجمة ابن العريف في وفيات الأعيان (ج ١ ص ٦٧) . وكذلك في الصلة لابن

يشكوال ترجمة رقم ١٧٦ .

وكان ابن العريف ينظم الشعر الروحي الجيد ومن ذلك قوله .
 سلوا عن الشوق من أهوى فإنهم أذنى إلى النفس من وهى ومن نفسى
 ما زلت مذ سكنا قلبى أصون لهم لحظى وسمعى ونطقى إذ هُؤوا أنسى
 وفى الحشا نزلوا والوهم يجرحهم فكيف قروا على أذكى من القبس
 حلّوا الفؤاد ، فما أُندى ولو وطثوا صخرأ بلحاد بماء فيه منبجس
 لا تنفض إلى حشرى بحبهم لا بارك الله فيمن خانهم ففسى
 وقد ذكرنا فيما تقدم أن أحمد بن قسىّ زعيم الثورة فى غربى الأندلس .
 كان من تلاميذ ابن العريف ، وأنه أخذ عليه بالمرية تعاليمه وطريقته ، وهى التى
 عرفت بطريقة « المريدين » ، واتخذها ابن قسى وأصحابه شعاراً لثورتهم فى الغرب .
 والظاهر أن ابن قسى ، هو المسئول عن تطور الدعوة ، إلى هذا الاتجاه الذى
 اتخذته فى الغرب ، والذى أسبغ عليها هذا الطابع الثورى الخاص ، وأن ابن
 العريف لم يكن له فى صوغها سوى العنصر الروحى . وعلى أى حال فإنه لا توجد
 لدينا عن دعوة « المريدين » معلومات كافية . تفصح عن مبادئ الحقيقة ، وكل
 ما يقدمه إلينا ابن الأبار فى ذلك أنها كانت دعوة شعارها « التهليل والتكبير » (١) .
 وقد كتب عبد الملك بن صاحب الصلاة ، مؤرخ الموحدين عن « ثورة المريدين »
 كتاباً يشير إليه فى مواضع كثيرة من تاريخه المسمى « المن بالإمامة » ، ولكن هذا
 الكتاب لم يصل إلينا . وما نود أن نشير إليه هنا ، هو أن ابن قسى كان جانب إلى
 جانب زعامته الثورية ، من علماء الدين والكلام ، وكان أديباً وشاعراً من شعراء
 العصر . وقد أوردنا فيما تقدم شيئاً من نظمه .
 وكان من زملاء ابن قسىّ فى حمل لواء دعوة المريدين ، محمد بن عمر
 ابن المنذر الذى تتبعنا أخباره فيما تقدم . وكان فقيهاً متمكناً ، وأديباً بارعاً ،
 وشاعراً مقتدرأ . وقد أوردنا كذلك فيما تقدم شيئاً من نظمه .
 وكان من أدباء المريدين وشعرائهم ، أبو بكر بن المنخل الشلبى ، وزير
 ابن المنذر المتقدم وكاتبه . وكان شاعراً جزلاً ، وقد انضم بعد انهيار الثورة فى
 الغرب . إلى الدعوة الموحدية ، وكان ممن مدح الخليفة عبد المؤمن خلال وجوده .
 فى جبل طارق . وقد أورد لنا ابن الأبار طائفة من نظمه ، ومن ذلك قوله مخاطباً
 ابن المنذر :

(١) ابن الأبار فى الحلة السيرة ص ١٩٩ .

تجاف عن الدنيا وعن برد ظلها
فديتك لا تأسف لدنيا تقلصت
وإن عريت جرد المذاكي وذكلت
وغودرت الرايات تهفو كأنها
وكانت ولم تذعر عليك كأنها
طلبت وفاء والوفاء سجيّة
رأيتك تبغى مثل نفسك في العلا
فإن بروداً لا يلدوم حرور
وأوحش يوماً منبر وسرير
أسود فلم يسمع لمن زئير
جوانح من دعر عليك تطير
إذا رفرفت يوم الهياج نسور
ولكنها أم الوفاء نزور
طيلاب لعمرى ما أردت عسير^(١)

وظهر من علماء المتصوفة في شرق الأندلس ، أحمد بن محمد بن سفيان المخزومي ، أصله من جزيرة شقر من أعمال بلنسية ، ودرس الأدب ، ونظم الشعر ، ثم مال إلى التصوف والزهد ، وكان يعرف بالعايد . وكان ثرياً ، ينفق على الفقراء والمعوذين أموالاً جلييلة . وأدركته وحشة من أمير الشرق ، محمد بن سعد بن مردنيش ، فخلع طاعته ، ودعا للموحدين ، وامتنع بالجزيرة ، وذلك في أواخر سنة ٥٦٦ هـ فأدى ذلك إلى محاصرته حيناً ، ولم ينفس عن أهله إلا وفاة ابن سعد بعد ذلك بنحو عام ، في رجب سنة ٥٦٧ هـ .

ولابن سفيان شعر يقتصر على الزهد . ومن ذلك قوله من قصيدة :

كل عطاء فيلى علة لاشك يقضى ولوجه السقم
إلا الذي منك بلا علة يا خالق العرش ومجرى القلم
كل الوري لا بس ثوب الدجا لولا سنى منك يجلى الظلم^(٢)

ومن أقطاب المحدثين والمتصوفة بالشرق أيضاً أبو العباس أحمد بن معد ابن عيسى بن وكيل التجيبي المتزهد ، ويعرف بابن الأقليشي ، أصلهم من أقليش ، ونزحوا إلى دانية ، وبها ولد أبو العباس ونشأ . ودرس بلنسية ، وإشبيلية ، وألمرية ، وبرع في الحديث واللغة والأدب ، وكان من أساتذته أبو محمد البطليوسي ، وأبو بكر بن العربي ، وأبو القاسم بن ورد ، وغيرهم من أقطاب العصر . ورحل إلى المشرق في سنة ٥٣٢ هـ ، فحج وجاور بمكة . وحدث

(١) راجع الحلة السبراء ص ٢٠٦ و ٢٠٧ .

(٢) ترجمه في التكملة لابن الأبار ج ١ رقم ٢٠٠ ، وفي الذيل والتكملة لابن عبد الملك ، بخطوط السالف الذكر .

بالأندلس والمشرق ، وكان متصوفاً زاهداً ، أديباً شاعراً ، وله عدة تصانيف منها كتاب « الكواكب » وكتاب « النجم من كلام سيد العرب والعجم » وكتاب « الغرر من كلام سيد البشر » وكتاب « ضياء الأولياء » . وغيرها ومن نظمها في الزهد قوله :

أسير الخطايا عند بابك واقف له عن طريق الحق قلب مخالف
قدماً عصي عمداً وجهلاً وغرّة ولم ينه قلب من الله خائف
ثلاثون عاماً قد تولت كأنها حلوم تقضت أو بروق خواف
وجاء المشيب المنذر المرء أنه إذا رحلت عنه الشيبة تالف
فجد بالدموع الحمر حزناً وحسرة فدمعك يبنى أن قلبك آسف

وتوفي أبو العباس عند عوده من المشرق بمدينة قوص من صعيد مصر في سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م)^(١) .

ومهم محمد بن يوسف بن سعادة ، من أهل مرسية ، وسكن شاطبة . برع في الفقه والحديث ، وأخذ عن جمهرة من أعلام عصره ، منهم أبو علي الصدي ، وأبو محمد بن عتاب ، وأبو بكر بن العربي وغيرهم . ثم رحل إلى المشرق ، وسمع بالإسكندرية ومكة ، وعاد إلى مرسية ، وكان فوق براعته في علوم القرآن والتفسير ، والحديث ، بصيراً باللغة ، شغوفاً بالتصوف مؤثراً له . ولى القضاء بمرسية ، ثم شاطبة ، وعرف بمقدرته ونزاهته ، وكان حافظاً متقناً ، ثقة ؛ وتوفي مصروفاً عن القضاء في آخر سنة ٥٦٥ هـ^(٢) .

ونبع في العصر المرابطي ، من أئمة اللغة ، أو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسى . وأصله من بطليوس ، من غربي الأندلس ، كما يدل على ذلك اسمه . ولد بها سنة ٤٤٤ هـ ، وسكن بلنسية ، ودرس بها ، وكان فضلاً عن أدبه البارع ، أمام عصره في النحو وعلوم اللغة ، يجتمع إليه الناس من كل فج ، ليقروا عليه ، وليقتبسوا من غزير علمه ، وكان حجة ثقة ضابطاً . وله عدة مؤلفات قيمة ، اشتهر منها بالأخص شرحه لكتاب « سقط الزند »^(٣) لأبي العلاء المعرى ، وهو شرح يصفه ابن خلكان بأنه أجود من شرح أبي العلاء صاحب

(١) ترجمته في التكملة لابن الأبار ج ١ رقم ١٦٧ .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ١٣٩٠ .

(٣) نشر هذا الشرح بالقاهرة بعناية « لجنة إحياء تراث أبي العلاء المعرى » وأصدرته وزارة

المعارف المصرية (سنة ١٩٤٥) .

الديوان الذى سماه « ضوء السقط » . ومنها كتاب « الإقتضاب فى شرح أدب الكتاب » وكتاب فى الحروف الخمسة « السين والصاد والضاد والطاء والدال » ، وكتاب « الحلل فى شرح أبيات الجمل » و « الحلل فى أغاليط الجمل » ، وكتاب « شرح المطأ » . وله أيضاً « كتاب التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة » . وكان ابن السيد فوق ذلك شاعراً مقتدرًا ، وله نظم حسن ، فمن ذلك قوله :

أخو العلم حى خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم
ذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى يُنظن من الأحياء وهو عديم
وله من قصيدة يمدح فيها المستعين بن هود :

سقى عهدهم بالخيف عهد غمام ينازعها مزن من الدمع هتان
أحبابنا هل ذلك العهد راجع وهل لى عنكم آخر الدهر سلوان
ولى مقلة عبرى وبين جوانحى فؤاد إلى لقياكم الدهر حنان
تنكرت الدنيا لنا بعد بعدكم وحلت بنا من معضل الخطب ألوان
وحلنا سوام الحمد عنها لغيرها فلا ماؤها صدا ولا الثبت سعدان
إلى ملك حاباه بالحسن يوسف وشاء له البيت الرفيع سليمان
من النفر الشم الذين أكفهم غيوث ولكن الخواطر نيران
وتوفى ابن السيد بمدينة بلنسية فى منتصف رجب سنة ٥٢١ هـ (يونيه ١١٢٧ م)^(١)

وكان من أعلام اللغويين أيضاً يونس بن محمد بن مغيث . وقد ولد بقرطبة سنة ٤٤٧ هـ ، ودرس بها وبرع فى علوم اللغة ، وكذلك فى الرواية وعلم الأنساب ، وفى الأدب ، وكان من أساتذة ابن بشكوال حسبما يحدثنا فى « الصلة » . وتوفى بقرطبة سنة ٥٣٢ (١١٣٧ م)^(٢) .

ومنهم أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله ، ويعرف بالتدميرى لأن أصله منه كورة تدمير ، ونشأ بالمريّة ، وبرع فى الآداب العربية واللغات ، وكان له حظ من قرص الشعر ، وسكن بجاية وقتا فى ظل بنى حماد . وله عدة مؤلفات قيمة منها كتاب التوطئة فى العربية ، وشرح على كتاب الفصيح لشعلب ، وشرح

(١) راجع ترجمة البطليوسى فى وفيات الأعيان (ج ١ ص ٢٣٢ و ٢٣٣) ، وفى الصلة لابن بشكوال الترجمة رقم ٦٤٣ .

(٢) ترجمته فى الصلة رقم ١٥٥٨ ، وكذلك فى Pons Boigues : ibid; No 161

لأبيات جمل الزجاجي ، وكتاب الفوائد والفرائد وغيرها . وتوفي بفاس سنة ٥٥٥ هـ (١) .

ومنهم عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن يزيد السعدي ، من أهل قلعة محصب ، أبو محمد ، درس على أبي جعفر البطروجي ، وأبي الحسن بن الباذش ، وكان متمكناً من الفقه ومن علم القراءات ، بارعاً في اللغة والأدب ، متبحراً في النحو ، مستظهراً لكتاب سيبويه ، مشاركاً في عدة فنون أخرى . غادر موطنه الأصلي إلى بلدة القبذاق (٢) من أعمال جيان ، فاستوطنها ، وتوفي بها في سنة ٥٥٩ هـ ، (١١٦٤ م) (٣) .

وأما عن العلوم ، فنستطيع أن نقول إنها حظيت في العهد المرابطي بنهضة زاهرة ، وإن لم تكن هذه النهضة في الواقع سوى امتداد للنهضة الفكرية في عصر الطوائف . وظهر في العهد المرابطي عدد من الشخصيات اللامعة التي تعتبر من أقطاب العلم الأندلسي ، بل من أقطاب العلم في سائر العصور والأمم .

أولهم الفيلسوف أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ التجيبي المشهور بابن باجة ، وهو سرقسطي ، نشأ في أواخر دولة بني هود ، ونبغ في الرياضة والفلك والطبيعة والفلسفة ، في ظل تلك المدرسة الرياضية ، التي ازدهرت في ظل المقتدر ابن هود وولده المؤتمن . ولما ولي الأمير أبو بكر بن إبراهيم المسوّفي ، وهو ابن عم أمير المسلمين علي بن يوسف وصهره ، حُكِمَ سرقسطة في سنة ٥٠٨ هـ ، استوزر أبا بكر ، واختص به ، وأغدق عليه ثقته ورعايته ، بالرغم مما كان ينسب إليه من الآراء الإلحادية . وقد حمل عليه معاصره الفتح بن خاقان في كتابه المطمح ، ورماه بالإلحاد وانهلال العقيدة ، وقال في حقه : « نظرت في تلك التعاليم ، وفكر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ، ورفض كتاب الله الحكيم » . ولما سقطت سرقسطة في أيدي الإسبان في سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) ، غادرها ابن باجة إلى إشبيلية ، ثم إلى شاطبة ، ثم نزع إلى المغرب ، وتوفي بفاس سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) . ويعتبر ابن باجة من أعظم فلاسفة الأندلس ومفكراتها . وقد كتب

(١) نرجمة في التكملة رقم ١٧٥ .

(٢) القبذاق هي بلدة Alcaudete الحديثة ، وهي تقع على مقربة من جنوب عربي جيان .

(٣) التكملة لابن عبد الملك ، مخطوط الإسكوريال (رقم ١٦٨٢ الغزيري) .

نحو خمسة وعشرين كتاباً لم يصلنا منها سوى القليل ، وكان ابن باجة فضلاً عن ذلك أديباً شاعراً ، وله طائفة من الشعر الرصين الجيد ، فمن ذلك قوله في رثاء حاميه الأمير أبي بكر :

سلام وإلزام ووسمى منزلة على الحدث الثاني الذى لا أزوره
أحق أبو بكر تقضى فلا ترى ترد جواهر الوفود ستوره
لئن أنست تلك اللحد بلحده لقد أوحشت أقصاره وقصوره
وقوله :

ضربوا القباب على أقاصى روضة خطر النسيم بها ففاح عيرا
وتركت قلبي سار بين حوالم داعى الكلوم سيوف تلك العيرا
لا وافد جعل الغصون معاطفا لهم وصاغ الأقحوان ثغورا
ما مربى ريح الصبا من بعدهم إلا سهرت له فعاد سعيها (١)

ومنهم على بن عبد الرحمن بن يوسف بن مروان بن يحيى الخزرجى الطبيب ، أصله من طليطلة ، ونشأ بها ودرس ، وبرع إلى جانب تمكنه من الفقه ، فى علم الطب ، درسه على أبى المطرف بن وافد ، وهو يومئذ من أشهر أطباء الأندلس وعلمائها . واشتهر بمهارته ، فى طرق العلاج . ولما استولى القشتاليون على طليطلة فى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) غادرها ، وتجول فى مختلف ربوع الأندلس ، ونزل بطليوس ثم إشبيلية ، ثم قرطبة ، وبها توفى سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥ م) (٢) . ومنهم العلامة الطبيب والفلكى أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت . وقد ولد بغير دانية سنة ٤٦٠ هـ ، ودرس على أقطاب عصره ، ولاسيما أبى الوليد الوقشى قاضى دانية . وبرع فى الأدب والفلسفة والطب والفلك . غادر وطنه دانية ، وقد اضطربت بها الأمور ، ونزح إلى مصر فى سنة ٤٨٩ هـ ، فى خلافة المستعلى الفاطمى ولد المستنصر ، ووزيره الأفضل شاهنشاه ، تحذوه آمال كبيرة فى الظفر بحياة أكثر استقراراً ، وأوفر رزقاً ورغداً ، ونزل بغير الإسكندرية ، وعاش به حيناً ، ثم قدم إلى القاهرة ، واتصل بالأفضل بواسطة بعض حاشيته ، فلم يفز بشيء مما كان يؤمل ، وأدركته خيبة أمل يعبر عنها فى شعره :

(١) راجع الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤١٢-٤١٦ . وقد سبق أن تحدثنا عن ابن باجة فى تاريخ مملكة سرقسطة فى كتابنا « دول الطوائف » . ويعرف ابن باجة فى البحث الغربى باسمه اللاتينى Avempace .
(٢) ترجمته فى الذيل والتكملة لابن عبد الملك - مخطوط المتحف البريطانى - السفر الرابع .

وكم تمتيت أن ألقى بها أحداً يسلى من الهم أو يعدى على النوب
فما وجدت سوى قوم إذا صدقوا كانت مواعيدهم كالآل في الكذب

وفى قوله : « ولم تطل مدة اللبث حتى تبينت بما شاهدته أنى فيها مبخوس
البضاعة ، موكوس الصناعة ، مخصوص بالإهانة والاضاعة » . وأكثر من ذلك
أن الأفضل أمر باعتقاله ، لأسباب لم توضحها لنا الرواية توضيحاً كافياً . وأمضى
في هذا الاعتقال بضعة أعوام ، وكتب في معتقله عدة من مؤلفاته ، منها رسالة في
العمل بالاصطرلاب ، وكتاب الوجيز في علم الهيئة ، وكتاب الأدوية المفردة ،
وكتاب تقويم الزمن ، وهو في المنطق . وفى سنة ٥٠٥ هـ ، أفرج عنه ، وأمر
الأفضل بنفيه من مصر ، فسار إلى الإسكندرية ومنها إلى إفريقية ، حيث نزل
بالمهدية ضيفاً على أميرها أبى الطاهر يحيى بن تميم الصنهاجى ، فأكرم وفادته ،
وعلت لديه منزله ، وكتب له عن مصر رسالة الموسومة « بالرسالة المصرية » ،
وفيها يصف « ما عاينه من أرض مصر ، وما عاينه » ، ويصف جغرافية مصر ،
ونيلها ، وسكانها ، وآثارها ، ويحمل على سكان مصر ، وينعتهم « باتباع الشبهوات ،
والانهماك الذات ، والاشتغال بالترهات ، والتصديق بالمحالات ، وضعف
المرائر والعزومات » ، ويحمل على علماءها المعاصرين ، وينعتهم بأنهم « رعا
وغثاء ، وجهلة ودهماء »^(١) . ولما توفى الأمير يحيى بن تميم ، استمرت حظوته
ومكانته لدى ولده على بن يحيى . وكتب له كتاب الحديقة أو « حديقة شعراء
الأندلس » على نمط كتاب « يتيمة الدهر » للثعالبي . وكان أمية ابن أبى الصلت ،
فوق علمه الغزير ، أديباً ممتازاً وشاعراً جزلاً . وله ديوان شعر أشار إليه ابن
خلكان ، وأورد لنا طرفاً من نظمه ، ومنها تلك الأبيات التى قالها قبيل وفاته ،
وأوصى بأن تكتب على قبره :

سكنتك يا دار الفناء مصدقا	بأنى إلى دار البقاء أصير
وأعظم ما فى الأمر أنى صائر	إلى عادل فى الحكم ليس يحور
فيا ليت شعرى كيف ألقاه عندها	وزادى قليل والذنوب كثير
فإن أك مجزياً بذنبى فإنى	بشر عقاب المذنبين جدير
ولأن يك عفو عنى ورحمة	فثم نعيم دائم وسرور

(١) راجع الرسالة المصرية ، وقد نشرت بعناية الأستاذ عبد السلام هارون ، ص ٣٠٤ و ٣٠٥ .

وتوفى ابن أبي الصلت سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٥ م) أو في سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) وفق رواية أخرى^(١).

ومنهم بنو زهر ، وهى الأسرة الشهيرة التى لمعت فى ميدان الطب والعلوم الطبيعية والكيمائية . وأصلهم من إشبيلية ، ولكن عميدهم الأكبر ، وهو عبد الملك ابن محمد بن مروان بن زهر الأيادى ، نزع من إشبيلية إلى دانية . وكان فقيهاً حافظاً ، روى بالأندلس عن طائفة من أهلها ، ثم رحل إلى المشرق ، وحج ، ودرس بمصر والقيروان ، ثم عاد إلى الأندلس ، واستوطن دانية . وكان متفناً فى علوم كثيرة ، ولا سيما الطب ، الذى عنى بدراسته فى المشرق على يد أقطابه ، حتى نبغ فيه ؛ وكان ذلك بداية هذه البراعة الطبية الفائقة ، التى شملت أسرته الشهيرة ، وامتدت إلى أبنائه وأحفاده . وتوفى عبد الملك بدانية ، وجاء من بعده والده أبو العلاء زهر بن عبد الملك ، فكان صنو أبيه فى دراسة الطب ، والنبوغ فيه ، وبدأ حياته بدراسة الحديث فى قرطبة ، ثم مال إلى علم الطب ، فتلقاه عن أبيه ، وبرع فيه براعة غلبت لديه على كل صفة أخرى ، حتى غدا عمدة عصره فى الطب والعلوم الطبيعية ؛ ومن مؤلفاته «كتاب الطرر» ، الذى كُتب عنه ، و«كتاب فى الأدوية» . وكان مع براعته فى الطب أديباً ، وشاعراً مقتدرًا ، ومن نظمه قوله :

ياراشقى بسهام ما لها غرض إلا الفؤاد وما منه لها عوض
وممرضى بجفون كلها غنج صحت وفى طبعها التريض والمرض
جُدلى ولو بخيال منك يطرقى فقد يسد مسد الجواهر العرض
وتوفى زهر بن عبد الملك ، منكوباً على قول ابن الأبار ، بقرطبة فى سنة ٥٢٥ هـ (١١٣١ م) ، ثم احتمل رفاته ودفن فى إشبيلية .

وجاء من بعده ولده أبو مروان عبد الملك بن زهر ، وهو المعروف فى الغرب باسم Avenzoar . وقد برع عبد الملك فى الطب براعة أبيه وجده ، وذاع صيته فى الأندلس والمغرب . ويعتبر عبد الملك بن زهر أعظم طبيب فى العصور الوسطى بعد أبى بكر الرازى ، ويعتبره تلميذه ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس . وقد عاش ابن زهر فى إشبيلية ، واتصل بالمرابطين وصنف

(١) ترجمته فى ابن خلكان ج ١ ص ٩٩ ، والقفطى فى أخبار العلماء ص ٥٧ ، وكذلك فى

للأمير أبي إسحاق بن يوسف بن تاشفين كتابه المسمى «الاقتصار في صلاح الأجساد». على أن أعظم مؤلفات ابن زهر هو كتابه «التيسير» وهو من أعظم مراجع الطب في العصور الوسطى، وقد ترجم إلى اللاتينية في عصر مبكر. ووُثِّق به إلى أمير المسلمين علي بن يوسف، فاستدعى إلى مراکش وسجن بها مدة ثم أفرج عنه، وعاد إلى بلده إشبيلية وتوفي بها سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م). وخلفه في مهنته ولده الطبيب الأشهر أبو بكر بن زهر، وحظي لدى حكومة الموحدين وهو أكثر انتساباً إلى عصر الموحدين، ومن ثم فسوف نعود إلى ذكره في موضعه المناسب^(١). ومنهم العلامة الزراعي أبو عبد الله محمد بن مالك النغري، أصله من قرية تغز من أعمال غرناطة. عاش في أوائل القرن السادس الهجري، وسكن إشبيلية، ودرس العلوم الزراعية على ابن بصّال الطليطلي، وبرع فيها، وكتب عنها كتابه المسمى «زهر البستان ونزهة الأذهان» وهو يسمى أحياناً باسم الحاج الغرناطي، وابن حمدون الإشبيلي.

إن هذا الثبوت الحافل من المفكرين والعلماء الأندلسيين، الذين ازدهروا في العصر المرابطي، في مختلف ميادين العلوم والآداب، ومنهم عبقریات بارزة يزدان بها تاريخ الحركة العقلية الأندلسية، يحمل على كثير من التأمل. ولأنه ليعتدو من الصعب علينا إذا ما استعرضناه في شيء من الروية، أن نقول إن الحكم المرابطي، قد جنى بأساليبه الرجعية على سير الحركة الفكرية الأندلسية، وعاقها عن التقدم والازدهار. وكل ما يمكن أن يقال في ذلك هو أن ما اتخذ المرابطون من إجراءات للحجر على الدراسات الكلامية والشرعية والفلسفية، وتوجيهها إلى وجهاتهم الخاصة، ومطاردة كتب الأصول، قد يكون له أثره في سير هذه الدراسات، وإن كان لا يحق لنا أن نبالغ في تقدير هذا الأثر. أولاً لأن هذه الدراسات كانت كغيرها من الدراسات العلمية والأدبية، قد تأثلت جذورها منذ بعيد، وثانياً لأن العهد المرابطي لم يطل أمدّه بالأندلس، ولم يلبث أن زالت بزواله السريع، كل ضروب الحجر والمطاردة التي اتخذت، ثم جاءت ثورة الأندلس ضد الحكم المرابطي، فكانت عاملاً له أثره في إذكاء الحركة العقلية، ومدها بعناصر جديدة من القوة والاندفاع.

(١) وردت في الذيل والتكملة ترجمة حسنة لابن زهر وحده عبد الملك - مخطوط المتحف البريطاني السفر الرابع. ووردت في التكملة لابن الأبار ترجمة لزهر بن عبد الملك رقم ٩٠٧. وراجع عن أبي زهر أيضاً «المطرب من أنعار أهل المغرب» لابن دحية ص ٢٠٣، وفي نفح الطيب ج ١ ص ٤٣٧-٤٣٩.

الكتاب الخامس

الممالك الإسبانية النصرانية

خلال العصر المُرابطي

وأوائل العصر الموحدي

الفصل الأول

ألفونسو المحارب وأوراكا ملكة قشتالة

وبداية عهد ألفونسو ريمونديس

الممالك الإسبانية النصرانية عند مقدم المرابطين . ألفونسو السادس بعد الزلافة . إفتتاحه لسنترين . موقعة أقليميس ومصرع الإنفانت سانشو . موت ألفونسو السادس . الكونت ريمون البرجونى وأخوه الكونت هنرى . زواج الأول من أوراكا ابنة ألفونسو الشرعية . زواج الثانى من تريسا ابنته غير الشرعية . وصية ألفونسو السادس عن وراثته العرش وما يقتربن بذلك من الشروط . موافقة الكورتيس عليها . أوراكا ملكة قشتالة ، زواج ألفونسو المحارب من أوراكا . التنافس والشقاق بين الزوجين . أوراكا وصفاتها وموقفها . ألفونسو وأهله . محاصرته لأوراكا . هنرى البرجونى وموقفه . الأمير الطفل ألفونسو ريمونديس . الدسائس من حوله . فرار أوراكا وتصرفاتها . الحرب بين الفريين وهزيمة قوات قشتالة . ألفونسو ريمونديس ملك جليقية . الحرب بين أهل جليقية وألفونسو . فرار الأسقف خليريث بالأمر الطفل . حشده لقوات جليقية ، وانضمام الكونت هنرى إليه . انسحاب ملك أراجون . الأسقف خليريث وصفاته وأطاعه . انقسام اسبانيا النصرانية . تفاهم الخلاف بين أوراكا وألفونسو . محاولة الصلح ومعارضة الأسقف خليريث . إعلان بطلان الزواج . معارضة ألفونسو فى ذلك . استتار الملكة أوراكا . الأسقف يؤيد ألفونسو ريمونديس فى جليقية . استياء أوراكا من مسلكه وسيرها لمحاربه . تدخل الملكة تريسا . ثورة أهل شنت ياقب ضد الأسقف . التجاؤه إلى حامية أوراكا . الصلح بين الأم وولدها . مسير أوراكا إلى شنت ياقب ومقاومتها . عودها إلى مهاجمة المدينة بقوات مجتمعة . تغلبها على المدينة وإخضاعها . عودة الأسقف وارتقاؤه إلى المطرانية . الحرب بين أوراكا وتريسا . الصلح بينهما . أوراكا تقيض على المطران ديجو وإخوته . غضب الشعب وأنابا . أوراكا تطلق سراحه . الحرب بين المطران وبين الملكة . الصلح بين الملكة وابنها والمطران . سعى البابا إلى تحقيقه . وفاة أوراكا . صفاتها واختلاف المؤرخين فى الحكم عليها . ألفونسو ريمونديس ملك قشتالة وليون . الصراع بينه وبين ألفونسو المحارب . اهتمامه بالقضاء على سلطان الأشراف . أسرة لارا ومطاردتها . مسيره لمحاربة الملكة نريسا . خضوع البرتغال . زواج ألفونسو ريمونديس من ابنة رامون برنجير . اهتمامه بمحاربة الأندلس . الغزوات المتبادلة بين المسلمين والنصارى .

تبعنا فيما تقدم ، فى كتابنا « دول الطوائف » ، تاريخ الممالك الإسبانية النصرانية خلال القرن الحادى عشر الميلادى ، حتى وفاة ألفونسو السادس ملك قشتالة ، عقب موقعة أقليميس فى يونيه سنة ١١٠٨ (شوال سنة ٥٠١ هـ) . ونود الآن أن نستأنف تاريخ هذه الممالك النصرانية ، خلال العصر المرابطى ، وحتى مقدم الموحدين إلى شبه الجزيرة .

حينما قدم المرابطون إلى شبه الجزيرة لإنجاد دول الطوائف ، ورد عدوان اسبانيا النصرانية عنها ، كانت الممالك الإسبانية النصرانية ثلاث ، هي مملكة قشتالة ، وهي أكبرها رقعة ، وأوفرها قوة وموارد ، ومملكة أراجون ، وإمارة برشلونة أوقطلونية ، وهي أصغرهما . وكانت مملكة ناغارا القديمة (نبرة) ، قد اختفت يومئذ ، مذ تأمر على اقتسامها سانشو راميريس ملك أراجون ، وألفونسو السادس ملك قشتالة ، واستولى الأول على نصفها الشرقى مما يلي جبال البرنيه واستولى الثانى على نصفها الغربى مما يلي نهر إيبرو ، وذلك فى سنة ١٠٧٦ م ، ولم تظفر باسترداد استقلالها ، والعود إلى استئناف دورها فى شبه الجزيرة كمملكة مستقلة إلا بعد ذلك بنحو نصف قرن ، وذلك عقب وفاة ألفونسو المحارب ملك أراجون فى سنة ١١٣٤ م .

وكان ألفونسو السادس ، عميد الممالك الإسبانية النصرانية وقطبها ، حين قدم المرابطون إلى شبه الجزيرة ، وحين اشتبك معهم فى موقعة الزلاقة العظيمة ، على رأس الجيوش النصرانية المتحدة ، ولفى فيها هزيمته الساحقة (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م) ، بيد أنه نهض من غمار الهزيمة ، وعاد يقود الجيوش القشتالية مرة أخرى ، لمقاتلة المسلمين وغزو أراضيهم . ولبت قواته فى حصن لييط حينما تعيث فى أحواز مرسية ولورقة ، إلى أن حاصره المرابطون وقوات الطوائف ، ولم تستطع اقتحامه ، حتى عاد ألفونسو لإنجاد فلول حاميته ، ثم أخلاه (١٠٨٩ م) . ثم غزا شترين من قواعد ولاية الغرب واستولى عليها سنة ١٠٩٣ . واشترك بعد ذلك فى حوادث بلنسية ، عقب وفاة السيد الكمبيادور ، وعاث فى أنحائها ، ثم غادرها حينما شعر بتفوق القوات المرابطية المتأهبة لاستردادها (١١٠٢ م) . ولما توفى يوسف بن تاشفين ، وخلفه ولده على ، عبر إلى شبه الجزيرة ، معزماً أن يستأنف عهد الجهاد ، وعبرت معه قوات مرابطية ضخمة ، ونفذت الجيوش المرابطية مرة أخرى إلى أراضي قشتالة ، يقودها الأمير أبو الطاهر تميم ابن يوسف ، والتقت فى ظاهر أقليمش بقوات قشتالة ، وكان الملك الشيخ — ألفونسو — قد تخلف عن قيادتها لضعفه ، وبعث معها ولده الطفل سانشو ليبت فيها روح الإقدام والحساسة . وشاء القدر أن تكون موقعة أقليمش « زلاقة » أخرى سحق فيها الجيوش القشتالية ، وقتل فيها الإنفانت الصبى سانشو ، وحيد ألفونسو وولى عهده ، وعدة من قادة قشتالة وأكابرها (٢٩ مايو سنة ١١٠٨ م) وذلك كله حسبا فصلناه فى مواضعه . ولم يعيش ألفونسو بعد هذه الضربة طويلا ،

وتوفى في ٢٩ يونيه من العام التالي ، وقد أشرف على الثمانين من عمره ، بعد حكم دام أربعة وأربعين عاما ، ودفن بدير ساهاجون .

وقد تحدثنا من قبل عن أعمال ألفونسو السادس وإصلاحاته الداخلية ، وعن تكوين المجتمع القشتالي في عصره ، وعن سير التشريع ، وما تميز به عهده من ظهور نفوذ البابوية ، وبدأ مزاوله رياستها الروحية على الملوكية الإسبانية^(١) ، فلا محل لأن نعود هنا إلى ذكر هذه الموضوعات. بيد أن الذي يهمنا هنا هو ما انتهى إليه أمر وراثة العرش . ذلك أن ألفونسو السادس توفى دون وارث للعرش ، بعد مقتل ولده الوحيد سانشو في معركة أقليمش . وكان مما تميز به عهد ألفونسو ، مقدم كثير من الفرسان القرنسيين الذين تحذوهم الروح الصليبية إلى اسبانيا ، ليشتركوا مع القوات القشتالية في محاربة المسلمين . وكان من بين هؤلاء إثنان من الأشراف من أقارب الملكة كونستانس زوجة ألفونسو الأولى ، هما الكونت ريمون البرجوني ، وابن عمه الكونت هنري ، وقد اشترك كلاهما ، إلى جانب ألفونسو ، في كثير من المعارك التي خاضها ضد المسلمين ، وظهر فيها بإقدامه وبسالته ، فرأى ألفونسو إثابة لهما أن يزوجهما من ابنتيه أورাকা وتريسا (سنة ١٠٩٢ م) ، فتزوج الكونت ريمون بأورাকা ، وهي ابنة الملك الشرعية من زوجته الملكة كونستانس ، وتزوج الكونت هنري بتريسا ، وهي ابنة غير شرعية لألفونسو من خليلته خمينا نونيس ، ومنح ألفونسو أورাকা وريمون إمارة ولاية جليقية ، ومنح تريسا وهنري إمارة الأراضى التي انتزعها من المسلمين في ولاية لوزيتانيا (شمالى البرتغال) ، وهي التي غدت فيما بعد مهذاً لقيام مملكة البرتغال الجديدة في شبه الجزيرة . وهكذا بدأ النفوذ القرنسى يتسرب إلى شئون قشتالة السياسية ، بعد أن تسرب إلى شئونها الدينية على يد الرهبان الدومنيكانيين ، وعميدهم المطران برنار ، مطران طليطلة ورئيس الكنيسة الإسبانية .

وقد ذكرنا فيما تقدم أن الملك في قشتالة كان وراثياً . وقد واجهت ألفونسو بعد مصرع ولده الوحيد سانشو في موقعة أقليمش مشكلة صعبة ، هي مشكلة وراثة العرش . ومن ثم فقد عني بحلها في وصيته التي وضعها قبيل وفاته . وكان الكونت ريمون البرجوني ، قد توفى منذ سنة ١١٠٧ م ، بعد أن أنجب

(١) راجع كتاب دول الطوائف ص ٣٨٧ - ٣٩٠ .

من زوجه أورাকা ولدين ، هما ألفونسو وسانشا . وقد نصت وصية ألفونسو أن تتولى عرش قشتالة بعد وفاته لابنته أورাকা ، أرملة الكونت ، ورأى في الوقت نفسه تقوية لحانب العرش وسعيًا إلى توحيد اسبانيا النصرانية ، أن تزوج أورাকা من ألفونسو الأول المحارب ملك أراجون ونافارا . وعلى أثر وفاة الملك الشيخ اجتمع نواب المملكة (الكورتيس) من الأشراف والأساقفة ورجال الدين وحكام الولايات والفرسان في مدينة ليون ، وأقروا وصية الملك الراحل : وكان أشرف قشتالة ، بالرغم من تخوفهم من جرأة ملك أراجون ، يخشون ألا تقوى أوركا وحدها على تحمل أعباء الملك ، والدفاع عن المملكة ، وأنه لابد أن يكون إلى جانبها أمير قوى يستطيع أن يرد هجمات المسلمين ، ومن ثم فقد وافقوا على هذا الزواج . ووافقت أورাকা رغم ارادتها تنفيذًا لوصية أبيها ، وتقرر أن تحل مسألة العرش على النحو الآتي : أن تكون أورাকা ملكة قشتالة وليون وأشتوريش وأن يمنح ولدها الطفل ألفونسو ريمونديس (أى ابن ريمون) مملكة جليقية مع بقائها تحت سلطان قشتالة ، وأن يمنح الكونت هنرى زوج أختها تريسا إمارة البرتغال كتابع لعرش قشتالة . فإذا لم تعقب أورাকা من زوجها بألفونسو ملك أراجون ، فإن المملكة كلها توول بعد وفاتها ، إلى ولدها ألفونسو ريمونديس ، أعنى إلى حفيد ألفونسو السادس .

وتم زواج ألفونسو الأول وأورাকা في حصن منيون في أكتوبر سنة ١١٠٩ م . وفي العام التالى (١١١٠ م) ، سارت الملكة في قوات قشتالة مع زوجها الملك ، إلى أراضي ناجرة وسرقسطة الإسلامية . وكان المرابطون قد احتلوا عندئذ سرقسطة ، فعاث ألفونسو في تلك المنطقة ولكنه لم ينل مأرباً . وسرعان ما دب الشقاق بينه وبين زوجه أورাকা ، وظهر الخلاف واضحاً بين الزوجين في كل شيء . وكان التنافس بين الزوجين على السلطان مصدر الخلاف الرئيسى . وكانت أورাকা امرأة وافرة الكبرياء والطموح ، فحاولت أن تستأثر بجميع السلطات في قشتالة والأراضي التابعة لها ، وعمدت إلى إبعاد سائر الرجال الذين يشك في ولائهم المطلق لها ، ورفعت من اصطفتهم إلى أرفع مناصب الدولة . فثار ألفونسو غضباً لذلك ، وصمم على ألا يتنازل عن حق من حقوقه الملكية . يقول المؤرخ لافونتي : «لقد اقترنا دون حنان ، وكان الأمير الأرجونى موهوباً يتمتع بصفات الحننى الحشنة ، أكثر منه بالخلال التى تجعل منه زوجاً رقيقاً . وكانت الملكة من جانبها لا تراعى

العناية والحزم في بعض أعمالها الخارجية ، فأنهى الأمر ، بأن نبذ الملك كل اعتبار لزواجه ، وأخذ يسيئ معاملتها ، لا بالكلم فقط ، ولكن بالفعل أيضاً ، فكان يصفعها ويركلها برجليه . ورأى الأساقفة الذين لم يرقهم هذا الزواج منذ البداية ، أن أفضل مخرج من هذا الموقف المزرى هو الطلاق ، وأصغت الملكة إلى هذا الاقتراح ، لأنها كانت فضلاً عما تلقاه من سوء المعاملة ، تشك في صحة هذا الزواج . وكانت من جهة أخرى تنو إلى الزواج من الكونت جومث دى كاند سينا ، وكان أيام حياة أبيها يتطلع إلى ذلك ، وكانت بينه وبينها علائق مريبة^(١) .

- ١ -

وهنا تبدأ تلك الحرب الأهلية الشهيرة ، التي لبثت أعواماً طويلاً ، تمزق اسبانيا النصرانية ، والتي كان بطلاها الرئيسيان ، ألفونسو ملك أراجون ، وأوراكا ملكة قشتالة .

أدرك ألفونسو منذ البداية ما تنطوى عليه زوجه من رياء وخديعة ، وما يشين سمعتها الأخلاقية من شائعات مريبة ، فاعتزم أمره واتخذ من حجة الدفاع عن طليطلة ذريعة ، ووضع في معظم قلاع قشتالة ومدنها الرئيسية حاميات أرجونية . ولم يحجم عن محاصرة الملكة ذاتها في قلعة كاستلار (سنة ١١١١ م) بحجة أنها تحاول بث الثورة ، وأنها بسوء سلوكها تصدع من هيبة العرش .

وكانت عناصر أخرى تتأهب لدخول المعركة . ذلك أن الأمير هنرى البرجونى أمير البرتغال ، وزوج تريسا أخت أوراكا ، كان يطمح إلى عرش قشتالة ، ويأتمر بها ، ومن أجل ذلك عبر إلى فرنسا ليبحث عن مساعدته في محاربته لأوراكا ، ثم عاد إلى اسبانيا بطريق أراجون ، واتفق مع ألفونسو على أن يعمل معه لاتحاد أراضي ليون وقشتالة ثم يقسمانها فيما بعد .

وكانت المؤامرات تحاك في نفس الوقت حول الأمير الطفل ألفونسو ريمونديس ، وكان يعيش في ضيعة صغيرة في جليقية تحت رعاية وصيه الكونت بيدور دى ترافا . فلما تزوجت أمه أوراكا بملك أراجون ، أراد الوصى أن يعلن الأمير الصغير ملكاً على جليقية وفقاً لوصية جده . وكان هنرى أمير البرتغال يؤيد هذا المشروع . ولكن أوراكا حينما سمعت في قلعة كاستيلار ، بادرت فأرسلت رسلها إلى جليقية يطالبون إعلانها ملكة لها . ولكن أشراف جليقية خشوا من انتقام ملك أراجون .

وكثرت الأهواء والدسائس ، وحاول بعض أشراف جليقية الثوار أن يختطفوا الملك الطفل من مقامه في قلعة «سانتاماريا» ، حيث كانت الكونتيسة دى ترافا تسهر على حمايته . ولكن الكونتيسة دافعت عنه ببسالة ، وعاونها في ذلك ديجو خلمريث أسقف شنت ياقب ، وفشلت المحاولة . وفي تلك الأثناء نجحت أورাকা في الفرار من معتقلها بقلعة كاستلار ، فالتف حولها معظم أشراف قشتالة ، وقد ساءهم عنف ملك أراجون وتحديه . وأطلقت أورাকা العنان لأهوائها ، وحببت باصطفائها اثنين من الأشراف هما جومث جونثالث . وبيدرو جونثالث دى لارا ، وكان كلاهما من عشاقها ، وكلاهما يؤمل الوصول إلى العرش متى تم طلاقها . وكان ملك أراجون يضطرم سخطاً لهذا الاصطفاء المريب ، ويبت عيونه على الملكة الخئون في كل خطواتها . وهكذا أضجى من المتعذر التوفيق بين زوجين يمقت كل منهما صاحبه ، ولم يلبث أن تحول النزاع المستمر بينهما إلى حرب علنية . وكان هنرى أمير البرتغال ، يؤازر ملك أراجون في هذا النزاع ، تحقيقاً لأطماعه . وكان ألفونسو قد استولى خلال ذلك على طليطلة ، وحاصرها يومئذ ألبار هانيس . وهكذا دوت صيحة الحرب الأهلية ، وتحركت قوات ليون وقشتالة لموازة أورাকা ، وتحركت قوات أراجون والبرتغال ، والتقى الفريقان في « كامبودى سبينا » بالقرب من سيبولفيدا من أعمال ولاية شقوبية . وكان يقود قوات قشتالة الكونت بيدرو دى لارا ، ولكنه ما لبث إزاء عنف هجوم الأرجونيين أن تخلى عن المعركة ، وفر إلى برغش ، وخلفه في القيادة زميله الكونت جومث . وأسفرت المعركة في النهاية عن فوز قوات أراجون ، وكان الكونت وكثير من أشراف قشتالة بين القتلى (نوفمبر سنة ١١١١ م) .

وعلى أثر ذلك اخترق الجيش الأرجونى قشتالة ، وهو يعيث في أراضيها نهباً وتخريباً ، وعُزل الأساقفة من أنصار الملكة ، واعتدى الحند على الكنائس . وعندئذ خشى أشراف جليقية العاقبة ، فانضموا إلى الملكة ، وأعلنوا الأمير الطفل ألفونسو ريمونديس ملكاً على جليقية ، وقرروا أن ينقلوه لدى أمه في قشتالة ، صعبة وصيه الكونت دى ترافا والأسقف خلمريث ، ومعهم فرقة قوية من الحند . وعلم ملك أراجون بذلك ، فخرج لصددهم ، ونشبت بين الفريقين على مقربة من أسترقة معركة حامية ، وكل يحاول أن ينزع الملك الطفل . وهزم الخلافة ، ولكن الأسقف خلمريث استطاع خلال المعركة أن يحمل الطفل وأن يفر به ناجياً .

إلى حصن « أوسيون » حيث كانت أمه ، ثم حمله الإثنان خلال الجبال إلى شنت ياقب .

وغدا الأسقف خلمرت عندئذ روح كل مقاومة ضد ملك أراجون ، وأصدر نداء إلى أهل جليقية المخلصين ، واستطاع أن يضم إليه المنشقين منهم في جهة واحدة ، ولم يَمْض سوى قليل حتى استطاع هو والملكة أن يجمعا قوة كبيرة ، ونجح الأسقف أيضاً في أن يستميل إلى جانبه هنري أمير البرتغال ، وكان قد بدأ يخشى سطوة ملك أراجون . وسارت القوات المشتركة إلى أسترقة لإنقاذ الخلافة المحصورين بها . فلما شعر ملك أراجون بتفوق خصومه ، غادر أسترقة ، وارتد في قواته صوب بلد الوليد ، وهناك حاول القشتاليون والخلافة والبرتغاليون محاصرته ، ولكنه استطاع أن يقضى على محاولتهم ، وأن يرتد ظافراً إلى بلاده (أبريل سنة ١١١٢ م) .

ولابد لنا أن نذكر كلمة عن هذا الأسقف المغامر المحارب ، ديجو خلمرت ، فقد كان أسقفاً لشنت ياقب منذ سنة ١١٠١ م ، وكانت سيادته لهذه الأسقفية الهامة المتمدنة ، واحتكامه على ما بها من ثروات وموارد طائلة وأتباع عديدين ، تجعل منه عاملاً هاماً في ذلك الصراع السياسي الذي تجوزه قشتالة . وكان الأسقف فوق ذلك رجلاً رفيع المواهب ، شديد الحزم ، كثير الأطماع ، متحفزاً ، شغوفاً بتوسيع سلطانه وحقوق كنيسه ، قليل الاكتراث بالوسيلة ، وهو ما كان يتفق مع ضعف الخلق السياسي في هذا العصر ، الذي كان ينتقل فيه الناس بسهولة ودون حرج من حزب إلى حزب ، ويحشون في كل وقت بالعهد أو بالصدقة المعقودة . وهكذا كان دون ديجو ممثلاً بارزاً لأهل عصره ، وللطبقة السائدة التي كانت تضم الأشراف ورجال الدين ، وهكذا ، سوف نراه صديقاً للملك أوراكاً ثم عدواً لها ، وصديقاً لتريسا ملكة البرتغال ثم عدواً لها ، وصديقاً للملك الصبي ألفونسو ، ثم خصماً له . وسوف نراه يحارب إلى جانبهم ثم يحارب ضدهم طوراً بعد طور^(١)

وتعاقبت الحوادث والقلاقل في الأعوام التالية ، وانقسمت اسبانيا النصرانية إلى ثلاثة أحزاب ، كان أولها وأقواها من حيث البلاد والموارد حزب ملك أراجون ،

R. Altamira : Historia de Espana y de la Civilización Española (١)
«Barcelona (1900) V I. p. 357 & 858

وثانيها حزب قشتالة الذى ينضوى تحت لواء الملكة أورাকা ، ويؤازره رجال الدين فى قشتالة وليون وجليقية ومن ورأهم الشعب ، وثالثها حزب الأشراف ، وهو يعارض حكم الملكة وحكم ملك أراجون ، ويعقد آماله على الملك الطفل ألفونسو ريمونديس ملك جليقية ، ويؤازره معظم الفرسان فى سائر أنحاء المملكة . وكان من الواضح أن الخلاف بين الملكة وزوجها قد وصل إلى حدود لم تعد تنجح معها أية محاولة للتوفيق ، وقد بذلت مثل هذه المحاولة بالفعل على يد كبار قشتالة ، وعقد صلح اتفق فيه على توزيع البلاد والحصون على الملكين . ولكن ألفونسو ما لبث أن استولى على كثير من الحصون التى أعطيت للملكة . وعندئذ غضب القشتاليون لذلك ، وأعلنوا أن أورাকা هى ملكة قشتالة الشرعية . ونهضت الملكة ، وسارت فى قواتها وقوات جليقية لمحاربة ألفونسو . وبعث ألفونسو سفراءه فى طلب الصلح من جديد . ومال الأشراف إلى ذلك حقنا للدماء . ولكن الأسقف ديجو خلمريث ، عارض فى عقد الصلح أشد معارضة ، وأعلن بطلان الزواج المعقود بين الملك والملكة ، وخصوصاً بعد أن أعلن البابا أنه « عشرة محارم » وذلك بسبب القرابة الشديدة بين الزوجين . ولم تمض أشهر قلائل حتى أعلن رسول البابا فى مجلس عقد فى بالنسيا بطلان الزواج بصفة رسمية ، واغتبطت الملكة لذلك القرار . ولكن ملك أراجون أعلن بطلان القرار البابوى ، ثم قرنه بإعلان الحرب على قشتالة ، والاستيلاء على ولاية ريوخا .

وفى خلال ذلك ، كانت الفتن والقلاقل تتعاقب ، أحياناً فى صف أورركا ، وأحياناً ضدها . وكانت أورাকা ماضية فى مسلكها المشين لاتبى على شئ ، وقد فاق استهتارها كل حد ، وتركت لتحليلها الكونت بيدرو دى لارا كل الشئون ، وأضحت علائقها الغرامية فضيحة عامة ، يجرى ذكرها على كل لسان . وكان الأسقف ديجو من جهة أخرى يعمل بكل ماوسع لتوطيد مركز ألفونسو ريمونديس فى جليقية ، وذلك بالتعاون مع الكونت دى ترافا مؤدب الملك وزملائه الثوار من أشراف جليقية . فثارَت الملكة لمسلكتها ، وسارت فى بعض قواتها إلى شنت ياقب التى غدت عندئذ مركزاً لهذه المحاولات ، فاضطر الأسقف إلى إعلان توبته وطاعته . ولكن حدث عندئذ ، أن سار الكونت دى ترافا ، وتريسا ملكة البرتغال فى قواتهما إلى شنت ياقب ، وحاصرا الملكة أورাকা . وكانت تريسا ، قد كسبت بانضمامها إلى الثوار ، دفع حدودها إلى أراضى مدينتى

توى ، وأورنسى . ولم تسنطع أوراكا مغادرة شنت ياقب إلا بصعوبة ، فسارت منها إلى مدينة ليون . وبقيت تريساً في جليقية حيناً ، حتى علمت بأن المسلمين يزحفون على أراضيها الجنوبية فعادت إلى البرتغال لتعني بمدافعهم .

وفي تلك الأثناء ثار أهل شنت ياقب بالأسقف ديجو ، ففر إلى قشتالة ، والتجأ إلى حماية الملكة ، فاستقبلته بعطف ، وعهدت إليه بأن يقوم بالسعى في عقد الصلح بينها وبين ولدها ومن يؤيدونه من أشراف جليقية ، فدعا الأسقف إلى اجتماع عقد في ساهاجون يمثل مختلف الأطراف المتنازعة (كورتيس) ، ووضع اتفاق بين الأم والإبن ، وقعه ثلاثون شريفاً من كل من الفريقين ، يقضى بأن تتولى الأم وولدها الحكم معاً في جليقية وليون وأشتوريش ، وأن تنصرد الأم بالحكم حال حياتها في قشتالة ، على أن يخلفها ولدها وفقاً لوصية ألفونسو السادس (سنة ١١١٧ م) .

ولما تم توقيع الصلح على هذا النحو سارت الملكة إلى جليقية لزيارة ولدها ، ثم سارت إلى شنت ياقب لتعاقب أهلها على مناوراتهم للأسقف ديجو . فقاومها أهل المدينة بشدة ، وهاجموها ومن معها بعنف ، حتى اضطرت أن تلتجئ مع حاشيتها إلى الكنيسة الكبرى ، فأضرم الثوار فيها النار غير مكترئين بصفتها المقدسة ، ولما هرعت الملكة إلى الخارج طلباً للنجاة ، تطاول عليها الثوار وأهانوها ، ولم تستطع النجاة إلا بعد أن تعهدت لهم بأن تعين لهم أسقفاً آخر يوافق الملك على تعيينه ، وأن تحكم البلدة وفقاً لرغبات أهلها . أما الأسقف ديجو ، فاستطاع أن يفر متنكراً ، ولكن أتباعه هلكوا في الكنيسة حرقاً .

وما كادت الملكة تغادر شنت ياقب حتى زحفت على المدينة قوات جليقية ، وقوات الملكة وأصحاب الأسقف ، واعتزمت الملكة عندئذ أن تعاقب أهلها على جرأتهم عقاباً رادعاً . فارتاع أهل المدينة ، وخرج كبارؤها من قساوسة ومدنيين ، وتضرعوا إلى الملكة وإلى الأسقف بأن تصفح عنهم ، وأن يرفع عنهم النفي الكنسى الذى أعلنه الأسقف . وانتهى الأمر بأن اشترطت الملكة ، أن يُنزع سلاح الجماعة الثائرة المسماة « جماعة الإخوة » ، وأن يقسم الكبراء بيمين الطاعة للملكة والأسقف ، وأن يقدموا خمسين فتي من أبنائهم وأقاربهم رهينة ، وقررت الملكة نزع أملاك خمسين من الثوار ، وفرضت على المدينة غرامة فادحة . ثم دخلت إلى المدينة يصحبها الأسقف ، وأعيد الأسقف إلى منصبه ، وردت

التحف المنوبة ، وأصاحت الكنيسة والقصر الأسقفى المجاور لها على نفقة الثوار. واستطاع الأسقف ديجو فوق ذلك أن ينال من البابا كالمستوس الثانى رتبة المطرانية (الكردينال) ، والبابا كالمستوس هو أخو الكونت ريمون والد الملك الصبى ألفونسو ، وكان منح الأسقف هذا اللقب ثمناً لمؤازرته للملك ، واشترط فى منحه أن يستمر الأسقف فى مؤازرته .

خرجت الملكة أوركا بعد ذلك فى قواتها ، ومعها قوات شنت ياقب تحت تحت قيادة المطران ديجو ، لمحاربة أختها تريسا ملكة البرتغال واسترداد أراضى توى وأورنسى منها ، ونفذت إلى أراضى البرتغال ، وحاصرت تريسا فى حصن لانيوسو ، ولكن تريسا استطاعت الفرار بمعاونة بعض الأشراف الحلاقية ، وربما أيضاً بمعاونة المطران الماكر ، وقد أبدى رغبته فجأة فى أن يعود بقواته إلى شنت ياقب ، وهو ما حمل أوركا على الشك فى ولائه . وانتهت المفاوضات التى تلت بين الأختين عن نتيجة لم تكن متوقعة ، هى أن تتنازل أوركا لأختها عن أراضٍ من أحواز سمورة وطورو وشلمنقة ، فى نظير أن تتعهد تريسا بمعاونتها ضد جميع خصومها ، مسلمين كانوا أو نصارى ، وآلا تعاون أحداً من الأشراف الثائرين ضدها . وعلى أثر ذلك عادت أوركا على رأس حملتها الغازية إلى جليقية . ولكنها دبرت أن تعبر قوات شنت ياقب النهر أولاً ، وماكاد يتم عبورها ، حتى أمرت بالقبض على المطران ديجو ، وزجه إلى أحد الحصون ، وقبض كذلك على إخوته الثلاثة ، وعلى صديقيه مطران براجا وأسقف أورنسى ، وكانوا جميعاً مع الجيش . وكان لهذه الإجراءات العنيفة أعمق وقع فى شنت ياقب وفى رومة . فى شنت ياقب ثار الشعب سخطاً ، وبدأ غضبه بأجلى مظاهره حينما قدمت الملكة إلى المدينة المقدسة لتشهد الاحتفال بعيد القديس ياقب . وأما عن موقف رومة ، فقد أرسل البابا كالمستوس إلى سائر مطارنة اسبانيا ، بأن يعقدوا مجلساً دينياً ، وأن يصدرُوا قراراً بنفى الملكة من الكنيسة ، إذا لم تفرج عن المطران خلمريث ، وترد إلى الكنيسة أملاكها المغصوبة . ومن جهة أخرى فقد ثار شعب شنت ياقب ، وهدد الملكة بالويل إذا لم تفرج عن المطران ، وزاد فى حماسهم وثورتهم مقدم الملك الفقى ألفونسو ريمونديس على رأس قواته . وعندئذ اضطرت أوركا ، أن تطلق سراح المطران وزملائه المعتقلين . ولكنها لم تقم برد أملاك الكنيسة ، وأملاك المطران المنزوعة .

وهنا نهض المطران لمحاربة الملكة ، ومن الغريب أن أهل شنت ياقب الذين خرجوا من قبل على المطران وكادوا يفتكون به ، انضموا عندئذ إليه . وانضمت إليه كذلك قوات ألفونسو ريمونديس الجليقية . وسارت الملكة في قواتها لمقاتلة المطران الثائر وحلفائه ، والتقى الفريقان في مكان يسمى « مونساكرو » ووقعت بينهما بعض المصادمات الدموية ، وصدر في تلك الأثناء قرار المطارنة بنفى الملكة من الكنيسة تحقيقاً لرغبة البابا ، وعندئذ لم تر الملكة مناصباً من الإذعان . وفي رواية أخرى أنه لم يقع قتال بين الفريقين ، وأن المطران ديجو اقترح على الملكة أن تجرى مفاوضات لعقد الصلح بينها وبين ابنها حقناً للدماء . وانتهت هذه المفاوضات إلى معاهدة صلح ، قدمت الملكة لضمان تنفيذها ستين من فرسانها رهينة ، وتعهدت بأن ترد سائر أملاك الكنيسة ، وأن ترد إلى المطران سائر أملاكه ورواتبه .

وحاول البابا كالستوس الثاني أن يضع بتدخله حداً لتلك الحرب الأهلية التي طال أمدها ، فأوفد إلى شبه الجزيرة سفيراً بعد سفير ، وعقدت بدعوته عدة اجتماعات كنسية ونيابية للعمل على رد السكينة والنظام ، والتوفيق بين الأحزاب المتنازعة . وانتهى الاجتماع الذي عقد في بلد الوليد في سنة ١١٢٤ م ، بعقد الصلح بين الملكة ولدها على أن يحكما سوياً كل الأراضي التي ورثتها أوراكا عن أبيها . ولكن النزاع بين الأشراف استمر على حاله ، ولم تثمر في حسمه أية وسيلة ، إذ كانت أهواء الملكة الشخصية تحول دون كل توفيق ، وتذكي عوامل الخصومة والبغضاء في مختلف النفوس . وكان ولدها الملك الفتى ، قد سار قبل ذلك ببضعة أعوام إلى قشتالة في فرقة قوية من فرسانه واستطاع أن يقبض على الكونت بيدرو دى لارا عشيق أمه ، وأن يلقي به إلى السجن . ولكن الكونت فر من معتقله ، والتجأ إلى حماية أمير برشلونة ، ورفع هذا الحادث من سمعة الملكة وهيبته مدى حين ، وهدأت ثورة أشراف قشتالة ، الذين كانوا ينقمون على أوراكا اصطفاءها الشائن لخليلها . ومع ذلك فإن هذه الملكة الماجنة استمرت على سلوكها الوضعي ، وعلائقها الغرامية المشينة ، حتى نهاية حياتها .

وقد جاءت النهاية أخيراً لتضع حداً لحياة ذميمة ، فياضه بالفجور والفضائح والأهواء الجاحدة ، والخصومات المضطربة ، وتوفيت أوراكا ملكة قشتالة في سنة ١١٢٦ م . فتنفس الجميع الصعداء في سائر أنحاء اسبانيا النصرانية ، ملوكا ، وأحباراً وأشرافاً ، وفرسانا ، وشعوباً ، واختفت من حياة قشتالة العامة ، شخصية

بغیضة لم تحظ خلال حياتها ، بشيء من الولاء الحقیقی ، أو العطف الصادق أو التوقیر والاحترام .

لبثت أوراکا مدى عشرين عاما ملكة لقشتالة ، وخلفت على العرش أباهما العظیم ألفونسو السادس ، فكان التباين فی الوسائل والحلال من أبشع ما يمكن تصوره ، وتحول الحكم القوى الحازم ، إلى معترك من الشهوات والأهواء الخطرة . وبدلاً من أن يغدو زواجها بألفونسو المحارب دعامة لتوطيد العرش ، وتسبب دفعة الحكم ، أضحي مصدراً خطراً للتنافس والشقاق المستمر ، وعاملاً فی ضعف المملكة ، واستنزاف مواردها التي كانت تدخرها لغزو الأندلس ، وتخريب ربوعها فی حروب أهلية منهكة . وكان وجود امرأة على رأس الحكم فی ממكة قشتالة العريقة ، فی ذاته مظهراً جديداً لم يألفه الشعب القشتالی ، الذي اعتاد أن يرى حکامه من الملوك الأقوياء ، وأذکی من وقع هذا المظهر فی نفوس الأشراف ونفوس الشعب ، مسلك أوراکا المشین كملكة وامرأة معا ، لا تحرص على صون هبة الملك ، ولا كرامة المرأة المصون .

ومع ذلك فإن المؤرخین الإسبان یختلفون فی الحكم على أوراکا ، وعلى حقيقة تبعاتها التاريخية . ففریق یحكم علیها ، ويدمغها بأقسى النعوت . ومن هؤلاء الأسقف ساندوڤال . إذ یحمل علیها فی تاريخه^(١) بشدة ، ویقول : « یجب علینا أن نسقط مثل هذه العصور من سلسلة تاریخنا القومی » . ویضع لوقا التونی ، وأسقف طلیطلة ، وماريانا ، مسئولية سائر المحن والخلافات التي حدثت على رأس ملكة قشتالة ، ویصفونها بأنها « امرأة متهورة وشجاعة » ویحدثون عن « خدعاتها المشینة المشبعة بالخيانة » . هذا بینما یرفض الأب فلورس^(٢) وغيره ، کل ما نسب إلى أوراکا من « أعمال الطیش التي نسبت إليها » ویرجعون المسئولية فی کل ما حدث من الشقاق والاضطرابات إلى الملك ألفونسو المحارب ، وینسبون إلیه أخبث النیات ، وأشنع الأعمال اللادینیة ، ویصفونه بأنه زوج همجی ومسیء لزواجه ، ومضطهد ومستبد للأساقفة ورجال الدین ، وملوث ومخرب للمعابد ، وناهب للأموال والآنية المقدسة ، وبأنه لم یتورع عن محاولة اغتيال الأمير الصبی^(٣) .

Sandoval : Historia de los Reyes de Castilla y de León (١)

Flórez : Historia de la Reinas Católicas فی تاريخه (٢)

M. Lafuente : Historia General de España, T. III, p. 215 (٣)

- ٤٨٨ -

- ٢ -

لما توفيت الملكة أورাকা ، أعلن ولدها ألفونسو ريمونديس ملكاً لقشتالة وليون وسائر الأراضي التي حكمها جده ألفونسو السادس ، باسم ألفونسو السابع ، وكان ألفونسو منذ وفاة جده ، وفي حياة أمه ملكاً لخليقية حسناً تقدم . وكان هذا الملك الفتي الذي لم يجاوز الحادية والعشرين من عمره ، قد نشأ وترعرع في نحرار الخطوب والحن التي توالى على المملكة أيام حكم والدته ، وكان يشعر بكل ما يواجه من تبعات خطيرة ، وما يستلزمه ذلك من يقظة وحزم . وكان أشرف قشتالة وليون يشعرون ويشعر الشعب القشتالي نفسه ، بأن تولى ألفونسو ريمونديس الملك يبشر بإنهاء عهد الاضطراب والفوضى ، وقيام عهد جديد من السلام والرخاء . على أنه كان واجباً قبل أن يتحقق هذا الأمل ، في عود السكينة والسلام ، أن يتحقق أمران ، الأول أن تُسوى المسائل المعلقة بين قشتالة وأراجون ، والثاني أن يتم إخضاع الأشراف والخوارج في بعض أنحاء المملكة بصورة نهائية .

فأما عن الأمر الأول ، فإن ألفونسو ملك أراجون ، كان ما يزال يتمسك ببقية من دعاويه القديمة ، وكانت جنوده ، ما تزال تحتل عدداً من الحصون داخل أراضي قشتالة . فلما توفيت أورাকা زوجه القديمة ، وقام ولدها في الملك ، أخذ يتطلع إلى مهاجمة قشتالة والمحافظة على ما بيده من حصونها ، وأخذ ألفونسو ريمونديس من جانبه يتطلع إلى القضاء على دعاوى ملك أراجون ، وتحرير أرض قشتالة من هذا الاحتلال ، وأخذ كل من الملكين يتأهب لمقاومة خصيمه . وكان ملك أراجون هو البادئ بالعدوان ، فنفذ بقواته إلى أراضي قشتالة حتى صار على مقربة من بالنسيا ، وهناك التقى بقوات قشتالة وكان يقودها الكونت دي لارا . ولكن لم يقع بين الفريقين التحام ولاقتال . وسرعان ما تدخل بينهما الأساقفة ، وعقدت الهدنة ، وتعهد ملك أراجون بأن يسلم الحصون التي تحتلها قواته في مهلة معينة ، ثم عاد إلى أراضيهِ (١١٢٧ م) .

ولكن ملك أراجون لم ينفذ ما وعد به ، ولم يمض عامان آخران حتى عاد إلى غزو قشتالة . وسار ألفونسو ريمونديس في قواته إلى لقائه . والتقى الجيشان على مقربة من « ألماسان » . وهنا تدخل الأساقفة مرة أخرى ، وتكرر السعى القديم في عقد الهدنة ، وكان التعهد هذه المرة من جانب ملك قشتالة ، في أن يرد إلى المحارب الحصون التي كانت له في قشتالة .

على أن هذه المحاولة لم تنجح أيضاً ، ولم يمض سوى قليل ، حتى عاد النزاع ، وعاد لقاء الفريقين في ميدان الحرب ، واستولى ملك قشتالة في تلك الحملة على قلعة كاسترو شريش ، وهى أهم القلاع التى كان يحتلها أنصار ملك أراجون ، واستمر هذا الصدام وقتاً ، وكلما هم الفريقان بالاشتباك ، هرع الأساقفة بالتدخل ودعوا إلى حقن دماء النصارى ، وتحويل تيار الحرب إلى وجهة أخرى هى محاربة المسلمين . وأخيراً وفق الأخبار في جهودهم ، وعقدت بين الملكين هدنة ، نزل بمقتضاها ملك أراجون عن سائر الحصون التى كانت له في قشتالة ، ونزل ألفونسو ريمونديس نظير ذلك عن ولاية « ريونخا » التى كانت من قبل من أراضى نافارا ، وانزعه عنها منها ألفونسو السادس (سنة ١١٣٠ م) .

وشغل ألفونسو المحارب من ذلك الحين أولاً بحرب صغيرة تشبت فيما وراء البرنيه بين بعض الأمراء الفرنسيين . والظاهر أن ألفونسو تدخل في هذه الحرب ليحمى بعض الكونتات من أتباعه في ولايتى بيارن وبجور ، من بعض خصومهم من أمراء الشمال ، ومن ثم فقد حاصر ألفونسو مدينة بيونة واستولى عليها (سنة ١١٣١) . ثم شغل بعد ذلك بمحاربة الأمراء المسلمين في طرطوشة ومكناسة وإفراغة ، وفي موقعة إفراغة كانت هزيمته الساحقة ، ثم مصرعه في بوليه سنة ١١٣٤ م ، وذلك حسبما فصلناه من قبل في موضعه .

وأما الأمر الثانى الذى شغل به ألفونسو ريمونديس في مستهل حكمه ، فهو القضاء على سلطان الأشراف الخوارج وثوراتهم التى توالى منذ عهد أمه أورাকা . وكان أشد الخوارج بأساً في قشتالة أسرة لارا ، التى كانت تناهض العرش أحياناً ، وأحياناً تعضده بقواتها و ثرائها ، ونفوذها البالغ . وكان عميدها بيدرو جونثالث دى لارا عشيق الملكة أورাকা أو زوجها السرى ، وأخوه رديجو ، وكان ألفونسو ريمونديس قد استطاع من قبل أن يقبض على عشيق أمه ، وأن يعتقله ، ولكنه فر إلى قطلونية ، ثم عاد إلى قشتالة عقب موت أورাকা ، واستطاع أن يستولى على بالنسيا بمعاونة ملك أراجون ، فبادر ألفونسو بالسير إلى بالنسيا ، واستولى عليها ، وقبض على الأشراف الثائرين ، وفي مقدمتهم الكونت بيدرو دى لارا ، ولكن أخاه رديجو تمكن من الفرار إلى منطقة الأسترياس (أشتوريش) . وأفرج ألفونسو بعد ذلك عن الكونت بيدرو ، فغادر قشتالة مرة أخرى إلى أراجون ، شاعراً بأنه فقد كل مكانته ونفوذه السابق ، واشترك مع ملك أراجون

في حملته إلى بيونة ، وقتل أمام أسوارها . أما أخوه الكونت ردريجو ، فقد طارده ألفونسو ، وضيق عليه ، حتى أدعن إلى طلب الأمان والعفو ، وأقسم أنه سوف يلتزم منتهى الولاء والإخلاص ، فعفا عنه ألفونسو وعينه حاكما لطلبلة ، وأبدى الكونت غيرة في خدمة العرش . وتتبع ألفونسو في نفس الوقت باقي الأشراف الثائرين فأخضعهم ، واحتل حصونهم تباعاً ، وأبدى في معاملتهم إغضاء ورفقاً . وبذلك استطاع أن يحقق السكينة والسلام في ربوع قشتالة .

ولم يبق أمام ألفونسو لاستكمال سلطانه ، سوى استرداد الأراضي والحصون التي انتزعها خالته دونيا تريسا ملكة البرتغال ، وكانت ما تزال متمسكة بما اقتطعته من أراضي جليقية وحصونها ، بل كانت تحاول الاستيلاء على أرض أخرى ، وكانت عندئذ قد وثقت علاقتها الغرامية بالكونت فرناندو بيرث ولد الكونت دى تراكا مؤدب ألفونسو السابق ، وأضحت هذه العلاقة فصيحة ملكية على نحو ما كانت علائق الملكة أوراكا بخليها الكونت دى لارا ، وكان لها أسوأ الأثر . فسار ألفونسو ريمونديس في قواته ومعه خلمريث مطران شنت ياقب ، ونفذ إلى أراضي جليقية والبرتغال ، وقضى على كل مقاومة ومعارضة ، سواء من جانب أشراف جليقيه أو من جانب قوات تريسا . وكان البرتغاليون ينقمون على ملكتهم تهورها واستهتارها ، وتركها أمور المملكة لخليها الكونت بيرث ، ويطالبون بتقديم ولدها الأمير الصبي ألفونسو هنريكز . ولما آنس القواد البرتغاليون ضعفهم ، وخرج مركزهم أمام ضغط ملك قشتالة ، أعلنوا باسم ألفونسو هنريكز ، أنهم يعتبرون البرتغال مستقلة بحماية ليون ، ومليكه ألفونسو ريمونديس ، وهكذا عاد ألفونسو ريمونديس ظافراً ، بعد أن قضى على مشاريع خالته تريسا العدوانية .

وكان ألفونسو ريمونديس قد تزوج أثناء ذلك من دونيا برنجيلا ، ابنة رامون برنجير الثالث أمير برشلونة (سنة ١١٢٨ م) ، وكان هذا الزواج عاملاً في توثيق علائق المودة والتحالف بين قشتالة وإمارة برشلونة ، واستطاعت هذه الأميرة الحسنة الموهوبة ، أن تحرز برقتها وذكائها في بلاط قشتالة ، أعظم نفوذ ، وأن تغدو لزوجها الملك الشاب مستشاره الأول ، يصغى إلى نصيحها في سائر شئون المملكة والحكم ، معتمداً في ذلك على ذكائها وحسن إدراكها للأمور^(١) .

وفي سنة ١١٣٣ م ، قام ألفونسو بإخضاع بعض ثورات محلية في منطقة

الأسترياس ، وفي خلال هذه الحملة ، علق بحب فتاة حسناء تدعى كونترودا هي ابنة الكونت بيدرو دياث ، وأعقب منها فيما بعد ابنة سميت أورাকা ، عهد بتربيتها إلى أخته دونيا سانشا . وهكذا غدت هذه المغامرات الغرامية الملوكية تقليداً راسخاً في بلاط قشتالة في هذا العصر .

وفي خلال ذلك لم ينس ألفونسو ريمونديس مهمته الأولى ، كملك لقشتالة أولاً ، وعميد الملوك اسبانيا النصرانية ثانياً ، وهي متابعة الحرب ضد اسبانيا المسلمة . وكانت هذه المهمة التي يحيطها ملوك قشتالة ، بنوع من التقديس ، قد تراخت نوعاً أيام والدته أورাকা ، بسبب ما شغل قشتالة عندئذ من منازعات وحروب أهلية متوالية . وشغلت الجيوش المرابطية من جانبها بمدافعة ألفونسو المحارب ملك أراجون ، والاشتباك معه في معارك متوالية في شرقي الأندلس ، وفي جنوبها ، وفي الثغر الأعلى ، وكان ملك أراجون ، بعد وفاة ملك قشتالة القوى ألفونسو السادس ، هو الذي يضطلع يومئذ بمهمة الصراع الذي تشهده اسبانيا النصرانية على اسبانيا المسلمة .

على أن ملك قشتالة ألفونسو ريمونديس ، ما كاد يسوى نزاعه مع ملك أراجون ، وما كاد يطمئن إلى استقرار السكينة والسلام في مملكته ، حتى استدعى مجلساً في بالنسيا (كورتيس) لكي يبحث خطط الحرب ضد المسلمين (سنة ١١٣٠ م) . وكانت الغزوات المرابطية ، قد أخذت قبل ذلك بقليل تتوالى في أراضي قشتالة ، ولاسيما مذولى الأمير تاشفين بن علي بن يوسف شئون الأندلس في سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) . وقد فصلنا نحن من قبل تفاصيل الغزوات التي قام بها المرابطون يومئذ في أراضي قشتالة ، والغزوات التي قام بها القشتاليون في أراضي الأندلس ، فلا حاجة بنا إلى أن نعود إلى ذكرها هنا . بيد أنه مما تجب ملاحظته أن هذه الفترة التي توالى فيها غزوات القشتاليين لأراضي الأندلس الوسطى ، هي نفس الفترة التي اشتدت فيها وطأة ألفونسو المحارب ملك أراجون على شرقي الأندلس والثغر الأعلى . وقد سبق أن فصلنا كيف أحرز ألفونسو نصره على المرابطين في موقعة القلاعة جنوبي بلنسية في سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩ م) وكيف غزا ألفونسو بعد ذلك أراضي بلنسية ، وعاث فيها ، ثم عاد فهاجم مكناسة من قواعد الثغر الأعلى ، واستولى عليها في سنة ٥٢٧ هـ (١١٣٣ م) ثم كان حصاره لإفراغة ونكبتة تحت أسوارها ، وموته على أثر تلك النكبة ، وذلك في شهر يولييه سنة ١١٣٤ م (رمضان سنة ٥٢٨ هـ)

الفصل الثاني

الممالك الإسبانية النصرانية

في عصر القيصر ألفونسو ريمونديس

وقيام مملكة أراجون الكبرى

ألفونسو المحارب. أعماله وخلالها. وصيته. رفض الشعبين الأراجون والنافار لها. انفصال نافارا واستقلالها. اختيار أراجون الراهب راميرو ملكاً لها. غزو ملك قشتالة لنافارا. احتلاله لسرقسطة. اعتراف راميرو بطاعته. ألفونسو ريمونديس يتخذ لقب الإمبراطور. قرارات مجلس ليون. ما يحققه اللقب الإمبراطوري لملك قشتالة. محالفة راميرو لملك قشتالة. ألفونسو ريمونديس يغزو نافارا. ارتداده لمحاربة البرتغاليين. زواج الكونت رامون أمير برشلونة من إيزابيل راميرو. تنازل راميرو عن العرش. الكونت رامون أمير أراجون. الكونت رامون برنجير الثالث وجهوده في سبيل التعاون مع أراجون. رامون برنجير الرابع وإتمام الوحدة بين أراجون وقطونية. مسير ألفونسو ريمونديس لمحاربة البرتغال. الصلح المفاجئ بين الملكين. مسير ألفونسو لغزو الأندلس. فتك المرابطين بإحدى فرقته. مسيره لافتتاح حصن أوريجا. إصرار المرابطين إلى نجاته. تسليم الحصن بالأمان. تحالف ألفونسو ريمونديس ورامون برنجير على غزو نافارا. مدافعة غرسية راميريس ملكها للغزاة. سعيه إلى طلب الصلح. اعترافه بسيادة الإمبراطور. استمرار الحرب بين أراجون ونافارا. عقد الصلح بينهما. غزو ألفونسو ريمونديس للأندلس. استيلائه على قورية. غزوة قشتالة للأندلس. موقعه بين المسلمين والنصارى هزيمة النصارى ومصرع قائدهم. ملك قشتالة يغزو الأندلس مرة أخرى. معاونته للشوارضد المرابطين. احتلاله قرطبة. استيلاء النصارى على ألمرية. سقوط القواعد الإسلامية بالغر الأعلى. غزو نافارا لأراجون ومراميه. المؤتمر الكهنوتي. وفاة الملكة برنجيلا. وفاة غرسية راميريس ملك نافارا. تجديد التحالف ضد نافارا بين أراجون وقشتالة. تطور الحوادث. الزيجات الملكية. الحرب بين نافارا وأراجون. تجديد الاتفاق بين أراجون وقشتالة على تفسيخ نافارا. عود ملك قشتالة إلى غزو الأندلس. استيلائه على حصن أندوجر والبطروج. استردادها على يد الموحدين. استرداد الموحدين لألمرية. وفشل القيصر في إيجادها. وفاة ألفونسو ريمونديس. خلالها وأعماله. برنامج في مهاجمة الإسلام. مواظبته على غزو الأندلس. الكونت رامون برنجير وأعماله الأخيرة. وفاته وخلالها. تفسيخ قشتالة بين ولدي القيصر سانشو وفرناندو. الحرب بين الأخوين. هزيمة فرناندو واعتزافه بسيادة أخيه. أطاع سانشو ووفاته. ولده الطفل ألفونسو. الوصي جوتيريو دي كاسترو. سحق آل لارا. تسليم الأمير للكونت غرسية دي آينا. الكونت يسلمه لآل لارا. مطالبة آل كاسترو بإعادة الطفل. التحاؤم إلى فرناندو ملك ليون. غزو فرناندو لقشتالة. إعلانه لوصايته على ابن أخيه. تسليم آل لارا للملك الطفل. اصطفاء فرناندو لآل كاسترو. الحرب بين الأسرتين. هزيمة آل لارا. اختطافهم للملك الطفل. تذرهم بحماية قشتالة من أطاع فرناندو. استمرار الحرب الأهلية بين الفريقين. مقتل عميد آل لارا. تحول أهل قشتالة إلى محاصمة فرناندو. استيلاء آل لارا على طليطلة. إعلانهم

لولاية الملك الطفل ألفونسو . تأييد قشتالة ورجال الدين لتلك الحركة . انسحاب فرناندو من قشتالة .
قيام جماعات الفرسان الدينية في إسبانيا . جمعية فرسان المعبد . استقرارها في أراجون وقطلونية . قيام
جمعية فرسان قلعة ربلج . جماعة القديس ياقب .

١ — وفاه ألفونسو المحارب وولاية أخيه الراهب راميرو

كان مصرع ألفونسو المحارب على ذلك النحو المفاجئ الذى حدث عقب
موقعة إفراغة ، نذيراً بوقوع تطورات هامة في مصاير اسبانيا النصرانية ، على
نحو ما كانت وفاة ألفونسو السادس ملك قشتالة قبل ذلك بخمسة وعشرين عاماً .
فقد توفي كلاهما دون وارث للعرش . وقد رأينا كيف تولت أوركا عرش قشتالة
تنفيذاً لوصية أبيها ، وما ترتب على ذلك من الحوادث والخطوب ، وكذلك فقد
كانت وفاة ألفونسو المحارب دون عقب ، ماثراً لأحداث وتطورات جديدة
حول عرش أراجون .

وكان ألفونسو المحارب من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية في العصور الوسطى ،
وقد استطاع خلال الأعوام الثلاثين التى حكمها منذ وفاة أخيه الملك بيدرو
في سنة ١١٠٥ م ، أن يجعل من أراجون أعظم ممالك اسبانيا النصرانية وأقواها ،
وإن لم تكن أضخمها رقعة ، وغدا بزواجه من أوركا ملكة قشتالة ، أعظم عاهل
لإسبانيا النصرانية كلها . وانفق ألفونسو معظم جهوده الحربية في محاربة
المسلمين ، وانتزع قواعد مملكة سرقسطة الباقية من بنى هود ، ثم انتزع سرقسطة
ذاتها من أيدي المراتين ، وقام بغزوته الشهيرة في قلب الأندلس ، واخترقها
من أقصاها إلى أقصاها ، وأطل بقواته على شاطئها الجنوبي (٥٢٠ هـ - ١١٢٧ م) .
وقد أظهرت هذه الغزوة الجريئة التى فصلنا حوادثها فيما تقدم ، ضعف وسائل
الدفاع عن الأندلس . وحقق المحارب بافتتاحه سرقسطة ، والقضاء عليها كحاجز
دفاعي للمسلمين في الثغر الأعلى ، ما حققه ألفونسو السادس بافتتاح طليطلة ،
من فتح طريق التاج ، فأصبحت الأندلس معرضة للغزو النصراني من الشمال
الشرقي ، ومن الوسط ، وسارت سياسة الإسترداد النصرانية *La Reconquista*
من ذلك الحين في الاتجاهين دون عائق قوى ، وتنوه الرواية الإسلامية
ذاتها بشجاعة ألفونسو المحارب ، وشديد بأسه . فيقول لنا ابن الأثير في
وصفه : « وكان من أشد ملوك الفرنج بأساً وأكثرهم تجرداً لحرب المسلمين ،

وأعظمهم صبراً ، وكان ينام على طارفته بغير وطاء ^(١) . وأما عن خلال ألفونسو الشخصية ، فتختلف الرواية النصرانية ، فنراه يوصف في التواريخ الأرجونية بالإيمان والتقوى ، والفروسية ، ورعاية الكنائس والأخبار ، ولكن التواريخ القشتالية تصفه بالعكس بالجبروت والغدر والإلحاد ، وشغف العدوان على حرمة الكنائس والأديار ، وعلى محتوياتها المقدسة ، وأنه في حروبه مع النصارى لم يكن يفر الأخبار ولا النساء من عدوانه ، ولم يكن يكبح جماح جنده عن ارتكاب مختلف ضروب الإثم والمنكر ^(٢) .

وكان ألفونسو المحارب ، قبيلاً وفاته بثلاثة أعوام قد كتب وصيته حول مصير مملكته ، وكانت أغرب وصية يمكن تصورها . ذلك أنه أوصى فيها بأن تقسم مملكته الكبيرة إلى ثلاثة أقسام ، الأول يخصص لسلام روح والده ووالدته ، وللتكفير عن زلاته ، ولكي يظفر بمكان في جنة الله ، وللقبر المقدس وسدنته وخدمه ، والثاني يخصص للفقراء وفرسان الأسبتارية ببیت المقدس ، والثالث يخصص لفرسان المعبد (الداوية) باعتبارهم حماة النصرانية في معبد المسيح ^(٣) . وقد ظهر فرسان الداوية قبل ذلك بأعوام قلائل في إمارة برشلونة ، وكان أميرها رامون برنجير الثالث ، أول من شجعهم على القيام في إمارته ، وحاول ألفونسو المحارب قبل وفاته بقليل أن ينشئ جمعية فرسان دينية على غرار جماعة بيت المقدس ، فلم ينجح لمعارضة الأشراف ، ولكنه لبث يحتضن مشروعه حتى توفي حسبما بدا ذلك في وصيته .

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٢٣ .

(٢) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشياخ . (الترجمة العربية ، الطبعة الثانية

ص ١٦٦ و ١٦٧) .

(١) كان فرسان المعبد **Templares** ، وفرسان الأسبتارية **Hospitalliers** من أشهر جماعات الفرسان الدينية التي قامت في العصور الوسطى في بداية الحروب الصليبية . والجماعة الأولى هي التي تعرف في الرواية الإسلامية بجماعة « الداوية » وقد أنشئت سنة ١١١٩ م في بيت المقدس عقب سقوطها في يد الفرنج الصليبيين وذلك لحماية الحاج إلى قبر المسيح ، وأفرد لهم ملك بيت المقدس جناحاً في قصره ، ثم سلم إليهم المعد المجاور له ، ومنه اشتقوا اسمهم « فرسان المعبد » . ونمت هذه الجماعة بسرعة ، واشتد ساعدها بمن انضم إليها من النصارى من سائر الأمم ، ولعبت دوراً هاماً في حوادث الحروب الصليبية ، واستمرت قائمة عصوراً ، والأسبتارية هم أيضاً جماعة دينية من الفرسان ، أنشئت عقب الجماعة الأولى ، وخاضت أيضاً حوادث الحروب الصليبية ، ولكنها كانت أضغف شأنًا من جماعة « الداوية » .

على أن الشعبين الأرجونى والنافارى أبى كلاهما ، أن يحترم وصية ترمى إلى التصرف فى مصايرهم ، ومصاير بلادهم ، على هذا النحو الغريب . وقد انتهز النافاريون بالأخص هذه الفرصة ليعملوا على استرداد استقلالهم القومى ، الذى فقدوه منذ استولى سانشو راميريس ملك أراجون ، ووالد ألفونسو المحارب على بلادهم فى سنة ١٠٧٦ م أعنى منذ ستين عاما ، وكان من المتفق عليه منذ البداية بين الأرجونيين والنافاريين أن يرفضوا أية دعوى لملك قشتالة فى السيادة على بلادهم ، وقد كان بوسع ألفونسو ريمونديس أن يشهر مثل هذه الدعوى باعتباره سليل سانشو الكبير من ناحية أمه . ومن ثم فإن الأرجونيين والنافاريين بعد أن أعلنوا رفضهم لوصية الملك المتوفى ، قرروا أن يجتمع ممثلو الشعبين من الطبقات الثلاث ، أعنى رجال الدين والأشراف ونواب الشعب ، لاختيار الملك الجديد . واجتمع النواب فى بلدة جاقة فى مؤتمر وطنى ، وقر رأى الأرجونيين على أن يختاروا للعرش أخا الملك المتوفى دون راميرو الراهب ، وكان قد انتظم فى سلك الكهنوت قبل ذلك لمدة طويلة ، وأقام فى دير منعزل على مقربة من ثغرأربونة ، ولكن النافاريين لم يوافقوا على هذا الاختيار ، فانفصلوا عن الأرجونيين ، وأعلنوا فى بنبلونة عاصمتهم القديمة ، استقلالهم ، واختاروا لهم ماكاً ، هو غرسية راميريس حفيد ملكهم سانشو ، الذى قتل غيلة فى سنة ١٠٧٦ ، وبذا انفصلت نافارا عن أراجون ، وعادت تشغل مركزها القديم ، كدولة مستقلة من دول اسبانيا النصرانية .

واجتمع ممثلو أراجون من جهة أخرى ، فى مونتسون ، فى مجلس نيابى (كورتيس) وقرروا الموافقة على اختيار الراهب راميرو ملكاً لأراجون ، وقبل راميرو هذا العرض ، وحصل على إذن بتحريره من عهد الرهينة ، وتولى العرش ، وتزوج بموافقة البابا من الأميرة إينيس ابنة كونت بواتيه وأخت دوق أكويتين . وهكذا استحال مملكة أراجون ، بعد أن كانت فى عهد ألفونسو المحارب مملكة مترامية الأطراف ، إلى مملكة صغيرة محدودة الموارد والقوى ، وزادت الممالك الإسبانية النصرانية مملكة جديدة هى مملكة نافارا المستقلة .

وكان ملك قشتالة يرقب هذه التطورات الجديدة بمنتهى الاهتمام ، ويدبر خطه ليخرج منها بأوفر غنم . فماكاد الوضع الحديد يستقر فى أراجون ونافارا ، حتى خرج من قشتالة ، فى جيش صخم ، واتجه نحو ضفاف الإيبرو ، واستولى على ناجرة وقلهرة ، ثم سار إلى سرقسطة بحجة حمايتها من المرابطين ، ولم يجرؤ

ملكا نافارا وأراجون على المقاومة لما آتسأه من عزم ملك قشتالة، وضخامة قواته . ودخل ألفونسو ريمونديس سرقسطة دون مقاومة ، وكان بها الملك الراهب راميرو . فسلمه المدينة وكل أراضي أراجون الواقعة على ضفة الأيبرو الأدنى، وأعلن اعترافه بأنه بحكم أراجون في ظل قشتالة ، ثم انسحب إلى وشقة ، مكتفياً بلقب ملك أراجون وسوبرابي وريباجورسا . واجتمع بألفونسو ريمونديس في سرقسطة صهره رامون برنجير الرابع أمير برشلونة ، وكونت أورقلة ، وعدة من كونتات ولايات البرنيه الفرنسية ، وعقد الجميع معه عهود الصداقة والتحالف ، ثم غادر ألفونسو ريمونديس سرقسطة بعد أن ترك بها حامية ، وعاد إلى ليون ، وهناك وفد عاياه غرسية راميريس ملك نافارا ، ينشد عونه ومخالفته ، ويعترف بحجايته^(١) .

وأضحى ملك قشتالة ، بعد أن بسط سيادته أوحايته السياسية على بقية الممالك النصرانية المتاخمة لقشتالة ، سيد إسبانيا النصرانية كلها ، على نحو ما كان عليه جده ألفونسو السادس ، ومن ثم فقد اتخذ مثله لقب الإمبراطور ، ومنح هذا اللقب بصفة رسمية في مجلس قومي (كورتيس) عقد في ليون في ربيع سنة ١١٣٥ م ، ثم توج بالتاج الإمبراطوري في الكنيسة الكبرى ، وأضحى ألفونسو ريمونديس من ذلك الحين يلقب بالإمبراطور ، أو القيصر ألفونسو ريمونديس أو ألفونسو السابع . وصدرت في مجلس ليون هذا ، عدة قرارات هامة ، منها موافقة الإمبراطور على تأييد سائر الحقوق والامتيازات التي منحت للكنيسة على يد الملوك السابقين ، وتمت هذه الموافقة بمسعى المطران ريمون الذي حل محل المطران برنار في رياسته للكنيسة ، ومنها قرار يقضى بتطبيق القوانين والحقوق البلدية Buenos Fueros في جميع أنحاء قشتالة والولايات التابعة لها ، وهي القوانين والحقوق التي كانت في عصر ألفونسو السادس ، وترتب على هذا القرار إلغاء كثير من التصرفات السابقة ، وإلغاء بعض الإمتيازات التي انتزعها الأشراف لأنفسهم دون حق ، كذلك صدر قرار بإنشاء نوع من الجند الاحتياطي من بين سكان الحدود ، يحشد فيه كل رجل قادر على حمل السلاح ، وذلك لرد غارات المسلمين . وقرار آخر يقضى بعقاب كل مجرم مهما كان شخصه ومقامه ؛ بيد أنه لم يكن من الميسور أن تطبق مثل هذه القرارات العادلة ، في عصر كان

(١) راجع تاريخ الأندلس في عهد المرانطين والموحدين لأتياخ (الطبعة الثانية) ص ١٧٦ ،

وكذلك : Lafuente : ibid ; T. III. p. 251 ; R. Altamira : ibid ; Vol. I. p. 361 & 362 .

يسود فيه حكم القوة ، ويعتبر الأشراف أنفسهم سلطة خاصة ، تقرر ما تشاء وفق أهوائها ، متى كان لها سند من القوة والإرغام ، ولم يكن في مقدور العرش دائماً ، أن ينفذ من جانبه بالقوة سائر القوانين والقرارات التي يصدرها .

ويلحق الأستاذ ألتاميرا على اتخاذ ألفونسو السابع للقب الإمبراطور بقوله ، إنه كان يرمى بالانتشاح بهذا اللقب إلى مثل ما كان يرمى إليه إمبراطرة الدولة الرومانية المقدسة منذ كارل الأكبر (شارلمان) والإمبراطور أوتو الألماني ، من بسط سيادته على باقي ملوك شبه الجزيرة ، كما كان أولئك الإمبراطرة يدعون بسط سيادتهم على باقي ملوك القارة الأوروبية . والواقع أن ألفونسو السابع ، استطاع بواسطة انتصاراته في نافارا (نبرة) وأراجون أن يبسط سيادته على ملوك هاتين الدولتين ، وقد اعترف له بالتبعية إلى جانبهم كونتات برشلونة وتولوشه وغيرهما ، وكانت هذه الصفة الإمبراطورية تختلف عن مثيلها الأوروبية ، بانحصارها في شبه الجزيرة الإسبانية^(١) .

وهكذا حققت قشتالة بارتفاع ملكها إلى مرتبة القيصر ، سيادتها الأدبية ، والفعلية ، في معنى من المعاني ، على ممالك اسبانيا النصرانية . بيد أن الخلاف لبث على أشده بين مملكتي أراجون ونافارا ، ولاسيما على الحدود والألقاب الملوكية ، وكاد الأمر بينهما يصل إلى الحرب . وفكر ملك أراجون الراهب بأن يعوض ضعفه بالاستعانة بملك قشتالة ضد نافارا ، ونزل له عن قلعة أيوب ومواقع أخرى من التي كان ألفونسو المحارب قد افتتحها من المسلمين ، واقترح أن يقدم ابنه الطفلة ، بترونيلا . عروساً لسانشو ولي عهد قشتالة . وكانت سياسة راميرو هذه تلقى أشد معارضة من أشراف أراجون ، إذ كانوا يرون فيها خطراً على استقلال بلادهم . وقيل إن راميرو استدعى نفراً من هؤلاء المعارضين ذات يوم إلى قصره ، ودبر مصرعهم بطريقة غادرة ، وهي رواية يشك في صحتها . وكان ملك نافارا ، من جهة أخرى ينظر إلى مشاريع راميرو بعين التوجس والغضب ، إذ كان يطمح أن يؤول إليه عرش أراجون ، وكان ملك قشتالة من جانبه نحش أن يشتد ساعد نافارا ، وأن تغدو عاملاً يهدد سيادته . ومن ثم فقد اعترم ألفونسو ريمونديس أن يشهر الحرب على نافارا ، وزحف عليها بالفعل في جيش ضخم ، وذلك في سنة ١١٣٦ م . وانتهز ملك البرتغال القتي ألفونسو هنريكز هذه الفرصة ،

R. Altamira : ibid ; Vol. I. p. 361 & 362 (١)

فزحف في قواته على جليقية ، ونشبت الحرب في الناحية الأخرى من مملكة قشتالة . وبالرغم مما أحرزه ألفونسو ريمونديس من انتصارات محلية على النافاريين ، فإنه رأى نفسه مرغماً على الانسحاب والارتداد إلى الناحية الأخرى ، ليرد القوات البرتغالية عن جليقية . هذا إلى أن المسلمين كانوا في نفس الوقت يهددون حدود قشتالة الجنوبية . وهكذا قبض لنافارا أن تنجو من الخطر المحدق بها وأن تحافظ على استقلالها .

وفي تلك الأثناء كانت الأمور في أراجون تسير إلى وجهة جديدة . ذلك أن الملك راميرو برم بمتابع الملك واعزم أن يرتد إلى حياة العزلة والدير ، لاسباً وقد أصبح لعرش أراجون وريث هي ابنته الطفلة برونيللا ، ومن الممكن أن يكون لها زوج يضطلع بدوره بأعباء الملك ومشاقه . ومن ثم فقد دعا كبراء المملكة إلى اجتماع عقد في بربشتر (في أغسطس سنة ١١٣٧) وتقرر فيه أن تزوج برونيللا من الكونت رامون برنجير الرابع أمير برشلونة . وكان معظم أشرف أراجون يحبذون هذا الاختيار ، أولاً لتجاوز الشعين الأرجوني والقطلوني وتقاربهما في العوايد والتقاليد ، وثانياً لما يتصف به الكونت رامون من الخلال الملوكية الرفيعة ، وثالثاً لأن هذا الاختيار لا يمكن أن يلقى معارضة من قشتالة نظراً لما يربط الكونت بملكها من رباط المصاهرة . ورحب الكونت رامون بهذا العرض الذي يتيح له الفرصة لاعتلاء عرش أراجون ، وعقد القران الملكي في بربشتر بالرغم من أن الأميرة لم تكن تتجاوز العامين من عمرها ، وأعطى الكونت بمقتضى هذا القران حق السيادة على مملكة أراجون ، وتلقب رامون برنجير الرابع بكونت برشلونة وأمير أراجون ، وأقسم كبراء المماكة بيمين الطاعة للملك الجديد .

وأعلن راميرو تنازله عن الملك بمدينة سرقسطة أمام كبراء المملكة . ووافق ملك قشتالة ألفونسو ريمونديس على هذه التصرفات كلها . وقدم دليلاً على تأييده ورضاه باخلاء مدينة سرقسطة وسائر الحصون التي كان يحتلها على ضفة الإيبرو لملك أراجون الجديد . وأقسم الكونت رامون من جانبه بيمين الطاعة لألفونسو . وارتد الملك الراهب راميرو إلى عزلة الدير مرة أخرى ، وأقام بدبر سان بيدرو بوشقة حتى توفي في سنة ١١٥٤ م .

وهكذا اختتمت مملكة أراجون الكبرى حياتها القصيرة ، بعد أن لمعت حيناً

في عهد ألفونسو المحارب، وغدت كبرى الممالك النصرانية الإسبانية، واختتمت بوفاة المحارب عهد الملوك الأقوياء الذين قضوا على سلطان المسلمين في الثغر الأعلى، وانتزعوا قواعد مملكة سرقسطة. ولكن شاء القدر أن تعود مملكة أراجون فتنهض من عثارها الذي أصابها على يد الراهب راميرو، وتغدو باندماجها مع إمارة قطلونية، مملكة قوية كبرى.

٢ - اتحاد أراجون وقطلونية

والواقع أن إمارة برشلونة أو قطلونية الصغيرة، بموقعها على البحر، وثغرها العظيم، كانت تبدو من الناحية الجغرافية بالنسبة لأراجون، عضدا طبيعياً، وشرطاً مكملاً، أبلغ خطراً وأهمية من مملكة نافارا. وكان سير الحوادث في قطلونية وأراجون بالنسبة للكفاح ضد المسلمين يتخذ وجهة ماثلة، ويرى إلى هدف واحد، هو القضاء على مملكة سرقسطة الإسلامية. وقد اضطلعت قطلونية في هذا الكفاح بنصيب بارز، ولا سيما منذ عهد أميرها رامون برنجير الثالث المعروف «بالكبير» وهو الذي ولى الحكم منذ سنة ١٠٩٢ م. ورأى الكونت رامون أن يقوى نفسه ضد المرابطين بالتحالف مع كونت أرقلة، وكونت باليارش، وكونت أربونة وغيرهم من الأمراء المجاورين. ولما غزا ابن الحاج والى سرقسطة المرابطى أراضى قطلونية في سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) فاجأته قوات الكونت رامون وحلفائه في جبال قطلونية، واشتبكت معه في معركة دامية قتل فيها ابن الحاج ومعظم جنده^(١). فعندئذ بعث أمير المسلمين على بن يوسف صهره الأمير أبا بكر بن إبراهيم والى مرسية في جيش كبير، لغزو برشلونة والانتقام لمصرع ابن الحاج، فاخترق أبو بكر أراضى قطلونية وهو يشحن فيها، وحاصر ثغر برشلونة، فخرج إليه أميرها الكونت رامون وحلفاؤه الفرنج، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة، قتل فيها كثير من الفريقين، وارتد المرابطون دون أن يحققوا نتائج حاسمة.

وفي سنة ١١١٢ م تزوج الكونت رامون، عقب وفاة زوجه الأولى،

(١) سبق أن أشرنا إلى رواية ابن عذارى التى تقول إن ابن الحاج لم يقتل في هذه الموقعة وإنما قتل بعد ذلك بعام في موقعة نشبت بين المرابطين والقشتاليين على مقربة من قرطبة في سنة ٥٠٩ هـ (راجع ص ٧٢ و ٧٥ من هذا الكتاب).

من دونيا دولثيا وارثة ولاية بروفانص الفرنسية ، وكان لانضمام هذه الولاية الفرنجية القديمة المتمدنة ، إلى إمارة قطلونية ، أثر كبير في حضارتها ، وفي تقدمها الفكري . وكذلك ضمت إلى قطلونة بضعة إمارات صغيرة أخرى فيما وراء البرنيه ، سواء بموت أصحابها أو باتفاقات سابقة ، وكان منها أتونة ، وقرقشونة ، وبذلك اتسعت رقعة مملكة قطلونية اتساعاً كبيراً .

واشترك الكونت رامون برنجير الثالث في حملة الغزو الكبرى إلى الجزائر الشرقية (١١١٤ م) ، وهي التي جهزتها جمهوريتا بيزة وچنوة ، وتم استيلاء النصارى على ميورقة في العام التالي . ولكن أمير المسلمين على بن يوسف بعث لاسترداد الجزائر أسطولا ضخماً ، فاضطر النصارى إلى مغادرتها ، واحتلها المرابطون وذلك في أواخر سنة ٥٠٩ هـ (١١١٦ م) ، وعادت الجزائر الشرقية إلى حظيرة الإسلام ، وذلك كله حسبما فصلناه في موضعه .

واستمر الكونت حيناً في صراعه ضد المرابطين ، وقام بمعاونة البيزيين ، والجنوبيين بمحاولات فاشلة لافتتاح ثغر طرطوشة ، ومدينة لاردة . ولما شغل ألفونسو المحارب بغزواته الكبرى للأندلس ، وصراعه المتصل بعد ذلك مع المرابطين ، اشتد ضغط المرابطين على إمارة برشلونة . ولقي الكونت في مدافعهم متاعب شديدة . وتتحدث الرواية عن هزيمة شنيعة لحقت بالقطلان على أيدي المرابطين أمام حصن « كورتيس » على مقربة من لاردة . ثم تفاقت الأمور على الكونت برنجير بقيام أمير تولوشة بمهاجمة مقاطعة « بروفانص » التي كانت من أقاليم قطلونية فيما وراء البرنيه . واضطر الكونت أن ينزل عن سيادة نصف الولاية . وأن يوئل سيادة النصف الآخر إذا مات أحد الشريكين دون وارث ، إلى الشريك الذي بقي على الحياة .

كان الكونت برنجير يرى دائماً أن يوحد جهوده مع ملك أراجون القوي ، كلها سبحت الفرص . وكان ألفونسو المحارب يؤمن من جانبه بفائدة هذا التعاون . وقد التقي الإثنين بالفعل ، واتفقا على أن يعقدا نوعاً من التحالف يكون خطوة تمهيدية لعمل اتحاد فعلي أتم وأوثق بين المملكتين . وكان لكل من المملكتين فائدة محققة من عقد مثل هذا الاتحاد . فقد كانت مملكة أراجون بالأخص مملكة برية ، تعتمد في قوتها على الحيوش البرية . ومن ثم فقد كان في وسعها أن تتفرغ لمقاومة ملك قشتالة القوي ألفونسو ريمونديس ، وكبح جماح أطماعه . وكانت قطلونية

تعتمد بالأخص على قواتها البحرية ، وكان بوسع الكونت برنجير . اعتماداً على هذه القوات ، أن يؤمن مركز بلاده في البحر ، وأن يقاوم في بعض الأحيان مطامع جمهورية جنوة . وفي سنة ١١٢٧ م عقد الكونت تحالفاً مع الدوق روجر (رجار) ملك صقلية نعهد فيه بأن يمد الدوق بخمسين سفينة من أسطوله ، وهو ما يدل على ما كانت تتمتع به إمارة قطلونية يومئذ ، من قوى بحرية لها خطرها في تلك المياه .

ثم تطورت الحوادث ، وتغير موقف قطلونية فجأة من مملكتي أراجون وقشتالة ، وذلك بزواج ملك قشتالة ألفونسو ريمونديس من الأميرة برنجيلا ابنة الكونت رامون برنجير الثالث (سنة ١١٢٨ م) . وقد كان لذلك أثره في تقوية مركز قطلونية من جهة ، وفي علاقتها بمملكة قشتالة من جهة أخرى . وكان الكونت رامون قد شاخ يومئذ ، ولحقته أوصاب الشيخوخة : فجنح إلى الزهد والورع ، واعتنق مبادئ فرسان المعبد (الداوية) . وكان بعض أقطاب الداوية قد وفدوا قبل ذلك بقليل من المشرق إلى برشلونة ليشعروا في إنشاء فرع للجماعة في قطلونية ، فرحب الكونت بمقدمهم ، ومنحهم حصن « جرانينا » على مقربة من لاردة ، وذلك ليعاون الفرسان في افتتاح هذه المدينة من أيدي المسلمين . ثم توفي الكونت بعد ذلك بقليل في يولييه سنة ١١٣١ ، بعد أن حكم مملكة قطلونية زهاء أربعين عاماً .

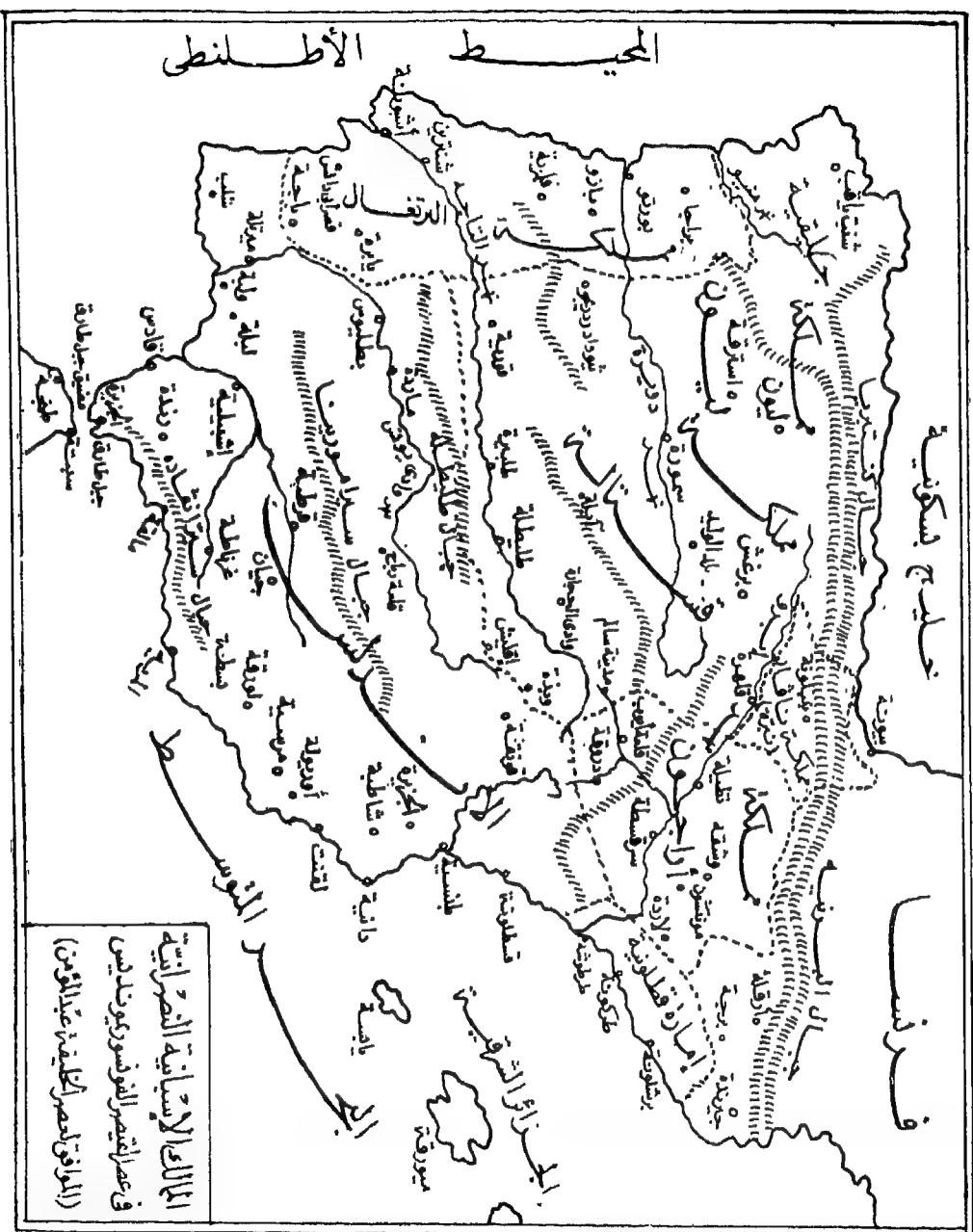
وكان الكونت رامون برنجير الثالث . أعظم أمراء تلك الأسرة التي حكمت قطلونية دهرآ ، مذ بدأت إمارة صغيرة تضم برشلونة ، وأحوازاها ، وفي عهده نمت قوة قطلونية البحرية نمواً عظيماً ، وازدهرت تجارتها ، وعم بها اليسر ، والرخاء ، وازدهرت بها في نفس الوقت حركة تمدنية وفكرية ملحوظة ، وكانت مملكة قطلونية تضم عند وفاته ، ولايات برشلونة . وفيش . ومزيه ، وجيرندة (جيرونه) وسردانية ، وقرقشونة ، وبروقانص ، وكانت حدودها الغربية تمتد حتى ريباجورسا .

وخلفه في إمارة قطلونية وسائر ممتلكاتها . ولده الأمير رامون برنجير الرابع ، ما عدا ولاية بروقانص فقد منحت لولده الثاني برنجير رامون . وكان الأمير الحديدي قرين أبيه كفاية وعزماً ، فسار في نفس الطريق الذي رسمه أبوه ، وبدأ بأن عمل على تحقيق فكرته في إقامة جمعية فرسان المعبد (الداوية) بقطلونة ، وتقرر

ذلك بصفة رسمية في مجلس ديني عقد برياسة المطران أولاجير ، وأعطى الفرسان حصن بريره ، في جبال براديس المشرفة على لاردة وطرطوشة (سنة ١١٣٣ م) . وسنعود فيما بعد إلى التحدث عن قيام هذه الجماعات الحربية الدينية في إسبانيا . وفي العام التالي ، أي في سنة ١١٣٤ م (٥٢٨ هـ) نشبت موقعة إفراغة بين المرابطين وألفونسو المحارب ، تحت أسوار إفراغة ، وشاء القدر أن يسحق فيها النصراري ، وأن يموت المحارب بعد وقوعها بأيام قلائل ، وترتب على ذلك ما سبق أن فصلناه من انقسام مملكة أراجون الكبرى ، عقب ارتقاء الراهب راميرو عرش أراجون ، وعودة نافارا ، إلى استقلالها القديم ، ثم ما حدث بعد ذلك من زواج برنجير الرابع أمير قطلونية من الأميرة الطفلة بترونيلابنة راميرو ، وانضمام مملكة أراجون إلى قطلونية ، بعد أن تنازل عن عرشها راميرو ، وارتد إلى عزلة الدير ، وقيام مملكة قطلونية وأراجون المتحدة بموافقة ملك قشتالة وتأييدها وما كان يحدو ذلك المشروع من عوامل الانسجام والنجاح ، وذلك كله في سنة ١١٣٧ م .

٣ - غزوات القيصر ألفونسو ريمونديس وحروبه

أخذت مملكة قشتالة في عهد ملكها الفتي ألفونسو ريمونديس أو ألفونسو السابع ، تجوز عهداً من القوة والسلطان ، كذلك الذي عرفته في عهد جده ألفونسو السادس . وكان ملك قشتالة ، مذ صفا له الجو ، ووضع على رأسه تاج الإمبراطور ، يتطلع إلى إخماد كل نزعة إلى الخروج على سلطانه ، وكان هذا موقف نافارا والبرتغال ، حيث كانت كلتاها تحرص على استقلالها ، وتعرض عن كل اعتراف بسلطانه . وكانت البرتغال بالأخص ، وهي المملكة التي نشأت لإمارة متواضعة ، في ظل قشتالة ، وتحت حمايتها ، ثم أخذت بمساعي خالته تريسا ، في تحدى قشتالة ، والإغارة على أراضيها ، وتوسيع رقعتها شيئاً فشيئاً . وكان ألفونسو هنريكيكز ملك البرتغال وهو ابن تريسا ، كأمه في تحدى سلطان قشتالة ، وفي الحرص على استقلال مملكته . وكان لما يشغل ألفونسو ريمونديس ، انصبال ملك البرتغال بالشوار الحلالقة ، واعتداؤه بمعاونتهم على بعض أراضي جليقية . وقد وقع بالفعل حادث من هذا النوع في أوائل سنة ١١٣٧ م ، حينما ثار اثنان من أشرف جليقية ، هما جومث نونيو ، وردريجو بيريث فيوزو ، وكانا يحكمان « توى » فسلماتها إلى ملك البرتغال ، وتمكن ملك البرتغال فضلاً عن ذلك من



السيطرة على مناطق جليقية الجنوبية ، فعندئذ تأهب ألفونسو ريمونديس لغزو البرتغال ووضع حد لعدوان ملكها ، ولكن حدث في نفس الوقت الذي تمت فيه أهبة الغزو ، واجتمع القادة والزعماء ومنهم المطران خلمريث حول ملك قشتالة ، أن وقعت مفاوضات سريعة بين الملكين ، انتهت فجأة بعقد الصلح بينهما ، وتعهده ألفونسو هنريكز في هذا الصلح أن يكون صديقاً مخلصاً للقيصر ، وأن يحترم أراضي الإمبراطورية ، وأن يعاون القيصر في غزواته سواء ضد المسلمين أو النصارى ، وأبرم هذا الاتفاق في مدينة توى في يوليه سنة ١١٣٧ م ، وكان واضحاً من نصوصه أن البرتغال أضحت تحت حماية قشتالة . ويمكننا أن نفسر خضوع ملك البرتغال على هذا النحو الفجائي ، بما كان يعانيه يومئذ من اشتداد ضغط المسلمين على أراضيه ، وتوالى غزواتهم المخربة فيها . بيد أن ألفونسو هنريكز لم يكن ينظر إلى ذلك الصلح ، إلا على اعتبار أنه ضرورة موقته ، أملاً بالظروف القاهرة ، وأنه سوف ينقضه عاجلاً أو آجلاً .

وعندئذ اتجه ألفونسو ريمونديس إلى غزو الأندلس ، فسار في قواته إلى منطقة جيان وبياسة وأبدو وأندوجر ، وهو يعيث فيها تخريباً وقتلاً وسبياً ونهباً . ولم يلق النصارى من المرابطين مقاومة شديدة في البداية ، ولكن حدث أن فرقة من النصارى عبرت نهر الوادى الكبير لتتابع النهب والسبي ، ولكنها لم تستطع العود إلى اقتحام النهر لهطل الأمطار الغزيرة ، وفيضان الماء ، ففلك بها الخند المرابطون وأبادوها جميعاً أمام أعين الإمبراطور وجنده (سنة ١١٣٨ م) ، فارتد القيصر إلى طليطلة وهو يضطرم سخطاً . وحاول بعد ذلك بقليل أن ينتقم لهذا الحادث بمحاصرة قورية ، فدافع عنها المسلمون أشد دفاع ، وكان فشلاً آخر حز في نفس الإمبراطور^(١) .

وفي العام التالى ، خرج ألفونسو لغزو حصن أورليا أو أوريجا Oreja وهو الذى تسميه الرواية العربية بحصن « أرنة » على مقربة من طليطلة ، وكان أمنيح الحصون الإسلامية في منطقة الحدود ، فهرعت القوات المرابطية من قرطبة ومن مرسية وإشبيلية لإنجاده بقياده الأمير يحيى بن غانية ، وكان ألفونسو ريمونديس يربط بقواته لإزاء الحصن المحصور ، في انتظار القوات الإسلامية ، وكانت زوجه الملكة برنجيلا تشرف في غيابه على الحامية الموكلة بالدفاع عن طليطلة .

فحدث ، حسبنا نقص علينا الرواية النصرانية ، أن الجنود المرابطة حينما وصلت في طريقها إلى ظاهر طليطلة ، أن أطلقت عليها الملكة برنجيلا ووصيفاتها من شرفة القصر ، وبعثت إلى ابن غانية رسولا ، يؤنبه بلسانها على أنه يحاول أن يهاجم مكاناً تدافع عنه امرأة ، في حين أن القوات القشتالية تنتظره بقيادة الإمبراطور عند حصن أوريجا ، فارتد القواد المسلمون أمام هذا التأنيب ، ولم يقوموا بأية محاولة لإزعاج القشتاليين ، وسقط حصن أوريجا في يد الإمبراطور بالأمان ، وذلك كله حسبنا فصلناه من قبل في موضعه . ولم تشر الرواية الإسلامية إلى هذا الحادث الذي يتسم بالفروسية ، بيد أنها تضع حصار حصن أوريجا وسقوطه في سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) ، بينما تصنعه الرواية النصرانية ، في سنة ١١٣٧ م ، أو سنة ١١٣٩ م^(١) .

وكانت الخطوة التالية تفاهم ألفونسو ريمونديس وصهره رامون برنجير الرابع أمير قطلونية وأراجون ، على الإيقاع بملكه نافارا . وعقد الملكان اتفاقاً بهذا الشأن في كريون ، يقضى بتحالفهما على محاربة غرسية راميريس ، واقتسام أراضي نافارا ، وأن يختص ملك قشتالة بولاية ريوخا وكل الأراضي الواقعة شرقي نهر إيبرو ، وهى التى كان يملكها جده ألفونسو السادس ، وأن يستولى أمير قطلونية على سائر أراضي أراجون ، التى كان يملكها سانشو وبيدرو ملكا أراجون من قبل . أما منطقة بنبلونة فلأن القيصر يستولى على ثلثها ، ويستولى رامون برنجير على باقىها مع اعترافه بسيادة قشتالة على هذا الجزء ، على نحو ما كان عليه الشأن أيام ألفونسو السادس . وتنفيذاً لهذا الاتفاق زحف الكونت رامون بقواته على نافارا من ناحيتها الجنوبية ، وزحف عليها القيصر في قواته من ناحية الشمال الغربى ، ولكن غرسية راميريس ملك نافارا استطاع في كثير من الشجاعة ، والبراعة ، أن يرد القوات الأرجونية ، أما القوات القشتالية فقد استطاعت أن تخترق نافارا ، وأن تطوق عاصمتها بنبلونة ، واكتفى غرسية راميريس بأن يلتزم خطة الدفاع ، حتى يطيل أمد المعركة وينهك قوى خصومه . وكان غرسية راميريس أعقل من أن يغامر بالدخول في معارك حاسمة مع القوات القشتالية ، فلجأ إلى رجال الدين في طلب الإنجاد بالمفاوضة وعقد الصلح ، وعاون في اتخاذ

(١) Lafuente : ibid; T. III. p. 228 - Ibars: Valencia Árabe p. 482-484

وراجع ما سبق أن أوردناه عن هذا الحادث (ص ١٥١ من هذا الكتاب)

هذه الخطوة الكونت چوردان أمير تولوشه ، الذى جاء حاجا إلى شنت ياقب . وعقدت معاهدة الصلح بين غرسية راميريس والإمبراطور فى قلهسرة فى أكتوبر سنة ١١٤٠ م ، وهى تقضى بأن يعترف ملك نافارا بسيادة الإمبراطور ، وأن تنزوج الأميرة بلانكا ابنة غرسية من الأمير سانشو ولد الإمبراطور الكبير ، وأن تسلم نظراً لصغرهما إلى الإمبراطور ، حتى تربى وتكبر فى بلاط قشتالة . وهكذا أنقذت نافارا إلى حين .

غير أن هذا التصرف لم يرق الكونت رامون ، وسخط الشعب الأرجونى على الإمبراطور لأنه لم يحسب حسابا لاتفاق كريون . ومن ثم فقد عول الكونت أن يعمل لحساب نفسه ، وأن يشهر الحرب وحده على نافارا بقوات أراجون وقطلونية . واضطرت الحرب ضد نافارا من جديد . ولكن غرسية هزم الأرجونيين ، وتوغل فى أراضي أراجون ، واستولى على عدة من البلاد ، والحصون ، وأخذ يفكر فى خلع طاعته للإمبراطور . وعندئذ خشى ألفونسو ريمونديس عاقبة هذا الظفر الذى أحرزه غرسية ، وسار فى قواته لإنجاد الكونت رامون ، وزحفت القوات المشتركة على نافارا كره أخرى (سنة ١١٤٣ م) . وهنا تذرغ غرسية بالحكمة ، وبادر بالإذعان والتسليم ، وأخلى سائر الأماكن التى انتزعها من أراجون ، وعقد الصلح بين الفريقين من جديد ، واتفق أن يتزوج غرسية ، الذى توفيت زوجته منذ أعوام ، بالأميرة أوراكا ابنة القيصر غير الشرعية ، وعقد هذا الزواج الملكى بالفعل فى مدينة ليون فى يونيه سنة ١١٤٤ م فى حفلات باذخة ، اشتهرت بين أحداث هذا العصر ، ووضع بذلك حد للنزاع بين نافارا وجارتها أراجون وقشتالة .

وفى خلال ذلك كانت قشتالة تتابع كفاحها ضد المسلمين ، وذلك سواء بالعمل على صد غزواتهم ، والقيام فى أراضيهم بغزوات مماثلة ، أو محاولة انتزاع ما يمكن انتزاعه من قواعد الحدود . وكان المرابطون قد استولوا على قلعة « مورة » المنيعة الواقعة جنوبى طليطلة ، وذلك فى سنة ١١٤٠ م ، واتخذوها قاعدة للإغارة على أراضي قشتالة المجاورة ، فحشد ألفونسو ريمونديس جيشاً ضخماً ، وبعث حاكم طليطلة ردرىجو فرنانديث على رأس بعض قواته إلى منطقة وادى يانة « فعانت فى أحواز قرطبة وإشبيلية . وسار الإمبراطور بنفسه فى حملة أخرى إلى قلعة قورية ، وحاصرها مدى شهرين حتى سقطت فى يده فى يونيه سنة

١١٤٢م (٥٣٦هـ) وذلك بعد أن يئست حاميتها المسلمة من تلقى أية نجدة .
وتفص علينا الرواية النصرانية ، قصة غزوة قام بها القشتاليون بقيادة نونيو
ألفونسو حاكم مورة السابق ، في الأراضي الإسلامية ، وأسفرت المعركة التي
نشبت بين القشتاليين وبين قوات إشبيلية وقرطبة ، عن هزيمة المسلمين هزيمة
ساحقة ، ومصرع والى إشبيلية وقرطبة ، ورفع رأسهما في طليطلة على
رحمين ، واستولى القشتاليون على كثير من الغنائم والأسرى ، وذلك في أواخر
سنة ١١٤٢م (٥٣٧هـ) . ولم نجد في المراجع الإسلامية أى ذكر لمثل هذه الموقعة .
وكذلك لم نجد بها أى ذكر لما تقصه الرواية النصرانية بعد ذلك من أن القيصر
أرسل في العام التالى أعنى في سنة ١١٤٣ (٥٢٨هـ) حملة جديدة بقيادة مارتن
فرنانديث ونونيو ألفونسو ، لتحول دون قيام المسلمين بتحصين قلعة مورة ،
فخرج والى قلعة رباح في قواته - وتسميه الرواية النصرانية فرج - واشتبك مع
القشتاليين في معركة هزم فيها القشتاليون ، وفر مارتن فرنانديث جريحا ، وقتل
نونيو فوق تل قريب يسمى « صخرة الوعل » مدافعا عن نفسه ، فاحتز رأسه ،
وقطعت ذراعه اليمنى ، ورجله اليمنى ، وأرسلنا إلى قرطبة وإشبيلية ، لتعرضا
على أرملى الوالين القتيلىن تعزية لهما ، ثم أرسلت بعد ذلك إلى أمير المسلمين
تاشفين بن على بمراكش (١) .

فأثارت هذه الهزيمة في نفس الإمبراطور أيما ألم وسخط ، وأقسم بالانتقام
لمصرع قائده ، فخرج في العام التالى (١١٤٤م) في قواته إلى أراضي الأندلس ،
وأثنى في أحواز قرطبة وإشبيلية ، وانتسف الزروع وأحرق القرى ، ووصل
في سبره المخرب حتى أراضي غرناطة ، وألمرية ، ثم عاد إلى بلاده ، مثقلا
بالغنائم والأسرى .

ثم كانت ثورة القواعد الأندلسية على المرابطين ، وكان من الواضح أن هذه
الغزوات النصرانية المخربة ، وما يقترن بها من القتل والسبي والنهب ، وعجز
المرابطين عن ردها ، كانت من العوامل التي أذكت سخط الأمة الأندلسية على
المرابطين ، ورغبتها في التخلص من نيرهم ، وقد رأينا كيف استغل القيصر ألفونسو
ريمونديس هذه الفرصة السانحة ، في بسط عونه لمن لجأ إليه من الثوار الأندلسيين

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباخ ص ١٨٣ و ١٨٤ وكذلك :

أمثال ابن حمدين ، وابن هود ، ثم قدم عونه لزعيم المرابطين ابن غانية ، حينما علم بعبور الموحدين إلى الأندلس ، وعاونوه على الاحتفاظ بسلطانه على قرطبة ، ووصل الأمر بعد ذلك إلى أن أحل القيصر عاصمة الخلافة القديمة لأمد قصير ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل في موضعه .

وكانت أعظم ضربة نزلت بالأندلس يومئذ ، واشترك فيها القيصر ألفونسو ريمونديس ، افتتح ثغر ألمرية العظيم ، على يد الحملة الصليبية البرية والبحرية التي اشتركت في تجهيزها ممالك اسبانيا النصرانية ، قشتالة ونافارا وأراجون ومعها جنوة وبيزة ، ونجحت خلال الاضطراب العام الذي أصاب الأندلس يومئذ ، في الاستيلاء على ألمرية ، وذلك في شهر أكتوبر سنة ١١٤٧ م (٥٤٢ هـ) ، وقد بقي الثغر الإسلامي في أيدي النصارى عشرة أعوام كاملة ، وكانت للقيصر وحاميته القشتالية فيه اليد العليا ، حتى افتتحه الموحدون في أواخر سنة ١١٥٧ م .

ونكبت الأندلس في نفس الوقت بفقد قواعدها الباقية في الثغر الأعلى . واستولت عليها كذلك حملة صليبية من جنود قطلونية وأراجون وبيزة وجنوة بقيادة الكونت رامون برنجير الرابع أمير برشلونة ، فاستولت أولا على ثغر طرطوشة ، وذلك في آخر سنة ١١٤٨ م (شعبان ٥٤٣ هـ) ، ثم استولت على مدينة لاردة في أكتوبر من العام التالي (٥٤٤ هـ) ، واستولت كذلك ، على إفراغة ، ومكناسة وبذلك انتهت سيادة المسلمين في الثغر الأعلى ، وقد سبق أن تناولنا هذه الحوادث كلها تفصيلا .

وانتهز غرسية راميريس ملك نافارا فرصة انشغال خصمه القديم الكونت رامون بافتتاح قواعده الثغر الأعلى ، فغزا ولايات أراجون المجاورة . وتفسر لنا الرواية النصرانية سر هذا العدوان بقولها إن غرسية كان يرمى إلى إرغام الكونت على أن يتزوج من ابنته بلانكا ، وأن يجعل ذلك شرطا لعقد السلام بين أراجون ونافارا . وذلك بالرغم من أن دونيا بلانكا كان قد تقرر زواجها من سانشو ولى عهد قشتالة . وأن الكونت رامون كان قد عقد زواجه التمهيدى بالأميرة الطفلة برونيللا ابنة الملك الراهب راميرو . وقد اضطرت الكونت رامون أن يشتري سلام بلاده بالخضوع لهذه الرغبة ، وأن يتعهد في معاهدة الصلح التي عقدت بأن يتزوج من ابنة ملك نافارا (يولييه سنة ١١٤٩) . بيد أنه ماكاد يشعر بانقشاع الخطر عن أراجون . حتى هرع إلى الكنيسة يجثو أمام هيكلها مع عروسه

يترونيلا ، يحدد العهد بارتباطه معها برباط الزواج المقدس . وتصف الرواية القطلونية هذا التصرف بأنه عمل فريد من الختل والخديعة يذكر في حياة الكونت .

وشغل القيصر ألفونسو ريمونديس ، أو ألفونسو السابع . ، في ذلك الوقت بحادثين داخليين ، أولهما عقد المؤتمر الكهنوتي في بالنسيا في سنة ١١٤٨ م ، ليغنى يبحث المسائل الدينية والكنسية ، وثانيهما وفاة زوجها الملكة برنجيلا ، في سنة ١١٤٩ م . وكانت وفاة هذه الملكة الموهوبة الحازمة ضربة أليمة للقيصر أثارت في نفسه أما حزن وشجن . وكان القيصر منذ حين قد فوض لولديه سانشو الذى خصه بلقب ملك قشتالة ، وفرناندو الذى خصه بلقب ملك ليون ، توقيع الأوامر والمراسيم العامة ، متسهماً في ذلك بجديده ألفونسو السادس ، وسانشو الكبير ، في تقسيم كل منهما المملكة بين أولاده ، حال حياته ، ثم بعد مماته ، وهى السياسة التى كانت تنتهى دائماً باضطرام الحرب الأهلية بين الممالك النصرانية .

وفي سنة ١١٥٠ م توفى غرسية راميريس ملك نافارا ، وخلفه ولده سانشو الملقب بالعالم ، فرأى القيصر في ذلك فرصة جديدة للإيقاع بنافاراً ، وفي الحال اجتمع بحليفه القديم الكونت رامون برنجير في تطيلة ، وجددت بينهما معاهدة التقسيم التى عقدت من قبل في كاريون ، ولم يكتف المملكان بالانفاق على تقسيم نافارا ، ولكنهما اتفقا في نفس الوقت على تقسيم القواعد والأراضى الإسلامية التى لم تفتح بعد ، فاخص منها ملك أراجون بكل أراضى بلنسية ، ومرسية ، وتعهد دون سانشو ولد القيصر ، أن يعاون الكونت في افتتاح نافارا ، وتعهد الكونت من جانبه بأنه في حالة موت القيصر ، يعترف بكل ما حكمه سانشو ، وإذا توفى الأب والابن ، فإنه يعترف لأخيه فرناندو بسيادته على أراضى المملكة .

بيد أن تطور الحوادث قضى بنجاة نافارا من هذه المؤامرة إلى حين . ذلك أنه قد تم زواج دونيا بلانكا أخت ملك نافارا بالدون سانشو ملك قشتالة في العام التالى (١١٥١ م) ، واحتفل بعقده بمدينة قلهرة بحضور الملوك الثلاثة ، ملوك قشتالة وأراجون ونافاراً . وفي نفس العام عقد زواج القيصر الأرملة ألفونسو ريمونديس من الأميرة ريكا ابنة لادسلاو ملك بولونيا . وقدمت إلى قشتالة في العام التالى ، واستقبلها زوجها القيصر في بلد الوليد في مظاهر واحتفالات باذخة . وتم زواج سانشو ملك نافارا من دونيا سانشا ابنة القيصر من زوجها الملكة برنجيلا (سنة ١١٥٣) . وفي العام التالى تزوجت ابنة القيصر الثانية . دونيا

كونستنزا من لويس السابع ملك فرنسا ، وكأى قد طلق زوجه الأولى إليونور دى جيان . وحدث بعد عقد هذا الزواج أن ثارت بعض الريب حول أرومة الملكة كنستنزا ، وقيل بأنها ليست ابنة شرعية للقيصر من زوجه الملكة برنجيلا ، وأنها بالعكس ابنة غير شرعية من خليلته كوندرادا . ورأى الملك لويس أن يتحقق بنفسه من الأمر ، فسافر إلى اسبانيا محتجاً بزيارة قبر القديس ياقب فى شنت ياقب (سنة ١١٥٥ م) . ولم يكن القيصر يجهل السبب الحقيقى لمقدم صهره ، فرتب لاستقباله فى برغش ، ثم فى طليطلة حفلات باذخة ، ظهر فيها البلاط القشتالى فى أفخم مظاهره وأروعها ، وحضرها ملك نافارا ، والكونت رامون برنجير ملك أراجون ، وأثار القيصر أمام الملوك مسألة ابنته كونستنزا ، وخاطب لويس بقوله : لقد زوجتك ابنتى كونستنزا ابنة الملكة برنجيلا أخت هذا الأمير الكونت رامون . والتفت رامون إلى لويس قائلاً : أجل إن زوجتك هى ابنة أختى ، فعاملها بالاحترام والتكريم ، والا فانظر مقدمى فى باريس مع القيصر كعدوين . وعندئذ اقتنع لويس بأصل زوجته الملكى الرفيع ، وعاد إلى بلاده مغتبطاً راضياً^(١) .

وكان الكونت رامون برنجير ، قد عقد فى نفس الوقت زواجه الفعلى بالأميرة بترونيلا الأرجونية ، وكانت قد بلغت عندئذ الثامنة عشرة من عمرها ، ولما شعرت هذه الأميرة باقتراب وضعها الأول ، عملت وصية مفادها ، أنه إذا كان المولود ذكراً ، فإنه يرث مملكة أراجون على نحو ما كانت عليه فى عهد ألفونسو المحارب ، وأن يكون لزوجها الكونت رامون إدارة المملكة خلال حياته ، وإذا مات الولد ، وبقي الكونت حياً ، فإنه يغدو الملك المطلق للمملكة كلها . أما إذا كان المولود أنثى ، فكل ما ترغبه بشأنها هو أن يعنى والدها بأن يزوجه وأن يمهرها بسخاء . وبعد ذلك وضعت الأميرة ولداً سُمى رامون طول حياة والده ، ثم غير اسمه بعد وفاته ، إلى ألفونسو ، فكان هو وارث المملكتين قطلونية وأراجون .

ولم يمض قليل على ذلك حتى شهر سانشو ملك نافارا الحديدي الحرب على أراجون يبغي تحقيق أطماع والده غرسية راميريس ، واضطر الكونت رامون ،

(١) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباح ص ٢٣٣ و ٢٣٤ وكذلك .

أن يعود مسرعاً من غزوة كان يقوم بها في بيارن ، فيما وراء البرنيه ، وعندئذ سار القيصر ألفونسو ريمونديس إلى لاردة ، وذلك ليقوم بالتدخل بين الملكين المتحاربين في الظاهر ، ولكنه اجتمع بالكونت رامون ، وجدد معه الاتفاق القديم على تقسيم نافارا ، ولم تمنعه وشائج المصاهرة الوثيقة بينه وبين ملك نافارا زوج ابنته ، وأخ زوجة ولده سانشو ، من الائتثار به على هذا النحو ، وتم الاتفاق في الوقت نفسه بين القيصر والكونت على تزويج دون رامون الصغير ولد الكونت ، وكان في الرابعة من عمره ، من دونيا سانشا ابنة القيصر من زوجه الجديدة الملكة ريكا ، وكانت في الثانية من عمرها .

٤ - أعوام القيصر الأخيرة ووفاته

وفاة رامون برنجير الرابع

ومما هو جدير بالذكر ، أن هذه الفترة من الحفلات والزيجات المملوكية المتوالية ، قد عاقت عاهل قشتالة فترة قصيرة ، عن متابعة غزواته لأراضي الأندلس ، فهو مذ قام في سنة ١١٥١ م (٥٤٦ هـ) بغزوته لمدينة جيان ونهبها ، وقد كانت يومئذ بأيدي الموحدين ، لم يعد إلى مهاجمة الأندلس إلا في سنة ١١٥٥ م (٥٥٠ هـ) ، وذلك حينما نجح في الاستيلاء على أندوجر وحصن البطروج ، واحتلتها القوات القشتالية لفترة يسيرة ، ثم عاد الموحدون بقيادة ابن يكيث وإلى قرطبة ، فاستردوها ، واستولوا على بعض الحصون النصرانية المجاورة ، وذلك حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل في موضعه .

وكانت آخر المعارك الخطيرة التي خاضها القيصر مع الموحدين ، هي معركة ألمرية . وكان الموحدون بعد استيلائهم على قرطبة وغرناطة ، قد وضعوا خططهم لاسترداد ألمرية ، التي افتتحها النصارى منذ سنة ١١٤٧ م ، (٥٤٢ هـ) . وقد سبق أن فصلنا حوادث افتتاح النصارى لهذا الثغر الإسلامي العظيم ، ثم حوادث استرداده على أيدي الموحدين . وكان القيصر ألفونسو ريمونديس قد سار لإنجاد حاميته النصرانية في جيش كثيف ، وسار معه حليفه محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرقي الأندلس في قواته ، ولكن جهود القيصر وحليفه المسلم ذهبت عبثاً ، واضطر النصارى إلى تسليم ألمرية إلى الموحدين ، بعد حصار دام سبعة أشهر ، وذلك في أواخر سنة ١١٥٧ م (أواخر سنة ٥٥٢ هـ) . وارتد القيصر في قواته

إلى بلاده ، وقد حطم هذا الفشل الأخير قواه المعنوية . وفي طريق العودة أصابته حمى شديدة ، فاضطر إلى التوقف في مكان بالقرب من بلدة مورتلة (موردال) ، وهناك تلقى القداس ، وأسلم الروح ، وذلك في ٢١ أغسطس سنة ١١٥٧ م ، وهو في سن الحادية والخمسين .

وكان القيصر ألفونسو ريمونديس ، أو ألفونسو السابع ، أو ألفونسو الثامن إذا اعتبرنا أن ألفونسو المحارب ملك أراجون ، كان أيضاً وقت زواجه بالملكة أورাকা ملكاً لقشتالة ، من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية ، وكان هو أول ذلك الثبت الحافل من ملوك قشتالة ، الذين ينتمون إلى الأسرة البرجونية الملوكية ، والذين حكموا قشتالة حتى القرن الخامس عشر . وكان يتسم بكثير من الخزم والقوة ، وقد أمدته التجارب القاسية التي شهد لها خلال صباه ، أيام الحصومات والحروب الأهلية التي اضطرت بين أمه أورাকা وزوجها ألفونسو المحارب من جهة ، وبين أمه وبين الأشراف الخوارج من جهة أخرى . بكثير من الخبرة والمقدرة على معالجة شئون الملك ، والدود عن العرش ، ومن ثم فقد استطاع أن يجمع ثورات الأشراف الخارجين ، وأن يحد من سلطانهم ونزعاتهم الثورية ، واستطاع منذ وفاة ألفونسو المحارب أن يحتل مركز السيادة والصدارة بين ملوك اسبانيا النصرانية . وقد رأينا كيف كان ألفونسو ريمونديس يعلق ، على صفة الإمبراطورية نتائج ضخمة ، وبالرغم من أن هذه الصفة لم يكن لها بالنسبة لباقي ممالك اسبانيا النصرانية سوى طابع أدبي . فإنه كان يحرص على سلطانه كإمبراطور ، وكان (وفقاً لقول النقد الإسباني) « يحلم بإمبراطورية حقيقية ، تشمل على كل إمكانيات التوسع الإسباني ، وكل العوامل التاريخية للوطن الإسباني ، وتمتد جندورها إلى تراث العالم الروماني ، وإلى وحدة العرش القوطي ، وكان منذ اتشح بالثوب الإمبراطوري في سنة ١١٣٥ م ، يسير وفق برنامج مدروس راسخ ، وكان هذا البرنامج يقوم على شقين ، الأول الإصلاح الداخلي في الناحيتين الإدارية والقضائية ، والثاني ، وهو ناحية السياسة الخارجية يقوم على المحافظة على سمعة الإمبراطورية . بكافة الوسائل السلمية والعسكرية » .

« وغاية هذا البرنامج النهائية . هو الهجوم العام على الإسلام ، وكان الاندفاع نحو فتوح الاسترداد Reconquista يستمد قوته من مصادر كثيرة ، من نفس النظرية الإمبراطورية . ومن توحيد مختلف الأراضي والجهود ،

والخلاف القائم بين المسلمين في شبه الجزيرة ، وضرورة حماية هيبة الإمبراطورية ومكانتها إزاء البابوية والعالم الخارجي ، كل ذلك كان يخلق اندفاعاً قوياً ومستمرّاً ، يضع الإسلام في شبه الجزيرة في موقف من أدقّ مواقفه . وقد أكد ألفونسو السابع نيته في متابعة هذه الحرب المستمرة على الإسلام ، عقب التتويج الإمبراطوري مباشرة ، في إخطاره لأهل مملكته ولسكان الحدود ، بأن يشهروا الحرب على المسلمين في كل سنة ، وأن يزعموهم بلا هوادة ، وألا يفروا بلادهم أو حصونهم ، وأن ينتزعوا منهم كل شيء في سبيل الله ، ومن أجل الدين المسيحي^(١) .

وتشيد الرواية النصرانية بخلال ألفونسو ريمونديس ، وتقول لنا إنه من القلائل من ملوك اسبانيا النصرانية ، الذين يستحقون صفة القيصر بجدارة ، وتشيد كذلك بفروسته وشجاعته وعدله وتقواه ، ورعايته للكنائس والأديار . بيد أنه ليس من ريب في أن ألفونسو ريمونديس كان ملكاً جشعاً ، وافر الأطماع ، وكان لا يفرق في تحقيق أطاعه بين الوسائل المشروعة ، وغير المشروعة ، وقد رأينا موقفه من مملكة نافارا الصغيرة الشجاعة الأبية ، وكيف أن وشائج القرى والمصاهرة لم تمنعه من الاثمار باستقلالها غير مرة . أما سياسة ألفونسو ريمونديس نحو الأندلس المسلمة ، وهي السياسة التي صورها لنا النقد الإسباني فيما تقدم ، فلم تكن تختلف في شيء عن سياسة أسلافه : سياسة التربص والغدر والعدوان المستمر ، وسياسة الضرب والتفريق بين المتوثبين والمتخاذلين من زعمائها ، وانتهاز الفرص للإيقاع بها ، وانتزاع أراضيها بكل الوسائل . والواقع أن الجيوش القشتالية أيام ألفونسو ريمونديس لم تترك للمسلمين في شبه الجزيرة أية هدنة . ففي سنة ١١٣٣ م ، قام ألفونسو بغزوته الكبرى خلال الأندلس ، ووصل في زحفه إلى شريش وأرض الفرنتيرة ، ولم تستطع الجيوش المرابطية أن تقف في سبيله . وهو مذ تقاد التاج الإمبراطوري في سنة ١١٣٥ ، دأب الغزو لأراضي الأندلس ، فإذا لم تكن ثمة غزوة كبيرة ، فقد كانت ثمة غارات مخربة على الحدود . وفي سنة ١١٣٩ افتتح حصن أورينجا (أرنية) . وفي سنة ١١٤٢ ، افتتح قورية . وفي سنة ١١٤٦ ، دخل قرطبة استجابة لدعوة ابن حمدين ،

(١) وردت هذه الملاحظات ، ضمن تصوير لمهد ألفونسو السابع ، قدم به الأستاذ العميد

S. Montero Díaz لمحاضراته La Orden de Calatrava y su perspectiva universal

المنشورة في كتاب : La Orden de Calatrava (Cuidad Real 1959) p. 8

ثم ندب لحكمها ابن غانية . وفي سنة ١١٤٧ استولى على قلعة رباح ، واشترك مع الجيوش النصرانية الأخرى في الاستيلاء على ألمرية ، وهكذا استمر الصراع على أشده بين الجيوش القشتالية الغازية والجيوش المسلمة ، مرابطة أو غيرها ، طوال أيام ألفونسو السابع .

ويعرف ألفونسو ريمونديس في الرواية الإسلامية بألفنش بن رمند أى ألفونسو بن ريموند وهو اسم أبيه الكونت ريموند البرجونى ، ويعرف كذلك بالسليطين أى الملك الصغير لأنه حكم منذ طفولته .

وحكم الكونت رامون برنجير الرابع بضعة أعوام أخرى ، وشغل في الأعوام الأخيرة من حكمه بمنازعات ومعارك مختلفة فيما وراء البرنيه ، في ولاية بروفانص ، وهى التى كان يحكمها أخوه الكونت برنجير رامون ، حتى نازعه فيها بعض الأمراء المحليين ، وقتل مدافعاً عن ولايته . وقد نجح الكونت يومئذ في إرغام أشراف بروفانص على الاعتراف بطاعته وتلقب بلقب كونت دى بروفانص مضافاً إلى ألقابه . ولكن بعض الأمراء المحليين عادوا فأناروا الاضطراب في بروفانص ، منصوبين تحت حماية القيصر فردريك الأول امبراطور ألمانيا . وأخيراً تحول القيصر إلى مناصرة الكونت رامون ، ومنحه عهد الجزية على بروفانص وعلى عاصمتها آرل ، كما كان الأمر من قبل . ثم سافر الكونت رامون وابن أخيه برنجير إلى تورينو حيث كان يقيم القيصر ، ليتلقيا منه عهد الجزية ، فرض الكونت وتوفى خلال الطريق ، وذلك في السادس من أغسطس سنة ١١٦٢ م .

وكان رامون برنجير الرابع ، من أعظم أمراء اسبانيا النصرانية في ذلك العصر ، الذى تعددت فيه الممالك الإسبانية ، ومن أوفرهم ذكاء وعزماً ومقدرة . وفي وسعنا أن نعتبره مؤسس عظمة مملكة أراجون الحقيقى . وكان سبيله إلى ذلك إدماج قطلونية وأراجون في مملكة قوية موحدة ، وكان حكمه يتسم بالقوة والحكمة والعدل ، وقد استطاع بسياسته المستنيرة أن يتقى كثيراً من الحروب والمنازعات ، وأن يحافظ على سلام مملكته ورخائها . بيد أنه كان كسائر أقرانه ملوك اسبانيا النصرانية يضطرم تعصبا ضد المسلمين ، ولا يذخر جهداً في محاربتهم ، وقد استطاع أن ينتزع آخر القواعد الإسلامية في الثغر الأعلى ، وأن يقضى بذلك نهائياً على سلطان المسلمين ، في هذا الركن من اسبانيا .

٥ - قشتالة بعد وفاة ألفونسو ريمونديس

والحرب الأهلية بين أسرتي كاسترو ولارا

لما توفي القيصر ألفونسو ريمونديس في أغسطس سنة ١١٥٧ م ، قسمت مملكته بين ولديه ، وذلك وفقاً للنظام الذى وضعه في أواخر حياته ، فاختص ولده سانشو الثالث بعرش قشتالة والأراضي التابعة لها في أعلى التاجه ، وعاصمتها طليطلة ، مع حق الجزية على مملكتي نافارا وأراجون . واختص ولده الصغير فرناندو بمملكة ليون وجليقية وأشتوريش ، مع حق السيادة على مملكة البرتغال ، وبهذا التقسيم الجديد لمملكة قشتالة الكبرى ، أصبحت الممالك الإسبانية النصرانية خمساً هي مملكة أراجون وقطالونية المتحدة ، ونافارا ، وقشتالة ، وليون والبرتغال .

وكان هذا الوضع الجديد للملك الإسبانية النصرانية نذيراً بتطور الحوادث ، وبانهيار سيادة قشتالة ، التي استطاع القيصر ألفونسو ريمونديس ، أن يفرضها على باقي الممالك الإسبانية ، وبدأت الأمور كالعادة بنشوب الحرب الأهلية بين الأخوين ، ملكي قشتالة وليون . وذلك أن فرناندو ملك ليون بدأ حكمه ، باضطهاد سائر الكبراء والأشراف المخلصين لقشتالة ، فجردهم من مناصبهم وأملاكهم ، وأخرجهم من مملكته اتقاء لمؤامراتهم ودسائسهم ، فالتجأ هؤلاء إلى أخيه سانشو ملك قشتالة ، فسار سانشو في قواته ومعه الأشراف المبعدون ، وغزا ليون ، وأرغم أخاه على أن يرد المبعدين ، إلى مناصبهم ، وأن يرد إليهم أملاكهم ومكانتهم ، وأرغمه فوق ذلك على أن يعترف بسيادته وأن يؤدي له الجزية .

وفي خلال ذلك حاول سانشو ملك نافارا ، أن يرفع نير قشتالة عن مملكته ، وأن يسترد ولاية ريوخا القديمة ، ولكن سانشو الثالث بادر بإرسال حملة قوية إلى نافارا ، فخشى ملكها العاقبة ، وآثر أن يعقد الصلح على أن تبقى الأوضاع القديمة على حالها .

وكان سانشو الثالث يجيش بأطاع كثيرة ، وكان يطمح بالأخص إلى أن ينظم مع باقي الممالك الإسبانية حلفاً مشتركاً لمحاربة الموحدين ، الذين سيطروا على غرب الأندلس وأواسطها ، وأضحوا يهددون أرض قشتالة ، ولكن هذه

الآمال تحطمت كلها ، إذ توفي سانشو فجأة في آخر أغسطس سنة ١١٥٨ ، بعد أن حكم عاما فقط ، ولم يترك لوراثته عرشه سوى طفل في الثالثة من عمره ، هو ألفونسو الذى لقب فيما بعد بالنبيلى ، واختار فى وصيته للولاية على ولده والقيام بمهام الحكم ، مؤدبه الكونت جوتيرو فرنانديث سليل أسرة كاسترو القوية ، وكان لهذا الاختيار أثره فى مجتمع الأشراف ، وفى اضطرام المنافسة بين أسرة كاسترو ، ونخبائها من الأسر الشريفة ، وعلى رأسها أسرة لارا ، وقد كانت تضارع آل كاسترو ، قوة وعصبية ومحتدآ .

سخطت أسرة لارا لما خصت به أسرة كاسترو من الوصاية على الملك الطفل ، وخشى الكونت جوتيرو عاقبة سخطها ووعيدها ، فعهد بتربية الملك الطفل إلى الكونت غرسية دى آتيا قريب آل لارا ، والمتصل بهم بأوثق الصلات ، وذلك كوسيلة لتجنب الخصام والمحافظة على السلم ، ولكن غرسية مالبت أن برم بهذه التبعة الثقيلة ، فسلم الطفل إلى الكونت ألمانريش كبير آل لارا ، فثار الكونت جوتيرو لهذا التصرف ، وأصر أن يعاد إليه الطفل ، وهدد بالحرب ، ولكنه لم يلبث أن توفي ، فتابع أبناء أخيه المطالبة ، وأصروا على استعادة الملك الطفل استنادآ إلى الوصية الملكية ، فلما أصر آل لارا على موقفهم ، لجأ آل كاسترو إلى فرناندو ملك ليون ، عم الملك الطفل ، لكى يحمى ابن أخيه ، فسار ملك ليون فى الحال إلى قشتالة فى جيش ضخم ، واحتل معظم قواعدها ، وأعلن أنه يتولى الحكم والوصاية على ابن أخيه ، واعترف بطاعته معظم الشعب القشتالى (سنة ١١٥٩م) . واشتد فرناندو فى مطاردة آل لارا ، حتى أرغموا أخيراً على تسليم الملك الطفل . وعمد فرناندو بعد ذلك إلى اصطفاء آل كاسترو ، وتجريد آل لارا من أملاكهم ومناصبهم وألقابهم ، وترتب على ذلك أن ثارت بين الفريقين حرب دموية ، خربت فيها الضياع ، وأحرقت القرى ، وقاتل ملك ليون إلى جانب آل كاسترو ، حتى أرغمت أسرة لارا أخيراً على التسليم ، وأعلنوا أنهم يعودون إلى الطاعة ، وأنهم يقسمون بالتزامها إذا أعيد إليهم الطفل الملكى قبل ذلك . واتفق الفريقان على أن يجتمع لذلك الغرض مجلس فى بلدة « سُرية » يشهده آل لارا والملك فرناندو ، ومعه ابن أخيه الطفل . ولكن حدث خلال انعقاد هذا المجلس ، أن اختطف الطفل فارس جرىء من رجال آل لارا ، وسرعان ما عمد زعماء آل لارا وفى مقدمتهم الكونت ألمانريش إلى الفرار من

المجلس دون أن يقسموا يمين الطاعة ، وأدرك فرناندو ، بعد فوات الوقت ، ما دبّره خصومه من غدر وخديعة .

ووضع آل لارا الطفل الملكي في قلعة إستبان دى جورمت المنيعه ، وأذاعوا في طول البلاد ، وعرضها أنهم يعملون على حماية الملك الطفل ، وحماية استقلال قشتالة من مطامع الملك فرناندو ، وانضم إليهم فريق كبير من أهل قشتالة . ومع ذلك فقد بقي التفوق إلى جانب فرناندو وأنصاره آل كاسترو ، وكان يؤيده بالأخص رجال الدين ، وعلى رأسهم مطران طليطلة . واستمرت هذه الحرب الأهلية بين الفريقين أعواماً ، وبذل فيها آل لارا جهوداً عنيفة ، وقتل زعيمهم الكونت ألمايريش في إحدى المعارك . وكان وجود الملك الطفل في أيديهم ، يساعدهم على حشد الأنصار والموارد . وأخيراً رجحت كفّهم على قوات ليون ، واضطر الملك فرناندو ، إلى أن يطلب العون من خصميه القديمين ، ملك نافارا ، وملك البرتغال . وكانت الأحوال خلال ذلك تتطور في قشتالة ، وأخذ الشعب يتحول عن آل كاسترو وعن قضيتهم ، ويرى في بقاء ملك ليون وجنوده خطراً على استقلال البلاد . ومن جهة أخرى ، فإن ملك ليون لم يحظ بالعون المنشود من محالفة البرتغال ونافارا ، وزاد في متاعبه أن قامت ثورة محلية في أراضي استرامادوره ، وثارَت مدينتا آبله وشلمنقة على سلطانه ، وأخذ آل كاسترو في نفس الوقت يفقدون هيبتهم ونفوذهم ، لما ارتكبه من عسف ومظالم . وانتهزت أسرة لارا فرصة هذا التحول ، فسارت في أنصارها إلى طليطلة عاصمة قشتالة ، واستولت عليها عنوة ، ونادت بقيام حكم الملك الطفل ألفونسو ، وكان قد بلغ عندئذ الحادية عشرة من عمره ، ودعت جميع القشتاليين إلى الالتفاف حول الملك الشرعي ، ومقاومة الليونيين وآل كاسترو . وكان ذلك في سنة ١١٦٦ م .

واتجهت قشتالة كلها عندئذ إلى تأييد ملكها الصبي ، الذي لقب بألفونسو النبيل ، واستأثر آل لارا بجميع السلطات ، وتحول رجال الدين أخيراً عن ملك ليون ، ليؤيدوا الملك الشرعي ، وعقدت قشتالة الهدنة مع نافارا ، وعقدت حلفاً مع أراجون . وأيقن فرناندو ملك ليون أخيراً أنه لا أمل في مثل هذا الموقف وأثر أن ينسحب من أراضي قشتالة ، وأن يترك حلفاءه آل كاسترو لمصيرهم ، واضطر آل كاسترو وعندئذ إلى مغادرة قشتالة ، والالتجاء إلى أراضي المسلمين ، وهناك أخذوا يرقبون الفرص للعودة والانتقام ، وأسدل الستار بذلك مدى

حين على صراع هاتين الأسرتين القشتاليتين الكبيرتين^(١) .

٦ - قيام جماعات الفرسان الدينية

وقد امتاز هذا العصر - النصف الأول من القرن الثاني عشر - وهو عصر ألفونسو المحارب ، وألفونسو ريمونديس ، بظهور قوة جديدة في ميدان الصراع بين اسبانيا النصرانية واسبانيا المسلمة ، هي جماعات الفرسان الدينية . وكانت هذه الجماعات قد ظهرت في المشرق على أثر اضطرام الحروب الصليبية ، وسقوط بيت المقدس في أيدي الفرنج الصليبيين ، وظهرت طلائعها في اسبانيا ، في عصر ألفونسو المحارب . وكانت أول جماعة قامت في أراجون من هذا النوع هي جمعية الفرسان الدينية التي أنشأها ألفونسو المحارب في سنة ١١٢٠م ، على أثر موقعة كنتندة ، في قلعة « مونريال » على مقربة من دروكة ، وظهر فرسان الداوية أوفرسان المعبد بعد ذلك في إمارة برشلونة ، وشجعهم أميرها الكونت رامون برنجير الثالث على القيام في مملكته ، ومنحهم حصن « جرانينا » على مقربة من لاردة ، ليكون مقرأ لهم ، ثم انتظم في سلكهم قبيل وفاته في سنة ١١٣١ م . ولما توفي ألفونسو المحارب ، خص فرسان المعبد في وصيته بثلاث مملكته ، باعتبارهم حماة النصرانية في بيت المقدس ، كما خص فرسان الأسبنتارية ، كذلك بنصيب آخر من مملكته . وقد رأينا فيما تقدم كيف رفض الشعب الأرجوني أن ينفذ هذه الوصية حرصاً على سلامة الوطن الأرجوني . وقد رأى الفرسان أنفسهم استحالة تنفيذ مثل هذه الوصية ، لأنها مسألة لاثحل إلا بقوة السلاح ، ومن ثم فقد نبذوا باختيارهم هذه الحقوق ، واكتفوا بالمطالبة ، بأن يعوضوا عنها بما يعاونهم على الاستقرار ، وتأدية مهمتهم في حماية الدين . ومن ثم فقد رأى أمير أراجون فيما بعد الكونت رامون برنجير الرابع ، تعويضاً لفرسان المعبد (الداوية) أن يمنحهم عدة حصون في أراجون ومنتشون وكلامير وغيرها مع ما يلزم لها من المرافق والغلات التي تساعد على العيش ، وكذلك حصل الفرسان على حق الإعفاء من الخضوع لقضاء الملك ، وعلى أن يعطوا نصيباً معيناً في المدن التي انتزعت من المسلمين مثل وشقة وبربشتر وسرقسطة ، وقلعة أيوب وغيرها ، وفي مقابل ذلك يتعهد الفرسان بأن يكرسوا حياتهم لحماية النصرانية في تلك

الأنحاء ، وتم هذا الاتفاق في اجتماع عقد في مدينة جبرنده^(١) في سنة ١١٤٣ م ، وشهده مندوب عن البابا ، وكثير من الأساقفة وأشراف أراجون وقطلونية . وهكذا تم لجمعية فرسان المعبد الشهيرة أن تستقر في أراجون وقطلونية . وسرعان ما نمت واشتد ساعدها ، وظهرت أهمية العون الذي يبذله أعضاؤها في محاربة المسلمين ، ولا سيما في الدفاع عن القواعد والحصون الواقعة على الحدود . وألنى هذا المثل صداه في قشتالة ، عقب وفاة القيصر ألفونسو ريمونديس ، وقيام ولده سانشو . وكانت قلعة رباح ، في مقدمة هذه المعازل الأمامية التي تحمي مداخل قشتالة ، وكانت فضلا عن أهميتها الدفاعية ، تسيطر على مقاطعة جيان الأندلسية ، وكان ألفونسو السابع قد عهد بالدفاع عنها إلى فرسان الداوية ، وكانت القوات الموحدية تزحف على هذه القلعة من آن لآخر وترهقها بهجمات العنيفة . ولما استولى الموحدون على ألمرية ، جددوا هجومهم في سنة ١١٥٨ م على قلعة رباح ، ولم يستطع فرسان الداوية إنقاذها من السقوط إلا بشق الأنفس ، فلما أيقنوا بعجزهم عن القيام بمهمتهم الفادحة ، غادروا القلعة وسلموها إلى سانشو ملك قشتالة ، ليعنى هو بأمر الدفاع عنها . وألنى سانشو نفسه في مأزق حرج . وكان ثمة في طليطلة راهب ورع هو ريموندو أو رامون رئيس دير فتيرو ، ومعه راهب ورع من أسرة نبيلة يدعى ديجو بلاسكيث ، وكان فارساً مقدما ظهر في ميدان الحرب ، فتقدم الراهبان إلى الملك سانشو ، بأن يعهد إليهما بمهمة الدفاع عن قلعة رباح ، فأجابهما الملك إلى ما طلبا . وأيد مشروعهما يوحنا مطران طليطلة ، وألنى عظات وعد فيها بالغفران لكل من يتقدم للدفاع عن القلعة ، فلم يمحض سوى قليل حتى استطاع الراهب ريموندو أن يجمع حوله في قلعة رباح عشرين ألف مقاتل ، وأمدته كثيرون ممن لم يشتركوا في الدفاع بالخييل والدواب والمال . وكان لهذه الحركة القوية أثرها في رد الموحدين عن مهاجمة القلعة . وفي الحال رأى الراهب رامون أن يؤلف من أولئك الذين يرغبون أن يكرسوا حياتهم للدفاع عن النصرانية جمعية من الإخوة . وهكذا قامت جمعية « فرسان قلعة رباح » (سنة ١١٦١ م) . وانتخب الراهب ريموندو أول رئيس لها ، وصادق البابا على قيامها ، وطبقت عليها النظم الحربية ، وأخذت تنمو باضطراد ، وتؤدي مهمتها في مدافعة المسلمين بهمة وحاسة . ولما توفي أستاذ الجمعية الأول ، ريموندو دي فتيرو في سنة ١١٦٣ م

(٢) هي بالإسبانية Gerona ، وهي تقع شمال شرقي برشلونة على مقربة من البرنيه .

— ٥٢٠ —

خلفه في رياستها الراهب غرسية النافاري ، ووضع للجمعية نظاماً جديداً ، أقره البابا اسكندر الثالث . ثم وضع البابا إنوسان الثالث بعد ذلك الجمعية تحت حمايته ، وذلك في سنة ١١٩٩ م^(١) .

وقامت في جليقية ، بعد قيام جمعية قلعة رباح بثلاثة أعوام جمعية محاربة جديدة باسم « جماعة القديس ياقب » وشعارها محاربة أعداء الدين ، والدفاع عن الحاج الذين يقصدون زيارة قبر القديس ياقب ، ونظمت على منهج القديس أوغسطين ، واتخذت طابعاً حربياً ، وأبيح الزواج لأعضائها ، خلافاً لفرسان قلعة رباح ، وتوالت عليها الهبات ، وسرعان ما نمت واشتد ساعدها .

وسوف تضطلع هذه الجمعيات الدينية المحاربة منذ الآن فصاعداً بدور بارز في الصراع بين إسبانيا النصرانية وإسبانيا المسلمة .

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباح (الترجمة العربية ص ٢٦٨)
والاستاذ S. Montero في مجموعة 16 & 17 La Orden de Calatrava

الفصل الثالث

قيام مملكة البرتغال

وبداية عصر ملكها ألفونسو هنريكي

ولاية لوزيتانيا أصل مملكة البرتغال . تداولها بين الفاتحين ، وضعها عند افتتاح الأندلس ، ولاية الغرب الأندلسية . شمال لوزيتانيا وسقوطه في يد النصارى . ولاية البرتغال . البرتغاليون أهل هذه الولاية . أصل المملوكية البرتغالية . الكونت ريمون البرجوف وابن عمه الكونت هنري . زواج الكونت ريمون بأوركا ابنة ألفونسو السادس . اختياره لحكم إمارة البرتغال . وفاته وخلافة الكونت هنري له . ولاية البرتغال ومدنها عندئذ . الكونت هنري أمير ورثي للبرتغال . موقفه من الحرب الأهلية في قشتالة . وفاته . ولده الطفل ألفونسو وأمه تريسا الوصية عليه . ثقلها في محالفة الفريقين المتحاربين في قشتالة . غزو المرايطين لأراضيها وانسحابهم . سحق الشعب على حكمها . مؤامرة الأشراف عليها واعتقالها . تولى ولدها الفتى ألفونسو هنريكي الحكم . إعلانه لاستقلال البرتغال . سحق القيصر ألفونسو ريمونديس لذلك . الحرب بين قشتالة والبرتغال . التحالف بين ناغارا والبرتغال . غزو البرتغال لجليقية . الحرب بين البرتغال والقيصر . توسط مطران براجا وعقد الهدنة بينهما . غزوة البرتغالية لأراضي المسلمين . مجلس لاميجو واتخاذ ألفونسو هنريكي لقب الملك . قانون وراثة العرش . القوانين الجديدة . تنظيم القضاء . قيام مملكة البرتغال . جماعات الفرسان الدينية . ألفونسو هنريكي في الرواية العربية .

نقف الآن قليلا في تتبع أخبار الممالك النصرانية الإسبانية ، لنلم بأخبار مملكة نصرانية أخرى ، من ممالك شبه الجزيرة الإسبانية ، لم يكن لها قبل أوائل القرن الحادي عشر ذكر بين هذه الممالك ، ونعني بذلك مملكة البرتغال الناشئة ، التي بدأت تحتل مكانتها إلى جانب باقي الممالك النصرانية ، وتأخذ معها بنصيب بارز في الكفاح بينها وبين إسبانيا المسلمة .

إن مملكة البرتغال ترجع من حيث رقعتها الإقليمية ، أو من حيث أرومتها المملوكية ، إلى أصول متواضعة . فأما من حيث الرقعة الإقليمية ، فإنه يجب أن نعلم أن القسم الغربي من شبه الجزيرة الإسبانية ، كان منذ العصر القديم ، يتميز بسكانه وخواصه الجغرافية ، وكان سكانه يعرفون بأهل لوزيتانيا ، وهم جنس يتميز بخصائصه من الإسبان الذين كانوا يحتلون شرق الجزيرة وأواسطها ، وكانت

ولاية لوزيتانيا في العصر القديم تشمل الرقعة الغربية الواقعة جنوبي جليقية المحاذية للشاطئ فيما بين مصب نهر دويرة ومصب نهر وادي يانة . وكانت لوزيتانيا أيام الرومان تكون مع ولاية بتيكا (باطقة) أو الأندلس ، القسم الجنوبي الغربي من اسبانيا الرومانية ، وتسمى بإسبانيا السفلى . ولما غزت القبائل الجرمانية شبه الجزيرة الإسبانية في أوائل القرن الخامس الميلادي ، نزل الوندال والشوابيون في ولاية لوزيتانيا . ولما عبر الوندال إلى إفريقيا ، احتل الشوابيون لوزيتانيا كلها ، واستمروا بها زهاء نصف قرن حتى أجلاهم القوط عنها ، فارتدوا شمالاً إلى جليقية ، واحتل القوط لوزيتانيا ، وعاصمتها يومئذ مدينة ماردة ، وذلك في أوائل النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي ، ثم استولى القوط بعد ذلك على اسبانيا كلها ، ماعدا قسمها الشمالي الذي استمر عصراً آخر بيد الشوابيين ، حتى افتتحه القوط في أواخر القرن السادس . وكانت لوزيتانيا تكون عندئذ إقليماً من الأقاليم الستة التي قسمت إليها المملكة القوطية . ولما افتتح المسلمون اسبانيا ، بقيت لوزيتانيا على وضعها القديم ، وعاصمتها ماردة ، ومن مدنها قلمرية وأشبونة وشنتر وشنترين . وكانت ماردة أيام الدولة الأموية ، بالأخص منزل المولدين ، وكانت مثل طليطلة ، من المدن المتمردة الثائرة ، تضطرم بها الثورة على حكومة قرطبة من آن لآخر ، وكانت أيام الفتنة الكبرى في مقدمة القواعد الخارجة ، وقد ثار بها بنو الجليقي ، واستقلوا بحكمها عصراً .

وكان القسم الجنوبي من ولاية لوزيتانيا وهو الذي بقي بأيدي المسلمين ، يعرف بولاية الغرب الأندلسية ، أو غربي الأندلس . ولما قامت دول الطوائف تغلب على هذه المنطقة بنو الأفطس ، واتخذوا من بطليوس قاعدة لإمارتهم . وكان حكمهم يمتد من منتصف وادي نهر وادي يانة حتى المحيط ، ويشتمل على قسم من وادي نهر التاج ، يمتد شمالاً حتى مدينة قلمرية^(١) ، ويشتمل على ثغر أشبونة ، وشنترين ويابرة . أما القسم الشمالي من ولاية لوزيتانيا ، وهو الذي يمتد بين مدينة براجا شمالاً ، وقلمرية جنوباً ، فكان النصارى قد تغلبوا عليه شيئاً فشيئاً ، وافتتح فرناندو الأول ملك قشتالة معظم قواعده من المسلمين ، وآخرها مدينة قلمرية ، وقد افتتحها في سنة ١٠٦٤ م (٤٥٦ هـ) ، وجعل فرناندو من هذه المنطقة ولاية مستقلة باسم « البرتغال » بالاشتقاق من اسم « بورتو كالي »

(١) قلمرية وتسمى أيضاً قلنبرية هي بالفرنسية *Columbria 'Cömbra*

Porto Calle ، وهى الثغر الواقع عند مصب نهر دويرة ، وجعل قاعدتها قلمرية ، وانتدب لحكمها وزيره المستعرب الكونت سسندودا قيدس الذى تعرفه الرواية العربية باسم « ششند » . ثم ضمت هذه الولاية الجديدة قبيل وفاة فرناندو بقليل إلى مملكة جايقية ، التى تركها فرناندو إلى أصغر أولاده الثلاثة غرسية .

وقد ذكرنا من قبل أن سكان اوزيتانيا ، وهى التى اقتطعت ولاية البرتغال الجديدة من قسمها الشمالى ، كانوا عنصراً خاصاً يفرق بـمميزاته عن الإسبان . وكان اللوزيتانيون أو البرتغاليون أهل الولاية الجديدة ، يتوقون إلى الاستقلال عن مملكة حليقية : ومن ثم فقد ثاروا منذ البداية ضد حكم الملك غرسية بقيادة زعيمهم الكونت نونيو منندس ، ولكنهم هزموا أمام جيش جليقية ، وقتل زعيمهم نونيو (سنة ١٠٧١ م) . واستسلمت الولاية النائرة إلى مصيرها ، وتعاقب فى حكمها الأمراء والحكام من قبل ملك قشتالة .

هذا عن أصول البرتغال الجغرافية والتاريخية . وأما عن أصول الملوكية البرتغالية ، فإنه لما عبر المرابطون إلى اسبانيا عقب افتتاح ألفونسو السادس ملك قشتالة لطليطلة ، ولقيت الحيوش الإسبانية المتحدة هزيمتها الساحقة فى موقعة الزلاقة (٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م) عبر إلى شبه الجزيرة استجابة لصريخ ألفونسو السادس ، كثير من الفرسان والأشراف الفرنسيين ، لينجدوا إخوانهم فى الدين إزاء الخطر الإسلامى الجديد - خطر النسل المرابطى ، وكان من بين أولئك المحاهدين الوافدين اثنان من أشراف برجونية ، هما الكونت ريمون البرجونى ، والكونت هنرى دى لورين ، وكلاهما ينتمى إلى فرع من فروع آل كاييه ملوك فرنسا . وقد أبدى الرجلان فى خدمة ألفونسو السادس ومعاونته همه تذكر ، ومن ثم فقد رأى أن يثيبهما عن إخلاصهما وغيرتهما ، فزوج الكونت ريمون بابنته أورাকা ، ولما كان الكونت قد ظهر بالأخص فى محاربة المسلمين فى البرتغال وأنزع منهم شترين وأشبونة وشنطرة (١٠٩٣ م) فقد عينه ألفونسو حاكماً لهذه الولاية . وزوج الكونت هنرى ، وهو ابن عمومة الكونت ريمون ، بابنته غير الشرعية تريسا التى رزق بها من خليلته خينا نونيز .

ولما توفى الكونت ريمون بعد ذلك بقليل فى سنة ١٠٩٤ م ، بعد أن أعقب من زوجه أورাকা ولداً هو ألفونسو ، وهو الذى غدا فيما بعد القيصر ألفونسو ريمونديس ، خلفه فى حكم ولاية البرتغال قريبة الكونت هنرى ، وكانت

ولاية البرتغال تشمل يومئذ المنطقة الواقعة بين نهر منيو (نهر منديجو) ، وهر التاجه حتى أسفل مصبه ، وبها عدة مدن هامة هي براجا وبورتو وقلمرية وبازو ولاميجو (مليقة) وعدة بلاد وضياع أخرى ، ومنح الكونت هنرى الذى لقب عندئذ بالدوق ، حكم هذه الولاية لا باعتبارها إمارة مستقلة ، ولكن على قاعدة الإقطاع باعتبارها تابعة لمملكة قشتالة ، تؤدى الجزية إليها وتشاركها فى حروبها ضد المسلمين بفرقة من ثلاثمائة فارس ويتوارثها عقبه^(١) . بيد أن تريسا زوجة هنرى كانت تلقب بالملكة لأرومها الملكية . وجعلت مدينة قلمرية حاضرة الإمارة الجديدة ، ومن ثم فإن الزوايا العربية قد جرت على تسمية أمير البرتغال ، أو ملكها فيما بعد « بصاحب قلمرية » . وبالرغم مما بذله الكونت هنرى للمحافظة على حدود ولايته ، فإن المسلمين استطاعوا غير بعيد أن يستردوا أشبونة وشترين . ولما توفى ألفونسو السادس فى سنة ١١٠٩ م ، جاءت وصيته الخاصة بوراثه العرش مؤيدة ، لحقوق هنرى الوراثة فى حكم ولاية البرتغال ، ولكن فى ظل قشتالة . بيد أنه كان فى الواقع يحكم ولايته مستقلا ، وكانت تبعيته لقشتالة مسألة اسمية فقط .

ولما نشبت الحرب الأهلية بين الملك ألفونسو المحارب وزوجه الملكة أورাকা ، وقف الكونت هنرى فى البداية إلى بجانب ملك أراجون فى موقعة كامبودى سبنا ، إذ كان يخشى على استقلاله من الملكة أورাকা ، بيد أنه لما تطورت الحوادث وهزمت أورাকা وحوصرت فى أسترقة ، تحول هنرى إلى مهادتها ، ثم حارب إلى جانبها وعبر إلى فرنسا ، ليستقدم الحشود لمعاونتها ، وذلك مقابل حصول البرتغال على مدينة توى والأراضى الواقعة على ضفة منيوالمنى . ثم توفى الكونت هنرى عقب ذلك فى مايو سنة ١١١٢ م ، ولم يترك سوى طفل فى الثالثة من عمره يدعى ألفونسو ، فتولت أمه الملكة تريسا الحكم ، بطريق الوصاية عليه . وكانت دونيا تريسا ، فضلا عن جمالها ، امرأة وافرة الذكاء والعزم والإقدام ، وكانت تجيش بأطاع كثيرة فى سبيل تدعيم سلطانها واستقلالها ، وتوسيع رقعة إمارتها . وقد رأينا فيما تقدم كيف عملت خلال الحرب الأهلية فى قشتالة على انتهاز الفرص ، وتحالفت مع الكونت دى ترافا والثوار الحليقيين غير مرة ، ضد أختها أورাকা ، ثم حاربت إلى جانب أورাকা والأسقف خلمريث ، وكيف استطاعت

فى النهاية أن تحافظ على ما كسبه زوجها من أراضى جليقية ، وان تكسب من أختها أراضى جديدة فى أحواز سمورة وطورو ثمناً لتخليها عن تحالفها مع الثوار (سنة ١١١٩) ، ورأينا كيف احتدت حذو أختها أوراكا فى التورط فى مسلكتها الأخلاقى المشين ، وتوثيق علاقتها الغرامية بالكونت فرناندو بيرث ، وتركه يتصرف فى شئون الإمارة بصورة سخط لها الشعب البرتغالى ، وأخيراً كيف انتهى ألفونسو ريمونديس إلى إخضاعها ، وإلى أرغام البرتغال أن تعترف باسم أميرها الصبى ألفونسو هنريكز أنها مستظلة بحجايته .

وفى خلال ذلك استطاعت تريسا أيضاً أن تصمد لغزوات المسلمين لأراضيها . وكانت أهم غزوة واجهتها من المرابطين ، هى زحف أمير المسلمين على بن يوسف على قلمرية عاصمة الإمارة ومحاصرتها لها ، ودخوله أياها ، وذلك فى يونيه سنة ١١١٧م (سنة ٥١١هـ) . بيد أن المرابطين لم يحفظوا بها بل غادروها على الأثر ، وقفوا إلى إشبيلية ، وذلك حسبما فصلناه من قبل فى موضعه .

ولم تمض على ذلك أعوام قلائل حتى سُمّ الشعب حكم هذه الأميرة المستهترّة ، وأخذ يتطلع إلى أميره الفتى ألفونسو هنريكز ، وكان الأمير قد بلغ الرابعة عشرة من عمره (سنة ١١٢٤ م) ، واتشح بثوب الفروسة وفقاً لتقاليد العصر ، وأجازة لذلك الملك ألفونسو ريمونديس . وكان الشعب يحبو أميره الفتى بحبه ، لما كان يتصف به من الخلال الحميدة ، من الفروسة والتقوى ، ورقة الشائل ، وتوقير رجال الدين ، ويرى أن الوقت قد حان لتقديمه وتوليّه شئون الحكم . وأخيراً دبر الأشراف والأخبار مؤامرة لتحقيق هذه الأمنية ، والتف حول الأمير جمع كبير من الأنصار ، وشهر الحرب ضد أمه المستبدة ، فلقيته فى أنصارها فى سنت مايميتى على مقربة من جويمرانس ، فهزمت الأم ، وأسرت وألقيت إلى السجن لتكفر عن زلاتها ، وماضيها الأثيم ، ونفى خليلها أوزوجها الكونت فرناندو بيرث من المملكة ونفى معه كثير من أنصاره . وتولى الأمير الفتى ألفونسو هنريكز حكم إمارة البرتغال ، وكان ذلك فى سنة ١١٢٨ م ، وقد بلغ الأمير الثامنة عشرة من عمره .

وأعلن ألفونسو هنريكز أنه يتولى حكم إمارته مستقلاً دون تبعية لأحد . فثار لذلك ألفونسو ريمونديس ملك قشتالة ، إذ كان يعتبر البرتغال إقليماً من أقاليم مملكته مشمولاً بحجايته . وزحف بقواته على البرتغال بحجة العمل على إنقاذ

حالته تريسا ، وإرغام الأمير الخارج عليه ، على التزام الطاعة ، ونشبت بين البرتغال وقشتالة حرب طويلة الأمد ، وكان مسرحها بالأخص جنوبى جليقية ، ولم يكن فى وسع ملك قشتالة أن يتابع هذه الحرب بنفسه ، لما كان يشغله من غارات المسلمين ومداغة ملك أراجون . ولما توج ألفونسو ريمونديس قيصرأ لإسبانيا فى سنة ١١٣٥م ، رفضت البرتغال أن تسلم بهذا الادعاء ، وشاطرها فى ذلك غرسيه راميريس ملك نافارا ، ووقع عندئذ نوع من التحالف بين نافارا ، والبرتغال . وبينما سار القيصر لمحاربة نافارا ، زحف البرتغاليون على جليقية ، واستولوا على مدينة توى وعدة مواضع أخرى ، فهض أشراف جليقية لمقاومة البرتغاليين ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، وكان الظفر فيها لألفونسو هنريكز ، ولكنه اضطر أن يترك الميدان وقتاً لكى يرد غزوة قام بها المرابطون على مقربة من قلمرية ، ولكن المرابطين كانوا قد انسحبوا خلال ذلك عائدين إلى أراضيهم ، فلما عاد ألفونسو هنريكز ثانية لاستئناف القتال فى جليقية ، كان خصومه قد جمعوا فلولهم ، واستكملوا أهبتهم ، فلما اشتبك الفريقان كرة أخرى ، دارت الدائرة فى هذه المرة على البرتغاليين ، فهزموا هزيمة شديدة وجرح أميرهم . ولم يمض سوى قليل على ذلك حتى فرغ القيصر ألفونسو ريمونديس من حرب نافارا ، وعاد بنفسه لمحاربة البرتغال ، وتوالى الاشتباك بين الفريقين . وكان ألفونسو هنريكز يحرص على ألا يلتقى مع القشتاليين فى معركة حاسمة ، ثم رأى فى النهاية نزولاً على نصيح قادته أن يتقدم بطلب الصلح إلى القيصر ، وتوسط مطران براجا فى الأمر ، وانتهت المفاوضة إلى عقد هدنة بين الفريقين ، وانفق على تبادل الأسرى من الجانبين ، وإعادة الحدود بين البلدين ، كما كانت فى آخر عام من حكم الملكة تريسا ، ولم يتفق على شىء بالنسبة للمسألة الجوهرية التى كانت سبب الحرب ، وهى مسألة تبعية البرتغال لمملكة قشتالة . وعلى أى حال فقد عقد السلم بين الفريقين ، واجتمع القيصر وألفونسو هنريكز فى خيمة واحدة ، وتصافحا ، وتصافيا ، ثم عاد كل منهما إلى أراضيهم (سنة ١١٣٨ م) .

تحدثنا الرواية النصرانية بعد ذلك عن غزوة عظيمة قام بها ألفونسو هنريكز فى الأراضى الإسلامية فى العام التالى ، أعنى فى سنة ١١٣٩ م (٥٣٣ هـ) ، وأحرز فيها نصراً باهراً على الجيش الإسلامى الضخم الذى حشده ولاة بطليوس وبابرة وباجة وإشبيلية ، وذلك فى مكان يسمى «أوريك» على ضفة نهر التاجه ،

وهو حادث لم نجد له ذكراً في الروايات العربية . ثم تقول لنا إن ألفونسو هنريكينز اعترم عقب هذا النصر أن يتلقب بالقباب الملوكية ، وأن القيصراً ألفونسو ريموندس بعث إلى البابا محتج على اتخاذ أمير البرتغال مثل هذه الخطوة . على أن ألفونسو هنريكينز لم يعبأ باعتراض القيصراً ، أو تدخل البابوية ، في الأمر ، واعتزم أنه يجعل من لقبه الملوكي مسألة قومية بينه وبين شعبه ، فاستدعى في مدينة لاميجو (١) مجلساً قومياً (كورتيس) مثل فيه رجال الدين والأشراف ونواب المدن (سنة ١١٤٣ م) ووافق هذا المجلس على أن يتخذ ألفونسو هنريكينز لقب الملك ، وأن يكون الملك متوارثاً في أعقابه الذكور ، وعلى أثر ذلك وضع أسقف براجا على رأس ألفونسو تاجاً من الذهب المرصع بالجواهر . وصادق الملك الحديد في هذا المجلس على القوانين التي قدمها إليه ممثلو الطبقات ، وفي مقدمتها قانون وراثة العرش ، وهو يبين أحكام هذه الوراثة وتسلسلها بين الأبناء والإخوة ، وحالة ما إذا توفي الملك دون عقب ، وترك إبنة ، فلها تتولى الملك من بعده . وقانون الأشراف ، وهو ينص على من يمكن نظمهم في طبقة الأشراف ، ممن يجرى في عروقهم الدم الملكي ، وكل من وفق إلى إنقاذ الملك أو أحد أقاربه ، أو لإنقاذ العلم الوطني في ميدان الحرب ، وكل من استطاع أن يقتل في الحرب أميراً من الأعداء ، أو يغتنم علماً من أعلامهم .

والسؤال الثالثة هي مسألة تنظيم العدل ، وقد نص القانون الذي وضع لذلك على أن يدين جميع البرتغاليين بالطاعة للملك ، باعتباره أكبر قاض في البلاد . وأن يعاقب على السرقة الأولى والثانية بالتعزير ، ويعاقب على السرقات الكبرى بالكي بالنار أو الموت . وتعاقب المرأة المتزوجة إذا زنت هي وعشيقها بالحرق ، ويعاقب القاتل بالإعدام مهما كان شخصه ، وكذلك يعاقب بالإعدام كل من اغتصب بكرأ شريفة ، فإذا لم تكن المحبى عليها من الأشراف ، وجب على المعتدى أن يتزوج بضحيتها .

ويترك للقاضي تقدير العقوبة على جرائم الضرب والجرح . وكل من اعتدى على أحد من رجال القضاء بالسب أو الضرب ، عوقب بالكي بالنار أو بغرامة قدرها خمسون قطعة من الذهب ، ويلزم بالتعويض المناسب .

(١) تقع لاميجو Lamigo في شمال البرتغال جنوبي نهر دويره ، وتعرف في الرواية العربية « بمليقة » .

وهكذا وضعت في مجلس لاميجو أسس مملكة البرتغال الجديدة ، التي تحولت من كونتية أو إمارة صغيرة قامت في ظروف متواضعة لتكون ولاية تابعة إلى مملكة قوية ، تأخذ منذ الآن مكانها في تاريخ اسبانيا النصرانية ، وتقوم منذ الآن فصاعداً بنصيب بارز من النضال المرير المستمر بين إسبانيا النصرانية وإسبانيا المسلمة ، وتدفع رقعتها تباعاً على حساب القواعد والأراضي الإسلامية في ولاية الغرب الأندلسية .

وعنى الملك ألفونسو هنريكيّز كذلك بأمر جماعات الفرسان الدينية ، إذ شعر بأهميتها ، وخطرها في محاربة المسلمين ، وكانت طلائع فرسان الداوية ، وفرسان القديس يوحنا قد ظهرت قبل ذلك ، واشتركت في كثير من المعارك التي تشب بين البرتغاليين والمسلمين . وفي سنة ١١٥٨ م ، أنشأ ألفونسو هنريكيّز جماعة دينية جديدة سميت بالجماعة المحاربة الجديدة Nova Militia ، ووضعت لها نظم كنظم فرسان قلعة رباح ، وشعارها الجهاد من أجل الدين المسيحي ، وألا يدخروا وسعاً في مقاتلة المسلمين ، ولا يتزوجوا ، وعين دون بيدرو أخو الملك ، أول أستاذ أعظم للجماعة . ولما نجحت هذه الجماعة في سنة ١١٦٦ ، في الاستيلاء على يا برة من أيدي المسلمين بقيادة الفارس المغامر جيرالدو الباسل (سمبافور) ، سموا « بفرسان يابرة » . ثم سموا فيما بعد « بفرسان آفيس » وذلك حينما منحهم الملك ألفونسو الثاني القلعة المشهورة بهذا الاسم في سنة ١٢١١ م .

ويعرف الملك ألفونسو هنريكيّز ، منشئ مملكة البرتغال ، في الرواية العربية بصاحب قلمرية أو قلنبرية^(١) ، إذ كانت قلمرية في البداية عاصمة البرتغال ، ويعرف كذلك بابن الرنق وابن الرنك أو ابن الريق^(٢) أعني ابن هنري أو لإنريكي (وهنريكيّز معناها ابن هنري ، وهو هنري البرجوني والد ألفونسو) .

(١) ابن الأبار في الحلة السيرة من ٢٠٠ .

(٢) تختلف الروايات العربية في تسمية ألفونسو هنريكيّز . ويجمع معظمها على تسميته بابن الرنك (راجع كتاب أخبار المهدي بن تومرت ص ١٢٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ ، والبيان المغرب « القسم الثالث » ص ٧٨) ويسميه ابن صاحب الصلاة كذلك بابن الرنك أو أدفونش الرنك (مخطوط المن بالإمامة لوحة ١١٧) وتسميه بعض الروايات الأخرى « بابن الريق » (راجع الحلة السيرة ص ٢٠٠ ، ورسائل موحدية - الرسالة الرابعة والثلاثون - ص ٢٢٣ ر ٢٢٥ و ٢٢٧) .

وثائق مرابطة وموحدية

رسالة الإمام الغزالي

إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين

(منقولة عن المخطوط رقم ١٢٧٥ ك (الكتانية) المحفوظ بخزانة الرباط وعنوانه « مجموع أوله كتاب الأنساب » لوحة ١٣٠ - ١٣٣) .

الأمير جامع كلمة المسلمين ، وناصر الدين ، أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن تاشفين ، الداعي لأيامه بالخير ، محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة على سيد المرسلين وسائر النبيين وعلى آله وأصحابه أجمعين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليوم من سلطان عادل ، خير من عبادة سبعين سنة . وقال صلى الله عليه وسلم ، ما من والى عشرة إلا ويوثق به يوم القيامة مغلولاً يده إلى عنقه ، أوبقه جوره أوطلقه عدله . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سبعة يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله ، وعدل الإمام العادل أولهم ، ونحن نرجو أن يكون الأمير جامع كلمة الإسلام ، وناصر الدين ، ظهير أمير المؤمنين ، من المستظلين بظل عرشه ، يوم لا ظل إلا ظله ، فإنه منصب لا ينال إلا بالعدل في السلطنة ، وقد آتاه الله السلطان ، وزينه بالعدل والإحسان . ولقد استطارت في الآفاق محامد سيره ، ومحاسن أخلاقه على الإجمال ، حتى ورد الشيخ الفقيه الوجيه أبو محمد عبد الله بن عمر بن العربي الأندلسي ، حرس الله توفيقه ، فأورد من شرح ذلك وتفصيله ، ما عطر به أرجاء العراق ، فإنه لما وصل إلى مدينة السلام ، وحضرة الخلافة ، لم يزل يطنب في ذكر ما كان عليه المسلمون في جزيرة الأندلس من الذل والصغار ، والحرب والاستصغار ، بسبب استيلاء أهل الشرك ، وامتداد أيديهم إلى أهل الإسلام بالسبي والقتل والنهب ، وتطرقهم إلى اهتضام أهل الإسلام ، بما حدث بينهم من تفرق الكلمة ، واختلاف آراء الثوار المحاولين للاستبداد بالإمارة ، وتقاتلهم على ذلك . حتى اختطف من بينهم حمة الرجال . بطول القتال والحاربة والمنافسة ، وإفضاء الأمر بهم إلى الاستنجد بالنصارى حرصاً على الانتقام ، إلى أن أوطنوهم

بيضة الإسلام ، وكشفوا إليهم الأسرار ، حتى أشرفوا على التهام والأغوار ، فرتبوا عليهم الخزا ، وجزؤهم بشر الخزا . ولما استنفدوا من عندهم الأموال ، أخذوا في نهب المناهل ، وتحصيل المعازل ، واستصرخ المسلمون عند ذلك بالأمير ناصر الدين ، وجامع كلمة المسلمين ، ظهير أمير المؤمنين ، ابن عم سيد المرسلين ، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ، واستصرخه معهم بعض الثوار المذكورين ... عن مداراة المشركين ، فلما دعوتهم ، وأسرع نصرتهم ، وأجاز البحر بنفسه ورجاله وماله ، وجاهد بالله حتى جهاده ، ومنحه الله تعالى استيصال شأفة المشركين ، والإفراج عن حوزة المسلمين ، جزاء الله تعالى أفضل جزاء المحسنين ، وأمدّه بالنصر والتكين ، وذكر متابعتة العدو إلى جهة أخرى بعد ثلاثة أعوام من هذه الغزوة المشهورة ، وقتل كل من ظهر من النصارى بالجزيرة المذكورة ، من الخارجين لإمداد ملوكها على عاداتهم ، أو من سراياهم في أى جهة يمموا من جهات المسلمين ، وقذف الله الرعب في قلوب المشركين ، حتى أغناه ذلك عن جر العساكر والجنود ، وعقد الألوية والبنود ، وذكر أن أولائك الثوار ، لما أيقنوا قوة الأمير ناصر الدين ، وغلبته لحرب المشركين ، وسألهم رفع المظالم عن المسلمين ، التى كانت مرتبة عليهم ، بجزية المشركين ، وإمدادهم بها لهم ، مدارات لبقاء إمرتهم ، عادوا إلى ممالأت المشركين ، وألقوا إليهم القول في جهة الأمير ، وجروهم على لقاياه ، وصح ذلك عنده وعند المسلمين . فسأله المسلمون عند ذلك إنزال هؤلاء الثوار عن البلاد ، وتداركها ومن فيها من المسلمين قبل أن يسرى الفساد ، ففعل ذلك . ولما تملكها ، رفع المظالم ، وأظهر فيها من الدين المعالم ، وبدد المفسدين ، واستبدل بهم الصالحين ، ورتب الجهاد ، وقطع مراد الفساد ، ثم أضاف إلى ذكر ذلك ، ماشاهده من تلك السجية الكريمة في إكرام أهل العلم ، وتوقيره لهم ، وتنزيهه باسمهم ، واتباعه لما يفتون إليه من أحكام الله تعالى وأوامره ونواهيه ، وحمله عماله على السمع والطاعة لهم ، وتزيين منابر المملكة الحديدية والقديمة بالخطبة لأمر المؤمنين ، أعز الله أنصاره ، وإلزامه للمسلمين البيعة ، وكانوا من قبل منكفين عن البيعة ، والندا بشعار الخليفة ، إلى غير ذلك مما شرحه من عجائب سيرته ، ومحاسن أحواله ، ومكارم أخلاقه . وكان منصبه في غزارة العلم ، ورصانة العقل ، ومثانة الدين ، يقتضى التصديق له في روايته ، والقبول لكل ما يورده من صدق كلمته ،

وأن ما أفاضه من هذه الفضائل إلى حضرة الخلافة ، أعز الله أنصارها ، فوقع ذلك موقع الاحاد ، ثم ذكر مع ذلك توقف طائفة من الثوار الباقين في شرق الأندلس ، عن مشايعة الأمير ناصر الدين ، ومتابعته ، وأنهم حالفوا النصارى ، واستنجدوا بهم فأعلن المسلمون بالدعاء عليهم ، والتبرى منهم ، ليتوب عليهم أو ليقطع شأفتهم . وكتب هذا الشيخ سوّالا على سبيل الاستفتاء ، وافيته فيه بما اقتضاه الحق ، وأوجه الدين ، وأعجلنى المسير إلى سفر الحجاز ، وتركته مشمراً عن ساق الحد ، في طلب خطاب شريف من حضرة الخلافة يتضمن شكر صنيع الأمير ناصر الدين في حمايته لثغور المسلمين ، ويشتمل على تسليم جميع بلاد المغرب إليه ، ليكون رئيسهم ، ورؤسهم تحت طاعة ، وأن من خالف أمره ، فقد خالف أمر أمير المؤمنين ، ابن سيد المرسلين ، ويتعين جهاده على كافة المسلمين . ولم يبالغ أحد في بث مناقب قوم ، مبالغة الشيخ الفقيه أبي محمد في بث مناقب الأمير وأشياعه المرابطين . ولقد شاع دعاؤه في المشاهد الكريمة بمكة حرسها الله ، لحضرة الأمير وجماعة المرابطين ، ولم يقنعه ما فعله بنفسه إلى أن كلف جميع من رجا بركة دعائهم ، الدعاء لهم في تلك المشاهد الكريمة والمناسك العظيمة ، وأعلن بالدعاء لأمر بلده ، الأمير الأجل أبي محمد سير بن أبي بكر ، وفقه الله تعالى ، وذكر من فضله ، وحسن سيرته ، وتلطفه بالمسلمين ، ورفع جميع النوايب عنهم ، ما جهد به إلى النفوس . ولقد دُعِيَ الشيخ الفقيه إلى المقام ببغداد على البر والكرامة ، والاتصال بأسباب ، يتشرف بها من حضرة الخلافة ، فأبى إلا الرجوع إلى ذلك الثغر يلازمه للجهاد مع الأمراء وفقههم الله تعالى ، ولو أقام لفاز بالحظ الأوفى من التوقير والإكرام ، وما أجدر مثله بأن يوفى حظه من الاحترام ، وولده الشيخ الإمام أبو بكر قد أحرز من العلم في وقت تردده إلى ما لم يحرزه غيره مع طول الأمد وذلك لما خص به من ... الذهن ، وذكاء الحس ، واتقاد القرينة ، وما يخرج من العراق ، إلا وهو مستقل بنصيبه ، حاز قصب السبق بين أقرانه . ومثل هذا الوالد والولد خص بالإكرام في الوطن ، وقد تميزا بمزيد التوفيق من الأعيان في الغربية ، والله يحفظ من حفظهما ، ويرعا من رعاهما ، فرعاية أمثالهما ، من آداب الدين المعينة على أمير المسلمين ، وقد قال المحسنون ، فليستوص بمن ظفر بهم منهم خيراً ، وكم دخل قبلهما العراق ، ويدخل بعدهما من تلك البلاد [الناثية] (١)

وما يذكر محاسنها ، ولا يرفع مساوئها . وقد انتهى الشيخ الفقيه من ذلك إلى ما لا يمكن أن يلحق فيه ثناؤه ، فضلاً عن أن يزداد عليه ، والله تعالى يعمرهما أوطانهما ، ويصلح شأنهما ، ويوفق الأمير ناصر المسلمين ، ليتوسل إلى الله تعالى في القيامة بإكرام أهل العلم ، فهي أعظم وسيلة عند رب العالمين ، ونسأل الله أن يخلد ملك الأمير ويؤيده ، تخليداً لا ينقطع ، أبد الدهر ، ولعل القلوب تنفر عن هذا الدعاء ، وتستنكر للملك العباد التأيد والبقاء . وليس كذلك . فإن ملك الدنيا ، إذا تزين بالعدل ، فهو شبكة الآخرة ، فإن السلطان العادل إذا انتقل من الدنيا ، انتقل من سرير إلى سرير أعظم منه ، ومن ملك إلى ملك أجل وأرفع منه . وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً . ومهمى وفي العدل في الرعية ، والنصفة في القضية ، فقد خلد ملكه ، وأيد سلطانه ، وقد وفق له بحمد الله ومنه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبيين وآله أجمعين .

٢

رسالة

كتب بها الوزير الكاتب ابن شرف عن بعض رؤساء الغرب
إلى أمير المسلمين رحمه الله في فتح أقليمش أعادها الله بقدرته

(منقولة عن المخطوط رقم ٨٨٨ ؛ الغزيري المحفوظ بمكتبة الإسكوريال لوحة ١٤٤ - ٨٥ ب)

أطال الله بقاء أمير المسلمين وناصر الدين ، عماد الأئام وعتاد الإسلام ، السعيد الأيام ، الحميد المقام ، كبيرى بالقدر ، وظهيرى على الدهر ، الذى أجله بحقه ، وأقرله بسبقه ، وأدام خلوده مؤيد الإرادة ، مؤيد السعادة ، مجدد النمو والزيادة . والحمد لله الجبار القهار ، الذى شد الأزر ، وأمد النصر ، وأعطى الفلج عن قسر ، ففلق عنه يد الماطل ، وفرق بين الحق والباطل ، والحمد لله الذى أسعد بدولة أمير المسلمين الأيام ، ونصر بسيفه الإسلام ، وغاز به الكفار ، وجعل عليهم الكرة فولوا الأدبار . والله تعالى يشفع سعوده ، ويضمن مزيدة ، وينصر جنوده بمنه .

ولما أن وضعنى أمير المسلمين ، أدام الله نصره ، حيث شاء من آلة التشريف والعز المنيف ، وألحقنى من النعماء سربالها وأحببنى أذيالها ، وصرف

إلى من عدده وبلده ما أولانى نعمه ، ووالانى كرمه ، حفظت تلك الحرمة ،
وشكرت لأستزيد من تلك النعمة ، وأخذت فى الاجتهاد فى الجهاد عالقاً بسببه ،
آخذاً بمذهبه ، وهيات من ماله عندى جيشه الموضوع بيدي ، وأجبت داعى الله
الله بأعظم نية على أكرم طية ، لعزمة بيمناه رأسها ، وعلى تقواه أساسها وأصلها .
وسرت عن حاضرة أغرناطة حرسها الله فى العشر الأواخر من شهر رمضان
المعظم بجيش تصم صواهلها ، وتطم كواهلها ، راياته خافقة ، وعزماته
صادقة ، ونبراته على ألسنة السعد ناطقة . ومرزنا من طاعة أمير المسلمين
وناصر الدين ، على جهات سمعت منادينا ، وتبعت هادينا ، وانقادت ورانا
أعداد وأمداد ، بروزاً من كمون ، ونحركوا عن سكون ، وانحنا بثغر بياسة ،
وقد توافد الجمع ، وملئ البصر والسمع . وأخذت فى الرأى أخمره ، والعزم
أضمره ، والذيل أشمره ، وجددت الاستخارة لله تعالى والاستجارة به ،
وابتهلت إليه داعياً ضارعاً ، وعولت فى جميع أمورى على حكمه خاضعاً متواضعاً .
ولحقنا بطرف بلاد العدو أعادها الله ، فوطئناها من هنالك ، وقد بان عنوان
الأهبة ، والتأم ببيان الرتبة ، وسرنا بجيش يفيض فيضا ، على أرض تغيض غيضاً ،
ولسيول الخيل إغراق ، ولبروق البواتر إشراف ، وقد نطقت ألسنة الأعنة
بقدم قدام ، وأشرقت كواكب الأسنه فى عمام القتام ، وسدت المهموات كل
نهج وسبيل ، واستقلت الرايات عن قبيل فقييل ، وأفضت بنا الخيرة إلى المدينة
الحصينة «أقليش» قاعدة القطر وواسطة الصدر ، ذات العدد العديد ، والسور
المشيد ، فبدر السابق وشفع اللاحق . وغدونا يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة
خلت من شوال ، فدرنا بها دور الحلقة بنقطها ، واكتفناها اكتناف السبحة
بسبطها ، وبهت القوم ، واتسع البحر عن العوم ، وحاروا وحاموا ، حين
راموا ، وجثنا بكل ضرب من الحرب ، نخسف عاليها ، وننسف هاويها ،
ونلزها بالرماح ، ونهزها هز الغصن فى أيدي الرياح ، حتى فض الختام ، وعض
منهم الإبهام ، وعجل الله بالنصر وفتحها بالقسر ، ونفخ فى صورهم ، ودارت
دائرة السوء بدورهم ، ومحقتهم السيوف محق الربا ، وأذرتهم ريح النصر فصاروا
هبا ، وبطحوا بطح زرع الحصيد ، وبسطوا بسط كلب الوصيد ، وأخذتهم
فجأتنا أخدة ، ونبذت بهم سطوتنا نبذة ، فحروا إلى الأذقان ، وسيقوا إلى
الموت والإذعان ، فاكدنا نزل حتى كدنا ذلك المنزل ، وما أنحنا حتى رضخنا ،

ولاولصلنا إليه حتى حصلنا عليه ، فوردنا ما أردنا .

ولما استحر فيهم القتل ، واجتث منهم الأصل ، وضاق بهم المزدحم ، وغص ذلك الملتحم ، قصر الوقت المبغت ، وشغل الأخيذ عن المفلت ، وألهى الكثير عن من قل ، ونام اللحم الغفير عن الفل ، وعادت بقاياهم بقصبة المدينة فولجوها ، كما يلج العصفور ، ويقوم العثور ، قد غلقوا الأبواب ، وأسدلوا الحجاب ، ونحن نصل الحد ، ونوحر لأفل غرب ، ولاملت حرب ، نجتث الحرائم ، ونحتز الغلاصم ، ونخرب الديار وبنائها ، ونهدم البيع وصلبائها ، ونتحافوا بهدايا السبابا ، ونتكاشفوا عن بقايا الحبايا ، ونصرحوا ببنانا صدعته الختوف ، وغلبته السيوف فلاطلاله هدم وعلى رسومه ردم ، حتى علا على الشرك الإيمان ، وبذل الناقوس بالأذان ، وزحزحت الهياكل عن مريضها ، وطرحت النواقيس عن بيعها ، ولاذ بنا من هنالك من المسلمين عائلدين بنا مستسلمين لنا ، فنأشدونا بالملة وحرمتها ، وكشفوا لنا عن الخلعة وسدتها ، وفروا من الحملة إلى الحملة ، فأوينا شاردهم ، وأقمنا قاعدتهم ، فانجابت كربتهم ، وعادت بعد البوار ومجاوبة الكفار بشر دار ملتهم ، وأثار لهم الإسلام على منار الإيمان المجدد ، واشتهر فيهم التوحيد اشتها الحسام المجرد ، وكشف الدين عن مضمرة ، وخطب الحق المبين على منبره ، وأقمنا بقية يومنا على ذلك إلى أن خام النهار ، وحان من الشمس الاصفرار ، فعند ذلك أرحنا البواتر ، وغضبت تلك الدماء الهوامر ، وغداً الخميس في الخميس ، مبنياً على ذلك التأسيس ، يجر أذيال الظفر في العدد الأوفر ، يشفع الأوالي بالتوالي ، ويشترى العوالي بالعوالي ، فأصبحنا في عز وأنس ، وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كأن لم يغنوا بالأمس ، وتضامت تلك العصبة إلى تلك القصبة ، والقوم في السجن والحصر ، والحصن كالواحد في العالم ، والأصبع في الخاتم ، والمحصور مأسور ، وصاحب الحائط مقهور ، ولم نزل نوسعهم قتالا ، ونوسعهم ضرباً ونكالا مسافة اليوم ، إلى أن جزر النهار مده ، وبت الليل جنده ، فعدنا إلى محلتنا ، وقد أمل الكال آينه ، وغلبت الساهر عينه ، وكنت لم آل احتراسا للمحلة بطلائع تحرس جهاتها ، وتدرأ آفاتها ، وفي القدر ما يسبق النذر ، ويفوت الحذر ، لاكن كفاية الله خير من توقينا . وكان الطاغية زاده الله ذلا ، قد حشد أقطاره وحشر أنصاره ، وأبعد في الاستصراخ مضماره ، وعبأ جيشاً قد أسرا إلى ذمر ، وانطوى على

غمر ، فأقدم وصمّم ، وبئس ماتيمم ، فاستسلمت جماعتهم على ابن الطاغية أذفونش ، وشيخهم وزعيم فرسانهم غرسية أزدونش ، وصاحب شوكتهم ألبرهانس ، والقمط بقبدره وقواد بلاد طليطلة وصاحب «قلعة النسور» و«قلعة عبد السلام» ، وكل قاص ودان ، وعاجل ووان ، أخزى الله جميعهم ، وطلّ نجيعهم ، ولا أقام صريعهم .

وهذا دعاء لو سكت كفيته . لأتى سألت الله ربى وقد فعل

وطرقوا من طرف مجتمعهم يريدون الغرة ، ويظهرون صلفاً تحت الغرة ، وتقدموا فتندموا ، ودنوا فهووا ، ووصلوا فحصلوا ، وأرسل الله تعالى من جنده فتى كانوا قد سبوه صغيراً واقتنوه أسيراً ، والله تعالى فيه خبأة أعدها من عنده ، وبعثنا من جنده ، ونزع الفتى إلينا من معسكرهم منبثاً بهم دالا عليهم ، وكاشفاً بهم على النبأ العظيم ، ومطلعاً منهم على المقعد المقيم ، فعند ذلك ثارت ثائرتنا ، ودارت على مركز التوفيق دائرتنا ، وقام القاعد ، وأشار البنان والساعد ، وتضام القريب والمتباعد ، والليل قد هدأ ، والصبح قد بدأ ، والدياجير ممدودة السرايق ، مجموعة الفيالق ، ولاجار إلا الغاسق ، ولا مار إلا السما والطارق ، وكنت قد استنديت القائدين المجريين ، ذوى النصيحة والآراء الصحيحة ، أبا عبد الله محمد بن عائشة ، وأبا محمد عبد الله بن فاطمة وليّ أعزهما الله ، فجالا في مضمار وساع واضطلاع ، بذرع وذراع ، فاجتمعنا على كلمة الله متعاقدين ، وخضعنا إلى حكمه مستسلمين ، فعند ذلك حل يده المحتجبى ، وقيل يا خيل الله اركبى ، فعادت الآراء بالرايات ، وحكمت النهى فى النهايات ، والأسنة تجول فى آمادها ، والنصول تصول فى أغمارها . وثرنا كما ثار الشهم بقرصته ، وطار السهم لفوضته ، وأمرت رجالاً بلزوم المحلة ، فسدوا فرج أبوابها ، ولاذوا بأوتادها وأسبابها ، فداروا بها دور السوار ، وانتظموها انتظام الأسوار ، قد شرعوا الأسنة من أطرافها ، وأجالوا البواتر فى أكنافها ، وأضاقوا الأفنية ، وقاربوا بين الأخبية . وعباناً الجليش يمناه ويسراه ، وصدره ولهاه ، وساقته وأولاه ، ونهضنا بجملتنا من محلتنا ، والصبر يفرغ علينا لامة ، والنصر يبلغ إلينا سلامه ، وتوجهنا إلى الله نفتنى سبيله ، وتبتغى دليله ، فما رفع الفجر من مُجابه ، ولا كشر الصبح عن نابه ، حتى ارتفعت ألوية الدين سامية الأعلام ، واتسعت أفضية المسلمين ماضية الأحكام ، وقبض الليل خمسه ، وفضح الصبح نفسه ، ولسن السنان لمعان ،

ولشباب العراق ريعان ، ولأنفاق الإعلام ضراب أو طعان . وعند ذلك نجم
« العجم » في سواد الليل وإزباد السيل ، يهبون إلى داعيهم ، ويهرعون إلى
ناعيهم ، في دروع كالبورى ، ورماح كالصوارى ، كأنما شجروا بالديد ،
وسجنوا في الحديد ، يزحفون والحين يعجلهم ، ويركبون والخنف يزحلهم ،
يتلمظون تلمظ الحيات ، قد تحالفوا أن لا يتخالفوا ، وتبايعوا أن يتشايعوا ،
ووصلوا إلى مقدمتنا ، وكان هناك القائد « أبو عبد الله محمد بن أبى زنى » مع
جماعة ، فصدّمهم العدو بصدور غيرّة وقلوب أشرة ، فأنحوا بكلكل ورموا
بجندل ، وشدوا فما ردوا ، وصادروا فما صدوا ، وتقهقر القائد « أبو عبد الله »
غير مول ، وتراجع غير مغل إلى أن اشتد منا بطود ، وزحم من جيشنا بعود . فإرعى
الجمعان ، وتداننا العسكران ، وأمسكنا ولا نجبن ، ووقفنا والأناة يمن ، فعند
ذلك ثار النصر فد يمانه ، وأناط الصبر فأشرق مجياه ، ونزلت السكينة ،
وأخلصت القلوب المستكينة ، واهتزت الفيالق مأججة ، وهدرت الشقائق هائجة ،
وجحظت العيون غضباً ، وطلبت البواتر سبياً ، وأذن الحديد بالجلاد ، وبرزت
السيوف عن الأعماق ، وتصاهلت الخيول ، وتصارولت القبول ، فعند ذلك تواقف
القوم كوقفة العير ، بين الورد والصدر ، فبرز فارس من العرب ، فطعن فارساً
منهم فأذراه من مركبه ، ورماه بين يدي موكبه ، فانتهج ، ما أرتج ، وانفتح
المبهم ، وأفصح المعجم ، فعند ذلك اختلطت الخيل ، بل سال السيل ، وأظلم
الليل ، واعتنقت الفرسان ، واندقت الخرصان ، ودجا ليل القتام ، وضاق مجال
الجيش اللهم ، واختلط الحسام بالأجسام ، والأرماع بالأشباح ، ودارت رحي
الحرب تغر بنكاها ، وثارت نائرة الطعن والضرب تفتك بأبطالها ، فلغز الصدور
ابتراد ، ولحزم القلوب انتهاد ، فما وضع النهار ، ولا مسح الغبار ، حتى خضعت
منهم الرقاب ، وقبلت رؤوسهم التراب ، واتصل الهلك بالشرك ، وعادت الضلالة
إلى الملك ، وقلم ظافر الكفر ، وطالت إيمان الإيمان ، وفر الصليب سلباً ،
وعجم عود الإسلام فكان طيباً ، وغمرهم الحيف فهمدوا ، واطفأهم الحين
فخمدوا ، ومات جلهم بل كلهم ، وما نجا إلا أقلهم ، وحانوا فبانوا ،
وقيل كانوا ، وكشفت الهبوات ، وأنجلت تلك الهنات ، عن رسوم جسوم
قد قصفتها البواتر ، ووطئت الحوافر ، خاضعة للحدود ، عائرة بالحدود ، وأخذت
ساقتنا فى الطلب ، وضم السلب إلى السلب . وملكت الأيدي نبيل وائى الكيل ،

خيلاً وبغلاً وسلاحاً ومالاً ، ودروعاً ، أكلتهم جملها ، وأثقلهم جملها ، فساءت
ملبساً وصارت محبساً ، فطرحوها كأنهم منحوها ، وألقوها كأنهم أعطوها ، احتزناها
نهباً ، وأخذناها كأن لم تكن غصباً ، لقطة ولانكر ، وعطية ولغيرهم شكر ، ثم
أمرت بجمع الرووس ، فاحتزت الدانية وزهد في جمع النائية ، فكان مبلغها نيفاً على
ثلاثة آلاف منهم غرسية أرذونش والقومط وقواد بلاد طليطلة ، وأكابر منهم لم
يكمل الآن البحث عنهم ، فكانت كالهضب الجسيم ، بل الطود العظيم ، وأذن عليها
المؤذنون ، يوحدون الله ويكبرون ، فلما جاء نصر الله ، ووهب لنا فتح الله ، شكرنا
مولى النعم ومُسديها ، ومُعِيدِ المُنْمِ ومُهِدِيها ، وصدرت غانماً ، وأبت سالماً ، وبقي
القائدان محاصرين لحصن أقلش آخذين بمخنتهم ، مستولين على رمقهم .

فخاطبت أمير المسلمين أدام الله سروره ، ووصل جهوره ، معلماً بالأمر ،
مهنياً بالنصر ، لنحمد الله عز وجل ، على ما وهب ، ونشكره على ما سنى وسبب ،
والله يتكفل بالمزيد ويشفع القديم بالجديد ، ويمن بالظفر والتأييد ، فهو ولي
الامتنان ، والملي الفضل والإحسان ، لارب غيره ولا معبود سواه .

٣

رسالة

كتب بها قاضى سرقسطة والجمهور فيها
إلى الأمير أبى الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين
حين حاصرها ابن رذمير واستغلبها أعادها الله

(منقولة عن المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال لوحة ١٥٥ - ٦١ ب) .

من ملتزمى طاعة سلطانه ، ومستنجد به على أعداء الله ، ثابت بن عبد الله ،
وجماعة سرقسطة من الحمل فيها من عباد الله .

أطال الله بقاء الأمير الأجل ، الرفيع القدر والحل ، لحرم الإسلام يمنعه ،
ومن كرب عظيم على المسلمين ، يزيحه عنهم ويدفعه .

كتابتنا أيدك الله بتقواه ، ووفك لا شترا دارحسانه ، بمجاهدة عداه ،
يوم الثلاثاء السابع عشر من الشهر المبارك شعبان ، عن حال قد عظم بلاؤها ،
واذهمت ضراؤها ، فنحن في كرب عظيم ، وجهد أليم ، قد حل العزا والخطب ،

وأظلمنا الهلاك والعطب ، فياغوثة ، ثم ياغوثة إلى الله ، دعوة من دعاه ، وأمله
للدفع الضرر ورجاه ، سبحانه المرجو عند الشدائد ، الحميل الكرم والعوايد ،
وبالله ، وباللإسلام ، لقد انتهك حماه ، وفضت عراه ، وبلغ المأمول من بيضته
عده ، ويا حسرتا على حضرة قد أشفت على شفى الهلاك ، طال ما عمرت بالإيمان ،
وازدعت بإقامة الصلوات وتلاوة القرآن ، ترجع مراتع للصليان ، ومشاهد ذميمة
لعبد الأوثان ، ويا ويلاه على مسجد جامعها المكرم ، وقد كان مأنوساً بتلاوة
القرآن المعظم ، تطوّه الكفرة الفساق بدميم أقدامها ، ويؤملون أن يدنسوه يقبيح
آثامها ، ويعمروه بعبادة أصنامها ، ويتخذوه معاطن لخنازيرها ، ومواطن
لخماراتها ومواخيرها ، ثم يا حسرتاه على نسوة مكنونات عذارى ، يعدن في أوثاق
الأسارى ، وعلى رجال أضحو حيارى ، بل هم سكارى ، وما هم بسكارى ،
ولا كن الكرب الذى دهمهم شديد ، والضر الذى مسهم عظيم جهيد ، من حلزهم
على بنيات قد كن من السترنجيان الوجوه ، أن يروا فيهن سوء والمكروه ، وقد كن
لا يبدون للنظار ، فالآن حان أن يبرزن إلى الكفار ، وعلى صبية أطفال قد كانوا
نشثوا في حجور الإيمان ، يصيرون في عبيد الأوثان ، أهل الكفر وأصحاب
الشیطان ، فما ظنك أيها الأمير بمن يلوذ به بعد الله الجمهور ، بأمة هى وقائد
هذه العظام الفادحة ، والنواب الكالحة ، هو المطالب بدمائها ، إذا أسلمها في آخر
ذماها ، وتركها أغراضاً لإعديها ، حين أحجم عن لقاءها ، فالى الله بك المشتكا ،
ثم إلى رسوله المصطفى ، ثم إلى ولى عهده أمير المسلمين المرتضى ، حين ابتعثك
بأجناده ، وأمدك بالجم الغفر من أعداده ، نادياً لك ، إلى مقارعة العدو المحاصر
لها وجهاده ، والذب عن أوليائه المعتصمين بحبل طاعته ، والمتحملين السبعة
الأشهر الشدايد الهائلة في جنب موالاته ومشايعته ، من أمة قد نهكهم ألم الجوع ،
وبلغ المدى بهم من الضر الوجيع ، قد برح بهم الحصار ، وقعدت عن نصرتهم
الأنصار ، فترى الأطفال بل الرجال جوعاً يجرون ، يلوذون برحمة الله
ويستغيثون ، ويتمنون مقدمك بل يتضرعون ، حتى كأنك قلت أخسثوا فيها
ولا تكلمون . وما كان إلا أن وصلت وصل الله برك بتقواه ، على مقربة من هذه
الحضرة ، ونحن نأمل منك بحول الله أسباب النصرة ، بتلك العساكر التى أقر
العيون بهاؤها ، وسر النفوس زهاؤها ، فسرعان ما انتثيت وما انتهيت ،
وارعويت ، وما أدنيت ، خائياً عن اللقاء ، ناكصاً على عقبيك عن الأعداء .

فما أوليتنا غناء، بل زدتنا بلاء وعلى الداء داء، بل أدواء، وتناهت بنا الحال جهداً والتواء، بل أذلت الإسلام والمسلمين، واجترأت فضيحة الدنيا والدين، فيالله ويا للإسلام، لقد اهتضم حرمة وحماه أشد الاهتضام، إذ أحجمت أنصاره عن إعزازه أقبح الإحجام، ونكصت عن لقاء عدوه وهو في فئة قليلة، ولة رذيلة، وطايقة كليلية، يستنصر بالصلبان، والأصنام، وأنتم تستنصرون بشعار الإسلام، وكلمة الله هي العليا ويده الطولا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وإن من وهن الإيمان، وأشد الضعف، الفرار عن الضعف، فكيف عن أقل من النصف، فيا قبح من رضى بالصغار وسما خطة الخسف، فما هذا الحين والفرع، وما هذا الهلع والخزع، بل ما هذا العار والضيع، أتمسبون يا معشر المرابطين، وإخواننا في ذات الله المؤمنين، إن سبق على سرسطة القدر، بما يتوقع منه المكروه والحذر، أنكم تبلغون بعدها ريقاً، وتجدون في سائر بلاد الأندلس عصمها الله، مسلكاً من النجاة أوطريقاً، كلا والله ليسو منكم الكفار عنها جلاء وفراراً، وليخرجتكم منها داراً فداراً، فسر قسطة حرسها الله، هي السد الذي إن فتق، فتقت بعده أسداد، والبلد الذي إن استبيح لأعداء الله، استبيحت له أقطار وبلاد، فالآن أيها الأمير الأجل، هذه أبواب الجنة قد فتحت، وأعلام الفتح قد طلعت، فالمنية ولا الدنيا، والنار ولا العار، فأين النفوس الأبية، وأين الأنفة والحمية، وأين الهمم المرابطية، فلتقدح عن زنادها بانتضاء حدها، وامتنضاء جدها واجتهادها، وملاقة أعداء الله وجهادها، فإن حزب الله هم الغالبون، وقد ضمن تعالى لمن يجاهد في سبيله أن ينصره، ولمن حامى عن دينه أن يؤيده ويظهره، فما هذا أيها الأمير الأجل، ألا ترغب في رضوانه، واشترا جنانه، بمقارعة حزب شيطانه، والدفاع عن أهل إيمانه، فاستعن بالله على عدوه وحربه، واعمد ببصيرة في ذات الله إلى إخوان الشيطان وحزبه، فإنهم أغراض للمنايا والختوف، ونهر للرماح والسيوف، ولا ترض بخطة العار، وسوء الذكر والصيت في جميع الأمصار. ولأنك كمن قيل فيه :

يجمع الجيش ذا الألوف ويغزوا ولا يرزأ من العدو فتبيلا

ولن يسعلك عند الله، ولا عند مؤمن، عذر في التأخر والارعوا، عن المناجزة الكفار والأعداء. وكتابتنا هذا أيها الأمير الأجل، اعتذار تقوم لنا به الحجة في جميع البلاد، وعند سائر العباد، في إسلامكم إيانا، إلى أهل الكفر والإلحاد،

ونحن مؤمنون ، بل موقنون لإجابتك إلى نصرتنا ، وإعدادك إلى الدفاع عن
حضرتنا ، وأنت لا تتأخر عن تلبية نداءنا ، ودعائنا إلى استنقاذنا من أيدي أعدائنا ،
فدفاعك إنما هو في ذات الله ، وعن كلمه ، ومجامة عن الإسلام وحزبه ،
فذلك الفخر الأنبل لك في الأخرى والدنيا ، ومورث لك عند الله المنزلة العليا ،
فكم تحيي من أمم ، وتجلى من كرب وغم ، وإن تكون منك الأخرى ، وهي
الأبعد عن مائة دينك ، وصحة يقينك ، فاقبل بعسكرك على مقربة من سرقسطة ،
عصمها الله ، ليخرج الجميع عنها ، ويرأ إلى العدو وقمة الله منها ، ولاتأخر
كيفما كان طرفه عين ، فالأمر أضيّق ، والحال أزهق ، فعد بنا عن المثل
والتسويق ، قبل وقوع المكروه والخوف ، والا فأنتم المطالبون عند الله بدمائنا
وأموالنا ، والمستولون عن صيبتنا وأطفالنا ، لإحجامكم عن أعدائنا ، وتبسطكم
عن إجابة نداءنا ، وهذه حال نعيذك أيها الأمير عنها ، فإنها تحملك من العار
مالم تحمله أحداً ، وتورثك وجميع المرابطين الخزي أبداً ، فالله الله أنقوه ، وأيدوا
دينه وانصروه ، فقد تعين عليكم جهاد الكفار ، والذب عن الحرم والديار ،
قال الله ، يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدا فيكم غاظة
الآية ، ومهي تأخرتم عن نصرتنا ، فالله ولي الثار لنا منكم ، ورب الانتقام ،
وقد بريتم بإسلامنا للأعداء ، من نصر الإسلام ، وعند الله لنا لطف خفي ،
ومن رحمته ينزل الصنع الخفي ، ويغنينا الله عنكم ، وهو الحميد الغني . ومن متحملي
كتابنا هذا ، وهم ثقاتنا تقف من كنه حالنا على ما لم يتضمنه الخطاب ، ولاستوعبه
الإطنا ب بمنه ، وله أتم الطول في الاصغاء إليهم واقتضاء مآلديهم ، ان شاء الله
تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

ع

رسالة

كتب بها أمير المسلمين إلى الأمير الأجل

أبي محمد بن أبي بكر بهزيمة « القلعة » رحمهما الله

(منقولة عن المخطوط ٤٨٨ إسكوريال السابق ذكره لوحة ٧١ ب - ١٧٢) .

كتابنا وفق الله رأيك وحسن هديك ، ولا آمال عن الهدى والرشد سعيك .
من حضرة مراکش حرسها الله في السابع من شعبان المكرم سنة ثلث وعشرين

وخمس مائة . وقبله وافى كتابك تذكر فيه المثيلة التي كانت للعدو - دمره الله - عليك في اليوم الذي واجهتموه فيه ، بعد ان كان لكم صدره ، وأتيح لكم نصره ، فأواخر الأمور أبداً أوكد وأهم ، والعواقب هي التي تحمد أو تذم ، وإذا حسنت خواتم الأعمال فالصنع أبها وأتم ، وإن لسان العذر لتلك الحال لقصير ، وإن الله على ذلك المشهد المضيق لمطلع بصير : توافقت مع عدوكم ، وأنتم أوفر منه عدة وأكثر جمعاً ، وأحرى أن تكونوا أشد عن حريمكم منعاً ، وأقوى دونه دفعاً ، فثبت وزلتكم ، وجدّ ونكلتم ، وشد عقد عزيمة وحلتكم ، وكنتم في تلك الوقعة قرّة عين الحاسد ، وشماتة العدو الراصد ، وقد كانت نصبة توليكم بين يديه بشيعة هائلة ، ودعامتكم لولا انثاؤه عنكم مائلة ، فشغله عنكم من غررتموه من الرجل الذي أسلمتموه للقتل ، وفررتكم ، ونصبتموهم دريئة للرمح ثم طرتم ، ولولا مكان من أوردتموه من المسلمين ولم تصدروه ، وخذلتوه من المهادين ولم تنصروه ، لا تكشف دون ذلك الرماح جنتكم ووقاؤكم ، وأصيبت بها ظهوركم وأقفاؤكم ، عاقبكم الله بما أنتم أهله ، فأنتم أشجع الناس أقفاء وظهوراً ، وأجبنهم وجوهاً ونحوراً ، ليس منكم من تدفع به كراهية ، ولا عندكم في الرشد روية ولا بديهية ، فتى وأى وقت تفلحون ، ولأى شيء بعد ذلك تصلحون ؟ ونحمد الله عز وجهه كثيراً ، فقد دفع بفضله الأهم الأكبر ، وأجرى بأكثر السلامة القدر . فاكشفوا بعد أغطية أبصاركم ، وقصروا حبل اغتراركم ، وألبسوا منه جنة حذاركم ، واعلموا أن وراء مجازاتنا إياكم جزاء توفونه ، ويوماً عصيباً تلقونه ، فكونوا بعد هذه الهناة الداعي الرشد بين مطيع وسامع ، ومن كلمة الاتفاق والتآلف على أمر جامع ، فانكم لو خلصت غيوبكم ، وحسنت سريرتكم ، واطمأنت على التقوى قلوبكم ، لظهر أمركم وعلا جدكم ، ولما ذهب ريحكم ولا فل حدكم ، فتوخوا في سبيل الله وطاعته أخلص النيات ، وأصدق العزمات ، واثبتوا أحسن الثبات ، وكونوا من الحذر والتهوى على مثل ليلة الليات . وقد ذكر أن للعدو دمره الله مدداً يأتيه من خلفه ، والله يقطع به ، فلنضمهوا على مسالكه عيوناً تكلاً ، ولتكن آذانكم مصيخة لما يطرأ ، فإن كان له مدد كما ذكر ، قطعتم به السبيل دون لحاقه ، وأقمتم الحزم على ساقه ، والله تعالى يفتح لكم فيهم الأبواب ، ويأخذ بأزمتكم إلى الصواب ، أنه الحميد المجيد ، لا إله غيره .

رسالة

وله (أى لأمير المسلمين) إلى الفقيه القاضى وسائر الفقهاء والوزراء والأعيان
والكافة ببليسية عند نزول ابن رذمير عليها
(منقوله عن المخطوط رقم ٤٨٨ إسكوريال السابق ذكره لوحة ٧٢ - ١٧٣) .

كتابنا أبقاكم الله ، وأمدكم بتقواه ، ووفقكم لما يرضاه ، ولا أخلاكم
من لطايف رضاه ، وعوارف نعمه ، من حضرة مراکش حرسها الله ، لسبع
خلون من شعبان المكرم سنة ثلث وعشرين وخمس مائة . وقد وصل إلينا كتاب
الفقيه الخطيب القاضى أبى الحسن منكم أعزه الله بتقواه ، مضمنا من ذكر ما بلغه
الوجل من نفوسكم ، ما لا تزال نتوخا بحسبه ان شاء الله ما بقى بترفيهم وتأييسكم ،
فلا يذهب بكم الجزع لما كان من انكشاف المسلمين هناك عن مراكزهم ،
وتصيرهم ما صبروه من محلتهم ، فرصة لنا هزتهم ، وأنهمهم بغير سبب سوى
تخاذلهم المعتاد ، مع ما كانوا عليه من تكاثر الأعداد ، وتظاهر الأجناد ، فحسبناهم
جميعاً وقلوبهم شتى ، ولشد ما وعظناهم فى ذلك وذكرناهم ، فأنجعت فيهم الموعظة ،
ولا نفعهم الذكرى . وبعد فإنا لاندعكم بحول الله لضبياع ، ولأننا لوكم إلا اهتبالا
يذهب بمشيئة الله ما نالكم من توقع وارتياح ، فطيبوا أنفساً ، واطمئنوا قلوباً ،
والله يجعل من دون ما توقعتموه فتحاً قريباً ، إنه هو الفتح العليم المنان الكريم ،
لا رب غيره . واعلموا أنه قد نفذت الآن كتبنا ثانية ، إلى ولاية أعمالنا كالأهم الله
وإياها ، نأمرهم بتسريب الأقوات ، وتعجيل إنفاذها نحوكم من كل الجهات ،
وسيرد عليكم منها الكثير الموفور لأقرب الأوقات ، ثم لاتزالون من بالننا بأحق
مكان من المراعاة والحاماة ، ان شاء الله تعالى ، وهو سبحانه يوفقنا لصالح
نتوخاه من لم شعثكم ، وسد خللكم ، وإذهاب مكثر ثكم ، وحسم عللكم ،
ويقضى بما يضم نشرهم ، ويشد أزرهم ، ويصلح أمرهم ، ويسد ثغرهم ، ويحفظ
الألفة عليهم ، ويربى النعمة لديهم برحمته ، وتبلغوا أبقاكم الله سلاماً كثيراً أثيراً
خطيراً موفوراً .

رسالة

وله (أى لأئير المسلمين) إلى المذكورين مجاباً لهم بهزيمة ابن رذير لياهم
فى « القلاعة »

(منقولة عن المخطوط رقم ٤٨٨ إسكوريال السابق ذكره لوحة ٧٣ ب)

كتابنا أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه ، وكنفكم بعصمته وجعلكم فى حماه ، وأسبغ
عليكم عوارفه ونعماءه ، من حصرة مراكش حرسها الله فى الحادى عشر من شعبان
المكرم من سنة ثلث وعشرين وخمس مائة ، غب ما وافانا كتابكم الأثير مضمناً وصف
اليوم الذى جرت به خزيه المقادير ، فاستعرضناه وتقرر لدينا جميع ما حواه ، وفى علمه
سبحانه موقع ذلك لدينا وعزازة شأنه علينا ، لكن لا مخرج عن القضاء وحكمه ،
ولا محيد عن القدر وحتمه ، ولن يرد حول محتال ما سبق فى علمه ، وما ألونا ،
وهو عز وجهه أعدل الشاهدين ، جددا وعزماً وكدحا لإعلاء كلمة الإسلام ،
وحزماً ببذل الأموال وتخير الرجال ، واعتيام الأسلحة والأفراس ، والجمع
بين الإيحاء والإيناس ، فى الوعد والوعيد والتخصيص والتأكيد ، وعرض الآراء
المتخيل فيها السداد ، وبلوغ مدة جهاد فى كل نحو والاجتهاد ، لو كان العون موجوداً ،
ولم يكن التعذير . . . حاضراً عتيداً ، والله يخزى كل خاين ماين بأسخطه
تعالى دايين جزاه ، ويرد به برد مضمرة ورداه ، ويوشك مقارضته وإرداه بحوله
وطوله ، وبالله القسم الأعظم لو أمكننا ان نكون لديكم حاضرين ، لأسرعنا بذلك
مبادرين ، ولما ثنانا عن حمايتكم بأنفسنا ثان ، ولا قعد بنا عن معالجة نصركم
تراخ ولا توان . وقد جددنا الآن أحث نظر ، ونحن نردفه بما يكون عليكم ألم
وارد ، وأسرع منتظر ، فلتهدأ ضلوعكم ويسكن مروعكم ، فإلنا والله يشهد هم
سوى الديداد عنكم والدفاع ، والانفراد لذلك والاستجماع ، والاجتهاد ، والتوفر
عليه بأتم الاضطلاع ، والله عز وجل المعين المنجد ، فلم يزل يعضد على ما يرضيه
ويؤيد ، لا إله إلا هو .

رساله

وجهها أمير المسلمين على بن يونس بتقريع قاداته وجنده .
عقب هزيمتهم أمام ابن رذمبر (ألفونسو المحارب) في أراضى بلنسية .
(منقولة عن المخطوط رقم ٥٣٨ الفيزري المحفوظ بمكتبة الإسكوريال لوحة ١١٣-١١٣ب) .

« من أمير المسلمين وناصر الدين ، أما بعد ،

يا فرقة خبثت سرايرها ، وانتكثت مرايرها ، وطايفة انتفخ سحرها ،
وغاض على حين مرة بجرها ، فقد آن للنعم أن تفارقكم ، وللأقدام أن تطأ مفارقكم ،
حين ركبتموها جلواء عارية ، وأصبحتم في أذراع عارها أمثالا سواسية ،
واختلط المرعى منكم بالهمل ، فما يتبين الانقص من الأكمل ، فطأطأتم لها رموس
عشايركم ، وقضيتم بالفسولة على سايركم . لاجرم أن قد صرتم سمر الندى ،
والأحاديث الملعنة بالغداة والعشى ، بما خامركم من الحين والخور ، واستهواكم
من لقاء عدوكم بالجانب الأزور ، لاتواجهوهم طرفة عين ، ولاتعاطونهم
حمة حين ، بل تعطونهم الظهر هنيأ مريا ، وتتخذونهم ورائكم ظهريا ، والرماح
نحوكم لم تشرع ، والخيول لم تسرع ، والنفوس في حياض المنية لم تكسر ، فإنكم ثلة
ذبابهم وفريسة أنيابهم ، قد نعموا في بوسكم ، وناهضوكم بلبوسكم ، وحاربوكم عاما
على إثرعام ، حتى ألزقوكم ، وتركوكم أسلح من حبارى ، وأشرد من نعام .

فالآن حين ملائم أيديهم متاعا ، وواديهم سلاحا وكراعا ، قد غزوكم
في عقركم ، وأذاقوكم وبال أمركم ، فلذتم بالحدران ، وبوئتم بالندامة والخسران .
بابغايا بنى الأصفر ، وبجايا ذوات الدل والخفر ، أكرهتم زحافهم ، وكنتم -
علم الله - أضعافهم ؟ أنى لكم بالمعذرة ، وأين ؟ وقد فرض الله الواحد منكم
بالإثنين ، فقال : « إن تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين » . هذا ، وكلمتكم
العليى ، وحلو بكنكم الحياة الدينى ، ماشئتم من صارم ، وطرف ونحس وركايب
وسوام ، ونضايد وخيام .

فيا أسفا للحق يدمغه الباطل ، والحالى يهره العاقل . لا بالحنيفية تحزتم ،
ولا إلى الحفيظة والإنابة تحيزتم . ليت شعرى بماذا تقلدتموها هندية واعقلتموها
سمهرية خطية ، وركبتموها جرذا سوابق ، وملكتموها مغارب ومشارق ؟

ثاوين في غير عدادكم ، منتزين على أضدادكم ، يؤدون الإتاوة إليكم حين أشرفتموهم بالهوان ، وأنتم فيهم غرباء الوجه واليد واللسان ، وصبروكم عبيد العصي ، ولستم بالأكثرين منهم حصي ، بل شرذمة قليل نفعها ، كثير نفعها . فيا عجباً لذهولكم ، شبانكم وكهولكم ، تأكلون تمرها ، ولا تصلون جرها ، وتذهبون بحلوائها . ولا تصبرون على لأوائها ؟ أي بني اللثيمة ، وأعيار الهزيمة ، إلى م يريعيكم الناقد ، ويردكم الفارس الواحد :

إلى م يريعيكم الناقد	ويردكم الفارس الواحد
ألا هل أتاها على نأبها	بما فضحت قومها غامد
تمنيتم مائتي فارس	فردكم فارس واحد
فليت لكم بارتباط الخيول	ضئناً لها حالب قاعد

ومن لرعاة الإبل بالجد المقبل ؟ لقدماً ما أذهبتم التالد والطارف ، وعجباً عجباً من جدامى المطارف ، وأنتم قد قدحتم في ملكنا ، وأذنتم بانتشار سلكنا ، فلولا من لدينا من ذويكم ، وضراعتهم إلينا فيكم ، لألقناكم عجلابص حرايكم ، وطهرنا الجزيرة من رخصايكم ، بعد أن نوسعكم عقابا ، ونخذ أن لاتلوا على وجه نقابا . فاللوم تحت عيائكم ، والوهن والفشل ، طى عزائكم ، لاكن ما جبلنا عليه من الأناة ، وتوخيناها قدما من إيقاظ ذوى الملكات ، يكفنا عن استيصالكم ، ويحملنا على شحذ نصالكم .

فاستنسروا يابغات الهيجا ، واستئيئسوا ، بعد الرجا ، واحذروا حلما أغضبتموه ، وواديا من الصبر أنضبتموه ، وتوقوا صدرأ أخرجتموه ، وليثاً من أجمته أخرجتموه ، وأيم الله نقسم إنذارا بكم ، وإعذارا لكم ، لنوردن الفار منكم من الزحف ، ماعافه من موارد الحتف ، ولنتجاوزن السوط إلى السيف ، ولنبدلن المعدلة فيكم بالحييف ، فليعلم المقدم المحجم منكم عن الإقدام ، أنه سلم من الحمام إلى الحمام ، وتخطى مصرع الأسد الباسل إلى جذع مائل ، وشهادة الأبرار إلى مشهد الذل والصغار . كما أن من أصيب منكم في حرب ، أو أبلى بطعن أو ضرب ، خلفناه في الأهل والولد ، وبغناه الأثرة والكرامة يدا بيد ، فاختاروا لأنفسكم وأعقابكم . وانصوا ثوب الخزي عن رقابكم ، والسلام على من حمى الإسلام .

كمل ماكتب به الفقيه الأدب ، الكاتب البليغ الأريب ذو الوزارتين أبو عبد الله بن أبي الخصال عن أمير المسلمين .

رسالة

لأبي عبد الله بن أبي الخصال عن بعض المرابطين
إلى أمير المسلمين علي بن يوسف
تعلق بشئون حصن أرلبة (أورينجا)

(منقولة عن المخطوط رقم ٥١٩ الفزيرى بمكتبة الإسكوريال لوحة ١٠٤ ب و ١١٠٥).

« أطل الله بقاء أمير المسلمين وناصر الدين ، مؤيدا بجنوده ، معاناً بتوفيقه
وتسديده ، ولا زال عدله ينعش الأمم ، وسعده ينهض المهم . كتبت أدام الله
تأييده ، من قرطبة حرسها الله ، لست بقين من جمادى الآخرة ، وقبل ثلاث وأفيها
من الوجهة التي صحبني ومن معي فيها بمن أمره ، واكتفتنا عزة نصره ، بعد أن
أودعنا حصن أرلبة حماه الله ، قوتاً موفوراً ، ومرفقاً كثيراً ، وحطت عندهم الأسعار
وعم الاستبشار ، وتسلم أبو الحيار مسعود الدليل ، سلمه الله ، الحصن ، واحتوى
عليه ، وصار أمره إليه ، ووافينا فلاناً أبقاه الله ، قد استاق غنيمة ظاهرة ،
وجملة من البقر وافرة ، وقتل من العدو ، قصمه الله عدداً ، وقضى وطراً ،
وشنى وجداً ، فتيمن الناس هناك ، بولاية الأمير أبي يحيى أعزه الله ، وبقيادة هذا
القائد ، الذي اقترن الفتح بمآتاه ، وكانت [عند] مقدمنا هذا الحصن خيل
طليطلة بددها الله ، مجتمعة ، فوقدهم الرغب وشملهم الصغار ، والرغم ، وتحققنا
هناك أن مواشى تلك الجبال ، قد أخذت في الإ . . . بنساط والإسهال ، والدنو
من الوادى في طلب الخصب ، وتحوله من البرد إلى الدفء ، والله يجعلها للمسلمين
طعمة ، ويزيدهم بها قوة بعزته ، وأنباء العدو ، قصمه الله ، الآن خامدة ،
وعزائمهم هامة ، وأيديهم جامدة ، استأصل الله ، بحد أمير المسلمين نعمتهم ،
وقطف قسمهم ، وأداخ بلادهم ، وانتسف طارفهم وتلادهم ، وألفت الحضرة
حرسها الله ، وقد أخذ السرور من أهلها كل مأخذ ، وسرى فيهم كل مسرى
ومنفذ ، بولاية الأمير أبي يحيى أعزه الله ، وكثر الدعاء لأمر المسلمين أيده الله ،
بما جدد لديهم من حسن نظر ، وخلع عليهم من جمال سيرة ، ولقيته فلقيت كل
ما أبهج ، وكان وفقاً لما انتشر ، ومشاكلاً لما استذاع وظهر ، تتم الله النعمة ،
وظاهر عليه الكفاية والعصمة ، ووافتنى كتبه الكرام بما بلغ الأمل ، وحسم العلل ، وأنا
ممثل في كل معنى ما يحره مجتهد ، فيما يقيم ذلك الثغر ويسده ، إن شاء الله عز وجل » .

رسالة

موجهة من أمير المسلمين تاشفين بن علي بن يوسف
إلى الفقهاء والوزراء والأخيار والكافة ببليسية

(منقولة عن المخطوط رقم ٥٣٨ إسكوريال السابق ذكره لوحة ١١١ - ١٢٠ ب) .

« بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً . من أمير
المسلمين وناصر الدين تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين .

إلى وليه في الله تعالى ، الأعز الأكرم الأحظي في ذات الله لديه ، أبي زكريا
يحيى بن علي ، والفقهاء القاضى أبي محمد بن جحاف ، وسائر الفقهاء والوزراء
والأخيار والصلحاء ، والكافة ببليسية ، حرسها الله ، وأدام كرامتهم بتقواه .

سلام مبرور كريم ، مردد عميم على جميعكم ، ورحمت الله وبركاته ، وبعد .
فإن كتابنا إليكم ، كتبكم الله من أثر الحق واتبع سننه ، وادّرع الحزم
ولبس جنته ، وسمع القول واتبع أحسنه ، وحافظ على كتاب الله الذى يسره
للذكرى وبينه ، وجعلنا وإياكم من جملة بتقواه وزينه ، من مناخنا بكرنطة ،
في العشر الأول من جمادى الأولى سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة ، وبحمد الله من
صحيفتنا هذه صدرها الأكرم ، وكل قول فبعده يترتب وينظم . وقد جاء
في الآثار : كل كلام لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أجزم .

وبعد أن نستوفى واجب الحمد والشكر ، ونذكر نعمه السابعة ، علينا
أجل الذكر ، فنسأل الله توفيقاً قابلاً إلى الرشيد ، وقوة على طاعته نحمل بها من
تلمنا رعايته ، على المنهج الأفضل والسنن الأحمد ، ونستعيذه من قلب لا يخشع
ودعاء لا يسمع ، وموعظة لا تنفع ، وسجدة لا تطاع ، وهوأ يتبع ، ونصلى على
محمد نبيه ورسوله الذى طهره تطهيراً ، وأرسله رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً ،
وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فبلغ رسالة ربه وهداه ، وصبر على مشقة
البلاغ وأذاه ، ولم يخش أحداً إلا الله الذى رجاه ، إلى أن بلغ الكتاب أجله والدين
مداه ، وانتهى ملك أمته إلى ما كان الله له زواه ، صلى الله عليه وعلى صحبه الذين
ذبو ا عن هذا الدين وحوا حماه ، ووالوا من والاه ، وعادوا من عاداه .

ولما كان ، أعزكم الله ، الدين ينعت بالنصيحة لله ولرسوله وللمسلمين ،
والذكرى تنفع المؤمنين ، وجب أن نتخذ لكم من الموعظة به أنفسها الذى مرها
فى العاقبة حلو ، وأخفض مراتبها فى الله علو ، فاعلموا ، أعلمكم الله ،
ولا أقامكم مقاما يردىكم ، أن أقرب الناس إلى الله أحناهم على عباده ، وأحضرهم
للنصيحة لهم بمبلغ جده واجتهاده ، وأن أولى الناس بنا من طاب خبره ، وكرم
أثره ، وحسن مورده فى الأمور ومصدره ، وكذلك « العامل » منكم و« القاضى »
وفقهما الله ، إنما أفعدا بذلك المكان لخير يتوليانه وشر يردعانه ، وعدل
يقضيانه ، فليقدما أولا تسديد أمرهما ، ولينظرا فى إصلاح أنفسهما ، قبل إصلاح
غيرهما ، فن لا يصلح أمر نفسه لا يصلح سواه ، ومن لا سدد أموره
لا يسدد أمر من تولاه . وعليكم أجمعين بتقوى الله فى السر والإعلان ،
والتمسك بعصم الإيمان ، والاستعانة على حوايجكم بالكتمان ، والتزهد عن
فلتات اليد واللسان . ولم تخل أمة من جاهل وعليم ، ومعوج وقويم ، فليردع
الجاهل العليم ، ولينبه المعوج القويم ، ولن يزال الناس بخير ما لم يتساواوا ، فإذا
تساواوا هلكوا .

وأهم أموركم الصلاة ، التى هى سبيل النجاة لسالكها ، ولاحظ فى الإسلام
لتاركها ، فالزموها فى جماعاتها ، ولا تخلوا بشيء من مسنوناتها ، ومفروضاتها ،
وأخلصوا فيها لله العلى الأكبر ، واعلموا أنها كما قال سبحانه « إن الصلاة تنهى
عن الفحشاء والمنكر » .

وعليكم وفقكم الله بإصلاح ذات البين ، وإعتماد الحق المخلص فى الدارين ،
وتخير الرفقا وانتخاب الجلوس ، فإن مثل الخليس كمثل القين ، والصاحب الصالح
قوة فى الدين ، وقرّة فى العين .

وانتدبوا واندبوا من قبلكم للجهاد ، الذى هو من قواعد الإيمان والرشاد ،
أمر الرحمن ، وفرض على الكفاية والأعيان ، واتصال الهدو بفضل الله وللأمان .
وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثل المجاهد فى سبيل
الله كمثل القائم الصائم الذى لا يفتر عن صلاة ولا صيام » .

والذى نأخذ به عهد الله على العامل منكم الرفق بالرقية ، والحكم بالتسوية ،
وإجراء أمورها على السبيل الحميدة المرضية ، فهى العنصر الذى منه الاستمداد ، والأصل

الذى بثبوتہ تعمر البلاد، وتتوفر الأجناد، ويتمكن الرباط في سبيل الله والجهاد ،
وليعلم أن العدل يقسطها ، والجور يسخطها ، وقلة المساواة تشتتها وتقنطها .
ولاسبيل أن يستعمل عليها إلا من يستشق جانبہ وتحسن الأحداثة عنه . وأن ظهر
أحد منهم بنظر جميل فيه ، وكان في نفسه ما يخفيه ، فالبدار البدار إلى عزله
وعقابه والتشديد فيما تأمر به .

واعلموا، رحمكم الله، أن مدار الفتيا ومجرى الأحكام والشورى، في الحضر
والبدا، على ما اتفق عليه السلف الصالح، رحمهم الله، من الاقتصار على مذهب
إمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس، رضي الله عنه، فلا عدول لقاض
ولامت عن مذهبه، ولا يأخذ في تحليل ولا تحريم إلا به، ومن حاد عن رأيه
بفتواه، ومال من الأئمة إلى سواه، فقد ركب رأسه واتبع هواه، ومتى عثرتم
على كتاب بدعة، أو صاحب بدعة فإياكم وإياه، وخاصة وفقكم الله، كتب
أبي حامد الغزالي، فليتبّع أثرها، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها، ويبحث
عليها، وتغلظ الإيمان من يثم بكتماها .

والحمر، نزهكم الله عن خبايا الأمور، التي هي جماع الإثم والفجور،
والباب المفتى إلى سواكن الفسق والشور، فاجتهدوا في شأنها، وأوعزوا في جميع
جهاتكم بإقامة دنائها، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« لعن الله الحمر وعاصرها وحاملها والمحمولة إليه » .

وكذلك نوكد العهد فيما نوصى به دايا، مما أوجبه الله تعالى في حقوق المسلمين
من الأعشار والزكوات، والأموال المفروضة للأرزاق المسماة، فليؤخذ ما فرض
الله منها في نصابها المعلوم، وعلى سنة نبيه عليه أفضل الصلاة والتسليم .
وكذلك نوكد عليكم أتم تأكيد أمر أهل الذمة ألا يتصرف أحد منهم في أمور
المسلمين، لأنه من فساد الدين .

والسلام الأبر الأكرم الأخطر على جميعكم، ورحمة الله وبركاته، وعلى من
هناك من المسلمين .

١

صيفة التوحيد

التي وضعها المهدي ابن تومرت لأتباعه

توحيد البازي سبحانه

(منقولة عن كتاب «أعز ما يطلب» ص ٢٤٠ و ٢٤١)

لا إله إلا الذي دلت عليه الموجودات ، وشهدت عليه المخلوقات ، بأنه
جل وعلا ، وجب عليه الوجود على الإطلاق ، من غير تقييد ولا تخصيص ، بزمان
ولا مكان ، ولا جهة ولا حد ، ولا جنس ولا صورة ولا شكل ، ولا مقدار ولا هيئة
ولا حال ، أول لا يتقيد بالقبلية ، آخر لا يتقيد بالبعدية ، أحد لا يتقيد بالأينية ،
صمد لا يتقيد بالكيفية ، عزيز لا يتقيد بالمثلية ، لاتحده الأذهان ، ولا تصوره
الأوهام ، ولا تلحقه الأفكار ، ولا تنكفه العقول ، لا يتصف بالتحيز والانتقال ،
ولا يتصف بالتغير والزوال ، ولا يتصف بالجهل والاضطرار ، ولا يتصف بالعجز
والافتقار ، له العظمة والحلال ، وله العزة والكمال ، وله العلم والاختيار ، وله
الملك والاقتدار ، وله الحياة والبقاء ، وله الأسماء الحسنى ، واحد في أزليته ،
ليس معه شيء غيره ولا موجود سواه ، لا أرض ولا سماء ولا ماء ولا هواء ،
ولا خلاء ولا ملاء ، ولا نور ولا ظلام ، ولا ليل ولا نهار ، ولا أنيس ولا حسيس ،
ولا رز ولا هميس ، إلا الواحد القهار ، انفرد في الأزل بالوحدانية ، والملك
والألوهية ، ليس معه مدبر في الخلق ، ولا شريك في الملك ، له الحكم والقضاء ،
وله الحمد والثناء ، ولا دافع لما قضى ، ولا مانع لما أعطى ، يفعل في ملكه
ما يريد ، ويحكم في خلقه ما يشاء ، لا يرجو ثواباً ، ولا يخاف عقاباً ، ليس فوقه
أمر قاهر ، ولا مانع زاجر ، ليس عليه حق ، ولا عليه حكم ، فكل منة منه فضل ،
وكل نعمة منه عدل ، ولا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون .

رسالة الخليفة عبد المؤمن بن علي

(منقولة عن مخطوط كتاب نظم الجمان لابن القطان لوحة ٥٦ ب - ١٦٥)

وأمره رضى الله تعالى عنه ، بالأمر بالمعروف ، ونهيه عن المنكر
وعدله ونهجه مناهج الحق وفضله »

(له رسالة جامعة لأنواع من الأوامر ، خلدت في مآثره السنية ، ووصاياها
الحكيمة. وهى من إنشاء الكاتب أبى جعفر بن عطية ، وهى بعد البسملة والصلاة) .
من أمير المؤمنين أيدى الله تعالى بنصره ، وأمدّه بمعاونته ، إلى جميع الطلبة
الذين بالاندلس ، ومن صحبهم من المشيخة ، والأعيان والكافة ، وفقهم الله تعالى ،
واستعملهم بما يرضاه .

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد ، فالحمد لله ، وهو اللطيف الكريم ، الرؤوف الرحيم ، الذى بعدله
قامت السموات والأرض وبه تقوم ، وعلى محمد نبيه المصطفى الصلاة المباركة
والتسليم ، ولأئمة المخلصين فى عليين كتابها المرقوم ، والرضا عن الإمام المعصوم ،
المهدى المعلوم ، الذى بعثه رحمة للمؤمنين ، ينيلهم به الروح والنعيم ، ويريمهم
رحيقها الخنوم .

وكتابتنا هذا - كتب الله تعالى لكم كل رافة ورحمة ، وسوغكم من اليمن والأمن
أنعم نعمة ، وجعلنا وإياكم فيمن قدم لدار قراره ونعيمه - من الحضرة العلية
بتينمّلل حرسها الله تعالى فى سادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين
 وخمسة ، وقد وصلناها - والحمد لله - وجناح الرحمة منصوض ، وطرف المكاره
مغضوض ، وفيض العدل والبذل منتشر مستفيض ، وشأن الظلم - بإذن الله
تعالى - مكفوف مقبوض ، والحق أبلغ لا كناية ولا تعريض .

وكان مقصودنا من هذه الوجهة المباركة زيارة قبر المكرم المهدى ، رضى الله
تعالى عنه ، لتجديد عهد به تقادم ، وشفاء شوق إليه لزم ولازم ، والنظر فى بناء
مسجده المكرم تتمعاً ببركاته ، ورجاء فى تضاعف الأمر بكل لبنة من لبناته ،
وحرصاً على أن يتوافر به ، حظ التوفيق وقسمه ، ويعلو فى الملأ الأعلى ذكره

ورسمه ، ورغبة في رفع بيت من أفضل البيوت ، التي أمر الله عز وجل أن ترفع ؛
ويذكر فيها اسمه ، ولتتبع الجوارح ، بمشاهدة هذه المشاهد المنعمة ، والمواسم
المعظمة ، وتزود بالتطوف على معاهد ما عهدته من العوارف المنعمة ، كل
ذلك غرضاً في ذات الله تعالى غرضه ، وأمر يستحب المرء إليه طلب ذلك
الخير ويستنبهه .

وقد تم - بحمد الله تعالى - هذا الوطر ، واقتضى الإياب إلى النظر في
المصالح ، والرأى الجميل النظر ، وتفجرت - بحمد الله تعالى - منابع الخير
وفاضت ، وعادت روابض الأمر إلى أشرف حالاته وآصت ، وانبعثت موارد
البركات بعد ما غارت في غير هذا الزمن المذكور وفاضت ، ونسأل الله تعالى عوناً
على شكر هذه النعم التي غمت ملابسها ، ووعت الأفتدة نفائسها ، وخاب عن
رحماها خاسر الكامة وبائسها .

وان الله تعالى ، قد قضى بأن يكون شرف صاحبه به وامتساكه ، وبين
العدل والجور حياة العالم وهلاكه ، فالسعيد من لقي ربه مبرأً من اتباع الهوى سليماً ،
والشقي من أتى مليماً ، باكتساب الكبائر ملوماً ، « ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه
على نفسه ، وكان الله عليماً حكيماً » ، والله سبحانه يهب الرحمة للمسترحمين ، ويحب
الرفق ويحل به كنفه الأمين ، وفي الحض على ذلك يقول وهو أصدق القائلين
« واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » وبرحمته سبحانه بسط لعباده النعماء ،
وبرأفته كشف عنهم العناء ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : إنما يرحم الله من
عباده الرحماء .

وقد اتصل بنا - وفقكم الله تعالى - أن من لا يتق الله ولا يخشاه ، ولا يراقبه
في كبيرة يغشاها وتغشاها ، ولا يؤمن بيوم الحساب فيما أذاعه من المنكر وأفشاء ،
يتسلطون بأهوائهم على الأموال والأبشار ، وينتشرون بالقتل بأعراض الدنيا
أقبح الانتشار ، يستحلون حرمات المسلمين من غير حلها ، ويسارعون إلى نقض
عقد الشرع وحلها ، ويصفون الشدة والغلظة بطراً ورياءً في غير محلها ،
ويبتدعون من وجوه المظالم ما تضعف شواهي الجبال عن حملها ، ويستنبطون
من فواحش الآثام ما تذهب نفوس المؤمنين لأجلها ، ويتسببون إلى قتل
المسلمين ، فضلاً عن استباحة أموالهم وأعراضهم بتلبسات يسيئون بها ، ومزورات
يضيفونها إليهم . ينسبون لها ، وينظرون إلى اهتصام حق الله تعالى فيهم بأباطيل

يعدونها ظلماً ويحسبونها ، ويسعون في استئصال نفوسهم بكل قاطعة موجهة ، ويعيشون فيهم بكل غاضبة للقلوب منزعة ، والنبي ، صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم يقول : « من قتل عصفوراً بغير حق عبثاً ، جاء يوم القيامة وله صراخ عند العرش يقول : يا رب سل هذا فيم قتلني عبثاً من غير منفعة » ولا يلتفتون إلى عاقبته ولا ينظرون ، ولا يخرجون بأذانهم ما يفعل الله بأمثالهم ولا يخطرون « يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » . هيات هيات ، إنهم ساء ما كانوا يعملون ، تالله ليأتينهم من العقاب الأليم في أقرب أمد ما يهدم هداً ، ويجعل بينهم وبين النجاة من اشتداد الهلكة سداً ، ويتأصلهم بصواعق الانتقام فقد جاءوا شيئاً إداً . أما علموا أن الله تعالى يطلع على نجواهم ، ويوقعهم في مهاوى بلواهم ، ويلبسهم أردية سرائرهم فيما استهواهم الشيطان به واستغواهم . أما علموا أن أمر المهدي رضى الله تعالى عنه تساوى في الحق به أضعف المسلمين وأقواهم ، ألم يقل رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : « المسلمون تنكفى دماؤهم ويسعى لذمتهم أذنهم ، وهم يد على من سواهم » . لقد أمنوا مكر الله جرأة عليه وإقداماً ، وأعمت الشهوات بصائرهم إذهابا لنور الحق من نفوسهم وإعداماً ، وتالله لو تعين لنا فاعل ذلك وتشخص ، لما خرج من حياله مكروه ولا نخاص ، ولسارع إليه من أسرع عقابنا ما محوره رسمه محو الفنا ، ويكتب يديه بما قدمت من الخنا . ولقد ذكر لنا من تلك المظالم المستغرقة لأنواع المآثم ، الموبقة لأهلها حين يقرع سن الندم النادم ، أن أولياءك الخائضين في غمرات أبحرها ، المثيرين لأسباب منكرها ، الصارمين لعلق الشريعة ، القاطعين لأبهرها ، يمدون أيديهم إلى ضرب الناس بالسياط ، إبلاغاً في الانتهاء بكثرتها وإجحاشاً ، ويتسببون بذلك إلى أخذ أموال الناس لإيغالا للصدور وإجحاشاً ، وذلك أمر معاذ الله أن يرضى به مؤمن بالله ، أو يتجه إليه حق بنوع من الاتجاه ، ما أبعد العدل - أصلحكم الله تعالى - عن هذه الأمثال والأشباه .

وقد علمتم أن عادتنا فيما يستوجب الضرب أو يستحقه ، ممن يظلم الأمر الشرعى أو يعقه بحدود معلومة ، دون إفحاش ولا انتهاك ، ومواقف مرسومة تقابل كلا بمقتضى جرمه من أثيم أو أفاك .

ولقد ذكر لنا في أمر المغارم والمكوس والقبالات ، وتنجير المراسى وغيرها

ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرماً وإفكاً ، وأدناها إلى من تولاها دماراً وهلكاً ، وأكثرها في نفس الديانة عبثاً وفتكاً ، فإننا لله وإنا إليه راجعون . هل قام هذا الأمر العالى ، إلا لقطع أسباب الظلم وعلقه ، وسد سبيل الحق وطرقه ، وإجراء العدل إلى غاية شأوه وطلقه . اللهم إنا نشهدك أن سبيلنا سبيلك ، وإنا نستعينك بما استعاذك منه محمد رسولك . روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أعوذ بالله من المغرم والمأثم » تنبيهاً على ما في أغرام الناس من الظلم المظلم . ولئن نقل إلينا - والله الشاهد - أن نوعاً من هذه الأنواع المحرمة أو صنفاً من تلك الأصناف المظلمة ، يتولاه أحد هنالك من البشر أو يأمر بشيء من ذلك الفعل المستنكر ، لنعاقبه بمحو أثره عقاباً يبق [عظة] لمن اتعظ ، وعبرة لمن تنبه لزاجر الحق واستيقظ .

وإن من ذلك رأى الذميمة والسعى المنقوم ، ما ذكر لنا في أمر المسافرين ، الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم وعمارتها ، والطوائف المارة على البلاد لمعنى تجارتها ، يتسبب إليه قوم من هؤلاء الظلمة الدخلاء ، الذين يضعون الغش طي ما يوهمون به من النصيحة ، ويستنبطون المكر في تصرفاتهم القبيحة ، فيقولون للرجل منهم عندك من حقوق الله كيت وكيت ، وإن للمخزن جميع ما به أتيت ، ويقرنون بهذا من الوعيد والإغلاظ الشديد ، ما يرضى له المذكور بالخروج عن جملة ماله ، ويعتقد السلامة من ذلك الظالم الغاصب أعظم منالة ، وإنها لداهية عاقرة ، قاصمة للظهر فاقرة ، ويا عجباً لكم معشر الطلبة والشيوخ وكافة الموحدين ، فإنكم بذلك مطلوبون ، وما حجتكم وما أنتم على حق ، كيف تنكيف هذه الكبائر وأنتم للأمور هنالك رصد ، أم كيف تجري هذه الظلمات وقد قام للحق أود ، أم كيف تكون الدماء على هذه الصورة تسفك والحرمان تنهك ، ولا يمتعض لذلك منكم أحد ، كلا ليعاقبن كل من جنى ، وليظهرن ما قصد القاصد وما عنى ، وإن من وراء قولنا لتتبعنا يبحث عن ذلك ويمحص ، ونظراً يفرق بين المشكل منه ويخلص .

ولاشك - والله أعلم - في أن أسباب تلك المنكرات ، ودواعي تغير تلك الأحوال المتغيرات ، قوم يتوسطون بينكم وبين الناس ، ويقولون ما لا يفعلون ذهاباً إلى التدليس عليكم والإلباس ، ويجعلون النفير بالظلم والعدوان بدلا من العقل والقول الجميل والإيناس ، وذلك لغيب المباشرة ومباينتها ، وبعدكم عن

مشاهدة الأمور ومعاينتهما ، والتحجب عن مطالعة الأمور داعية كبرى لفسادها واختلالها ، وسبب قوى فى انتقاضها وانحلالها ، وفرصة لوسائط السوء بأنهما كها فى البواطل واسترسالها ، فلا تكلوا النظر فيها إلى أحد سواكم ، ولا تبتعدوا بغلظ الحجاب عما قصدكم من الخير ونواكم ، وباشروا الأحكام هنالك مباشرة المتعهد المتفقد ، وعليكم بالتواضع لأمر الله تعالى وترك الاستعلاء المتنقد ، وتحفظوا فى جانب المسلمين من كل خفيف المقال ، كثير الاضطراب فى الباطل والانتقال ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال ، وتثبتوا وفقكم الله تعالى فى الأحكام ، التى لابد لكم من النظر فيها تثبت الحث [البحث] عن حقائق الأمور والاستقصاء ، وتعهدوا الناس بالتحذير من اللدد فى الخصام وبالغوا فى الإيضاء .

ولانظنوا أن الاجتهاد فى الأمور يؤدى إلى الهجوم عليها والافتحام ، ويخرج النظر عن التثبت فى القضايا والأحكام ، فاذهبوا فيها مذهباً وسطاً ، واقصدوا الاعتدال مقصداً مقسطاً ، ولا تتجهدوا فى شيء لاتعلمون فيه حكماً ، وشاورونا فيما يخفى عنكم وجهه ، لنرسم لكم فيه رسماً ، فليس كل مجتهد مصيباً برأيه ، ولا كل هاجم على رأى منجحاً فى سعيه ، وبين طرفى الأحوال واسطة جميلة فيها معقد السياسة ومناطها ، وخير الأمور — قال عليه الصلاة والسلام — أوساطها .

وعليكم أن تبحثوا بغاية جدكم عن أولئك المسيبين لتلك القبائح ، الساعين فى صد ما يرضاه الله تعالى من المصالح ، وتعرفونا بهم بعد تثقيفهم ، لنشرد بهم من خلفهم ، ونكف بعقابهم نوعهم الظالم وصنفهم ، وقد استخرنا الله ، فى سد تلك الذريعة ، وصد تلك الأفعال الشنيعة ، فرأينا أن ترفعوا إلينا أحكام المذنبين للكبائر ، وتعلمونا بنبا كل من ترون أنه يستوجب القتل بفعله الخاسر ، دون أن تقيموا الحمد عليه ، أو تبادروا بالعقاب إليه ، ولا سبيل لكم إلى قتل أحد من كل من هو فى بلاد الموحدين وأنظارهم ، ومن هو منهم وداخل فى مضمارهم ، وكل من ترون أنه يستوجب القتل ، ممن يريد المكر فى أمر الله تعالى والختل ، فعرفونا بجلية أمره وتصحيحه ، وخاطبونا بميز أمره ومشروحه ، لينفذ فيه من قبلنا ما يوجه الحق ويقتضيه ، ونمضى فى عقابه ما ينفذه الشرع ويمضيه ، فإياكم من مخالفة أمرنا هذا فى قتل أحد ممن ذكرنا كائناً من كان ، كبر ذنبه عندكم أو هان ، ولتبادروا

إلى أعلامنا بذنبه بعد سجنه وتثقيفه ، لنقابله بما نراه ، ونجربى الحق في مجراه .
 وأنه أعلمنا بأن من يرضى بتلك الفواحش بما يرضاه ويستبيحها ، ولا يزال
 أحسن الفعل فيه أم قبيح ، يبتاع المرأة ويبيعها دون استبراء ، ويعبث في ذلك
 بكل إقدام على الله تعالى واجترأ ، ولا يتحفظ من موقعة الزنا المحض ، ومخالفة
 الواجب مع الفرض ، وأن في ذلك من اطراح ما أمر الله تعالى به من اتباع الشرع ،
 وإفساد الأصل من السنة والفرع ، ما لا يحل سماعه ، ولا يستقر بنفس مؤمنة
 استطلاعها ، فلا سبيل لأحد ممن هنالك أن يبتاع شيئاً ممنه أو يبيع ، حتى يستأذن
 الحاكم لأمره منكم والشيوخ ، لثلا يذهب الحق في ذلك ويضيع ، ولتقدموا للنظر
 في أسواقهم من ترضون دينه وأمانته ، وتحققون ثقته وصيانيته ، فمن أبيع له
 البيع والابتياح ، أحضره الأمين المذكور ليرفع بشهادته الشك والزاع ، وتجربى
 السنة مجراها ويمتثل الأمر المطاع . وكذلك فليتوقفوا عن بيع النساء في جميع من
 تغنموه منهن في تلك الأرجاء ، حتى تخاطبونا بأصل أمرهن وكيفيته ، وتعلمونا
 من ذلك بجليته ، لرسم لكم فيه ما يكون عليه اعتمادكم ، ويجربى إليه اقتضاؤكم .
 والله الله في البحث على الحمر ، وتقديم النظر في أمرها ، فهو من أهم الأمور ،
 فإنها مفتاح الشرور ، ورأس الكبائر والفجور ، وهى رابطة أهل الحرم ،
 وجامعة أشنات الظلم . قال النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم :
 « الحمر جاع الإثم » فجدوا في طلبها في المواطن المهمة بشأنها ، واجتهدوا في إراقها
 وكسر دنائها ، واعمدوا إلى السبب الذى يؤدى إلى التمكن منها ، فارعوه ،
 والخطوه ، واطرحوا الإغفال لذلك والفظوه ، وقدموا أمناً متخيرين للتطوف
 على مواضع الترتيب ، يكون بالمحافظة على ذلك محل المكالىء الرقيب ، ولا يكن
 منهم إلا من يفرق بين الحلال ويميز ، ويعرف ما يجوز شربه ، وما لا يجوز ،
 ومروهم بالتعهد لمواضع بيع الرب واعتصامه ، وخذوهم بتوقف جدتهم على ذلك
 واقتصامه ، فما حل منه أباحوه ، وما كان غير ذلك قطعوه أصلاً وفرعاً وأراقوه ،
 (الحلال بين والحرام بين) ولقضايا الشرع نظام . قال رسول الله صلى الله
 تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : « ما أسكر كثيره فإلجعة منه حرام » .
 وإن من يسعى في نوع من أنواع الفساد ، ويستصحب الأضرار بالمسلمين
 في الإصدار والإيراد ، هؤلاء الراقصين الذين يردون بالكتب ويصدرون ، ويمشون
 فيما بيننا وبينكم وينفرون ، فإنه ذكر لنا أنهم يأخذون الناس بالنظر في كلفهم ،

ويلزمونهم في زادهم من كل موضع وعلفهم ، وهذا فعل كل فرقة منهم في سرها ، وسوء رأيهم بذلك في المخازن وغيرها ، وأن من جملة ما حكى عنهم أنهم يتألفون في الطرق جموعاً ، ويحلون بأفنية الناس حلولاً شديداً ، يكلفونهم مؤناتهم تكليف المحرم ، ويتحكمون عليهم بحكم المغرم ، حتى أنهم لا يرضون في ضيافاتهم إلا بأمن الجزر ، وناهيك بهذا الاجترأ العظيم الضرر ، فسارعوا وفقكم الله تعالى ، إلى حسم هذه العلة من أصلها ، وبادروا إلى قطع تلك العادة الذميمة وفصلها ، وتخبروا لرسائلكم إرسالا ، وانتقوا من أهل المقدرة على ذلك والثقة رجالا ، وادفعوا إليهم زاداً يقوم بهم في الحجى والانصراف ، ويقطع شأنهم من التكليف والإخلاف ، وارسعوا لهم أياماً معروفة العدد ، معلومة الأمد ، لينتهوا بها ، إلى مواقف رسائلهم ، ويوزعوها على مسافات مراحلهم ، وحذروهم من تكليف أحد من الناس ولو مثقال ذرة ، وأوعدوا من تسبب منهم إلى مسلم بمساءة أو مضرة ، والله تعالى المستعان على دفع أسباب الجور ، ونستعيز به سبحانه من الجور .

وكذلك ذكر لنا - وفقكم الله تعالى - من التحكم في الأموال ، وقلة المبالاة بالتفريق بين الحرام منها والحلال ، أن أولئك الذين ذكرت خدعهم ، ووصفت غرضهم الذميمة ومنزعهم ، يفعلون في أموال الناس ما تقدم ذكره ، وشرح فكره ، وتمتد أيديهم إلى المخازن هناك ، فيعيشون فيها ، ويتحكمون ، ويجرؤون في التعدى عليها ملء شأوهم وأنفسهم يظلمون ، فاتقوا الله تعالى فيها ، فإنها أمواله المخزونة في أرضه ، وبادروا إلى كف كل معتد وقبضه ، ولا سبيل لكم أن تنفذوا منها قليلاً ولا كثيراً ، إلا بعد استئذاننا وتعريفنا بالدقيق والجليل مما هنالك ، وهذا أمر منا لكم ، ولكل من وقف على كتابنا هذا من الطلبة والشيوخ والموحدين كافة أمراً دائماً لازماً ، سنته بالاستمرار مستظلة ، وصحته بفضل الله لا تدخلها تعله .

وقد خاطبنا بمثل ما خاطبناكم به ، جميع الطلبة الموحدين ، وكافة البلاد التي هي بالدعوة المهدية معمورة ، وبكلمة الإيمان مشرقة منيرة ، فأمرنا بجميع فصول كتابنا هذا إليكم ولسواكم شامل ، وفي كافة أقطار الموحدين نافذ عامل ، فن خالفه بوجه من وجوه الخلاف ، فقد تبين عناده وساء في العاجل والآجل ما له ومعاذه ، ومن لم يمثله ، بواجب الامتثال ، ويكف يده عما رسمناه في كافة الأحوال ، فقد تعرض لأشد العقاب وأوحاه ، واستقبل من ارتكاب النبی ما يصده الانتقام به عن سواه منحاه ، فاستصحبوا حدنا هذا استصحبا مؤيداً ،

واتخذوه في كافة أحوالكم مستنداً ومعتمداً ، وعلى كل من إلى نظرهم من أهل تلك البلاد المنتظمة في سلك التوحيد ، الآخذة بالمذهب الرشيد ، عون الأمير - أيده الله تعالى - على بسط العدل وإفاضة الكل ، ورفع العبد المثقل ، وكل أن يسلكوا في جميع تصرفاتهم سبيل الاستقامة ، ويستمروا على استعمال الحقائق والمواصلة لذلك والاستدامة ، ويتجافوا عن مواقع الظلم ، فالظلم ظلمات يوم القيامة ، وينقادوا للواجبات بداراً إليها وإسراعاً ، ويكونوا في التساعد على الصلاح كالنفس الواحدة تألفاً واجتماعاً .

ولما كان هذا الأمر عندنا - وفقكم الله تعالى - أهم أمر وأوجبه ، وأحق ما أدناه الحق وقربه ، وكان اهتمامنا به ، قد جعله على كل حالة مقدماً ، وأنفذه بأمر الله تعالى لإنفاذاً ملتزماً ، رأينا أن نجعل في كتابنا هذا علامة بخط يدنا ، وهما هي قد رفعت الإشكال رفعاً بيناً ، وأرتكم فرط اهتبالنا حقاً مبنياً ، فبادروا إلى تلقيها بالامتثال والمسارة ، وصلوا ابتدارشأنها بالمواصلة والمتابعة ، وأحضروا للاجتماع على هذا الكتاب جميع من في تلكم البلاد من الطلبة والعامل وكافة المقدمين للأعمال ، ولانقدموا أمراً من الأمور على إنفاذ جميع ما تضمنه ، والاعتماد بكل ما شرحه وبينه ، ولا تشتغلوا بشغل قبل الاشتغال بمعانيه ، وبما أمركم به على قواعده ومبانيه ، ومحاطبتنا بما يكون منكم في تلقيه ، واتباع ما ينهيه إليكم ويلقيه ، وقرأوه على الكافة أعالي المناير ، واستحضروا له وفود القبائل من البوادي والخواضر . وأسمعوا به أفصاحاً وإعلاناً ، وأشربوه قلوب الناس جماعات ووجداناً ، وأحسنوا إيصال أغراضه إليهم ، فإن الله تعالى يجزي الإحسان إحساناً .

فإذا تفرغتم من قراءته على الجماهير وبلغتم صحته بواجب التبليغ والتقرير ، فاكتبوا منه نسخاً إلى كل قبيلة من قبائل ذلك النظر ، وكل كورة من تلك الكور ، وأكثروا عليهم فيما أكدنا عليكم فيه من تقديم العمل فيه على كل الوجوه ، وامتنال مغنمه ، عل ما يحبه الله تعالى ويرتضيه ، وحذروهم من التعرض لخالفته ، فلا عذر لمن لا يقصده على الفور ويأتيه ، ونحن بمرصد التطلع والتسمع لما يكون منكم ومنهم ، لنقابل بالواجب ما يصدر عنكم وعنهم .

وقد علم الله تعالى أن غرضنا بجميع المسلمين إشفاق وحنان ، وجانبنا لهم دعة مستمرة وأمان ، ولدينا من التراؤف بهم والرفق بجانهم ، شأن لا يفارقه من فضل الله تعالى شأن ، وقد علمتم ذلك منا واختبرتموه ، وجربتموه على مر الزمان

وصبرتموه ، فلتتلقوا كل من استرعاكم الله تعالى أمره بكل طلاقة ويسر ، ولتنشروا عليهم جناح الرحمة أكمل نشر ، ولتعلموا - رعاكم الله - ان من شملته كلمة التوحيد ، في العهد القريب أو البعيد ، في مضمار واحد من العدل محمولون ، وأنكم عن كل من هنالك مستولون ، ولفظ الموحدين بيننا وبينهم جميعاً ، والحق يسلك بينهم من التناصف مسلماً مشروعا ، وقد ألفت الكلمة العلية بينهم ، فبعضهم لبعض في الخير أسوة ، وقد قال الله تعالى « إنما المؤمنون إخوة » فاعتقدوا فيهم هذا الاعتقاد الحميل ، قصداً إلى مرضاة الله تعالى وإيقانا ، وكونو عباد الله إخواناً ، وحسنوا بهم - رعاكم الله - ظناً ، وعودوهم الخير لفظاً ومعنى ، وتحلقوا معهم بحسن الأخلاق ، وقولوا للناس حسناً ، واستألفوا الناس بالتي هي أحسن ، وابذلوا لهم من المساعدة في ذات الله تعالى غاية ما يتمكن ، وأنهجوا لهم من المبرات منهجاً يبدو به مضمركم الحميل ويتبين ، وسروا بصالح عملكم وبشروا ويسروا - كما قال عليه الصلاة والسلام - ولا تعسروا وسكنوا ، ولا تُنفروا .

واعلموا أن السعى في هذا الغرض واجب ، والاعتماد في رفع ذلك المانع الحاجب ، لا يتأتى لكم جملة واحدة ، حتى تكون نفوسكم متألفة عليه متساعدة ، وتعاونوا على مرضاة الله تعالى تعاوناً يجمع في الصلاح آراؤكم ، ويضمن التجمع التام لكم ولبن وراءكم ، فعليكم بالمظافرة ، والمناصرة والموازرة ، فهي سواعد السعد وقواعد الود ، وشيم الكرام المحافظين للعهد ، وبها يعمر محل الرضا ونديه ، وبه أوصى الله تعالى ورسوله ومهديه .

وقد نصحننا لكم فاقبلوها نصيحة ، قصدت في ذات الله تعالى قصدها ، وذكرنا لكم بهذه التذكرة ، فاستقبلوها رشدًا ، ونهناكم تنبيهاً بالغاً وللحال ما بعدها ، جعلنا الله وإياكم ممن امتثل أمره المطاع بخالص نيته ، وأفرغ الرحمة على قالب سجيته ، وحفظ ما استرعاه الله تعالى ، فكل راع مشول عن رعيته . وكان مما بعثنا - وفقكم الله تعالى - على تنبيهكم وإذكاركم ، وإيقاظكم للنظر في تلك المصالح وإشعاركم ، ما ألفتناه بحضرة مراکش - حرسها الله تعالى - من بعض تلك الأنواع ، مما أحدثه فيها بعض أهل الابتداع ، كنوع القبالة ، وما يجري مجراها في وجوب الإزالة ، والإحالة ، فإننا كنا لا نبحت عن ذلك ، لتخليتنا أنه لا يجروا أحد أن يسلك في هذا الأمر الذي أظهره الله تعالى تلك المسالك ، فلما كان الحث

— ٥٦١ —

عما يجب ، وأزال عن وجه المشاهدة ما كان يحتجب ، طلعنا على ذلك فأنكرنا ما كان نكيراً ، وأزلنا بعون الله تعالى ما كان محذوراً بالشرع محظوراً ، حتى تطهر ثوب الأمن من دنسه ، وتجلي الوجه الخالص عن ملتبسه ، واقتبس نور الحق من مقتبسه ، وجرت الأمور على ما عهدناها عليه من الاعتدال والقوام ، بحكم ما أحكمه الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه في القضايا والأحكام ، وإذا كان الافتيات في شيء من هذا ونحن على اقتراب ، فكيف الأمر فيمن هو في حكم بعد عنا واغتراب .

فانظروا هذا — وفقكم الله تعالى — نظرة أولى الأبواب ، ولتسعوا جهلكم في رفع ذلك العمل المستراب ، ولتذهبوا إلى إظهار أمر الله سبحانه ، على موجب الكتاب .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

—

فهرست الموضوعات

صفحة	
٣	مقدمة
٧	بيان عن المصادر
٢٥	تمهيد : الأوضاع العامة لشبه الجزيرة الأندلسية في عصر المرابطين والموحدين

الكتاب الأول

الدولة المرابطية في أوج سلطانها

٣٦	الفصل الأول : يوسف بن تاشفين . خواص إمارته ولامع خلاله ...
٥٧	الفصل الثاني : أمير المساميين علي بن يوسف وأحداث عصره ...
٨٦	الفصل الثالث : سقوط سرقسطة ...
١٠٥	الفصل الرابع : الصراع بين ألفونسو المحارب وبين المرابطين ...
١٠٥	١ - غزوة ألفونسو الكبرى للأندلس ...
١١٤	٢ - التعذيب والأسوار ...
١١٦	٣ - موقعة القلاعة ...
١٢٠	٤ - موقعة إفراغة ...
١٢٦	٥ - خاتمة ملك بني هود بالثغرا الأعلى ...
١٣١	الفصل الخامس : الأمير تاشفين بن علي وغزواته وأعماله في شبه الجزيرة
١٤٨	الفصل السادس : شرق الأندلس ...

الكتاب الثاني

المهدي محمد بن تومرت

والصراع بين المرابطين والموحدين

وقيام الدولة الموحدية بالمغرب

١٥٦	الفصل الأول : محمد بن تومرت، نشأته وظهوره ...
١٧٧	الفصل الثاني : الصراع بين المرابطين والموحدين - المرحلة الأولى

صفحة	
١٩٩	الفصل الثالث : عقيدة المهدي ابن تومرت وتعاليمه الدينية والسياسية ...
٢١٨	الفصل الرابع : الصراع بين المرابطين والموحدين — المرحلة الثانية ...
٢٥٤	الفصل الخامس : نهاية الدولة المرابطية في المغرب
٢٦٨	الفصل السادس : الدولة الموحدية في سبيل التوطد
٢٨٩	الفصل السابع : فتح المهدي وإجلاء الفرنج عن إفريقيا

الكتاب الثالث

ثورة القوى الوطنية بالأندلس

وتغلب الموحدين على شبه الجزيرة

٣٠٤	الفصل الأول : الثورة في الأندلس وانهيار سلطان المرابطين
	الفصل الثاني : عبد المؤمن وشتون الأندلس وافتتاح إشبيلية وقرطبة
٣٢٤	وغرناطة وألمرية
٣٥٣	الفصل الثالث : الثورة في شرق الأندلس وظهور محمد بن سعد بن مردنيش
٣٧٣	الفصل الرابع : أعوام عبد المؤمن الأخيرة ، وفاته وخلافه

الكتاب الرابع

نظم الدولة المرابطية وخواص العهد المرابطي

٤١٠	الفصل الأول : طبيعة الحكم المرابطي وأوضاعه العسكرية والإدارية والمالية
	الفصل الثاني : الحركة الفكرية الأندلسية خلال العهد المرابطي
٤٣٨	القسم الأول
	الفصل الثالث : الحركة الفكرية الأندلسية خلال العهد المرابطي —
٤٥٥	القسم الثاني

الكتاب الخامس

الممالك الإسبانية النصرانية

خلال العصر المرابطي وأوائل العصر الموحدى

٤٧٦	الفصل الأول : ألفونسو المحارب وأوركا ملكة قشتالة
	الفصل الثاني : الممالك الإسبانية النصرانية في عصر القيصر ألفونسو
٤٩٢	ريمونديس وقيام مملكة أراجون الكبرى
٤٩٣	١ — وفاة ألفونسو المحارب وولاية أخيه الراهب راميرو

صفحة

- ٢- اتحاد أراجون وقطلونية ٤٩٩
 ٣- غزوات القيصر ألفونسو ريمونديس وحروبه ٥٠٢
 ٤- أعوام القيصر الأخيرة ووفاته ٥١١
 ٥- قشتالة بعد وفاة ألفونسو ريمونديس ٥١٥
 ٦- قيام جماعات الفرسان الدينية ٥١٨
 الفصل الثالث : قيام مملكة البرتغال وبداية عصر ملكها ألفونسو هنريكيث ٥٢١

وثائق مرابطة وموحدة

- ١ - رسالة الإمام الغزالي إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ... ٥٣٠
 ٢ - رسالة الوزير الكاتب ابن شرف إلى أمير المسلمين في فتح أقليمش ٥٣٣
 ٣ - رسالة قاضي سرقسطة والجمهور فيها إلى الأمير أبي الطاهر تميم
 ابن يوسف حينما حاصرها ابن رذمير ٥٣٨
 ٤ - رسالة كتب بها أمير المسلمين إلى الأمير أبي محمد بن أبي بكر
 بهزيمة القلعة ٥٤١
 ٥ - رسالة لأمر المسلمين إلى الفقيه القاضي وسائر الفقهاء والوزراء
 والأعيان والكافة ببلنسية ٥٤٣
 ٦ - رسالة لأمر المسلمين إلى المذكورين مجاباً لهم بهزيمة ابن رذمير
 إياهم في القلاعة ٥٤٤
 ٧ - رسالة وجهها أمير المسلمين على بن يوسف بتقريع قادته وجنده ٥٤٥
 ٨ - رسالة لأبي عبد الله بن أبي الخصال عن بعض المرابطين إلى
 أمير المسلمين على بن يوسف ٥٤٧
 ٩ - رسالة موجهة من أمير المسلمين تاشفين بن علي بن يوسف إلى
 الفقهاء والوزراء والأخبار والكافة ببلنسية ٥٤٨
 ١ - صيغة التوحيد التي وضعها المهدي لأتباعه ٥٥١
 ٢ - رسالة الخليفة عبد المؤمن بن علي. أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر
 وعدله ونهجه مناهج الحق وفضله ٥٥٢

فهرست الشعر والشعرا

صفحة

٥٤	: ملك الملوك وما تركت لعامل	رثاء يوسف بن تاشفين
١٢٥	: شممت برديك لما أسيل الموافي	أبو جعفر بن وضاح المرسى
١٣٨	: أنا وبيض الهند عنك خصوم	
١٣٩	: يا أيها الملأ الذى يتقنع	أبو بكر بن الصيرفى
٢٢١	: تكاملت فيك أو صاف خصصت بها	المهدى ابن تومرت
٢٧١	: فتح تفتح أبواب السماء له	
٢٩٦	: ما هز عطفيه بين البيض والأسل	أبو العباس التيفاشى
٣٣٠	: وما تدفع الأبطال بالوعظ عن حمى	أحمد بن قسى
٣٣١	: لئن غض منك الدهر يوماً بأزمة	ابن المنذر
٣٥٠	: قل للإمام أطال الله مدته	مروان بن عبد العزيز
٣٥١	: فعفوا أمير المؤمنين فن لنا	أبو جعفر بن عطية
٢٦٨	: أكر على الكتبية لا أبالي	ابن مردنيس
٣٨٤	: بلغ الزمان بكم ما أملا	أبو عبد الله بن حبوس
٣٨٤	: ما للعدى جنة أوق من الحرب	القرشى المعروف بالطليق
٣٨٤	: لوجئت نار الهدى من جانب الطور	ابن غالب الرصافى
٣٨٥	: تكلم فقد أصغى إلى قولك الدهر	أحمد بن سعيد
٤٠٣	: هو الفتح لا يجلو غرائب الشرح	الخليفة عبد المؤمن
٤٥٢	: من يشتري منى الحياة وطيبها	أحمد بن سعيد
٤٥٢	: أتانى كتاب منك يحسده الدهر	
٤٥٣	: رحلوا الركائب موهنا	محمد بن عبد الرحمن الجراوى
٤٥٤	: قدر الله وساق الخناس	عبد الملك بن قزمان
٤٥٤	: وعريش قد قام على دكان	
٤٦٥	: وبين ضلوعى للصبابة لوعة	أحمد بن حسن الجراوى
٤٦٦	: سلوا عن الشوق من أهوى فإنهم	أبو العباس بن العريف

صفحة		
٤٦٧	: نجاف عن الدنيا وعن برد ظلها ...	ابن المتخل الشلي
٤٦٩	: أسير الخطايا عند بابك واقف ...	أبو العباس بن الأتليشي
٤٦٩	: أخو العالم حي خالد بعد موته ...	ابن السيد البطليوسي
٤٦٩	: سقى عهدهم بالخيف عهد غائم ...	
٤٧١	: سلام وإلزام ووسمى مزنة ...	الفيلسوف ابن باجه
٤٧١	: ضربوا القباب على أقاصى روضة	
٤٧٢	: سكنتك يا دار الفناء مصدقا ...	ابن أبي الصلت
٤٧٣	: يا راشقى بسهام ما لها غرض ...	أبو العلاء بن زهر

فهرست الخرائط والصور

٩١	الثغر الأعلى وما يليه - مواقع حروب المرابطين والنصارى
١٠٩	خط سير الذهاب والعودة لغزوة ألفونسو المحارب للأندلس
		مواقع غزوات المرابطين التي قام بها على وتاشفين في أراضي قشتالة والبرتغال
١٣٧	
١٨١	المغرب - البلاد ومنازل القبائل عند بداية الدولة الموحدية
١٨٧	أسوار مراکش وأبوابها في عهد المرابطين
١٩٧	محراب جامع المهدي وإحدى واجهات الجامع
٢٣٩	المغرب - موقع غزوة عبد المؤمن الكبرى
٢٨٣	إفريقية - مواقع غزوات عبد المؤمن لافتتاح بجاية والمهدية
٣٧٩	جبل طارق وبر العدة
٣٨٣	منظر جبل طارق من البر الإسباني
٣٨٣	بقايا الحصن الأندلسي أعلى الصخرة
٥٠٣	الممالك الإسبانية النصرانية في عهد القيصر ألفونسو ريمونديس

